القرن البديع





ولي أمر الله
شوقي أفندي رباني

القرن البديع

God Passes By

طبعة جديدة منقّحة

نوروز ١٥٩ بديع

آذار ٢٠٠٢ م

من منشورات دار النشر البهائية في البرازيل

EDITORA BAHA'I - BRASIL
Rua Engenheiro Gama Lobo, 267 Vila Isabel
20.551 Rio de Janeiro/ RJ, Brazil

القرن البديع

God Passes By

من آثار قلم
حضرة ولي أمر الله
شوقي أفندي رباني

ترجمة
الدكتور السيد محمد العزاوي

تعريف

إن هذا الكتاب الذي ينشر الآن مترجماً إلى اللّغة العربية كتبه حضرة شوقي أفندي رباني ولي أمر الله باللغة الإنجليزية، وذلك في مناسبة مرور قرن واحد على ظهور الأمر البهائي. وفيه سرد بقلمه المبارك أهم الوقائع والأحداث التاريخية للظهور، وسجل مدارج تطوره منذ بزوغ فجره في ٢٣ أيار ١٨٤٤م حتى عام ١٩٤٤م. ويضم الكتاب بين دفّتيه ما يُغني ذهن القارئ الذي يودّ أن يلمّ بكيفية نشوء الأمر البهائي وحقيقة تاريخه الحافل بالمآسي والاضطهادات من جهة، وسريان تعاليمه في فترة قرن واحد من جهة أخرى.

أمضى حضرة ولي أمر الله مدة عام واحد يجمع فيه المواد اللازمة، المخطوطة منها والمطبوعة، لتدوين هذا السفر الجليل، وراجع أكثر من مائتي كتاب ورسالة باحثاً ومحققاً لجمع المعلومات التي أوردها في أثره هذا، واختار ما رآه من الأحداث التي تواتر نقلها تاريخياً وذلك في بحر عام واحد آخر. وبينما كان منهمكاً في تدوين هذا الكتاب طيلة هذين العامين، كان مشغولاً في الوقت نفسه ببناء ضريح لحضرة الباب على سفح جبل الكرمل، ويعدّ العدة أيضاً لإقامة احتفالات لائقة في مناسبة نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للأمر المبارك في مجتمعات العالم البهائي بأسره. وكذلك كان محاطاً بالرسائل المنهمرة عليه من كل حدب وصوب في أنحاء هذا العالم استهداء واسترشاداً حول مختلف المسائل الروحانية والاجتماعية والإدارية المتعلقة بالبهائيين أفراداً أو مجتمعات، وبخاصة تلك الرسائل التي ترد إليه بغزارة في شأن كيفية إحياء الاحتفالات المذكورة. هذا بينما كانت الحرب العالمية الثانية مستعرة آنذاك، والأماكن المقدسة البهائية في المركز العالمي مهدّدة بأخطار تلك الحرب الداهمة. في هذه الظروف تمّ صدور هذا الكتاب

النفيس عن قلم شخص وصفه حضرة عبد البهاء في كتاب وصاياه بأنه «أبدع جوهرة فريدة عصماء». والحق إنّ ما كتبه حضرة ولي أمر الله نفسه تمهيداً للكتاب في الصفحات القادمة، قبل البدء بفصوله، ليكفي كي يبين الهدف الذي من أجله بادر إلى إتحاف الجامعة البهائية العالمية بهذا الأثر الثمين الذي يعتبر من أهم آثاره الكتابية لمدة ٣٦ سنة (١٩٢١ ـ ١٩٥٧م) التي قضاها وليّاً للأمر البهائي ومبيّناً لنصوصه المقدّسة المنزلة من قلمِ كل من حضرة الباب وحضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء، وخلّد بذلك مجلدات ضخمة في حقل ترجمة تلك الآثار المقدسة إلى الإنجليزية، وخط قلمه المبارك رسائل كثيرة حول تعاليم الأمر البهائي والنظم البديع، وردّ على ألوف مؤلفة من رسائل أفراد البهائيين والمحافل الروحانية المركزية والمحلية المنتشرة في ربوع الكرة الأرضية، إجابة عن أسئلتها حول ما أشكل فهمه من النصوص المقدّسة الإلٰهية التي تركها مؤسسو هذا الأمر الكريم.

* * *

قام بتعريب هذا الكتاب القيّم المتصاعد إلى الله الدكتور محمّد العزّاوي (١٩٢٠ ـ ١٩٧٦م) خرّيج جامعة القاهرة بعيد نشره في عام ١٩٤٥م وانكب على إكمال عمله الشاق التاريخي العظيم هذا سنوات عدة، بذل فيها جهداً جباراً لنقله إلى العربية وللحصول على أصول كثيرة من النصوص المنقولة في ثنايا الكتاب لكل مناسبة، تلك النصوص التي نزلت في الأصل بالعربية أو الفارسية، فثبّت النصوص العربية الأصلية التي عثر عليها كما هي، ونقل النصوص الفارسية. منها إلى العربية إذ كان المغفور له ضليعاً أيضاً في اللغة الفارسية، وبذلك استطاع أن يهدي المكتبة البهائية العربية هذا الكتاب الفريد الذي طالما انتظر البهائيون نشره بلهفة واشتياق.

* * *

تمّت مقارنة الكتاب المترجم بالنص الإنجليزي بواسطة لجنة بدقّة وإمعان. ولما لم يستطع المترجم العثور على أصول كافة النصوص المنقولة،

سعت اللجنة سعياً حثيثاً إلى تحقيق هذا الغرض وحصلت على كثير منها، فثبتت الأصل العربي منها كما هي ونقلت ما كانت أصلاً باللغة الفارسية إلى العربية، ومع ذلك بقي قسم من النصوص المنقولة دون العثور على أصولها فعرّبت عن النص الإنجليزي. بناء على ذلك، وتمييزاً بين ما هو المعرّب وما هو الأصل، ينبغي التنبيه إلى أن كل نص ورد بين قوسين دون أية علامة هو النص العربي الأصلي، أما ما ورد بإزائه نجمة واحدة بجانب قوسيه فهو معرّب عن اللغة الفارسية، وأما ما وضع بجانب قوسيه نجمتان فهو معرب عن النص الإنجليزي. كما يجب التوضيح أن ما نقل بخط عريض طي نص معرّب فهو عربي في الأصل.

هذا، وبالرغم من الدقّة المتناهية التي بذلت في سبيل مراجعة هذه الترجمة وتنقيحها من قبل المترجم أو بواسطة لجنة المراجعة، فإن المجال لا يزال مفتوحاً لمراجعة هذه الترجمة مستقبلاً.

الناشر

تمـهيـد

في الثّالث والعشرين من شهر أيّار من هذه السّنة المباركة (١٩٤٤م) يحتفل العالم البهائيّ بالعيد المئوي لتأسيس دين حضرة بهاء الله. وهذا العيد يخلّد الذّكرى المئويّة لكلّ من الدّورة وافتتاح الدّور البهائيّ وبداية كوره ومولد حضرة عبد البهاء في وقت واحد. والواقع أن التّأمّل في ضخامة الطّاقات الكامنة في هذا الدّين الفريد في تاريخ العالم الرّوحيّ، والّذي يشير إلى ختام دورة الأنبياء الكلّيّة، ليصيب الرّؤوس بالدّوار. وإنّ تدقيق النّظر في سناء المجد الألفيّ الّذي سوف يسطع في تمام الوقت ليغشى العيون ويبهر الأنظار. أمّا عظمة الظّلّ الّذي سوف يستمرّ مؤسّسه يلقيه في جلال على مظاهر أمر الله المتعاقبين الّذين يُبعثون من بعد، فأمر يفوق كلّ حساب وتقدير.

ففي فترة لا تزيد على قرن واحد من الزّمان أخذت العمليّات الغيبيّة الّتي ولّدها روح الدّين الخلاّق تثير في المجتمع البشريّ هيجانًا لا يمكن لعقل أن يسبر غوره. وبالرّغم من أنّه مرّ بفترة الحضانة في مرحلته البدائيّة إلاّ أنّه أهاج بفضل بروز نظامه المتبلور ببطء في حياة الإنسانيّة العامّة تخمّرًا يهدف إلى تقويض أسس المجتمع المضطرب وتنقية دمائه وإعادة توجيهه وبناء مؤسّساته وتشكيل مسيره من جديد.

وإلاّ فإلى أيّ شيء آخر يمكن للعين المدرّبة والعقل المنصف الواقف على العلامات والإشارات المبشّرة بميلاد دين حضرة بهاء الله والمسايرة لنهضته أن يرجعا هذا الانقلاب العالميّ العنيف بكلّ ما يصاحبه من خراب وشقاء وفزع، إن لم يكن إلى بروز نظامه العالميّ الجنين الّذي قال بشأنه حضرة بهاء الله "قد اضطرب النّظم من هذا النّظم" وإلى أيّ عامل آخر يمكن

للإنسان أن يرد أصول هذه الأزمة الهائلة التي لم يسبق لها مثيل ولا نظير في تواريخ الجنس البشري جميعاً، إن لم يكن إلى التدفق القاهر الغلّاب لفيوضات ذلك الروح الذي يزعزع العالم ويقويه ويفتديه في وقت واحد، وهو الروح الذي أكّد حضرة الباب أنه «قد تلجلج في حقيقة الكائنات»؟ ولسنا بحاجة إلى بذل جهد كبير لكي ندرك بسهولة أن هذه الفترة التي تلقت صدمة ظهوره ووقع إلهامهِ وتجاهلت دعوته ورسالته تعاني آلام المخاض، وأنها تجاهد الآن لكي تضع حملها كنتيجة مباشرة للدافع الذي تلقته من تأثير روح المظهر الإلهي المحيي المطهّر المحوّل. فذلك يتجلى بوضوح في الظواهر التي ما زالت تزداد بروزاً وخطورة منذ نشبت الحرب العالمية الأولى التي سبقت عصر التكوين لدين حضرة بهاء الله مباشرة؛ من مثل تشنّج المجتمع المعاصر، وغليان أفكار الناس في جميع أرجاء العالم بصورة محمومة جامحة والأحقاد الضارية التي تشتعل نيرانها بين الأجناس والعقائد والطبقات، وتهشّم سفينة الأمم، وسقوط الملكيات وتمزّق أوصال الإمبراطوريات، وانقراض الأسر المالكة، وتداعي المؤسسات الدينيّة، واضمحلال النظم العريقة، وتلك الروابط الدينية والدنيويّة التي طالما ربطت بين أفراد الجنس البشري.

إن غايتي في عيد مئوي له كل هذا المغزى العميق هي أن أحاول ـ في الصفحات التالية ـ إلقاء نظرة شاملة على الأحداث البارزة في هذا القرن الذي شهد هذا الروح يفيض على العالم، كما شهد المراحل الأولى لتجسده في خطة تتطور إلى نظام يراد له أن يحتضن الجنس البشري جميعاً، ويحقق المصير السامي الذي ينتظر الإنسان على هذا الكوكب. وسوف أبذل جهدي لكي أستعرض الوقائع التي تبسطها أمام أبصارنا حقبة مائة عام فريدة في المجد والاضطراب، وأضعها في ملابساتها الصحيحة رغم أنّ الفاصلة التي تفصل بيننا وبينها قصيرة نسبياً. وسوف أجتهد في أن أقدّم وأربط ـ ولو بسرعة ـ تلك الحوادث الخطيرة التي عملت باستمرار ودأب وسكون على مرأى ومسمع من الأجيال المتعاقبة الضالة وغير المكترثة أو المعادية على أن

تحوّل فرعاً مختلف العقيدة هين الأمر في الظاهر من فروع فرقة الشيخية من طائفة الشيعة الإثني عشرية الإسلامية إلى دين عالمي يتّحد أتباعه الذين يفوقون الحد والحصر اتحاداً عضوياً متيناً، ويعمّ نوره الأرض من إيسلندا شمالاً حتى مضيق ماجلان جنوباً، وتنتشر فروعه فيما لا يقل عن ستين دولة من دول العالم، وتترجم كتبه وتنتشر في ما لا يقل عن أربعين لغة، وتقدّر قيمة أوقافه المحليّة والمركزية والعالمية في قارات العالم الخمس بملايين الدولارات، وتحظى هيئاته المنتخبة المسجّلة بالاعتراف الرسمي من جانب العديد من الحكومات في الشرق والغرب، وينضمّ إليه الأتباع من الأجناس والجنسيّات المتباينة وامّهات ديانات البشر؛ ويوجد ممثّلوه في المئات من مدن إيران والولايات المتحدة، وتشهد بصحة حقائقه إحدى الملكات في شهادات علنية متكرّرة، ويعلن استقلاله أعداؤه من صفوف دينه الوالد (الإسلام) في قلب العالم العربي والإسلامي (مصر) ويدلّلون عليه، ويتم الاعتراف به بصورة تخوّله أن يحتلّ مقام الدين الرابع في الأرض التي تأسّس فيها مركزه الروحي العالمي (فلسطين) وهي قلب العالم المسيحي وقدس أقداس اليهود، وأقدس بقعة عند المسلمين بعد مكّة المكّرمة في آن واحد.

وليس من غايتي ولا ممّا يتطلّبه المقام أن أكتب تاريخاً مفصّلاً لهذه السنوات المائة الماضية من حياة الدين البهائي، كما أنني لا أنوي أن أتقصّى أصول هذه الحركة الضخمة، ولا أن أصوّر الظروف التي ولدت فيه أو أفحص طبيعة الدين الذي نبتت منه، أو أتوصّل إلى تقدير الآثار التي أحدثها وقعها على مصائر الجنس البشري. ولكنني سوف أقنع باستعراض الملامح البارزة لميلاد هذه الحركة ونهضتها والمراحل الأولى لإقامة مؤسساتها الإدارية التي تعتبر نواة وبشيراً لذلك «النظام العالمي» الذي لا بد وأن يجسّد روح دين الله، ويجري شرائعه وينفذ أحكامه ويحقق هدفه في يومنا هذا.

على أنني عند استعراضي للمنظر العام الذي تبسطه أمام أبصارنا دورة المائة عام لا أنوي أن أتجاهل النسيج السريع الذي تم بين النكسات الظاهرة

والانتصارات الباهرة وهو النسيج الذي اختارت يد العناية الإلهية الغيبية أن تصنع منه قماش هذا الدين منذ أيّامه الأولى، ولا أن أهوّن من شأن الكوارث التي كثيراً ما أثبتت أنها مقدّمات لانتصارات جديدة تساعده بدورها على النمو وتثبيت دعائم إنجازاته السابقة. والواقع أن تاريخ السنوات المائة الأولى يتحلّل إلى سلسلة من الأزمات الداخلية والخارجية التي تختلف في شدّتها ومدّتها وتتّفق في آثارها المدمّرة المباشرة، إلا أن كل أزمة منها كانت تطلق بصورة غيبيّة مقداراً ملائماً من القوّة الإلٰهية التي تدفعه من جديد إلى التقدم والتفتّح. وكان هذا التفتّح الجديد يولد بدوره كارثة أعظم يتلوها انطلاق مقدار أكبر من العناية الإلٰهية تمكّن أتباعه من أن يتقدموا إلى شوط أبعد ويحققوا له انتصارات أشد وقعاً وإلزاماً.

ويمكن أن يقال إن القرن الأول من الدور البهائي ينسحب في أعرض معالمه على العصر البدائي البطولي الرسولي لدين حضرة بهاء الله، وعلى المراحل الأولى من عصر التكوين الانتقالي الحديدي الذي يشهد تبلور وتشكّل القوى الخلاقة التي أطلقها ظهوره. ولو جاز القول يمكن أن يقال إن السنوات الثمانين الأولى من هذا القرن قد انسحبت على العصر الأوّل بأكمله على حين شهدت سنواته العشرون الأخيرة بداية العصر الثاني. ذلك لأن العصر الأول يبدأ بإعلان حضرة الباب دعوته، ويشمل عهد حضرة بهاء الله كله، وينتهي بصعود حضرة عبد البهاء. أمّا العصر الثاني فيبدأ بألواح الوصايا التي تحدّد طبيعته وتضع أساسه.

ومن ثم فالقرن الذي نستعرضه يمكن أن يعتبر منقسماً إلى أربع فترات مميّزة ومختلفة المدد، لكل واحدة منها مضمونها الخاص ومغزاها الضخم لا بل مغزاها الذي لا يمكن لعقل أن يصل إلى تقديره. وهذه الفترات الأربع شديدة الترابط، وتؤلف فصولاً متلاحقة لمرسحية واحدة محبوكة الأطراف فائقة سامية لا يمكن لفكر أن يسبر غور عقدتها، ولا لعين أن تلمح قمتها ولو في غموض، ولا لعقل أن يتكهّن خاتمتها بصورة كافية. وكل فصل من هذه

الفصول يدور حول موضوعه ويفتخر بأبطاله ويسجّل مآسيه ويرصد انتصاراته، ويسهم بنصيبه في تحقيق الغاية الواحدة المشتركة الثابتة. وهذا معناه أن عزل أي فصل منها عن الفصول الأخرى، أو استبعاد الفيوضات المتأخرة للإلهام العالمي الشامل الواحد عن الغرض الأول الذي حرّكه في أيامه الأولى يعادل هدماً للأساس الذي يقوم عليه الدين وقلباً لحقيقته وتاريخه قلباً يدعو إلى الأسف الشديد.

أما الفترة الأولى (من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٥٣ م) فتتركز حول شخص حضرة الباب الشاب اللطيف الذي لا يُقاوم، فريداً في وداعته، راسخاً في رزانته، جذّاباً في حديثه ومنطقه، فذاً فيما امتلأ به عهده القصير الحزين من المآسي الفاجعة. وهي تبدأ بإعلانه دعوته وتبلغ قمتها باستشهاده، ثم تنتهي بمجازر ومذابح دينية تثير بشاعتها الاشمئزاز والتقزز إلى أبعد الحدود. فترة قوامها تسع سنوات قصار ملئت صراعاً وحشياً لا هوادة فيه ولا رحمة؛ صراعاً اتخذ من إيران كلها مرسحاً له، وجاد فيه أكثر من عشرة آلاف بطل بأرواحهم، واشترك فيه ملكان من آل قاجار ووزراؤهما الأشرار، وناصرته طائفة الشيعة بأسرها وموارد الدولة العسكريّة برمّتها، وعدوان الجماهير بجمعهم. وأما الفترة الثانية (١٨٥٣ ـ ١٨٩٢ م) فتستمدّ إلهاماً من شخص حضرة بهاء الله الشامخ فائقاً في قداسته، مذهلاً في جلاله وقوته وقدرته، متفرّداً في إشراق مجده الفائق. وهي تبدأ بالمكاشفات الأولى التي اختلجت في نفسه إذ هو في سياه چال بطهران، وهي مكاشفات الظهور الذي بشّر به حضرة الباب، وتبلغ قمّتها بإعلان ذلك الظهور للملوك ورجال الدين، ثم تختتم بصعوده قرب مدينة السجن عكاء. فترة قوامها تسع وثلاثون سنة طوال من وحي فيّاض فريد منهمر غزير لا مثيل له ولا نظير، وهي تتّسم بانتشار الدين في البلاد المجاورة: تركيا وروسيا والعراق وسوريا ومصر والهند، وتمتاز بما يتجاوب مع نشاطها من عداء يتمثّل في الهجمات التي شنّها شاه إيران وسلطان تركيا وكانا أقوى سلطانين في الشرق دون منازع، كما تتمثّل في مقاومة رجال الدين للطائفتين الإسلاميتين التوأمين: السنّة والشّيعة. وأما

الفترة الثالثة (١٨٩٢ ـ ١٩٢١ م) فتدور حول شخصيّة حضرة عبد البهاء السّامية النابضة بالحياة غامضاً في جوهره نسيج وحده في مقامه، معجزاً في سحر خلقه وسلطانه. وهي تبدأ بإعلان عهد حضرة بهاء الله وميثاقه، تلك الوثيقة الفريدة في تاريخ الدورات الدينيّة السالفة، وتبلغ قمتها بتأكيد مركز العهد والميثاق في مدينة الميثاق لمواد تلك الوثيقة الفذّة في طبيعتها البعيدة في مداها تأكيداً شديداً. ثم هي تختتم بصعوده ومواراة جثمانه الأطهر التراب على جبل الكرمل. وسوف يسجلها التاريخ فترة قوامها ثلاثون عاماً تقريباً جدلت فيها المآسي والانتصارات جدلاً، تكسف كوكب الميثاق تارة ويسكب ضوءه على أوروبا ويمتدّ به إلى أستراليشيا والشرق الأقصى وأمريكا الشمالية تارة أخرى. وأما الفترة الرابعة (١٩٢١ ـ ١٩٤٤م) فتحركها القوى المنطلقة من وصيّة حضرة عبد البهاء؛ دستور نظام حضرة بهاء الله العالمي البديع، ووليدة الاقتران المعنوي بين ينبوع الشريعة الإلٰهية وبين عقل من هو حامل لهذه الشريعة الإلٰهية ومبيّنها. وتوافق بداية هذه الفترة الرابعة والأخيرة من فترات القرن البهائي الأوّل ميلاد عصر التكوين من الدور البهائي وتأسيس النظام الإداري لدين حضرة بهاء الله، وهو النظام الذي يقوم ـ في آن واحد ـ مقام البشير والنواة والقالب لنظمه البديع، وتتميّز هذه الفترة التي تنسحب على الأعوام الثلاثة والعشرين الأولى من عصر التكوين بنشوب عداوات أخرى ذات طابع مختلف تسرع بإفاضة نور الدين على مناطق أوسع في قارات العالم الخمس من ناحية وتؤدّي إلى تحرير كثير من المجتمعات الداخلة في حظيرته والاعتراف باستقلالها من ناحية أخرى.

هذه العهود الأربعة يجب أن تعتبر عناصر متلاحمة لشيء واحد سام، ليس هذا فحسب بل ويجب أن تعتبر مراحل متوالية في عمليّة تطورية واحدة شاملة ثابتة قاهرة. ذلك لأننا إذ نستعرض كل هذا المنظر الشاسع الذي يبسطه أمام أبصارنا نشاط دين لم يسلخ من عمره إلاّ قرن واحد، لا نجد مفراً من القول بأن أحداث هذه العهود الأربعة تقدّم لنا ـ من أي زاوية نظرنا ـ الشواهد الواضحة اللائحة على وجود عمليّة بطيئة النضج والاكتمال وحدوث تقدم

مطّرد منظم، وتماسك داخلي وتوسع خارجي وتحرّر تدريجي من قيود تقاليد الديانات الأخرى، وما ينسجم مع كل ذلك من تذليل للصعوبات وإزاحة للعقبات وتحطيم للقيود المدنيّة.

إننا إذا نظرنا إلى هذه العهود الأربعة من التاريخ البهائي على أنها مقوّمات لكلٍّ واحدٍ استطعنا أن نرى بوضوح سلسلة الأحداث التي أعلنت بنجاح بعثة مبشر وظهور موعود وعد بظهوره ذلك المبشر، وإبرام الميثاق الذي نبع عن سلطان ذلك الموعود نفسه، ثم ميلاد النظام العالمي الذي نسل عن صاحب الميثاق ومركز الميثاق المختار، ونلاحظ كيف أن حضرة الباب المبشّر أعلن اقتراب قيام النظام الإلهي التقدير، وكيف أن حضرة بهاء الله الموعود صاغ أحكامه، وكيف أن حضرة عبد البهاء ـ مركز الميثاق المختار ـ بيّنه ورسم معالمه، وكيف أن الجيل الحاضر من أتباعهم بدأوا يشيدون هيكل مؤسساته، ونلمح نور الدين الجديد كيف فاض في غضون هذه العهود الأربعة من مهده إلى الهند والشرق الأقصى شرقاً وإلى الأقطار المجاورة غرباً كالعراق وتركيا وروسيا ومصر، وكيف مضى بعيداً إلى أمريكا الشمالية، ثم أضاء بعد ذلك أمهات بلدان أوروبا، وغلّف بسناه القارة الأستراليّة في فترة لاحقة، وانسكب على حواشي القطب الشمالي، ثم سطع أخيراً على آفاق أمريكا الوسطى والجنوبية. ونشاهد ما ساير ذلك من ازدياد تباين الملل والنحل والعناصر والأجناس الداخلة في حظيرته وهي التي كانت في فواتح التاريخ لا تضم سوى فئة مغمورة من الأتباع الذين انضموا إليه من عامة أهل إيران الشيعية، فإذا بها تتحول إلى رابطة إخاء تمثل طوائف من أمّهات الأديان العالمية وتضم معظم الطبقات والأجناس والألوان، وتحتضن العامل المتواضع والشخصية الملكية الرفيعة على السواء، ونلمح تقدماً مماثلاً في مدى انتشار كتبه، وهي الكتب التي كانت أول أمرها محصورة في نطاق ضيّق من المخطوطات التي كانت تستنسخ على عجل مشحونة بالأخطاء في الغالب ليتداولها قارئوها في الخفاء ويطالعوها خلسة وعلى وجل. وكانت تمحى في أغلب الأحيان بل ويلتهمها أحياناً الخائفون الهلعون من أفراد

الطائفة المظلومة المقهورة. فإذا بها تصدر خلال قرن واحد من الزمان طبعات منها لا حصر لها ولا عدّ، تتألف من عشرات الألوف من المجلّدات، وتطبع بشتّى أنواع الطباعة، في ما لا يقل عن أربعين لغة طبعات أنيقة بل وفاخرة في بعض الأحيان، وتوزّع في جميع أنحاء العالم بقوة وانتظام بفضل اللجان والمحافل العالمية التي أحكم تنظيمها وتشكيلها. وندرك تطوّراً لا يقلّ وضوحاً في نطاق تعاليمه؛ فقد كانت في أوّل الأمر جامدة معقدة قاسية عن عمد، ثم أعيد صبّها في قالب آخر وتوسّعت وتحرّرت في ظلّ الدورة التالية، ثم وضّحها وفسّرها المبيّن المختار وأكدها من جديد ووسّعها، وأخيراً رتبت وبوّبت وطبقت على الأفراد والهيئات على المستوى العالمي. ونستطيع كذلك أن نستكشف تدرجاً لا يقل بروزاً في طبيعة المقاومة التي كان على هذا الدين أن يواجهها، فقد كانت في بدايتها قاصرة على طائفة الشيعة وحدها، وازدادت قوتها في مرحلة متأخرة بإخراج حضرة بهاء الله من دياره إلى أراضي سلطان تركيا، ومن ثم انتقلت إلى أهل السنة الأقوى وخليفتهم الذي كان رأس الأغلبية الساحقة من المسلمين. وازدادت عنفاً حتى بات من المحتمل أن تضم إليها الحكومات القائمة في العالم المسيحي، والهيئات الدينية العتيقة والراسخة الجذور بعد أن شاهدت نهضة النظام الإلهي المختار وأحسّت بداية وقعه على المؤسسات الدينيّة والمدنيّة في الغرب. وفي الوقت نفسه نستطيع أن نستبين ـ خلال لهيب تلك العداوة التي ما زال مداها يتسع أكثر فأكثر ـ تقدم بعض المجتمعات الداخلة في حظيرته تقدماً دائباً، وإن كان بطيئاً مؤلماً، ينتقل بها من مراحل الغموض والانغمار، فالقهر والحرمان من الحقوق إلى مرحلة الانفصال عن الأديان الأخرى، فالاستقلال والتحرير والمساواة في الاعتراف الرّسمي، وهي مراحل تبلغ ذروتها خلال القرون القادمة بفضل إقامة الدين وتأسيس «الجامعة البهائية العالمية» في تمام قوتها وسلطانها. ويمكننا أن نستبين كذلك تقدماً لا يقل شأناً في نهضة مؤسساته، سواء منها المراكز الإدارية أو دور العبادة، وهي المؤسسات التي كانت في أوائل التاريخ سريّة وخفيّة، ثم أخذت تبرز بصورة غير ملحوظة إلى العلانية

في وضح النهار، والاعتراف الرسمي وحماية القانون، كما أخذت تعززها الهبات والأوقاف. وقد خلع عليها النبل في بداية الأمر تشييد مشرق الأذكار في عشق آباد (مدينة العشق)، وهو أول المعابد البهائية، ثم خلّده بعد ذلك مؤخراً قيام «أمّ معابد الغرب» في قلب أمريكا الشمالية، بشيراً ساعياً بين يدي المدنية الإلٰهية البطيئة النضج والاكتمال. بل يمكننا أخيراً أن نشهد التحسّن الملحوظ في الظروف المحيطة بحجّ أتباع الدين المخلصين للمقامات المقدسة في مركزه العالمي، وهي الزيارات التي كانت في أول أمرها طويلة مرهقة محفوفة بالمخاوف والمخاطر تتم سيراً على الأقدام في الأغلب الأعمّ وكانت تنتهي بالفشل في بعض الأحيان، وكانت قاصرة على حفنة من المؤمنين الشرقيين المنهوكين، فإذا بها تتدرج، تحت ظلال متزايدة من الأمن والرّاحة، لتجتذب أعداداً مطّردة من المؤمنين الجدد الذين يأتون من كل فجّ عميق. ولقد بلغ هذا الأمر قمّته بتلك الزيارة التي شاع أمرها وذاع والتي للأسف لم يقدّر لها أن تتّم ونعني بها زيارة تلك الملكة النبيلة (المرحومة ملكة رومانيا) التي ذكرت في تقريرها الخطّي أنّها اضطرت إلى أن تعدّل مسيرها، وهي عند أعتاب المدينة التي تضمّ رغيبة قلبها ومنية فؤادها، وأن تغضّ الطّرف عن هذا الامتياز الفائق الذي لا يقدّر بثمن.

صفحة خالية

الفترة الأولى

ولاية حضرة الباب

١٨٤٤ ـ ١٨٥٣م

ميلاد الظهور البابي

يحدد اليوم الثالث والعشرون من شهر أيار ١٨٤٤م بداية أشد الفترات اضطراباً في العصر البطولي من الدورة البهائية، وهو العصر الذي يشير إلى افتتاح أمجد عهد في أعظم كور شهده التاريخ الروحي للجنس البشري على الإطلاق. هذه الفترة التي تعدّ أروع فترة وأفجع فترة وأحفل فترة بالأحداث لا تزيد مدتها على تسع سنوات من القرن البهائي الأوّل، وبدأت بميلاد ظهور سوف تمجد الأجيال القادمة صاحبه بأنه «النقطة التي تدور حولها أرواح النبيين والمرسلين»، وانتهت بأولى مكاشفات ظهور أقوى وأحفل بالإمكانيات، ظهور «بشر كل نبي به» كما يؤكد حضرة بهاء الله، و«ناح كل رسول حباً» له، وفيها «امتحن الله كل النبيين والمرسلين» بفضله. فلا عجب إن خصص المؤرخ[1] الخالد لمقدمات الظهور البهائي ونشأته ما لا يقل عن نصف تاريخه المثير لوصف تلك الأحداث التي استطاعت في مثل هذا الزمن القصير أن تخصب تاريخ البشر الديني أيما إخصاب بفضل مآسيها وبطولاتها. هذه السنوات التسع خليقة بأن تتبوّأ مقاماً فذّاً في تجربة البشر الروحية كلها بفضل ما تميزت به من القوة المؤثرة الأصيلة والسرعة الخاطفة التي توالت عليها أحداثها الجليلة الخطرة، والمذبحة التي عمدت مولدها، والظروف المعجزة التي لابست استشهاد صاحبها، وبفضل ما تميزت به أيضاً من الطاقات الكامنة التي شحنت بها منذ البداية شحناً، وتلك القوى الخلاقة التي ولدتها آخر الأمر. وإننا إذ نستعرض مشاهد هذا الفصل الأول من فصول الأحداث السامية، لنشاهد هيكل بطل أبطالها ـ وهو حضرة الباب ـ يلمع في

(١) المؤرخ هو الملا محمد زرندي، لقبه حضرة بهاء الله بـ «النبيل الأعظم».

أفق شيراز كالشهاب ليعبر سماء إيران المعتمة مارقاً من الجنوب إلى الشمال، ثم يهوي بسرعة محزنة ويفنى في سناء المجد. ونرى هالته، نجوماً كثيرة من الأبطال النشاوى بخمر الله، يشرقون في الأفق نفسه، ويسطعون بالنور المتوهج ذاته، ويحترقون بتلك السرعة عينها. فيضيفون بدورهم قوة جديدة إلى تلك القوة المتزايدة التي يستجمعها بثبات دين الله الجديد.

ولم يكن ذلك الذي وهب الدفعة الأصلية لهذه الحركة الفائقة سوى القائم الموعود، صاحب الزمان الذي انفرد وحده بحق إنهاء دورة القرآن بكل ما فيها، والذي وصف نفسه بقوله: «أنا النقطة التي ذوّت بها من ذوّت... وإنني أنا وجه الله الذي لا يموت ونوره الذي لا يفوت». أمّا الأمة التي ظهر فيها فكانت أحط أمم العالم المتحضر، فاضحة في جهلها ضارية في قسوتها مغرقة في تعصبها، ذليلة في خضوعها لرجال الدين الذين كادت الأئمة تؤلههم. في خسّتها تذكرنا ببني إسرائيل في مصر على أيام موسى، وفي تعصبها تذكرنا باليهود على أيام عيسى، وفي ضلالها تذكرنا بعبدة الأصنام في جزيرة العرب على أيام محمد. أما الأعداء الألداء الذين أنكروا دعواه وجحدوا سلطانه وحاربوا أمره وكادوا ينجحون في إطفاء نوره، ثم تهالكوا آخر الأمر وتفككوا تحت وقع ظهوره، فلم يكونوا غير علماء الشيعة. وبالرغم من أن أعضاء هذه الطبقة كانوا متوحشين في تعصبهم، مغرقين في فسادهم إلى درجة تفوق الوصف، متمتعين بسيادة لا حد لها على العامة، وبالرغم من أن التحاسد على المناصب كان ينخر في صدورهم، وأنهم كانوا يقاومون كل جديد متحرر بلا هوادة ولا رحمة، إلا أن ألسنتهم كلّت ألف سنة من الدعوة باسم الإمام الغائب، واحترقت قلوبهم شوقاً لمخرجه، واهتزت أعواد منابرهم بتمجيد ملكه الذي سوف يعمّ العالم، وخدلت شفاههم من التمتمة بإخلاص ودون انقطاع استعجالاً لفرجه. أما الآلات المتطوعة التي استغلّت مناصبها لتنفيذ خطط العدو فلم تكن سوى ملوك آل قاجار، ولا أقلّ، محمد شاه المتعصب العليل المتذبذب الذي ألغى زيارة حضرة الباب الوشيكة للعاصمة في آخر لحظة، ثم ناصر الدين شاه الشاب

الطائش الذي صدّق بسهولة على إعدام أسيره. وأما الوغدان الكبيران اللذان تعاونا مع المحرّضين على هذه المؤامرة الدنيئة فكانا الصدرين الأعظمين الحاج ميرزا آقاسي ـ المعلم المعبود لمحمد شاه ـ وهو رجل فظّ منافق متآمر متقلب الأطوار، ثم ميرزا تقي خان «أمير النّظام» السفّاح المستبد المتهوّر. نفى أولهما حضرة الباب إلى قلاع آذربيجان، وأمر ثانيهما بقتله في تبريز. وشاركهما في كل هذا ـ وفي الجرائم الفظيعة الأخرى ـ حكومة يساندها قطيع من الأمراء الخاملين الطفيليين الصغار والحكام الفاسدين العاجزين المتشبثين بامتيازاتهم المغتصبة والخاضعين خضوعاً تاماً لنظام مذهبي منحط انحطاطاً فاضحاً. وأمّا الأبطال الذين تشرق أعمالهم في سجلّ هذا الصراع الروحي العنيف الذي شمل الأمّة ورجال الدين والحكومة والملك جميعاً فكانوا أتباع حضرة الباب المختارين ـ حروف الحيّ ـ وصحابتهم فالقي أصباح اليوم الجديد الذين قاوموا كل هذا التآمر والجهل والفساد والطغيان والشعوذة والجبن بروح مجيد قاهر مذهل، وعلم مدهش في عمقه، وفصاحة جارفة في قوتها وتقوى فريدة في إخلاصها، وشجاعة نادرة في مثالها، وتفان قدسي في طهارته، وعزم كالجلمود في صلابته، وإلهام رائع في مداه، وإجلال لرسول الله وأئمته مبلبل لخواطر خصومهم وقدرة على الإقناع مخيفة لأعدائهم ومستوى من الإيمان ودستور للسلوك تحدى حياة مواطنيهم ودفعها إلى التطور.

حدث المشهد الأول من الفصل الافتتاحي من هذا الحدث العظيم في غرفة علوية من بيت متوسط الحال يسكنه ابن تاجر أقمشة من شيراز، ويقع في حيّ متواضع من أحياء المدينة. وكان الوقت قبيل غروب شمس اليوم الثاني والعشرين من شهر أيار ١٨٤٤م بساعة. أمّا المشتركان فيه فكانا حضرة الباب، وهو سيد في الخامسة والعشرين لا تشوب انتسابه إلى العترة الطاهرة شائبة، والمُلاّ حسين الشاب، أول من يؤمن به. والظاهر أن لقاءهما قبل ذلك بقليل كان وليد الصدفة المحضة. أمّا اللقاء نفسه فقد طال حتى مطلع الفجر، حيث بات صاحب البيت منفرداً بضيفه في الغرفة العلوية. ولم تكن المدينة النائمة على علم قليل أو كثير بمضمون ما دار بينهما من حديث. ولم

ينتقل للأجيال القادمة أي تسجيل لتلك الليلة الفريدة، اللهم إلاّ تلك الرواية التي صدرت عن شفتي المُلاّ حسين جزئية مهلهلة وإن كانت على قسط كبير من التنوير.

بعد وصف لطبيعة الأسئلة التي وجهها إلى مضيفه، وللإجابات الشافية التي تلقاها عنه فلم تدع لديه أي مجال للشك أو الرّيب في صحة دعواه أنه هو القائم الموعود قال: «جلست مسحوراً بحديثه، غافلاً عن مضي الوقت وعن أولئك الذين كانوا بانتظاري وفجأة أيقظني المؤذن من النشوة التي غرقت فيها، وكان يؤذن لصلاة الفجر! في تلك الليلة يبدو أنني فزت بكل النعم والألطاف التي ذكرها العليّ القدير في كتابه (القرآن الكريم)، وأعدّها لأهل الجنة. حتى لقد ظننت أنني كنت في بقعة يقال فيها بحق «لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب»[1]، «لا يسمعون فيها لغواً، ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً»[2]، «دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين»[3]. ولقد جفاني النوم في تلك الليلة، وغمرتني موسيقى ذلك الصوت الذي كان يعلو ويهبط وهو يرتّل، يعلو حين ينزل آيات «قيوم الأسماء» ويهبط بنغمة حلوة أثيريّة إذ يتلو المناجاة التي ينزّلها. وعقب كل مناجاة كان يكرر هذه الآية: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»[4].

ويمضي المُلاّ حسين في روايته فيقول: «نزل عليّ هذا الظهور فجأة نزول الصاعقة التي خيّل إليّ أنها عطّلت حواسي وعقلي بعض الوقت. لقد أعماني بهاؤه وفتنتني عن نفسي قوته الساحقة. وتحركت في أعماق روحي مشاعر كثيرة مختلطة من الهيجان والسرور والذهول والعَجَب. وساد كل هذه

---

(١) القرآن الكريم سورة فاطر الآية ٣٥.
(٢) القرآن الكريم سورة الواقعة الآيتان ٢٥، ٢٦.
(٣) القرآن الكريم سورة يونس الآية ١٠.
(٤) القرآن الكريم سورة الصافات الآيات ١٨٠ ـ ١٨٢.

المشاعر شعور غامر بالسعادة والقوة خيّل إليّ أنه حوّلني تحويلاً. فلكم كنت أشعر بالعجز والخور والجبن والذلة من قبل بحيث لم أكن أستطيع أن أكتب أو أمشي لارتجاف يديّ وقدميّ! أمّا الآن ـ وقد سُحق كياني كله بمعرفة ظهوره ـ فلقد شعرت بقوة وشجاعة خيّل إليّ معهما أنني أستطيع أن أقف وحيداً لا أتزعزع في وجه العالم كله بكل شعوبه وحكامه. وبدا لي أن الكون لا يزيد على حفنة من التراب في يدي. وحسبت أنني صوت جبريل المتجسّد يهيب بالناس جميعاً أن «أفيقوا فإن نور الصبح قد لاح. انهضوا فإن أمره قد ظهر. وفتح باب عنايته وفضله فادخلوا يا أهل الأرض لأن موعودكم قد جاء».

على أن ضوءاً أكبر دلالة يفيض على هذه القصة الخاصة بإعلان رسالة حضرة الباب إذا نحن تصفحنا «أول وأعظم وأكبر» كتب الدورة البابية، وهو «تفسير سورة يوسف» الشهير الذي نزل فصله الأول كله على وجه التحقيق من قلم منزله الأعلى في تلك الليلة ـ ليلة الليالي ـ ذلك أن وصف المُلاّ حسين لهذه القصة مع الصحائف الأولى من ذلك الكتاب يشهدان بعظمة هٰذا الإعلان الجسيم وقوته. فمن المعالم البارزة لذلك الفيض الأوّل الذي أشار إلى افتتاح أعظم عصر في حياة البشر الروحية وحدد تاريخه، ادعاء حضرة الباب أنه هو الناطق بلسان الله الذي وعد به الأنبياء السابقون ولا أقل، وتأكيده أنه في الوقت نفسه مبشر بمن يفوقه عظمة وجلالاً، ونداؤه لملوك الأرض وأمرائها، وإنذاراته الشديدة إلى رئيس الدولة الأعلى ـ محمد شاه ـ ونصيحته للحاج ميرزا آقاسي بأن يتقي الله، وأمره الحازم له بأن يتنازل عن منصب الصدر الأعظم للشاه ويخضع «لوارث الأرض ومن عليها»، وتحدّيه لحكام الأرض بأن بيّن لهم كفاية أمره، وكشف لهم عن سلطنتهم الزائلة، ثم دعوته إياهم إلى أن «انصرفوا عن ملك الله جميعكم»، وأن يبلغوا رسالته إلى «ما وراء أرضها من مشرق الأرض ومغربها».

بهذا الإعلان التاريخي انبلج فجر عصر يشير إلى ختام كل العصور.

واتصلت أول نفحة من ذلك الإلهام الجبار بالذي «لولاه ما استوى الله على عرش رحمانيته، وما استقر على كرسي صمدانيته» حسبما شهد كتاب الإيقان. على أن انضمام حروف الحي السبعة عشر الباقين لم يبدأ إلا بعد أربعين يوماً. ذلك لأنهم اهتدوا إلى هدف بحثهم تدريجاً ومن تلقاء أنفسهم وبطرق شتى: منهم من اهتدى إليه في نومه وآخر في اليقظة، ومنهم من استعان بالصلاة والصّوم ومنهم من رآه في الرؤى والأحلام. ومن ثَمَّ انضووا تحت راية الدين الجديد. وكان آخر من رُقّم اسمه في اللوح المحفوظ من هؤلاء الحروف ـ وإن كان أولهم مقاماً ـ القدوس الشاب المثقف الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، والذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن، والذي كان أعظم تلاميذ السيد كاظم الرشتي. وقبله مباشرة شرفت إحدى النساء بمقام الحواريين في الدورة الجديدة. وكانت الوحيدة من بين بنات جنسها كما كانت الوحيدة التي لم تفز بمحضر حضرة الباب من بين زملائها. كانت شاعرة دون الثلاثين، كريمة المحتد ساحرة الفتنة، آسرة البلاغة، قاهرة الروح، متحررة الفكر، جريئة التصرّف. خلّدها لسان العظمة «بالطّاهرة»، ولقبها استاذها السيد كاظم «قرة العين». رأت حضرة الباب في نومها فتلقت بذلك أولى بشارات الدين الذي قدر له أن يمجدها ويرفعها إلى أوج الشهرة، كما قدر لها أن تسكب عليه سناء لا يفنى ببطولتها النادرة.

استدعى حضرة الباب هذه[(١)] «** الحروف الأولى التي فاضت عن النقطة الأولى»، «** ذلك القبيل من الملائكة المقربين الذين وقفوا بين يدي الرحمٰن يوم مجيئه صفاً»، «** مخازن أسراره» و«** الينابيع التي انبثقت من مصدر وحيه وإلهامه» هؤلاء الأصحاب السابقين الذين كانوا على حد تعبير البيان الفارسي «أقرب المقربين إلى الله»، تلك «الكواكب التي سجدت بين يدي العرش السماوي منذ الأزل وتظل تسجد إلى الأبد، هؤلاء «الشيوخ»

(١) إن النجمتين تدلان على أن المترجم لم يهتد إلى النص الأصلي فترجمه عن الإنجليزية. وإن النجمة الواحدة تدل على أن النص مترجم عن الأصل الفارسي.

المذكورين في سفر الرؤيا «الجالسين أمام الله على عروشهم متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب»[1] استدعاهم إلى محضره ـ قبل أن يتفرقوا ـ وألقى عليهم كلمة الوداع، وعهد إلى كل واحد منهم بمهمته الخاصة، ودعا بعضهم إلى أن يبذلوا نشاطهم في أقاليمهم المحلية، وطلب إليهم أن يتوخوا أقصى ما يمكنهم من الحكمة والاعتدال في مسلكهم، وكشف لهم عن سمو مركزهم، وأكد لهم ضخامة مسؤولياتهم. وأعاد على مسامعهم تلك الكلمات التي خاطب بها السيد المسيح حوارييه، ونبههم إلى عظمة اليوم الجديد الفائقة، وحذرهم من أن يخسروا ملكوت الله إن هم انقلبوا على أعقابهم وأكد لهم أنهم إن فعلوا ما أمرهم الله به جعلهم الله ورثته وأئمته بين الناس، وأشار لهم من طرف خفيّ إلى سر يوم أعظم من يومه يوشك أن يجيء، وأمرهم بأن يستعدوا للقائه. وذكّرهم بانتصار إبراهيم على نمرود، وموسى على فرعون، وعيسى على اليهود، ومحمد على قبائل العرب، وطمأنهم إلى ارتفاع أمره في النهاية ارتفاعاً لا مفر منه. وإلى ملاّ حسين عهد بمهمة أكثر خصوصية وأعظم مضموناً، وأكد أن ميثاقه معه قد أبرم، وأوصاه بأن يكون ليّن الجانب مع من يلقاهم من رجال الدين، وأرشده إلى أن يتوجه إلى طهران، وبأشد العبارات إشراقاً لوّح بذلك السّرّ المحجوب المودع في تلك المدينة، مؤكداً أنه سر يفوق في بهائه النور الذي أشرق من أفق الحجاز وشيراز معاً.

انطلقت هذه النيّرات التي تؤلف مع حضرة الباب «الواحد الأول» لدورة البيان إلى العمل، وقد حفزهم إليه شرف ذلك التفويض والانتداب الذي أسبغ عليهم، فانتشروا وتفرقوا في أقاليم بلادهم حيث قاوموا ببسالة نادرة الهجمات البربرية العنيدة التي شنتها القوى المحتشدة ضدهم، وخلّدوا دينهم بمآثرهم ومآثر إخوانهم في الدين، وأثاروا بذلك هياجاً اهتزت له بلادهم من أدناها إلى أقصاها، وسرت أصداء ذلك الهياج مدوية مجلجلة حتى بلغت عواصم أوروبا الغربية.

---

(١) رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح ٤، آية ٤.

ولم يقرر حضرة الباب القيام بحجّهِ الطويل الشاق إلى مقامات أجداده إلا بعد أن تلقى الرسالة المرتقبة التي أرسلها المُلاّ حسين نائبه الأمين المحبوب، تبشره باجتماعه بحضرة بهاء الله. وفي شهر شعبان ١٢٦٠ هـ (أيلول ١٨٤٤م) تقدم حفيد فاطمة الزهراء عن أبيه وأمه وسليل الحسين، أعظم من كان له حق خلافة رسول الله ليزور الكعبة، محققاً بذلك نبوءات الأحاديث الإسلامية. فركب في سفينة شراعية من بوشهر في التاسع عشر من رمضان (تشرين الأول ١٨٤٤م) يصحبه القدوس الذي كان حضرته يعدّه في صبر وأناة ليحتل مركزه المقبل. وبعد رحلة عاصفة دامت أكثر من شهر نزل في جدة، وأحرم وركب جملاً انطلق به إلى مكة فبلغها في غرة ذي الحجة (١٢ كانون الأول) وصحب القدوس مولاه إلى الكعبة سائراً على قدميه آخذاً بزمام مطيته. ويروي مؤرخه (النبيل) أن مظهر الله الذي جاء حاجاً من شيراز انقطع للتعبد في يوم عرفة وفي يوم النحر تقدم إلى مِنى، ونحر حسب المناسك، ولكنه نحر تسع عشرة شاة: تسعاً باسمه، وسبعاً باسم القدوس، وثلاثاً باسم الخادم الحبشي الذي قام على خدمته. ثم طاف حول الكعبة مع الطائفين وأقام شعائر الحج وأدّى مناسكه.

ولقد تميزت زيارته للحجاز بحادثتين على جانب خاص من الأهمية كانت أولاهما إعلانه لدعوته وتحديه السافر لميرزا محيط الكرماني* المتكبّر، وهو أحد أقطاب الشيخية البارزين. وكان ميرزا محيط يتمادى في بعض الأحيان إلى حد أكّد استقلاله عن زعامة تلك الطائفة التي تولاها بعد وفاة السيد كاظم (الرشتي) الحاج محمد كريم خان العدو اللدود لأمر حضرة الباب. وأمّا الحادثة الثانية فكانت دعوته شريف مكة وسادن بيت الله الحرام إلى أن يؤمن بالظهور الجديد وذلك بواسطة رسالة حملها القدوس إليه. إلاّ أن الشريف لم يستجب له لانهماكه في شؤونه الخاصة. ولكنه علم بعد سبع سنوات من سياق حديث له مع رجل يدعى الحاج نياز البغدادي بالظروف التي أحاطت دعوة مظهر الله الشيرازي واستشهاده. فاستمع بانتباه إلى وصف

تلك الحوادث، وعبّر عن سخطه وحزنه لهذا المصير الأليم الذي صار إليه.

وأشارت زيارة حضرة الباب للمدينة المنورة إلى نهاية حجه. فرجع إلى جدة ومنها إلى بوشهر. وكان من أوائل ما فعله هناك أن ودع رفيقه وحواريه الوداع الأخير، وأكد له أنه سوف يلتقي بمحبوب قلوبهم، كما بيّن له أنه سوف يتوج حياته بتاج الشهادة، وأنه هو نفسه سوف يلقى بعده مصيراً مشابهاً على يد عدوهما المشترك.

وكانت عودة حضرة الباب إلى وطنه في صفر ١٢٦١هـ (شباط ـ آذار ١٨٤٥ م) إيذاناً بحدوث هياج يعم البلاد بأسرها. ذلك لأن النار التي أوقدها بإعلانه دعوته كانت تزداد اشتعالاً بفضل تشتت أصحابه المختارين ونشاطهم حتى ألهبت عواطف الصديق والعدو على السواء في مدة لا تزيد عن سنتين. بل إن اندلاع ألسنتها لم ينتظر عودة الذي أشعلها. فالواقع أن مضامين الظهور الذي ألقى ثقله ـ بكل هذه القوة ـ على أمة تبلغ هذا المبلغ من الانحلال والتفكك وحدّة الطبع لم يكن لها بدّ من أن تثير في صدور الناس أعنف مشاعر الخوف والبغض والغضب والحسد. حقاً، إن الدين الذي لم يقنع صاحبه بأن يدعي لنفسه مقام «باب الإمام الغائب» وإنما ادعى مقاماً يفوق مقام «صاحب الزمان»، واعتبر نفسه بشيراً يسعى بين يدي من هو أعظم منه عظمة لا تجارى ولا تبارى، ولم يكتف بأن يأمر رعايا الشاه بالتخلي عن كل شيء واتّباعه بل وأمر الشاه نفسه وملوك الأرض وأمراءها جميعاً أمراً حاسماً بذلك، مدعياً أنه هو وارث الأرض ومن عليها. والدين الذي تحدّت تعاليمه وأحكامه ومبادؤه الاجتماعية ومستوياته الخلقية كل الكيان الاجتماعي الذي ولد في أحضانه استطاع أن يحشد العامة والخاصة ويجنّدهم عن بكرة أبيهم وراء شيوخهم وملكهم ووزرائه وحكومته، وأن يصهرهم جميعاً في قالب مقاومة آلت على نفسها أن تقضي قضاء مبرماً على حركة قام بها من اعتبروه دعيّاً فاسقاً مارقاً، وأن تقتلعها فروعاً وأصولاً.

بعودة حضرة الباب إلى شيراز يمكن أن يقال إن التصادم الأول بين

القوتين اللتين لا يمكن التوفيق بينهما قد بدأ. فلقد تجرّأ الملاّ علي البسطامي النشيط المقدام، وهو أحد حروف الحي «وأول من يغادر بيت الله (شيراز) وأول من يضحي في سبيله» وذكر أمام أحد أقطاب الشيعة ـ الشيخ محمد حسن الذائع الصيت ـ أنه نزل من قلم مولاه في ظرف ثمان وأربعين ساعة من الآيات ما يفوق حجم القرآن الذي نزل في ثلاثة وعشرين عاماً كاملاً. فكفّروه وكبّلوه بالسلاسل والأغلال وأهانوه وسجنوه وأغلب الظن أنهم قتلوه. أما الملاّ صادق الخراساني فقد دفعه ما أمر به حضرة الباب في «الخصائل السبعة» من تغيير صفة الأذان التقليدي إلى أن يؤذنه بصورته المعدلة على مسمع من طائفة من أهل شيراز، الأمر الذي صدمهم وأثار استنكارهم الشديد فألقوا القبض عليه على الفور، وأهانوه وخلعوا ملابسه وجلدوه ألف جلدة. وأمر حسين خان نظام الدولة حاكم إقليم فارس الخسيس الذي قرأ التحدي في «قيّوم الأسماء»، بأن يعاقب المُلاّ صادق والقدوس وأحد المؤمنين الآخرين عقاباً علنياً سريعاً، فأحرقوا لحاهم وخرموا أنوفهم وطافوا بهم في الشوارع والطرقات على هذا النحو المزري ثم طردوهم من المدينة.

وبلغ الجنون بأهل شيراز كل مبلغ واحتدم الجدل في المساجد والمدارس والأسواق وغيرها من الأماكن العامة. واضطرب حبل الأمن والسلام أيما اضطراب، وبدأ الشيوخ الخائفون الحاسدون الغاضبون كل الغضب يدركون حرج مركزهم. فأمر الحاكم الذي انخلع قلبه من الخوف، بأن يلقى القبض على حضرة الباب. فجيء به إلى شيراز تحت الحراسة المشدّدة وعنّف تعنيفاً شديداً بمحضر من حسين خان، ولطم على وجهه لطمة قوية أسقطت عمامته عن رأسه. وبفضل شفاعة إمام الجمعة أطلق سراحه بالضمان الشخصي، وعهد به إلى خاله الحاج ميرزا سيد علي. وتلا ذلك هدوء قصير، مكّن الشاب الأسير من أن يحتفل مع والدته وزوجته وخاله بنوروز هذه السنة والسنة التي تلتها في جو من الهدوء النسبي. وفي تلك الأثناء كانت حمى الحماسة التي انتابت أتباعه تسري إلى رجال الدين وطبقات التجار وتغزو دوائر المجتمع العليا. فاكتسحت البلاد جميعاً موجة

من الاستفسارات الحارة. وكانت الجموع العديدة تستمع في عجب إلى الشهادات وهي تتدفق في بلاغة وجرأة من أفواه رسل حضرة الباب السيارين.

ولقد بلغ الهياج مبلغاً لم يعد الشاه يستطيع أن يتجاهله. فانتدب السيد يحيى الدارابي أمينه الملقب بوحيد، وكان من أفقه علماء عصره وأبلغهم وأشدهم تأثيراً في قومه. وكان يحفظ ما لا يقل عن ثلاثين ألف حديث، وأرسله ليتحرى الأمر ويطلعه على جليته. وكان وحيد واسع الأفق مستنيراً عالي الهمة شديد الاتصال بالبلاط. وبعد أن التقى بحضرة الباب ثلاث مرات انجذب إليه كلية متأثراً بشخصيته ومنطقه، في اللقاء الأول دار بحثهما حول علم الكلام الإسلامي وحول معضلات القرآن وأحاديث الأئمة ونبوءاتهم. وفي اللقاء الثاني ذهل وحيد حين وجد الأسئلة التي أضمرها في نفسه تتلاشى من ذاكرته القوية. ولكن ذهوله كان أعظم وأعظم عندما تبيّن أن حضرة الباب كان يجيبه عن نفس الأسئلة التي نسيها. وفي اللقاء الثالث حيّرت مندوب الشاه ملابسات تنزيل حضرة الباب لتفسير سورة الكوثر مشتملاً على ما لا يقل عن ألفيّ (٢٠٠٠) آية، حيرة جعلته يكتب إلى رئيس البلاط تقريراً ويكتفي بإرساله، ونهض بعد ذلك ليهب حياته وثروته كلها لخدمة الدين الذي كافأه بتاج الشهادة أثناء واقعة نيريز وهكذا نرى هذا الذي صمم تصميماً قاطعاً على أن يفنّد مزاعم السيد الشيرازي المغمور، ويقنعه بالعدول عن ادعاءاته، ويصطحبه معه إلى طهران شاهداً على انتصاره عليه، يعترف فيما بعد بأنه «أقل من التراب الذي تحت قدميه». بل إن حسين خان ـ الذي استضاف وحيداً أثناء إقامته في شيراز ـ اضطرّ إلى أن يكتب للشاه معبراً عن اعتقاده الجازم بأن مندوبه النابه قد أصبح بابياً.

وهناك نصير شهير آخر لأمر حضرة الباب، أكثر همة وحماساً من وحيد ويكاد يضاهيه في المنزلة ألا وهو المُلاّ محمد علي الزنجاني الملقب بالحجة، وكان أخبارياً[1]، مجادلاً شديد الوطأة جريء القلب متحرر الفكر،

---

(١) الأخباريون هم فرقة شيعية لا يعتقدون بالاجتهاد في القضايا الدينية ويكتفون في ذلك =

ذرعاً بالقيود. وكان رجلاً بلغت به الجرأة أن أدان النظام المذهبي من أوّل الأبواب الأربعة إلى أبسط الشيوخ. واستطاع بمواهبه الفائقة وفصاحته الدافقة أن يفحم أعداء مذهبه الشيعي على رؤوس الأشهاد أكثر من مرة. كان من العسير على مثل هذا الرجل أن يقف مكتوف اليدين إزاء أمر يحدث كل هذا الانقسام بين مواطنيه. فأرسل أحد تلاميذه إلى شيراز ليتحرّى الأمر ويقف على جليته. غير أن التلميذ وقع من فوره أسيراً لسحر حضرة الباب. وكانت مجرد مطالعة الحجة لصفحة واحدة من «قيوم الأسماء» أتاه بها ذلك التلميذ كافية لأن تحدث فيه من التحول ما جعله يصرّح أمام علماء مدينته المجتمعين بأن صاحب هذا الكتاب لو حكم على النهار بأنه ليل وعلى الشمس بأنها ظل لما تردد هو في الإيمان بما حكم به.

وثمة جندي آخر انضم إلى جيش الدين الجديد المتضخم. وهو العالم العلاّمة ميرزا أحمد الأزغندي أعلم علماء خراسان وأحكمهم وأبرزهم. وكان قد جمع ـ انتظاراً لمجيء القائم الموعود ـ ما يزيد عن اثني عشر ألف حديث ونبوءة تتصل كلها بطبيعة الظهور المنتظر وزمانه وأذاعها بين زملائه، وشجعهم على الاستشهاد بها في كل جمع وحشد.

وبينما كانت الحال تزداد تدهوراً في الأقاليم الأخرى، كانت عداوة أهل شيراز تبلغ الذروة. فلقد ضايق حسين خان القاسي المحب للانتقام ما أرسله إليه جواسيسه وعيونه الساهرون من تقارير تقول بأن قوة الأسير وشهرته تزدادان ساعة بعد أخرى. فصمم على أن يخطو خطوة مباشرة حاسمة بل إنه يقال إن شريكه الحاج ميرزا آقاسي كان أمره من قبل بأن يقتل حضرة الباب غيلة بدعوى أنه لو أطلق له العنان لدمر المملكة وهدم دينها الراسخ. وبأمر من الحاكم تسوّر عبد الحميد خان كبير الضباط السور في جنح الليل، ودخل منزل الحاج ميرزا سيد علي حيث كان حضرة الباب معتقلاً، وألقى القبض عليه وصادر جميع كتبه ووثائقه. إلاّ أنه في تلك الليلة حدثت حادثة مفاجئة

= بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية وأخبار الأئمة. (روضات الجنات).

يضيق دبّرتها العناية الإلٰهية دون شك لكي تفسد على المتآمرين خططهم، وتمكن هدف كراهيتهم (حضرة الباب) من أن يطيل ولايته ويتم رسالته. فقد تفشى وباء الكوليرا فجأة، وفتك منذ أن تفشى في منتصف الليل بما يزيد على مائة شخص. وداخل كل قلب الرعب من الوباء، وبات أهل المدينة الموبوءة يفرّون مضطربين بين صرخات الألم والفزع، ومات ثلاثة من خدم الحاكم وسقط أفراد أسرته يقاسون من المرض. فولى الحاكم الأدبار يائساً إلى حديقة له خارج المدينة تاركاً وراءه الموتى دون دفن. فلما واجه عبد الحميد خان هذا الموقف غير المنتظر قرر أن يسوق حضرة الباب إلى منزله، وما أن بلغ المنزل حتّى تملكه الرعب والفزع، فقد علم بأن ولده يعالج سكرات الموت من الوباء. فألقى بنفسه يائساً على قدمي حضرة الباب، متوسلاً إليه أن يغفر له وألاّ يحمّل الولد أوزار أبيه، وأقسم على أن يستقيل من منصبه وألاّ يقبل منصباً مثله من بعد أبداً. فلما رأى دعاءه قد استجيب أرسل التماساً إلى الحاكم يرجوه فيه أن يطلق سراح الأسير فيعفي بذلك المدينة من هذا الوباء الوبيل، فاستجاب حسين خان لرجائه وأطلق سراح سجينه على شرط أن يغادر المدينة.

وبعد أن حفظت العناية الإلٰهية الساهرة حضرة الباب على هذا النحو المعجز تقدم إلى أصفهان (في أيلول ١٨٤٦م) يصحبه السيد كاظم الزنجاني. وأعقب ذلك فترة أخرى من الهدوء النسبي استجمعت خلالها العمليات الإلٰهية المنطلقة قوة جديدة عجّلت بسلسلة من الحوادث التي أدت إلى سجن حضرة الباب في قلعتي ماه كو وچهريق وانتهت باستشهاده في ساحة الثكنة العسكرية بتبريز. ولما كان حضرة الباب يعلم تمام العلم بالمحن الوشيكة الحدوث فقد تنازل لأمه ولزوجته عن كل ممتلكاته قبل أن يفارق أسرته الفراق الأخير، وأفضى لزوجته بسر ما سوف يحل به من المحن. وأنزل لها مناجاة خاصة أكد لها أن تلاوتها تذهب عنها الحزن والاضطراب. وقضى الأيام الأربعين الأولى من إقامته في أصفهان ضيفاً على ميرزا سيد محمد سلطان العلماء، إمام الجمعة، وهو أحد رجال الدين المبجلين في كل أنحاء

المملكة. وكانت هذه الضيافة بناء على تعليمات حاكم المدينة منوچهر خان معتمد الدولة الذي تسلم من حضرة الباب رسالة يطلب منه فيها أن يعين له مكان إقامته. ولقد استقبل حضرة الباب استقبالاً حافلاً، وبلغ من تأثير سحره الذي أسر به أهل المدينة أن جماعة من أهلها اندفعوا أثناء عودته من الحمّام العام ذات مرة يطلبون الماء الذي استحمّ به. بل لقد بلغ من جاذبيته أن مضيفه كان يصرّ على أن يقوم على خدمته بنفسه متجاهلاً مكانته الرفيعة. ونزولاً عند رغبة ذلك العالم الجليل أنزل حضرة الباب ـ ذات ليلة بعد العشاء ـ تفسيره الشهير لسورة «والعصر» فأخذ يكتب بسرعة مدهشة، وأنزل في بضع ساعات ما يعادل ثلث القرآن من الآيات التي تنصبّ كلها على تفسير الحرف الأوّل من السورة (أي الواو) وهو حرف بالغ الشيخ أحمد الأحسائي في التنبيه عليه، وأشار إليه حضرة بهاء الله في الكتاب الأقدس، وهو عمل ملأ قلوب الحاضرين بفيض من الإعجاب والدهشة والخشوع حتى أنهم نهضوا وقبلوا أذيال ثوبه.

وفي تلك الأثناء كانت الحماسة الفياضة التي أبداها أهل أصفهان تزداد بوضوح. وكانت الجموع التي يدفع بعضها الفضول، ويدفع بعضها الآخر التعطش للحقيقة، ويدفع بعضها الثالث اللهفة على الشفاء من عللهم وأمراضهم، يتقاطرون من كل حي من أحياء المدينة على منزل إمام الجمعة، بل إن منوچهر خان الرزين الحكيم لم يتمالك نفسه من زيارة شخصية فذّة ذات جاذبية إلى هذا الحد. وكان منوچهر خان مسيحياً من أهل جورجيا. وأمام جمع حاشد من رجال الدين النابهين طلب إلى حضرة الباب أن يثبت له صدق رسالة محمد رسول الله الخاصة، فاستجاب حضرة الباب من فوره لهذا الطلب الذي كان الحاضرون يشعرون بالحرج من الاستجابة له. وفي أقل من ساعتين، وفي خمسين صحيفة، أنزل حضرة الباب بحثاً دقيقاً قوياً بليغاً في هذا الموضوع الرفيع. ليس هذا فحسب، بل إنه ربطه كذلك بقدوم القائم الموعود ورجعة الإمام الحسين، وبلغ البحث من الإقناع حداً دفع منوچهر خان إلى أن يعلن على رؤوس الأشهاد إيمانه بالإسلام ونبي الإسلام واعترافه

بالمواهب اللّدنية التي امتاز بها صاحب البحث الذي بلغ هذا المبلغ من قوة الإقناع.

هذه الشواهد الدالة على السيادة المتزايدة التي يحرزها هذا الشاب غير المتعلم على الحاكم وعلى أهل المدينة التي تعدّ بحق معقلاً من معاقل الشيعة أفزعت المقامات الدينية. فامتنع الشيوخ عن إتيان أي عمل عدائي سافر يعلمون علم اليقين أنه يفسد عليهم خطتهم، ولكنهم حاولوا عن طريق ترويج أشنع الإشاعات أن يحرّضوا الصدر الأعظم على أن يتدارك موقفاً يزداد حدة وتهديداً ساعة بعد أخرى، فالشهرة التي يتمتع بها حضرة الباب ووقاره وهيبته، والتشريف الذي يتلقاه به مواطنوه بلغ أقصى غاياته آنذاك. وسرعان ما أخذت ظلال المصير الداهم تتجمع بسرعة من حوله. وتلاحقت ـ منذ ذلك الوقت إلى النهاية ـ سلسلة من المآسي التي كان مقدراً لها أن تنتهي باستشهاده وخمود دينه خموداً ظاهرياً.

فلقد نشط الحاج ميرزا آقاسي المستبد الماكر كما لم ينشط من قبل خشية أن يطوّق حضرة الباب مليكه بنفوذه فيختم بذلك على مصيره. وقد عنف إمام الجمعة على تقصيره في أداء الواجب المقدس، وكان دافعه في ذلك ارتيابه من أنّ حضرة الباب يتمتع سرّاً بعطف معتمد الدولة وعلمه بأن الأخير هو موضع ثقة الشاه. وفي الوقت نفسه كتب خطابات عديدة إلى علماء أصفهان يتملقهم فيها، ولم يكن من قبل يقيم لهم وزناً. فأخذ رجال الدين الذين حُرّضوا يطعنون ويكيلون السباب من المنابر لمؤسس هذه النحلة التي بدت لهم كفراً وإلحاداً كريهاً يجب توقّيه والخوف منه. بل لقد حرّض الشاه نفسه على استدعاء حضرة الباب إلى عاصمة ملكه. فلما أمر منوچهر خان باتخاذ التدابير الرامية إلى إرساله حضرته عزم على أن يحوّل إقامته إلى منزله الخاص بصفة مؤقتة. وفي الوقت نفسه اجتمع المجتهدون والعلماء الذين أفزعتهم علامات هذا التأثير النفاذ، وأصدروا فتوى ملئت سباباً وقحاً وختمها كبار رجال الدين في المدينة اتهموا فيها حضرة الباب بالمروق من

الدين وأفتوا بقتله. بل إن إمام الجمعة نفسه أرغم على أن يشهد بخط يده بأن المتهم مجرد من العقل والمنطق. وضاق معتمد الدولة بذلك ذرعاً فدبر خطة لكي يهدّئ الخواطر الثائرة، فأوحى إلى الأهلين الذين كانوا يزدادون هياجاً بأن حضرة الباب قد رحل إلى طهران. وفي الوقت نفسه هيأ له استراحة قصيرة قوامها أربعة أشهر في «عمارة خورشيد» وهي قصر الحاكم الخاص في أصفهان. وفي تلك الأيام أبدى المضيف لضيفه رغبته في وقف كل أمواله التي قدرها معاصروه بما لا يقل عن أربعين مليون فرنك لترقية مصالح الدين الجديد، وأعلن له عن عزمه على تحويل محمد شاه إلى الدين الجديد، وإقناعه بالتخلص من صدره الأعظم الفاسق المخزي، والحصول من الشاه على موافقته على أن يتزوج حضرة الباب من إحدى أخواته. إلا أن الموت اختطف معتمد الدولة فجأة كما سبق أن تنبأ له حضرة الباب. فعجل ذلك بالأزمة المقتربة، ذلك لأن نائب الحاكم ـ كُرگِين خان الغليظ القلب الطماع ـ حرض الشاه على أن يصدر استدعاء آخر للشاب الأسير على أن يذهب متخفياً إلى طهران في حراسة جماعة من الفرسان. ولم يتردد كُرگين خان الوغد، الذي أكتشف من قبل وصية عمه معتمد الدولة وأتلفها واستولى على أمواله، في أن يستجيب لتفويض الشاه المكتوب. وبينما هم في قلعة كنار گرد على بعد أقل من ثلاثين ميلاً من العاصمة، جاء رسول وسلم محمد بك رئيس الحرس أمراً كتابياً من الحاج ميرزا آقاسي يأمره فيه بأن يتجه إلى كُلين ويتوقف هناك إلى أن تصدر إليه تعليمات أخرى. وبعد ذلك بقليل تلقى حضرة الباب رسالة من الشاه في ربيع الثاني ١٢٦٣هـ (١٩ أذار ـ ١٧ نيسان ١٨٤٧ م) وهي وإن كانت مهذبة العبارات إلا أنها تكشف عن مدى التأثير السيء الذي كان للصدر الأعظم على مولاه. وهكذا فشلت كل الخطط التي طالما علّق عليها منوچهر خان الآمال. وكان المكان الذي عينه محمد شاه معتقلاً لحضرة الباب بنصيحة الصدر الأعظم الغدار هو قلعة ماه كو غير البعيدة عن القرية التي تسمى بهذا الاسم وتقع في أقصى الشمال الغربي من آذربيجان. ومن قديم كان أهلها ينعمون بحماية الصدر الأعظم. ولم يؤذن له

في أن يصطحب معه من أتباعه إلا تابعاً واحداً وخادماً واحداً يؤنسانه في تلك الجهات الجرداء الموحشة. وبذلك نجح هذا الوزير السليط المحتال الذي احتج بضرورة تفرغ مولاه لقمع ثورة في خراسان مؤخراً وأخرى في كرمان، في إحباط خطة لو قدر لها أن تتحقق لكان لها أصداء بعيدة المدى في مصيره ومصير حكومته ومولاه وشعبه على السواء.

اعتقال حضرة الباب في آذربيجان

إن الفترة التي نفي فيها حضرة الباب إلى جبال آذربيجان والتي دامت ما لا يقل عن ثلاث سنوات، هي أحزن وأعنف أطوار ولايته التي لم تزد عن ست سنوات كما أنها أخصبها وأحفلها باعتبار من الاعتبارات. فهي تشتمل على تسعة أشهر من الاعتقال المتصل في قلعة ماه كو ثم الاعتقال في قلعة چهريق اعتقالاً لم يتخلله سوى زيارة لتبريز قصيرة ولكنها لا تنسى. وقد عمل العداء المستحكم الصاعد الذي أبداه كل من العدوين القديرين الحاج ميرزا آقاسي الوزير الأول لمحمد شاه، وأمير النظام الوزير الأول لناصر الدين شاه على إلقاء الظلال القاتمة على هذه الفترة من أولها إلى آخرها وهي تضاهي أحرج مراحل ولاية حضرة بهاء الله حين واجه السلطان عبد العزيز الجائر ووزيريه عالي باشا وفؤاد باشا أثناء نفيه إلى أدرنة، كما تشابه أحلك أيام حضرة عبد البهاء في الأرض المقدسة تحت حكم السلطان عبد الحميد المستبد الطاغية وجمال باشا الذي لا يقل عنه طغياناً. شيراز شهدت إعلان حضرة الباب التاريخي فهي ساحته الخالدة، وأصفهان قدمت له - على عجل - ملاذاً تمتع فيه بقسط من الأمن والسلام، وأما آذربيجان فقد قدر لها أن تكون مشهداً لتباريح العذاب والاستشهاد. ولسوف يسجل التاريخ هذه السنوات الخواتم من حياته الأرضية على أنها فترة اكتمل فيها نمو الدورة الجديدة، وتأكدت دعوى مؤسسها بصورة كاملة على رؤوس الأشهاد، وقدّرت فيها شرائعها، وأبرم ميثاق صاحبها إبراماً، وأشهر فيها استقلالها وتوهّجت بطولة أبطالها في مجد لا يفنى. ففي خلال هذه السنوات الشديدة العنف الحافلة بتصاريف القدر كشفت مكنونات مقام حضرة الباب بتمامها

لأصحابه، بل وأعلنها حضرة الباب رسمياً في عاصمة آذربيجان بمحضر من ولي العهد، ونزل البيان الفارسي مخزن أحكام حضرة الباب، وتحدد موعد دورة «من يظهره الله» وطبيعتها تحديداً لا يرقى إليه شك، وأنهى مؤتمر بدشت العمل بالنظام القديم، واندلعت نيران الفتن العظيمة في مازندران ونيريز وزنجان.

ومع ذلك تصور الحاج ميرزا آقاسي الأحمق قصير النظر أنه قد وأد الحركة في مهدها وأنه يوشك أن ينتصر على مؤسسها انتصاراً حاسماً بعد أن أحبط خطته الرامية إلى لقاء الشاه وجهاً لوجه في العاصمة، وأقصاه إلى أقصى ركن في المملكة، وقلما تصوّر أن نفس هذه العزلة التي فرضها على سجينه سوف تمكنه من أن يطور ذلك النظام الذي يراد به أن يجسّد روح دينه، وتتيح له فرصة حمايته من التفكك والانقسام، وإشهار دعوته رسمياً وبلا تحفظ. قلما تصوّر أن هذا السجن سوف يحث أصحاب السجين ورفاقه المقهورين على تحطيم أغلال الفكر الديني العتيق، وعلى الإسراع بالأحداث التي تتطلب منهم إقداماً وجرأة وإنكاراً للذات لا عهد لتاريخ وطنهم بمثلها من قبل. قلما تصور أنه بذلك يعمل على تحقيق حديث صحيح صدر عن نبي الإسلام يتعلق بالأحداث التي لا بد من حدوثها في آذربيجان. ولم يتعظ الصدر الأعظم بحاكم شيراز الذي فر فراراً مخزياً، وأطلق سراح أسيره عندما تجرع أول جرعة من غضب الله المنتقم وهو فزع يرتجف، وإنما أخذ بدوره يدخر لنفسه غضباً إلهيّاً شديداً محتوماً، ويمهّد السبيل لسقوطه نتيجة تلك الأوامر التي أصدرها.

كانت أوامره لعلي خان مستحفظ قلعة ماه كو شديدة واضحة، وفي الطريق إلى تلك القلعة أمضى حضرة الباب في تبريز عدة أيام تميزت من جانب الأهلين بحماسة بلغت من القوة بحيث لم يسمح لأحد من الناس ولا من أتباعه بأن يلقاه اللهم إلا نفر قليل. وكانت صيحة «الله أكبر» تتعالى من كل جانب وهو يمرّ في شوارع المدينة بين حراسه. ولقد تفاقم الهرج والمرج

في المدينة حتى لقد أمر المنادي بأن ينادي في الناس منذراً ومهدداً كل من يتجاسر على التماس لقاء حضرة الباب بالسجن ومصادرة الممتلكات. وعند وصوله إلى ماه كو ـ التي لقبها بـ «الجبل الباسط» ـ لم يسمح لأحد بأن يراه في الأسبوعين الأولين عدا كاتب وحيه السيد حسين وأخيه. ولقد بلغ به البؤس في تلك القلعة شأناً عبّر عنه في كتاب البيان الفارسي أنه لم يكن لديه مصباح يضيء له في ظلمة الليل، وأن زنزانته التي بنيت من اللبن كانت تفتقر حتى إلى باب، على حين شكا في لوحه لمحمد شاه من أن نزلاء القلعة عهد بهم إلى حارسين وأربعة كلاب.

كان سجين ماه كو يعيش منعزلاً على ذرى جبل قصيّ يقع ـ في خطورة ـ على حدود الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الروسية سجيناً بين جدران سميكة في قلعة حصينة ذات أربعة أبراج، نائياً عن أهل بيته وعن ذويه وأصحابه. كان يعيش قريباً من قوم متعصبين مشاغبين يختلفون عن الغالبية العظمى من أهل إيران من حيث الجنس والعادات واللغة والمذهب، يحرسه أهل إقليم يختصه الصدر الأعظم برعايته لأنه مسقط رأسه. ولذلك خيل لعدوه أن سجينه هذا قد قضي عليه بأن يفني زهرة شبابه هناك، وأنه لن يلبث طويلاً حتى يرى آماله تنهار أمام عينيه بصورة كاملة. إلا أن هذا العدو سرعان ما تبين له أي حكم بعيد عن الصواب حكم به على سجينه وعلى الذين اختصهم برعايته. ذلك لأن القوم الغلاظ المتكبرين المتهورين بدأوا يخضعون لوداعة حضرة الباب شيئاً فشيئاً، ويحسّون بالطهارة في ذواتهم من تواضعه ويستنيرون بنصائحه ويتعلمون من حكمته. بل لقد بلغ من إغراقهم في محبته أن أول شيء كانوا يعمدون إليه كل صباح هو أن يبحثوا عن مكان يمكنهم منه أن يلمحوا وجهه، وأن يلتمسوا منه على البعد أن يبارك لهم أعمالهم. كل ذلك رغم احتجاجات علي خان المتسلط، ورغم الإنذارات والتهديدات المتكررة بالويل والثبور التي كانت ترد من طهران. وكان إذا تنازع خصمان ذهبا إلى سفح الجبل، ونظرا إلى حيث هو من القلعة، ناشد كل منهما الآخر أن يقول الصدق. لا، بل إن علي خان المتسلط نفسه رأى رؤية غريبة اغتمّ

لها فاضطر إلى أن يخفّف من حدة إجراءاته تكفيراً منه عما سلف، وبلغ من تساهله أنه أخذ يسمح لسيل متزايد من الزائرين المتعطّشين المخلصين بدخول القلعة. وكان من بينهم الملاّ حسين المثابر المغوار الذي قطع الطريق على قدميه من مشهد في شرق إيران إلى ماه كو في غربها الأقصى، واستطاع بعد هذه الرّحلة المضنية أن يحتفل بالنوروز (١٨٤٨ م) مع محبوبه.

على أن الجواسيس المكلفين بمراقبة علي خان أخطروا الحاج ميرزا آقاسي بما آلت إليه الأمور. فعزم على أن ينقل حضرة الباب إلى قلعة چهريق التي لقبها حضرته بـ«الجبل الشديد» (وكان ذلك في حدود ١٠ نيسان ١٨٤٨م) وهناك عهد به إلى يحيى خان صهر محمد شاه. وبالرغم من أنه تصرف في البداية بكل شدة وصرامة إلا أنه اضطر آخر الأمر إلى أن يخضع لسلطان سحر سجينه. لا بل إن أهل قرية چهريق الأكراد الذين كانت كراهيتهم للشيعة تفوق كراهية أهل ماه كو لم يستطيعوا أن يقاوموا تأثير السجين النفاذ. فكنت تراهم ـ هم أيضاً ـ كل صباح يقتربون من القلعة قبل أن يباشروا أي عمل ويسجدون تقديساً لنزيلها المقدس. ولقد شهد شاهد عيان أوروبي عندما كتب في سياق مذكراته عن حضرة الباب فقال: «بلغ من تزاحم الناس وتدافعهم أن ضاق بهم الفناء ولم يتسع لهم جميعاً فظلت الأغلبية وقوفاً في الشارع يستمعون في انتباه ونشوة إلى آيات القرآن الجديد».

والواقع أن الهياج الذي ثار في چهريق يكسف كل ما شهدته ماه كو. ذلك لأن السادة الأشراف والعلماء الكبار، بل وموظفي الحكومة بدأوا يدخلون في دين السجين بسرعة وجرأة. وبلغ هذا الأمر قمته عندما آمن ميرزا أسد الله الشهير بالديّان، وكان من أكابر رجال الدولة ورجال الأدب، وهو الذي وهب له حضرة الباب «العلم المكنون المخزون» وشرفه بأنه «موضع سر الله الواحد الصمد» وكذلك عندما وصل إلى چهريق درويش كان نواباً في الهند من قبل، رأى حضرة الباب في المنام يأمره بأن يتخلى عن ماله وجاهه، ويقبل على قدميه ليلقاه في آذربيجان. وما تكاد أنباء هذه الحوادث المثيرة

لها فاضطر إلى أن يخفّف من حدة إجراءاته تكفيراً منه عما سلف، وبلغ من تساهله أنه أخذ يسمح لسيل متزايد من الزائرين المتعطّشين المخلصين بدخول القلعة. وكان من بينهم الملاّ حسين المثابر المغوار الذي قطع الطريق على قدميه من مشهد في شرق إيران إلى ماه كو في غربها الأقصى، واستطاع بعد هذه الرّحلة المضنية أن يحتفل بالنوروز (١٨٤٨ م) مع محبوبه.

على أن الجواسيس المكلفين بمراقبة علي خان أخطروا الحاج ميرزا آقاسي بما آلت إليه الأمور. فعزم على أن ينقل حضرة الباب إلى قلعة چهريق التي لقبها حضرته بـ«الجبل الشديد» (وكان ذلك في حدود ١٠ نيسان ١٨٤٨م) وهناك عهد به إلى يحيى خان صهر محمد شاه. وبالرغم من أنه تصرف في البداية بكل شدة وصرامة إلا أنه اضطر آخر الأمر إلى أن يخضع لسلطان سحر سجينه. لا بل إن أهل قرية چهريق الأكراد الذين كانت كراهيتهم للشيعة تفوق كراهية أهل ماه كو لم يستطيعوا أن يقاوموا تأثير السجين النفاذ. فكنت تراهم ـ هم أيضاً ـ كل صباح يقتربون من القلعة قبل أن يباشروا أي عمل ويسجدون تقديساً لنزيلها المقدس. ولقد شهد شاهد عيان أوروبي عندما كتب في سياق مذكراته عن حضرة الباب فقال: «بلغ من تزاحم الناس وتدافعهم أن ضاق بهم الفناء ولم يتسع لهم جميعاً فظلّت الأغلبية وقوفاً في الشارع يستمعون في انتباه ونشوة إلى آيات القرآن الجديد».

والواقع أن الهياج الذي ثار في چهريق يكسف كل ما شهدته ماه كو. ذلك لأن السادة الأشراف والعلماء الكبار، بل وموظفي الحكومة بدأوا يدخلون في دين السجين بسرعة وجرأة. وبلغ هذا الأمر قمته عندما آمن ميرزا أسد الله الشهير بالديّان، وكان من أكابر رجال الدولة ورجال الأدب، وهو الذي وهب له حضرة الباب «العلم المكنون المخزون» وشرفه بأنه «موضع سر الله الواحد الصمد» وكذلك عندما وصل إلى چهريق درويش كان نواباً في الهند من قبل، رأى حضرة الباب في المنام يأمره بأن يتخلى عن ماله وجاهه، ويقبل على قدميه ليلقاه في آذربيجان. وما تكاد أنباء هذه الحوادث المثيرة

تبلغ تبريز حتى تنتقل منها إلى طهران. ومرة أخرى يجد الحاج ميرزا آقاسي نفسه مضطراً إلى أن يتدخل. وكان والد الديّان صديقاً حميماً لذلك الوزير، فأفصح له عن قلقه الشديد من الطريقة التي يعتنق بها رجال الدولة المقتدرون هذا الدين الجديد. ولكي تخف حدة الهياج الصاعد استدعي حضرة الباب إلى تبريز، وخوفاً من حماسة أهل آذربيجان فكر الموكلون بحراسته أن يغيروا طريقهم ليتجنّبوا مدينة خوي ويمروا بدلاً منها بأرومية. فلما بلغ حضرة الباب هذه المدينة رحب به الأمير ملك قاسم ميرزا وأكرم وفادته، بل إن الناس شاهدوه في يوم من أيام الجمعة وهو يصحب ضيفه إلى الحمام العام سائراً على قدميه بينما كان الضيف راكباً، على حين حاول أتباع الأمير أن يصدوا الجموع الغفيرة التي كانت تتدافع وتتزاحم بحماسة وشوق إلى الفوز بلمحة من هذا السجين المدهش الرائع. وغرقت تبريز هي الأخرى في حماسة فياضة جارفة فاستقبلته بحفاوة بالغة وأكرمت وفادته أيما إكرام. ولقد بلغ من هياج الشعور العام أن السلطات عينت لحضرة الباب مكاناً خارج بوابات المدينة. إلا أن هذا التدبير عجز عن تهدئة الهياج السائد. ولم يفد التهديد والوعيد ولا المنع والقمع، بل عملت على زيادة حدة الموقف حتى بلغ حد التأزم. وما إن بلغت الأمور هذا الحد حتى أصدر الصدر الأعظم أمره التاريخي لكبار رجال الدين في تبريز بأن يجتمعوا على الفور ليتخذوا التدابير الفاعلة الحاسمة التي تكفل إخماد لهيب هذه النيران المتأججة الأكّالة إلى الأبد.

إن الظروف المحيطة باستنطاق حضرة الباب ـ نتيجة لهذا الإجراء العاجل ـ تقوم شاخصاً من أهم الشواخص في رسالته المؤثرة. ذلك لأن النية المبيتة من وراء هذا الاجتماع كانت تجريم السجين على الملأ، ومناقشة ما يجب أن يتخذ من التدابير الرامية إلى استئصال شأفة ما بدا لهم مروقاً وإلحاداً. إلا أن ذلك الاجتماع أتاح له أرفع فرصة سنحت له في حياته لكي يؤكد دعاوى ظهوره تأكيداً علنياً رسمياً وبلا تحفظ، ففي مقر الحكومة، وبمحضر من حاكم آذربيجان ناصر الدين ميرزا ولي العهد، وتحت رئاسة الحاج ملا محمود نظام العلماء مربي الأمير، وأمام كبار رجال الدين

المجتمعين وزعماء طائفة الشيخيّة وشيخ الإسلام وإمام الجمعة جلس حضرة الباب في المكان المخصص لولي العهد وأجاب بنبرة مجلجلة عن السؤال الذي وجهه إليه رئيس الاجتماع إجابته المشهورة قال: «* أنا هو ذلك القائم الموعود الذي ظللتم ألف سنة تقولون لظهوره (عجل الله فرجه)، أنا هو ذلك القائم الذي كنتم تنتظرون ظهوره. وإن طاعتي واجبة على أهل الشرق والغرب جميعاً».

طأطأ الحاضرون رؤوسهم برهة وقد استبدّ بهم الذهول والروع الصامت ثم استجمع المُلاّ محمد الممقاني الأعور الأشيب اللحية المارق وقاحته التي عرف بها، ونهره واتهمه بأنه عون شرير حقير من أعوان الشيطان. فأجابه الشاب الثابت الجنان بأنه ما زال يؤمن بما أكده لهم. ثم وجه إليه نظام العلماء سؤالاً فأكد له حضرة الباب أن كلماته وحدها هي الدليل القاطع والبرهان الساطع على صدق دعوته، واستشهد على صحة تأكيده بآيات من القرآن، وادعى أنه قادر على أن ينزل في يومين وليلتين من الآيات ما يعادل ذلك الكتاب كله. وإجابة على نقد وجه إليه بشأن خطأ نحوي ورد في كلامه تلا عليهم بعض آيات من القرآن وردت فيها شواهد مماثلة. وبعد أن أعرض في حزم ووقار عن تعليق طائش بعيد عن الموضوع رشقه به أحد الحاضرين فض بنفسه ذلك الاجتماع باقتضاب بأن نهض من مكانه وغادر الغرفة، فانفض الاجتماع وتفرق أعضاؤه كاسفي البال منقسمين على أنفسهم متخاذلين يأخذ بكظمهم الغيظ المرير والهوان لأنهم لم يفلحوا في بلوغ مناهم. لم ينته هذا الاجتماع بإخضاع روح الأسير وإذلالها، ولا بإقناعه بضرورة العدول عن دعوته والتخلي عن رسالته وإنما انتهى إلى إجماع الرأي بعد كثير من النقاش والجدل على الحكم بجلد حضرة الباب على قدميه، على أن يتولى ذلك ميرزا علي أصغر شيخ الإسلام القاسي الجشع وفي مصلاّه. أما الحاج ميرزا أقاسي فلم يسعه بعد أن فشلت مساعيه إلاّ أن يأمر بإعادة حضرة الباب إلى چهريق.

هذا الإعلان المثير، هذا الإعلان الرسمي المطلق لرسالة حضرة الباب الإلٰهية لم يكن هو النتيجة الوحيدة لتلك الفعلة الرعناء التي أدت إلى اعتقال صاحب هذا الظهور العظيم في جبال آذربيجان ثلاث سنوات. بل إن هذه الفترة من الاعتقال في ركن قصيّ من المملكة بعيداً عن مهب العواصف في شيراز وأصفهان وطهران أتاحت له الفراغ الكافي للشروع في أعظم أعماله، والعكوف على آثار فرعية أخرى أريد بها أن تبسط المجال الكامل لدورته العظيمة رغم قصر مدتها، وتطلق قوتها بتمامها، وبفضل ضخامة الآثار الفائضة من قلمه وتنوع الموضوعات التي تناولتها هذه الآثار، يحتل وحيه وإلهامه مكاناً فذاً فريداً لا مثيل له في تواريخ الأديان السابقة. حتى أنه ليؤكد ـ وهو ما زال نزيل ماه كو ـ أن آثاره التي تناولت هذه الموضوعات المتباينة أشد التباين قد بلغت حتى ذلك الحين خمسمائة ألف آية. وبذلك يشهد حضرة بهاء الله في كتاب الإيقان أنه «* نزل من غمام الرحمة الرحمانية هذا ما لم يحصه أحد حتى اليوم وإنّا لا نجد الآن منها إلا عشرين مجلداً، وناهيك بما فقد، وناهيك بما نهب وسلب ووقع في أيدي المشركين ولم يعلم أحد ماذا فعلوا به». ولا يقل أخذاً بمجامع القلوب تنوع ما تعرضه علينا تلك الآثار الضخمة من أنماط ونماذج، فمن مناجاة وأدعية وخطب إلى ألواح للزيارة وبحوث علمية ورسائل عن العقائد الدينية إلى ابتهالات وتفاسير للقرآن وللأحاديث المختلفة، إلى ألواح وجهها لكبار رجال الدين في المملكة، إلى أحكام وشرائع لتثبيت أركان الدين وتوجيه مناشطه.

أنزل في شيراز، في المرحلة الأولى من ولايته ما وصفه حضرة بهاء الله بأنه «* أول وأعظم وأكبر جميع كتب» الدورة البابية، ألا وهو تفسير سورة يوسف الشهير بـ «قيوم الأسماء». وكانت الغاية الأساسية منه هي التنبؤ بما سوف يلقاه يوسف الحقيقي (حضرة بهاء الله) في الدورة اللاحقة على يد أخيه من لحمه ودمه وعدوه اللدود في آن واحد. ويشتمل الكتاب على أكثر من تسعة آلاف وثلاثمائة آية، وينقسم إلى مائة وإحدى عشرة سورة، تتناول كل

سورة منها تفسير آية من آيات السورة المذكورة. ويستفتح بنفخة حضرة الباب في الصور، وإنذاراته الشديدة لـ «معشر الملوك وأبناء الملوك» وينذر بمصير محمد شاه ويأمر الصدر الأعظم ميرزا آقاسي بأن يتنازل عن منصبه، وينتقد النظام المذهبي الإسلامي كله، ويحذر المنتمين إلى مذهب الشيعة بصفة خاصة ويتغنى بمحامد حضرة بهاء الله ويتنبأ بمجيئه داعياً إياه «بقية الله» و«السيد الأكبر». ويؤكد تأكيداً حازماً أن الدورة البابية دورة مستقلة وعالمية، ويميط اللثام عن مضامينها وينبه على نصر صاحبها نصراً ملزماً مبيناً. وفضلاً عن ذلك يوجه إلى «أهل الغرب» نداءه «أن اخرجوا من دياركم لنصر الله» وينذر شعوب الأرض بـ «انتقام الله الكبير الأكبر» ويهدد العالم الإسلامي كله بـ «النّار الأكبر» إن هم أعرضوا عن الشريعة الجديدة، ويلمح إلى استشهاده، ويثني على المنزلة الرفيعة التي قدرت لأهل البهاء «أصحاب السفينة الحمراء». ويتنبأ بأفول بعض الكواكب العظيمة من أفق سماء الدورة البابية وسقوطها، بل إنه ليتنبأ بأنه «سوف ينتقم الله» في «رجعتنا» وفي «دار الآخرة» من مغتصبي الإمامة الذين «حاربوا الحسين على أرض الفرات».

كان هذا هو الكتاب الذي اعتبره البابيون ـ طوال ولاية حضرة الباب كلّها تقريباً ـ قرآن أهل البيان، نزل فصله الأول ـ وهو أشد الفصول وقعاً ـ بمحضر من المُلاّ حسين ليلة إعلان صاحبه لبعثته، وحمل هذا التلميذ إلى حضرة بهاء الله بعض صحائفه باعتبارها بواكير الظهور الجديد الذي سرعان ما ظفر بولائه وحماسته، وترجمت الطاهرة العبقرية الموهوبة نصه الكامل إلى الفارسية، وأشعلت فقراته نيران العداوة والبغضاء في صدر حسين خان، وعجلت بانطلاق أول دفعة من الاضطهاد في شيراز، وأسرت صفحة واحدة منه لب الحجة ونفذت إلى سويداء قلبه، وألهبت محتوياته حماسة المدافعين الشجعان عن قلعة الشيخ طبرسي وأبطال نيريز وزنجان.

هذا الكتاب ذو القدر المجيد والأثر البعيد تلاه لوح حضرة الباب الأول لمحمد شاه ولوحان للسلطان عبد المجيد ونجيب باشا والي بغداد و«صحيفة

بين الحرمين» التي نزلت بين مكة والمدينة إجابة عن أسئلة ميرزا محيط الكرماني، ورسالته إلى شريف مكة، وكتاب «الروح» على سبعمائة سورة وكتاب «الخصائل السبعة» الذي طالب فيه بتغيير صيغة الأذان و«رسالة الفروع العدلية» التي ترجمها المُلاّ محمد تقي الهراتي إلى الفارسية، و«تفسير سورة الكوثر» الذي أحدث كل هذا التحول في روح وحيد، و«تفسير سورة والعصر» بمنزل إمام الجمعة بأصفهان، ورسالته التي كتبها في إثبات «النبوة الخاصة» استجابة لطلب منوچهر خان، واللوح الثاني لمحمد شاه الذي يطلب فيه أن يلقاه حتى يبين له حقائق الدين الجديد ويبدد شكوكه، وألواحه المرسلة من قرية سياه دهان إلى علماء قزوين وللحاج ميرزا آقاسي يسأله عن سبب عدوله المفاجئ عن عزمه.

إلا أن الجانب الأكبر من الآثار الفائضة عن فكر حضرة الباب الخصيب كان من نصيب فترة اعتقاله في ماه كو وچهريق. وربما انتمى إلى هذه الفترة ما لا يحصى من الرسائل، كما يشهد بذلك حضرة بهاء الله دون غيره. وهي الرسائل التي وجهها حضرة الباب بصفة خاصة إلى كل رجل من رجال الدين في كل مدينة من مدن إيران، وإلى العلماء المقيمين بالنجف وكربلاء، ويحصي في كل رسالة منها الأخطاء التي ارتكبها كل واحد منهم بالتفصيل، وفي أثناء اعتقاله تسعة أشهر في قلعة ماه كو أنزل ما لا يقل عن تسعة تفاسير للقرآن، كما يشهد الشيخ حسن الزنوزي الذي استنسخ كل ما أملاه حضرة الباب على كاتب وحيه. أما هذه التفاسير فلا يعرف أحد عن مصيرها شيئاً، وإن كان أحدها يفوق «قيوم الأسماء» الشهير من بعض الوجوه حسبما يؤكد صاحبه نفسه على الأقل.

وبين جدران تلك القلعة نزل «البيان» ذلك الكتاب العظيم الذي يحتوي على شرائع الدورة الجديدة وأحكامها، والخزانة التي تكتنز معظم إشارات حضرة الباب ومدائحه وتحذيره بشأن «من يظهره الله». وهو كتاب لا شبيه له ولا نظير بين الكتب الدينية التي فاضت عن قلم مؤسس الدورة البابية، وهو

يتألف من تسعة أبواب يسمى كل باب منها واحداً وكل واحد منها يشتمل على تسعة عشر فصلاً ما عدا الواحد الأخير فهو يشتمل على عشرة فصول فقط. ولا ينبغي لنا أن نخلط بين هذا الكتاب وبين البيان العربي الأصغر حجماً والأقل شأناً والذي نزل في أثناء الفترة نفسها. وقد نزل البيان الفارسي تحقيقاً للنبوءة الإسلامية: «فتى من بني هاشم... سيأتي بكتاب جديد وشرع جديد» وقد حفظ من التحريف والتصحيف الذي أصاب الكثير من آثار حضرة الباب الأقل شأناً، وهو يضم ما يقرب من ثماني آلاف آية، وهو يقوم من الآثار البابية مقام القطب من الرحى، ويجب أن يعتبر تمجيداً للموعود وثناء عليه قبل أن يكون شرائع وأحكاماً وتكاليف ودستوراً دائماً للأجيال القادمة. وقد أنهى هذا الكتاب دورة العمل بالشرائع والأحكام التي فرضها القرآن بشأن الصلاة والصوم والزواج والطلاق والميراث، وفي الوقت نفسه جاء مضمونه مصدقاً بكليته لرسالة حضرة محمد بنفس القدر الذي نسخ به نبي الإسلام من قبله وصايا الإنجيل، ومع ذلك اعترف بسماوية دين السيد المسيح، وفضلاً عن ذلك فسّر باقتدار وبراعة معنى بعض الاصطلاحات التي تواترت في كتب الدورات السابقة المقدسة من مثل الجنة والنار والموت والبعث والرجعة والميزان والساعة واليوم الآخر وما إلى ذلك. ولما كان هذا الكتاب شديداً صارماً ـ عن عمد ـ فيما فرض من الأحكام، داعياً إلى التقدم والتطور فيما أدخله من مبادئ كان الهدف منها أن توقظ رجال الدين والناس من سباتهم الروحي المديد، وتكيل للمنظمات العتيقة الفاسدة ضربة مباغتة قاضية، فقد أعلن في ثنايا مواده الشديدة حلول اليوم المنتظر: «يوم يدع الداع إلى شيء نكر»[1] يوم «يصنع ما صنع رسول الله، ويهدم ما كان قبله كما هدم رسول الله أمر الجاهلية»[2].

ويجب أن نلاحظ أنه قد وردت في الواحد الثالث من هذا الكتاب فقرة

---

(١) القرآن الكريم سورة القمر الآية ٦.

(٢) أورد الحديث «النعماني» في كتاب «الغيبة»، الصفحة ١٥٢ طبعة بيروت عام ١٩٨٣م.

جديرة بأن تعدّ من أعمق العبارات الواردة في كل آثار حضرة الباب مغزى، وذلك لإشارتها الواضحة اللائحة لاسم الموعود ولتنبّؤها بالنظام الذي سوف يتطابق مع ظهوره في فترة تالية. وهذه الفقرة المشحونة بالتنبؤ هي: «طوبى لمن ينظر إلى نظم بهاء الله ويشكر ربه فإنه يظهر ولا مرد له من عند الله في البيان». مع نفس ذلك النظام الذي صوره ذلك الكتاب طابق صاحب الظهور الموعود نظامه بعد عشرين سنة مستخدماً نفس العبارة في كتابه «الأقدس»، مؤكداً أن نظام العالم قد اضطرب من هذا «النظم الأعظم» الذي دفع بحياة الإنسان إلى التطور. ومعالم ذلك النظام نفسه هي التي وضحها مركز ميثاق حضرة بهاء الله، ومبين تعاليمه المختار - في ألواح وصيته وعهده - أثناء مرحلة تالية من تطور الدين، وأساس ذلك النظام نفسه هو الذي يتعاون الآن على إقامته - في هذا العصر التكويني للدين نفسه - أمناء ذلك الميثاق نفسه والممثلون المنتخبون في المجتمع البهائي المترامي الأطراف. وبنيان ذلك النظام نفسه هو البنيان الذي يبلغ كماله ببروز الجامعة البهائية العالمية أو بمعنى آخر ملكوت الله على الأرض، ذلك الملكوت الذي يجب أن يشهده نهائياً العصر الذهبي لهذا الظهور المبارك في تمام الوقت.

وكان حضرة الباب ما زال في ماه كو حين كتب أشد ألواحه تفصيلاً وتبياناً لمحمد شاه، واللوح يبدأ بحمد الله والثناء على وحدانيته والصلاة والسلام على المرسلين والأئمة الاثني عشر، وينبه تنبيهاً واضحاً على قدسية صاحبه وعلى المواهب الفائقة الخارقة التي شحن بها ظهوره، وكان دقيقاً إلى أبعد حدود الدقة في استشهاده بالآيات والأحاديث المؤيدة لدعواه الجريئة، قاسياً في حكمه على بعض رجال الدولة وممثلي سلطة الشاه الإدارية ولا سيما حسين خان «الخبيث الملعون» كما كان مثيراً للشجن في تصويره للإهانات التي لحقت به والمشقات التي كابدها. فشابهت هذه الوثيقة التاريخية في كثير من الوجوه لوح السلطان الذي وجهه حضرة بهاء الله من سجن عكاء في ظروف مماثلة إلى ناصر الدين شاه، فجاء أطول خطاب وجهه حضرة بهاء الله إلى حاكم واحد.

أما كتاب «الدلائل السبعة» ـ أهم آثار حضرة الباب الاستدلالية ـ فقد نزل خلال الفترة نفسها. وفضلاً عن يسره الملحوظ ودقته الرائعة وأصالة آرائه وإفحام استدلاله، وبغضّ الطرف عن كثرة وتنوع البراهين التي ساقها تدليلاً على صحة رسالته فإن هذا الكتاب جدير بالملاحظة للّوم الذي وجهه إلى «* * مظاهر الملكية السبعة الذين يملكون كل الممالك» في عهده، وللطريقة التي يؤكد بها مسؤولية رجال الكنيسة ومسلكهم الذي اتبعوه في عصر سابق، إذ أنهم لو آمنوا بصحة رسالة حضرة محمد لتابعهم جمهور الناس من أهل دينهم بلا جدال.

وفي أثناء اعتقال حضرة الباب في قلعة چهريق، حيث قضى معظم السنتين الباقيتين من حياته، نزل «لوح الحروفات» تشريفاً للديان، وهو لوح أسيء فهمه أول الأمر باعتباره عرضاً لعلم الفراسة، إلا أنه فهم فيما بعد أنه يوضح سر «المستغاث» من ناحية، ويلوّح من طرف خفي إلى الأعوام التسعة عشر التي تفصل بين إعلان ظهور حضرة الباب وظهور حضرة بهاء الله من ناحية أخرى. وفي خلال تلك السنوات التي أظلمتها كلها قسوة اعتقال حضرة الباب، والإهانات الشديدة التي لحقت به، وأنباء البلايا التي نزلت بأبطال مازندران ونيريز، أنزل حضرة الباب بعد عودته من تبريز مباشرة لوحه للحاج ميرزا آقاسي الذي يفضح فيه مخازيه، وهو لوح طرز بطراز البيان الجريء المؤثر، ولم يغادر شيئاً من الآثام إلا أحصاه. ثم أرسل إلى الحجة الشجاع فسلمه هذا إلى ذلك الوزير الخسيس، ولقد أكد حضرة بهاء الله صحة ذلك.

إلى هذه الفترة من فترات الاعتقال في قلعتي ماه كو وچهريق، وهي فترة لا تضارع في خصوبتها، وإن كانت مريرة في إهاناتها، متزايدة في أحزانها، تكاد تنتمي معظم الإشارات المكتوبة التي شعر حضرة الباب بضرورة ذكرها ـ تحذيراً أو ابتهالاً أو مناجاة ـ من قبل أن تحل ساعة بلائه الأعظم، مشيراً بها إلى صاحب الظهور الذي يخلف ظهوره وشيكاً. ولما كان مدركاً منذ البداية طبيعة رسالته المزدوجة، أي أنه صاحب ظهور مستقل،

ومبشر بظهور أعظم من ظهوره في آن واحد، فإنه لم يقتنع بذلك العدد الضخم من التفاسير والمناجاة والشرائع والأحكام والأبحاث والرسائل والمواعظ والخطب التي فاضت عن قلمه بلا توقف ولا انقطاع فحسب بل رأى أنه لا بد له اليوم من أن يشفع الميثاق الأكبر بميثاق أصغر يأخذ من أتباعه جميعاً بشأن من وصف مجيئه بأنه ثمرة دورته وهدفها النهائي، حيث أن ذلك الميثاق الأكبر الذي أبرمه الله منذ الأول الذي لا أول له على لسان النبيين والمرسلين جميعاً، وأخذه من بني آدم كافة بشأن الظهور الجديد قد تحقق فعلاً، كما يؤكد في آثاره. نعم إن هذا الميثاق الأصغر كان سمة كل دين سابق بلا تمييز ولا استثناء. وكان قائماً في صور شتى، وعلى درجات متفاوتة من التأكيد وكان دائماً مغلفاً بأستار العبارات، مكنوناً في أصداف النبوءات الباطنة والاستعارات المبهمة والأحاديث غير الموثوق بها، وفي الآيات المنتثرة المتشابهة من الكتب المقدسة. إلا أن هذا الميثاق في الدورة البابية قدر له أن يبرم في لغة واضحة لائحة لا يرقى إليها الشك بالرغم من أنه لم ينفرد بوثيقة قائمة برأسها. وعلى خلاف الأنبياء الذين سبقوه والذين اكتنف الغموض مواثيقهم، وعلى خلاف حضرة بهاء الله الذي أفرد لميثاقه المحدد بوضوح رسالة خاصة به أسماها «كتاب عهدي»، اختار حضرة الباب أن ينثر في ثنايا كتاب شريعته ـ البيان الفارسي ـ ما لا يعد ولا يحصى من الآيات، بعضها كان غامضاً عن عمد والكثير منها كان واضحاً وقاطعاً بما لا يقبل الشك. في هذه الآيات يحدد حضرة الباب تاريخ الظهور الموعود، ويثني على محامده ونعوته، ويؤكد طبيعته الفائقة ويخصّه بالقوى والامتيازات غير المحدودة ويزيل كل حاجز يمكن أن يقوم عقبة في سبيل الاعتراف به. حتى أن حضرة بهاء الله أشار إلى حضرة الباب في «كتاب بديع» بقوله: «* ما قصر في نصحه أهل البيان وتبليغه إياهم، لم يحدث في أي عصر ولا عهد أن ذكر الظهور السابق الظهور اللاحق بمثل هذا التفصيل والتصريح».

وقد عني حضرة الباب بإعداد بعض أصحابه بصبر وأناة لتلقي الظهور الوشيك. وأكد لآخرين مشافهة أنهم سوف يحيون حتى يروا يومه. وتنبأ

صراحة المُلاّ باقر ـ أحد حروف الحيّ ـ بأنه سوف يلقى الموعود المحبوب وجهاً لوجه، ولسيّاح ـ وهو تابع آخر من أتباعه ـ أكد تأكيداً شفهياً مماثلاً. أما المُلاّ حسين فقد وجهه حضرة الباب لطهران مؤكداً له أن هناك سراً في هذه المدينة لا يضارعه نور الحجاز ولا نور شيراز، أما القدوس فقد وعده حضرة الباب ـ يوم فارقه الفراق الأخير ـ بأنه سوف يفوز بمحضر من هو المطلوب الوحيد لتقديسهم ومحبتهم، وأعلن للشيخ حسن الزنوزي ـ وقت أن كان بماه كو ـ أنه سوف يشاهد في كربلاء طلعة الحسين الموعود، وعلى الديّان أنعم بلقب «الحرف الثالث المؤمن بمن يظهره الله» بينما كشف لعظيم في كتاب «الشؤون الخمسة» عن اسم ذلك الذي يبلغ بدورته الكمال وأعلن له اقتراب مقدمه.

لم يعين حضرة الباب خليفة ولا نائباً وامتنع عن أن يختار مفسراً أو مبيناً لتعاليمه. ذلك لأن إشارته للموعود بلغت من الوضوح والشفافية، ودورته كان مقدراً لها أن تبلغ من قصر المدة بحيث لم تكن هناك ضرورة لهذا ولا لذاك. وكل ما فعله ـ طبقاً لشهادة حضرة عبد البهاء في «مقالة سائح» ـ هو أنه أخذ بنصيحة حضرة بهاء الله ومؤمن آخر من أتباعه، وعين ميرزا يحيى رأساً صورياً انتظاراً لظهور الموعود. وذلك حتى يتمكن حضرة بهاء الله من أن يرتقي بالأمر العزيز على قلبه في جو من الأمن النسبي.

يشير حضرة الباب في البيان إلى الموعود فيؤكد أن «* البيان من أوله إلى آخره مكمن جميع صفاته وخزانة ناره ونوره» وفي موضع آخر يصرح بقوله: «* إن فزت بظهوره وأطعته فقد كشفت عن ثمرة البيان وإلا فأنت لست أهلاً للذكر عند الله» وفي الكتاب نفسه يحذر أتباعه جميعاً فيقول: «يا أهل البيان لا تفعلوا ما فعل أهل الفرقان فتضيعوا ثمرات ليلكم». وإنذاره القاطع: «* لا يمنعكم البيان وما نزل فيه عن جوهر الوجود ومالك الغيب والشهود». وهذا تحذيره الخطير الذي وجهه لوحيد: «إياك إياك يوم ظهوره أن تحتجب بالواحد البيانية [أي حروف الحي الثمانية عشر وحضرة الباب]

فإن ذلك الواحد خلق عنده». ومرة أخرى: «أن يا كل شيء في البيان! فلتعرفن حد أنفسكم. فإن مثل نقطة البيان يؤمن بمن يظهره الله قبل كل شيء. وإنني أنا بذلك لأفتخرن على من في ملكوت السموات والأرض».

وإلى تاريخ مجيء الظهور الموعود أشار بقوله: «وفي سنة التسع أنتم كل خير تدركون»، «في سنة التسع أنتم بلقاء ربكم ترزقون». ومرة أخرى «فإن لكم بعد حين [٦٨] أمر ستعلمون». وبيّن بياناً أشدّ تخصيصاً بقوله: «من أول ذلك الأمر إلى قبل أن يكمل تسع كينونات الخلق لم تظهر، وإن كل ما قد رأيت من النطفة إلى ما كسوناه لحماً ثم اصبر حتى تشهد خلق الآخر، هنالك قل فتبارك الله أحسن الخالقين». وقال لعظيم: «إصبر حتى يقضي عن البيان تسعة فإذا قل فتبارك الله أحسن المبدعين». وفي فقرة من الفقرات المرموقة أشار إلى السنة التاسعة عشرة بقوله: «* راقبوا من مبدأ الظهور إلى عدد الواحد [١٩]». بل إنه قرر ذلك في وضوح أكثر حين قال: «* يظهر مالك يوم الدين في نهاية الواحد [١٩] وابتداء الثمانين [١٢٨٠ هـ]». ومن شدة لهفه على ألاّ يصدّ الناس عن الموعود اقتراب الظهور الموعود بسرعة قال: «* لو ظهر في هذه اللحظة لكنت أول العابدين وأوّل السّاجدين».

ويتغنّى بمحامد الظهور المنتظر بقوله: «وقد كتبت جوهرة في ذكره، وهو أنه لا يستشار بإشارتي ولا بما ذكر في البيان» و«إنني أنا أول عبد قد آمنت به وبآياته». ويؤكد تأكيداً له مغزاه حين يقول: «* إن نطفة الظهور القادم كانت وستكون أقوى من جميع أهل البيان». وحين يقول: «جميع البيان ورقة من أوراق جنته». وحين يؤكد تأكيداً مماثلاً فيقول: «* إنك لو تلوت آية واحدة من آيات من يظهره الله لكان ذلك أفضل من أن تحفظ البيان كله عن ظهر قلب لأن تلك الآية الواحدة تنجيك في ذلك اليوم، ولكن البيان كله لن ينجيك». «* البيان اليوم في مقام النطفة وآخر كمال للبيان عند أول ظهور من يظهره الله». «* * مجد البيان وجلاله مستمد ممن يظهره الله». «فإن كل ما رفع في البيان كخاتم في يدي، وإنني أنا خاتم في يدي من يظهره

الله جل ذكره يقلب كيف يشاء لما يشاء بما يشاء إنه لهو المهيمن المتعال». وهو يجيب وحيداً وحرفاً آخر من حروف الحيّ عن الموعود فيقول: «يستحيي اليقين أن يوقن فيه... ويستحيي الدليل أن يدل عليه». وأضاف مخاطباً وحيداً أيضاً: «لو أيقنت بأنك يوم ظهوره لا تؤمن به لأرفعت عنك حكم الإيمان... ولو علمت أن أحداً من النصارى ممّن لم يؤمن بي آمن به لجعلته قرة عيناي».

وأخيراً إليك هذه المناجاة المؤثرة التي يقول فيها: «فاشهد عليّ بأني بذلك الكتاب قد أخذت عهد ولاية من تظهرنه عن كل شيء قبل عهد ولايتي. وكفى بك وبمن آمن بآياتك عليّ شهداء، وإنك أنت حسبي» وهذه شهادة أخرى فائضة من قلمه قال: «إني ما قصّرت عن نصحي ذلك الخلق... وإن يؤمنن به يوم ظهوره كل ما على الأرض فإذا يسترّ كينونتي حيث كل قد بلغوا إلى ذروة وجودهم... وإلا يحزن فؤادي. وإني قد ربّيت كل شيء لذلك فكيف يحتجب أحد؟».

لاحظنا في الصفحات السالفة كيف أن السنوات الثلاث الأخيرة الحافلة بالأحداث من ولاية حضرة الباب لم تشهد إعلان رسالته رسمياً وعلنياً فحسب بل وشهدت كذلك فيضاً لم يسبق له مثيل من آثاره الملهمة، بما في ذلك إنزال شرائع دورته وإبرام الميثاق الأصغر ليحمي وحدة أتباعه ويمهد الطريق لقدوم الظهور الأقوى من ظهوره بما لا يقبل المقارنة. وفي غضون الفترة نفسها ـ وهي الأيام الأولى من اعتقاله في قلعة چهريق ـ اعترف أصحابه باستقلال دينه الجديد وأكدوه علانية وبلا تحفظ. أنزل مؤسس الدورة شرائعها في إحدى القلاع القائمة على جبال آذربيجان بينما كان أتباع الدورة نفسها يفتتحون في نفس الوقت مؤتمراً ينعقد في إحدى السهول على حدود مازندران.

ولما كان حضرة بهاء الله على صلة وثيقة بحضرة الباب عن طريق المراسلة المستمرة، وكان القوة الموجهة للمناشط المتعددة التي يقوم بها

زملاؤه من الأصحاب، فقد رأس المؤتمر ووجّه أعماله وأشرف عليها بصورة مستترة ولكنها فاعلة. وكان القدوس يعتبر قطب الجانب المحافظ في المؤتمر وكان يعارض في الظاهر الآراء المتطرفة التي تدلي بها الطاهرة المشتعلة حماسة، وذلك متابعة منه لخطّة محكمة سبق تدبيرها وأريد بها تخفيف حدة الهلع والفزع اللذين يثيرهما حتماً مثل هذا المؤتمر. وكان الغرض الأساسي من هذا الاجتماع تطبيق شريعة البيان بالانفصال الكامل المفاجئ العنيف عن الماضي كله بنظامه وتعصبه المذهبي وتقاليده وشعائره. أما الغرض الفرعي من المؤتمر فكان بحث وسائل تحرير حضرة الباب من اعتقاله القاسي في چهريق، ولقد تحقق الغرض الأول بصورة باهرة، أما الغرض الثاني فكان مقضياً عليه بالفشل منذ البداية.

وكان مرسح هذا الإعلان البالغ التحدي والبعيد الأثر قرية بدشت حيث استأجر حضرة بهاء الله ثلاثة بساتين في محيط بهيج، خصص بستاناً منها للقدوس وآخر للطاهرة، واحتفظ لنفسه بالثالث. واستضاف الأصحاب الواحد والثمانين الذين اجتمعوا من الأقاليم المختلفة من أول يوم اجتمعوا فيه إلى يوم تفرقوا، وفي كل يوم من الأيام الاثنين والعشرين التي أقامها في تلك القرية كان ينزل لوحاً يرتل أمام المؤمنين المجتمعين، وعلى كل مؤمن خلع اسماً جديداً دون أن يكشف له عن شخصية من أنعم عليه به، أما هو فقد تلقب «بالبهاء» منذ ذلك الحين. وأنعم على الحرف الأخير من حروف الحي باسم «القدوس» وعلى قرة العين بلقب «الطاهرة». بهذه الأسماء وجه إليهم حضرة الباب بعد ذلك الألواح النازلة لكل واحد منهم.

وكان حضرة بهاء الله هو الذي أدار دفة الأمور في هذه القصة الباقية بثبات ودون خطأ وعلى غير توقع ولا انتظار، وكان حضرة بهاء الله هو الذي بلغ بالاجتماع قمته النهائية المثيرة. ففي ذات يوم ألمت به وعكة ألزمته الفراش، فدخلت عليه الطاهرة ـ التي كانت تعد الرمز النبيل الناصع للعفة وتجسّد طهارة فاطمة الزهراء ـ وظهرت فجأة أمام الأصحاب المجتمعين

سافرة في كامل زينتها. وجلست عن يمين القدوس الفزع المغتاظ، وهتكت ببيانها الناري الأستار المغلقة لقداسة التكاليف الإسلامية، ونفخت في صور الدورة الجديدة وأعلنت افتتاحها. وكان الأثر صاعقاً خاطفاً، لحظتها بدت لعين الناظرين الشاعرين بالخزي والعار أنها، وهي الطاهرة الناصعة المبجلة بصورة تجعل مجرد النظر إلى ظلها كبيرة لا تغتفر، قد جلبت العار على نفسها، وأخزت الدين الذي اعتنقته، وشوهت الطلعة الخالدة التي ترمز إليها. هنالك اكتسحت أرواحهم مشاعر الرعب والغضب والحيرة وشلت تفكيرهم. أما عبد الخالق الأصفهاني الذي أخذ منه الهلع والاضطراب كل مأخذ فقد مزّق عنقه بيديه وفرّ من وجهها منفعلاً يلطخه الدم. وارتد قليل من الأصحاب عن دينهم وولّوا الأدبار، وجمد آخرون أمامها لا يبدون حراكاً ولا يتكلمون، ولا بد أن بعضهم تذكر ـ وقلبه يخفق بشدة ـ ذلك الحديث الإسلامي عن ظهور فاطمة الزهراء سافرة وهي تعبر الصراط يوم القيامة. أما القدوس الذي أسكته الهياج والغضب، فقد بدا أنه يتحين الفرصة ليضرب عنقها بالسيف الذي صدف أنه كان يحمله في يده آنذاك.

نهضت الطاهرة ثابتة الجنان غير هيّابة ولا وجلة تتهلل بشراً وسعادة. وانطلقت ترتجل بياناً بليغاً حاراً عجيباً أشبه ما يكون ببيان القرآن وجهته للبقية الباقية من المؤتمر وختمته بقولها الجريء: «إني أنا الكلمة التي ينطق بها القائم والتي يفرّ منها نقباء الأرض ونجباؤها» ثم دعتهم إلى أن يحتضن كل واحد منهم أخاه ويحتفلوا بهذه المناسبة العظيمة.

في ذلك اليوم الباقي «نفخ في الصور» المذكور في القرآن[١] ووقعت «الواقعة»[٢] وشهدت الأيام التي تلت هذا الانفصال المثير عن طقوس الإسلام وتقاليده العريقة ثورة حقيقية في نظر هؤلاء الذين كانوا حتى آنذاك من

---

(١) القرآن الكريم، سورة الأنعام الآية ٧٣، سورة طه الآية ١٠٢، سورة المؤمنين الآية ١٠١، سورة يس الآية ٥١، سورة الزمر الآية ٦٨، سورة ق الآية ٢٠، سورة الحاقة الآية ١٣.

(٢) القرآن الكريم، سورة الواقعة الآية ١، سورة الحاقة الآية ١٥.

المستمسكين بشريعة حضرة محمد في عاداتهم ومناسكهم وعباداتهم. وبرغم اضطراب المؤتمر من مبتداه إلى منتهاه، وارتداد هذا النفر القليل الذي رفض أن يواجه تعطيل تكاليف الإسلام وشريعته فقد تحقق هدف المؤتمر بصورة كاملة رائعة. من قبل أربع سنوات فقط أعلن صاحب الظهور البابي رسالته للمُلاّ حسين في غرفته الخاصة بمنزله في شيراز، وبعد ثلاث سنوات من ذلك الإعلان ـ وبين جدران قلعة ماه كو ـ كان يملي على كاتب وحيه أحكام دورته الأساسية المميزة. وبعد مضي عام وجد أتباع حضرة الباب أنفسهم في قرية بدشت منضوين تحت لواء حضرة بهاء الله الذي كان بدوره أحد أصحاب حضرة الباب يعلنون عن نهاية تطبيق الشرائع الإسلامية المنزلة في القرآن ويحطمون قيود النظام العتيق. وبعد ذلك مباشرة كان حضرة الباب يدافع ـ وهو ما زال في سجنه ـ عن أعمال أصحابه بتأكيد على دعواه من أنه هو القائم الموعود تأكيداً قاطعاً رسمياً لا تحفظ فيه أمام ولي العهد وأقطاب الطائفة الشيخية وأكابر رجال الدين المجتمعين في عاصمة آذربيجان.

ولم يمض سوى أربع سنوات قصار وشيء طفيف على ميلاد الظهور البابي حتى نفخ في الصور إيذاناً بانتهاء الدورة العتيقة وافتتاح الدورة الجديدة. ولم يكن هناك من الأبهة والاحتفال ما يميز هذا التحوّل العظيم في تاريخ العالم الديني، كما أن مرسحه المتواضع لم يكن يتناسب مع هذا التحرر الكامل المثير المفاجئ من القوى المظلمة الغاشمة؛ قوى التعصب والتقليد والجهل وسيطرة رجال الدين. أما الجيش الجرار فلم يزد فرسانه عن امرأة واحدة وحفنة من الرجال الذين انخرطوا في سلكه من نفس الطبقات التي يهاجمونها، كان جيشاً أعزلاً مجرداً من القوة والثروة والجاه إلا فيما ندر، أما قائد الجيش نفسه فغائب أسير في قبضة أعدائه، وأما الميدان فقرية صغيرة في سهل بدشت على حدود مازندران، وأما النافخ في الصور فكانت امرأة وحيدة هي أنبل بنات جنسها في تلك الدورة، لا بل إن بعض إخوانها في الدين اتهموها بالإلحاد، وكانت الصيحة التي صاحتها هي أجراس الموت تقرع تشييعاً لشريعة قضت بالغة من العمر اثني عشر قرناً.

وبعد عشرين سنة أخرى نفخ في الصور مرة أخرى إيذاناً بتأسيس شريعة دورة أخرى، فأسرعت عملية التفكك والانحلال هذه تتضافر مع الحظ العاثر للشريعة السماوية التي بلغت من العمر أرذله، وجمعت العملية نشاطها من جديد في فترة متأخرة، فأسرعت بإلغاء القضاء الشرعي في تركيا، وأفضت إلى هجره تلقائياً في إيران الشيعية وأصبحت العملية مسؤولة في الأيام الأخيرة عن انفصال النظام المبيّن في الكتاب الأقدس عن القضاء الشرعي السّنّي في مصر، كما مهدت الطريق للاعتراف بذلك النظام في الأرض المقدسة نفسها. ومن المقدر لهذه العملية أن تبلغ غايتها بصبغ الدول الإسلامية بالصبغة العلمانية، وبجعل جميع الأمم تعترف بشريعة حضرة بهاء الله وتتويجها على قلوب شعوب العالم الإسلامي.

الفتن في مازندران ونيريز وزنجان

خلّدت أعمال مؤتمر بدشت اعتقال حضرة الباب في ركن قصيّ من آذربيجان، وميزته تطورات ملحوظة بارزة من مثل إعلان دعوته على الملأ، وتنزيل أحكام دورته وشرائعها، وإبرام ميثاقه وعهده. وقد قدّر لهذا الاعتقال أن يكتسب مغزى جديداً بفضل الهياج الشديد الذي نتج عن أعمال أصحابه وأعمال أعدائه على السواء. ذلك لأن هذا الهياج الذي حدث وسنوات الاعتقال تقترب من نهايتها، والذي انتهى باستشهاده، تطلّب من أتباعه بطولة وبسالة، ومن أعدائه قسوة وعداوة لم يكن لهما مثيل في السنوات الثلاث الأولى من ولايته. والواقع أن تلك الفترة القصيرة الهائجة المائجة رغم قصرها، يمكن أن تعتبر بحق أعنف وأفظع فترة في عصر البطولة المجيد من الدورة البهائية.

ذلك لأن الأحداث الجبارة المتصلة باعتقال حضرة الباب في ماه كو وچهريق والتي تكوّن أعلى قمة لظهوره، لم يكن لها إلا نتيجة واحدة، وهي أن تلهب نار الحماسة في صدور أحبائه، ونيران البغضاء والعداوة في قلوب أعدائه بقوة جديدة. فأوشك أن ينطلق اضطهاد أخبث وأبشع وأحكم تدبيراً من ذلك الذي أشعله حسين خان أو حتى الحاج ميرزا آقاسي، وأن يصحبه ما يتكافأ معه من مظاهر البطولة والبسالة التي لا يمكن أن تقارن بدفعات الحماسة التي رحبت بميلاد الدين في شيراز أو في أصفهان. نعم قد قدّر لهذه الفترة الهائجة المائجة المتلاطمة أن تحرم الدين من ممثليه الأوائل في تعاقب سريع، وأن تبلغ قمتها بقتل مؤسسه، وأن تتلوها هذه المرة إبادة تكاد تكون كاملة لأعوانه البارزين ما عدا فرد واحد وكّلت إليه العناية الإلهية

الفياضة مهمة مزدوجة وهي أن ينقذ الدين في أحلك ساعاته من الفناء، وأن يفتتح الدورة التي تأتي بعده.

إن ادعاء حضرة الباب لمقام القائم الموعود وسلطانه في تلك الظروف المثيرة وبتلك النبرة المتحدية، أمام أقطاب الشيعة المجتمعين وهم على ما هم عليه من البأس والحسد والفزع والعداء، كان قوة ناسفة أهالت ركاماً حقيقياً من البلايا والكوارث انهارت على الدين وعلى الذين ولد بين ظهرانيهم، ورفعت من حرارة الحماسة في صدور أتباع حضرة الباب المشتتين الذين أثار غيظهم اعتقال قائدهم. وزادت من نشاطهم آنذاك فيوضات قلمه التي كانت تصلهم من معتقله بلا انقطاع. كما أثار هذا الادعاء جدلاً حامياً مستفيضاً في طول البلاد وعرضها، في الأسواق والمساجد والمدارس والأماكن العامة الأخرى، فساعد على تعميق شقة الخلاف التي شطرت الناس أشطاراً. في هذه الساعة الحرجة الخطيرة كان محمد شاه يتهالك إعياءً تحت وطأة علله وأمراضه، أما الحاج ميرزا آقاسي السطحي التفكير والذي آلت إليه كل شؤون الدولة آنذاك، فقد كان تردده وتذبذبه وعجزه يزداد بازدياد مسؤولياته الجسام، فتارة يميل إلى الأخذ بقرار العلماء وتارة ينتقد عدوانهم ويشكك في أحكامهم، ويغرق في التصوف تارة أخرى فيعمى في غمرة أحلامه وذهوله عن خطورة الموقف الذي يجابهه.

هذه الحالة الفاضحة من سوء الإدارة جرأت النظام الديني، فانطلق رجاله بنشاط خبيث يصبون اللعنات من منابرهم، ويحرضون الجماهير الجاهلة المؤمنة بالخرافات على أن يحاربوا أتباع العقيدة البغيضة، وأن يستحلوا أعراضهم وأموالهم ويستبيحوا أبناءهم. وكانوا يصيحون أمام الجموع الغفيرة قائلين: «* ماذا نقول في العلامات والأشراط التي تعلن مجيء القائم؟ ماذا نقول في الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى؟ ماذا نقول في مدينتي جابلقا وجابلسا؟ وكيف نفسر أقوال حسين ابن روح؟ وبأي تفسير نفسر الأحاديث الصحيحة المنسوبة لابن مهزيار؟ وأين رجال الغيب الذين يجوبون

وجه الأرض في أسبوع؟ وماذا نقول فيما سوف يقوم به القائم عند ظهوره من فتح المشارق والمغارب؟ وأين المسيح الدجال الأعور وحماره الذي يركبه؟ وماذا في سفيان ودولته؟» وكانوا يحتجون صائحين: «* أنتجاهل ما لا يعد ولا يحصى من أحاديث أئمتنا الصحيحة أم نخمد بالحديد والنار ذلك الإلحاد والكفر الذي تجرأ وأطل برأسه في أرضنا؟».

أمام كل هذا التشهير والتنديد والاحتجاج والوعيد عمد أتباع الدين المظلوم الحكماء المثقفون إلى الاقتداء بمولاهم. فكتبوا دون تردد رسالات دقيقة في كتابتها، ودراسات مقنعة في بحثها ومنطقها، وتفاسير كاملة في شواهدها وردوداً فصيحة متينة متساندة أكدوا فيها إيمانهم بنبوّة رسول الله وشرعية الأئمة وولاية صاحب الزمان، وفسروا ببراعة ما غمض من الأحاديث وما تشابه من الآيات وما أُبهِمَ من النبوات الواردة في الكتب الإسلامية المقدسة. وتعزيزاً لكفاحهم شهدوا بوداعة الإمام الحسين رغم بؤسه الظاهري، ذلك الإمام الذي مجده أعداؤهم رغم هزيمته وانكساره واستشهاده المروع باعتباره التجسيد الرائع والرمز الفريد لنصر الله وقهره وسلطانه.

استفحل خطب هذا الجدل العنيف الذي عم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، واتسع بصورة مخيفة حين استسلم محمد شاه لعلته آخر الأمر. وأسرع موته بسقوط صدره الأعظم المقرب السليط، الحاج ميرزا آقاسي، فصودرت أمواله الطائلة التي اكتنزها ولحقه الخزي والعار، وطرد من العاصمة فلاذ بكربلاء. واعتلى العرش ناصر الدين ميرزا وهو ابن سبعة عشر عاماً. فترك أزمّة الأمور لأمير النظام ميرزا تقي خان العنيد القاسي. وسرعان ما أصدر قراره، دون أن يستشير أحداً من زملائه الوزراء، بإنزال العقاب العاجل الصارم بالبابيين الذين لا حول لهم ولا قوة. فأخذ الحكام والرؤساء وموظفو الدولة في كل الأقاليم كل في نطاق نفوذه يلاحقون أتباع الدين المحرم، ويتنافسون ويتبارون في صبّ البلايا عليهم وخاصة بعد أن شجعتهم الحملة العنيفة التي شنها رجال الدين، وشوقتهم الأطماع والهبات المالية.

ولأول مرة في تاريخ الدين تشن عليه حملة منظمة تتحد فيها السلطتان المدنية والدينية، وهي حملة قدر لها أن تنتهي بتلك الفظائع التي عاناها حضرة بهاء الله في سياه چال بطهران ثم نفيه إلى العراق. قامت الحكومة ورجال الدين والشعب قومة رجل واحد يهاجمون عدوهم المشترك ليقضوا عليه. وفي النواحي البعيدة المنعزلة سقط أفراد الجامعة المضطهدة المشتتين صرعى تحت سيوف الأعداء بلا شفقة ولا رحمة. وأما في النواحي التي تركزت فيها أعداد كبيرة منهم فقد اتخذوا للدفاع عن أنفسهم تدابير أساء فهمها العدو الماكر المخادع فساعدت بدورها على ازدياد اشتعال عداوة السلطات، وضاعفت من هجمات المعتدين الظالمين. ففي الشيخ طبرسي شرقاً، ونيريز جنوباً، وزنجان غرباً، وفي العاصمة نفسها قامت المذابح والفتن والمظاهرات والمناوشات والحصار والغدر والخيانة على قدم وساق. فدللت في تعاقب سريع على شدة العاصفة التي هبت، وفضحت إفلاس الشعب المتغطرس رغم انحطاطه، وجللت صفحات تاريخه بالسواد.

وقد أطاع المُلاّ حسين الباسل أمر حضرة الباب، فلبس العمامة الخضراء التي لبسها مولاه وأرسلها إليه، ورفع الراية السوداء التي يشير رفعها، كما قال محمد رسول الله، إلى قدوم خليفة الله في الأرض، وركب حصانه على رأس مائتين واثنين من زملائه الأصحاب ليلاقي القدوس في الجزيرة الخضراء ويمد له يد المعونة. وكانت بسالته نذيراً بصدام تجاوب صداه في أرجاء البلاد جميعاً. واستمر النضال ما لا يقل عن أحد عشر شهراً. وكان مشهد الجانب الأعظم منه غابة مازندران. وكان أبطاله زهرة أصحاب حضرة الباب. وانضم إلى شهدائه ما لا يقل عن نصف حروف الحي بمن فيهم القدوس والمُلاّ حسين وهما آخر وأول حروف الحي على التوالي. أما القوة الموجهة التي ساندت الصراع من وراء ستار فلم تكن غير تلك التي فاضت عن تدبير حضرة بهاء الله. وكان السبب في هذا الصراع تصميم مطالع أنوار العصر الجديد السافر على أن يعلنوا بشجاعة مجيء هذا العصر إعلاناً لائقاً، وعزمهم الثابت الأكيد على أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هجمات

المغيرين اللئام الجهلاء إذا فشل الإقناع بالحجة والبرهان، ولقد بيّن ذلك الصراع، بما لا يدع مجالاً للشك، ما يمكن للروح الغلاب الذي حرّك حفنة لا تتجاوز الثلاثمائة وثلاثة عشر من التلاميذ العزّل غير المدربين، السكارى بخمر الله، المنقطعين لتلقي العِلم في المدارس والأروقة أن يفعله إذا هم قاموا يدافعون عن أنفسهم ضد جيش جرار حسن الإعداد والعدة تناصره جماهير الشعب، ويباركه رجال الدين، ويقوده أمير تجري في عروقه الدماء الملكية، وتؤازره موارد الدولة، ويتمتع برضاء الشاه وحماسته، ويعمل طبقاً للنصائح الصائبة التي يقدمها له الوزير المقتدر، ثم تمخض ذلك الصراع عن خديعة خسيسة انتهت بطقوس وثنية دموية جهنمية تَصِمُ مرتكبيها بالعار الأبدي وتحيط ضحاياها بهالات من المجد الخالد، وتنبت البذور التي تزدهر في فترة تالية بزهرات المؤسسات الإدارية العالمية، تؤتي ثمرتها الذهبية في تمام الوقت على هيئة نظام يخلّص العالم كله ويحتضن الكرة الأرضية بأسرها.

وليس من الضروري في شيء أن نسرد تلك القصة المحزنة ولو باختصار، رغم أهميتها البالغة ورغم ما عانته من تشويه لحقيقتها وقلب لأوضاعها على أيدي الأعداء من الرواة والمؤرخين. وإنما يكفي تحقيقاً للغاية المرجوة من هذه الصفحات أن نلقي نظرة عاجلة على ملامحها البارزة، نلاحظ ونحن نسترجع أحداث هذه المأساة العظيمة، ثبات أبطالها وشجاعتهم وحسن تنظيمهم وبراعتهم، مما يناقض - على خط مستقيم - خسة أعدائهم وجبنهم وفوضاهم وتذبذبهم، نشاهد الصبر الجميل وضبط النفس النبيل الذي تحلى به أحد ممثليها الرئيسيين وهو المُلاّ حسين قلب الأسد الذي أبى أن يستلّ سيفه من غمده إلا بعد أن قُتِلَ سبعة من زملائه الثابتين الأبرياء على أيدي الجماهير المسلحة الغاضبة الساخطة المندّدة بهم أشد التنديد التي تربصت بهم على بعد فرسخ من بارفروش لتقطع عليهم الطريق. ويملؤنا الإعجاب بإيمان المُلاّ حسين الراسخ حين صمم على الاستمرار في تأدية الأذان، وهم محاصرون في خان سبزه ميدان، رغم أن ثلاثة من أصحابه الذين صعدوا سطح الخان ليؤدوه قتلوا برصاص العدو على الفور واحداً بعد

الآخر. ويذهب بنا العجب كل مذهب لإنكار الذات الذي دفع بهؤلاء المعوزين المعسرين إلى أن يتجاهلوا في ازدراء تلك الغنائم التي خلفها عدوهم الهارب وراءه، كما دفعهم من قبل إلى أن يتركوا كل ما ملكت أيديهم وراء ظهورهم، ويقنعوا من دنياهم بخيلهم وسيوفهم. ودفع بوالد بديع ـ وهو رجل من هذه الفئة الباسلة ـ إلى أن يلقي في عرض الطريق بحقيبة الفيروز التي جاء بها من مناجم والده في نيسابور، ودفع ميرزا محمد تقي الجويني إلى أن يلقي بمقدار مماثل من الذهب والفضّة، ودفع هؤلاء الأصحاب إلى أن يحتقروا، بل وأن يأنفوا من أن يلمسوا الرياش الفاخر وصناديق الذهب والفضة التي خلّفها الأمير مهدي قلي ميرزا اليائس، قائد جيش مازندران وأخو محمد شاه، حين فرّ من معسكره لا يلوي على شيء بعد أن لحقه الخزي والعار، ولا نتمالك أنفسنا من الإعجاب بذلك الإخلاص العميق الذي دافع به المُلاّ حسين عند الأمير عن نفسه وعن أصحابه، وتأكيده الرسمي الواضح له على أنه لا هو ولا أصحابه يضمرون أية نية في اغتصاب سلطة الشاه أو تقويض دعائم المملكة، وكذلك لا نتمالك أنفسنا من احتقار مسلك سعيد العلماء الخسيس المصروع القاسي المتعجرف الذي أفزعه اقتراب هؤلاء الأصحاب، فألقى بعمامته على الأرض، وهو في سورة الغضب والاضطراب، وشق ثيابه أمام جمع غفير من الدهماء نائحاً على الحالة التي تردى إليها الإسلام، وحرض هذا الجمع الغفير على حمل السلاح والقضاء على الفئة المقتربة. وتأخذ الدهشة بمجامع الألباب ونحن نتأمل إقدام المُلاّ حسين المعجز، فبرغم هيكله النحيل ويده المرتجفة استطاع بضربة واحدة من سيفه أن يقتل عدواً خائناً احتمى بإحدى الأشجار بأن شطر الشجرة وشطرهُ وشطر بندقيته إلى نصفين. وفضلاً عن ذلك تتحرك عواطفنا ومشاعرنا لمشهد قدوم حضرة بهاء الله إلى القلعة، وما أغدقه ذلك على المُلاّ حسين من السعادة البالغة، والإجلال الذي لقيه به زملاؤه الأصحاب ثم تفقده للمتاريس والتحصينات التي أقاموها على عجل لحماية أنفسهم، ونصيحته التي أدّت إلى خلاص القدوس العجيب عند اتصاله فيما بعد بالمدافعين عن القلعة ومشاركته

في المغامرات المتصلة بحصارها وتدميرها في النهاية. ونذهل لرزانة القدوس وحكمته ومدى الثقة التي عَمّت القلعة بوصوله إليها، والبراعة التي أبداها، والبشر الذي استمع به المحصورون صباحاً ومساءً إلى صوته وهو يرتّل تفسيره الرائع لصاد الصمد الذي كتبه وهو في ساري فبلغ ثلاثة أمثال حجم القرآن، ثم أخذ يوضح ما غمض منه فأضاف إليه مثل ما كتب من قبل، كل ذلك رغم هجمات العدو الشديدة والحرمان الذي يقاسي منه أصحابه.

وبقلوب خافقة نتذكر ذلك الهجوم الخالد الذكر حين اندفع المُلاّ حسين من القلعة قبيل الفجر صائحاً: «يا أبطال الله، اركبوا خيلكم» على رأس مائتين واثنين من الأصحاب المحاصرين المحزونين، يتقدمه القدوس صائحاً: «يا صاحب الزمان» وأسرعوا بملء العنان إلى معسكر الأمير، واخترقوه حتى بلغوا مقصورته الخاصة فإذا بهم يجدونه قد ألقى بنفسه لشدة فزعه من نافذة خلفية إلى الخندق وفر حافياً تاركاً جيشه يتخبط في الاضطراب ويعمه الاختلال. ويأخذ بكظمنا الحزن والألم حين نتمثل آخر أيام حياة المُلاّ حسين الأرضية. توضأ بعد منتصف الليل مباشرة، ولبس ملابس جديدة، ووضع على رأسه عمامة حضرة الباب، وركب جواده، وأمر بباب القلعة ففتح، وخرج على رأس ثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه صائحاً: «يا صاحب الزمان» وهاجم المتاريس السبعة التي أقامها العدو وأسر رجالها عن بكرة أبيهم، رغم سيل الرصاص المنهمر، وقتل مدافعيهم بسرعة وبدد شملهم، ولكن جواده تعثر بحبل خيمة من الخيام أثناء الهرج القائم، وقبل أن يخلّص نفسه من الركاب اخترقت صدره رصاصة أطلقها عباس قلي خان اللاريجاني الجبان الذي كان مختفياً في أغصان إحدى الأشجار المجاورة. ونمجد تلك البسالة النادرة التي ألهمت تسعة عشر صاحباً من هؤلاء الأصحاب الثابتي الجنان أن يعاودوا الهجوم على معسكر العدو الذي كان يتألف مما لا يقل عن فرقتين كاملتين من المدفعية والمشاة، وأن يلقوا في قلوبهم رُعباً دفع بأحد قوادهم ـ وهو عباس قلي خان نفسه ـ إلى الفرار بعد أن سقط عن حصانه تاركاً أحد نعليه معلقاً في الركاب، ودخل على الأمير مضطرباً وهو نصف

منتعل ليعترف له بالهزيمة المنكرة التي مني بها. وإن نسينا فلا ننسى ذلك الصبر العظيم الذي احتملت به أرواحهم المجيدة محنتهم القاسية، حين اقتصر طعامهم على لحم الخيل التي كانوا يأتون بها من معسكر العدو المهجور، ثم قنعوا بالحشائش والأعشاب التي كانوا يقتلعونها اختطافاً من الحقول كلما سنحت لهم الفرصة، ثم اضطروا إلى التهام لحاء الشجر وجلود السروج والأحزمة وأغمدة السيوف والأحذية، ثم مرّت بهم ثمانية عشر يوماً لم يطعموا فيها شيئاً سوى الماء الذي كانوا يشربون منه كلّ صباح جرعة، ثم اضطرتهم نيران مدافع العدو إلى حفر ممرات تحت الأرض داخل القلعة حيث اضطروا إلى أن يعيشوا في الطين والماء بثياب جعلتها الرطوبة أسمالاً، وأن يقتاتوا بالعظم المسحوق، ثم اضطرهم الجوع والسغب الشديد ـ كما يشهد مؤرخ معاصر ـ إلى أن ينبشوا حصان المُلاّ حسين قائدهم الجليل ويمزقوه إرباً إرباً، ويسحقوا عظامه ويخلطوها باللحم الذي دب فيه التعفن ويطبخوه ويلتهموه سداً للرمق.

ولا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى الخيانة الدنيئة التي لجأ إليها الأمير العاجز الخائب، ونقضه ما سماه قسماً غليظاً كتبه بخط يده وختمه على هامش فاتحة القرآن حالفاً بذلك الكتاب المقدس أن يطلق سراح المدافعين عن القلعة، ومقسماً بشرفه ألا يتعرض لهم أحد بأذى سواء من جيشه أو من القرى المجاورة، وأنه سوف يتكفل بعودتهم إلى منازلهم في أمن وسلام بنفسه وعلى نفقته. وأخيراً نسترجع المنظر الختامي من هذه المأساة الكئيبة حين حنث الأمير في قسمه وخان عهده المقدس. وكان نفر من أصحاب القدوس المخدوعين قد اجتمعوا في معسكر العدو فجردوا مما يملكون وبيعوا بيع العبيد، أما الآخرون فلقوا حتفهم، قتل بعضهم بسيوف الضباط ورماحهم، ومزّق بعضهم إرباً إرباً، وربط بعضهم الآخر إلى جذوع الشجر ومزقوا بالرصاص، ووُضِعَ بعضهم في أفواه المدافع وأمسوا طعمة للنار، وبُقِرَت بطون بعضهم ومزقت أحشاؤهم ورفعت رؤوسهم على الرماح والحراب. أما القدوس ـ قائدهم المحبوب ـ فقد أسلمته شناعة أخرى من

شناعات الأمير الجبان إلى سعيد العلماء الجهنمي الذي رخصت له نفسه المتعطشة، ومعونة الدهماء الذين ألهب مشاعرهم، أن يمزق أثواب ضحيته، ويكبله بالسلاسل والأغلال الغلاظ، ويطوف به طرقات بارفروش ويحرض نساءها على لعنه وسبه والبصق في وجهه، والهجوم عليه بالخناجر والفؤوس والتمثيل بجثمانه وإلقاء أشلائه الممزقة في النار.

هذه القصة المثيرة المجيدة بالنسبة للأمر، المخزية بالنسبة لأعدائه والتي تعتبر ظاهرة نادرة في تاريخ العصور الحديثة، سرعان ما تلتها فتنة تماثلها في ملامحها الأساسية إلى حد عجيب، وإن انتقل مرسحها إلى الجنوب إلى إقليم فارس غير بعيد عن المدينة التي أشرق منها نور الأمر. واضطرت نيريز وما حولها أن تتلقى صدمة هذه المحنة الجديدة بكل شدتها وقسوتها، أما مهب هذه العاصفة الهوجاء الجديدة بكل شدتها وقسوتها فكان قلعة خواجة[1] القريبة من حي چنار سوخته من أحياء هذه القرية الهائجة المائجة، وأما البطل الذي شمخ على كل أصحابه وناضل نضال الجبابرة ثم سقط طعمة للّهيب المدمّر فكان السيد يحيى الدارابي الشهير بـ«وحيد» ـ «وحيد عصره وفريد زمانه» ـ كما كان في طليعة الأعداء القادرين، الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة وغذوها، حاكم نيريز زين العابدين خان الدنيء المتعصب، يناصره عبد الله خان شجاعُ المُلك، ويعززه الأمير فيروز ميرزا حاكم شيراز. ورغم أن هذه الواقعة كانت أقصر عمراً من واقعة مازندران التي دامت ما لا يقل عن أحد عشر شهراً، إلا أن الفظائع التي انتهت بها مرحلتها الأخيرة لا تقل هولاً في نتائجها. ومرة أخرى نجد حفنة من الرجال الأبرياء الوادعين المسالمين ذوي الأرواح السامية التي لا تقهر، تتألف هذه المرة من غلمان غير مدرّبين ورجال طاعنين في السن، تفاجئهم وتتحداهم وتحاصرهم وتهاجمهم قوّات متفوقة من رجال غلاظ شداد ماكرين، فتعجز عن قهر

(١) إن كلمة «خواجة» تقرأ «خاجه» وتكتب «خواجة» باللغة الفارسية كـ«خواهر» التي تقرأ «خاهر».

روحهم رغم حسن تدريبها ووفرة عتادها واستمرار إمداداتها.

تسبب في هذا الهياج الجديد إعلان البعض عن إيمانهم بالأمر بصورة لا تقل جرأة ولا حرارة، وإظهار الحماسة الدينية بصورة لا تقل اندفاعاً ولا اشتعالاً عما تم في واقعة مازندران، وأثاره انفجار عداوة دينية لا تقبل المهادنة ولا الموادعة، وصاحبه ما يتكافأ معه من مظاهر التعصب الأعمى، وأثارته أفعال مشابهة من التهجم السافر من جانب رجال الدين والدهماء. ومرة أخرى تجلى نفس الهدف وحرّكه من أوله إلى آخره نفس الروح، واقترب من نفس قمم البطولة الخارقة، والثبات وإنكار الذات والشجاعة الفائقة، وسقط القناع عن تنسيق لا يقل دقة ولا إحكاماً بين السلطات المدنية والدينية في الخطط والجهود التي قصد بها تحدي العدو المشترك والقضاء عليه. وسبقه إنكار مماثل لأي نية يكنها البابيون للتدخل في الشؤون المدنية أو تقويض سلطة الشاه الشرعية. وقدم هذا الصراع دليلاً لا يقل عن سابقه إقناعاً على صبر الضحايا وضبطهم لأنفسهم تجاه العدوان الغليظ الذي لحق بهم دون أي استفزاز من جانبهم، وعندما كان الصراع يقترب من قمته انكشف جبن العدو وافتقاره إلى النظام وتدهوره الخلقي وإفلاسه الروحي بصورة لا تكاد تقل تأثيراً عمّا حدث في مازندران، وتميزت أخرياته بحادثة غدر لا تقل دناءة ولا خسة، وانتهى بمذبحة تثير فظائعها ومآسيها اشمئزازاً أكبر. وختم هذا الصراع حياة وحيد بخاتمة الشهادة، إذ ربط إلى حصان، وهو يلبس العمامة الخضراء رمز حسبه ونسبه وسحب في الشوارع والطرقات بهذه الصورة المزرية، ثم قطع رأسه وحشي بالقش وأرسل تذكاراً إلى الأمير المبتهج في شيراز، على حين ترك جثمانه تحت رحمة نسوة نيريز الغضبَى اللائي أسكرهن الفرح البربري، فأخذن يرقصن حوله على دق الطبول ونقر الدفوف وصيحات الجيش المظفر. وأخيراً جر هذا الهياج في أعقابه غارة وحشية عامة اشترك فيها ما لا يقل عن خمسة آلاف رجل كلفوا بالإغارة على البابيين العزّل، فنهبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأطفالهم، وعروا بعضهم بصورة تكاد تكون كاملة وحملوهن على البغال والحمير والجمال وساقوهن

بين صفين من الرؤوس المقطوعة من جثث آبائهن وأخوتهن وأبنائهن وأزواجهن الذين سبق أن كووهم بالنار، أو اقتلعوا أظافرهم أو جلدوهم حتى الموت أو دقّوا أسياخ الحديد في أيديهم وأرجلهم أو خرموا أنوفهم بالحبال ثم سحبوهم بها وعرضوهم في الشوارع على أنظار الجماهير المهتاجة الساخرة.

وما كادت تسكن هذه الفتنة البالغة كل هذا المبلغ من الهياج والإيلام حتى اشتعلت في زنجان وما حولها فتنة أخرى أشد تدميراً من الفتنتين السابقتين، هبت كالعاصفة الهوجاء في غرب إيران وتجرع فيها كأس الشهادة المُلاّ محمد علي الزنجاني الملقب بـ«الحجة» أحد أقطاب الدين الأفذاذ، هو وألف وثمانمائة من إخوانه. ولقد حددت هذه العاصفة مسافة الخلف الشاسعة التي تفصل بين حملة مشاعل الدين الجديد وبين أقطاب النظام الديني والدنيوي المزعزع. وكانت الشخصيات البارزة المسؤولة عن هذه المأساة الشنيعة، بصفة أساسية، هي الأمير الحسود المنافق أرسلان خان، ومجد الدولة خال ناصر الدين شاه وأعوانه، وصدر الدولة الأصفهاني، ومحمد خان أمير تومان وعن ورائهم الإمدادات العسكرية الفاعلة التي كان يرسلها أمير النظام من ناحية، والتأييد الحار الذي أبداه رجال الدين في زنجان من ناحية أخرى، وأما مرسح هذه المصادمات ومشهد هذه الآلام الموجعة وهدف الهجمات الوحشية المتكررة فكان قلعة علي مردان خان التي لجأ إليها ما لا يقل عن ثلاثة آلاف بابي بين رجل وامرأة وطفل، لا تفوق قصة بلاياهم أي قصة أخرى في مدى قرن كامل.

وإن الإشارة الموجزة لبعض الملامح البارزة من هذه القصة المفجعة، التي وهبت للدين في طفولته طاقات لا حصر لها، لتكفي للكشف عن طبيعتها المميزة. فمن أبرز ملامح الصراع الدموي، تلك المناظر المثيرة للشجن التي تلت تقسيم أهل زنجان إلى معسكرين متميزين بناء على أمر صدر من حاكمها وطاف به المنادي. فانفصمت العرى وتقطعت الأسباب

وانشطرت العواطف والمصالح الدنيوية لصالح ولاء أعلى، وكذلك مناشدات الحجة المتكررة للمحصورين أن يكفوا أيديهم عن التعدي وأعمال العنف، وتأكيده لهم وهو يذكر مأساة مازندران بأن نصرهم لن يتحقق إلا إذا ضحوا بكل شيء على مذبح أمر صاحب الزمان، وإعلانه صدق نية أصحابه في خدمة مليكهم وترقية مصالح شعبه، والبسالة النادرة المدهشة التي صدّ بها هؤلاء الأصحاب هجمات صدر الدولة الوحشية مما اضطرّهُ في النهاية إلى الاعتراف بفشله الذريع ولذلك عنفه الشاه وأنزله من رتبته، وكذا احتقار نزلاء القلعة لنداء المنادي الذي أرسله العدو المرهق الساخط ليفتنهم عن دينهم ويعدهم ويمنّيهم بهبات الشاه السخية، ثم براعة زينب وجرأتها التي لا يمكن أن يصدقها العقل، وهي فتاة ريفية دفعها الشوق القاهر إلى أن تشارك المدافعين عن القلعة مصيرهم فتنكرت في زي الرجال وقصّت ضفائرها وتمنطقت بالسيف، وتعقبت المغيرين وهي تصيح «يا صاحب الزمان» واستمرت خمسة أشهر في غمرة المعمعة لا تأبه لنوم ولا لطعام، تستنهض الهمم وتندفع لإنقاذ زملائها من الرجال. ثم هذا الزئير الهائل الذي تعالى من حناجر حراس التحصينات وهم يردّدون الدعوات الخمس التى أوصى بها حضرة الباب في نفس الليلة التي تلقوا فيها أوامره بذلك. هذا الزئير أسرع بمصرع بضعة أشخاص في معسكر العدو، وجعل الضباط المترددين يسقطون كؤوس الخمر من أيديهم ويقلبون موائد القمار، ويسرعون وهم حفاة واضطر آخرون للهروب إلى البرية وهم شبه عراة أو اللجوء إلى منازل العلماء والفزع يخلع قلوبهم، كما أننا نسترجع التناقض بين الفوضى والسباب والضحك الساخر والفسق والفجور الذي تميز به معسكر العدو وبين جو التبتل والإجلال الذي غمر القلعة حيث كانت أناشيد الحمد والثناء وأهازيج السرور والحبور تتعالى منها على الدوام. ولا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى الالتماسات التي وجهها الحجة وأقطاب أنصاره إلى الشاه يفندون فيها مزاعم خصومهم ويؤكدون ولاءهم لشخصه ولحكومته، ويظهرون استعدادهم لإثبات صحة أمرهم في محضره، ولا إلى كيفية احتجاز الحاكم هذه الرسائل واستبدالها

بأخرى ملئت قذفاً وسباباً وأرسلها إلى طهران. ولا نغفل التنويه بالمعونة الصادقة التي بذلتها النساء في القلعة وصيحات الابتهاج التي كنّ يرفعن بها عقيرتهن والحماسة التي كانت تدفع بعضهن إلى التنكر في زي الرجال لتعزيز المتاريس والتحصينات واحتلال مواقع إخوانهن الجرحى من الرجال بينما أخريات كنّ يعتنين بالمرضى ويحملن إلى الجرحى قرباً من الماء، على حين فعل بعضهن الآخر ما فعلته قديماً نساء قرطاجنة، قصصن شعورهن الطويلة وربطن الغدائر الغليظة حول البنادق لتقويتها. ولا نغفل الإشارة أيضاً إلى الغدر الصارخ الذي عمد إليه العدو المحاصر، فقد كتبوا عهداً للصلح، ووضعوا معه مصحفاً مختوماً دليلاً وشاهداً على صدق عهدهم وأرسلوه إلى الحجة، إلاّ أنهم لم يتورعوا في اليوم نفسه عن أن يزجوا بأعضاء الوفد الذي أرسله الحجة إليهم في غرفة أرضية بمن فيهم الأطفال، وعن أن ينزعوا لحية رئيس الوفد الجليل، ولا عن تشويه أحد زملائه بصورة وحشية. وإننا لنتذكر فضلاً عن ذلك شهامة الحجة الذي فجعته الأقدار في زوجته وولده فجأة ومع ذلك استمر يدعو أصحابه بجأش رابط إلى التجمل بالصبر والأناة وتسليم أمرهم إلى الله. وظل كذلك إلى أن خر صريعاً متأثراً بجرح بليغ بيد العدو. ونتذكر الانتقام البربري الذي انتقم به من الضحايا عدو يفوقهم عدداً وعدة إلى حد بعيد. وكيف أهدروا دمهم وأباحوهم للقتل الجماعي والنهب الذي لا مثيل لهما في المدى والضراوة، وكيف أسرف في ذلك الجيش النهاب السلاب والشعب الجشع والطماع، والشيوخ الذين لا يطفئ ظمأهم شيء. نتذكر تعريضهم للضحايا من الجنسين للبرد القارس الذي تميّز به ذلك الشتاء ما لا يقل عن خمسة عشر يوماً وليلة، حفاة عراة جياعاً. على حين كانت جموع النساء ترقص من حولهم طرباً وفرحاً، وتبصق في وجوههم، وتقذفهم بأقذع الشتائم، نتذكر القسوة الوحشية التي حكمت على ضحايا آخرين بأن يقذفوا من أفواه المدافع، أو أن يغمسوا في الماء القارس ويجلدوا بقسوة أو تغمس جماجمهم في الزيت المغلي، أو تدهن أبدانهم بالعسل ويتركوا ليموتوا في الجليد. نتذكر أخيراً تلك الكراهية التي لا ترتوي تدفع الحاكم

اللئيم إلى الإيعاز لابن الحجة ـ وهو صبي لا يتجاوز السابعة من عمره ـ أن يكشف عن مكان قبر أبيه. فيهدم الحاكم القبر وينبش الجثة، ويأمر بسحبها في شوارع زنجان على قرع الطبول، ويعرضها ثلاثة أيام بلياليها لإهانات لا يمكن أن توصف بوصف. هذه الأحداث وأمثالها التي وصفها اللورد كرزون «بالحصار المروّع والمجزرة الشنيعة» تتضافر جميعاً لتسكب على ملحمة زنجان مجداً حزيناً لا يفوقه مجد أية قصة مماثلة في عصر البطولة المجيد من دين حضرة بهاء الله.

لم تستطع عاصمة المملكة أن تظل بمعزل ولا أن تقف مكتوفة اليدين إزاء تيار البلايا والمِحَن الذي اكتسح في السنوات الأخيرة من ولاية حضرة الباب أقاليم إيران في الشرق والغرب والجنوب بكل هذا العنف المشؤوم. فاشتركت طهران قبل استشهاد حضرة الباب بأربعة أشهر في المذبحة العامة التي كانت تلطخ وجه البلاد ولكن بدرجة أقل وفي ظروف أقل عنفاً. على أن المأساة التي حدثت في تلك المدينة لم تكن سوى مقدمة لمذبحة قامت بعد استشهاد حضرة الباب، روّعت أهلها ونثرت الرعب طولاً وعرضاً إلى أن بلغ الأقاليم النائية. نشأت هذه المأساة الجديدة بأمر أمير النظام الحقود السّفّاح وارتكبت بين يديه وعاونه فيها محمود خان كلانتر وساعده أحد علماء كاشان اسمه حسين. أمّا أبطال هذه المأساة فكانوا شهداء طهران السبعة الذين يمثلون الطبقات العليا من المجتمع، والذين أصروا على ألا يشتروا حياتهم بمجرد الإنكار الشفهي. وهو إجراء ظل الشيعة يمارسونه قروناً طويلة باسم التقية، ويعتبرونه تخلصاً مقبولاً بل ومستحباً ساعة الخطر. ولم تفد الشفاعات المتكررة التي تشفع بها ذوو المقامات العالية في مناشط الحياة التي ينتمي إليها هؤلاء الشهداء، ولا الأموال الطائلة التي أبدى تُجّار شيراز وطهران المقتدرون استعدادهم لبذلها فداء لأحدهم، وهو ميرزا سيد علي خال حضرة الباب النبيل الرزين، ولا استرحامات رجال الدولة الحارة بشأن شهيد آخر هو الدرويش الفاضل الورع ميرزا قربان علي. بل لم يجد تدخل أمير النظام نفسه نفعاً حين حاول أن يحمل هذين الرجلين الشجاعين على الارتداد. ولم يُغنِ

كل ذلك عن حمل أحد منهم على التنازل عن إكليل الشهادة المشتهى. أما الملامح الرئيسة لمأساة شهداء طهران السبعة فكانت النشوة التي تملكتهم، والإجابات المتحدية التي ألقوها في وجه أعدائهم إذ يقتربون من مقرّ الشهادة ومشهد الفداء، وتلك الصيحات المستبشرة التي ارتفعت بها حناجرهم إذ يواجهون جلاديهم، وتلك الأشعار المؤثرة التي رتلها بعضهم في لحظاته الأخيرة، وتلك البيانات والتحديات التي وجهوها إلى جموع المشاهدين والمشدوهين وتلك اللهفة التي تدافع بها آخر ثلاثة من الضحايا ليسبق أحدهم الآخر إلى المصير الدموي، وأخيراً تلك الشناعات التي انحطّ إليها العدو المتعطش للدماء، إذ عرض جثثهم ثلاثة أيام بلياليها في سبزه ميدان ليركلها كل يوم آلاف ممن يسمّون أنفسهم بالشيعة المخلصين، ويبصقوا في وجوهها ساخرين لاعنين راجمين، ويهيلوا عليها القاذورات. مأساة تبرز كمشهد من أبشع ما شوهد في غضون تفتح دين حضرة بهاء الله الباكر. فلا عجب أن ترى حضرة الباب، الذي كان يرزح تحت وطأة أحزانه المتراكمة في قلعة چهريق، يثني عليهم ويمجدهم على صفحات لوح طويل رثاهم وخلد إخلاصهم ووفاءهم وولاءهم لأمره، ووصفهم فيه بـ«أكباش الفداء السبعة» الذين يمشون أمام القائم الموعود في يوم الحساب، طبقاً للحديث الإسلامي، هؤلاء الأكباش الذين يسبق موتهم استشهاد راعيهم الحق بعد قليل.

استشهاد حضرة الباب

إن أمواج البلايا التي لطمت الدين كل هذه اللطمات العنيفة، وصرعت في النهاية أقدر أصحاب حضرة الباب وأعزهم وأخلصهم في تعاقب سريع شملت سجين چهريق بحزن لا يوصف كما لاحظنا من قبل. ويقرر مؤرخه أنه لم يعد قادراً على الكتابة أو الإملاء مدة لا تقل عن ستة أشهر، فقد سحقه الحزن البالغ للأخبار السيئة التي توالت عليه بسرعة من كل جانب، المحن التي نزلت بأقدر حوارييه، والبلايا التي عاناها المحصورون، والخديعة المخزية التي وقع فريستها بقية الحصار، أخبار الآلام الوجيعة التي قاساها الأسرى، والمجازر البشعة التي راح ضحيتها الرجال والنساء والأطفال، والتمثيل الشنيع بجثثهم، والإهانات الدنيئة التي انهالت عليها. ولقد أكد كاتب وحيه أنه امتنع عن أن يلقى أحداً من أصحابه تسعة أيام، كما امتنع عن تناول ما يقدم إليه من لحم وشراب. وانهمرت الدموع من عينيه مدراراً، وتدفق الأنين من قلبه الجريح فياضاً، بينما هو يذبل ويذوي مدة لا تقل عن خمسة أشهر فريداً في سجنه لا يسرّي عنه أحد.

لقد تقوض الجانب الأكبر من دعائم دينه الجديد عند هبوب الإعصار الجبار الذي عصف به؛ فالقدوس الذي خلده بتلقيبه إياه بـ «اسم الله الآخر»، وأنعم عليه حضرة بهاء الله فيما بعد في لوحه «كل الطعام» بلقب «النقطة الأخرى» ورفعه في لوح آخر إلى منزلة تلي منزلة المبشر بظهوره، وسلكه في لوح ثالث في عداد «أولي العزم من الرسل» المذكورين في القرآن الكريم، ومجّده البيان الفارسي بأنه رفيق الحج تطوف حوله المرايا بقدر عدد الواحدات الثمانية، والذي «* بانقطاعه وخلوصه يعتز الله بين الملأ الأعلى»،

والذي وصفه حضرة عبد البهاء بأنه «* قمر الهدى» وتنبأ بظهوره يوحنا اللاهوتي في رؤياه باعتباره أحد «الشاهدين» اللذين تدخل منهما «روح حياة من الله» قبل أن يمضي «الويل الثاني»، يلقى وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب، في سبزه ميدان ببارفروش حتفاً لم يلقه السيد المسيح في ساعة محنته الكبرى، كما يشهد حضرة بهاء الله. وهذا المُلاّ حسين «أول حروف الحي» الملقب بـ «باب الباب»، والموصوف بـ «المرآة الأوّلية» والذي أغدق عليه قلم حضرة الباب من المدائح والدعوات وألواح الزيارة ما يعادل ثلاثة أمثال القرآن الكريم مشيراً إليه في هذه المدائح بـ «محبوب قلبي» والذي أعلن القلم نفسه أن تراب قبره يبهج المحزون ويبرئ العليل، والذي يغبطه «* خلق الأولين والآخرين» في ظل البيان «* إلى يوم القيامة». المُلاّ حسين الذي مجّده كتاب الإيقان بأنه «لولاه ما استوى الله على عرش رحمانيته، وما استقر على كرسي صمدانيته» وأسبغ عليه السيد كاظم من العنايات والألطاف ما جعل تلاميذه يعتقدون أنّه من غير البعيد أن يكون هو الموعود، هذا الرجل يموت هو الآخر وهو في أوج رجولته ميتة الشهيد في طبرسي. وهذا «وحيد» المذكور في كتاب الإيقان بأنه «* وحيد عصره وفريد زمانه»، العالم الجليل، وأعظم الشخصيات التي انضوت تحت علم الدين الجديد، من شهد حضرة الباب في الدلائل السبعة «* بفضله وتقواه» و«* علو كعبه في العلم ورفعة شأنه في الحكمة»، ينجرف هو الآخر في ملابسات مشابهة في معمعة فتنة أخرى، ويرتشف بدوره نفس الكأس التي تجرعها شهداء مازندران الأبطال. وهذا «الحجة» علم آخر ذو بسالة نادرة وعزيمة قاهرة وأصالة باهرة وهمة عالية يهوي بصورة سريعة لا مفرّ منها في الأتون المستعر الذي أحاطت ألسنة لهيبه بزنجان وما حولها. وهذا خال حضرة الباب، والأب الوحيد الذي عرفه منذ طفولته، ودرعه الواقي وعونه والراعي الأمين لزوجه وأمه، تفصله عنه فأس الجلاد في طهران. كما سبقه في مضمار الشهادة ما لا يقل عن نصف أصحابه المختارين: حروف الحي. أما الطاهرة فإنها وإن كانت لا تزال على قيد الحياة حتى آنذاك إلا أنها كانت تسلك بجرأة وبسالة طريقاً تفضي بها إلى مصيرها المحتوم.

كان المد السريع للحياة الزاخرة بأوجاع هذا العهد الفاجع وهياجه وخياناته وأحزانه يصعد آنذاك مسرعاً إلى قمته، وأخذت أقسى فترة من عصر البطولة المجيد في الدورة الجديدة تشارف نهايتها. وكانت كأس الويلات المريرة التي ارتشفها مبشر تلك الدورة قد امتلأت الآن عن آخرها وطفحت. والواقع أنه هو نفسه قد تنبأ بموته الوشيك، ففي كتاب «پنج شأن» [الشؤون الخمسة] أحد كتبه المتأخرة، أشار إلى أن النوروز السادس بعد إعلان بعثته سوف يكون آخر نوروز يحتفل به على الأرض. وفي تفسيره لحرف الهاء تمنى الشهادة على حين تنبأ في قيوم الأسماء فعلاً بأنه لا بد لحياته المجيدة من مثل هذه الخاتمة. وقبل مغادرته النهائية لچهريق بأربعين يوماً جمع الوثائق الموجودة في حوزته وسلمها هي ومقلمته وأختامه وخواتمه إلى المُلاّ باقر أحد حروف الحي، وأوصاه بأن يودعها عند المُلاّ عبد الكريم القزويني الملقب بميرزا أحمد، على أن يسلمها هذا بدوره إلى حضرة بهاء الله في طهران.

وعلى حين كانت الفتن في مازندران ونيريز قائمة على قدم وساق تتابع مجراها الدموي، كان الصدر الأعظم لناصر الدين شاه يتدبّر في قلق بالغ دلالة هذه الأحداث الجسام، ويتوجس خيفة من وقع صداها على مواطنيه وحكومته ومليكه، ويدير في عقله المحموم هذا التصميم الوبيل الذي لم يقدر له أن يترك بصماته التي لا تمحى على مصير بلاده فحسب بل وأن يحمل في طواياه نتائج تفوق الحصر والعد في مصائر الجنس البشري بأسره. فقد اقتنع أمير النظام آنذاك تمام الاقتناع بأن التدابير الرادعة التي اتخذت ضد أتباع حضرة الباب لم يكن لها من جدوى سوى أنها استنهضت عزائمهم وشحذت هممهم وثبتت أقدامهم على دينهم المقصود بالقمع والاضطهاد. كما أن عزل حضرة الباب واعتقاله أحدث من الأثر عكس ما كان يأمل، ولشدة اضطرابه أخذ يندد بما أظهره سلفه الحاج ميرزا آقاسي من رقة الحاشية ولين الجانب حتى وصلت الأمور إلى هذه الدرجة من السوء، وشعر آنذاك أنه لا بد من

إيقاع عقاب مثالي أشد وأوجع على ما اعتبره بدعة ورجساً شنيعاً يدنس الهيئات الدينية والمدنية في المملكة، واعتقد أنه لا شيء يوقف هذا التيار الذي أحدث كل هذا الدمار في البلاد سوى القضاء على رأس هذا المذهب الممقوت والقوة الدافعة لهذه الحركة الفاعلة.

وكان حصار زنجان قائماً على أشده حين أرسل إلى الأمير حمزة ميرزا حشمة الدولة حاكم آذربيجان يأمره بإعدام حضرة الباب مستغنياً في ذلك عن أمر صريح واضح من الشاه ومستقلاً عن زملائه الوزراء ومستشاريه. وخوفاً من أن يثير توقيع مثل هذه العقوبة الصارمة في عاصمة البلاد قوى يعجز عن ضبطها أو التحكم فيها، فقد أمر أن يساق الأسير إلى تبريز لكي يعدم هناك، فلما واجهه الأمير الساخط بالامتناع الصريح عن ارتكاب هذه الجريمة النكراء، كلف أمير النظام أخاه ميرزا حسن خان أن ينفذ أوامره. أما الشكليات المعتادة للحصول على التصديق اللازم فقد أجراها أقطاب المجتهدين في تبريز بسرعة ودون عناء، على أنه لا المُلاّ محمد الممقاني الذي كتب فتواه بقتل حضرة الباب في نفس اليوم الذي اختبره فيه بتبريز ولا الحاج ميرزا باقر، ولا المُلاّ مرتضى قلي قبل أن يتنازل ويلاقي خصمه البغيض وجهاً لوجه حين يسوقه الفراش باشي إليهم في منازلهم بأمر الصدر الأعظم.

وقبل هذه المعاملة المشينة التي عومل بها حضرة الباب وبعدها بقليل حدثت حادثتان على جانب عظيم من الدلالة تلقيان ضوءاً كاشفاً على الظروف الغريبة الغامضة التي أكتنفت فواتح استشهاده .أما الحادثة الأولى فهي أن الفراش باشي قاطع آخر حديث لحضرة الباب مع كاتب وحيه السيد حسين في إحدى غرف الثكنات، وعندما كان الفراش باشي يدفع السيد حسين بعيداً ويعنفه بشدة خاطبه السجين قائلاً: «لن يمنعني أحد عن قول ما أريد أن أقوله له، ولو قاومني جميع من على الأرض فلن يستطيعوا أن يمنعوني عن إبلاغ نواياي وإتمامها حتى الحرف الأخير». أما الحادثة الثانية فهي أن سام

خان المسيحي قائد الفرقة الأرمنية التي كلفت تنفيذ حكم الإعدام، خشي أن تجر عليه فعلته غضب الله، فالتمس أن يعفى من هذه المهمة المفروضة عليه فرضاً، فأجابه حضرة الباب قائلاً: «* نفذ ما أمرت به، وإذا كنت صادق النية فإن الله قادر أن ينجيك من ورطتك».

وعلى هذا انطلق سام خان يؤدي مهمته، فدقوا مسماراً ضخماً في عمود بين غرفتين في الثكنة، وربطوا فيه حبلين أوثق حضرة الباب بإحداهما وبآخر أحد أصحابه وهو الشاب المتفاني ميرزا محمد علي الزنوزي الملقب بـ«الأنيس». وكان من قبل ارتمى على قدمي حضرة الباب متوسلاً إليه ألا يفارقه بأية حال من الأحوال، واصطفّت فرقة الرماة صفوفاً ثلاثة في كل صف مئتان وخمسون جندياً، وأطلق كل صف الرصاص بعد الآخر حتى أفرغت الفرقة الرصاص جميعاً وتكاثف الدخان المتصاعد من البنادق السبعمائة والخمسين حتى أظلمت السماء، وما كاد الدخان ينقشع حتى ذهل ما يقرب من عشرة آلاف مشاهد صعدوا على سطوح الثكنات والمنازل المجاورة، فقد بصروا مشهداً أبت عيونهم المحملقة أن تصدقه.

لقد توارى حضرة الباب عن أنظارهم، ولم يكن أمامهم غير رفيقه يقف بجوار الحائط الذي صلبا عليه حياً لم يصبه أي سوء. أما الحبلان اللذان صلبا بهما فقد تمزقا. صاح المشاهدون المشدوهون: «اختفى السيد الباب عن أنظارنا» وتلا ذلك بحث محموم، فإذا بهم يجدونه سليماً معافى في نفس الغرفة التي قضى فيها ليلة البارحة مشغولاً بإتمام حديثه مع كاتب وحيه. وإذا بالسجين الذي حفظته العناية الإلهية على هذا النحو المعجز يرحب بقدوم الفرّاش باشي ويقول له: «* أما وقد انتهيت من حديثي مع السيد حسين فبإمكانكم أن تفعلوا ما بدا لكم». عندئذ تذكر الفراش باشي التأكيد الجريء الذي ألقاه السجين إليه من قبل، فعرته القشعريرة من هذه الظاهرة الصاعقة وغادر المكان على الفور واستقال من منصبه.

وكذلك تذكر سام خان في رعب وعجب ذلك التأكيد الذي وجهه إليه

حضرة الباب، فأمر رجاله بأن يغادروا الثكنات على الفور، وأقسم، وهو يغادر الفناء، ألاّ يعود إلى تكرار هذه الفعلة ولو كلفه ذلك حياته. عندئذٍ تطوع آقا جان خمسه قائد الحرس بأن يحل محله، وعلى نفس الحائط وبنفس الطريقة علّق حضرة الباب ورفيقه من جديد، واصطفّت الفرقة الجديدة، وأطلقت عليهما الرصاص وفي هذه المرة تمزق صدراهما واختلط جسداهما تماماً، أما الوجهان فقد ظلا سالمين لم تصبهما إلا خدوش طفيفة. وكانت كلمات حضرة الباب الأخيرة للجماهير المحملقة حين تأهبت الفرقة لإطلاق رصاصها: «أيها الجيل الملتوي! لو آمنتم بي لاحتذى كل واحد منكم حذو هذا الشاب الذي هو أعظم منكم شأناً، ولأقبل راضياً مختاراً على التضحية بنفسه في سبيلي، وسيأتي اليوم الذي فيه تؤمنون بي، وعند ذاك لن أكون معكم».

ولم يكن هذا كل شيء، ففي نفس اللحظة التي انطلق فيها الرصاص هبت عاصفة عاتية هوجاء واكتسحت المدينة، وظلت دوامة الغبار تحجب ضوء الشمس وتعمي العيون من الظهر حتى الليل. وفي سنة ١٢٦٨ هـ حدثت بشيراز «زلزلة» تنبأ بها كتاب جليل هو رؤيا يوحنّا اللاهوتي، فألقت الذعر والاضطراب وأصابت أهلها بخسائر زاد من فداحتها تفشي وباء الكوليرا والقحط والنكبات الأخرى. وفي تلك السنة نفسها لقي مائتان وخمسون رجلاً من رجال الفرقة التي حلت محل فرقة سام خان حتفهم هم وضباطهم في زلزال مروع. على حين لقي الرجال الخمسمائة الآخرون نفس المصير الذي كتبته بنادقهم على حضرة الباب جزاء لهم على تمردهم بعد ثلاث سنوات. بل لقد أطلق عليهم الرصاص مرة أخرى خشية أن يكون أحدهم على قيد الحياة، ثم مزقت أجسادهم بالحراب والرماح، وعرضت على أنظار أهل تبريز، وأما المدبر الأول لقتل حضرة الباب، أمير النظام الطاغية، فقد لقي حتفه هو وأخوه، شريكه الأول، بعد سنتين من فعلتهما الوحشية.

وفي مساء اليوم الذي استشهد فيه حضرة الباب بالغاً الحادية والثلاثين من عمره، والسابعة من بعثته، وهو التاسع من شهر تموز ١٨٥٠ م (الموافق

للثامن والعشرين من شعبان ١٢٦٦ هـ) نقل الجسدان المختلطان الممزقان من فناء الثكنات إلى حافة الخندق خارج أبواب المدينة. وكلفت أربع مجموعات قوام كل منها عشرة رجال بأن تتناوب حراستهما. وفي صبيحة اليوم التالي زار المكان قنصل روسيا في تبريز، وأمر الرسام الذي رافقه أن يرسم الرفات كما ترقد بجانب الخندق. وفي منتصف الليلة التالية نجح أحد أتباع حضرة الباب وهو الحاج سليمان خان في نقل رفات الجسدين بتوسط رجل يدعى الحاج الله يار إلى مصنع حرير يملكه أحد المؤمنين في ميلان، ووضعهما في اليوم التالي في صندوق خشبي أعد لذلك، ثم نقل الصندوق إلى مكان أمين. وفي تلك الأثناء كان الشيوخ يعلنون بفخر من فوق منابرهم بأن جثمان الإمام المعصوم يحرم على الهوام وجوارح الطير فما بال جسد هذا الرجل نهشته كواسر السباع. وما كادت أنباء نقل رفات حضرة الباب ورفيقه في البأساء تبلغ حضرة بهاء الله حتى أمر سليمان خان بإحضارها إلى طهران حيث أخذت إلى مقام إمام زاده حسن، ومن ثم أخذت تنقل من مكان إلى مكان إلى أن أمر حضرة عبد البهاء بنقلها إلى الأرض المقدسة، وهناك أخلدها بيديه إلى الراحة الأبدية في تعظيم وتكريم في مقام شيد لذلك على سفح جبل الكرمل.

وهكذا انتهت حياة سوف تعترف الأجيال القادمة بأنها تقوم بين ملتقى كورين إلْهيين عالميين: كور آدم الذي يترامى موغلا في القدم إلى فجر التاريخ الديني العالمي المدون، والكور البهائي الذي يتوغل في المستقبل إلى غايات لم يلدها الزمن بعد ولا تقل عن خمسة آلاف قرن. وأما السمو القدسي الذي بلغت به هذه الحياة تمامها فيشير، كما لاحظنا فعلاً، إلى ختام أمجد أطوار العصر البطولي من الدورة البهائية. وفضلاً عن ذلك فلا يمكن أن ينظر إليه إلاّ على ذلك الضوء الذي تشعّهُ أفجع الحوادث وأوجعها في القرن البهائي الأول كله. وهو حادث يمكن أن يشار إليه بحق بأنه لا قرين له ولا مثيل في حياة أي مؤسس من مؤسسي الديانات القائمة في العالم أجمع.

وقلما يعجز حادث خطير كهذا عن إثارة الاهتمام العميق حتى فيما

وراء حدود البلاد التي حدث فيها. وهذه شهادة سجلها عالم مسيحي ورجل من رجال الدولة عاش في إيران مدة وتعرف على حياة حضرة الباب وتعاليمه قال: «إن ذلك المثل الرائع الذي قدمه الباب للإنسانية لتتأمله لهو من أعظم الأمثلة الرائعة على الشجاعة، ودليل يثير الإعجاب على المحبة التي حملها بطلنا لمواطنيه. لقد ضحى بنفسه من أجل الإنسانية ولها وهب جسده وروحه، وفي سبيلها عانى الحرمان والهوان والسباب والعذاب والشهادة. وقد وقَّع بدمه ميثاق الإخاء العالمي، ودفع من حياته، كما فعل السيد المسيح من قبل، عربوناً لعهد الوفاق والعدل والمحبة القادم». وهذه شهادة أخرى كتبها هذا العالم أيضاً معلقاً على ملابسات استشهاد حضرة الباب، قال: «إنها حقيقة غريبة فذة بين تواريخ الجنس البشري» وهذا ما قاله مستشرق فرنسي ملحوظ المكانة: «إنها لمعجزة حقيقيّة». وهذا حكم رحالة وكاتب إنجليزي شهير قال: «هو رجل إلٰهي حق». وهذا ثناء رجل فرنسي نابه من رجال الإعلام قال: «خير من أنتجته بلاده». وهذا ما حكم به رجل إنجليزي من رجال الدين المختارين قال: «إنه لهو مسيح العصر... نبي وأكثر من نبي». وهذا هو الاحتمال الذي قدّره للدين البابي عالم أكسفورد الذائع الصيت وعميد كلية باليول مؤخراً، إذ قال: «إنّه أهم نهضة دينية ظهرت منذ أن تأسست المسيحية».

وهذا تأكيد حضرة عبد البهاء المدون: «* لقد انطلق كثيرون من جميع آفاق العالم إلى إيران وبدأوا يفحصون الأمر من كل قلوبهم» بل إن مؤرخاً معاصراً كتب آنذاك فقال إن قيصر روسيا أرسل إلى القنصل الروسي في تبريز ـ قبل استشهاد حضرة الباب بقليل ـ يأمره أن يبحث هذه الحركة المثيرة ويكتب عنها تقريراً وافياً، ولكن هذه التعليمات لم تنفذ نظراً لاستشهاد حضرة الباب. أما الدول النائية كدول غرب أوروبا، فقد ثار فيها اهتمام لا يقل عمقاً، وانتشر الخبر انتشاراً لا يقل سرعة في مختلف الدوائر الأدبية والفنية والدبلوماسية والفكرية ويشهد رجل الإعلام الفرنسي سالف الذكر بذلك: «لقد تحركت أوروبا كلها عطفاً وسخطاً... وبين أدباء هذا الجيل في باريس

سنة ١٨٩٠م، ما زال استشهاد الباب من الموضوعات الجديدة تماماً كما كان يوم تلقت باريس نبأ موته لأول مرة. لقد نظمنا فيه الشعر، وألحّت سارة برنارد[١] على كاتل منديس[٢] أن يضع مرسحيّة ترتكز على هذه المأساة التاريخية». وفي ١٩٠٣م قامت شاعرة روسية وعضوة في الجمعية الفلسفية وجمعية المستشرقين وجمعية الخدمات المكتبية في سانت بيترسبرغ بنشر مرسحيّة بعنوان «الباب» مثلت بعد سنة على أحد مراسح المدينة الرئيسة ثم انتشر صداها في لندن انتشاراً واسعاً، وترجمت إلى الفرنسية في باريس، وإلى الألمانية بقلم الشاعر فيدلر[٣] ومثلت مرة أخرى بعد الثورة الروسية مباشرة على مرسح الشعب في لننغراد، ونجحت في إثارة العطف الأصيل والاهتمام العظيم لدى تولستوي الشهير، الذي نشر تقريظه للمرسحية الشعرية في الصحف الروسية فيما بعد.

وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا إننا لا نجد في محيط الآداب الدينية العالمية، اللهم إلاّ الأناجيل، رواية تتصل بموت أحد مؤسسي الأديان السابقة يمكن أن تقارن أو تقاس بالاستشهاد الذي تجرع كأسه مظهر شيراز الإلهي. فتلك الظاهرة العجيبة المستعصية على التفسير والتي شهدها شهود العيان وعززهم فيها رجال لهم حيثيتهم ومكانتهم العالية، واعترف بها المؤرخون الرسميون وغير الرسميين من أفراد الشعب الذي عاهد نفسه على أن يكيد للدين البابي كيداً لا ينتهي، يمكن أن تعد بحق أعجب ظواهر الطاقات الفريدة التي زودت بها هذه الدورة التي بشرت بها كل الدورات السالفة. على أن آلام السيد المسيح، بل ودعوته العلنية كلها هي وحدها التي تقدم شبيهاً لبعثة حضرة الباب وموته، شبيهاً لا يعجز أي باحث في الدين المقارن من إدراكه ولا يمكنه إغفاله. ففي شباب حضرة الباب الغض ووداعته، وفي قصر

---

(١) Sarah Bernhardt

(٢) Catulle Mendès

(٣) Fiedler

ولايته العلنية وهياجها الشديد، وفي السرعة الشديدة التي اندفعت بها هذه الولاية إلى قمتها، وفي النظام الرّسولي الذي أقامه والأولوية التي أنعم بها على أحدهم، وفي جرأة تحديه للرسوم والطقوس العتيقة والشرائع الراسخة التي التحمت بنسيج الدين الذي ولد بين أحضانه، وفي الدور الذي لعبه النظام الدّيني الرسمي العتيد بصفته المحرض الأول على التعديات التي عاناها والإهانات التي انهالت عليه، وفي اعتقاله المفاجئ، والاستنطاق الذي تعرض له، وفي الاستهزاء الذي انهمر عليه والجلد الذي قاسى منه، والقذف العلني الذي احتمله، وأخيراً في صلبه الشنيع أمام الجمهور المعادي، في كل ذلك لا نعجز عن تمييز التشابه الملحوظ بين الملامح المميزة لحياة حضرة الباب وحياة السيد المسيح.

إلا أنه لا ينبغي أن يعزب عن بالنا أنه بالإضافة إلى المعجزة المتصلة باستشهاد حضرة الباب، فإن حضرته لا يعتبر مؤسساً لدورة سماوية فحسب، كما هي حال مؤسس الدين المسيحي، بل ومبشراً بعصر جديد، ومفتتحاً كوراً إلهياً عالمياً. ولا ينبغي لنا أن نتجاهل هذه الحقيقة المهمة الأخرى ألا وهي أن القوى التي اصطفّت ضد حضرة الباب في إيران مثلت تحالف السلطات الدينية والمدنية التي ثابرت منذ لحظة بعثته إلى يوم استشهاده، وتشبثت بكل وسيلة مستطاعة للتآمر على أتباعه وتشويه مضامين رسالته، على حين لم يتجاوز أعداء السيد المسيح في حياته أحبار اليهود ومن والاهم.

إن حضرة الباب الذي مجده حضرة بهاء الله بأنه «جوهر الجواهر» و«بحر البحور» و«النقطة التي تدور حولها أرواح النبيين والمرسلين» والذي به «فصّل من النقطة علم ما كان وما يكون» والذي «* قدره أعظم من كل الأنبياء» و«* أمره أعلى وأرفع من عرفان كل الأولياء وإدراكهم»، قد بلّغ رسالته وأدى مهمته. هذا «* الصبح الصادق المبشر بالنير الأعظم الأبهى» حسبما قرر حضرة عبد البهاء، هذا الذي أشار مقدمه إلى انتهاء دور «* * الوعود والنبوات»، وافتتاح «* * دور الوفاء بالوعود وتحقق النبوات»،

محا بظهوره ظلام الليل الذي خيم على بلاده، وأعلن في الوقت نفسه اقتراب بزوغ النير الأعظم الذي يحيط نوره الجنس البشري جميعاً. وصرّح مؤكداً بأنّه: «النقطة التي ذوت بها من ذوت»، و«الركن من كلمة الأولى»، و«البيت» و«النبأ العظيم» و«النار في النور على نور الطور»، «ذكر الله»، والذي «ما أرسلنا من نبي إلا وقد أخذناه بالعهد من أجله» وحقق بمجيئه وعد جميع العصور، وافتتح دور بلوغ كل الظهورات الإلهية واكتمالها في آن واحد. هذا «القائم» موعود الشيعة، و«المهدي» المنتظر من أهل السنة، و«رجعة يوحنا المعمدان» التي يتوقعها المسيحيون ورجعة «أوشيدرماه» الذي أشارت إليه الكتب الزرادشتية، ورجعة «إيليا» الذي ينتظره اليهود، هذا الذي تظهر بعثته «آثار جميع الأنبياء» هذا الذي «عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيوب»، ظهر وأشهر أمره واضطهد بلا رحمة ومات مجيداً. هذا الويل الثاني الذي تحدث عنه يوحنا في رؤياه قد جاء آخر الأمر، وقد بعث أول المرسلين اللذين تنبأ بظهورهما القرآن الكريم. و«نفخ في الصور» نفخة صعق لها من في السموات والأرض وبلغت بالعالم نهايته، و«وقعت الواقعة»، و«جاءت الطامة الكبرى»، و«البعث» و«زلزلت الساعة» و«أتت البينة» و«تنزل الملائكة والروح فيها» و«قام الناس لرب العالمين» و«السماء كشطت» و«جاء ربك والملك صفاً صفاً»، و«الكواكب انتثرت» و«أخرجت الأرض أثقالها» و«الجنة أزلفت»، و«الجحيم سعرت»، و«وضع الكتاب»، ومدّ «الصراط» و«وضع الميزان» و«نسفت الجبال نسفاً» كما تنبأ القرآن الكريم وتم «تطهير قدس الأقداس» الذي تنبأ به دانيال وأكده السيد المسيح في إشارته إلى «رجسة الخراب» وانقضى يومٌ «كان مقداره ألف سنة مما تعدون» كما تنبأ القرآن الكريم. وانتهت «الاثنان والأربعون شهراً» التي تداس فيها «المدينة المقدسة»، كما تنبأ يوحنا اللاهوتي، وافتتح «وقت النهاية» وقام أول «الشاهدين» اللذين دخل فيهما «بعد الثلاثة أيام ونصف روح حياة من الله» فوقف على رجله «وصعد إلى السماء في السحابة» وظهرت «الخمسة والعشرون حرفاً» الباقية من «السبعة والعشرين» التي تحوي العلم كله كما

يقول الحديث الإسلامي. هذا «الابن الذكر العتيد أن يرعى الأمم بعصا من حديد» المذكور في كتاب رؤيا يوحنا، أطلق بمقدمه القوى الخلاقة التي أريد بها، بعد أن عززتها فيوضات الظهور اللاحق والأعظم قوة، أن تغرس في الجنس البشري القدرة على تحقيق الاتحاد العضوي، وبلوغ سن الرشد، وبذلك يصل إلى المرحلة النهائية من تطوره المديد. وأما الصيحة فقد ارتفعت في قيوم الأسماء لـ «معشر الملوك وأبناء الملوك» مشيرة إلى ابتداء عملية أسرعت بها فيما بعد إنذارات حضرة بهاء الله إلى كل ملوك الشرق والغرب، وما زالت تحدث تطوراً واسع النطاق في مصائر النظام الملكي في جميع أرجاء العالم. وأما «النظم» الذي أقامه الموعود في الكتاب الأقدس، ووضح معالمه مركز الميثاق في ألواح وصاياه، ويشيد الآن أتباعه هيكله الإداري، فقد أعلن في «البيان الفارسي» بصورة مؤكدة. أما الشرائع والأحكام التي أريد بها من جهة أن تقضي بضربة واحدة على امتيازات دورة دينيّة بلغت أرذل العمر وعلى طقوسها ومناسكها ونظمها، وأن تجتاز من جهة أخرى تلك الفاصلة التي تفصل بين النظام البالي البائد وبين مؤسسات النظام العالمي الذي يخلفه، فقد صيغت وأعلنت بوضوح. وأما الميثاق الذي استطاع، خلافاً لكل الدورات السابقة، ورغم كل الحملات العنيفة العنيدة التي شنت عليه، أن يحافظ على كيان دين صاحبه، ويمهد السبيل لمقدم مركزه وغايته فقد أبرم إبراماً وثيقاً. وانبثق النور الذي كان من شأنه أن ينتشر من مهده تدريجاً وعلى فترات متعاقبة إلى فنكوفر غرباً، وبحر الصين شرقاً، ويسكب شعاعه على إيسلندا شمالاً وبحر تسمانيا جنوباً. أما قوات الظلام التي اقتصرت في بادئ الأمر على هيئات الشيعة الدينية في إيران، ثم استجمعت فيما بعد قوة أعظم على يد المقاومة العنيدة التي تحالف عليها خليفة الإسلام ورجال السنة في تركيا، ثم بلغت ذروتها في مقاومة الهيئات العتيدة المتصلة بالديانات القوية الأخرى، فقد شنّت حملتها الأولى. وأما نواة المجتمع العالمي الإلهي التقدير، والذي استطاعت قوته الوليدة أن تحطم أغلال الانتماء إلى الشيعة، والذي كان يحصل على اعتراف أوسع وأعمق بدعواه

الذاهبة إلى أنه دين العالم المقبل ـ كلما اتسعت دائرة المنتمين إليه ـ فقد تكونت ثم أخذت تتبلور على مهل. وأما البذرة التي وهبت لها يد العناية الإلٰهية هذه الطاقات الواسعة النطاق، ثم داستها الأقدام حتى انعدمت من الوجود في الظاهر فقد اتيحت لها الفرصة، بفضل هذه العملية نفسها، أن تنبت من جديد وتنمو على هيئة ظهور أقوى وأشد إلزاماً، من شأنه أن يزدهر في فترة متأخرة بمؤسسات النظام الإداري العالمي التي تصل حد البلوغ في العصر الذهبي الذي لم يولد بعد، على صورة هيئات تعمل في اتساق مع مبادئ «نظم» يوحد العالم كله ويفتديه.

محاولة اغتيال الشاه وما ترتب عليها

إن الدين الذي حرك أمة بأسرها من أعماقها، ومن أجله أزهقت الآلاف من الأرواح الغالية المجيدة، وعلى مذبحه ضحى مؤسسه بحياته، بدأ يتعرض الآن لضغوط أزمة جديدة ذات عنف شديد وأثر بعيد، كانت واحدة من تلك الأزمات الدورية التي توالت مدى قرن كامل فنجحت في أن تكسف سناء الدين بصورة مؤقتة، وأن تهدم بنيان مؤسساته العضوية تقريباً. والواقع إن هذه المظاهر الحتمية لهذا التطور الغيبي لدين عالمي كانت تحدث فجأة دائماً، وعلى غير انتظار في الأغلب الأعم، كما كانت تبدو مستأصلة لشأفة هذا الدين العالمي المفعم بالحياة، المتحدي في دعواه، المطوّر في عقائده، الماضي في كفاحه حيال صدمات ومخاطر جمّة يكاد يرزح تحت وطأتها. وكانت هذه الأزمات إما من الخارج على يد أعدائه الألداء، وإما من الداخل نتيجة لطيش بعض أحبائه أو ارتداد بعض أتباعه، أو تخاذل بعض ذوي المقامات الرفيعة من أقارب مؤسسيه وذوي قرباهم. ومهما يكن من أمر هذه النكسات الأكيدة التي كان الدين يعاني منها بين الحين والآخر، ومن أمر تأثيرها في الروح المعنوية لدى جموع معتنقيه المخلصين، ومهما يكن من طنطنة أعدائه بها وادعائهم بأنها أعراض الاضمحلال والانحلال الوشيك، فإننا إذا استرجعناها جميعاً وجدنا أنها عجزت عن عرقلة تقدمه أو النيل من وحدته وتماسكه. صحيح أن الضريبة التي تقاضتها كانت فادحة الأوجاع، والبلايا التي خاضتها كانت جسيمة تفوق الوصف، والهول الذي أثارته كان واسع المدى بل لقد أصابه بالشلل بعض الوقت، ولكننا لو تأملنا كل واحدة من هذه النكسات في أبعادها الصحيحة لقرننا، بثقة واطمئنان، أنها عناية

مستورة وبركة مقنّعة، ووسيلة ربانية لإطلاق المزيد من القدرة السماوية، ومهرب معجز من كوارث وشيكة الحدوث أشد نكالاً ووبالاً، وأداة لتحقيق النبوءات العريقة، وعامل لتطهير حياة الجامعة وتقويتها، ودافع لتوسيع نطاقها ونشر تأثيرها، وشاهد مفحم ملزم على عدم قابلية عرى الدين للانفصام. وطالما اتضحت لعيون الناس دلالة هذه الامتحانات، إبّان الأزمة نفسها أحياناً، وبعد انتهائها في الغالب، وتجلت ضرورتها للصديق والعدو قاصيهم ودانيهم بصورة لا يرقى إليها الشك، وقلما ظل السر، بل قل لم يحدث مطلقاً أن ظل السر الكامن وراء هذه الكوارث المشؤومة التي بعث بها الله محجوباً، أو ظل الغرض من حدوثها أو مغزى حدوثها مستوراً عن ذوي الألباب.

والآن يوشك أمر حضرة الباب أن يعاني إحدى هذه المحن القاسية وهو ما زال في مراحل طفولته الأولى. نعم إن هذا الدين الذي اضطهد اضطهاداً مريراً، واشتدت كراهيته واستنكاره منذ اللحظة الأولى التي ولد فيها، وحرم منذ أيامه المبكرة من مساندة معظم أقطاب أنصاره، وصعق لزوال مؤسسه المفاجئ المحزن، وترنح تحت وطأة الضربات القاسية التي كيلت له تباعاً في مازندران وطهران ونيريز وزنجان، يوشك أن يعاني إذلالاً لم يعرف له مثيل من قبل نتيجة لفعلة مخزية أتاها شاب بابي متعصب متهور. وبذلك أضيف إلى أعباء المحن التي عاناها عبء فادح لكارثة جديدة فريدة في خطورتها، مخزية في طبيعتها، مدمرة في نتائجها المباشرة.

فلقد دفعت مرارة مأساة استشهاد حضرة الباب، وجنون اليأس، والاعتقاد بأن المحرض الأول على هذه الجريمة هو الشاه دون سواه، بصادق التبريزي العامل في حانوت حلواني بطهران إلى أن يثأر لهذه الفعلة النكراء. فتقدم في يوم من أيام آب (١٥ آب ١٨٥٢م) مع شريك له نكرة مثله يدعى فتح الله القمي إلى نياوران حيث عسكر الجيش حول محل إقامة الشاه. وانتظر بجانب الطريق كأحد المارة الأبرياء ثم أطلق من سلاحه الناري

الرصاص على الشاه بعد خروجه من رحاب القصر على جواده يتريض رياضة الصباح. وأظهر فحص السلاح الذي استعمله المعتدي طيش هذا الشاب الأخرق بصورة لا تقبل الشك. وبيّن بجلاء أن أي رجل سليم العقل لم يكن ليقدم على ارتكاب مثل هذه الفعلة الخرقاء.

غرقت نياوران التي أقام فيها البلاط الشاهاني وفصائل الجيش في هرج ومرج لا يمكن تصورهما نتيجة لهذا الاعتداء، فوزراء الدولة وعلى رأسهم ميرزا آقا خان النوري اعتماد الدولة خليفة أمير النظام أهرعوا - والهلع يخلع قلوبهم - إلى مليكهم الجريح، ونفخت الأبواق وقرعت الطبول وعلت أصوات المزامير تدعو جيوش جلالته الشاهانية من كل حدب وصوب. واندفعت حاشية الشاه مشاة وفرساناً إلى رحاب القصر، وعمت الفوضى فكان كل فرد يصدر قراراً، ولا يسمع أحد قولاً، ولا يطيع أحد أمراً، ولا يفهم أحد شيئاً. وفي هذه الأثناء أمر أردشير ميرزا حاكم طهران فصائله بتفتيش شوارع العاصمة المهجورة ثم أغلق أبواب القلعة والمدينة، وحشا مدافعه، وأرسل رسولاً على عجل ليتأكد من صحة الإشاعات المنكرة الدائرة على ألسنة الناس ويطلب تعليمات محددة.

وما كادت هذه الفعلة ترتكب حتى وقع ظلها على البابيين كلهم، وهبت على الأمة بأسرها عاصفة من الذعر والسخط والكراهية تعززها أم الشاه الشاب. ولم يعد هناك أي مجال للتفكير في إجراء أبسط ألوان التحقيق عن أصول هذا الاعتداء أو المحرضين عليه، وكانت أي همسة أو إشارة كافية لأن تورد أي بريء موارد الهلاك وتصب عليه أشنع ألوان العذاب. وأخيراً وبعد طول تربص وانتظار ظفر جيش الأعداء بالمبرر الذي كان يتمناه، هذا الجيش المؤلف من رجال الدين ورجال الدولة والشعب ممن وحدت بينهم الكراهية المريرة فتربصوا حتى تسنح الفرصة ليشهروا بخصمهم الممقوت ويقضوا عليه. وها قد حانت الفرصة وأصبح هذا الجيش قادراً على أن يحقق غرضه الخبيث إلى أقصى مدى. وبالرغم من أن الدين تبرأ منذ البداية، من

أية نية في اغتصاب حقوق الدولة أو امتيازاتها، وبالرغم من أن أقطابه وأصحابه وأتباعه حرصوا على أن يتجنبوا أي تصرف يثير أدنى اشتباه في رغبتهم في إعلان الجهاد الديني، وعلى أن يتوقّوا متابعة أي مسلك عدائي، إلا أن الأعداء تعمدوا تجاهل الشواهد العديدة الدالة على ضبط النفس الملحوظ من جانب أتباع الدين المضطهد وأثبتوا قدرتهم على ارتكاب شناعات بربرية كتلك التي ستظل مقترنة بقصص مازندران ونيريز وزنجان الدموية. أما وقد ارتكبت هذه الفعلة النكراء الغادرة فإلى أي دركة من الخسة والقسوة لا يحب هذا العدو المتربص أن ينزل؟ وبأية تهمة لا يحب أن يلصقها بخصومه؟ وبأية معاملة لا يود أن يعامل بها كل من يمكن أن تتسرب إليه شبهة الاشتراك من قريب أو من بعيد في هذه الجناية الشنيعة ضد من جمع في شخصه سيادة الدولة ووصاية الإمام الغائب؟!

كان حكم الإرهاب الذي تلا ذلك مثيراً للتقزز بصورة لا توصف، فروح الانتقام الذي تملك هؤلاء الذين صبوا جام غضبهم وويلاتهم كان ظامئاً لا يطفأ له ظمأ، وتجاوبت أصداؤه حتى بلغت صحافة أوروبا واصمة بالعار والشنار زبانية الإرهاب المتعطشين للدماء. ورغبة من الصدر الأعظم في أن يحد من الانتقام الدموي فقد قسّم مهمة قتل من حكم عليهم بالإعدام، بين الأمراء والنبلاء وزملائه الوزراء والقواد وضباط البلاط ومندوبي رجال الدين والتجار والمدفعية والمشاة، لا بل لقد خصصت للشاه ضحية ولكنه أناب عنه قهرمان قصره لكي يطلق طلقته القاتلة صونا لكرامة التاج. أما أردشير ميرزا فقد عمل من جانبه على تشديد الحراسة على أبواب العاصمة، وأمر الحراس بأن يتحققوا من شخصية الذين يحاولون الخروج منها، واستدعى الكلانتر والداروغة والكدخداوات[١] وأمرهم بأن يبحثوا عن كل من حامت حوله شبهة اعتناق البابية ويلقوا القبض عليه. وتحت التهديد والوعيد اضطر شاب اسمه عباس كان خادماً عند أحد المؤمنين المعروفين إلى أن يمشي في شوارع

(١) الكلانتر: رئيس المخفر. الداروغة: رئيس الحرس. الكدخداوات: المخاتير.

طهران ويدل على كل من تذكر أنه بابي، بل لقد أرغم على أن يشي بأي شخص يظن أنه قادر على أن يدفع فدية طيبة لاستخلاص نفسه.

وكان صادق المنحوس أول من عانى في ذلك اليوم العصيب إذ قتل على الفور في نفس البقعة التي حاول فيها ارتكاب جريمته بأن شدوه إلى ذيل بغل وسحبوه طوال الطريق إلى طهران حيث شقوا بدنه إلى نصفين صلبوهما وعرضوهما على الأنظار. ونودي بأهل طهران أن يصعدوا إلى الأسوار ليشاهدوا الجسد الممزق. أما شريكه فقد صبوا في حلقه الرصاص المنصهر بعد أن قاسى عذاب الكلاليب المحماة وتمزيق المسامير لأوصاله، وعري رفيق لهما يسمى الحاج قاسم ووضعت الشموع الموقدة في ثقوب شقوها في بدنه، وعرض على الجمهور الصاخب اللاعن. أما الآخرون فقد فقئت عيونهم ونشرت أجسادهم بالمناشير وخنقوا، وقذفوا من أفواه المدافع، وقطعوا إرباً إرباً، ومزقوا بالفؤوس والبلط، ونعلت أقدامهم بحدوات الخيل، وطعنوا بالحراب ورجموا بالحجارة، وتسابقت زبانية العذاب على بلوغ أقسى غايات التوحش والبربرية. وكان الناس يتسلمون أجساد الضحايا المنكودة ويتكالبون عليها ليمثلوا بها تمثيلاً لا يبقي على شيء من معالمها الأولى، حتى أن الجلادين الذين ألفوا القسوة بحكم عملهم كانوا يذهلون لقسوة الناس الجهنمية. وكان الجلادون يسوقون النساء والأطفال في الطرقات بأجساد ممزقة تشتعل في جراحاتها الشموع وهن يرتلن بأصوات رنانة «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أمام المتفرجين الواجمين على جانبي الطريق، فإذا هلك الأطفال في الطريق ألقى الجلّادون أجسادهم تحت أقدام آبائهم وأخواتهم، فيطأونها بعزة وكبرياء دون أن يتجشموا عناء النظر إليهم مرة أخرى. ولقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين الممتازين بأن والداً رفض الارتداد عن دينه وفضّل أن يذبحوا ولديه الشابين المتسربلين بدمائهما على صدره، وهو مستلق على الأرض، وكان أكبرهما فتى في الرابعة عشر من عمره فطالب بحقه في أن يقتل قبل أخيه لأنه هو الأرشد.

ويروي الرواة عن ثقة ويقين أن أحد الضباط النمساويين، وهو الكابتن فون جومونس[1] الذي كان آنذاك في خدمة الشاه هالته بشاعة الفظائع التي كان مضطراً إلى مشاهدتها بحكم عمله فقدم استقالته، وبعد أسبوعين من محاولة الاغتيال أرسل خطاباً نشر في مجلة «صديق الجنود». قال: «* اتبعني يا صديقي، وأنتم يا من تدّعون أنكم تتحلّون بالأخلاق الأوروبية الرفيعة تعالوا معي لتشاهدوا البؤساء الذين فقئت عيونهم ثم أجبروا على أن يأكلوا آذانهم المبتورة في مشهد التعذيب ذاته دون ملح ولا توابل! والذين انتزع الجلادون أسنانهم وضروسهم بوحشية، والذين لم ينلهم شيء كبير من الأذى سوى أن حطمت المطارق جماجمهم العارية بكل بساطة. هلموا هلموا إلى حيث تضاء الأسواق بالضحايا البؤساء لأن الناس شقوا ثقوباً عميقة في صدور الضحايا وأكتافهم عن اليمين وعن الشمال، ووضعوا في الجروح شموعاً مشتعلة. ولقد شاهدت بعضهم يسحبون في السوق مصفدين بالأغلال تتقدمهم إحدى الفرق العسكرية. وكانت الشموع قد احترقت وتوغلت حتى أخذ شحم الجروح يدخن كالمصباح إذا انطفأ حديثاً. وليس من النادر أن تتفتق عبقرية أهل الشرق عن ألوان جديدة من التعذيب. من ذلك مثلاً أنهم يسلخون قدمي البابي ويغمسون جروحه في الزيت المغلي، ويدقون فيها حدوة حصان، ويرغمونه على الجري. فلا تصدر من الضحية آهة ولا زفرة. بل تتحمل حواسه المفقودة ذلك العذاب في صمت مظلم. والآن يجب عليه أن يجري. ولا يستطيع الجسم أن يتحمل ما يتحمله الروح فيسقط. ألا فارحموه واضربوه الضربة القاضية، وخلصوه من آلامه! ولكن لا! الجلاد يهوى بالسوط وكان عليّ أن أشاهد ذلك، وإذا بالضحية المتحملة مائة ضعف من العذاب تركض من جديد، كل هذا مجرد بداية للنهاية. أما النهاية نفسها فهي أن الجلادين يصلبون الأجساد المكوية الممزقة رأساً على عقب على جذوع الأشجار. عند ذاك تتاح الفرصة لأي إيراني يحبّ أن يجعل تلك الأجساد

---

(١) Captain Von Goumoens

المعلقة النبيلة هدفاً لإظهار براعته في التصويب على قدر ما يحب ويشتهي وعلى مسافة معينة ليست بالقريبة جداً ولقد رأيت أجساداً مزقتها مائة وخمسون رصاصة تقريباً». ثم مضى يقول: «* حين قرأت ما كتبت مرة أخرى تصورت أن الذين يعيشون معكم في النمسة وطننا العزيز المحبوب قد يخامرهم الشك في صحة هذه الصورة، وقد يرمونني بالتهويل والمبالغة، ألا ليتني لم أولد حتى لا أرى هذه الصورة. ولكنني بحكم عملي كنت أشاهد هذه الأهوال كثيراً، أكثر مما ينبغي لسوء الحظ. إنني لا أغادر منزلي الآن حتى لا أشاهد شناعات جديدة أخرى... ولما كان روحي يثور ضد هذا العار... فإنني أقطع صلتي بمنظر هذه الجرائم». ولا عجب إن وصف رجل ذائع الصيت مثل رينان[1] في كتابه «الرسل» هذه المجزرة البشعة التي ارتكبت في يوم واحد أثناء مذبحة طهران الكبرى بأنها «يوم قد لا يكون له شبيه ولا نظير في تاريخ العالم بأسره».

لم تكتف اليد التي هوت على أنصار هذا الدين الممتحن أفظع امتحان بهذه الضربة القاصمة بعامة أتباع حضرة الباب، بل امتدت بغضب وعزم وقوة مماثلة فصرعت البقية الباقية من الأقطاب الذين عاشوا من بعد أعاصير العدوان التي اجتاحت كل هذه الجموع الغفيرة من أنصار الدين وأتباعه. فجندلت العاصفة الهوجاء «الطاهرة» البطلة الخالدة التي سكبت سناء باقيا على بنات جنسها وعلى الدين الذي اعتنقته على حد سواء. كما افترست السيد حسين كاتب وحي حضرة الباب ورفيق منفاه ومستودع وصاياه وشاهد وقائع استشهاده العجيبة. لا بل إن تلك اليد بلغ من جسارتها ووقاحتها أن تطاولت إلى شخصية حضرة بهاء الله الشامخة، فألقت القبض عليه إلا أنها عجزت عن أن تصرعه. نعم إنها جعلت حياته في خطر، وطبعت على جسده آثاراً لا تمحى من القسوة المتحجرة، ولكنها عجزت عن أن تعطل مهمته التي لم تكن مجرد المحافظة على النيران التي أوقدها روح حضرة الباب فحسب

---

(١) Renan

بل وإشعال نار تبلغ، بظهور حضرة الباب، تمامه وتفوق كل أمجاده.

وفي تلك الأيام المظلمة المضنية عندما غابت شمس الباب وعندما أفلت تلك النجوم الساطعة في سماء دينه الواحدة بعد الأخرى وهامَ مَنْ كان مرشحاً لوصايته من بعده في فلوات رشت وجبالها طريداً شريداً متنكراً في ثياب الدراويش حاملاً بيده كشكوله، بَدا للأعداء المتربصين الساهرين أنَّ حضرة بهاء الله، بفضل ما انجزه من أعمال، هو ألدّ الخصوم وأنه الأمل الوحيد لمن اعتبرهم هؤلاء زمرة الإلحاد والكفر التي لم تستأصل جذورها بعد، فأصبح اعتقاله وقتله آنذاك من ألزم الأمور. ولم لا؟ ألم يكن هو الذي تسلم من المُلاّ حسين مبعوث حضرة الباب الوثيقة التي زفت إليه أولى بشارات الظهور الجديد ولم تكد تمضي على ميلاد الدين سوى ثلاثة أشهر، فآمن بها وصدق بصحتها من فوره، ونهض ليدافع عن أمرها وأمر صاحبها. ألم تكن إلى مسقط رأسه ومسكنه قد اتجهت خطوات ذلك المبعوث أول ما اتجهت بوصفه الموضع الذي يضم سراً لا يطمع الحجاز ولا شيراز في منافسة قدسيته، وبما كتبه المُلاّ حسين عن اجتماعه به ابتهج حضرة الباب ابتهاجاً ألقى على قلبه سكينة جعلته يصمّم أخيراً على أن يقدم على حجّهِ المرتجى إلى مكة والمدينة. ألم يكن هو وحده غاية كل الإشارات الخفيّة ومدار الثناء العاطر والمناجاة الحارة والبشارات السارة والإنذارات المدونة في كل من «قيوم الأسماء» و«البيان»، أول وآخر الشهادات المكتوبة بذلك المجد الذي يوشك أن يسبغه الله عليه. وبفضل مراسلاته مع مؤسس الدين الجديد واتصاله الوثيق بالنخبة الممتازة من أصحابه من أمثال وحيد والحجة والقدوس والمُلاّ حسين والطاهرة استطاع أن يتعهد الدين بالنماء، ويوضح مبادئه ويعزز أسسه الخلقية ويحقق مطالبه العاجلة ويجنبه بعضاً من الأخطار الداهمة، ويشارك مشاركة فاعلة في نهضته وتثبيت أركانه. ألم يكن هو الذي عناه المظهر الإلٰهي عندما بشر القدوس ـ غداة العودة من الحج إلى بوشهر ـ بأنه سوف يحظى بسعادة لقاء «هدف تقديسنا وغاية محبتنا» قبل أن يرتشف القدوس كأس الشهادة. ألم يسقط وهو في ريعان شبابه كل اعتبار للشهرة والثروة

والجاه، متجاهلاً المخاطر ومُهملاً تنديد الطبقة الاجتماعية الرفيعة التي ينتمي إليها؟ ونهض في طهران ثم في موطنه مازندران لينتمي إلى الفرقة الغامضة المنبوذة، وكسب لها عدداً كبيراً من رجال الدولة والنابهين من أهل نور بمن فيهم خلطاؤه وذوو قرباه، وبجرأة فسّر لتلاميذ المجتهد الشهير المُلاّ محمد حقائق الدين وكسبهم إلى صفه، وضمن بعمله هذا ولاء عدد كبير من رجال الدين والدولة والفلاحين والتجار، بل وأفحم المجتهد نفسه في إحدى الجلسات الخالدة الذكر. وإلى كفاية رسالته التي كتبها وأودعها المُلاّ محمد مهدي الكندي فسلمها هذا بدوره إلى حضرة الباب على مقربة من مدينة كُلين يرجع الفضل في أن تخلص روح السجين، في ساعة التوتر والانزعاج، من الشقاء الذي خيم عليه منذ أن ألقي القبض عليه في شيراز. ألم يرحب من أجل الطاهرة وأصحابها المسجونين بالسجن المهين عدة أيام في منزل أحد مخاتير البلد في طهران؟ وكان أول سجن يعانيه، وإلى حرصه ونفاذ بصيرته ومقدرته يرجع الفضل في فرارها الموفق من قزوين، وخلاصها من خصومها ووصولها سالمة إلى بيته، ثم انتقالها إلى مكان أمين قرب العاصمة استطاعت أن تنطلق منه إلى خراسان. وإلى محضره أدخل المُلاّ حسين سراً عند وصوله إلى طهران فلقيه ثم سافر إلى آذربيجان ليزور حضرة الباب الذي كان آنذاك معتقلاً في ماه كو. ألم يكن هو الذي أدار دفة الأمور في مؤتمر بدشت دُونَ زلة بصورة غير ملحوظة، واستضاف القدوس والطاهرة والواحد والثمانين مؤمناً الذين اجتمعوا بتلك المناسبة، وأنزل كل يوم لوحاً وأنعم على كل فرد من المجتمعين بأسم جديد. ألم يكن هو الذي واجه وحده جمهوراً يزيد على الخمسمائة فلاح في نيالا، وحمى القدوس من غضب المهاجمين، وأمكنه أن ينقذ بعضاً من الأموال التي نهبها العدو، وقام على حماية الطاهرة التي أوذيت كثيراً وهوجمت كثيراً؟ ألم يكن هو الذي ثارت ثائرة محمد شاه عليه نتيجة للوشايات والسعايات المستمرة فأصدر أمراً بإلقاء القبض عليه واستدعائه إلى العاصمة، ولكن الأمر لم ينفذ نتيجة لموت الشاه المفاجئ؟ وإلى نصائحه وتشويقه لنزلاء قلعة الشيخ طبرسي، الذين قابلوه بالمحبة

والإجلال أثناء زيارته، يرجع الفضل إلى حد ليس بالقليل في ارتفاع الروح المعنوية لدى المدافعين الأبطال. وإلى تعليماته الصريحة يرجع توفيقهم في تخليص القدّوس بصورة معجزة لينضم إليهم في المغامرات المثيرة التي خلدت فتنة مازندران. ألم يكن من أجل هؤلاء المدافعين الذين كان ينوي الانضمام إليهم أن سجن مرة أخرى في مسجد آمل الذي سيق إليه وسط ما لا يقل عن أربعة آلاف من المشاهدين المهتاجين ومن أجلهم جلد حتى أُدميت قدماه في خلوة مجتهد هذه المدينة، وأودع مسكن حاكمها، ووشى به الملا الكبير وأهانته الجموع التي حاصرت مسكن الحاكم ورشقته بالحجارة وقذفته بأبشع السباب. ألم يكن هو بعينه الذي أشار إليه القدوس عندما وصل إلى قلعة الشيخ طبرسي ونزل عن فرسه وأسند ظهره إلى حائط الضريح ورتل قوله تعالى «بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين». وكان هو بعينه المقصود بكل هذا الثناء العاطر وهذا التفسير البارع لصاد الصمد الذي كتب هذا البطل الشاب بعضه في القلعة أثناء أحرج الظروف والذي يبلغ حجمه ستة أمثال حجم القرآن. ألم يكن لتاريخ ظهوره الوشيك أن أشار «لوح الحروفات» الذي فاض من قلم حضرة الباب في چهريق تشريفاً للديان إشارة خفيّة، وفيه أماط اللثام عن سر «المستغاث»؟ وللفوز بمحضره وجّه حضرة الباب انتباه صحابيّ آخر، وهو المُلاّ باقر أحد حروف الحي. وإلى رعايته الخاصة عهد بوثائق حضرة الباب ومقلمته وأختامه وخواتمه العقيقية مع درج كتب فيه على هيئة النجم ما لا يقل عن ثلاثمائة وستين اشتقاقاً لكلمة «بهاء» سلمت إليه جميعاً تنفيذاً لتعليماته التي أصدرها قبل مغادرته قلعة چهريق. ومن نتيجة مبادرته وحدها وتنفيذاً لتعليماته بحذافيرها نقلت رفات حضرة الباب الغالية من تبريز إلى العاصمة بسلام وحفظت بمنتهى العناية وأخفيت بمنتهى السرية خلال السنوات العاصفة الهوجاء التى تلت استشهاده. وأخيراً ألم يكن هو الذي عمل أثناء إقامته في كربلاء ـ وفي الأيام التي سبقت محاولة اغتيال الشاه ـ بكل همة ونشاط على نشر تعاليم زعيمه الراحل بنفس الحماسة والقدرة اللتين امتازت بهما أعماله الأولى في مازندران، مجتهداً في تأمين مصالح دينه واستنهاض

همم أتباعه المحزونين وتنظيم قوى أوليائه الحيارى المشتتين؟

رجل هذا شأنه وهذا سجل أعماله، لم يكن من السهل أن يفلت من رقابة العدو الساهر اليقظ ولا من غضبه، والواقع أنه لم يفلت. فمنذ البداية تملّكته الحماسة القاهرة للأمر الذي اعتنقه، وكان جريئاً جسوراً في مطالبته بحقوق المضطهدين، وكان في ميعة الصبا وريعان الشباب لا يجاريه في قدرته ولا يباريه في سحر بيانه أحد، وكان ذا طاقة لا تكل، وحكم صائب لا يخل، ثرياً متمتعاً بالإجلال والنفوذ والجاه والمكانة السامية النبيلة إلى أقصى درجة. ومع ذلك احتقر الأبهة والمفاخر والعطايا والممتلكات الدنيوية. وبفضل مراسلاته المنتظمة، كان وثيق الصلة بمؤسس الدين الذي نهض للذود عنه، كما كان واقفاً تمام الوقوف على آمال أقطابه وآلامهم وخططهم ومناشطهم. وكان يتقدم ليحتل مركز الزعامة الصريحة للقوى المكافحة من أجل تحرير الدين تارة، وتارة أخرى كان يعتمد الانسحاب في حرص شديد ليكون أقدر على علاج موقف شاذ أو إبعاد خطر داهم، ولكنه كان في كل الأحوال ساهراً متأهباً مستعداً لا يكل عن بذل الجهود ليحافظ على كيان الدين ويحل مشكلاته ويدافع عنه ويشجع أتباعه ويبلبل خصومه. أما وقد بلغ الدين الآن أحرج ساعاته وأشدها حسماً فقد تقدم إلى قلب المرسح الذي أخلي من حضرة الباب بصورة محزنة لكي يؤدي لمدة أربعين سنة كاملة دوراً لا يدانيه في جلاله ولا في أشجانه ولا في سنائه دور أي مؤسس من المؤسسين العظام لأديان العالم التاريخية.

أثارت هذه الشخصية الشامخة العظيمة غضب محمد شاه، نتيجة للاتهامات التي وجهت إليه، وما سمعه الشاه عما حدث في بدشت. فأصدر إلى زعماء مازندران الإقليمية عدة فرمانات يأمرهم فيها باعتقاله وصرح بعزمه على قتله. أما الحاج ميرزا آقاسي الذي حدثت بينه وبين الوزير (والد حضرة بهاء الله) جفوة من قبل، وأغضبه فشله في اغتصاب إحدى ضياع حضرة بهاء الله، فقد عاهد نفسه على مُعاداته خاصة وأنه نجح نجاحاً باهراً في إحباط

مساعيه الخبيثة. وفضلاً عن ذلك فإن أمير النظام كان مدركاً تمام الإدراك عمق تأثير هذا الخصم الفاعل. فاتهمه أمام جماعة من علية القوم بأنَّ نشاطه قد كبّد الدولة خسارة لا تقل عن خمس كرورات[١]. وفي هذه الفترة الحاسمة التي كان يجتازها الدين طلب إليه بكل وضوح وتأكيد أن يحول مقامه إلى كربلاء مؤقتاً. أما ميرزا آقا خان النوري الذي خلف أمير النظام فقد حاول في أول أيامه أن يعقد صلحاً بين حكومته وبين حضرة بهاء الله الذي اعتبره أقدر أتباع حضرة الباب. فلا عجب إن تطرقت إلى حضرة بهاء الله الظنون والشكوك، التي لا يعدلها في الخطورة والجسامة إلا بطلانها وزيفها، عندما اقترفت تلك الفعلة الجريئة الخطيرة فيما بعد. وتسرّبت هذه الظنون إلى الشاه وحكومته وبلاطه وشعبه. وإن أشدّهم إسرافاً في ذلك أم الشاه الشاب التي أخذ الغضب منها كل مأخذ واتهمته بأنه هو المحرض الأول على محاولة اغتيال ولدها.

كان حضرة بهاء الله ضيفاً على الصدر الأعظم في لواسان حين محاولة اغتيال الشاه، وكان يقيم في قرية أفجه حين بلغت الأنباء الخطيرة. فنصح له جعفر قلي خان أخو الصدر الأعظم الذي كان يقوم على ضيافته بأن يتوارى عن الأنظار بعض الوقت في ناحية من تلك النواحي. ولكنه لم يستمع للنصيحة وصرف الرسول الذي أرسل معه ليؤمّن سلامته. وركب في صبيحة اليوم التالي إلى معسكر الجيش الشاهاني بجرأة ورباطة جأش، وكان الجيش في نياوران بمنطقة شميران. وفي قرية زركندة لقيه صهره ميرزا مجيد الذي كان آنذاك سكرتيراً للأمير دولجوروكي[٢] الوزير الروسي، وصحبه إلى منزله المتصل بمنزل رئيسه، فلما علمت حاشية حاجب الدولة الحاج علي خان بقدوم حضرة بهاء الله بادروا بإخطار سيدهم فرفع هذا الأمر بدوره إلى مسامع الشاه، فتعجب الشاه وأرسل ضباطه ومعتمديه إلى السفارة يطالبون بتسليم

---

(١) الكرور يساوي خمسمائة ألف.

(٢) Prince Dolgorouki

المتهم إليهم. ولكن السفير الروسي رفض أن يسلمه إليهم، وطلب إلى حضرة بهاء الله أن يتوجه إلى بيت الصدر الأعظم الذي سبق للسفير أن أبدى له رغبته في تأمين سلامة الوديعة التي تقوم الحكومة الروسية بتسليمها إليه. إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق نظراً لأن الصدر الأعظم خاف على مركزه أن يضيع إذا هو شمل المتهم بالحماية المطلوبة.

وهكذا سلّم هذا القطب العظيم للدين المضطهد على الدوام، والذي طالت منه الشكوى والخوف، إلى أيدي أعدائه وأرغم على أن يرتشف من تلك الكأس التي تجرعها حتى الثمالة مؤسس الدين نفسه، وسيق من نياوران إلى سياه چال بطهران «* على قدميه مكبلاً بالسلاسل والأغلال، عاري الرأس حافي القدمين» معرضاً لشمس الصيف الحامية. وفي الطريق خلعت عنه ملابسه الخارجية عدة مرات وضايقته الجماهير بالسخرية ورشقتهُ بالحجارة. أما الغرفة السفلية التي ألقي فيها فكانت من قبل خزّانا لمياه أحد الحمامات العامة بالمدينة. ولندع كلماته المدونة في «لوح ابن الذئب» تشهد بالمحنة التي عاناها في ذلك السرداب الوبيل، قال: «* وعيّن لنا مقرٌ لمدة أربعة أشهر لا شبيه له ولا مثيل... وبعد أن وردنا السجن قادونا إلى دهليز مظلم ثم هبطنا ثلاث دركات وبلغنا المقر الذي عينوه، أما المكان فكان مظلماً يعيش فيه ما يقرب من المائة والخمسين من اللصوص والقتلة وقطاع الطرق. وبالرغم من وجود هذا الجمع الغفير فإن المكان لم يكن له من منفذ سوى الطريق الذي وردنا منه. إن الأقلام لتعجز عن وصفه، والبيان يكلّ عن بيان روائحه المنتنة. وكان معظم هذا الجمع بلا لباس ولا فراش. الله يعلم ما ورد علينا في ذاك المقام الأنتن الأظلم». وقيّدت قدماه بالقيود وصفّد عنقه بسلاسل «قره كُهَر» الثقيلة فتركت بصماتها على جسده طيلة حياته. وقد شهد حضرة عبد البهاء بذلك فقال: «** وضعت حول عنقه سلاسل ثقيلة صفّد بها خمسة من البابيين. وكانت هذه السلاسل مشدودة بعضها إلى بعض بأقفال ومسامير قوية جداً وثقيلة جداً. وكانت ثيابه ممزقة وكذلك كان لباس رأسه. وظل حضرته على هذه الحال الفظيعة أربعة أشهر». وقد حرم الطعام

والشراب ثلاثة أيام بلياليها واستحال عليه النوم. ذلك لأن المكان كان بارداً رطباً قذراً موبوءاً بالحمّى، مليئاً بالهوام والحشرات والروائح الكريهة. ولقد ذهب أعداؤه الذين أثارتهم الكراهية الشديدة إلى حد محاولة دس السم في طعامه طمعاً في الفوز برضاء أم الشاه عدوه اللدود، ولكن المحاولة باءت بالفشل وإن أضرّت بصحته في السنوات التالية. ويذكر الدكتور ج. أ. إسلمنت في كتابه: «* يخبرنا حضرة عبد البهاء كيف أذن له يوماً أن يدخل ساحة السجن ليرى والده المحبوب حين خرج لرياضته اليومية، وكان حضرة بهاء الله قد تغير بصورة مخيفة، وقد بلغ به الإعياء أنه لم يكن قادراً على السير، وكان شعره ولحيته متلبّدين، وكان عنقه متسلخاً متورماً من ثقل السلاسل الحديدية، وكان جسده ينوء تحت أثقال الأغلال».

وبينما كان حضرة بهاء الله يعاني تلك الامتحانات القاسية والشدائد المروعة في تلك الأيام الهائجة المائجة كان ثمة نجم آخر من نجوم الدين، ونعني به الطاهرة الجريئة، تهوي بسرعة تحت قوّتها المدمرة. لقد بدأ عملها الباهر كالشهاب أول ما بدأ في كربلاء، وبلغ أوجه في بدشت، وهو يوشك الآن أن يبلغ نهايته بشهادة يمكن أن توضع بجدارة واستحقاق في مصاف أشد القصص تحريكاً للقلوب في أعنف فترات التاريخ البهائي وأشدها اضطراباً.

كانت سليلة أسرة الحاج المُلاّ صالح البرقاني الشهيرة التي طالما احتل أفرادها المكانة المرموقة في النظام المذهبي بإيران. وكانت سمية فاطمة الزهراء، ولكن أسرتها كانت تسمّيها زرين تاج (التاج الذهبي) والزكية. ولدت في نفس السنة التي ولد فيها حضرة بهاء الله وكان أهل مدينتها يعدونها، منذ نعومة أظفارها، آية في الذكاء والجمال. وأجلّها قبل إيمانها بعض أكابر علماء بلادها لطرافة آرائها ووجاهتها وجدّتها، وخاطبها أستاذها المعجب، السيد كاظم، بـ«قرة العين» ولقّبها لسان القدرة والعظمة بـ«الطاهرة». وكانت السيدة الوحيدة التي سلكها حضرة الباب في عداد حروف الحي، وعن طريق حلم سبقت الإشارة إليه في الصفحات السابقة،

اعتنقت الدين وثابرت على نشره وترويجه حتى في أشد الأوقات خطورة وخطراً بكل ما أوتي روحها الغلاب من حماسة وقوة حتى النفس الأخير. ولقد نصرت أمر حضرة الباب بجدية وحماس غير عابئة باحتجاجات والدها الشديدة، غير مكترثة بشتائم عمها، غير آبهة لتوسلات زوجها وإخوتها. لا يفت في عضدها التدابير التي اتخذتها المقامات المدنية والدينية في كربلاء ثم بغداد ثم قزوين للحدّ من نشاطها. ولقد ثابرت على إشعال حماسة العرب والعجم، وأخذ البيعة منهم للظهور الجديد، والدعوة إلى تغيير عادات قومها ومسالكهم تغييراً ثورياً، وذلك عن طريق خطبها البليغة العصماء وتنديداتها الجريئة بالمفاسد وأبحاثها ودراستها وأشعارها وترجماتها وتفسيراتها ومراسلاتها.

كانت هي التي قد نهضت في كربلاء، أقوى معقل للشيعة، لتوجه الرسائل الطوال للعلماء المقيمين بتلك المدينة، والذين كانوا قد رجعوا بمنزلة المرأة إلى ما فوق منزلة الحيوان بقليل، وأنكروا عليها حق امتلاك أي شيء حتى الروح. وفي رسائلها هذه دافعت بحرارة عن هدفها السامي، ونددت بمآربهم الخبيثة. وتحدّت مواضعات أهل تلك المدينة المتعصبين تحدياً صريحاً سافراً، وذلك بأن تجاهلت الذكرى لشهادة الإمام الحسين التي تقام باحتفال مهيب في فواتح المحرم من كل عام، واحتفلت بدلاً منه بعيد ميلاد حضرة الباب الذي يوافق غرة ذلك الشهر. وببلاغتها العجيبة وقوة عارضتها المدهشة أفحمت الوفد الممثل للشيعة والسنة والمسيحيين وأكابر اليهود في بغداد والذي حاول أن يصرفها عما عاهدت نفسها عليه من نشر بشارات الرسالة الجديدة. وببراعة فائقة دافعت عن دينها وبرّرت تصرفاتها في بيت الفقيه النابه الشيخ محمود الآلوسي مفتي بغداد. ثم عقدت جلساتها التاريخية للأمراء والعلماء ورجال الحكومة المقيمين بكرمانشاه حيث قرأت عليهم وترجمت لهم تفسير حضرة الباب لسورة الكوثر، وبلغت هذه الجلسات قمتها بأعتناق الأمير (الحاكم) هو وأسرته الدين الجديد. وكانت السيدة الموهوبة التي أخذت على عاتقها ترجمة تفسير حضرة الباب الضخم لسورة يوسف (قيوم الأسماء) لصالح إخوتها في الدين من الإيرانيين، وبذلت

أقصى ما تستطيع من جهد لتنشر هذا الكتاب العظيم وتوضح محتوياته، وبجسارتها ومهارتها وقدرتها على التنظيم وحماستها الظامئة استطاعت أن تثبت دعائم فتوحاتها في محيط لا يقل جفاء ولا عداء عن قزوين، قزوين التي افتخرت بأن أسوارها تضم ما لا يقل عن مائة علاّمة من علماء الإسلام الأفذاذ. وهي التي قاطعت وحيداً النابغة، أثناء لقائهما الخالد في منزل حضرة بهاء الله بطهران عندما كان وحيد يتابع حديثه القيّم عن علامات المظهر الجديد وأشراطه، ودعته بقوة، وهي تضع في حجرها حضرة عبد البهاء الذي كان طفلاً آنذاك، إلى أن ينهض ويظهر بالأعمال لا بالأقوال عمق إيمانه ومدى بطولته وتضحيته. وإبان شهرتها وذيوع صيتها في طهران تزاحمت على بابها زهرات المجتمع ليستمعن إلى أحاديثها الرائعة عن مبادئ دينها الفريدة. وكان سحر بيانها هو الذي جذب المدعوات في حفل زفاف ابن محمود خان الكلانتر الذي اعتقلت في منزله، وصرفهن عن الطرب والسّمر، وجمعهن حولها متلهفات ظامئات إلى كل كلمة من كلماتها. وكان لتأكيدها الحارّ والقاطع لدعاوي الظهور الجديد ومعالمه المميزة خلال سبع جلسات عقدتها في المنزل نفسه مع مندوبي الصدر الأعظم الذين أرسلهم لاستجوابها الأثر الكبير في الإسراع بالحكم عليها بالإعدام. ومن قلمها فاضت المدائح التي لا تشهد بوضوح وصراحة بإيمانها الراسخ بظهور حضرة الباب فحسب بل وتشهد أيضاً باعترافها برسالة حضرة بهاء الله المجيدة التي لم تكن قد تكشف أمرها بعد. وأخيراً، وليس آخراً، إلى مبادرتها أثناء اشتراكها في مؤتمر بدشت يرجع الفضل في كشفها لإخوانها المؤمنين أشد الأمور تحدياً في مكنونات الدورة الثورية التي لم يكن أحد يدركها بتمامها آنذاك. كما يرجع إليها الفضل في انفصال النظام الجديد عن أحكام الإسلام ومؤسساته انفصالاً دائماً. وقد آن لهذه الفتوحات العجيبة أن تتوّج، وتبلغ كمالها النهائي باستشهاد صاحبتها في غمار العاصفة التي كانت تجتاح العاصمة من أقصاها إلى أقصاها.

وذات ليلة أدركت أن ساعتها قد دنت، فلبست ثياب العرس وتزينت

وتعطرت بالطيب، وأرسلت تطلب زوجة الكلانتر وباحت لها بسر دنو استشهادها، وأسرّت إليها بوصاياها الأخيرة. ثم اعتكفت في جناحها وانتظرت في تعبّد وتبتّل وابتهال تلك الساعة التي تشهد اتحادها مع محبوبها. وكانت تذرع غرفتها وهي ترتل مناجاة تعبر عن الحزن والنصر حين أقبل فرّاشو عزيز خان السردار في سكون الليل يسوقونها إلى حديقة إيلخاني خارج أسوار المدينة، موضع شهادتها. وعندما وصلت إلى الحديقة كان السردار مع معاونيه لاهين مخمورين يغرقون في الضحك. فأمر عفو الخاطر بأن تخنق على الفور وأن يلقى بها في حفرة. وبنفس المنديل الحريري الذي احتفظت به بالغريزة لهذا الغرض، ودفعت به في اللحظات الأخيرة إلى ابن الكلانتر الذي رافقها، خُنِقت البطلة الخالدة، وألقي بجثمانها في بئر ثم أهيل عليها التراب والحجارة على نحو ما رغبت.

وهكذا انتهت حياة تلك البطلة البابية العظيمة، أول شهيدة في سبيل تحرير المرأة. فلقد التفتت إلى سجانيها عند موتها، وقالت في جرأة: «* تستطيعون قتلي بأسرع ما تريدون ولكنكم لن تستطيعوا إيقاف تحرير المرأة». كان عملها باهراً بقدر ما كان قصيراً. وكان محزناً بقدر ما كان مليئاً بالأحداث، ولقد عمّت شهرة هذه السيدة الخالدة الآفاق، وطبقت الخافقين على خلاف زملائها من المؤمنين الذين ظلت معظم أعمالهم الجليلة مجهولة لا يتغنى بها أحد من معاصريهم في البلاد الأجنبية. أما هذه السيدة فقد ذاع صيتها بسرعة ملحوظة حتى بلغت عواصم أوروبا الغربية، وأثارت الإعجاب والعطف وانتزعت الثناء البالغ من الرجال والنساء وذوي الجنسيات والمهن واللغات المختلفة. فلا عجب إن أضاف حضرة عبد البهاء اسمها إلى سارة وآسية ومريم العذراء وفاطمة الزهراء، اللواتي شمخن على بنات جنسهن بمزاياهن الذاتية ومكانتهن الفريدة على مر الدورات السابقة، ووصفها بقوله: «* قد كانت فتنة العصر في بلاغتها، وفي منطقها اضطراباً للعالمين». ووصفها مرة أخرى بأنها «* قبس من نار محبة الله» و«* سراج موهبة الله».

والواقع أن قصة حياتها العجيبة انتشرت طولاً وعرضاً بمثل ما انتشرت به قصة حياة حضرة الباب منبع إلهامها المباشر. وإليك ثناء معلق معروف على حياة حضرة الباب وأصحابه، قال: «إنها آية في العلم وآية في الجمال». وأثنى عليها كاتب مرسحي معروف كانت سارة برنارد سألته أن يكتب تاريخ حياتها في صورة مرسحية، قال: «هي جان دارك الإيرانية، زعيمة تحرير المرأة في الشرق. شبيهة هيلويز[١] العصور الوسطى وهيباشيا الأفلاطونية الحديثة[٢]» وشهد اللورد كرزون من كدلستون[٣] بأن «بطولة زرين تاج شاعرة قزوين الجميلة المنكودة الطالع... هي قصة من أقدر قصص التاريخ الحديث على تحريك المشاعر». وكتب الأستاذ أ. ج. براون[٤] المستشرق الإنجليزي الشهير «إن ظهور امرأة كقرّة العين يعتبر ظاهرة نادرة في أي زمن من الأزمان وفي أي قطر من الأقطار بل إنه في قطر كإيران يعتبر أعجوبة إن لم يكن شيئاً يقارب المعجزة... ولو لم يكن للدين البابي من سبب يمتّ به إلى العظمة سوى أنه أخرج لنا بطلة مثل قرة العين لكفاه سبباً». وأبدى رجل الدين الإنجليزي المعروف دكتور ت. ك. تشايين[٥] في أحد كتبه تلك الملاحظة ذات الدلالة الكبيرة قال: «إن البذور التي بذرتها قرة العين في العالم الإسلامي بدأت الآن تؤتي أُكُلها... هذه السيدة النبيلة... يرجع إليها الفضل في افتتاح عهد الإصلاح الاجتماعي في إيران...» وأشار إليها الدبلوماسي الفرنسي الملحوظ المكانة والكاتب القدير كونت دي جوبينو[٦] بقوله: «مما لا شك فيه أنها من أعجب ظواهر هذا الدين وأدعاها إلى الاهتمام». ثم أضاف «وفي قزوين كانت تعتبر أعجوبة عن جدارة

---

(١) Heloise

(٢) Neo-Platonic Hypatia

(٣) Lord Curzon of Kedleston

(٤) Prof. E.G. Browne

(٥) Dr. T.K. Cheyne

(٦) Comte de Gobineau

واستحقاق». وكتب مرة أخرى: «لقد أخبرني كثيرون ممن عرفوها عن قرب واستمعوا إليها في فترات مختلفة من حياتها.. أنها كانت إذا تكلمت تحركت مشاعر المستمع وملأ صدره الإعجاب ومال إلى البكاء». وكتب سير فالنتين تشيرول[1]: «ليس هناك من ذكرى أحق بالتخليد من ذكراها، وليس هناك من ذكرى أقدر من ذكراها على إشعال الحماسة من جديد. وما زال التأثير الذي خلّفته في حياتها ينسكب على قضية بنات جنسها». وهذا سليمان ناظم بيك الشاعر التركي الشهير والكاتب القدير يقول في كتابه عن البابيين متعجباً: «يا طاهرة! لأنت خير من ألف ناصر الدين شاه!» وأما السيدة ماريانا هاينش[2]، أم أحد رؤساء حكومة النمسة، فقد قرّظت الطاهرة قائلة: «كانت الطاهرة المثل الأعلى للأنوثة... ولسوف أحاول أن أقدّم لنساء النمسة ما قدمته الطاهرة لنساء إيران وضحت له بحياتها».

وما أكثر الذين تلهفوا على معرفة المزيد عن حياتها من المعجبين بها المتحمسين لها في قارات العالم الخمس! وما أكثر الذين سما مسلكهم بمثلها الملهم! وما أكثر الذين حفظوا مدائحها الفريدة عن ظهر قلب، لحّنوا أشعارها أو تألق طيف روحها الغلّاب أمام أبصارهم، أو أكنّوا لها في قلوبهم حباً وإعجاباً لا ينال الدهر من سناهما، وما أكثر الذين تحرقت أرواحهم شوقاً لأن يقتدوا بها، وأن يسلكوا، بنفس الإخلاص والإقدام، نفس الطريق التي اختارتها لنفسها، والتي لم تنحرف عنها قيد شعرة منذ اعتنقت دين حضرة الباب إلى النفس الأخير.

إن عاصفة الاضطهاد الهوجاء التي جرفت حضرة بهاء الله إلى سجن تحت الأرض وأطفأت سراج الطاهرة ختمت أيضاً على مصير الكاتب الممتاز لوحي حضرة الباب الذي شاطره الاعتقال في ماه كو وچهريق ونعني به السيد حسين يزدي الملقب بـ«العزيز». وكان رجلاً محنكاً عظيم الموهبة، متبحّراً في تعاليم

---

(١) Sir Valentine Chirol

(٢) Mrs. Marianna Hainisch

مولاه، متمتعاً بثقته المطلقة. وقد رفض كل عرض للخلاص عرضه عليه كبار رجال الدولة في طهران. وكان يحن حنيناً موصولاً للشهادة التي حرم منها يوم ضحّى حضرة الباب بحياته في ساحة الثكنات بتبريز. فلما رافق حضرة بهاء الله في سياه چال بطهران ظل يستمد منه العزاء والإلهام، وهو يسترجع ذكرى تلك الأيام الخوالي الغوالي التي قضاها في خدمة مولاه بآذربيجان إلى أن خر صريعاً آخر الأمر، في ظروف قاسية وبصورة مخجلة، على يد عزيز خان السردار الذي كال أيضاً للطاهرة الضربة القاضية.

وثمة ضحية أخرى من ضحايا هذا التنكيل المروع الذي فرضه العدو اللدود الذي لا يلين، ونعني بها الحاج سليمان خان الشجاع الواسع الأفق العريض النفوذ، فلقد كان محترماً إلى حد أن أمير النظام حرص، في إحدى المناسبات السابقة، على أن يتجاهل صلته بالدين الذي اعتنقه، وأن يبقي على حياته، إلا أن الهياج الذي زلزل طهران عقب محاولة اغتيال الشاه عجّل بالقبض عليه وأدى إلى استشهاده. ذلك لأن الشاه كلف حاجب الدولة بإغرائه للارتداد عن دينه، فلما عجز حاجب الدولة عن ذلك أمر الشاه بأن يقتل على النحو الذي يفضله لنفسه. وبناء على رغبته شقّوا في لحمه تسعة ثقوب، ووضعوا في كل ثقب منها شمعة موقدة، فلما أحجم الجلاد عن أن يقوم بتلك المهمة الشنيعة حاول هو أن ينتزع السكين ليغمدها في جسمه بيده. ولكن الجلاد رفض أن يعطيه إياها خشية أن يهجم بها عليه. وأمر رجاله أن يوثقوا يدي ضحيته وراء ظهره، ومن ثم رجاهم المعذّب المِقدام أن يشقوا ثقبين في صدره وثقبين في كتفيه وثقباً في كاهله، وأربعة ثقوب أخرى في ظهره. وقد حققوا له هذا الرجاء، وهو صابر مشدود القامة كالسهم متألق العينين ثابتاً راسخاً، لا تزعجه الجماهير الهادرة، ولا منظر دمائه وهي تنزف من جراحه. ثم سار على قرع الطبول وإنشاد المرتلين أمام الجموع المتزاحمة من حوله إلى مقر الفداء. وكان يتوقف كل بضع خطوات ليخاطب المشاهدين المتحيرين على جانبي الطريق بعبارات يمجد فيها حضرة الباب، ويعظم فيها معنى استشهاده في سبيله. ثم ينطلق معبراً عن فرحه وسروره حين تقع عيناه

على الشموع وهي تتأرجح في ثقوبها الدامية، فإذا سقطت إحداهن ٱلتقطها وأشعلها من أختها وثبتها في مكانها من جديد. وسأله الجلاد ساخراً: «إذا كنت ترى الموت ساراً على هذا النحو فلماذا لا ترقص؟» فصاح المعذب: «أرقص!؟ بإحدى راحتيّ كأس المدام وبالأخرى طرة الحبيب، وإن مثل هذا الرقص في السوق هو أملي». وبينما هو في السوق هبّت ريح جعلت شعلات الشموع الموغلة في جراحه تزداد وأزّ اللحم المحيط بها، فانطلق يخاطب اللهيب الغائر في جراحه: «أيها اللهيب! لقد فقدت قدرتك على الإيلام منذ زمن بعيد، وفقدت لذعتك، هيّا عجل! هيا أسرع فمن ألسنتك أسمع الصوت الذي يدعوني إلى لقاء المحبوب». وهكذا مضى في هالة من النور كما يمضي الفاتح المظفر إلى مشهد نصره وظفره، وعندما وصل إلى ساحة الاستشهاد رفع صوته مرة أخرى ينادي جمهور المتفرجين نداءه الأخير. ثم سجد مُيمّماً وجهه شطر مقام إمام زاده حسن، وتمتم ببعض العبارات العربية وصاح بالجلاد: «لقد انتهى عملي وعليك الآن أن تكمل عملك» وظلت الحياة تتردّد في جسده وهو ينشر إلى نصفين، واستمر تمجيد محبوبه يرفرف على شفتيه المحتضرتين. ثم علق جسده الدامي المحترق على جانبي بوابة نو تنفيذاً لرغبته، شاهداً صامتاً على الحب الظامئ الذي أشعله حضرة الباب في صدور أتباعه.

ولم يكن في الإمكان أن تقتصر الفتنة التي اندلعت نتيجة لمحاولة اغتيال الشاه على العاصمة بل لقد امتدت إلى الأقاليم القريبة، وهبّت على مازندران، موطن حضرة بهاء الله، وتمخضت عن مصادرة كل ممتلكاته ونهبها وتدميرها. كما أمر ميرزا أبو طالب خان ابن أخي الصدر الأعظم بنهب منزله الذي ورثه عن والده في قرية تاكور من أعمال نور، وأمر بتدمير كل ما لا يمكن حمله، بينما شوهت غرفاته التي كانت تفوق في رونقها وبهائها قصور طهران تشويهاً لا يمكن إصلاحه. بل لقد هدمت منازل الناس وسويت بالأرض، ثم أحرقت القرية عن بكرة أبيها.

وامتد الهياج الذي عصف بطهران وهبّ على مازندران نهباً وتدميراً حتى بلغ يزد ونيريز وشيراز وزلزل أبعد الدساكر والضياع، مشعلاً نار البغي والعدوان من جديد. ومرة أخرى تنافس الحكام الجشعون الطمّاعون وأعوانهم الخونة في سلب الوادعين وذبح الأبرياء وإهانة النبلاء. وتلا ذلك كله مذبحة أخرى تكررت فيها مآسي نيريز وزنجان الشنيعة. وكتب مؤرخ الحوادث الدامية المتصلة بميلاد ديننا ونشأته يقول: «يتراجع القلم رعباً وفزعاً حين يحاول أن يصف ما ابتلي به هؤلاء الرجال الشجعان والنساء الجريئات... وإن كل ما حاولت أن أصفه من فظائع حصار زنجان... ليتضاءل أمام تلك الفظائع التي ارتكبت بعد عدة أعوام في نيريز وشيراز. فلقد رفع على أسنة الحراب ما لا يقل عن مائتي رأس من رؤوس ضحايا التعصب الأعمى الوحشي، ثم حملت من شيراز إلى آباده تحفّ بها مظاهر الظفر والانتصار. ووضع أربعون امرأة وطفلاً في كهف جمعت فيه مقادير عظيمة من الحَطَب غمست بالنفط وأشعلت؛ فأحالت النساء والأطفال إلى هشيم تذروه الرياح. كما أرغمت ثلاثمائة امرأة أخرى على أن تركب كل اثنتين منهن على ظهر فرس عار إلى شيراز، وساقوهن شبه عاريات بين صفين من الرؤوس المقطوعة من الأجساد الهامدة لازواجهن وأبنائهن وآبائهن وإخوتهن، وقذفن بأقذع الشتائم والسباب، وانهال عليهن العذاب ألواناً حتى هلكت الكثيرات منهن من شدة الإرهاق والإعياء.

وبهذا أشرف على النهاية فصل يسجل للزمان كله أعنف فترة من فترات القرن البهائي الأول وأحزنها وأمجدها وأحفلها بالوحشية والمآسي والبطولات. ويمكننا أن نقول إن أنهار الدماء التي سالت وتلاطمت بها تلك السنوات المزدحمة بالوبال والنكال كانت تروي البذور الخصيبة لذلك النظام العالمي الذي قدّر للظهور الوشيك التالي والأعظم شأناً أن يعلنه ويؤسسه. ومنذ اللحظة التي ولد فيها هذا العصر البدائي حتى وقتنا هذا، والمدائح العاطرة التي أسبغها على ذلك الجيش النبيل من أبطاله وأوليائه وشهدائه،

وأغدقها عليهم الصديق والعدو على السواء، ابتداء من حضرة بهاء الله نفسه إلى أقل الناس ارتباطاً بالأمر، تقوم كلها شاهداً باقياً خالداً على مجد تلك الأعمال التي خلّدت ذلك العصر.

وإليك شهادة حضرة بهاء الله الفذة الفريدة في كتاب الإيقان: «* تحير العالم كله من تضحيتهم بقلوبهم وأرواحهم... **تاهت العقول في أفعالهم، وتحيرت النفوس في أصطبارهم وبما حملت أجسادهم**... هل ظهر في أي عصر من العصور مثل هذا الأمر الخطير؟» وقوله مرة أخرى: «* هل وقع في البلاد مثل هذا الهياج في أي عصر من عهد آدم إلى يومنا هذا؟ أم هل ظهر بين العباد مثل هذا الهرج والمرج... لكأنما ظهر الصبر في عالم الكون من اصطبارهم، وخلق الوفاء في أركان العالم من فعلهم». وفي مناجاة له يشير إشارة خاصة إلى شهداء الأمر، ويؤكد تأكيداً له دلالته حين يقول: «* بدماء عاشقيك التي سُفِكت حملت الأرض بمظاهر قدرتك وآيات اقتدارك. وعما قريب تحدّث الأرض أخبارها في الميقات المعلوم».

وإلى أي قوم غير هؤلاء الأبطال الإلهيين الذين فلقوا بدمائهم الزكية صبح اليوم الموعود تشير كلمات محمد رسول الله ذات الدلالة العظيمة، والتي رواها القدوس لزملائه في قلعة الشيخ طبرسي: «واشواقاً لإخواني الذين يأتون في آخر الزمان طوبى لهم وطوبى لنا وطوباهم أفضل من طوبانا» وأي قوم غير هؤلاء يعنيهم ذلك الحديث المعروف بحديث جابر، والذي رواه الكافي وشهد بصحته حضرة بهاء الله في كتاب الإيقان، والذي يبين علامات القائم الموعود بلغة لا لبس فيها ولا غموض: «فيذَلّ أولياؤه في زمانه، وتتهادى رؤوسهم كما تتهادى رؤوس الترك والديلم. فيقتلون ويحرقون، ويكونون خائفين مرعوبين وجلين تصبغ الأرض بدمائهم، ويفشو الويل والرنة في نسائهم. أولئك أوليائي حقاً».

وإليك شهادة اللورد كرزون من كدلستون الخطّية، قال «إن ملاحم البطولة الرائعة لتضيء صفحات التاريخ البابي الملطخة بالدماء... وإن نيران

سميثفيلد[١] عجزت عن أن تشعل في قلوب أصحابها شجاعة أنبل من تلك التي واجهت زبانية العذاب في طهران وتحدتهم. وإن ديناً في مقدوره أن يوقظ في أتباعه مثل هذا الروح النادر النبيل من التضحية بالنفس والنفيس ليس بالشيء الذي يمكن الاستهانة بشأنه. ولسوف تهز بطولة أتباعه (أي حضرة الباب) واستشهادهم مشاعر الكثيرين الذين لا يمكنهم أن يجدوا لها مثيلاً في تاريخ الإسلام المعاصر». وكتب الأستاذ دارمستتر[٢] فقال: «إن البابية التي انتشرت في أقل من خمس سنوات في إيران من أقصاها إلى أقصاها، واغتسلت بدماء شهدائها في سنة ١٨٥٢م لا تزال تتقدم وتدعو إلى نفسها في صمت وسكون. ولئن قدّر لإيران أن تنهض من جديد فعن طريق هذا الدين الجديد». أما رينان فيشهد في كتابه «الرسل»: «بأن آلاف الشهداء أسرعوا إلى مقر الشهادة والفداء في سبيله صامدين ثابتين. ولربما كان يوم المجزرة الكبرى التي اكتسحت البابيين في طهران يوماً لا شبيه له ولا نظير في تواريخ العالم على الإطلاق». وأعلن المستشرق الشهير الأستاذ أ. ج. براون: «إن ميلاد دين لا يصعب عليه أن يحتل مكانته البارزة بين أديان العالم العظمى ليعتبر واحداً من تلك الانفجارات العجيبة للحماسة والإيمان والإخلاص الحار والبطولة القاهرة». وأعلن مرة أخرى: «إن الروح الذي غمر البابيين قلما يعجز عن التأثير بقوة في كل من يتعرض له. . . وليكذبني من لم يشاهدوا ولم يروا كيفما شاؤوا، ولكن ما إن يظهر لهم هذا الرّوح نفسه حتى يحسّوا بشعور لا أعتقد أنهم قادرون على نسيانه أبداً». وأما الكونت دي جوبينو فقد صرّح في كتابه: «وإني أقسم كذلك على أنني لو رأيت في أوروبا طائفة لها مثل ما للبابية من طبيعة، وتتحلى بمثل ما تتحلى به من إيمان عميق وحماسة خالصة، وإقدام مذهل وإخلاص بالغ وقدرة على انتزاع الاحترام من غير المبالين ولا المكترثين، وإلقاء الرعب في قلوب

---

(١) Smithfield

(٢) Prof. J. Darmesteter

الأعداء، ثم ما قد أسميه (بالقدرة على التحويل عن العقيدة) بصورة مطلقة لا تقف عند شيء، ونجاح مستمر يتخلل جميع طبقات المجتمع، لو أنني رأيت في أوروبا طائفة تمتاز بكل هذه الفضائل والمزايا العظيمة لما ترددت لحظة واحدة في أن أتنبأ بأن القوة والسلطان سوف يكونان من نصيبها في فترة وجيزة».

ويروى أن عباس قلي خان اللاريجاني الذي أطلق الرصاصة التي قتلت المُلاّ حسين، قال أمام بعض الشهود في معرض إجابته عن سؤال وجهه إليه الأمير أحمد ميرزا: «حقيقة الأمر هي أنه لو شهد طبرسي من لم يشهد كربلاء لما استطاع أن يدرك ما دار في كربلاء فحسبُ، بل ولما عاد يقيم لكربلاء أي وزن. ولو أن أحداً رأى المُلاّ حسين البشروئي لما شك لحظة في أن سيد الشهداء (أي الإمام الحسين) قد رجع إلى العالم مرة أخرى ولو رأى أحد أعمالي لقال: «هذا شمّرُ (قاتل الحسين) رجع بسيفه ورمحه... والواقع أنني لم أعرف ماذا بدا لهؤلاء الناس ولا ماذا رأوا حتى أقدموا على القتال بكل هذا الصبر والجلد وكل هذه النشوة. إن حدّة شجاعتهم وصلابة أقدامهم تفوق كل خيال».

وفي الختام نتساءل ماذا كان مصير هؤلاء الأنذال الذين حركتهم البغضاء والطمع والتعصب، وحاولوا أن يطفئوا النور الذي أشرق به حضرة الباب وأتباعه على وطنهم وبني جنسهم؟ نعم، نزلت مقامع القصاص الإلهي بسرعة وبلا رحمة ولا هوادة على رؤوسهم جميعاً. فلم تُبْقِ على الشاه، رأس الدولة، ولا على وزرائه ومستشاريه، ولا على رجال الدين الذين ارتبطت بهم حكومته ارتباطاً وثيقاً، ولا على ولاته ونوابه، ولا على قواد جيشه الذين اشتركوا، بدرجات متفاوتة ودوافع مختلفة منها العمد ومنها الخوف ومنها الغفلة، في إثارة تلك الفتن والمحن القاسية التي عاناها الدين الجديد بلا ذنب ولا جريرة، وبدون وجه حق ولا استحقاق. فمحمد شاه المتعصب المتذبذب، الذي رفض أن يحقق رغبة حضرة الباب في الحضور إلى العاصمة لإقامة الدليل على صدق دعواه، وأذعن لإلحاح وزيره الخبيث، تهالك وهو

ما زال في ربيعه الأربعين، تحت وطأة طائفة من الأمراض والعلل هاجمته بعد أن تلقى نكسة مفاجئة، وحكم عليه «بالنار» التي أقسم صاحب «قيوم الأسماء» أن تلتهمه «يوم القيامة» التهاماً. أما شيطانه الحاج ميرزا آقاسي المطلق السلطان والقوة من وراء العرش، والمحرض الأول على الهجمات التي شنت على حضرة الباب بما في ذلك اعتقاله في جبال آذربيجان، فقد عزل بعد مضي ما لا يزيد على سنة ونصف منذ أن ألقى بنفسه بين الشاه وبين أسيره، وصودرت أمواله وأملاكه المشبوهة، وفضحه مليكه، واضطر إلى أن يحتمي بمقام شاه عبد العظيم خوفاً من غضب مواطنيه المتزايد، ثم نفي بعد ذلك إلى كربلاء نفياً مزرياً، وسقط فريسة للفقر والمرض والندم الأكّال، وكان ذلك تحقيقاً مؤسفاً لما ورد في ذلك اللوح الذي فضحه فيه أسيره وتنبأ له فيه بمصيره، وكشف عن خزيه وعاره. وأما أمير النظام ميرزا تقي خان الوضيع الخسيس، الذي تلوثت أولى سنوات وزارته القصيرة العمر بالهجوم الوحشي على المدافعين عن قلعة طبرسي، وصادق على قتل شهداء طهران السبعة وشجع عليه، وشحن الهجوم على وحيد وزملائه، وعجَّلَ بفتنة زنجان العظيمة، والمسؤول الأوّل عن إصدار الحكم بقتل حضرة الباب، فقد جرّد من كل مزايا الجاه والاحترام التي تمتع بها نتيجة لحسد مليكه الشديد ومؤامرات البلاط الناقمة، وقتل غيلة بأمر الشاه فقطعت شرايينه في حمام قصر «فين» قرب كاشان. ولقد روى النبيل نقلاً عن حضرة بهاء الله أنه قال: «لو عرف أمير النظام مقامي الحقيقي لاعتقلني ولا ريب. وبالرغم من أنه بذل قصارى جهده ليكتشف حقيقة الوضع إلا أنه فشل، وذلك لأن الله أراد أن يجهله». وأما ميرزا آقا خان الذي ضرب بسهم وافر من المآسي التي ارتكبت نتيجة لمحاولة اغتيال الشاه فقد طرد وخلع من منصبه، وحددت إقامته ووضع تحت الرقابة المشددة في يزد حيث قضى بقية أيامه في خزي ويأس.

وأما حسين خان والي شيراز الملقب بـ«السكران» و«الطاغية» وهو أول من أساء معاملة حضرة الباب وعنّفه على رؤوس الأشهاد، وأمر خادمه بأن يصفعه على وجهه بعنف، فإنه لم يضطر إلى أن يتحمل البلاء الفظيع الذي

نزل بغتة به وبأهله وبمدينته وبإقليمه كله فحسب، بل واضطر فيما بعد إلى أن يشاهد بعينيه فشل كل مساعيه، وأن يقضي بقية أيامه مغموراً مجهولاً إلى أن احتواه قبره بعد أن هجره الصديق والعدو على السواء. وأما حاجب الدولة الشيطان الدموي الذي لم يدّخر وسعاً في قتل الكثير من البابيين العزّل الأبرياء، فقد سقط بدوره فريسة لغضب اللور[1] العتاة الغلاظ، فسلبوه كل ممتلكاته وجزّوا لحيته وأرغموه على أكلها وأسرجوه وألجموه وركبوه على مرأى ومسمع من الناس، ثم هتكوا عرض نسائه وأولاده تحت سمعه وبصره. وأما سعيد العلماء مجتهد بارفروش المتعصب الغليظ القلب الصفيق، الذي أنزل بعداوته المتعطشة الإهانات على رأس أبطال طبرسي، وسبب لهم كثيراً من المتاعب، فقد سقط بعد هذه الشناعات التي ارتكبها مباشرة فريسة لمرض وبيل غريب جعله يعطش عطشاً لا يمكن إطفاؤه، وأحدث فيه نوبات برد شديدة فلا تدفئه الفراء التي يتدثر بها ولا النيران المشتعلة في غرفته على الدوام. وأما منزله الفاخر الرياش فقد تهدم وتخرب وبلغت به الحال بعد موته إلى أن أصبح مزبلة لأهل المدينة. وقد أثّر منظره في أهالي مازندران تأثيراً عميقاً حتى أن أحدهم كان يدعو على خصمه بأن يصير منزله إلى ما صار إليه هذا المنزل اللعين. أما محمود خان الكلانتر المنافق الطموح الذي عهد إليه بالطاهرة قبل استشهادها فقد جلب على نفسه غضب مليكه بعد تسع سنوات، وسحب من قدميه بالحبال في الأسواق إلى خارج المدينة حيث شنق. وأما ميرزا حسن خان الذي نفّذ حكم الإعدام في حضرة الباب بأمر أخيه أمير النظام، فقد عوقب بعقوبة فظيعة أفضت إلى موته قبل انقضاء سنتين على ارتكابه ذلك الإثم الذي لا يغتفر. وأما شيخ الإسلام لمدينة تبريز ميرزا علي أصغر الوَقح الخسيس الطاغية، الذي جلد بيديه حضرة الباب إحدى عشرة جلدة بعد أن امتنع حرس حاكم المدينة عن ذلك، فقد أصيب بالشلل في السنة نفسها، وقاسى ألوان العذاب ومات بائساً، ثم ألغي منصب شيخ

(١) اللور قبيلة تقطن منطقة واقعة غربي إيران.

الإسلام في تلك المدينة بعد موته. وأما أبو طالب خان المتغطرس الخائن الذي أمر بنهب قرية تاكور وإحراقها، وتخريب منزل حضرة بهاء الله دون أن يتوخى الاعتدال كما نصحه ميرزا آقا خان رئيس الوزراء فقد أصابه الطاعون بعد سنة، وهلك بائساً يتحاشاه حتى أقرب المقربين. وأما مهر علي خان شجاع المُلك الذي اضطهد بقايا البابيين في نيريز بوحشية بعد محاولة اغتيال الشاه فقد مرض وأصابه البكم ـ حسب شهادة حفيده ـ ولم يبرأ منه حتى مماته. وأما شريكه ميرزا نعيم فقد لطخه العار، وغرّم مرتين غرامات فادحة، وعزل من منصبه وتعرض لعذاب مهين. وأما الفرقة التي تجاهلت المعجزة التي أنذرت سام خان ورجاله بأن ينسحبوا ولا يعاودوا إعدام حضرة الباب، وتطوّعت لتحل محلها ومزقت جسده برصاصها، فقد فقدت في السنة نفسها ما لا يقل عن مائتين وخمسين رجلاً من ضباطها ورجالها في زلزال مروّع حدث بين أردبيل وتبريز، كما أعدم الخمسمائة الباقون في تبريز بعد سنتين رمياً بالرصاص جزاء عصيانهم. فذكر الناس فعلتهم الشنعاء وهم يشاهدون أجسادهم المعروضة المشوهة، وبالغوا في اللعن والطعن وإظهار التعجب حتى اضطر أكابر المجتهدين إلى أن يعاقبوا الناس ليسكتوهم. وأما قائد الفرقة آقاجان بيك فقد مات بعد ست سنوات من استشهاد حضرة الباب أثناء قصف البحرية البريطانية للمحمّرة.

ولم يكن قصاص الله الصارم ليقتصر على كل من لعبوا دوراً كبيراً أو صغيراً في الجرائم التي ارتكبت ضد حضرة الباب وأتباعه، بل إنه لم يقل صرامة ولا شدة وهو ينزل على جمهرة الناس الذين كانوا أشد تعصباً من اليهود على أيام السيد المسيح، الناس المشهورين بجهلهم المطبق وتعصبهم الوحشي وضلالهم وقسوتهم البالغة، الأخسّاء المرتزقة الأنانيين الجبناء، وأفضل ما استطيع أن أفعله في هذا المقام هو أن أورد ما كتبه حضرة الباب نفسه في كتابه، الدلائل السبعة، أثناء الأيام الأخيرة من عهده قال: «* تذكروا أيام الدعوة الأولى، ما أكثر من مات بالكوليرا! كان ذلك من عجائب الظهور حقاً، ومع ذلك لم يفطن إلى ذلك أحد! نزل البلاء بشيعة

الإسلام أربعة أعوام دون أن يدرك: دلالته أحدا!» وكتب النبيل في تاريخه الخالد يقول: «أما جمهرة الناس من شعبها (إيران) أولئك الذين شاهدوا في غير اكتراث تلك المأساة تمثل أمام أعينهم دون أن يرفع أحد منهم إصبع احتجاج واحدة، فقد سقطوا بدورهم فريسة لبلاء عجزت عن صدّه موارد الدولة وجهود رجالها. منذ ذلك اليوم الذي امتدت فيه يد المجرم الأثيم إلى حضرة الباب... أخذت الرزايا والبلايا المتوالية تزهق أرواح هذا الشعب الجاحد وتفضي به إلى شفا الإفلاس العام، واكتسحته أوبئة مجهولة لم ترد لها سوى إشارات عابرة في بطون الكتب المهجورة التي لم يكترث بقراءتها سوى القليل، اكتسحته اكتساحاً لا يبقي ولا يذر. فأنزلت الخراب أينما انتشرت وأهلكت الحرث والنسل أينما اتجهت وعانى من وطأتها الرفيع والوضيع والأمير والفقير، وأطبقت بقبضتها على الأهلين وأبت أن ترخيها، ومضت هذه البلايا تجتاح البلاد كما اجتاحت الحمّى إقليم جيلان. وبالرغم من جسامة هذه الكوارث فإن غضب الله المنتقم لم يقف عند حد ما أصيب به هذا الشعب الضال عديم الإيمان، بل لقد عم كل نفس تتنفس على هذه الأرض الموبوءة وترك أثره على حياة النبات والحيوان على حد سواء، وجَعَل الناس يحسّون بجسامة مصابهم وفداحة خطبهم. وأقبلت المجاعة فأضافت أهوالها إلى الرزايا الثقيلة التي يئن الناس تحت وطأتها، وفشا بينهم شبح الموت جوعاً، وأفزعتهم رؤيا الموت البطيء المؤلم... وتلهف الشعب والحكومة على الخلاص ولا خلاص. فشربوا كأس الويلات حتى ثمالتها غير متفطنين إلى تلك اليد التي رفعتها إلى شفاههم، ولا إلى ذلك الشخص الشخيص الذي من أجله قاسوا ما قاسوا».

الفترة الثانية

ولاية حضرة بهاء ألله

١٨٥٣ - ١٨٩٢م

ميلاد الظهور البهائي

إن سلسلة الأحداث العصيبة التي توالت بسرعة خاطفة بعد محاولة اغتيال ناصر الدين شاه المشؤومة تشير إلى انتهاء الدورة البابية كما لاحظنا من قبل؛ وهي تشير، في الوقت نفسه، إلى ختام الفصل البدائي الدموي المظلم من تاريخ القرن البهائي الأول. ولقد تمخّضت هذه الأحداث الرهيبة عن عهد يتميز بالشدة المتناهية تعثرت فيه مصائر دين حضرة الباب وهبطت إلى أسفل الدركات. والواقع أن المحن والفتن والنكسات والهزائم والسعايات والوشايات والمجازر والمذابح أخذت كلها تعمل منذ البداية، وبدرجات متزايدة، على استئصال شأفة أتباعه من كل الطبقات، وتعريض إخلاصهم وولائهم الراسخ للامتحان والافتتان. ولقد نجحت في كل شيء إلا في هدم الأسس التي قام عليها الدين البابي.

فما كاد هذا الدين يولد حتى قاومته الحكومة ورجال الدين والشعب، وقاموا ضده قومة رجل واحد، وتحالفوا فيما بينهم على مناصبته العداء إلى الأبد. أما محمد شاه الضعيف العقل والإرادة فقد رفض، تحت الضغط والإكراه، ما عرضه عليه حضرة الباب، وأبى أن يلقاه وجهاً لوجه، أو أن يسمح له بالحضور إلى العاصمة. وأما ناصر الدين شاه الشاب الأرعن المستبد الباطش فقد أظهر، بصفته صاحب التاج والصولجان، عداء شديداً مطّرداً، تأججت نيرانه، واستفحل خطبه بكل وحشيّته الضارية وظلمته الجهنمية. أما «المعتمد» القوي الرزين الوحيد الذي كان في مقدوره أن يزود حضرة الباب بما كان يحتاج إليه أشد الاحتياج من معونة وحماية، فقد اختطفته منه يد المنون على حين غرة. أما شريف مكة الذي عرف الظهور

الجديد من القدوس فقد أعار الدعوة الإلٰهية أذناً صماء، واستقبل الرسول بفتور. أما الاجتماع الذي كان مقرراً أن ينعقد في كربلاء المقدسة بعد عودة حضرة الباب من الحجاز فقد صرف عنه النظر نهائياً، الأمر الذي خيّب آمال أصحاب حضرة الباب، ذلك لأنهم كانوا ينتظرون عودته على أحر من الجمر حتى ينعقد الاجتماع. أما معظم حروف الحيّ الثمانية عشر، وهم القلاع الرئيسة التي عززت قوة الدين الجديد، و«المرايا» و«الهداة» و«الشهود» الممثلون للدين البابي، فقد خروا صرعى تحت السيف، وأخرجوا من ديارهم، وضربوا ضربة ألزمتهم الصمت المطبق. وبهمة الأعداء وحماستهم التي لا تفتر لم يتحقق معظم البرنامج الذي أتيح للمقربين منهم الوقوف على مكنوناته، وفشلت الجهود التي بذلها اثنان من هؤلاء الأصحاب لإقامة الدين في تركيا فشلاً ذريعاً كان مقدراً منذ البداية. وأما العواصف التي اكتسحت مازندران ونيريز وزنجان فقد أتت على عدد هائل من أقدر الأصحاب وأشجعهم، وقضت على الآمال المعقودة على القدوس المبجل، والمُلاّ حسين قلب الأسد، ووحيد المتبحّر، والحجة الغلاّب. وأما الهجمات الفظيعة المتصلة بموت شهداء طهران السبعة فعليها تقع مسؤولية القضاء على رمز حي آخر من رموز الدين كان بإمكانه، لو كتبت له الحياة، أن يفعل الشيء الكثير من أجل حماية الدين المكافح ونشره، إن لم يكن بفضل مزاياه الذاتية فبفضل ما له من صلة القربى الوثيقة بحضرة الباب.

كما أن العاصفة التي هبت بعد ذلك بقوة فريدة على الجامعة الجاثية على ركبتيها من شدة القهر حرمتها من أعظم أبطالها أي «الطاهرة» الفذة، وهي في أوج انتصارها. كما اختطفت السيد حسين كاتب الوحي الأمين والمخزن المختار لرغبات حضرة الباب الأخيرة. وأطاحت بالمُلاّ عبد الكريم القزويني، أحد القلائل الذين يستطيعون أن يدّعوا بحق التبحّر في أصول الدين، وساقت حضرة بهاء الله إلى سجن مظلم تحت الأرض، وكان حضرته الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من عمالقة الدورة الجديدة. أما حضرة الباب، الينبوع الذي فاضت منه قوى الحياة إلى الظهور الجديد، فقد استسلم

لرصاص الرماة في ظروف محزنة سبقت هبوب هذا الإعصار، وخلّف على رأس الجامعة المحطمة رئيساً صورياً وَجِلاً أشد ما يكون الوجل، ساذجاً، يرضخ لأقل تأثير، عاطلاً من كل ميزة ظاهرة، وبعد أن أفلت الزمام من يد حضرة بهاء الله القائد الحقيقي أخذ يحتمي بتلال موطنه مازندران من هجمات العدو المميت، وارتدى زي الدراويش. وأما آثار مؤسس الدين الضخمة، وكانت كلها مخطوطة متفرقة مبعثرة مختلطة رديئة الاستنساخ معرضة للضياع، فقد أتلف بعضها عن عمد نظراً لشدة هياج هذه الفترة، وصودر بعضها، وأرسل بعضها الآخر بسرعة إلى أماكن أمينة وفيما وراء حدود البلاد التي نزلت فيها. وأبرز الأعداء الأقوياء رؤوسهم الآن، وفي مقدمنهم الحاج ميرزا كريم خان كتب رسالة يهاجم فيها الدين الجديد وعقائده بدناءة وذلك بناء على أمر خاص من الشاه، وبعد أن جرّأتهم النكسات التي مني بها الدين أخذوا يكيلون له السباب واللعنات، ويهيلون عليه الإهانات والسعايات. أضف إلى ذلك أن بعض البابيين اضطروا، تحت الضغط والقهر، إلى الارتداد بينما تمادى آخرون في الارتداد إلى أن التحقوا بصفوف الأعداء. وإلى مجموع هذه البلايا والرزايا أضيف افتراء شنيع نشأ عن فعلة حمقاء ارتكبها حفنة من المتحمّسين المتهورين، فلطخوا بها ديناً بريئاً منها كل البراءة بعار بدا أنه لن يمحى أبد الدهر، وأنذر باستئصال شأفته واقتلاعه من جذوره.

ومع كل ذلك فإن النيران التي أشعلتها يد الله العلي القدير لم تخمد، وإن أضعفتها سيول المحن والشدائد التي انصبّت عليها. نعم، إن اللهيب الذي توهج تسعة أعوام بكل هذا التركيز العظيم قد انطفأ مؤقتاً، إلا أن الجمرات التي خلفتها النيران العظيمة ظلت حية متوقدة لتندلع ألسنتها مرة أخرى بعد أمدٍ ليس بالبعيد على نسائم ظهور أعظم، ولتسطع بضوء لا يبدد الظلام فحسب بل ويسكب سناه على أقاصي نصفي الكرة الشرقي والغربي معاً. وكما أتاح الاعتقال والانعزال الاضطراري لحضرة الباب فرصة صياغة شريعته والكشف عن مكنونات دعوته وإشهار منزلته على رؤوس الأشهاد،

وإبرام عهد ولايته، وتقرير أحكام دورته وإجرائها على أيدي أصحابه في مؤتمر بدشت. أثبتت هذه الأزمة الفريدة في شدتها، والتي أنتهت باستشهاد حضرة الباب وسجن حضرة بهاء الله، أنها مقدمة لإحياء يفيض عن قوة دافعة لظهور أقوى وأعظم يخلّد شهرة رسالة مظهر شيراز الإلٰهي الأصلية، ويركزها على دعائم أقوى وأمتن في أنحاء بعيدة وراء حدود وطنه.

في تلك الآونة التي بدا فيها أمر حضرة الباب على شفا الخمود والانطفاء، وضاعت فيها، حسب الظاهر، كل الآمال والمطامع التي دفعته، وخيّل فيها أن التضحيات الرائعة التي بذلها العديد من محبيه قد ذهبت أدراج الرياح، في تلك الآونة أوشك الوعد الإلٰهي الكامن في ذلك الأمر أن يتحقق فجأة، وكاد كماله النهائي أن يتجلى على نحو غريب. نعم، لقد بلغت الدورة البابية نهايتها (في كمال نضجها وفي أجلها المسمى) وهي الآن تؤتي أكلها المقدّرة، وتكشف عن غايتها القصوى، ألا وهي ميلاد رسالة حضرة بهاء الله. نعم، في تلك الساعة العصيبة الحالكة الظلام أوشك النور الجديد أن ينبثق بصورة مجيدة، في أفق إيران المظلم، وكادت أعظم مرحلة إن لم تكن أروع مرحلة من عصر البطولة المجيد أن تفتتح نتيجة لما كان في واقع الأمر عملية نضج وتطور.

في غضون تسع سنوات، كما تنبأ حضرة الباب تماماً، كان جنين الدين الذي أسّسه يتطور بسرعة غريبة قاهرة إلى أن ولد أمر الله الموعود في الميقات المعلوم بين جدران سجن سياه چال بطهران ووسط آلامه وتباريحه. وبعد عدة سنوات كتب حضرة بهاء الله مفنداً مزاعم المنكرين لصحة رسالته بحجة أنها تلت رسالة حضرة الباب بسرعة خاطفة قال: «* لاحظوا كيف في سنة التسع اكتمل عدد النفوس المقدسة المطهرة الزكية في سرّ السّر عندما ظهر هذا الظهور الأبدع الأقدس الرحماني» وقال مرة أخرى: «* * إنّ انقضاء هذه الفاصلة القصيرة بين هذه الدورة القاهرة الباهرة وبين ظهوري السابق لهو سر بديع وغيب منيع. ولقد كان ميقاتها مضروباً من قبل».

إلى تعاقب هاتين الدورتين بسرعة أشار يوحنا اللاهوتي بوضوح حين قال: «الويل الثاني مضى، وهو ذا الويل الثالث يأتي سريعاً» وفسّر حضرة عبد البهاء هذا «الويل الثالث» بأنه «* يوم ظهور الجمال المبارك، وهو يوم الله، وهو قريب من يوم ظهور حضرة الأعلى» وقال مرة أخرى: «* إن جميع ملل العالم تنتظر ظهورين يأتيان في وقت واحد، والكل موعودون بذلك». وفي موضع آخر قال: «* والقصد أن الكل موعودون بظهورين يجيئان متتاليين» وأما الشيخ أحمد الأحسائي، نيّر الهدى الإلهي، فقد فطن قبل سنة الستين إلى اقتراب مجد حضرة بهاء الله، ونبه على «الظهورين التوأمين اللذين يتعاقبان بسرعة». وفي رسالة كتبها بخط يده إلى السيد كاظم [الرشتي] وردت تلك العبارة العظيمة الدلالة والتي تشير إلى اقتراب ساعة ذلك الظهور الأعظم: «لا بد لهذا الأمر من مقرّ ولكل نبأ مستقر ولا يحسن الجواب بالتعيين فستعلمنّ نبأه بعد حين (٦٨)».

أما الظروف التي تلقى فيها حامل الظهور الجديد، الذي جاء بعد ظهور حضرة الباب بهذه السرعة، أولى بشارات رسالته السامية فتعيد إلى الذاكرة، إن لم تفق في شدة وقعها، تجربة حضرة موسى التي ترتجف لها الأرواح حين آنس في برية سيناء ناراً، وتجربة حضرة زرادشت حين رأى سبع رؤى متوالية، وتجربة السيد المسيح حين خرج من مياه الأردن فرأى السموات تتفتح ليهبط منها روح القدس كهيئة الحمامة تقع عليه، وتجربة حضرة محمد حين أمره صوت جبريل أن «اقرأ باسم ربك» وهو يتعبّد في غار حراء بظاهر مكة المقدسة، وتجربة حضرة الباب الذي رأى في منامه كأنه يقترب من رأس الإمام الحسين ويرتشف الدم المسفوح من عنقه المبتور فإذا به ينهض ليجد نفسه المخزن المختار لألطاف الله العليّ القدير.

وإنه ليحق لنا أن نتساءل في هذا الموضع عن طبيعة ذلك الظهور ومضامينه، الذي جاء بمثل هذه السرعة بعد إعلان حضرة الباب دعوته، فعطل دورته بضربة واحدة واحتفظ مع ذلك بسلطان مؤسسها بكل قوة

وحماسة. كما يحق لنا أن نقف لنتأمل دعاوي من كان واحداً من أصحاب حضرة الباب ثم اعتبر نفسه، في هذه المرحلة المبكرة، قادراً على أن ينسخ شريعة مولاه المحبوب. ويحق لنا أيضاً أن نطيل التفكير في الصلة بين النظم الدينية التي قامت قبله وبين ظهوره، ذلك الظهور الذي فاض عن روحه المتمخضة في تلك الساعة الشديدة الخطر، فخرق حجاب الكآبة التي خيمت على تلك البؤرة الجهنمية الوبيلة، واندفع نوره من وراء جدرانها إلى أقصى الأرض، وصبّت إمكانياته التي تفوق الحصر والعد في كيان الجنس البشري كله، فيوجّه الآن مسير المجتمع البشري الحاضر تحت أسماعنا وأبصارنا.

إن الذي تلقى العبء الفادح لهذا الظهور الفائق المجد، في مثل هذه الظروف المؤثرة، لم يكن سوى هذا الذي سوف تفتخر به الأجيال القادمة وتمجده، بل ويؤمن به اليوم أتباع يفوقون العد والحصر، باعتباره قاضي الجنس البشري ومشرعه ومخلصه، ومنظم الكوكب كله، وموحد بني الإنسان كلهم، وفاتح العصر الألفي المرتجى، ومنشئ «الكور العالمي»، ومؤسس السلام الأعظم، ومنبع العدل الأعظم، ومعلن بلوغ النوع الإنساني سن الرشد ومبدع النظام العالمي الجديد، وملهم الحضارة العالمية وخالقها.

لبني إسرائيل لم يكن بأكثر ولا بأقل من تجسيد «الأب الأبدي» و«رب الجنود» الذي «أتى من ربوات القدس»، وللعالم المسيحي عودة السيد المسيح «في مجد أبيه» ولشيعة الإسلام رجعة الإمام الحسين، ولأهل السنة نزول «الروح» [عيسى المسيح]، وللزرادشتيين شاه بهرام الموعود، وللهندوس تجسيد كريشنا، وللبوذيين بوذا الخامس.

أما اسمه فقد جمع بين اسم الإمام الحسين، أعظم خلفاء محمد رسول الله وألمع «نجم» في «الإكليل» المذكور في رؤيا يوحنا، واسم الإمام علي أمير المؤمنين وثاني الشاهدين اللذين مجدهما يوحنا في رؤياه. أما اسمه الرسمي فهو بهاء الله، وهو اسم نص عليه البيان الفارسي بصفة خاصة، ويعني مجد الله ونوره وسناءه. أما ألقابه فهي «ملك الملوك» و«رب الأرباب»

و«الاسم الأعظم» و«جمال القدم» و«القلم الأعلى» و«الاسم المكنون» و«الكنز المخزون» و«من يظهره الله» و«نور الأنوار» و«الأفق الأعلى» و«البحر الأعظم» و «سماء الرفعة» و«الأصل القديم» و«القيوم» و«نير الآفاق» و«النبأ العظيم» و«مكلم الطور» و«ممتحن الحقائق» و«مظلوم العالم» و«مقصود الأمم» و«رب الميثاق» و«سدرة المنتهى» وهو ينحدر من صلب إبراهيم (أبي المؤمنين) عن زوجته قتورة، كما ينتمي إلى زرادشت ويزدجرد آخر ملوك بني ساسان. أضف إلى ذلك أنه كان من سلالة يسّي وينتسب إلى أسرة من أعرق أسر مازندران وأشهرها عن طريق والده ميرزا عباس المعروف بميرزا بزرگ وهو رجل نبيل كان على اتصال وثيق بالدوائر الوزارية في بلاط فتح علي شاه.

إليه أشار أشعياء أعظم أنبياء بني إسرائيل، بأنه «مجد الرب» و«الأب الأبدي» و«رئيس السلام» و«العجيب» و«المشير» و«القضيب الخارج من جذع يسّي» و«الغصن النابت من أصوله» الذي «يجلس على كرسيّ داود» و«بقوة يأتي وذراعه تحكم له» و«يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض» و«يضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفتيه» و«يجمع منفيّي إسرائيل ويضم مشتّتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض». وبه تغنّى داود في مزاميره واصفاً إياه بـ«رب الجنود» و«ملك المجد». وإليه أشار حجي بـ«مشتهى كل الأمم»، وزكريا بـ«الغصن النابت من أصوله»، وهو الذي «يبني هيكل الرب» ومجّده زكريا بقوله: «ويكون الرب ملكاً على كل الأرض». وإلى يومه أشار يوئيل وصفنيا كلاهما بـ«يوم يهوه» ووصف الأخير يومه بأنه «يومُ سُخط، يوم ضيق وشدّة، يوم خراب ودمار، يوم ظلام وقتام، يوم سحاب وضباب، يوم بوق وهتاف على المدن المحصنة وعلى الشرف الرفيعة». ومجّد حزقيال ودانيال يومه بأنه «يوم الرب»، وملاخي بأنه «يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف» حينما «تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها»، وحكم دانيال لقدومه بأنه نهاية «رجسة الخراب».

وإلى دورته أشارت كل الكتب الزرادشتية المقدسة ووصفتها بأنها

الدورة التي تثبت فيها الشمس شهراً كاملاً. وإليه تنصرف إشارة زرادشت في حديثه المأثور حين قال إنه لا بد أن تنقضي ثلاثة آلاف سنة من الصراع والنضال قبل أن يأتي شاه بهرام مخلص العالم، وينتصر على أهرمن، ويفتتح عصر البركة والسلام.

وهو وحده الذي عنته النبوءة المنسوبة إلى جوتاما بوذا[١] حين قال: «بوذا يدعى ميتريا، بوذا الأخوة العالمية» يأتي في تمام الوقت ويكشف عن «مجده الفائق بلا حدود». وإليه أشار بهاجافاد جيتا[٢] كتاب الهندوس المقدس، بأنه «الروح الأعظم» و«الظهور العاشر» و«المظهر الطاهر لكريشنا».

وإليه أشار السيد المسيح بـ «رئيس هذا العالم» «المعزي» الذي «يبكت العالم على خطية وعلى برّ وعلى دينونة» و«روح الحق يرشدكم إلى جميع الحق». والذي «لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» و«صاحب الكرم» و«ابن الإنسان يأتي في مجد أبيه» و«آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كبير» من حوله «جميع الملائكة القديسين» وقدام عرشه تجتمع «جميع الشعوب» وإليه أشار صاحب الرؤيا بـ «مجد الله» و«الألف والياء» و«البداية والنهاية»، «الأول والآخر»، وجعل ظهوره «الويل الثالث» ومجّد شريعته ووصفها بأنها «سماء جديدة وأرض جديدة»، «مسكن الله مع الناس»، «المدينة المقدسة»، «أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيّأة كالعروس مزينة لرجلها». وإلى يومه أشار السيد المسيح نفسه بأنه «التجديد، متى يجلس ابن الإنسان على كرسي مجده» وإلى ساعة مجيئه أشار بولس الرسول بأنها «البوق الأخير» و«بوق الله» بينما أشار إليها بطرس الرسول بـ «يوم الرب الذي به تنحلّ السموات ملتهبة والعناصر محترقة تذوب». ووصف يومه بـ «أوقات الفرج»، و«أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه المقدّسين منذ الدهر».

---

(١) Gautama Buddha

(٢) Bhagavad-Gita

وإليه أشار القرآن الكريم بـ «النبأ العظيم» وأعلن أن يومه هو يوم «يأتيهم الله في ظلل من الغمام» يوم «جاء ربك والملك صفاً صفاً» و«يوم يقوم الروح والملائكة صفاً» وفي سورة وصفت بأنها «قلب الفرقان»، أخبر أن مجيئه هو مجيء الرسول «الثالث» الذي يبعث لتعزيز الرسولين اللذين سبقاه. وعلى يومه أثنى ثناءً عاطراً ووصفه بـ «اليوم العظيم» و«اليوم الآخر» و«يوم الله» و«يوم الدين» و«يوم الحساب» و«يوم التغابن» و«يوم الفصل» و«يوم الحسرة» و«يوم التلاق» و«يوم يقضي الأمر» ويوم «نفخ فيه (أي في الصور) أخرى فإذا هم قيام ينظرون»، و«يوم يقوم الناس لرب العالمين» ويوم «عنت الوجوه للحي القيوم» ويوم «ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب» ويوم «اقترب للناس حسابهم» ويوم «الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين» ويوم «صعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله» ويوم «تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها» ويوم «أشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون».

وشبه رسول الله كماله ومجده، كما يشهد حضرة بهاء الله نفسه «بالبدر ليلة أربعة عشرة». وحدد الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين مقامه، حسب الشهادة السابقة، بأنه «مكلم موسى من الشجرة على الطور». ولطبيعة رسالته الفائقة شهد الإمام الحسين، كما صرّح حضرة بهاء الله أيضاً، بأنها «ظهور من أرسل رسول الله».

وعنه كتب مبشر الدورة البابية الشيخ أحمد الأحسائي فتنبأ بالأحداث التي سوف تقع «بين سنة الستين [١٢٦٠ هـ] والسابعة والستين [١٢٦٧ هـ]»، وأكد حتمية ظهوره حين كتب ما سبق أن ذكرناه «لا بد لهذا الأمر من مقر ولكل نبأ مستقر لا يحسن الجواب بالتعيين وستعلمنّ نبأه بعد حين».

كما كتب السيد كاظم الرشتي، تلميذ الشيخ أحمد وخليفته: «لا بد أن يقتل القائم. وحين يقتل يبلغ العالم سن الثامنة عشرة» وفي شرحه للقصيدة

اللاميّة أشار لاسم «البهاء». وفضلاً عن ذلك فقد ألقى لتلاميذه في أخريات أيامه بياناً عميق المغزى قال فيه: «الحق أقول لكم بعد القائم يأتي القيوم، وحين يأفل نجم الأول تشرق شمس جمال الحسين وتضيء الأرض كلها، هنالك تتجلّى الأسرار وتنكشف المكنونات التي تحدّث عنها الشيخ أحمد... إن إدراك يوم الأيام هذا لهو إدراك المجد المتوج للأجيال الماضية، والعمل الطيب في ذلك العصر يعدل عبادة القرون والدهور».

أما حضرة الباب فقد مجده تمجيداً لا يقل دلالة فوصفه «بسادج الوجود» و«بقية الله» و«السيد الأكبر» و«النور المهيمن الحمراء» و«مالك الغيب والشهود» و«* غاية الدورات السابقة، بما في ذلك دورة القائم». وكان يميزه رسمياً بأنه «من يظهره الله» و«الأفق الأبهى» حيث عاش هو نفسه. ونص على لقبه نصاً خاصاً ومجّد «نظمه» في أشهر كتبه وهو البيان الفارسي، وصرّح باسمه حين أشار إليه بقوله: «* ابن علي مرشد صدق للبشر» وكثيراً ما حدد موعد ظهوره شفاهاً وكتابة بصورة لا يرقى إليها الشك، وحذّر أتباعه من الاحتجاب عنه و«بالواحد البيانية فإن ذلك الواحد خلق عنده». وفضلاً عن ذلك أعلن أنه هو نفسه «أول العابدين وأول الساجدين» وأنه خشع له «* من قبل أن تخلق كينونات الخلق» وأنه «لا يشار بإشارتي ولا بما ذكر في البيان» وأن «* نطفة ظهوره في عامها الأول أقوى من كل البيان». وبوضوح أكد أنه «قد أخذ عهد ولايته عن كل شيء قبل أن يأخذ عهد ولايته هو». واعترف بلا تحفظ أنه ما هو إلا «حرف من ذلك الكتاب المبين وقطرة من ذلك البحر العظيم» وأن ظهوره «* ورقة من أوراق أشجار جنته»، «وأن كل ما رفع البيان» لم يكن إلا خاتماً في إصبعه وأنه هو نفسه «خاتم في يدي من يظهره الله... يقلب كيف يشاء لما يشاء بما يشاء». ويخاطبه بصراحة بأنه «قد فديت بكلي لك ورضيت السبّ في سبيلك وما تمنيت إلا القتل في محبتك». وأخيراً تنبأ بكل وضوح بأن «* البيان في مقام النطفة اليوم، وآخر كمال البيان أول ظهور من يظهره الله». «من أول ذلك الأمر إلى قبل أن يكمل تسع كينونات الخلق لن يظهر لأن كل ما قد رأيت من النطفة إلى ما كسوناه

لحماً. ثم اصبر حتى تشهد خلقاً آخر. هنالك قل فتبارك الله أحسن الخالقين».

وهذه شهادة حضرة بهاء الله المؤيدة والدالة على طبيعة ظهوره العظيم عظمة لا تحيط بها الأفهام، الفائقة تفوّقاً لا تدركه العقول قال: «ظهر من طاف حوله نقطة البيان [حضرة الباب]» وأكد ذلك مرة أخرى فقال: «* لو أصبح اليوم كل من السموات والأرض في عداد الحروف البيانية الذين هم أعظم وأكبر من الحروف الفرقانية عشرة آلاف مرتبة وتوقفوا عن قبول الأمر أقل من آن لعدوا عند الله من المعرضين، وأدخلوا في عداد حروف النفي». وأشار إلى نفسه في كتاب الإيقان: «* إن سلطان الهوية ذلك قادر على أن يقبض روح كل البيان وخلقه بحرف من بدائع كلماته، وأن يهب لهم جميعاً بحرف واحد حياة بديعة خالدة، وأن يبعثهم من قبور النفس والهوى ويحشرهم». وفضلاً عن ذلك وصف يومه بأنه «سلطان الأيام» و«يوم الله» الذي هو «بمثابة النور لظلمة الأيام» و«النهار الذي لا يعقبه ليل» «الربيع الذي لن يعقبه خريف» وهو «بمثابة البصر للقرون والأعصار». وهو اليوم الذي به «بشر كل نبي وناح كل رسول حبّا» لظهوره و«* الذي تمنته كل القبائل والأمم» يوم «امتحن الله كل النبيين والمرسلين ثم الذين هم كانوا خلف سرادق العصمة وفسطاط العظمة وخباء العزة». وبالإضافة إلى ذلك قال: «* قد انتهت الظهورات إلى هذا الظهور الأعظم، به بلغت غايتها ومنتهاها» وقال مرة أخرى: «* لم يقف أحد من المظاهر السابقين على كيفية هذا الظهور بتمامه إلا على قدر مقدور». وأشار إلى مقامه بقوله: «لولاه لما أرسل رسول وما نزل كتاب».

وأخيراً، وليس آخراً، إليك ما قاله حضرة عبد البهاء في طبيعة ظهور والده الفائق: «* تمضي القرون وتنتهي الدهور وتنقضي آلاف الأعصار حتى تطلع شمس الحقيقة في برج الأسد وتسطع من دارة الحمل». وقال مرة أخرى: «* إن الأولياء السابقين لينصعقون حين يتصوّرون دور الجمال المبارك، ويتمنون دقيقة واحدة منه». وبعبارة عميقة الدلالة قال: «أمّا

المظاهر المقدسة التي تأتي من بعد في ظلل من الغمام من حيث الاستفاضة هم في ظل جمال القدم، ومن حيث الإفاضة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد». وأخيراً إليك هذا الشرح الذي يبيّن بوضوح العلاقة بين ظهور حضرة بهاء الله، وظهور حضرة الباب «* * كان ظهور النقطة الأولى سطوع الشمس من برج الحمل وأما الآن فقد طلعت ولاحت شمس الحقيقة، الجمال المبارك، من برج الأسد وذلك يعني أن هذا الكور المبارك مزين بأنوار ساطعة من شمس الحقيقة في برج الأسد الذي له أشد شعاع وحرارة وظهور».

والواقع أن محاولة استقصاء كل ما ورد من الإشارات والبشارات بظهور حضرة بهاء الله أمر مستحيل. ولقد شهد قلم حضرة بهاء الله بذلك فقال: «* إن كل الكتب والصحف المقدسة قد تنبأت مجيء هذا الظهور الأعظم وأعلنت عنه على الملأ ولا يستطيع أحد أن يحصي تماماً الآيات المدونة في كتب العصور السابقة التي بشّرت بهذا الفضل الأعظم وهذه العناية الفائقة».

وختاماً لهذا العرض لا بد لي أن أقرر أن ظهور حضرة بهاء الله يعطل كل الظهورات السابقة بلا قيد ولا شرط، ويؤمن بجميع الحقائق الخالدة التي تكتنزها إيماناً لا مساومة فيه، ويعترف بسماوية أصحابها وأصلهم الإلهي اعترافاً راسخاً ثابتاً، ويرعى قداسة كتبها المعتمدة ويبرأ من كل نية في الحط من شأن مؤسسيها أو تحقير المثل الروحية العليا التي لقنوها، ويوضح وظائف هذه الظهورات ويربط بينها، ويؤكد من جديد غرضها الأساسي المشترك الثابت، ويوفّق بين مطالبها وعقائدها المتعارضة في الظاهر، ويبادر فيعترف لها شاكراً لإسهامها المتوالي في سبيل التفتح التدريجي لظهور إلهي واحد. ولا يتردد لحظة واحدة في الإقرار بأنه هو نفسه ليس سوى حلقة أخرى في سلسلة الظهورات الدائمة التقدم. وهو يذيل تعاليم هذه الظهورات بالشرائع والأحكام التي تتماشى مع الضرورات الملحة والقابلية النامية للمجتمع السريع التطوّر الدائم التغير. كما يعلن عن استعداده وقدرته على أن يصهر ويوحد الفرق المتناحرة والطوائف المتنافرة التي تفككت إليها هذه

الظهورات السابقة ليخلق منها أخوة عالمية عاملة بمقتضى نظام عالمي شامل ـ وفي نطاق ـ يوحّد العالم ويفتديه.

هذا الظهور الذي هو وعد ومجد متوّج للعصور الماضية والقرون الخالية، وكمال لكل رسالات كور آدم الإلٰهي النبوي ومؤسس دورة لا تقلّ عن ألف سنة وفاتح لكور يمتد إلى ما لا يقل عن خمسة آلاف قرن، ومشير إلى انتهاء عهد النبوات والوعود وابتداء عهد تحقيق النبوات والوفاء بالوعود، العهد الذي لا يفوقه عهد آخر في طول ولاية مؤسسه ولا في خصوبة رسالته وبهائها، لم يولد كما لاحظنا من قبل في مكان آخر غير تلك الزنزانة المظلمة والحفرة الكريهة التي كانت يوماً ما مخزناً لمياه حمام عام بطهران. كان حضرة بهاء الله مغموراً في غياهبها الكئيبة يتنفّس هواءها المنتن ويخدّر جوها الرطب حواسه وتقيد السلاسل قدميه، وتثقل الأغلال عنقه، ويحيط به المجرمون والقتلة والسفاكون، ويرهقه إدراكه لشناعة الوصمة التي لطخت صيت أمره المحبوب، وتؤلمه معرفته بالشدائد القاسية والمحن التي داهمت أبطاله وأقطابه، والأخطار الجسيمة التي تواجه البقية الباقية من أتباعه. في تلك الساعة العصيبة، وفي تلك الظروف المخيفة هبط عليه «الروح الأعظم» كما يسميه. وهو الذي رمز له في دورة زرادشت بالنار المقدسة، وفي دورة موسى بالشجرة المشتعلة، وفي دورة عيسى بالحمامة، وفي دورة محمد بجبريل، هبط الروح الأعظم عليه وتمثل لروحه المرهق على هيئة «حورية».

وفي مغرب حياته كتب يستعيد ذكرى بوادر هذا التجلي الإلٰهي على روحه فقال: «* وفي ذات ليلة أصغيت إلى هذه الكلمة العليا في عالم الرؤيا من جميع الجهات: **إنا ننصرك بك وبقلمك. لا تحزن عما ورد عليك ولا تخف إنك من الآمنين. سوف يبعث الله كنوز الأرض، وهم رجال ينصرونك بك وباسمك الذي به أحيا الله أفئدة العارفين**». وفي موضع آخر وصف بإيجاز تأثير القوة المتدفقة للنداء الإلٰهي على كيانه كله، تجربة تذكرنا بطيف الله الذي خرَّ له موسى صعقاً، وصوت جبريل الذي لاذ منه محمد ببيته فَرِقاً

وطلب إلى زوجته خديجة أن تدثره وتزمله. قال في بيانه الخالد: «* وبالرغم من أن النوم كان عزيز المنال من وطأة السلاسل والروائح المنتنة حين كنت رهين سجن أرض الطاء [طهران] إلا أنني كنت في هجعاتي اليسيرة أحسّ كأن شيئاً ما يتدفق من أعلى رأسي، وينحدر على صدري كأنه النهر العظيم ينحدر من قلة جبل باذخ رفيع إلى الأرض فتلتهب جميع الأعضاء لذلك. في ذلك الحين كان اللسان يرتل ما لا يقوى أحدٌ على الإصغاء إليه».

وفي سورة الهيكل يصف تلك اللحظات الهائلة التي أعلنت له فيها الحورية الرامزة «للروح الأعظم» رسالته لعالم الإنشاء فيقول: «فلمّا رأيت نفسي على قطب البلاء سمعت الصّوت الأبدع الأحلى من فوق رأسي. فلما توجهت شاهدت حورية ذكر اسم ربي معلقة في الهواء أمام الرأس، ورأيت أنها مستبشرة في نفسها كأن طراز الرضوان يظهر من وجهها ونضرة الرحمٰن من خدها. وكانت تنطق بين السمٰوات والأرض بنداء تنجذب فيه الأفئدة والعقول، وتبشر كل الجوارح من ظاهري وباطني ببشارة استبشرت بها نفسي وعباد مكرمون. وأشارت بإصبعها إلى رأسي وخاطبت من في السمٰوات والأرض: تالله هذا لمحبوب العالمين ولكن أنتم لا تفقهون. هذا جمال الله بينكم وسلطانه فيكم إن كنتم تعرفون. وهذا سر الله وكنزه، وأمر الله وعزه لمن في ملكوت الأمر والخلق إن كنتم تعقلون».

وفي لوحه لعدوه ناصر الدّين شاه، الذي نزل في أوج إعلان رسالته، وردت هذه الفقرة التي تلقي ضوءاً أسطع على قدسية دعوته وأصلها الإلٰهي: «يا سلطان! إني كنت كأحدٍ من العباد وراقداً على المهاد، مرت عليّ نسائم السبحان وعلمني علم ما كان. ليس هذا من عندي بل من لدن عزيزٍ عليم، وأمرني بالنداء بين الأرض والسماء، وبذلك ورد عليّ ما تذرّفت به عيون العارفين... هذا ورقة حركتها أرياح مشيئة ربك العزيز الحميد... قد جاء أمره المبرم وأنطقني بذكره بين العالمين. إني لم أكن إلا كالميّت تلقاء أمره قلبتني يد إرادة ربك الرحمٰن الرحيم». وفي لوح آخر يؤكد ذلك فيقول مناجياً: «إن الأمر ليس بيدي بل بيدك. ولم يكن زمام الاختيار في قبضتي بل في قبضتك واقتدارك» ومرة أخرى يقول: «وكلما أصمت من بدائع ذكرك

ينطقني الروح من سمائك وأرضك. وكلما أسكن يهتز بما يهب عن يمين مشيئتك وإرادتك وأجد نفسي كورقة التي تحركها أرياح قضائك».

تلك هي ظروف إشراق شمس الحقيقة بمدينة طهران التي مجدها حضرة الباب «بالأرض المقدسة»، لما انفردت به من الامتياز النادر، ولقبها حضرة بهاء الله بـ«أم العالم» و«أفق النور» و«مشرق آيات ربك» و«مطلع فرح العالمين». وكانت أولى إشراقات هذا البهاء الفائق في مدينة شيراز، كما وصفنا من قبل، وعلا هذا النيّر في أفق سياه چال بطهران، لتنسكب أشعته بعد عشر سنوات على بغداد مبددة السحب والغيوم التي حجبت بهاءه بعد إشراقه مباشرة في تلك البؤرة الوبيلة. ولقد قدّر لهذا البهاء أن يبلغ السمت والزوال في مدينة أدرنة القصيّة، وأن يغرب آخر الأمر بجوار عكاء مدينة السجن.

وبالضرورة كانت عملية إشراق هذا الظهور الباهر بطيئة متدرجة، فلم يبح المظهر الإلٰهي لأحد من أصحابه أو من أهل بيته بطبيعة الرسالة التي تلقاها بمجرد أن تلقى بشائرها، ولا بعد أن تلقى بشائرها مباشرة، بل لقد انقضت فترة لا تقل عن عشر سنوات قبل أن تستطيع مكنوناتها البعيدة المدى أن تنكشف حتى لأقرب المقربين. وهي فترة من الاختمار الروحي كان حامل تلك الرسالة الجسيمة ينتظر فيها بقلق تلك الساعة التي يستطيع فيها أن يلقي العبء عن نفسه المبهورة الجياشة بالقوى الفياضة التي أطلقها الظهور الإلٰهي الجديد. وكل ما فعله، في أثناء هذه الفترة التي سبق بها التقدير الإلٰهي، هو أنه كان يشير من طرف خفي ويلوّح بلغة مستورة في الألواح والمناجاة والتفاسير والرسالات التي فاض بها قلمه، إلى أن وعد حضرة الباب قد تحقق وأنه هو المختار لتحقيقه، وفطن بعض زملائه الأصحاب الممتازين بنفاذ بصيرتهم وصلتهم الشخصية به وإخلاصهم لشخصه إلى تألق المجد المستور الذي غمر روحه، وودوا لو باحوا بسره وأذاعوه طولاً وعرضاً لولا أنه كان ينهاهم عن ذلك.

نفي حضرة بهاء الله إلى العراق

حدثت محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، كما أسلفنا في فصل سابق، في الثامن والعشرين من شوال ١٢٦٨ هـ، الموافق للخامس عشر من آب ١٨٥٢ م. واعتقل حضرة بهاء الله بعد ذلك مباشرة في نياوران وسيق بصورة مهينة إلى طهران حيث زج به في سياه چال ليقضي فيه ما لا يقل عن أربعة أشهر، دخلت خلالها سنة التسع [١٢٦٩ هـ] التي تنبأ بها حضرة الباب بعبارات مشرقة، وأشار إليها الشيخ أحمد الأحسائي بقوله «بعد حين»، فصبّت في كيان العالم بأسره إمكانيات لم يكن يحلم بها. وبعد انقضاء شهرين من تلك السنة أطلق سراح حضرة بهاء الله بعد أن تحقق الهدف المقصود من سجنه، وانطلق بعد شهر آخر إلى بغداد ليخطو أولى خطوات النفي المؤبد الذي انتقل به، على مر السنين والأعوام، إلى أدرنة في القسم الأوروبي من تركيا، وانتهى بحبسه في عكاء أربعة وعشرين عاماً.

أما وقد تزود أثر ذلك الحلم القوي بما ينبغي لرسالته الإلهية من قوة وسلطان فإن خلاصه من فترة سجن حققت غايتها لم يعد أمراً محتوماً فحسب بل وضرورة ملحّة عاجلة. ذلك لأنه لو طالت مدة هذا السجن لما استطاع الاضطلاع بمهماته التي كلف بها أخيراً. والواقع أنه لم تعد تعوزه الوسائل التي يتم بها خلاصه من تلك القيود المعطلة، فقد تدخل الأمير دولجوروكي السفير الروسي تدخلاً حازماً، ولم يترك باباً إلا طرقه ليقيم الدليل على براءة حضرة بهاء الله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعترف الشيخ علي الترشيزي الملقب بعظيم، اعترافاً علنياً في سياه چال أمام حاجب الدولة وترجمان السفير الروسي وممثل الحكومة باشتراكه في الجريمة، وبراءة

حضرة بهاء الله منها. ومن ناحية ثالثة شهدت له المحاكم المختصة شهادة ناصعة. كما بذل إخوته وأخواته وذوو قرباه جهودهم المتصلة لإثبات براءته. كل هذه الجهود تضافرت على تخليص حضرة بهاء الله من براثن العدوّ اللّدود، ولا بدّ من الاعتراف بتدخّل عامل خفيّ فاعل آخر، ألا وهو المصير الدامي الذي لقيه عدد كبير من زملائه الأصحاب الذين عانوا معه آلام السجن. ولقد روى النبيل بحق: «كانت الدماء التي سفكت أثناء تلك السنة العصيبة في طهران من جانب تلك الجماعة التي سجن معها حضرة بهاء الله، فداء لحضرته من يد العدو الذي كان يجاهد في عرقلة مساعيه لبلوغ الهدف الذي قدره الله له».

وإزاء هذه الشهادات الدامغة على براءة حضرة بهاء الله من الاشتراك في الجريمة لم يجد الصدر الأعظم مفراً من أن يحصل، بعد لأي، على موافقة مولاه على إطلاق سراح السجين. وأرسل رسوله الحاج علي إلى سياه چال لكي يبلّغ حضرة بهاء الله النبأ. ولكّن الدماء غلت في عروق الرسول غضباً للمنظر الذي شهده عند وصوله، ولعن سيّده الذي عامل رجلاً له هذه المنزلة الرفيعة وهذه السمعة الطاهرة هذه المعاملة المخزية، وبادر بأن خلع عباءته وقدمها لحضرة بهاء الله راجياً أن يتستّر بها أمام الوزير ومستشاريه، ولكن حضرة بهاء الله رفض ذلك رفضاً باتاً، وفضل أن يظهر أمام رجال حكومة الشاه بملابس السجن.

وما كاد يدخل عليهم حتى خاطبه الصدر الأعظم قائلاً: «لو أنك اتبعت ما نصحتك به وقطعت صلتك بدين السيد الباب لما لحقت بك هذه الآلام والإهانات» فأجابه حضرة بهاء الله قائلاً: «* * ولو أنك اتبعت ما نصحتك به لما بلغت أمور المملكة إلى هذا الحد من الاضطراب». فتذكر ميرزا آقا خان عندئذ الحديث الذي دار بينهما عندما استشهد حضرة الباب. فقد أنذره حضرة بهاء الله بأن «النار التي اشتعلت سوف تندلع وتنتشر أكثر فأكثر» فسأله الوزير «وبماذا تنصح الآن؟» فأجابه حضرة بهاء الله على الفور «* * مر ولاة

الأمور أن يحقنوا دماء الأبرياء، ويكفوا أيديهم عن نهب ممتلكاتهم، وهتك أعراض نسائهم، وإيذاء أبنائهم» فعمل الصدر الأعظم بالنصيحة في اليوم نفسه، ولكن الحوادث التالية أثبتت أن تأثيرها كان وقتياً ولا قيمة له.

وقد شاءت الحكمة الإلٰهية المعصومة أن يكون ما تمتع به حضرة بهاء الله من سلام وهدوء، بعد سجنه المحزن القاسي، قصير الأمد جداً. فما كاد يعود إلى أهله وذوي قرباه حتى صدر إليه فرمان من ناصر الدين شاه أن يغادر إيران في ظرف شهر، وترك له حريّة اختيار منفاه.

وما كاد السفير الروسي يسمع بفرمان الشاه حتى عبّر عن رغبته في أن يشمل حضرة بهاء الله بحماية حكومته، وعرض أن يقدّم كل التسهيلات اللازمة لسفره إلى روسيا ولكن حضرة بهاء الله رفض هذه الدعوة التلقائية، وفضّل أن يتبع وحي فطرته المعصومة، ويقيم في الأراضي التركية بمدينة بغداد. وبعد سنوات كتب في لوحه إلى قيصر روسيا نيقولاويج[1] إسكندر الثاني: «قد نصرني أحد سفرائك إذ كنت في سجن الطاء [طهران] تحت السلاسل والأغلال. بذلك كتب الله لك مقاماً لم يحط به علم أحد إلاّ هو. إياك أن تبدل هذا المقام العظيم». وهذه شهادة من قلمه أشد بياناً: «** في الأيام التي سجن فيها هذا المظلوم بذل وزير الحكومة الفخيمة [روسيا] أيده الله تبارك وتعالى قصارى جهده ليخلصني. وقد أذن بإطلاق سراحي عدة مرات. إلا أن بعض علماء المدينة كانوا يحولون دون تنفيذه. وأخيراً نجوت بفضل جهود صاحب السعادة الوزير واهتمامه... ولقد حماني حضرة الإمبراطور الأعظم أيّده الله تبارك وتعالى لوجه الله وكان من شأن هذه الحماية ازدياد غل الجاهلين وبغضائهم».

كان فرمان الشاه يعني نفي حضرة بهاء الله من البلاد الإيرانية فوراً. فأفتتح فصلاً جديداً مجيداً في تاريخ القرن البهائي الأول. ولو نظرنا إلى هذا

---

(١) Nicolaevitch Alexander II

الفرمان في أبعاده الصحيحة لاعترفنا بابتداء فترة من أعظم الفترات في تاريخ العالم الديني وأحفلها بالأحداث، وهو يقترن ببداية ولاية لا تقل فترتها عن أربعين سنة وهي فترة فريدة لا شبيه لها ولا مثيل في تاريخ البشر الديني على الإطلاق بفضل قوتها الخلّاقة وطاقتها المطهرة وتأثيراتها الشافية وطريقتها التي لا تقهر والتي عملت فيها القوى التي أطلقها لتوجيه العالم وتشكيله، وتشير هذه الفترة إلى الحلقة الأولى من سلسلة النفي المتكرر الذي دام أربعين سنة ولم ينتهِ إلا بموت من استهدفه هذا الفرمان الجائر. أما وقد أطلق هذا الفرمان عملية متدرجة من التطور والتفتح، بدأت أول ما بدأت بإقامة حضرة بهاء الله فترة من الزمن في معقل الشيعة الحصين وجعلته يتصل بأعظم أقطابهم وأشهر أعلامهم اتصالاً شخصياً، ثم جعلته، في مرحلة تالية، يواجه في عاصمة الخلافة [العثمانية] رجالات الدنيا والدين ورجال الدولة ومندوبي سلطان تركيا الذي كان يُعتبر أقدر قطب في العالم الإسلامي قاطبة، وأخيراً حملته إلى شواطئ الأرض المقدسة. فتحققت بذلك نبوءات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ونفّذ الميثاق المبرم في الأحاديث الشريفة المنسوبة إلى رسول الله وخلفائه الأئمة، وبدأت عودة بني إسرائيل إلى مهد دينهم العتيق، وهي العودة التي طال انتظارهم لها. ويمكن أن يقال إن هذا الفرمان بدأ آخر مرحلة وأخصبها من مراحل حياة حضرة بهاء الله الأربع، فقد تميزت السنوات السبع والعشرون الأولى منها بالتمتع البريء بكل الامتيازات التي وفرتها الثروة وشرف المحتد، كما تميزت بالاهتمام بمصالح الفقراء والمرضى والبؤساء. تلتها المرحلة الثانية وقوامها تسع سنوات من التلمذة النشيطة المثالية على حضرة الباب، والقيام على خدمة أمره، تلاها أخيراً سجن دام أربعة أشهر وهي المرحلة الثالثة المليئة بالخطر القاتل والأحزان المريرة، وإن خلّدها على الزمن ما حدث في أواخرها من الانطلاق المفاجئ لقوى الإلهام الجسيم في هيمنته، الجبار في تطويره لأعماق النفس.

إن رحيل حضرة بهاء الله الإجباري العاجل عن وطنه بصحبة نفر قليل من ذوي قرباه يُعيد إلى الأذهان، من بعض الوجوه، الهجرة العاجلة التي

قامت بها العائلة المقدسة إلى مصر وهجرة محمد رسول الله المباغتة من مكة إلى المدينة بعد إعلانه لرسالته الإلٰهية، وخروج موسى وأخيه وأتباعه من مسقط رأسهم تلبية للنداء الإلٰهي، ولكن فوق كل شيء يُعيد إلى الذاكرة نفي إبراهيم من أور الكلدانيين إلى الأرض الموعودة. فذلك النفي الذي أغدق المواهب الهائلة على كثير من الشعوب والأمم والأديان يعتبر أقرب مثل تاريخي للمواهب المقبلة للجنس البشري بأسره كنتيجة مباشرة لنفي من يعتبر ظهوره زهرة الظهورات المرجوّة وثمرتها المشتهاة.

ذلك ما أكده حضرة عبد البهاء بعد أن عدّد في «المفاوضات» النتائج البعيدة الأثر لنفي إبراهيم. إذ كتب تلك العبارات ذات الدلالة العظيمة: «* فإذا كانت هجرة إبراهيم من أور إلى حلب [سوريا] قد أنتجت هذه النتائج، فماذا تكون نتائج هجرة حضرة بهاء الله من طهران إلى بغداد ثم إلى الآستانة وروميلي [أدرنة] ومنها إلى الأرض المقدسة؟».

في غرة ربيع الثاني ١٢٦٩ هـ (الموافق ١٢ كانون الثاني ١٨٥٣ م) أي بعد تسعة أشهر من عودته من كربلاء رحل حضرة بهاء الله مع بعض أفراد أسرته إلى بغداد يحرسهم ضابط من حرس الشاه ومندوب من السفارة الروسية. وقد دامت الرحلة ثلاثة أشهر. وكانت زوجته نواب الطاهرة التي لقبها بـ«الورقة العليا» من بين من شاطره النفي، ولقد أظهرت خلال أربعين سنة تقريباً من التقوى والثبات والإخلاص وسمو الروح ما جعلها تفوز من قلم مولاها بذلك الثناء الفريد الذي تكشف بعد صعوده. فقد جعلها «صاحبة له في كل عالم من عوالمه». كما كان من بين المنفيين الذين يودعون وطنهم الوداع الأخير ابنه البالغ من العمر تسع سنوات. وهو الذي لقب فيما بعد بـ«الغصن الأعظم»، والذي قدر له أن يصبح مركز الميثاق والمبين المختار لتعاليم والده، وأخته ذات السبع سنوات وهي التي عرفت فيما بعد بنفس لقب أمها الزهراء، والتي ميزتها خدماتها حتى بلغت السادسة والثمانين، كما ميزها نسبها المجيد بامتياز جعلها تتبوأ مكانة بطلة الدورة البهائية البارزة. كما

صحبه في هذه الرحلة أخوان: أولهما ميرزا موسى المعروف عادة بآقاي كليم، وكان العون القيم الثابت وأقدر إخوته وأخواته وأبرزهم، كما كان «ثاني اثنين عليمين بأصول الدين» حسب شهادة حضرة بهاء الله. أما الأخ الثاني فكان ميرزا محمد قلي الأخ غير الشقيق الذي ظل مخلصاً ثابتاً على الدين الذي اعتنقه حتى النهاية رغم تقصير بعض ذوي قرباه.

بدأت الرحلة في أعماق شتاء قارس البرد بصورة غير عادية وساقت جماعة المنفيين الصغيرة التي لم تكن مستعدة استعداداً كافياً إلى جبال إيران الغربية المغطاة بالثلوج. وبالرغم من أن الرحلة كانت طويلة محفوفة بالأهوال والمخاطر إلا أنها خلت من الحوادث المهمة اللهم إلا الحفاوة البالغة التي استقبلهم بها حياة قلي خان حاكم كرند حين أقاموا بها إقامة قصيرة. وكان حاكم كرند من طائفة الـ«عَلِيُّ اللهِيّة» ولقد أظهر له حضرة بهاء الله مقابل حفاوته من الرأفة ما كان له أجمل الوقع في نفوس أهل القرية جميعاً. فاستمروا يكرمون الجماعة حتى بعد مغادرتهم كرند في طريقهم إلى بغداد، الأمر الذي جعلهم يعرفون بأنهم بابيون.

ولقد فصل حضرة بهاء الله القول في الأهوال والبلايا التي لقيها في سياه چال، والمتاعب التي عاناها في تلك «الرحلة المرهقة» فقال في مناجاة له في ذلك الحين: «* إلهي وسيدي ورجائي... خلقت ذرة التراب هذه بقدرتك الكاملة وربّيته بأياديك المبسوطة... قدرت له يا إلهي من الرزايا والبلايا ما لا يقدر على وصفه لسان، ولا تسعه صفحات الألواح، إن العنق الذي عوّدته ملمس الحرير قد قيّدته آخر الأمر بأغلال غليظة والبدن الذي نعمته بلباس الدمقس والديباج أخضعته في النهاية لذل الحبس، قلّدني قضاؤك قلائد لا تحد، وطوّقني أطواقاً لا تفك، وانقضت سنون تنهمر عليّ فيها البلايا كشآبيب الرحمة... فكم من ليلة حرمتني السلاسل والأغلال فيها الراحة، وكم من يوم عزّتني فيه السكينة بما اقترفت أيدي الناس وألسنتهم وحرّموا على هذا العبد حيناً الخبز والماء اللّذين قدرتهما برحمتك الواسعة لوحش الفلاة

وآذوني بما لم يؤذوا به من أعرض عن أمرك. وأخيراً نزل حكم القضاء وصدر الأمر بإخراج هذا العبد من إيران تصحبه جماعة من العباد الضعفاء والأطفال الأبرياء في ذلك الحين الذي اشتد فيه البرد حتى لم يستطع الإنسان أن يتكلم، وكثرت فيه الثلوج والجليد حتى لم تعد هناك قدرة على الحركة».

وأخيراً في الثامن والعشرين من جمادى الثانية ١٢٦٩ هـ (الموافق للثامن من نيسان ١٨٥٣م) وصل حضرة بهاء الله إلى بغداد عاصمة ولاية العراق التركية. وبعد أيام انتقل إلى ضاحية الكاظمين على بعد ثلاثة أميال شمال المدينة. وهي ضاحية يقطنها الإيرانيون بصفة خاصة، وفيها مقام الإمامين الكاظمين السابع والتاسع من أئمة الشيعة. وبعيد وصوله زاره ممثل حكومة الشاه المقيم في بغداد واقترح عليه أن يقيم في بغداد العتيقة نظراً لكثرة الوافدين على مزار الكاظمين. وقد حاز هذا الاقتراح قبوله. وبعد شهر، أي في أواخر رجب، استأجر منزل الحاج ملا علي مدد في حيّ عتيق من أحياء بغداد، وانتقل إليه هو وأسرته.

في هذه المدينة التي وصفتها الأحاديث الإسلامية بـ «ظهر الكوفة» ولقبت قروناً عديدة بـ «دار السلام» وخلدها حضرة بهاء الله بلقب «مدينة الله»، أقام إلى أن نفي إلى الآستانة إقامة دائمة باستثناء سنتين اعتكف فيهما في جبال كردستان، وباستثناء زياراته التي كان يقوم بها بين الحين والآخر للنجف وكربلاء والكاظمين. إلى هذه المدينة أشار القرآن الكريم بـ «دار السلام» التي «يدعو» إليها الله، وبقوله: «لهم دار السلام عند ربهم... يوم يحشرهم جميعاً»، ومنها انطلقت القوة والمجد والسناء موجة بعد موجة، فأخصبت من جديد ذلك الدين المتهالك من حيث لا يحتسب، وانتشلته من وهدة الغموض والنسيان. ومنها فاضت ليل نهار وبقوة متزايدة أولى فيوضات الظهور الذي قدر له أن يفوق ظهور حضرة الباب في مداه وقوته الدافعة وضخامة كتبه وتنوعها. وفي أفقها انطلقت أشعة شمس الحقيقة التي حجبت مجدها المشرق، لمدة عشر سنوات طوال، سحب الكراهية والحسد والمقت

والبغضاء. وفيها ضربت لأول مرة خيمة «رب الجنود» الموعود، ووضع أساس ملكوت «الآب» المأمول من قديم الزمان. ومنها انطلقت بواكير بشارة رسالة الخلاص التي تشير إلى انتهاء «رجسة الخراب» كما تنبأ دانيال بعد انقضاء «الألف والمائتين والتسعين يوماً [١٢٩٠ هـ]». إن «بيت الله الأعظم» الذي هو «موطئ قدميه» و«عرش لاستقرار هيكل القِدَم» و«قِبْلَة الأمم» و«مصباح الفلاح بين الأرض والسماء» و«آية ذكره لمن في السموات والأرضين» و«علم» ملكه و«المقام الذي يطوف حوله ملأ عارفون» هذا البيت الذي تضمن «طرازه الذي منه استضاء من في الأكوان» قد تأسّس نهائياً بين جدرانه وثبتت قداسته إلى الأبد. وعليه أسبغ الشرف الرفيع الذي جعله مركزًا للحج لا يسبقه سوى مدينة عكاء «سجنه الأعظم» وقبلة أهل البهاء التي يقوم بها مقامه الأقدس. ولقد أسبغ عليها هذا الشرف الرفيع للقداسة التي جاءتها من أنها هي «المنظر الأكبر» و«المقر الأطهر». وفيها مدت المائدة الإلٰهية وجلس حولها رجال الدين والدنيا وأهل السنة والشيعة والأكراد والعرب والإيرانيون والأمراء والأشراف والفلاحون والدراويش، وازداد عددهم من القريب والبعيد. وتناول كل منهم على قدر حاجته واستعداده من هذا القوت الإلٰهي الذي مكّنهم، على مر الزمان، من أن ينشروا في الخارج أمر المنعم الوهاب، ويضخموا صفوف أتباعه، وينشروا آثاره طولاً وعرضاً، ويوسعوا نطاق الإعجاب به، ويضعوا الأساس الراسخ لنظم دينه في المستقبل. وأخيراً أمام الطوائف المختلفة التي سكنت فيها بدأت أولى مراحل التفتح التدريجي للظهور الجديد، ودونت أولى الفيوضات المنهمرة من قلم صاحبه الملهم، وشرّعت أولى مبادئ عقيدته المتبلورة على مهل وفهمت أولى مكنونات مقامه الجبار، وشنت من الداخل أولى الهجمات التي كانت ترمي إلى استئصال شأفة دينه، وسجلت أولى انتصاراته على الأعداء الذين برزوا من بين صفوفه، وبدأت أولى الرحلات للتشرف بمحضره المنير.

والواقع أن هذا النفي المؤبد الذي قدرته العناية الإلٰهية على حامل هذه الرسالة النفيسة لم يظهر، ولم يكن بإمكانه أن يظهر الإمكانيات الكامنة فيه

بغتة أو بسرعة. بل إن العملية التي تجلّت بها لأعين الناس بركاته غير المتوقعة كانت بطيئة بصورة مؤلمة. وقد تميزت، كما تميز تاريخ دينه منذ البداية إلى يومنا هذا، بالأزمات التي كانت تهدد في بعض الأحيان تفتح هذا الدين، بل وتهدد بتقويض كل الآمال التي ولّدها تقدمه.

ولقد رانت أزمة من هذه الأزمات على السنوات الأولى من إقامته بالعراق، أي في المرحلة الافتتاحية لنفيه المؤبد، فهددت، وهي في عنفوان شدتها، بتمزيق أوصال دينه الجديد، ودك أسسه الأولى. فأسبغت بذلك على هذه السنوات الأولى دلالة خاصة، وعلى خلاف ما سبق كانت أزمة داخلية تسببت فيها أعمال من كانوا يعتبرون من زمرة إخوانه الأصحاب وأطماعهم وحماقاتهم.

كان أعداء الدين الخارجيون من أهل الدنيا والدين مسؤولين بصفة خاصة عما عاناه الدين من إهانات ونكسات. ولكنهم اليوم أخلدوا إلى الراحة والهدوء النسبي، وقلّت لديهم شهوة الانتقام التي كانت في يوم من الأيام ظامئة لا ترتوي. وذلك نتيجة لسيول الدماء التي فاضت من قبل. وفضلاً عن ذلك خيم شعور يشبه الإنهاك واليأس على بعض الأعداء الألداء الذين كانوا من الفطنة بحيث أدركوا أن جوهر الدين ظل سليماً، وأن روحه لم يمت رغم أنه ترنح تحت الضربات الوجيعة التي كالوها له. أضف إلى ذلك أن الأوامر التي أصدرها الصدر الأعظم لحكام المقاطعات كان لها أثرها لدى السلطات المحلية فانصرفت عن صب جام غضبها على رأس عدوها البغيض وأقلعت عن الإسراف في القسوة.

كان من نتيجة ذلك أن هدأت الحال نسبياً لفترة وجيزة، قطعتها في مرحلة متأخرة موجة أخرى من الاضطهاد تعاون فيها سلطان تركيا ووزراؤه والمحافل السنية من جهة والشاه ورجال الشيعة في إيران والعراق من جهة أخرى في محاولة للقضاء على الدين وكل ما يرمز له قضاءً تاماً وفي أثناء هذا الهدوء النسبي أخذت بوادر الأزمة الداخلية التي أشرنا إليها تظهر وتتضح.

وبالرغم من أنها بدت لأعين الناس قليلة الأهمية إلا أنها أثبتت، وهي تسرع إلى ذروتها، أنها فريدة في خطورتها وجسامتها ذلك لأنها قللت من القوة العدديّة للجامعة الناشئة، وهددت وحدتها، وآذت هيبتها ونالت من كرامتها، ولطخت مجدها فترة ليست بالقصيرة.

أخذت هذه الأزمة تغلي بعد استشهاد حضرة الباب مباشرة، واستحكمت خلال الأشهر التي انسحبت فيها يد حضرة بهاء الله المشرفة نتيجة لسجنه في سياه چال بطهران، ثم تفاقم خطبها على أثر نفيه العاجل من إيران، وأخذت ملامحها المزعجة تبرز أثناء السنوات الأولى من إقامته في بغداد، واستجمعت قواها المدمّرة أثناء اعتكافه بجبال كردستان سنتين كاملتين. وبالرغم من أنها هدأت بعض الوقت بعد عودته من السليمانية، بفضل التأثيرات الرفيعة التي ظهرت تمهيداً لإعلان رسالته، إلاّ أنها انفجرت فيما بعد بقوة أعظم، وبلغ خطرها غايته القصوى في أدرنة. غير أن القوى القهّارة التي انطلقت بإعلان تلك الرسالة للجنس البشري كافة كالت لها الضربة القاضية.

كان قطبها ميرزا يحيى الجبان الغرّير وهو من كان قد رشّحه حضرة الباب ليخلفه والذي أشرنا إلى بعض خصاله في الصفحات السابقة. وكان الوغد الأسود القلب الذي غرّر بذلك الرجل الرخو المختال وسيطر عليه* بمهارة فائقة وإصرار شديد رجلٌ يدعى السيد محمد من أهالي إصفهان اشتهر بالطموح الشديد والعناد الأعمى والحسد الأكّال. وإليه أشار حضرة بهاء الله فيما بعد في الكتاب الأقدس بأنه هو الذي أغوى ميرزا يحيى، ووصفه في أحد ألواحه بأنه «* *جوهر الفتنة ورأس الحسد». أمّا حضرة عبد البهاء فقد وصف صلة الرجلين بأنها صلة «* الرضيع بثدي أمه المحبوب». اضطر هذا الرجل إلى ترك الدراسة بالمدرسة الصدرية بإصفهان فغادرها نادماً خجلاً، إلى كربلاء، وهناك التحق بصفوف أتباع حضرة الباب، ولكنه أظهر بعد استشهاده من علامات التذبذب ما فضح سطحية إيمانه وكشف عن ضعف

عقيدته. وكانت زيارة حضرة بهاء الله الأولى لكربلاء وما لقيه من احترام وتقدير سافر، وما أظهره له بعض الممتازين من أصحاب السيد كاظم وتلاميذه السابقين من محبة وإعجاب سبباً في إثارة الحسد والبغضاء في صدر هذا المتآمر الأهوج. ولم يكن صبر حضرة بهاء الله عليه واحتماله إياه يزيده إلا تمادياً. أما أعوانه الضالون وأدواته الطيعة التي استخدمها لتنفيذ خططه الشيطانية فكانوا عدداً غير قليل من البابيين الذين أصبحوا عرضة، وهم حائرون خائبون لا قائد لهم، لأن ينخدعوا به ويمضوا معه في طريق يناقض معتقدات قائدهم الراحل ونصائحه على خط مستقيم.

والواقع أن فلول تلك الجامعة المقهورة المغلوبة غرقت في بحار اليأس القاتل الذي بلبل أفكارهم وأضعف روحهم وزعزع إيمانهم وولاءهم، ذلك لأن حضرة الباب لم يعد بينهم، ونائبه يلتمس المهرب الأمين في جبال مازندران أو يتخفّى في ملابس الدراويش تارة وملابس الأعراب تارة أخرى، ويهيم من بلد إلى آخر، وحضرة بهاء الله يزج به في غياهب السجن ثم ينفى من وطنه، وزهرة الدين تذبل وتذوي في ساحات المذابح التي بدت بلا نهاية، فلا عجب، وقد بلغت بهم الحال هذا المبلغ، إن لم يعودوا يعتمدون على ذي سلطان ونفوذ يبدد تشاؤمهم أو يحل مشاكلهم أو يعين لهم واجباتهم والتزاماتهم.

وقد لخص النبيل مشاعره نحو الحال السائدة أثناء رحلته التي قام بها آنذاك في إقليم خراسان مشهد الانتصارات الأولى الباهرة التي أحرزها الدين المشرق، فكتب في تاريخه يقول: «أوشكت نار الله أن تخمد في كل مكان، ولم أستطع أن ألمح أي أثر للحرارة في أي موضع» أما في قزوين فقد انقسمت البقية الباقية من الجامعة إلى أربع شيع متناحرة تفتك بها الخرافات والخزعبلات. ولما جاء حضرة بهاء الله إلى بغداد، التي رأت الشواهد المشرقة على همة الطاهرة العظيمة، لم يجد من بين مواطنيه المقيمين بها إلا بابياً واحداً. ولم يكن بالكاظمين التي يسكنها الإيرانيون بصفة خاصة، إلا

حفنة من بني وطنه يقرون بإيمانهم بحضرة الباب في خوف وغموض.

نعم، لقد تدهورت خلقية هذه الجامعة المضعضعة تدهوراً كبيراً، وقلّ عددهم بصورة محزنة. ولقد بلغ بهم «العناد والحمق» مبلغاً جعل حضرة بهاء الله يصمم بعد خروجه من السجن على «* القيام بكمال الهمة على تهذيب هؤلاء النفوس».

وعلى حين تدهورت خلقية أتباع حضرة الباب الخلّص وتضاعفت الشواهد على البلبلة التي أصابتهم، كان المفسدون يتربصون هادفين إلى الاستفادة من سوء الأوضاع لمصلحتهم الشخصية. فازدادوا جرأة على جرأة، أما ميرزا يحيى الذي ادّعى أنه خليفة الباب واغترّ بألقابه الرنانة كـ«المرآة الأزلية»، و«صبح الأزل» و«اسم الأزل»، وغررت به مكائد السيد محمد الذي ارتفع به إلى مقام أول «شهود» البيان، فقد أخذ يسلك سلوكاً يحط من هيبة الدين بصورة مباشرة، ويُعرّض أمنه في المستقبل للأخطار بشكل خطير.

أما الأول [ميرزا يحيى] فقد صدمه استشهاد حضرة الباب صدمة أطارت صوابه وزعزعت إيمانه، وأخذ يهيم على وجهه فترة من الزمن في جبال مازندران متخفياً في ملابس الدراويش، وعرّض إيمان رفاقه المؤمنين من أهل نور ـ الذين اعتنقوا الدين بهمة حضرة بهاء الله ـ لامتحانات بلغ من شدتها أن تزعزعت عقيدة بعضهم، كما تمادى بعضهم الآخر إلى حد الانضمام إلى صفوف العدو. ثم تقدم إلى رشت، واختفى في إقليم جيلان إلى أن رحل إلى كرمانشاه حيث عمل عند صانع أكفان يدعى عبد الله القزويني مبالغة منه في التستر، وأصبح بائعاً لبضاعة هذا الصانع. وحين مرّ حضرة بهاء الله بهذه المدينة في طريقه إلى بغداد أبدى ميرزا يحيى رغبته في أن يعيش قريباً منه، ولكن في منزل ينفرد فيه ليمارس شيئاً من التجارة سراً. ونجح في أن يحصل منه على مبلغ من المال اشترى به عدة بالات من القطن. وقصد بغداد في زي الأعراب عن طريق مندلي. فلما بلغها أقام في شارع الفحامين الواقع في أحد الأحياء الخربة، وأخذ يمارس مهنته الجديدة، ولبس عمامة وأطلق على نفسه

اسم الحاج علي لاس فروش. وفي تلك الأثناء أقام السيد محمد في كربلاء، وانهمك مع ميرزا يحيى في إشعال نار الفتن وإزعاج المنفيين ومن التفّ حولهم.

فلا عجب إن فاضت من قلم حضرة بهاء الله، الذي لم يكن قادراً حتى ذلك الحين على أن يبوح بما يتلجلج في صدره، هذه الكلمات المحذّرة من ناحية والمطمئنة من ناحية أخرى في وقت أخذت فيه الظلال تتكاثف من حوله قال: «** أقبلت أيام الامتحان وتلاطمت بحار الافتتان بما عاث أعلام الشك فساداً في كل مكان، وقادوا الناس إلى الضلال المبين... فإياكم أن يبذر نعيق جنود النفي بذور الشك بينكم. وإياكم أن تغفلوا عن الحق المبين. فلقد حدث هذا النزاع في كل دورة إلاّ أن الله سوف يقيم دينه ويتم نوره ولو كره المضللون... ترقبوا أمر الله في كل يوم... كلٌّ أسرى قبضته فأنى يؤفكون. لا تحسبوا أمر الله شيئاً يُرضي به كل أمرئ نزواته. ولقد ادعى بعض الناس هذه الدعوى الآن في أماكن مختلفة. ولقد آن الأوان ليهلك كل واحد من هؤلاء، لا بل ليصبح غير مذكور كالتراب».

في هذه الظروف العصيبة مال حضرة بهاء الله إلى أن يختص ميرزا آقا جان «أول المؤمنين» به والملقب فيما بعد بـ«خادم الله»، برشح من مجد مقامه الذي لم ينكشف لأحد بعد. وكان ميرزا آقا جان شاباً بابياً مخلصاً، هاجر من كاشان بعد أن رأى حضرة الباب في منامه، وبعد أن قرأ بعض آثار حضرة بهاء الله، وسافر إلى العراق آملاً في أن يفوز بمحضره ومنذ ذلك الحين واظب عل خدمته أربعين سنة. وكان يؤدي ثلاث خدمات: كتابة الوحي والمرافقة والخدمة. وقد روى ميرزا آقا جان للنبيل بعد أن أدرك محضر حضرة بهاء الله بقليل ما وقع له في محضر محبوبه الذي كان ضيفاً على الحاج ميرزا حسن حكيم باشي بكربلاء. وكانت أول ليلة لحضرته بكربلاء، ليلة لا تنسى قال: «كنا في الصيف. وكان من عادة حضرة بهاء الله أن يقضي الأمسيات وينام على سطح المنزل... وحين أوى إلى فراشه في

تلك الليلة استلقيت غير بعيد عنه لآخذ قسطاً من الراحة تنفيذاً لأمره. وما كدت أقوم... لأصلي في إحدى زوايا السطح حتى رأيت هيكله المبارك ينهض من فراشه ويقبل نحوي. فلما بلغني قال (* * أأنت الآخر يقظان؟) ثم أخذ يذرع السطح جيئة وذهاباً وهو يرتل المناجاة. كيف أصف لك حلاوة الصوت والمناجاة! كان كلما خطا خطوة أو رتل آية تراءت لي آلاف من بحار الأنوار تتلاطم، وتكشفت لعيني آلاف من العوالم البهية تتلألأ وأشرقت عليّ آلاف من الشموس. وأخذ يتمشى ويرتل المناجاة في ضوء القمر. وكلما اقترب مني توقف وقال بنبرة تجل عن وصف كل واصف: (* * اسمع يا ولدي! قسماً بالله الحق الأحد! ليرتفعنّ هذا الأمر. فلا تسمع للغو أهل البيان الذين يحرفون معنى كل كلمة) وأخذ يتمشى ويرتل ويخاطبني بهذه العبارة حتى لاحت تباشير الفجر... فأنزلت فراشه إلى غرفته. ولما انتهيت من إعداد الشاي صرفني من محضره».

هذه الثقة التي اكتسبها ميرزا آقا جان عن طريق اتصاله المباشر المفاجئ بروح الظهور الجديد وعبقريته الموجهة حركت روحه من الأعماق، وهو الروح الذي اشتعل من قبل بالمحبة الفائقة التي ولدها إدراكه لتفوق مولاه الجديد على كل زملائه الأصحاب في العراق وإيران. وسرعان ما فطن ميرزا يحيى وشريكه المتآمر السيد محمد إلى هذا الحب الذي غلّف كيانه كله، والذي لم يكن في الإمكان أن يكبت أو يحتجب. أضِف إلى ذلك أن الظروف التي لابست نزول لوح «كل الطعام» ـ أثناء هذه الفترة ـ زادت الحال المتأزمة سوءاً على سوء. فقد رغب الحاج ميرزا كمال الدين النراقي البابي الممتاز في مكانته وثقافته إلى ميرزا يحيى أن يفسر له الآية القرآنية «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل» فقبل ميرزا يحيى على مضض. وكتب تفسيراً سطحياً عاجزاً أساء الحاج ميرزا كمال الدين وأفقده الثقة في صاحبه. ثم اتجه إلى حضرة بهاء الله وكرر طلبه فشرف بلوح طابق فيه حضرة بهاء الله بين إسرائيل وبنيه وبين حضرة الباب وأتباعه. فسرّ سروراً بالغاً بلطف إشاراته وجمال عباراته وتساند بحثه واستدلالاته. ولولا وقوف حضرة بهاء الله في وجهه

وشدائده الماضية والقادمة، وأسهب القول في ضلال جيله وخيانة أصحابه والتواء أعدائه، وجدد عزمه على النهوض بل وبذل النفس إذا اقتضى الأمر، لتوطيد دعائم أمره، ونبّه على الشروط اللازمة لكل باحث عن الحقيقة. وفي تفطنه إلى مصيره استعاد إلى الأذهان مأساة الإمام الحسين في كربلاء وحال حضرة محمد في مكة، وعذاب السيد المسيح على يد اليهود، ومحنة حضرة موسى على يد فرعون وآله، وكرب حضرة يوسف في الجب الذي ألقاه فيه إخوته الخونة. كانت هذه هي الفيوضات الأولى الملتهبة لروح كانت تجاهد في أن تضع حملها في عزلة نفيه الاختياري (ومما يؤسف له أن الأجيال القادمة حرمت الكثير منها). ويمكن أن تعتبر هي ولوح «كل الطعام» وقصيدة «رشح العماء» النازلة في طهران بواكير القلم الأعلى، والبشير الساعي بين يدي كتاب الإيقان والكلمات المكنونة والوديان السبعة، وهي الكتب الخالدة التي زادت من خصوبة آثاره في السنوات التي سبقت إعلان ظهوره في بغداد، ومهدت الطريق، أثناء إعلانه التاريخي، لازدهار عبقريته الإلٰهية المطرزة بطراز الألواح القوية الصادرة إلى الملوك وحكام الجنس البشري، ثم يسرت لظهوره أن يؤتي أكله آخر الأمر بنزول شرائع دورته وأحكامها في السجن الأعظم بعكاء.

ظل حضرة بهاء الله معتكفاً على ذلك الجبل حتى سعى إليه شيخ يقيم بالسليمانية وله بعض الممتلكات في تلك النواحي، وقد دفع الشيخ إلى هذه الزيارة رؤيا رأى فيها محمداً رسول الله يوجهه إليه. وبعد هذه الزيارة بقليل، زاره الشيخ إسماعيل قطب الطريقة الخالدية في السليمانية، وبعد إلحاح شديد من جانب الشيخ إسماعيل قبل حضرة بهاء الله أن يقيم في المدينة. وفي تلك الأثناء عرف أصحابه في بغداد مقرّه، فأرسلوا إليه الشيخ سلطان حما آقاي كليم يلتمس منه أن يعود. ووصل رسولهم إلى السليمانية بينما كان حضرة بهاء الله مقيماً في إحدى خلوات تكية مولانا خالد. وروى الشيخ سلطان للنبيل: «وجدت مخالطيه ومعاشريه، من أستاذهم إلى أصغر المريدين، متعلقين بحضرة بهاء الله، هائمين بحبه، شغوفين بمحضره فلا يمكنهم الصبر

على مفارقته ولا احتمال البعد عنه. وكنت على يقين من أنني لو أخبرتهم بما جئت من أجله لما ترددوا في قتلي».

ويروي الشيخ سلطان أن الشيخ عثمان شيخ الطريقة النقشبندية وقطبها، والشيخ عبد الرحمٰن شيخ الطريقة القادرية وقطبها، والشيخ إسماعيل شيخ الطريقة الخالدية وقطبها اتصلوا بحضرة بهاء الله بعد وصوله إلى كردستان بقليل فأسر قلوبهم وتفوق عليهم تفوّقاً كاملاً، أما أوّل هؤلاء وهو [الشيخ عثمان] فكان سلطان تركيا وحاشيته من جملة أتباعه. أما الثاني [الشيخ عبد الرحمٰن] فكان يسيطر بسلطان على ما لا يقل عن مئة ألف من الأتباع المخلصين، وهو الذي نزل لوح «الوديان الأربعة» فيما بعد إجابة عن سؤاله. بينما كان الثالث [الشيخ إسماعيل] يقع في نفوس مريديه موقع الشيخ خالد مؤسس الطريقة.

وحينما وصل حضرة بهاء الله إلى السليمانية لم يحسب أحد أنه على شيء من العلم أو الحكمة نظراً لما التزمه في بادئ الأمر من الصمت الشديد وما توخاه من التحفظ البالغ. وحدث أن أحد التلاميذ الذين يقومون على خدمته أطلع أساتذة تلك التكية ومريديها على شيء من كتابته البارعة. فأثار ذلك الفضول عند أساتذة تلك التكية ومريديها، وعمدوا إلى التقرب إليه واختبار درجة علمه ومدى معرفته بتلك العلوم المتداولة بينهم. وكان هذا المركز العلمي مشهوراً بأوقافه الشاسعة، وتكاياه العديدة، وصلته بصلاح الدين الأيوبي وسلالته. وفيه تخرج كثير من نوابغ أهل السنة ونشروا علومهم وأفكارهم. فزار حضرة بهاء الله وفد منه يرأسه الشيخ إسماعيل، ويتألف من أفقه العلماء وأنبغ الطلاب، ولما وجدوه على استعداد للإجابة عن أي سؤال لهم طلبوا إليه أن يوضح لهم، في عدة جلسات، الفقرات الغامضة من كتاب الفتوحات المكية لمحيي الدين ابن عربي الشهير. فكان جواب حضرة بهاء الله للوفد المثقف: «* * يشهد الله أنني لم أر قط الكتاب الذي تذكرونه، إلا أنني أعتبر ما تريدونه مني أمراً يسهل تحقيقه بقوة الله» فأمر أحدهم أن يقرأ

عليه كل يوم صفحة من ذلك الكتاب. فوضح غوامضه وحلّ معضلاته بما أغرقهم في الإعجاب. ولم يقنع بهذا بل زاد عليه بأن بيّن لهم عقلية مؤلفه، وفصّل لهم مذهبه، وأماط اللثام عن غايته وكان في بعض الأحيان يذهب إلى أبعد من هذا وذاك فيناقش صحة بعض الآراء الواردة في الكتاب، ويقدّم لهم عرضاً صحيحاً للقضايا التي أسيء فهمها، ويدعم هذا العرض بالشواهد الدامغة والبراهين المقنعة.

دهشوا لنفاذ بصيرته وعمق فهمه، فاختاروا شيئاً اعتبروه دليلاً أخيراً وحاسماً على قدرته الفذة وعرفانه الفريد الذي تجلى لهم الآن بوضوح. فقالوا وهم يبتغون المزيد من فضله: «لم يستطع أي متصوف ولا حكيم ولا عالم أن يعارض تائية ابن الفارض الكبرى حتى الآن. وإنّا لنرجو أن تنظم لنا قصيدة من نفس الوزن والقافية». فاستجاب لهم حضرة بهاء الله وأملى عليهم ما لا يقل عن ألفي بيت من نفس الوزن والقافية. ثم انتخب منها مائة وسبعة وعشرين بيتاً أذن لهم في حفظها. أما بقية الأبيات فقد اعتبرها سابقة لأوانها ولا تتفق مع احتياجات أهل العصر. وهذه الأبيات المائة والسبعة والعشرون، المعروفة بـ«القصيدة الورقائية» مألوفة لدى أتباعه الناطقين بالعربية وهي منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً.

ولقد بلغ إعجابهم بهذا الدليل على حكمة حضرة بهاء الله وعبقريته أنهم أجمعوا على أن لكل بيت من القصيدة قوة وجمالاً يفوقان كل ما احتوته قصيدتا ذلك الشاعر العظيم الصغرى والكبرى معاً.

إن هذه القصّة التي كانت أبرز الحوادث التي وقعت خلال سنتي غياب حضرة بهاء الله عن بغداد، أثارت لدى عدد متزايد من العلماء والفقهاء والمشايخ والأقطاب والأمراء الذين احتشدوا في مدارس السليمانية وكركوك الفقهية اهتماماً عظيماً، فأخذوا يتتبعون نشاطه يوماً بيوم. ففتح لهم آفاقاً جديدة بالكثير من أحاديثه وألواحه، وحل لهم المشكلات التي كانت تؤرقهم، وكشف لهم عما لم يفطنوا إليه من المعاني الخفية الغامضة في كتابات

المفسرين والشعراء وأهل الكلام، وأزال الخلاف الظاهري بين مطالب الكثير من الأبحاث والقصائد والمقالات. ولقد بلغ من إجلالهم له أن اعتبره بعضهم من «رجال الغيب»، و«قطب الكون» بينما ظن قوم آخرون أنه بارع في علوم الكيمياء والتنجيم، وذهب عدد لا يستهان به من المعجبين إلى أن مقامه لا يقل عن مقام الأنبياء بحال من الأحوال. ومهما يكن من أمر، فقد أجمع على إجلاله كل من عرفه من الأكراد والعرب والعجم سواء منهم العالم والجاهل، الرفيع والوضيع، الشباب والكهول. كما أحبه عدد ليس بالقليل منهم حباً عميقاً وأعجبوا به إعجاباً أصيلاً، كل ذلك رغم بعض التصريحات والتأكيدات التي جرت على لسانه تنويهاً بمقامه، والتي لو تحرك بها لسان غيره من بني جنسه لأثار من الغضب ما يعرّض حياته للخطر. فلا عجب إن قال حضرة بهاء الله في لوح مريم عن فترة اعتكافه إنها كانت «* أعظم حجة وأتم وأقوم برهان» على صدق ظهوره. وبهذا شهد حضرة عبدالبهاء فقال: «* * انجذبت كردستان من محبته في مدة وجيزة وفي أثناء تلك الفترة كان حضرة بهاء الله يعيش عيشة الكفاف، ويلبس ملابس الفقراء والمحتاجين، ويأكل طعام البؤساء والمساكين. إلا أن هالة الجلال كانت تحيط به كالشمس في رائعة النهار. وكان يلقى الإجلال والتكريم في كل مكان».

وبينما كان أساس عظمة حضرة بهاء الله المقبلة يوضع في أرض غريبة وبين قوم غرباء كانت حال البابيين تسير من سيّئ إلى أسوأ. فقد فرح المفسدون وجرأهم اعتكافه الطويل المفاجئ وانسحابه عن مرسح جهاده وانهمكوا هم وأعوانهم الضالون في توسيع نطاق نشاطهم البغيض. وكان ميرزا يحيى معتكفاً في داره معظم الوقت، يكاتب سراً أولئك الذين وثق بهم من البابيين ليشن حملة يجرّد بها حضرة بهاء الله من كل فضل أو مزية. وخوفاً من أن يخرج عليه خصم قوي أرسل ميرزا محمد المازندراني، أحد أعوانه، إلى آذربيجان بهدف محدد عاجل وهو أن يغتال «الديان» «مكمن لثالئ العلم الإلهي» والذي لقبه ميرزا يحيى بـ «أبي الشرور» وكناه بـ «الطاغوت» على حين شرّفه حضرة الباب بلقب «الحرف الثالث المؤمن بمن

يظهره الله». ومن فرط حماقته أغرى ميرزا آقا جان بأن يسافر إلى نور ويتحين الفرصة المواتية فيغتال الشاه. بل لقد بلغت به الوقاحة والتبجح أن ارتكب فاحشة شنعاء، وأذن للسيد محمد أن يكررها من بعده. وقد وصف حضرة بهاء الله تلك الفعلة الشنعاء بأنها «خيانة عظمى» جرّت العار على حضرة الباب، «* وأخذ الحزن جميع الأقطار». كما أمر باغتيال ابن عم حضرة الباب، ميرزا علي أكبر. وكان من أعظم المعجبين بالديان. فكان اغتياله ظلماً دليلاً جديداً على جسامة جرائمه. أما السيد محمد الذي أطلق له مولاه ميرزا يحيى العنان، فقد أكد النبيل الذي كان معه آنذاك في كربلاء أنه أحاط نفسه بشرذمة ممن لا أخلاق لهم. وأذن لهم، بل وشجعهم، على أن يختطفوا ليلاً عمائم أغنياء الزوار المجتمعين في كربلاء، وأن يسرقوا أحذيتهم، ويسلبوا مقام الإمام الحسين ويجردوه من دواوينه وقناديله، وأن يستولوا على أواني الشرب من المشارب العامة. وكان ذلك الانحطاط الذي تردى فيه من يزعمون الانتماء إلى البابية مدعاة لأن يتذكر النبيل الزهد والترفع اللذين امتاز بهما أصحاب المُلاّ حسين حين ألقوا بالذهب والفضة والفيروز على قارعة الطريق في ازدراء إطاعة لأمر قائدهم، ولأن يتذكر مسلك وحيد حين أمر ألاّ يتناول أحد شيئاً من الكنوز الثمينة التي احتواها منزله الفاخر في يزد قبل أن ينهبه العوام، ومسلك الحجة حين حرم على أصحابه المشرفين على الهلاك جوعاً أن يمسوا شيئاً من أموال الآخرين حتى ولو كان ذلك للإبقاء على حياتهم.

ولقد بلغ من جرأة هؤلاء البابيين المنحطين الضالّين ووقاحتهم أن زعم ما لا يقل عن خمسة وعشرين منهم، حسب تأكيد حضرة عبد البهاء، أنه هو الموعود الذي تنبأ به حضرة الباب. كما بلغ من خيبتهم أنهم لم يكونوا يجسرون على الظهور علانية أمام الملأ لأن الأكراد والعجم كانوا يستهزئون بهم وبدينهم وينهالون عليهم سباً وسخرية إذا صادفوهم في الطريق. فلا عجب إن وصف حضرة بهاء الله الحال التي وجد هؤلاء عليها عند عودته إلى بغداد بقوله: «* ما شاهدنا إلا عدداً قليلاً من الخاملين الذين لا روح لهم،

بل إنهم كانوا مفقودين ميتين. لم يكن هناك ذكر لأمر الله. ولم نشهد قلباً واحداً عامراً به». ولقد بلغ من حزنه بعد عودته أنه رفض أن يغادر بيته زمناً ليس بالقصير. ولم يكن يغادره إلا ليزور الكاظمين أو ليجتمع بين الحين والآخر بقليل من أصحابه في هذه المدينة أو في بغداد.

نعم، إن الحال المحزنة التي تدهورت وتطورت أثناء غيابه سنتين حتمت أن يعود. وقد بين ذلك في كتاب الإيقان بقوله: «* وأخيراً صبرنا إلى أن صدر حكم الرجوع من مصدر الأمر، ولم يكن هناك بد من التسليم له». ويروي النبيل في تاريخه أن حضرة بهاء الله أكد ذلك للشيخ سلطان فقال: «* * والله الذي لا إله إلا هو! لولا أنني أدرك أن أمر النقطة الأولى يوشك أن يمحى، وأن هذه الدماء التي سالت في سبيل الله تكاد تذهب سدى لما رضيت قط أن أرجع إلى أهل البيان، ولتركتهم وما يعبدون من أصنام صوّروها بخيالهم تصويراً».

أضف إلى ذلك أن ميرزا يحيى ألحّ في الكتابة إليه بضرورة العودة، وخاصة بعد أن رأى رأي العين ما جرّه تصريفه الأخرق لأمور الدين. ولم تكن توسلات ذوي قرباه وأصدقائه بأقل إلحاحاً، ولا سيما توسلات ابنه حضرة عبد البهاء ذي الاثني عشر ربيعاً. فقد حزت الوحدة والحزن في نفسه بحيث أقسم في سياق حديث أورده النبيل أنه شاب في صباه.

فلما عزم حضرة بهاء الله على أن ينهي فترة اعتكافه ودّع شيوخ السليمانية الذين أصبحوا آنذاك من أعظم المعجبين به، وأخلص المحبين له، كما ثبت من مسلكهم فيما بعد. ورجع على مهل مع الشيخ سلطان إلى بغداد «* * على شاطئ نهر البلايا» ولقد أكد حضرة بهاء الله لرفيقه في السفر أن أيام اعتكافه هذه «* * هي أيام السلام والهدوء الوحيدة» التي قدّر له أن يتمتع بها «* * والتي لن تكون من نصيبي من بعد ذلك أبداً».

وفي اليوم الثاني عشر من رجب ١٢٧٢ هـ (الموافق للتاسع عشر من آذار ١٨٥٦) وصل إلى بغداد أي بعد سنتين قمريتين كاملتين قضاهما في كردستان.

نفي حضرة بهاء الله إلى العراق (تتمة)

إن عودة حضرة بهاء الله من السليمانية إلى بغداد تشير إلى تحول على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لتاريخ القرن البهائي الأول. فقد أخذت أحوال الدين ترتقي بعد أن هبطت إلى أدنى المستويات، ثم قدر لها أن تستمر في الرقي والارتفاع بقوة لتصل إلى قمة عالية جديدة، ترتبط هذه المرة بإعلان دعوته عشية نفيه إلى الآستانة. نعم، بعودته إلى بغداد أخذت الأمور تستقر استقراراً لم تشهده من قبل، ذلك لأن الدين لم يكن باستطاعته أن يَدَّعي، من قبل، أن له مركزاً ثابتاً يتجه إليه أتباعه، أو يلتمسون منه الهداية، أو يستمدون منه الإلهام المستمر، اللهم إلا في سنواته الثلاث الأولى. وبعدها قضى حضرة الباب ما لا يقل عن نصف عهده القصير سجيناً في أقاصي البلاد، منقطعاً بالضرورة عن الغالبية العظمى من أتباعه. أما الفترة التي تلت استشهاده مباشرة فقد تميزت باضطراب كان أدعى للأسف من عزلته الناتجة عن حبسه الاضطراري. وحتى حين لاح الظهور الذي تنبأ به فإنه لم يشفعه إعلان مباشر يمكن الجامعة الموزعة من الالتفاف من جديد حول مخلّصهم الموعود. وقد ساعد على إطالة الاضطراب والفوضى التي مرت بها جامعة البابيين تستر ميرزا يحيى الرأس الذي عين مؤقتاً حتى يصل بهم إلى ظهور الموعود. كما ساعد عليها غياب حضرة بهاء الله عن موطنه لمدة تسعة أشهر في زيارة لكربلاء، وسجنه في سياه چال بعد ذلك بسرعة. ونفيه إلى العراق، ثم اعتكافه في كردستان.

ومهما تفاوتت نظرات البابيين لمقام حضرة بهاء الله، فقد وجدوا أنفسهم آخر الأمر قادرين على أن يركزوا آمالهم وأعمالهم حول رجل يؤمنون

بقدرته على تأمين سلامة الدين. وقد تم هذا على الرغم من أن حضرة بهاء الله لم يكن يودّ أن يبوح بسر مقامه. ومنذ ذلك الحين استقرت أمور الدين بعودتها إلى نصابها، ودورانها حول مركزها الثابت. وأصبح هذا الاستقرار من ملامح أمور الدين البارزة التي لم يحرم منها بعد ذلك أبداً بصورة أو بأخرى.

وقد لاحظنا، من قبل، أن دين حضرة الباب أشرف على الخمود نتيجة لتلك الضربات الهائلة المتلاحقة التي تلقاها. كما أن الظهور الجبار الذي تجلى على حضرة بهاء الله في سياه چال لم ينتج على الفور نتائج محسوسة تثبت أقدام الجامعة التي كادت تنهار. أضف إلى ذلك أن نفيه المفاجئ كان ضربة أخرى للجامعة التي تعلمت أن تعتمد عليه. وكان احتجاب ميرزا يحيى وتستره وخموله معجلاً لعملية التدهور والانحطاط التي بدأت من قبل. كما بدا أنّ اعتكاف حضرة بهاء الله في كردستان قد قضى عليها بالانحلال النهائي.

إلا أن الجزر الذي انحسرت أمواجه بصورة مخيفة أخذ الآن ينقلب إلى مدٍّ يشرف على الفيضان، ويحمل معه بركات نفيسة تبشر بإعلان الظهور الذي تجلى على حضرة بهاء الله سراً.

وربما لم يكن من المبالغة أن نقول إن الجامعة البهائية تحت اسم الجامعة البابية وبصورتها قد ولدت فعلاً. وأخذت تتشكل، وإن كان مؤسسها يظهر ويجاهد في ثياب أحد أصحاب حضرة الباب المتفوقين على مدى هذه السنوات السبع التي تمتد بين استئنافه جهوده وإعلانه دعوته، وهي السنوات التي نوجه إليها اهتمامنا الآن. على مدى هذه السنوات السبع اطرد اضمحلال نفوذ من كان مرشحاً لقيادة البابيين وأفول نجمه أمام إشراق نيّر قائدها الفعلي ومنقذها الحقيقي. وعلى مداها نضجت بواكير ذلك المنفي المزود بإمكانيات لا حصر لها ،وأوشكت على الحصاد. وهي فترة تدخل التاريخ على أنها الفترة التي استعادت خلالها الجامعة نفوذها واستردت هيبتها بعد أن خلقت

خلقاً جديداً، وصلحت خلقيتها صلاحاً كاملاً، ورسخ لديها الاعتراف بمن استرد لها حقوقها وأقالها من عثرتها رسوخاً حماسياً بالغاً، وازدادت فيها كتاباتها وآدابها ثراء وخصوبة، وسجلت فيها الجامعة انتصاراتها الجديدة على أعدائها الجدد.

أخذت هيبة المؤمنين، وبخاصة هيبة حضرة بهاء الله، تعلو الآن باطراد منذ ابتدائها في كردستان. وما كاد حضرة بهاء الله يتولى زمام الأمور التي تنحى عنها من قبل حتى أخذت جماهير المعجبين المخلصين الذين تركهم في السليمانية يفدون على بغداد وألسنتهم تلهج باسم «الدرويش محمد»، وأقدامهم تقودهم إلى بيت ميرزا موسى البابي. فدهش رجال الدين في المدينة، من أمثال ابن الآلوسي مفتي بغداد الشهير والشيخ عبد السلام والشيخ عبد القادر والسيد الداودي، لمنظر هؤلاء الأكراد من علماء الصوفية من أتباع الطريقة القادرية والخالدية وهم يتزاحمون بالمناكب على بيت حضرة بهاء الله. وحداهم التنافس العنصري والمذهبي إلى أن يفوزوا بمحضره هم الآخرون. فلما ظفروا منه بالإجابات الكافية الشافية عن أسئلتهم العديدة انخرطوا هم أيضاً في سلك المعجبين المقربين. ولقد أثار إقرار هؤلاء الأفذاذ بالسمات العالية التي تميز بها مسلك حضرة بهاء الله وخلقه اهتمام جمهور غفير من المشاهدين الأقل مركزاً، وأطلق ألسنتهم فيما بعد بمدحه والثناء عليه. وكان منهم الشعراء والمتصوفون والنابهون، المقيمون منهم والزائرون، وأخذ رجال الدولة، وعلى رأسهم عبد الله باشا ونائبه محمود آقا والمُلاّ علي مردان الكردي المعروف لدى هذه الدوائر الإدارية، يتصلون به شيئاً بعد شيء، وضربوا بسهمهم الوافر في إذاعة شهرته المسرعة في الانتشار. أضف إلى ذلك أن الإيرانيين النابهين المقيمين ببغداد والزائرين للمقامات المقدسة بها لم يستطيعوا أن يظلوا جامدين أمام سحر شخصيته، كما انجذب إلى دائرة معارفه وأصدقائه المتوسعة باستمرار بعض الأمراء الذين تجري في عروقهم الدماء الملكية من أمثال نائب الإيالَة وشجاع الدولة وسيف الدولة، وزين العابدين خان فخر الدولة.

أما هؤلاء الذين كانوا يسخرون من أصحاب حضرة بهاء الله وذوي قرباه ويسبونهم سراً وعلانية، أثناء غيابه عامين عن بغداد، فقد سكت معظمهم، وتظاهر عدد ليس بالقليل منهم باحترامه وإجلاله، بل لقد ادعى بعضهم أنهم أنصاره وأولياؤه، بينما اعترف آخرون بمشاركتهم إياه في عقائده وانضموا فعلاً إلى صفوف الجامعة التي تنتمي إليه. بل لقد بلغ من رد الفعل أن افتخر أحدهم بأنه قد فطن إلى دين حضرة الباب واعتنقه منذ سنة ١٢٥٠ هـ، أي قبل إعلان حضرة الباب لأمره بعشر سنوات!

وهكذا لم تمض على عودة حضرة بهاء الله من السليمانية سوى أعوام قليلة حتى انقلبت الآية تماماً. وأصبح منزل «سليمان الغنام» الذي انتقلت إليه أسرته قبيل رجوعه من كردستان كعبة القصاد والزوار والحجاج من الأكراد والعجم والعرب والأتراك، المسلمين منهم واليهود والمسيحيين. كما أصبح ملاذاً أميناً يلوذ به كل من ظلمهم ممثلو الحكومة الإيرانية أملاً في الانتصاف لهم مما لحقهم من الأذى والظلم. وكان منزل «سليمان الغنام» هذا يعرف آنذاك بمنزل موسى البابي، ولكنه عرف رسمياً فيما بعد بـ«البيت الأعظم». وهو منزل متوسط يقع في حي الكرخ على مقربة من الضفة الغربية لنهر دجلة.

وفي الوقت نفسه أخذت أفواج البابيين الإيرانيين تطغى على أمواج الزائرين المتدفقين على أبوابه الكريمة، يحدوهم الأمل في الفوز بمحضره المنير. فإذا عادوا إلى وطنهم مزودين بالشهادات الخطية والشفهية الدالة على نهضة الدين القوية وتقدمه المتزايد لم يعجزوا عن توسيع دائرة الدين الذي ولد من جديد. وكان من بين الزائرين والأصحاب المؤمنين الذين فازوا بلقائه ولمحوا سناء جلاله وأذاعوا تأثير اتصالهم بروحه أربعة من أبناء خؤولة حضرة الباب وخاله الحاج ميرزا سيد محمد، وإحدى حفيدات فتح علي شاه، وكانت من المعجبات المتحمسات بالطاهرة، وفازت بلقب «ورقة الرضوان»، والمُلاّ محمد القائني العلاّمة الملقب بـ«النبيل الأكبر»، والمُلاّ صادق الخراساني المشهور الملقب بـ«اسم الله الأصدق»، وهو الذي اضطهد مع

القدوس في شيراز اضطهاداً شنيعاً، والمُلاّ باقر أحد حروف الحي، والسيد أسد الله الملقب بـ «الديّان»، وفضيلة السيد جواد الكربلائي، وميرزا محمد حسن وميرزا محمد حسين الملقبان فيما بعد بـ «سلطان الشهداء» و«محبوب الشهداء» وميرزا محمد علي النهري، الذي تزوج حضرة عبد البهاء ابنته فيما بعد، والسيد إسماعيل الزواري، والحاج الشيخ محمد الذي لقبه حضرة الباب بـ «النبيل»، وميرزا آقاي منير الأديب الملقب بـ«اسم الله المنيب»، والحاج محمد تقي الذي قاسى كثيراً فلقب بـ «أيوب»، وملا زين العابدين الملقب بـ «زين المقربين»، وكان من أفاضل المجتهدين. أما المُلاّ محمد الزرندي، الملقب بـ«النبيل الأعظم» والذي يمكن أن يعدّ بحق شاعر حضرة بهاء الله المدّاح ومؤرخه وصحابيه النابه، فقد التحق بالمنفيين وأخذ يقوم بسلسلة رحلاته الطويلة المضنية إلى إيران لترويج أمر محبوبه.

لا، بل إن هؤلاء الذين بلغت بهم الحماقة والوقاحة إلى حد انتحال امتيازات «من يظهره الله» ومقامه سواء في بغداد أو كربلاء أو قم أو كاشان أو تبريز أو طهران، اضطروا بالسليقة إلى التماس المثول بين يديه حيث اعترفوا بخطاياهم وطلبوا الصفح والغفران. أما المهاجرون الذين أضناهم الخوف الدائم من الاضطهاد فقد أخذوا ـ على مر الأيام ـ يلتمسون هم وأزواجهم وأولادهم، الأمن النسبي الذي يكفله لهم قربهم ممن أصبح مناط أمر الجامعة المضطربة وقطب رحاها. وأخذ كبار المنفيين من العجم يجلسون عند قدميه، غير مبالين بما يمليه عليهم الاعتدال والحذر أمام نفوذ حضرة بهاء الله الصاعد، ولا مكترثين لكرامتهم وعزتهم ليرتشف كل واحد منهم من حكمته وروحه على قدر كفايته واستعداده. بل لقد حاول بعض قصار النظر من ذوي الطموح، أمثال عباس ميرزا ابن محمد شاه، والوزير نظام وميرزا ملكم خان وغيرهم من عملاء الحكومات الأجنبية، أن يفوزوا بمعونته ومؤازرته لخططهم ومشروعاتهم، الأمر الذي رفضه حضرة بهاء الله رفضاً قاطعاً. بل إن الكولونيل السير أرنولد بَرُوز كِمبل[١] القنصل العام للحكومة الإنجليزية في

---

(١) Colonel Sir Arnold Burrows Kemball

بغداد آنذاك بدأ يدرك المركز الذي شغله حضرة بهاء الله فدخل معه في مراسلات ودية بادئ الأمر، ثم عرض عليه الرعوية الإنجليزية، كما يشهد حضرة بهاء الله، وزاره بنفسه وتعهد له أن يبلغ الملكة فيكتوريا كل ما يرغب في إرساله لها. بل لقد أفصح عن استعداده للعمل على نقل حضرة بهاء الله إلى الهند أو إلى أي مكان آخر يختاره ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولاً من حضرة بهاء الله الذي فضل أن يعيش في أملاك سلطان تركيا. وأخيراً أثرت في نامق باشا الوالي آيات التقدير وعلامات الإجلال الذي يلقاه حضرة بهاء الله، فزاره في آخر سنوات إقامته ببغداد ليؤدي ما يجب عليه نحو من سيطر كل هذه السيطرة على أفئدة كل من فازوا بلقياه. وقد بلغ من احترام الوالي لمن اعتبره نوراً من أنوار العصر أنه ظل ثلاثة أشهر عاجزاً عن أن يستجمع أطراف شجاعته ليبلغ حضرة بهاء الله رغبة الحكومة التركية في أن يرحل إلى العاصمة. وفي خلال هذه الأشهر الثلاثة تلقى الوالي خمسة أوامر متوالية من عالي باشا بهذا المعنى. وفي ذات مرة انتدب حضرة بهاء الله حضرة عبد البهاء وآقاي كليم لزيارته فرحب بهما ترحيباً حاراً دفع نائب الوالي إلى أن يقول إنه لم يعرف حتى آنذاك شريفاً من أشراف المدينة لقيه وال من الولاة بكل هذه الحفاوة وهذا التشريف. والواقع أن السلطان عبد المجيد قد أذهلته التقارير الطيبة التي كتبها الولاة المتعاقبون بشأن حضرة بهاء الله بصورة جعلته يرفض الاستجابة إلى الحكومة الإيرانية التي كانت تلح في المطالبة بتسليمه إلى ممثلها، أو نفيه من الأراضي التركية (وهذا ما شهد به مندوب الحاكم بنفسه لحضرة بهاء الله).

ومنذ تلك الأيام التي كان حضرة الباب يلقى الحفاوة الحماسية من جانب الأهلين في إصفهان وتبريز وچهريق، لم يحدث أن علا أمر أحد من أقطاب الدين لدى الرأي العام كل هذا العلو، أو أثّر في دائرة من المعجبين تبلغ هذا المبلغ من الاتساع والتنوع كل هذا التأثير الفعّال البعيد المدى. وعلى الرغم من أن النفوذ الذي مارسه حضرة بهاء الله أثناء إقامته ببغداد خلال عهود الدين الأولى لم يكن له مثيل من قبل إلا أن مداه كان متواضعاً

في تلك الفترة إذا قيس بعظمة ما بلغه الدين من شهرة في أواخر العصر نفسه في أوروبا وأمريكا عن طريق اتصالهما المباشر بمركز الميثاق وإلهامه المحيط.

ولم تتجلّ سيادة حضرة بهاء الله في ناحية قدر ما تجلت في قدرته على توسيع نظرة الجامعة التي ينتمي إليها وتحويل طبيعتها. فعلى الرغم من أنه كان بابياً، اسماً وانتماءً، وأن شريعة البيان ملزمة ولا يمكن تخطيها، إلا أنه استطاع أن يلقنهم من المستويات الخلقية ما يفوق أرفع المبادئ التي قررتها الدورة البابية دون المساس بمعتقداتها الأساسية. كما أنه وضح الحقائق الأساسية الصحيحة التي اعتنقها حضرة الباب، والتي كانت مبهمة أو مهملة أو مفسرة تفسيراً خاطئاً، وأكدها من جديد، وأدخلها في حياة الجامعة المتماسكة، وألهم بها أرواح أفرادها. ومن أبرز ملامح الدستور الخلقي الذي تكامل بفضل ما نزل في غضون تلك السنوات من قلم حضرة بهاء الله المثابر من كتب ومقالات وألواح، التنبيه على انفصال الدين البابي عن كل صورة من صور النشاط السياسي وعن كل الهيئات والجمعيات السرية والشيع والأحزاب والطوائف، والتأكيد على مبدأ التسامح، ووجوب طاعة السلطة القائمة طاعة مطلقة، والنهي القاطع عن كل صورة من صور الفساد والغيبة والنميمة والانتقام والجدال، والتشديد على التقوى والورع والتراحم والتواضع والأمانة والصدق والعفة والاستقامة والعدل والصبر والمعاشرة بالروح والريحان والمحبة والوئام، وعلى تعلم الفنون والعلوم، وعلى إنكار الذات والانقطاع عما سوى الله والثبات والتوكل على الله.

عن طبيعة هذه الجهود التي بذلها حضرة بهاء الله في أثناء تلك المدة وعن نتائجها كتب يقول: «* بعد ورودنا نزلت الآيات كالغيث الهاطل بالعون الإلهي والفضل الرباني، وأرسلناها إلى كل الجهات. ونصحنا العباد، وبخاصة هذا الحزب، بالنصائح المشفقة والمواعظ الحكيمة، ونهيناهم عن الفساد والنزاع والجدال والمحاربة إلى أن تبدلت بفضل الله الغفلة والجهل

بالبر والعرفان والسلاح بالإصلاح». وأكد حضرة عبد البهاء ذلك بقوله: «* بعد رجوع حضرة بهاء الله [من السليمانية] بذل الجهد البليغ في تربية هذه الطائفة وتعليمها وتهذيبها وتنظيمها وإصلاح أحوالها. فزالت جميع هذه المفاسد وهدأت تلك الفتن، ونزلت السكينة على قلوب الناس». وقال مرة أخرى: «* فلما استقر هذا الأساس في قلوب هذه الطائفة تصرفوا في جميع البلاد تصرفاً جعلهم يشتهرون عند ولاة الأمور بسلامة الطوية وصحة النية وطهارة القلب وجمال الأعمال وحسن الأخلاق».

ولعل خير ما يمثل طبيعة تعاليم حضرة بهاء الله الحميدة المنتشرة في غضون هذه الفترة، ما قاله حضرته في تلك الأيام لأحد رجال الدولة بعد أن ذكر لحضرته أنه تردد في توقيع العقوبة على مذنب ادّعى المحبة لحضرة بهاء الله قال: «* * أخبره بأنه لا يستطيع أحد في هذا العالم أن يدعي أن له بي صلة إلا هؤلاء الذين يقتدون بي عملاً وخلقاً. فتعجز كل الأمم عن أن تمنعهم عن فعل ما هو لائق أو قول ما هو مقبول». ثم قال لهذا الرجل من رجال الدولة: «* * إليك أخي ميرزا موسى الذي هو ابن أبي وأمي والذي صحبني منذ طفولته حتى الآن. لو أتى ما يخالف مصلحة الملك أو صلاح الدين وثبت عليه جرمه في نظركم لسرني ما تفعلون به وأرضاني حتى لو قيدتموه بالسلاسل وألقيتم به في بحر ليغرق دون مبالاة منكم بوساطة أحد». وفي مقام آخر كتب ينبه على نقمته على أعمال العنف: «* * لأنْ يؤذي أحدكم ابناً من أبنائي أو فرداً من ذوي قرباي لأحب عندي وأحسن من أن يتعرّض على نفس».

كتب النبيل يصف الروح الذي هيمن على البابيين في بغداد بعد إصلاحهم فقال: «بالغ المحيطون بحضرة بهاء الله في العناية بتطهير أرواحهم حتى أنهم لم يكونوا ينطقون بكلمة قد لا تتفق مع إرادة الله أو يخطون خطوة قد تخالف رضاه» وروى أن «كل إنسان دخل مع زميل له في حلف اتفقا فيه على أن يعاقب أحدهما الآخر بعدد من الضربات على باطن القدم يتناسب مع جسامة الذنب الذي ارتكب ضد المستويات الخلقية الرفيعة التي تعاهدا على

رعايتها». ويصف علو همتهم بقوله: «كان مذنبهم يمتنع عن الطعام والشراب حتى ينال الجزاء الذي يستحقه».

ولم يكن هذا التحويل الكلي الذي أحدثته كلمات حضرة بهاء الله المنطوقة والمكتوبة في مظهر أصحابه ومخبرهم يقلّ عن الإخلاص المشتعل الذي أضرمته محبته في أرواحهم. فلقد تملك المنفيين في بغداد وألهب كيانهم كله آنذاك حماسة متأججة وهمة عالية تنافسان الحماسة التي اشتعلت في قلوب أصحاب حضرة الباب في أسمى حالاتهم. وقد وصف النبيل خصوبة ذلك الإحياء الروحي الجبار فقال: «لقد أسكرت نسمات فجر الظهور الإلهي كل فرد وغمرته حتى لقد ظننت كل شوكة أنبتت أكواماً من البراعم والزهور، وحسبت كل بذرة أخرجت محصولاً لا حصر له». وسجل المؤرخ نفسه «إن الغرفة المعدّة في البيت الأعظم لاستقبال زوار حضرة بهاء الله كانت تنافس الفردوس رغم تداعيها وتقادمها لكثرة ما وطئتها أقدام المحبوب. وبدا أنها تزحم السماء رغم أن سقفها كان منخفضاً، كانت كالمغناطيس تجذب إليها قلوب الأمراء رغم أنها لم تكن تحتوي إلا على كرسي واحد صنع من خشب النخيل، وكان مالك الأسماء يأبى إلا أن يجلس عليه».

سحرت غرفة الاستقبال هذه لب شجاع الدولة رغم بساطتها الخشنة حتى أنه أفصح لزملائه من الأمراء عن نيته في أن يبني مثيلة لها في داره بالكاظمين. ويروى أن حضرة بهاء الله بلغه ذلك فقال مبتسماً: «** ربما نجح في تقليد الأبعاد المضبوطة لهذه الغرفة المبنية بالطين والتبن وذات السقف المنخفض في حديقتها الصغيرة. ولكن من له بشق الأبواب الروحانية إلى عوالم الغيب الإلهي!؟». وقد وصف أمير آخر، وهو زين العابدين خان فخر الدولة، الجو الذي كان يسود غرفة الاستقبال هذه فقال: «لا أدري كيف أصفها لك. ولكن إذا جثمت كل الأحزان على صدري شعرت بأنها تبدّدت في محضر حضرة بهاء الله. فكأنما دخلت الجنة».

ومن الأمور التي سوف تظل، عبر القرون والأجيال، مقترنة بتلك الفترة الخالدة الفاصلة بين ميلاد ظهور حضرة بهاء الله وإعلان ذلك الظهور عشية رحيله عن العراق، تلك الاحتفالات البهيجة التي كان الأصحاب يقيمونها تكريماً

لمحبوبهم رغم ضيق ذات يدهم، والاجتماعات الممتدة حتى ساعات متأخرة من الليل يتغنون أثناءها في مناجاتهم وأشعارهم وأغانيهم بمحامد حضرة الباب والقدوس وحضرة بهاء الله، والصوم الذي كانوا يلتزمون به، وصلوات الأسحار التي كانوا يواظبون عليها، والرؤى والأحلام التي كانت تلهب أرواحهم فيرويها بعضهم لبعض بكل المشاعر الفياضة المنطلقة، وتلك الهمة التي كان يؤدي بها القائمون بخدمة حضرة بهاء الله أعمالهم، ويستجيبون بها لمطالبه، ويحملون بها قرب الماء الثقيلة لوضوئه وللاستعمال المنزلي، والفلتات الرائعة التي كانت تتم على أيديهم من حين لآخر في ساعات النشوة؛ وتعبيرات العجب والإعجاب التي كانت أعمالهم وأقوالهم تنتزعها من أفواه الناس الذين قلما شاهدوا مثل هذه الشواهد على التدين والإخلاص. وغير هذا كثير.

نعم، عديدة ورائعة تلك القصص التي رواها كل من دفعهم الواجب أو الرغبة أو الصدفة أو الفضول إلى الاتصال اتصالاً مباشراً بحضرة بهاء الله في هذه السنوات الشداد، كثيرة ومثيرة للعواطف شهادات كل من امتاز من المشاهدين العابرين باستجلاء طلعته أو ملاحظة خطوته أو الاستماع إلى ملاحظاته وهو يسير في شوارع المدينة وأزقتها، أو يذرع شاطئ النهر، وشهادات المصلين الذين رأوه يصلي في المساجد، والمتسولين الذين تلقوا إحسانه؛ والمرضى الذين شفاهم وأبرأهم من أسقامهم؛ والشيوخ الذين أعانهم، والبؤساء الذين واساهم؛ والزائرين، من أمراء وفقراء، الذين فازوا بمحضره وامتثلوا بين يديه، والتجار والصناع والباعة الذين قاموا على خدمته ولبّوا حاجاته اليومية؛ والمنقطعين الذين فطنوا إلى مجده المستور؛ وأعدائه الذين أفحمتهم قوة بيانه وجردتهم حرارة محبته من سلاحهم؛ ورجال الدين ورجال الدنيا والأشراف والعلماء الذين سعوا إليه إما تحدياً لسلطانه وإمّا اختباراً لعلمه وإما استفساراً عن دعاويه وإما اعترافاً بعجزهم أمامه، وإما إعلاناً لاعتناقهم لدينه.

من هذه الخزانة التي تكتنز كل تلك الذكريات النفيسة، قد يفي بغرضي أن أسرد مثالاً واحداً هو قصة أحد عشاقه المخلصين، السيد إسماعيل الزواري الملقب بـ «الذبيح»، وكان في سابق عهده فقيهاً نابهاً ملحوظاً صموتاً مفكراً منصرفاً عن الدنيا وما فيها. وكان عمله المفضل الذي يتباهى به ويفتخر كنس مداخل بيت حضرة بهاء الله. كان ينهض مع الفجر ليجمع الغبار الذي وطئته أقدام محبوبه وينفض التراب من شقوق الجدار الملاصق لباب البيت، بعد أن يخلع عمامته الخضراء، علامة نسبه الشريف، ويضع ما كنسه في حجر عباءته ويمضي به إلى شاطئ النهر ويذروه في الماء خوفاً من أن تطأه أقدام الآخرين. ولما عجز في النهاية عن أن يحتمل خضمّ المحبة الذي يتموج به روحه امتنع عن الطعام والمنام أربعين يوماً وليلة. ثم أدى لآخر مرة تلك الخدمة التي يحبها قلبه، وانطلق ذات يوم إلى شاطئ النهر على طريق الكاظمين، وتوضّأ ثم استلقى على ظهره مواجهاً بغداد، وحزّ عنقه بموسى، ووضع الموسى على صدره وأسلم الروح (سنة ١٢٧٥ هـ).

ولم يكن الوحيد الذي أضمر نية القيام بهذه الفعلة وصمم على تنفيذها. بل إنّ كثيرين كانوا على استعداد للاقتداء به لولا أن حضرة بهاء الله تدخل بحزم وسرعة. فأمر المهاجرين المقيمين ببغداد أن يعودوا إلى وطنهم على الفور. وحين تأكدت السلطات تماماً أن «الذبيح» قتل نفسه ولم يقتله أحد غيره لم تستطع أن تتجاهل هذا الدين الذي يبعث رئيسه في قلوب محبيه كل هذا الإخلاص النادر، ويسيطر على أفئدتهم كل هذه السيطرة المطلقة. ويروى أن حضرة بهاء الله بلغه ما أثار هذا الحادث في بعض دوائر بغداد فقال: «** لقد توفر للسيد إسماعيل من القوة والقدرة ما لو قاومته أمم العالم لغلبها على أمرها دون جدال». ويروى كذلك أنه أشار إلى «الذبيح» الذي لقبه بـ «سلطان الشهداء ومحبوبهم» فقال: «** ما سال على الأرض حتى اليوم من دم أطهر ولا أزكى من دمه».

ولقد شهد النبيل الذي كان شاهد عيان لكثير من هذه القصص المثيرة

فقال: «بلغ من سكر المرتشفين من كأس محضر حضرة بهاء الله أن قصور الملوك بدت لعيونهم أوهن من خيوط العنكبوت... وكانت ضيافاتهم ومباهجهم من الروعة بحيث لا يحلم بمثلها ملوك الأرض». وروى أنه سكن مع اثنين غيره غرفة خالية من الأثاث. وذات يوم دخلها حضرة بهاء الله فقال وهو يتلفت حوله: «إن خلوها يروقني. وهي عندي أفضل من كثير من القصور ما دام أحباء الله يشتغلون فيها بذكر محبوبهم بقلوب منقطعة عن شؤون الدنيا». والواقع أن حياة حضرة بهاء الله امتازت بذلك التقشف وتلك البساطة التي امتازت بها حياة أحبائه. وقد أكد في أحد ألواحه أنه «* * أتى على جمال القدم في العراق حين من الدهر... لم يكن له فيه سوى قميص واحد، يغسل ويجفّف ويلبس من جديد».

ويمضي النبيل في وصف حياة الأصحاب السكارى النشاوى الغافلين عن أنفسهم فيقول: «كم من ليلة لم يزد فيها طعام العشرة منهم عن حفنة من التمر تشترى بفلس. ولم يكن أحدهم يدري على وجه التحقيق شيئاً عما يجده في بيته من الأحذية والعباءات والملابس أهي ملكه هو أم ملك غيره. ولكن كل من ذهب إلى السوق ادّعى أن الحذاء الذي ينتعله حذاؤه، وكل من يحظى بمحضر حضرة بهاء الله يؤكد أن الثوب الذي يلبسه هو ثوبه! أما أسماؤهم فقد نسوها، أما قلوبهم فقد فرغت من كل شيء إلا ذكر محبوبهم وتقديسه! فآه آه لهاتيك الأيام الغوالي ولحلاوة تلك السويعات العجيبة».

ومن العلامات الأخرى المميزة لهذه الفترة التي نحن بصددها ذلك التوسع العظيم في أفق آثار حضرة بهاء الله وحجمها بعد عودته من السليمانية. ولقد أسهمت الآيات المتدفقة من قلمه الأعلى في غضون تلك السنوات في إصلاح الجامعة البابية وتقدمها إلى درجة عظيمة، وتوسيع نظرتها وتكثير فعالياتها ومناشطها، وتنوير عقول أعضائها. وكانت هذه الآثار في صورة مكاتيب وتفاسير ودعوات ومناجاة، ودفاعيات ومقالات، ونبوءات وابتهالات. وقد وصفها حضرة بهاء الله جميعاً بأنها «كالغيث الهاطل». ولقد

بلغ من خصوبة هذه الفترة أن الآيات غير المدونة المتدفقة من بين شفتيه كل يوم وليلة طيلة السنتين الأوليين من عودته كانت تعدل القرآن بشهادة النبيل الذي كان يقيم ببغداد في تلك الأثناء. أما الآيات التي كان يمليها أو يكتبها بخط يده فكان عددها لا يقل ضخامة عن خصوبة مادتها وتنوع موضوعاتها. ومما يؤسف له أن مقداراً عظيماً منها، بل قل غالبيتها، قد ضاع على الأجيال القادمة ضياعاً لا يُعوَّض. ويروي النبيل عن مصدر ثقة هو ميرزا آقا جان كاتب وحي حضرة بهاء الله أن مئات الألوف من الآيات التي كتب معظمها بخط يده محيت وألقيت في النهر بأمر قاطع من حضرة بهاء الله، قال ميرزا آقا جان للنبيل: «كان حضرة بهاء الله يرى عدم رغبتي في تنفيذ أوامره فيطمئنني بقوله: (ليس هناك من يستحق أن يستمع إلى هذه النغمات في هذا الزمان)... ولم أؤمر بالقيام بهذه المهمة مرة أو مرتين بل مرات ومرات!». أما من يسمى بمحمد كريم الشيرازي الذي شهد سرعة حضرة الباب وحاله عند تحبير الآيات التي يلهم بها فقد ترك للأجيال القادمة شهادته بعد أن فاز في تلك الأيام بمحضر حضرة بهاء الله ورأى بعينيه ما اعتبره الدليل الوحيد على صدق دعوى الموعود. قال: «أشهد أن الآيات التي أنزلها حضرة بهاء الله كانت في سرعة تحبيرها وسهولة تدفقها ويسر انطلاقها ووضوحها وعمقها وحلاوتها تفوق تلك التي رأيتها بعيني رأسي تنهمر من قلم حضرة الباب عندما فزت بمحضره. ولو لم يكن لحضرة بهاء الله من دعوى يمت بها إلى العظمة سوى هذا لكفى الناس والعالم أن تتدفق كل هذه الآيات اليوم من قلمه».

ومن أبرز الكنوز النفيسة التي ألقى بها خضم إلهام حضرة بهاء الله الموّاج كتاب «الإيقان» الذي نزل في السنوات الأخيرة من هذه الفترة (١٢٧٨ هـ = ١٨٦٢ م) في بحر يومين وليلتين لا أكثر! تحقيقاً لنبوءة حضرة الباب الذي نصّ على أن الموعود سوف يتم نصّ البيان الفارسي الذي لم يكمل، وإجابة عن الأسئلة التي وجهها إلى حضرة بهاء الله الحاج ميرزا سيد محمد (وهو خال لحضرة الباب لم يكن قد آمن بعد) أثناء زيارته لكربلاء مع

أخيه الحاج ميرزا حسن علي. وهذا الكتاب الذي يبين معالم الخطة الإلٰهية المخلّصة نموذج للنثر الفارسي بأسلوبه الناصع الأصيل المتدفق، ووضوحه الملحوظ، وتسانده في البحث، وبراعته الملزمة في البلاغة. ولذلك فهو يحتلّ منزلة لا تدانيها منزلة أي كتاب آخر من مجموع الآداب البهائية على الإطلاق باستثناء الكتاب الأقدس الذي هو أقدس كتب حضرة بهاء الله. ولما كان قد نزل عشية إعلان حضرة بهاء الله لدعوته فقد قدّم للجنس البشري «الرحيق المختوم» الذي ختامه «مسك»؛ وفض أختام «السفر» التي أشار إليها دانيال، وأزاح الستار عن معاني «الكلمات» التي قدر لها أن «تخفى وتختم» إلى «وقت النهاية».

في حدود مائتي صفحة يعلن الكتاب إعلاناً لا لبس فيه ولا غموض وجود إله واحد غيب منيع لا يدرك ولا يُحَدّ ولا يشار إليه؛ مصدر كل وحي وإلهام، أبدي أزلي، عليم قدير محيط؛ وينبّه على أن الحقيقة الدينية حقيقة نسبيّة، وأن الوحي الإلهي مستمر، ويؤكد وحدة الأنبياء وشمول رسالتهم واتفاق تعاليمهم الأساسية وصحة كتبهم المنزلة المقدسة، ويبين طبيعة مقامهم المزدوج، ويندد بعمى العلماء وضلالهم في كل عصر فهم علة الإعراض والاعتراض، ويوضح آيات الإنجيل المرموزة، ومتشابهات القرآن الكريم وغوامض الأحاديث الشريفة، تلك التي غذّى رمزها وتشابهها وغموضها الشكوك والضلالات والحزازات والعداوات المزمنة التي شطرت أتباع ديانات العالم العظمى فرقاً ومزقتهم شيعاً وأحزاباً، ويعدد المطالب الجوهرية التي لا غنى عنها لكل باحث مخلص يسعى وراء هدفه ومطلبه، ويظهر صحة الظهور البابي وسمو دلالته، ويثني على بطولة أصحابه وانقطاعهم، ويتنبأ بالانتصار العالمي الشامل الذي يحرزه الظهور الذي وعد به أهل البيان، ويعلن إيمانه بطهارة السيدة مريم العذراء وبراءتها ويمجد أئمة دين حضرة محمد، ويتوجع لاستشهاد الإمام الحسين ويمجد سيادته الروحية، ويكشف عن أسرار مصطلحات مثل «الرجعة» و«البعث» و«خاتم النبيين» و«يوم القيامة». ويعرض المراحل الثلاث للظهورات الإلٰهية ويميز بينها، ويسهب القول بعبارات مشرقة في ذكر مفاخر ومحامد «مدينة الله» التي يجددها، على فترات مقدرة، ظهور العناية الربانية لهداية الجنس البشري وخلاصه وتأمين منفعته ومصلحته. ويمكننا

أن ندّعي بحق أن هذا الكتاب وحده، دون سواه من سائر الكتب التي أنزلها مؤسس الأمر البهائي، قد وضع الأساس الراسخ العريض للوفاق الدائم الكامل بين أتباع الأديان العالمية العظمى بفضل تحطيمه للحواجز العتيدة العريقة التي فرقتها تفريقاً لا يمكن تخطيه ولا تجاوزه.

يتلو خزانة الكنوز النفيسة الفذة هذه تلك المجموعة الرائعة من العبارات الدرية، ونعني بها «الكلمات المكنونة» التي أوحي بها لحضرة بهاء الله وهو يتمشى على شاطئ دجلة مستغرقاً في التأمل. نزلت سنة ١٢٧٤ هـ بعضها بالفارسية، وبعضها الآخر بالعربية. وكانت تدعى في الأصل «الصحيفة المخزونة الفاطمية»، ولقد طابق صاحبها بينها وبين الكتاب الذي يحمل نفس العنوان، والذي تؤمن الشيعة بأنه في حوزة القائم الموعود، وبأنه يتألف من كلمات غراء توجه بها جبريل، بأمر من الله، إلى فاطمة الزهراء وأملاها على الإمام علي لتقديم العزاء لها ساعة محنتها وحزنها المرير على موت أبيها العظيم. ومن افتتاحيتها التي يصف فيها صاحبها طبيعتها يمكن أن تتضح دلالة هذه الخميرة الروحية الفعّالة النشيطة التي ألقيت في حياة العالم لرد عقول الناس إلى نصابها وتشييد صرح أرواحهم وتطهير مسلكهم.

«هذا ما نزل من جبروت العزة بلسان القدرة والقوّة على النبيين من قبل. وإنا أخذنا جواهره وأقمصناه قميص الاختصار فضلاً على الأحبار ليوفوا بعهد الله ويؤدوا أماناته في أنفسهم، وليكونن بجوهر التقى في أرض الروح من الفائزين».

وإلى هذين الأثرين البارزين في الأدب الديني العالمي اللذين يحتلان من آثار مؤسس الدورة البهائية في أصول الدين ومبادئ الأخلاق منزلة على أعظم جانب من الأهمية. أضيف في أثناء الفترة نفسها كتاب «الوديان السبعة» الذي يعد أعظم آثاره العرفانيّة. كتبه صاحبه جواباً عن أسئلة الشيخ محيي الدين قاضي خانقين يعين له فيه المراحل السبع التي تسلكها روح السالك قبل أن يبلغ غاية وجوده.

ومما أسهم، كلٌّ على طريقته، في تفجير «كوثر البقاء»: «الوديان الأربعة» الموجهة إلى الشيخ عبد الرحمٰن الكركوكي، ولوح «ملاح القدس» الذي يتنبأ فيه حضرة بهاء الله بالبلايا والمحن التي سوف تنزل به، ولوح «الحورية» الذي يتنبأ فيه بأمور تحدث في المستقبل البعيد، و«سورة الصبر» النازلة في أول أيام الرضوان، والتي يثني فيها حضرة بهاء الله على وحيد وزملائه الصابرين على البلاء في نيريز، وتفسير الحروف المقطعة في أوائل سُوَر القرآن الكريم، وتفسيره لحرف الواو المذكور في آثار الشيخ أحمد الأحسائي وكذلك الفقرات الغامضة التي وردت في مؤلفات السيد كاظم الرشتي، ولوح «مدينة التوحيد» و«الصحيفة الشطية» و«مصيبات الحروفات العاليات»، و«تفسير هو» و«جواهر الأسرار»، وكثير من الآثار الأخرى النازلة على هيئة الألواح والمناجاة والمواعظ والألواح الخاصة، والتفاسير والدعوات والصلوات والابتهالات. كان «كوثر البقاء» هذا يتدفق من «دار السلام» فزوّد الدين البابي في إيران والعراق بقوة انتشار عظيمة منعشة لأرواح أتباعه محوّلة لطبائعهم.

تلك الشواهد الدامغة الدالة على قوة حضرة بهاء الله الناهضة ومداها، وهذه السرعة التي كان نفوذه ينمو بها، وذلك التحويل المعجز الذي أحدثه في طبيعة أصحابه المنتشرين بين بغداد وأقصى مدن إيران وقراها، بأقواله وأعماله، وهذه المحبة البالغة التي كانت صدورهم تشتعل بها له، وهذا القدر العجيب من الآثار التي كانت تفيض من قلمه ليل نهار، كل هذا عمل على إضرام نار العداوة والبغضاء في صدور أعدائه من الشيعة والسنة على السواء. ولم يعد الصراع بين سناء مجده الصاعد وقوى التعصب الديني الغاشمة يحتمل التأجيل ولا الإرجاء خاصة وأنه أصبح يقيم على مقربة من معاقل الشيعة، وأصبح يتصل كل يوم اتصالاً مباشراً بالزوار المتعصبين المتدفقين على المزارات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمين. وكان كل ما يتطلبه الموقف شرارة واحدة لتشعل تلك المادة السريعة الالتهاب ونعني بها الأحقاد

والحزازات والمخاوف التي أثارها استئناف البابيين لنشاطهم. ولقد تكفل بإشعال هذه الشرارة رجل يدعى الشيخ عبد الحسين، وهو شيخ لئيم عنيد لم يفق حسده الشديد لحضرة بهاء الله إلا قدرته على إثارة القلاقل والفتن بين ذوي المناصب العالية وبين سفلة القوم من العرب والعجم الذين كانت تزدحم بهم الشوارع والأسواق في الكاظمين وكربلاء وبغداد. وقد وصفه حضرة بهاء الله في ألواحه بـ«الخسيس» و«الدساس»، و«الخبيث» الذي «جرد سيف نفسه على وجه الله» و«وسوس الشيطان في نفسه» و«الذي يفرّ الشيطان عن كفره»، «الفاجر»، «ما من ظلم وما من فسق إلا وقد بدأ من هذا الشقي وسيعود كل ذلك إليه». وكان الصدر الأعظم يريد التخلص من هذا المجتهد المزعج فكلفه الشاه بالتوجه إلى كربلاء ليصلح من شأن الأماكن المقدسة فيها. فانتهز الفرصة وتحالف مع ميرزا بزرك خان قنصل إيران العام الجديد. فوقع هذا تحت تأثير ذلك المتآمر الخسيس وأصبح أداة طيعة لمكائده وخططه. وقد جمع بينهما الاتجاه إلى النوايا الشريرة، فضلاً عن أن القنصل كان سكيراً خميراً ماكراً فاجراً منافقاً لا شرف له ولا وجدان.

وكان أول مجهود مشترك لهما تشويه الحقائق تشويهاً جسيماً بغرض الحصول من مصطفى باشا والي بغداد على أمر بتسليم حضرة بهاء الله وأصحابه. وقد فشل هذا المجهود فشلاً ذريعاً. فلما تأكد الشيخ عبد الحسين أنه لن يصل إلى غايته عن طريق تدخل السلطات المحلية أخذ يلفق أحلاماً يدعي أنه رآها ثم يفسرها بما يثير ثائرة الأهلين المؤمنين بالخرافات السريعي الانفعال، ولكن الناس لم يستجيبوا له. فاستاء وزاد من استيائه عجزه عن مواجهة التحدي حين أعدّ له مجلس يجتمع فيه بحضرة بهاء الله. أما ميرزا بزرك خان فقد استغل نفوذه ليثير عداوة سفلة الناس ضد العدو المشترك ويحرّضهم على سبّه علانية عسى أن تقع حادثة انتقام تصلح لأن يبني عليها تهماً كاذبة تمكنه من الحصول على الأمر المأمول بتسليم حضرة بهاء الله. ولكن هذه المحاولة فشلت هي الأخرى، فقد استمر حضرة بهاء الله يمشي في شوارع المدينة ليلاً ونهاراً دون حارس يحرسه رغم إشارات أحبائه

وتوسلاتهم. وكان ذلك كافياً لأن يملأ صدور مضايقيه بالخوف والخزي. بل إنه كان يقترب منهم وهو يعلم بما يريدون في نفوسهم، ويمازحهم بشأن ذلك ويداعبهم ويتركهم مضطربين عازمين على الانصراف عن تنفيذ ما كانوا يدبرون له من مكائد وخطط ولقد ذهب القنصل العام إلى حد أنه دفع مائة تومان لعربيد تركي يسمى رضا، وأعطاه جواداً ومسدسين، وأمره أن يبحث عن حضرة بهاء الله ويغتاله، ووعده ببسط حمايته وضمن له سلامته. وذات يوم علم رضا هذا بأن ضحيته المنتظرة يغتسل في الحمام العام، فغافل البابيين القائمين على الخدمة وواجه حضرة بهاء الله في غرفة الحمام الداخلية، وسرعان ما اكتشف أن شجاعته خانته فلم ينفذ مهمته. وبعد سنوات روى رضا هذا أنه تربص لحضرة بهاء الله ذات مرة ومسدسه في يده. إلا أنه حين رآه يقترب منه غلبه الخوف وسقط المسدس من يده. عند ذلك أمر حضرة بهاء الله آقاي كليم الذي كان يرافقه أن يناوله المسدس وأن يصحبه إلى داره!

ولما عجز الشيخ عبد الحسين عن بلوغ هدفه الخبيث رغم كل محاولاته لجأ إلى وسيلة أخرى. فوعد شريكه بأن يرفعه إلى مقام الوزير إن هو نجح في حمل الحكومة الإيرانية على إعادة حضرة بهاء الله إلى طهران حيث يسجن مرة أخرى. فأخذ القنصل يرسل إلى حاشية الشاه تقارير مسهبة كل يوم تقريباً يهوّل فيها نفوذ حضرة بهاء الله، ويدّعي أنه تحالف مع قبائل البدو بالعراق، ويزعم أنه أصبح في إمكانه أن يحشد في بحر يوم واحد مائة ألف مقاتل يأتمرون بأمره، ويتهمه بالتآمر على الشاه مع بعض زعماء إيران. وبهذه الوسيلة نجح في الضغط على سلطات إيران بحيث فوّضه الشاه في الأمر تفويضاً كاملاً داعياً العلماء والموظفين الإيرانيين إلى تقديم كل عون ومساعدة له. فأرسل الشيخ هذا التفويض إلى رجال الدين في كربلاء والنجف، وطلب إليهم أن يعقدوا اجتماعاً في الكاظمين حيث يقيم. واستجاب له جمع من الشيوخ والملاوات والمجتهدين الحريصين على إرضاء الشاه. فلما علموا بالغرض من الاجتماع عقدوا العزم على أن يعلنوا الجهاد

على مستعمرة المنفيين ويقضوا على الدين في مهده بشن غارة مفاجئة عليها واستباحتها. فلما عرف نيتهم مجتهدهم الأكبر الشيخ مرتضى الأنصاري الشهير المعروف بتسامحه وحكمته وإنصافه المطلق وورعه وتقواه ونبل خلقه، رفض أن يقرّ الحكم الذي أصدروه على البابيين. وكان ذلك سبباً لدهشتهم واستيائهم. وقد أثنى حضرة بهاء الله فيما بعد على هذا المجتهد في لوح «السلطان» وحشره في زمرة «* العلماء الذين شربوا في الحقيقة من كأس الانقطاع» و«* لم يتعرض لهذا العبد قط» وإليه أشار حضرة عبد البهاء بـ «العالم النحرير الجليل والفاضل الشهير، خاتمة المحققين». وغادر الاجتماع رغم اعتراض زملائه، محتجاً بقلة معرفته بعقائد هذه الجماعة، مؤكداً أنه لم ير في أعمالهم ما يخالف القرآن. وعاد إلى النجف بعد أن كتب رسالة لحضرة بهاء الله يعبر فيها عن أسفه لما حدث، ويفصح عن رغبته الصادقة في حمايته.

خاب مسعى العلماء المجتمعين وخمدت عداوتهم، فانتدبوا من بينهم الحاج المُلاّ حسن عمو الفقيه المخلص المعروف بأصالته وحكمته ليعرض على حضرة بهاء الله بعض المسائل ملتمساً شرحها وتوضيحها. فلما عرض الرسول هذه المسائل وفاز بالإجابات الشافية الوافية، أكد تبحر حضرة بهاء الله في العلم، والتمس أن يأتي حضرة بهاء الله بمعجزة تدلل على صدق دعواه، ويقنع بها كل من يهمه الأمر. فأجاب حضرة بهاء الله: «* * مع أنه ليس لك أن تسأل هذا، لأن الحق هو الذي يمتحن الخلق، وليس الخلق هم الذين يمتحنون الحق، إلا أنني أقبل هذا الطلب... وعلى العلماء أن يجتمعوا ويتفقوا جميعاً على معجزة معينة؛ وعليهم أن يكتبوا بأنهم لن يخامرهم الشك في أمرنا بعد الإتيان بها، وأنهم يقرون ويعترفون بصحة دعواي. وعليهم أن يختموا هذه الوثيقة ولتأتني بها. والشرط الذي أشترطه عليهم هو إن تمّت المعجزة لم يبق لهم مجال للشك، وإلا حق لهم أن يتهمونا بالخداع». اكتفى الرسول بهذا الجواب الصريح الجريء الذي لا مثيل له ولا نظير في تاريخ الأديان، والذي صدر إلى رجال الشيعة النابهين

المجتمعين في معقلهم العتيد. ونهض الرسول من فوره وقبّل ركبة حضرة بهاء الله وعاد ليبلغهم رسالته. وبعد ثلاثة أيام أرسل يقول إن هذا الجمع الكبير قد عجز عن التوصل إلى الإجماع على شيء واحد، ولذلك فضلوا أن يتناسوا هذا الموضوع، وقد تولى بنفسه إذاعة هذه النتيجة على نطاق واسع أثناء زيارته لإيران، بل إنه بلّغها لميرزا سعيد خان وزير الخارجية آنذاك. ويروى أن حضرة بهاء الله قال حين بلغه تصرفهم نحو هذا التحدي: «* بهذه الرسالة الشافية الوافية التي أرسلناها أظهرنا معجزات جميع الأنبياء ودافعنا عنها. ذلك لأننا تركنا حرية الاختيار للعلماء أنفسهم، وتعهدنا أن نأتي لهم بما يجمع عليه رأيهم». وأشار حضرة عبد البهاء إلى تحدٍ آخر قام به حضرة بهاء الله فيما بعد في لوح السلطان فقال: «* لو دققنا النظر في الكتاب المقدس لما وجدنا مظهراً إلهياً يقول لمنكريه: إني على استعداد لأن آتي لكم بأية معجزة ترغبون فيها، وأن أقبل أي ميزان تقرّونه، ولكن حضرة بهاء الله قال في لوحه إلى الشاه صراحةً: إجمع العلماء وأحضرني حتى يثبت ذلك بالحجة والبرهان».

أشرفت على النهاية تلك السنوات السبع، سنوات التثبيت الدائم والتدعيم المتصل المثابر الناجح نجاحاً باهراً. وأخذت هذه الجامعة التي لا راعي لها، والتي طالما قاست الشدائد والأهوال من داخلها وخارجها، وطالما هددها التلاشي والفناء، تنتعش من جديد وتعلو علواً كبيراً لم يسبق له مثيل في سنيها العشرين، ذلك لأن أسسها استقرت، وروحها المعنوية ارتفعت، ومظهرها تبدل، ومخبرها تحوّل، وزعامتها تعينت وتركزت، ومبادئها الأساسية تحددت. كما عظمت هيبتها وانقهر أعداؤها. أما وقد حدث كل هذا فإن يد القدر كانت تهيؤها تدريجاً لكي تنتقل إلى طور جديد من حياتها المليئة بالتقلبات، يقودها، بنعمائه وبأسائه، بسرائه وضرائه، إلى مرحلة أخرى من مراحل تطوّرها. ذلك لأن منقذ هذه الجامعة ومخلصها وأملها الوحيد وقائدها الفعلي وزعيمها الفرد الذي قهر مدبري المؤامرات لاغتياله، وضرب بنصائح المتخوفين عرض الحائط، واحتقر الفرار من موضع

الخطر، وأصرّ على رفض كل ما عرضه الأصدقاء والأعوان مراراً وتكراراً من عروض لتأمين سلامته الشخصية، وانتصر على خصومه هذا النصر المبين، تضطره العمليات القاهرة المتصلة بتفتح رسالته إلى الانتقال، في هذه الساعة الميمونة المباركة، إلى نقطة على أعظم جانب من الأهمية ونعني بها عاصمة الإمبراطورية العثمانية ومقر الخلافة الإسلامية والمركز الإداري للمسلمين السنّة حيث يستقر عرش أقوى عاهل في العالم الإسلامي.

لقد تحدى النظام المذهبي متمثلاً في أقطاب النجف وكربلاء والكاظمين تحدياً جريئاً. وهو الآن يوشك أن يقوم، عن كثب من بلاط خصمه الملكي، بتحد مماثل لكل من رأس الإسلام السني وعاهل إيران أمين الإمام الغائب. كما أنه يوشك أن يخاطب ملوك الأرض جميعاً، وبخاصة السلطان ووزراءه، ويناشدهم ويدعوهم ويحذرهم، ويعنف ملوك العالم المسيحي وأهل السنة تعنيفاً شديداً. فلا عجب إن ينطق المنفي صاحب الظهور الجديد بهذه الكلمات التي يتنبأ فيها بازدياد نور سراج أمره بعد انتقاله من العراق: «فسيوقد في بلور أخرى وهذا تقدير من عزيز قديم... قل إن في إخراج الروح عن جسد العراق لآيات بديعاً لمن في السمٰوات والأرض فسوف تجدون هذا الفتى الإلٰهي راكباً على براق النصر. إذاً يتزلزل قلوب المغلين».

دقت الآن ساعة رحيل حضرة بهاء الله عن العراق. فانطلقت العملية التي بها يتم هذا الرحيل. ذلك بأن الجهود التي ظل أعداؤه، ولا سيما الشيخ عبد الحسين وحليفه ميرزا بزرك خان، يبذلونها طيلة تسعة أشهر تؤتي أكلها. وأخذ ناصر الدين شاه ووزراؤه من ناحية والسفير الإيراني في الآستانة من جهة أخرى يثابرون على اتخاذ التدابير الفورية الرامية إلى نقل حضرة بهاء الله من بغداد. ونجح العدو القوي الحقود في عرض الموقف عرضاً مشوهاً، ونشر التقارير المخيفة فحمل الشاه على أن يوصي وزير خارجيته ميرزا سعيد خان بالإيعاز إلى ميرزا حسين خان سفير إيران لدى الباب العالي، وهو صديق حميم للصدر الأعظم عالي باشا ووزير الخارجية فؤاد باشا، بالسعي

لدى السلطان عبد العزيز حتى يصدر أمره بإبعاد حضرة بهاء الله عن بغداد على الفور، بحجة أن إقامته الدائمة في تلك المدينة المجاورة للحدود الإيرانية والقريبة من مزارات الشيعة تهدد سلامة إيران وحكومتها تهديداً مباشراً.

ولقد وصف ميرزا سعيد خان هذا الدين في اتصالاته بالسفير بأنه «نحلة خبيثة ضالة» وندّد بإطلاق سراح حضرة بهاء الله من سياه چال واتهمه بأنه لا يكف عن «إفساد الضعفاء وتضليل البسطاء في الخفاء» وكتب يقول: «أمرت أنا صديقك الحميم بمقتضى الفرمان الشاهاني... بأن أصدر إليك تعليماته ومفادها أن تطلب على الفور مقابلة فخامة الصدر الأعظم ووزير الخارجية... وتلتمس منهما... نقل مصدر الفساد هذا من بغداد التي تلتقي فيها مختلف الأمم وتقع على مقربة من حدود إيران» ثم يورد البيت المشهور في الرسالة:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

وهكذا كشف عن مخاوفه وسعى أن يغرسها في قلب السفير. ولوجود سلطان على العرش قد فوض الكثير من الشؤون والسلطات لوزرائه، وبفضل مساعدة بعض السفراء الأجانب والوزراء المفوضين في الآستانة، وبتأثيره الودي وكثرة إلحاحه على الوزراء أفلح ميرزا حسين خان في أن يحصل من السلطان على الإذن بنقل حضرة بهاء الله وأصحابه (الذين أرغمتهم الظروف في تلك الأثناء على تغيير جنسيتهم) إلى الآستانة. ومما يروى أن طلب التدخل الحاسم في هذا الشأن كان أول ما تقدمت به السلطات الإيرانية إلى الدولة الصديقة بعد ارتقاء السلطان الجديد عرش السلطة.

وفي خامس أيام نوروز سنة ١٨٦٣م، بينما كان حضرة بهاء الله يحتفل بهذا العيد في مزرعة الوشاش بالقرب من بغداد، أقبل رسول نامق باشا وسلم حضرة بهاء الله مذكرة يطلب فيها الوالي تحديد موعد معه. وقد حدث هذا بعد نزول لوح «ملاح القدس» الذي تطيّر أصحاب حضرة بهاء الله بنبوءاته وإنذاراته.

وقد ذكر النبيل في تاريخه أن حضرة بهاء الله كان في السنوات الأخيرة من إقامته ببغداد يشير في أحاديثه إلى فترة الامتحان والافتتان التي كانت قادمة لا محالة بإشارات كلها حزن وكآبة، ما أزعج كل من حوله أيّما إزعاج. كما أيّدت المخاوف والهواجس التي سيطرت على أصحابه رؤيا رآها في تلك الأيام لا يخطئ الإنسان مغزاها المشؤوم. كتب في أحد ألواحه يقول: «رأيت بأن اجتمع في حولي النبيّون والمرسلون وهم قد جلسوا في أطرافي وكلهم ينوحون ويبكون ويضجّون، وأني تحيرت من نفسي فسألت عنهم، إذاً اشتدّ بكاؤهم وصريخهم وقالوا لنفسك يا سر الأعظم ويا هيكل القدم، وبكوا على شأن بكيت ببكائهم، وإذاً سمعت بكاء أهل ملأ الأعلى وفي تلك الحالة خاطبوني وقالوا... سوف ترى بعينك ما لا رآه أحد من معشر النبيّين.. فصبراً صبراً يا سر الله المكنون ورمزه المخزون... وكنت معهم في تلك اللّيلة خاطبتهم وخاطبوني إلى أن قرب الفجر». ويروي النبيل ذلك فيقول: «تلاطمت بحار الأسى في القلب حين قرئ لوح ملاح القدس... وكان من الواضح لكل فرد أن فصل بغداد يوشك أن ينتهي، وأن فصلاً جديداً يوشك أن يبدأ. وما كاد هذا اللوح يقرأ حتى أمر حضرة بهاء الله بأن تطوى الخيام المضروبة وأن يعود كل أصحابه إلى المدينة. وبينما كانت الخيام تطوى قال: (* ما أشبه هذه الخيام بمتاع الدنيا وزخرفها، ما إن ينتشر وينبسط حتى يكر عليه الدهر فيطويه). من هذه الكلمات أدرك السامعون أن هذه الخيام لن تضرب في هذا المكان مرة أخرى. فلم تكد ترفع الخيام حتى أقبل رسول الوالي من بغداد ليسلم المذكّرة».

وفي اليوم التالي كان حضرة بهاء الله في مسجد قريب من دار الوالي حين جاء نائب الوالي للقائه وتسليمه الرسالة التي بعث بها عالي باشا إلى نامق باشا. وكانت رسالة منمقة مؤدبة اللهجة تدعو حضرة بهاء الله للتوجّه إلى الآستانة ضيفاً على الحكومة العثمانية، وتضع تحت تصرفه مبلغاً من المال، وتأمر حامية من الفرسان أن تصحبه حماية لشخصه. ولم يتوان حضرة بهاء الله

عن قبول هذا الطلب وإن اعتذر عن قبول المال. فلما ألحّ نائب الوالي على حضرة بهاء الله أن يقبل الهبة السخية التي خصصت له، واحتج بأن رفضه لها يغضب ولاة الأمور، رضي حضرة بهاء الله أن يتسلمها على مضض وفرقها بين الفقراء في اليوم نفسه.

وكان وقع هذه الأنباء على جماعة المنفيين مفاجئاً محيراً. ولقد كتب شاهد عيان يصف تصرف المؤمنين تجاه هذه الأخبار المنذرة باقتراب رحيل حضرة بهاء الله، قال: «شهد هذا اليوم هياجاً يماثل هياج يوم الحشر. وكأني بأسوار المدينة وأبوابها تبكي وتنوح لاقتراب حرمانها من الأبهى المحبوب. وفي أول ليلة جرى فيها ذكر اقتراب رحيله أعرض أحباؤه عن الطعام والشراب والنوم. ولم يقرّ لأحد منهم قرار، بل صمم كثير منهم على الانتحار دون تردد إذا حيل بينهم وبين نعمة مرافقته... على أن خواطرهم لم تهدأ، ونفوسهم لم تطب إلا بعد أن سمعوا كلماته لهم ومناشدته إياهم وتلطفه بهم. هنالك أسلموا أمرهم إلى رضاه». وفي تلك الأيام رقم بيده لوحاً لكل من عاش منهم ببغداد لا فرق بين عربيّهم وإيرانيّهم ولا بين رجالهم ونسائهم، ولا بين صبيانهم وراشديهم وفي معظم هذه الألواح تنبأ بظهور «العجل» و«طيور الليل» إشارة منه إلى الذين سوف يرفعون علم العصيان ويشقون عصا الطاعة ويخرجون على الجماعة ويحدثون أخطر فتنة في تاريخ الدين، وهم نفس الذين تنبأ بهم في لوح ملاح القدس وفي الرؤيا التي ذكرناها من قبل.

وفي عصر يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة سنة ١٢٧٩ هـ (الموافق للثاني والعشرين من نيسان سنة ١٨٦٣ م)، أي بعد سبعة وعشرين يوماً من نزول ذلك اللوح الحزين الذي رقمه حضرة بهاء الله فجأة، ومن تسلمه هذه المذكرة الحاسمة المنذرة برحيله إلى الآستانة؛ وبعد واحد وثلاثين يوماً من النوروز، بدأ حضرة بهاء الله أول مرحلة من رحلته التي طالت أربعة أشهر إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، وفي ذلك اليوم التاريخي، الذي عرف فيما بعد بأول أيام عيد الرضوان، بلغت زيارات الوداع التي قام بها معارفه

وأصدقاؤه من كل طبقة وطائفة ودين مبلغاً قلّما شهدت بغداد له مثيلاً. فاكتظت مداخل بيته بجمهور غفير من كلا الجنسين ومن كل عمر، احتشد فيه القريب والغريب والعربي والكردي والفارسي وعلية القوم ورجال الدين والدولة والتجار وكثير من عامة الناس والفقراء واليتامى والمساكين وأبناء السبيل، بعضهم ذاهل وبعضهم مفطور الفؤاد، ومعظمهم دامع العين قلق؛ وقليل منهم مستطلع للأخبار أو مُتشفٌّ في السّر؛ وكلهم يتحرق شوقاً إلى أن يلقي نظرته الأخيرة على الذي أثر بسنّته وسيرته، عشر سنوات طوال، كل هذا التأثير النافذ القوي على هذا العدد الضخم من مختلف سكان مدينتهم.

ولآخر مرة غادر، بين البكاء والنحيب، «بيته الأعظم» الذي منه فاحت «نفحات السبحان» وارتفعت «نغمات الرحمٰن» في «كل الأحيان». وكان يوزع الصدقات بيده السخية على الفقراء الذين أخلص في صداقته لهم. وكان يقول لكل الحزانى الضارعين من حوله قولاً كريماً يعزيهم ويسكّن قلوبهم. وظل على هذه الحال إلى أن بلغ شاطئ النهر، وعبر إلى الحديقة النجيبية على الضفة الأخرى ومعه أولاده وكاتب وحيه. وقبل عبوره خاطب الفئة المخلصة المحيطة به فقال: «* * يا أصحابي! هذه بغداد أعهد بها إليكم، وهي على ما ترونها عليه من دمع ينهمر كأمطار الربيع من عيون الأصدقاء والغرباء الذين يزحمون سقوفها وشوارعها وأسواقها. فلا ينبغي أن تخمد نار المحبة المشتعلة في القلوب من أفعالكم وأعمالكم؛ ولا أن يبدو منكم ما يسبب انطفاءها».

وما أن أذّن المؤذن لصلاة العصر حتى كان حضرة بهاء الله يدخل الحديقة النجيبية حيث مكث أثني عشر يوماً قبل مغادرة المدينة. وهنالك أقبل عليه أصدقاؤه وأصحابه أفواجاً بعد أفواج، وفازوا بلقائه وودعوه وداعهم الأخير في حزن شديد. وكان من أبرزهم الآلوسي مفتي بغداد الشهير الذي دمعت عينه، وأنحى باللائمة على ناصر الدين شاه واعتبره المسؤول الأول عن هذا النفي الجائر؛ وقال بصراحة: «والله ما هو ناصر الدين بل مخذل الدين». وهناك زائر ممتاز آخر هو نامق باشا الوالي الذي عبّر بأرق العبارات عن أسفه البالغ على التطورات التي عجلت برحيل حضرة بهاء الله على هذا

النحو، وأكد له استعداده لأن يعاونه على قدر استطاعته وسلم الضابط المنتدب لمرافقة حضرة بهاء الله أمراً كتابياً لكل حكام الأقاليم التي يمرّ بها المنفيون يأمرهم فيه بأن يلقوهم بكل احترام وتقدير. وبعد اعتذاره الشديد قال لحضرة بهاء الله: «نحن على استعداد لتنفيذ كل ما تطلب وما عليك سوى أن تأمر». فكان جوابه على الإلحاح المتكرر من جانب الوالي: «* * أكرم أحباءنا وعاملهم بالرفق والرأفة»، وهو طلب استقبله بالرضاء الحار دون تردد.

فلا عجب أن نرى هؤلاء الذين سعوا وجاهدوا للحصول على أمر بنفي حضرة بهاء الله وفرحوا بنجاح مسعاهم، يندمون على ما فعلوا ندماً مريراً حين رأوا بأعينهم تلك الشواهد الكثيرة الدالة على عميق الإخلاص والعطف والتقدير من جانب الرفيع والوضيع، والتي أخذت تتوالى منذ أعلن حضرة بهاء الله رحيله المقترب إلى يوم مغادرته الحديقة النجيبية. وفي خطاب كتبه حضرة عبد البهاء في تلك الحديقة أشار إلى هؤلاء الأعداء فقال: «* * لقد تدخلت العناية الإلهية تدخلاً جعل فرحهم ترحاً وسرورهم غماً؛ حتى لقد ندم القنصل الإيراني العام في بغداد على التدابير والخطط التي دبرها المتآمرون. بل إن نامق باشا قال يوم رآه [أي حضرة بهاء الله]: كانوا من قبل يصرّون على رحيلك، غير أنهم اليوم أشد إصراراً على بقائك».

إعلان رسالة حضرة بهاء الله ورحلته إلى الآستانة

يحدد وصول حضرة بهاء الله إلى الحديقة النجيبية، التي أطلق عليها أتباعه فيما بعد لقب حديقة الرضوان، بداية ما يعتبر أقدس الأعياد البهائية كلها وأعظمها شأناً، ذلك لأنه العيد الذي يخلد ذكرى إعلان حضرة بهاء الله رسالته لأصحابه ويمكن أن يعتبر هذا الإعلان الضخم تكملة منطقية لعملية التطوير التي بدأها بعد عودته من السليمانية، كما يمكن أن يعتبر مقدمة لإعلان نفس الرسالة للعالم وحكامه بصورة نهائية في أدرنة.

بهذا العمل المهيب انتهت «المهلة» التي دامت ما لا يقل عن عشر سنوات، وفصلت فصلاً إلٰهياً بين ميلاد ظهور حضرة بهاء الله في سياه چال وبين إعلان هذا الظهور لأتباع حضرة الباب. وحلّ «ميقات الستر» الذي انهمرت عليه فيه، حسب شهادته، «آيات الظهور الإلٰهي وبشاراته»، وانشق نسبياً «ألف ألف حجاب من النور» كانت تغلف مجده ووهبت للإنسانية «نوراً من أنوار الوجه أقل من سم الإبرة»؛ وانقضت «الألف والمائتان والتسعون يوماً» التي حددها دانيال في آخر إصحاح من سفره، باعتبارها مدة «رجسة الخراب»، وابتدأت «المائة سنة القمرية» التي سبقت مباشرة النهاية المباركة، (١٣٣٥ يوماً) التي أخبر بها دانيال في نفس الإصحاح، وتمت التسع عشرة سنة التي يتألف منها «الواحد» الأول، والتي سبق أن قدرها حضرة الباب بقلمه في البيان الفارسي. وأوشك حضرة عيسى المسيح العائد في مجد الآب أن يستوي على عرشه ويقبض على صولجان السيادة العالمية التي لا تفنى، وظهرت بوضوح جامعة الاسم الأعظم «أصحاب السّفينة الحمراء» الذين أثنى عليهم كتاب قيوم الأسماء ثناءً عاطراً، وأخيراً تحققت بالحرف الواحد نبوءة

حضرة الباب فيما يختص «بالرضوان» مشهد إشراق مجد حضرة بهاء الله الفائق.

ودون أن تخيف حضرة بهاء الله مظاهر الشدائد الجسيمة التي تنبأ هو نفسه بأنها سوف تهاجمه، ودون أن تعيقه المقاطعات المستمرة الناشئة من تدفق سيل الزائرين الذين زحموا خيامه مساء نفيه الثاني الخطير المخيف الذي يبعد به عن وطنه ومهد دينه إلى بلاد أخرى تختلف في الجنس واللغة والثقافة، اختار هذا المساء الخطير غير المناسب في الظاهر ليدعي مثل هذا الادعاء البالغ التحدي، وليهتك الستار عن السر المحيط بشخصه، وليتولى سلطان من تنبأ حضرة الباب بظهوره، مدركاً تمام الإدراك أن دائرة أعدائه سوف تتسع وتضم سلطاناً جديداً لا يقل عتواً عن ناصر الدين شاه، وتحوي وزراء جدد لا يقلون عدواناً عن الحاج ميرزا آقاسي وأمير النظام.

ومنذ زمن ران على مستعمرة المنفيين هذا الحدث العظيم المقترب، فانتظره المنفيون بأمل وشوق. وبينما كانت سنة «الثمانين» تقترب بلا هوادة كان الذي أصبح زعيم هذه الجامعة الفعلي يشعر أكثر فأكثر بتأثيرات قوته المندفعة ويتدرج في نقلها إلى الذين سيكونون أتباعه في المستقبل. ومما أخذ يعلن إعلاناً صريحاً عن قرب توليه منزلته الإلهية وزعامته العلنية لجامعة البابيين تلك المدائح العاطرة البهية التي كان يرقمها قلمه كل يوم تقريباً، والألواح التي انهمرت طافحة بالإشارات، وتلويحاته وتلميحاته التي كان يوردها في أحاديثه الخاصة والعامة إلى اقتراب الساعة الموعودة، والغبطة التي كان روحه يفيض بها في السراء والضراء على حد سواء، والنشوة التي غمرت محبيه السكارى بشواهد عظمته المشرقة ومجده البازغ، وذلك التغير الملحوظ في مسلكه، واتخاذه التاج أخيراً لباساً للرأس يوم غادر بيته الأعظم.

كتب النبيل يصف اهتياج المشاعر الذي سيطر على قلوب أصحاب حضرة بهاء الله في تلك الأيام التي سبقت إعلانه لرسالته فقال: «* كم من

ليلة جمعهم ميرزا آقا جان في غرفته وأغلق من دونهم الباب وأشعل العديد من شموع الكافور ورتل عليهم ما نزل حديثاً من المدائح والمناجاة والألواح التي كانت في حوزته. فيذهل هؤلاء عن عالم الفناء، ويتيهون في عوالم الروح، ويغفلون عن الطعام والشراب والنوم حتى يكتشفوا فجأة أن الليل قد ولّى، وأن الشمس تقترب من الزوال في رابعة النهار».

أما الظروف والملابسات الصحيحة لهذا الإعلان التاريخي الفاتح لعهد جديد فإننا، للأسف، لا نعرف عنها إلا القليل. ما هو نص الكلمات التي نطق بها حضرة بهاء الله فعلاً في هذا الظرف؟ وكيف كانت طريقة إعلانه؟ وما هي الاستجابة التي أحدثها؟ وما وقع ذلك على ميرزا يحيى، وعلى من كان من أولئك الذين امتازوا بشرف الإنصات إليه؟ غرق كل هذا في غموض سوف يجد مؤرخو المستقبل أنه ليس من السهل عليهم اختراق غياهبه. على أن الوصف المجزأ الذي تركه مؤرخه النبيل للأجيال القادمة يعتبر إحدى الروايات المعتمدة القلائل مما نملك عن تلك الأيام الخالدة التي قضاها في تلك الحديقة. قال النبيل: «كان البستانيون يعمدون فجر كل يوم إلى الورود التي تحف بممرات الحديقة الأربعة فيقطفونها ويضعونها على أرض خيمته المباركة. وكانت الكومة من الارتفاع بحيث لم يكن في إمكان الصاحب أن يرى صاحبه عبرها وهم جلوس في حضرته على شكل دائرة لتناول شاي الصباح. وكان حضرة بهاء الله يقدّم هذه الورود بيديه المباركتين إلى كل من ينصرف عن محضره كل صباح حتى يهديها باسمه إلى أصدقائه من العرب والعجم في المدينة». ويستمر النبيل في روايته فيقول: «وفي تاسع ليلة للشهر القمري تصادف أن كنت من بين الذين يسهرون حول خيمته المباركة. وعند منتصف الليل تقريباً رأيته يخرج من خيمته، ويمر ببعض الأماكن التي نام فيها أصحابه. وأخذ يذرع طرقات الحديقة المزهرة المقمرة. وكان تغريد البلابل يتعالى من كل الجهات بحيث غطى على صوت حضرة بهاء الله فلم يكن يسمعه بوضوح إلا أقرب الناس إليه. وبات يذرع الطرقات جيئة وذهاباً إلى أن وقف وسط طريق منها وقال: (تدبروا أمر هذه البلابل! لقد بلغ من حبها

لهذه الورود أنها لا تنام من غروب الشمس حتى مطلع الفجر بأهازيجها تناجي محبوبها في شوق ولهفة. فكيف يستطيع النوم من يدّعون أنهم مشتغلون بحب محبوبهم وجماله الوردي). ومكثت ثلاث ليال أسهر بجوار خيمته المباركة وأطوف حولها. وكنت كلما مررت بالديوان الذي يستلقي عليه وجدته يقظان. وكنت أراه في كل يوم مشغولاً من الصباح حتى المساء في محادثة سيل لا ينقطع من الزوار الوافدين من بغداد. فما شعرت في كلمة من كلماته بأي أثر من الحذر والاحتياط».

فيما يتعلّق بدلالة ذلك الإعلان، فلندع حضرة بهاء الله يكشف لنا عنها بنفسه. لقد أثنى على هذه المناسبة التاريخية ووصفها بأنها «العيد الأعظم» و«سلطان الأعياد» و«عيد الله» وميزها في الكتاب الأقدس بأنها اليوم الذي فيه «انغمست الأشياء في بحر الطهارة» وأشار إليها في أحد ألواحه الخاصة بأنها اليوم الذي فيه «مرت نسائم الغفران على هياكل الأكوان». وفي لوح آخر قال: «افرحوا يا أهل الله بذكر أيام فيها ظهر الفرح الأعظم بما نطق لسان القدم إذ خرج من البيت متوجهاً إلى مقام فيه تجلى باسم الرحمٰن. . . تالله لو نذكر أسرار ذاك اليوم لينصعق من في الملك والملكوت إلا من شاء الله المقتدر العليم الحكيم. إذاً أخذ سكر خمر الآيات مُظْهِرَ البينات». وقال أيضاً: «يا قلم الأعلى قد أتى ربيع البيان بما تقرب عيد الرحمٰن. . . قد طلع نير الابتهاج من أفق سماء اسمنا البهّاج بما تزين ملكوت الأسماء باسم ربك فاطر السماء. . . إياك أن يمنعك شيء عن ذكر هذا اليوم الذي فيه فك رحيق الوصال بأصبع القدرة والجلال ودعا من في السمٰوات والأرضين. . . هذا يوم فيه يقول اللاهوت: طوبى لك يا ناسوت بما جعلت موطئ قدم الله ومقرّ عرشه العظيم. . . قل. . . هذا مظهر الكنز المخزون إن أنتم من القاصدين؛ وهذا محبوب ما كان وما يكون». وقال أيضاً: «قم بشر الإمكان بما توجه الرحمٰن إلى الرضوان. ثم اهد الناس إلى الجنة العليا التي جعلها الله عرش الجنان. . . ونادت فيها الحوريات من أعلى الغرفات أن أبشروا يا أهل الجنان بما تدق أنامل القدم الناقوس الأعظم في قطب السماء باسم الأبهى، وأدارت

أيادي العطاء كوثر البقاء تقربوا ثم اشربوا هنيئاً لكم» وقال أخيراً: «يا قلم! دع ذكر الإنشاء، وتوجه إلى وجه ربك مالك الأسماء، ثم زين العالم بطراز ألطاف ربك سلطان القدم لأنا نجد عرف يوم فيه تجلى المقصود على ممالك الغيب والشهود بأسمائه الحسنى، وشموس ألطافه التي ما اطلع بها إلا نفسه المهيمنة على من في الإبداع».

كان رحيل حضرة بهاء الله من حديقة الرضوان ظهر اليوم الرابع عشر من ذي القعدة سنة ١٢٧٩ هـ (الموافق للثالث من شهر أيار ١٨٦٣م. ولقد شهد هذا اليوم مناظر من الحماسة الفياضة الجياشة لا تقل روعة ولا تحريكاً للمشاعر عن تلك الحماسة يوم غادر بيته الأعظم في بغداد، إن لم تفقها. وفي ذلك كتب شاهد عيان يقول: «في هذه المناسبة رأينا بأعيننا فزع يوم النشور ويوم الحساب. كان الحبيب والغريب يبكي وينوح. وعجب الأكابر والرؤساء الذين احتشدوا، وتحركت المشاعر بصورة يعجز عن وصفها اللسان، ولا يمكن للمشاهد أن يهرب من عدواها».

ركب حضرة بهاء الله جواداً مطهماً أصيلاً كميت اللون من أكرم السلالات، كان خير ما استطاع أحباؤه شراءه له. وخلّف وراءه حشداً راكعاً من المعجبين المشتعلين. وانطلق في أول مرحلة من رحلته إلى الآستانة. وكتب النبيل الذي شاهد بعينه هذا المشهد الخالد قال: «ما أكثر الذين ركعوا للغبار الذي أثاره جواده وقبّلوا سنابكه، وما أكثر الذين اندفعوا ليحتضنوا ركابه!» كما شهد أحد رفاق السفر قائلاً: «ما أكثر الذين كانوا هم الإخلاص بعينه فألقوا بأنفسهم بين يدي الجواد مفضّلين الموت على مفارقة محبوبهم! حتى لكأني بالجواد المبارك يسير على هذه الأجساد ذات القلوب الطاهرة». وصرّح حضرة بهاء الله بقوله: «هو وحده [أي الله] الذي مكنني من أن أغادر المدينة [بغداد] بجلال لا ينكره إلا الجاحد اللئيم». وظلت مظاهر الإخلاص والولاء والخضوع تحفّ به طوال رحلته إلى أن استقر به المقام في الآستانة. ولقد سمع النبيل ميرزا يحيى، الذي تطوع بالجري وراء عربة حضرة بهاء الله

يوم وصوله إلى الآستانة، يقول للسيد محمد: «لو لم أفضل العزلة عن الناس ولو أظهرت لهم شخصيتي لكان ذلك الشرف الذي ناله [يعني حضرة بهاء الله] اليوم من نصيبي أيضاً».

غادر حضرة بهاء الله الفريجات، أولى مراحل سفره، في العشرين من ذي القعدة (الموافق ٩ أيار سنة ١٨٦٣ م) يصحبه ستة وعشرون من أصحابه غير أهل بيته. وعند مغادرته الفريجات تكررت نفس مظاهر الولاء والإخلاص التي ظهرت نحوه أثناء رحيله عن بيته وعن حديقة الرضوان. وكانت القافلة تتكون من خمسين بغلاً وعشرة فرسان عليهم قائدهم؛ وسبعة أزواج من الهوادج يظلل كل زوج منها أربع مظلات، فشقت طريقها مجتازة النجاد والوهاد والأحراش والوديان والمراعي التي تؤلف فيما بينها مناظر الأناضول الشرقية الخلابة، وظلت كذلك إلى أن بلغت ميناء صامصون على البحر الأسود في مدّة لا تقل عن مائة وعشرة أيام. وكان حضرة بهاء الله يركب الجواد أحياناً، ويستريح أحياناً أخرى في هودجه الذي كان أصحابه يحفون به سيراً على الأقدام. وبفضل أمر نامق باشا كان الولاة والحكام والمديرون والشيوخ والمفتون والقضاة ورجال الحكومة وأكابر الأقاليم التي يمرون بها أثناء رحيلهم شمالاً في أوائل الربيع يستقبلونه بالترحيب الحار. ففي كركوك وأربيل والموصل حيث مكث ثلاثة أيام، وفي نصيبين وماردين وديار بكر، حيث توقف يومين، وفي خربوط وسيواس وكثير غيرها من القرى والدساكر خرجت الوفود للقائه قبل وصوله. كما كانت الوفود تخرج مسافة طويلة لوداعه. أما الولائم التي كانت تقام تكريماً له في بعض المراحل، والطعام الذي كان القرويون يعدّونه ويقدمونه بين يديه، والشوق الذي كانوا يظهرونه المرة تلو الأخرى لتهيئة كل وسائل الراحة فكانت تعيد إلى الذاكرة ذلك الإجلال والتكريم الذي كان أهل بغداد يخصونه به في كثير من الظروف والمناسبات.

روى رفيق السفر قال: «عندما كنا نمر في ذلك الصباح بمدينة ماردين

تقدمنا فرسان من جنود الحكومة وهم يرفعون راياتهم ويدقون طبولهم ترحيباً. وصحبنا الحاكم مع رجال الحكومة وعلية القوم. وتزاحم الرجال والنساء والأطفال على أسطح المنازل، ووقفوا على جانبي الطرقات انتظاراً لقدومنا. واخترقنا المدينة في أبهة وجلال متابعين رحلتنا. وشيعنا الحاكم ومن معه مسافة ليست بالقصيرة خارج البلد». وروى النبيل في تاريخه قال: «أجمع كل من لاقيناهم في هذه الرحلة على أنهم لم يشاهدوا طيلة عمرهم أحداً يسافر في هذا الطريق الذي لم يخل يوماً من الحكّام والولاة الذاهبين الراجعين بين الآستانة وبغداد بمثل هذه الحال، ولا باذلاً بمثل هذا الكرم والسخاء ذات اليمين وذات الشمال ولا واهباً لكل إنسان هذا القدر العظيم من الخير والإحسان». وعندما شاهد حضرة بهاء الله البحر الأسود من هودجه، وهو يقترب من ثغر صامصون، رقم لوحاً يعرف بـ «لوح الهودج»، استجابة لالتماس الميرزا آقا جان. وفي هذا اللوح أكد حضرة بهاء الله الإنذارات التي سجلها من قبل في لوح «ملاح القدس»، وأيّدها بإشارات من مثل «محك الله» و«عذاب فتنة عظيم».

وفي صامصون زاره كبير مفتشي الولاية الممتدة من بغداد إلى الآستانة يصحبه عدد من الباشوات، وأبدوا له غاية الاحترام والإجلال، فدعاهم حضرته إلى مائدته لتناول الغداء. وبعد سبعة أيام من وصوله وكما تنبأ حضرته في لوح «ملاح القدس»، ركب سفينة تركية. وبعد سفر ثلاثة أيام أخرى، في ظُهر غرّة ربيع الأول سنة ١٢٨٠ للهجرة (الموافق ١٦ آب سنة ١٨٦٣ م) نزل في ميناء الآستانة هو ومن معه من رفاق المنفى. وركب وأسرته عربتين خاصتين كانتا في انتظاره على مرسى الميناء. وتوجه إلى دار شمسي بيك الموظف الذي انتدبته الحكومة ليرحب بضيوفها. وكان منزله مجاوراً لمسجد «خرقة شريف» إلا أنهم انتقلوا بعد ذلك إلى بيت ويسي باشا القريب من مسجد السلطان محمد. وكان منزلاً أرحب وأوسع.

ببلوغ حضرة بهاء الله الآستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية ومقرّ

الخلافة الإسلامية [ويكنيها المسلمون «قبة الإسلام» ويصفها حضرة بهاء الله بالبقعة التي استقر فيها «كرسيّ الظلم»] يمكننا أن نقول إن أنكد فصل وأقساه بل أمجد فصل من القرن البهائي الأول قد ابتدأ فعلاً. نعم، لقد ابتدأت فترة اختلطت فيها الامتحانات التي لم يسبق لها مثيل، والحرمان الذي يجل عن الوصف، بأنبل الانتصارات الروحية وأكرمها؛ وأوشكت فيها شمس حضرة بهاء الله أن تبلغ سمت الزوال. واقتربت فيها أخطر سنوات عصر البطولة المجيد من دورته. وانطلقت فيها تلك العملية الهدامة المدمرة التي سبق أن تنبأ بها مبشره الفريد في «قيوم الأسماء» منذ سنة الستين المبكرة.

منذ عشرين سنة كاملة ولد الظهور البابي في إيران المظلمة بمدينة شيراز وبالرغم من الحبس المرير الذي عاناه مؤسسه إلا أن حضرة الباب أعلن دعاويه الجبارة أمام مجتمع ممتاز في تبريز عاصمة آذربيجان. وفي مزرعة بدشت افتتح بجرأة حماة أمره الدورة التي بدأها. وبعد تسع سنوات أثمر هذا الظهور ثمراً مفاجئاً على نحو غيبي عجيب سريع في ليل اليأس والعذاب بسياه چال في طهران. وبعودة حضرة بهاء الله من السليمانية تعطلت، بصورة بارعة، عملية التدمير والتخريب التي كانت قد انطلقت تنخر في مقادير الدين ومصائره والتي تسارعت بصورة مخيفة أثناء اعتكافه في كردستان، ليس هذا فحسب بل وتحوّل مجراها. وأثناء إقامته في بغداد بعد ذلك أرسى للجامعة الناشئة قواعدها الخلقية والأدبية والعقيدية على أساس متين. وأخيراً في حديقة الرضوان، عشية نفيه إلى الآستانة، انتهت مهلة السنوات العشر التي قدّرتها العناية الإلٰهية الغيبية بإعلان رسالته وظهور ما سوف يصبح نواة لجامعة دينيّة عالمية. ولم يبق إلا أن تعلن هذه الرسالة نفسها في مدينة أدرنة لزعماء الدنيا ورجال الدين في العالم ليأتي بعدها، على مر السنين وكرّ الأعوام، كشف أوسع وأشمل لمبادئ الدين الأساسية في سجن عكاء بفضل صياغة الأحكام والشرائع المقدرة للمحافظة على الدين، ثم بفضل تأسيس الميثاق بعد صعوده مباشرة، وهو الميثاق الذي أبرم لحماية وحدة أمره واستمرار نفوذه. ثم بفضل توسيع نطاق مناشطه وفعالياته على

نطاق عالمي عجيب بقيادة حضرة عبد البهاء مركز العهد والميثاق، ثم بفضل قيام نظامه الإداري في عصر التكوين لهذا الدين، ذلك العصر البشير الساعي بين يدي عصره الذهبي المجيد القادم.

تم هذا الإعلان التاريخي في وقت كان الدين يعاني فيه أزمة من الأزمات البالغة الشدة. وكان هذا الإعلان، في جوهره، موجهاً إلى ملوك الأرض وإلى أقطاب رجال الدين المسيحي والإسلامي الذين تقع على كواهلهم المسؤولية الخطيرة التي لا مفر منها لتوحيد مصير أقوامهم وأتباعهم بما لهم من نفوذ عظيم وسلطان كبير عليهم.

ويمكن القول بأن المرحلة الأولى من هذا الإعلان قد بدأت في الآستانة بخطاب [لا نملك نصه مع الأسف] وجهه حضرة بهاء الله إلى السلطان عبد العزيز الذي لقب نفسه خليفة رسول الله والحاكم المطلق للإمبراطورية القوية المترامية الأطراف. وكان هذا العاهل المقتدر أول من تلقى النداء الإلٰهي من بين ملوك الأرض، كما كان أول من تلقى القصاص الإلٰهي العادل من بين ملوك الشرق. وكانت مناسبة إرسال هذا الخطاب أن السلطان عمد إلى إصدار فرمان، فجأة وبلا مبرّر، ولم يمض على قدوم المنفيين إلى عاصمة ملكه سوى أربعة أشهر، يقضي بنفيهم في وسط الشتاء القارس وفي أقسى الظروف المذلّة، إلى أدرنة الواقعة في أقاصي إمبراطوريته.

ويرجع السبب في إصدار هذا الفرمان الحاسم الشنيع الذي استقر عليه رأي السلطان ورأي وزيريه عالي باشا وفؤاد باشا ـ إلى حد كبير ـ إلى دسائس مشير الدولة، ميرزا حسين خان سفير إيران لدى الباب العالي. وقد وصفه حضرة بهاء الله بـ «المفتري» لأنه تحين أول فرصة ليؤذيه، ويؤذي دينه الذي أصبح زعيمه المطلق المعترف به. وكانت الحكومة الإيرانية تدفع سفيرها إلى مواصلة سياسة الدس والوقيعة وإثارة عداوة السلطات التركية ضد حضرة بهاء الله. وقد شجعه على هذا إعراض حضرة بهاء الله عن الجري على عادة ضيوف الحكومة مهما عظم شأنهم، وهي زيارة شيخ الإسلام والصدر الأعظم

ووزير الخارجية بعد وصولهم إلى العاصمة. ولم يكتف حضرة بهاء الله بذلك بل إنه امتنع عن رد زيارة بعض الوزراء، وزيارة كمال باشا وزيارة المبعوث التركي السابق لدى بلاط شاه إيران. ولم يمنع هذا السفير عن الاستمرار في الدس والوقيعة استقامة حضرة بهاء الله واستقلاله اللذان يناقضان على خط مستقيم مسلك الأمراء الإيرانيين المرتزقة الذين كانوا لا يأنفون من أن «يستجدوا لدى كل باب ما يتاح لهم من هبات وعطايا» لدى وصولهم. أخذ السفير ينتقد امتناع حضرة بهاء الله عن الذهاب إلى السفارة الإيرانية، ورد زيارة ممثلها. واستعان في دسائسه بالحاج ميرزا حسن الصفا المتواطئ معه، وأمره بأن يروج عنه شائعات ملفقة لا أصل لها من الصحة. وبفضل نفوذه الرسمي واتصالاته الخاصة برجال الدين والأكابر ورجال الحكومة أفلح أن يصور حضرة بهاء الله بصورة الشخص المتكبر المتعجرف الذي يعتبر نفسه فوق كل قانون، ويضمر التدابير العدوانية نحو كل سلطة قائمة، ويزيد بصراحته من هوة الخلاف بينه وبين الحكومة الإيرانية. على أن السفير لم يكن هو وحده الذي انهمك في دس هذه الدسائس الممقوتة. بل إن الكثيرين، كما يقول حضرة عبد البهاء، «شوهوا سمعة» المنفيين و«حكموا» عليهم بأنهم «فساد لكل الأرض»، «ناقضون للعهود والمواثيق»، وأنهم «وبال على كل بلد» وأنهم «يستحقون كل عقاب وقصاص».

وكلف صهر الصدر الأعظم المحترم، ولا أقل!، بأن يحيط الأسير علماً بالفرمان الصادر ضده. وهو فرمان أوضحت طبيعته تعاون الحكومتين التركية والإيرانية ضد خصمهما المشترك، وكان له في النهاية أوخم العواقب على السلطة والخلافة وعلى آل قاجار. ورفض حضرة بهاء الله أن يأذن لهذا الرسول، وانتدب حضرة عبد البهاء وآقاي كليم للقائه. فاكتفى الرسول بإبداء ملاحظاته الصبيانية وتصريحاته التافهة، وأخبرهما بأنه سوف يعود بعد ثلاثة أيام ليتلقى الجواب على الفرمان الذي كلف بإبلاغه.

وفي ذلك اليوم أنزل حضرة بهاء الله لوحاً شديد اللهجة وفي صبيحة

اليوم التالي دفعه بغلاف مختوم إلى شمسي بيك، وكلفه أن يسلمه إلى عالي باشا، وأن يقول له إنه نزل من عند الله. وفيما بعد قال شمسي بيك لآقاي كليم: «لم أكن أعرف فحوى الكتاب إلا أن الصدر الأعظم ما كاد يتصفّحه حتى شحب وجهه وامتقع قائلاً: (كأني به ملك الملوك يصدر أوامره إلى أصغر ولاته ويرشده إلى المسلك القويم). وساءت حاله إلى درجة أنني فضلت الانسحاب». ومما يروى أن حضرة بهاء الله علق على تأثير ذلك اللوح بقوله: «** بعد وقوف وكلاء السلطان على مضمونه فإنه يمكن تبرير الأعمال التي مارسوها ضدنا وأما ما عملوا قبل وقوفهم على مضمونه فليس له أي مبرّر».

كان ذلك اللوح طويلاً بصورة ملحوظة، على حد وصف النبيل، وكانت كلماته الأولى الموجهة إلى السلطان نفسه، تندد بوزرائه وتفضح عدم نضجهم وقلة اقتدارهم. واشتمل اللوح على فقرات موجهة إلى الوزراء أنفسهم، يتحداهم فيها بجرأة، ويعنفهم على تباهيهم وتفاخرهم بزخارف الدنيا ومتاعها، وجريهم المحتوم وراء المال والثروة التي لن يقر للدهر قرار حتى يسلبهم إياها.

وفي مساء الرحيل، الذي حدث بعد توقيع فرمان النفي مباشرة، أرسل حضرة بهاء الله مع الحاج ميرزا حسن الصفا السابق الذكر، أثناء جلستهما الأخيرة الخالدة، يقول للسفير الإيراني: «** ماذا استفدت أنت وأمثالك من قتلكم الكثير من المضطهدين كل عام وصبكم البلايا على رؤوسهم، حين زاد عددهم مائة ضعف ووجدتم أنفسكم في حيرة من أمركم لا تدرون كيف تحررون رؤوسكم من هذه الفكرة الخبيثة... تعالى أمره تعالى عما تكيدون. ألا فاعلم هذا علم اليقين لو اتحدت كل حكومات الأرض وقضت عليّ وعلى كل من يحمل هذا الاسم لما خمدت هذه النار الإلٰهية. بل إن أمره ليحيط عندئذ كل ملوك الأرض، لا بل كل ما خلق من ماء وطين... وما من شيء يصيبنا من بعد إلا كان سبباً لنصرتنا وخذلانهم».

وتنفيذاً للفرمان الحاسم بنفي هؤلاء الذين نفوا مرتين من قبل خرج حضرة بهاء الله وأهل بيته وأصحابه، يركب بعضهم العربات، ويركب غيرهم الدواب، ومتاعهم مكوّم على عربات تجرها الثيران، وفي صحبتهم ضباط من الأتراك. خرجوا في صباح يوم بارد من أيام شهر كانون الأول بين بكاء ونحيب الأصدقاء الذين خلفوهم وراءهم. وبدأوا رحلة دامت اثني عشر يوماً اخترقوا فيها فيافي قاحلة تسفى عليها الرياح إلى مدينة وصفها حضرة بهاء الله بالمدينة «التي لن يدخل فيها أحد إلا الذين هم عصوا أمرك». ووصفها في سورة الملوك قائلاً: «وأخرجونا عنها [أي عن الآستانة] بذلة التي لن تقاس به ذلة في الأرض» وأضاف قوله: «ولم يكن لأهلي وللذين هم كانوا معي من كسوة لتقيهم عن البرد في هذا الزمهرير». وقال في موضع آخر: «بكت علينا عيون أعدائنا ومن ورائهم كل ذي بصر بصير». وقال النبيل وهو يبكي: «كان نفياً تحملوه بالرضى والتسليم يبكي له القلم ويخجل القرطاس». ويمضي هذا المؤرخ يقول: «كان شتاء هذه السنة قارساً بصورة لم يعهد لها المعمّرون مثيلاً. وفي بعض مناطق تركيا وإيران هلك الحيوان تحت طبقات الجليد وتجمدت أعالي نهر الفرات أياماً عديدة، وهي ظاهرة لم يسبق لها مثيل، على حين تجمد النهر ما لا يقل عن أربعين يوماً في ديار بكر». وقال أحد المنفيين إلى أدرنة: «للحصول على الماء من الينابيع كان لزاماً علينا أن نشعل ناراً عظيمة في الهواء ونتركها ملتهبة لمدة ساعتين حتى تذوب الثلوج في تلك الينابيع».

سافر المنفيون المتعبون وسط الأمطار والأعاصير، وفي بعض الأحيان كانوا يسافرون ليلاً. وتوقفوا فترات قصيرة في كوچك چكمچة وبويوك چكمچة وسَلْوَرى وبركاس وبابا إيسكي ثم بلغوا أدرنة غرة رجب سنة ١٢٨٠ هـ (الموافق للثاني عشر من كانون الأول سنة ١٨٦٣ م). ونزلوا أول الأمر في خان العرب وهو خان ذو طابقين يقع بجوار منزل عزت آقا. وبعد ثلاثة أيام خصص لحضرة بهاء الله وأهل بيته منزل صيفي يقع في حي المرادية

بالقرب من التكية المولوية. وبعد أسبوع انتقلوا إلى منزل آخر يقع بجوار المسجد في نفس الحي. إلا أنهم بعد ستة أشهر تقريباً تحوّلوا إلى منزل أوسع يعرف بـ«بيت أمر الله» يقع على الجانب الشمالي من مسجد السلطان سليم.

وهكذا ينتهي المشهد الأول لقصة من أروع قصص ولاية حضرة بهاء الله. ويرتفع الستار الآن عن فترة أجمع الرأي على اعتبارها أحرج فترة في القرن البهائي الأول وأكثرها اضطراباً، وهي فترة تسبق أمجد مراحل تلك الولاية، ونعني بها إعلان رسالته إلى العالم وحكامه.

عصيان ميرزا يحيى وإعلان رسالة حضرة بهاء الله في أدرنة

ما كاد الدين ذو العشرين ربيعاً يتمالك نفسه من بعد الضربات المتلاحقة حتى داهمته أزمة على أعظم جانب من القسوة والخطورة فزعزعته من جذوره. وهي أزمة لا يمكن أن يماثلها شيء لا حتى استشهاد حضرة الباب الفاجع، ولا محاولة اغتيال الشاه الشنيعة وما جرّته في أعقابها من المذابح الدموية، ولا نفي حضرة بهاء الله المذلّ من وطنه، بل ولا حتى اعتكافه سنتين في كردستان لشدة ما بلغت نتائج هذه الضربات من تدمير. نعم لا شيء من هذا كله يماثل أو يضارع هذا الاضطراب الداخلي الخطير الذي تسلط على هذه الجامعة الناهضة من جديد، وهددها بانشقاق لا يمكن تداركه أو تلافيه. ذلك لأن السلوك البربري الذي سلكه ميرزا يحيى، أخو حضرة بهاء الله غير الشقيق، والمرشح لخلافة حضرة الباب والمعروف بزعيم جماعة البابيّين، جرّ في أعقابه فترة طبعت آثارها العميقة الغائرة في مقادير الدين وأحواله مدة لا تقل عن نصف قرن. لقد سلك مسلكاً يفوق في لؤمه وشؤمه عداوة أبي جهل نسيب حضرة محمد رسول الله؛ ويزيد في عاره وشناره على خيانة يهوذا الإسخريوطي لأستاذه ومعلمه السيد المسيح؛ ويتخطى في غدره ومكره مسلك أبناء يعقوب من أخيهم يوسف، ويتعدى خبثه ما فعله ولد من أولاد نوح، بل وتزداد شناعته على شناعة ما ارتكبه قابيل ضد أخيه هابيل. ولقد وصف حضرة بهاء الله تلك الأزمة الشديدة «بالأيام الشداد» التي انشق فيها «ستر حجب الكبرياء» ووقع «* الفصل الأكبر». أما الأعداء الخارجيون من رجال الدنيا ورجال الدين فقد

أظهروا امتنانهم لهذه الأزمة وقويت بها نفوسهم، وجعلوا منها مطية لبلوغ غاياتهم، وأثارت لديهم الهزء والسخرية التي لا يكتمون منها شيئاً. أما أصدقاء حضرة بهاء الله وأنصاره فقد حيرتهم الأزمة وعذبتهم كما أنها ألحقت الأذى الشديد بهيبة الدين في نظر المعجبين به من أهل الغرب. وكانت مراحل هذه الأزمة تغلي منذ الأيام الأولى لإقامة حضرة بهاء الله ببغداد. إلا أن القوى الخلاقة التي نفخت الحياة من جديد في الجامعة المتهالكة تحت زعامته المستورة كبحت جماحها بصورة مؤقتة. ثم عادت فانفجرت آخر الأمر بكل شدتها في السنوات التي سبقت إعلانه لرسالته مباشرة. فجرّت على حضرة بهاء الله حزناً عميقاً لا يسبر له غور، وأشعلت رأسه شيباً بصورة لا تخطئها العين، ووجهت إليه أعنف ضربة تلقاها في حياته. ولقد دبرتها من أولها إلى آخرها الدسائس والمكائد والخطط المتصلة التي حاكها السيد محمد الموسوس الجهنمي الذي تجاهل نصيحة حضرة بهاء الله له وأصرّ على مصاحبته إلى الآستانة وأدرنة، وأخذ يضاعف جهوده في يقظة وانتباه شديدين ليصل بالأزمة إلى ذروتها القصوى.

أما ميرزا يحيى فقد اعتاد، منذ رجوع حضرة بهاء الله من السليمانية، أن يعتكف في منزله اعتكافاً غير مشرف، أو أن ينسحب، إذا تأزمت الأمور، إلى الأماكن الآمنة كالحلة أو البصرة. بل لقد فرّ إلى البصرة متنكراً في زي يهودي من بغداد، واشتغل بتجارة الأحذية. بل لقد بلغ من خوفه وهلعه أنه روي عنه أنّه قال في إحدى المناسبات: «من ادّعى أنه رآني أو سمع صوتي فهو كافر!». فلما بلغه خبر اقتراب ركب حضرة بهاء الله إلى الآستانة اختبأ أول الأمر في بستان الهويدر القريب من بغداد، وفكر في الفرار إلى الحبشة أو الهند أو إلى أي قطر آخر. ولما رفض أن يعمل بما نصحه به حضرة بهاء الله، وهو أن يسافر إلى إيران لكي ينشر آثار حضرة الباب، أرسل رجلاً يشبهه يسمى الحاج محمد كاظم إلى سراي الحكومة لكي يحصل له على جواز سفر باسم ميرزا علي الكرمانشاهي ثم غادر بغداد تاركاً فيها آثار حضرة الباب وسافر متنكّراً مع بابي عربي يسمى زاهر إلى الموصل حيث التحق بجماعة المنفيين الذين كانوا في طريقهم إلى الآستانة.

اندفع هذا الناقض الأكبر لميثاق حضرة الباب يرتكب من الأعمال ما لا يمكن التستر عليه أو احتماله. وكان يدفعه إلى ارتكاب هذه الأعمال حرصه الشديد وحبه الجارف للزعامة. وكان يرى في هذه الأثناء رأي العين زيادة تعلق المنفيين بحضرة بهاء الله وإجلالهم له بصورة مذهلة تذوب لها نفسه حسرات. وكان يعلم حق العلم بما بلغته شهرة أخيه في بغداد وفي أثناء رحلته إلى الآستانة، ثم في اتصالاته بحكام أدرنة وبعلية القوم فيها فيفقد صوابه. أما الشواهد المتضاعفة على ما أبداه ذلك الأخ من الشجاعة والهيبة والاستقلال والترفع تجاه السلطات في العاصمة فكانت تثير حفيظته. كما كانت الألواح العديدة التي كان مؤسس الدورة الجديدة لا يكف عن إنزالها تملؤه غيظاً وكمداً. فأذن لنفسه أن تنخدع بما يزوده به السيد محمد دجّال الدورة البهائية، من آراء هوجاء تستفزه وتستنفره للزعامة بنفس الطريقة التي سمح بها محمد شاه لنفسه أن تنخدع بآراء الحاج ميرزا آقاسي دجال الدورة البابية. وأبى أن يستمع إلى ما كان أقطاب البابيّين يكتبون به إليه من وجوب توخي الحكمة والاعتدال وضبط النفس. ونسي ما بذله له حضرة بهاء الله من نصح، وما حباه به من عطف وهو الذي يكبره بثلاثة عشر عاماً فشاهد شبابه ورجولته. وكان يدفعه إلى التمادي في غيه عين الأخ الشفيق التي تغمض عن الذنوب وتغض عن العيوب، الأخ الذي كثيراً ما سحب ذيل العفو والغفران على جرائمه العديدة ونزواته الكثيرة.

نعم، أفسده اتصاله الدائم بالسيد محمد، رمز الخسة والدناءة والجشع والغدر، إفساداً لا يرجى له صلاح. فأخذ في أثناء غياب حضرة بهاء الله عن بغداد، بل وحتى بعد عودته من السليمانية، يلطخ تاريخ الدين بمخازٍ لا يمكن أن تمحى. فمن ذلك تحريفه لآثار حضرة الباب مرة بعد أخرى وزيادته الملحدة التي أضافها إلى صيغة الأذان حيث جعل من نفسه ومن الله سبحانه وتعالى شيئاً واحداً، وإدخاله في تلك الآثار لإشارات إلى خلافة عيّن فيها نفسه وأولاده من بعده ورثةً لحضرة الباب، وتذبذبه وبرودته حين بلغه نبأ

استشهاد مولاه الفاجع، وأمره بقتل مرايا الدورة البابية كلهم رغم أنه كان من تلك المرايا، وخسته التي تجلت في أمره بقتل الديان الذي كان يخشاه ويحسده، وجريمته الشنعاء التي ارتكبها أثناء غياب حضرة بهاء الله عن بغداد حين أمر باغتيال ميرزا علي أكبر ابن عم حضرة الباب. وأخزى من كل هذا مساسه المخزي بشرف حضرة الباب نفسه في غضون تلك المدة نفسها. وكان من المحتم على تلك الأفعال، كما يشهد آقاي كليم ويروي النبيل، أن تنفضح وتنكشف تحت ضوء أكثر شؤماً ولؤماً بأعمال وأفاعيل أوردته موارد الهلاك.

فقد بدأ يفكر تفكيراً محموماً في خطط يائسة ترمي إلى تسميم حضرة بهاء الله وأصحابه حتى يستعيد زعامته المتلاشية. وقد تملكه هذا التفكير المحموم بعد سنة تقريباً من وصولهم إلى أدرنة. ولما كان يعرف أن أخاه غير الشقيق، آقاي كليم، خبير بالعقاقير وخواصها فقد أخذ ينتحل المزاعم حتى يبين له تأثير بعض الأعشاب والسموم. ثم أخذ يلح في دعوة حضرة بهاء الله إلى منزله على مضض. وذات يوم نجح في أن يسمّه بأن لوّث فنجان الشاي بمادة سامة اصطنعها، فمرض حضرة بهاء الله مدة لا تقل عن شهر مرضاً شديداً صحبته آلام مبرحة وحرارة شديدة، ونتج عنه أن يد حضرة بهاء الله ظلت ترتعش طوال ما بقي من حياته. ولما بلغ المرض حد الخطورة استدعي لفحصه طبيب أجنبي يدعى شيشمان، فلما رأى الطبيب شحوب لونه الشديد وأدرك خطورة مرضه اعتبر حالته ميؤوساً منها، وركع عند قدميه وانسحب من محضره دون أن يوصي بأي دواء. وبعد أيام لزم شيشمان الفراش ومات. وقبل موته أخبر حضرة بهاء الله أن الطبيب شيشمان قد افتداه بحياته. أما شيشمان فقد ذكر لميرزا آقا جان الذي أرسله حضرة بهاء الله للاستفسار عن صحته أن الله قد استجاب لدعائه، وأنه ينبغي لهم بعد موته أن يستدعوا طبيباً يثق به يسمى الدكتور جوبان، إذا لزم الأمر.

ولقد كشفت إحدى الزوجات التي هجرت ميرزا يحيى زمناً عن تفاصيل

تلك الفعلة فشهدت بأن ميرزا يحيى سمم البئر التي كان أهل حضرة بهاء الله وأصحابه يشربون منها. وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت على جماعة المنفيين أعراض غريبة. بل إنه باح تدريجاً وبحذر شديد لأحد الأحباء المنفيّين، وهو الأستاذ محمد علي سلماني (الحلاق) الذي قرّبه إليه وأكرمه كثيراً، برغبته في أن يتحين الحلّاق فرصة مواتية ليغتال حضرة بهاء الله أثناء قيام الحلاق على خدمته في الحمام. وقد روى آقاي كليم هذه القصة للنبيل وهو في أدرنة فقال: «ثار الأستاذ محمد علي عند وقوفه على هذا الاقتراح حتى أنه أحس برغبة قوية في قتل ميرزا يحيى على الفور؛ ولولا خوفه من غضب حضرة بهاء الله لما توانى عن ذلك. وقد تصادف أنني كنت أول من رآه يخرج من الحمام وهو يبكي... وبعد مجهود كبير نجحت في أن أغريه بالعودة إلى الحمام ليتمم مهمته». وبالرغم من أن حضرة بهاء الله أمر الحلاق بألا يبوح لأحد بذلك الأمر إلا أنه عجز عن أن يستعيد هدوءه فأفشى السر، وبذلك أوقع الجامعة في رعب شديد. وفي ذلك قال حضرة بهاء الله: «** عندما كشف الله عن خبيئة صدره [يعني ميرزا يحيى] تنصّل من هذه النية ونسبها إلى ذلك الخادم [يعني محمد علي الحلاق]».

والآن آن الأوان لذلك الذي أخذ يكشف أخيراً عن مكنونات مطالبه ودعاويه شفاهاً وكتابة في ألواحه العديدة أن يوقف من كان قد رشّحه حضرة الباب لخلافته على طبيعة رسالته. وعلى هذا أمر آقا جان أن يحمل لميرزا يحيى «سورة الأمر» النازلة حديثاً، والتي تؤيد تلك المطالب والدعاوي بما لا يقبل اللبس ولا الغموض، وأن يقرأها عليه بصوت عال، وأن يطلب منه جواباً قاطعاً صريحاً. فاستمهله ميرزا يحيى يوماً واحداً ليفكر في الإجابة، فقبل. إلا أن الإجابة الوحيدة التي جادت بها قريحته كانت إعلاناً مضاداً يعيّن فيه الساعة والدقيقة التي أصبح فيها مهبط ظهور مستقل قائم بذاته يحتم خضوع أهل الأرض في الشرق والغرب له بلا قيد ولا شرط.

كان هذا الزعم المسرف الذي زعمه خصم هذه خيانته وهذا غدره

لرسول حضرة بهاء الله، حامل هذا الظهور الجبار، نذيراً بالفراق النهائي البائن بين حضرة بهاء الله وميرزا يحيى، وهو فراق يشير إلى فترة من أظلم فترات التاريخ البهائي. فانسحب حضرة بهاء الله مع أهل بيته إلى منزل رضا بيك (في الثاني والعشرين من شوال سنة ١٢٨٢ هـ) وقد تم استئجار هذا المنزل بناء على أمره، ورغبة في أن يخمد نار البغضاء المتأججة في صدور أعدائه، وأن يتيح لكل فرد من جماعة المنفيين الحرية الكاملة في الانحياز إليه أو إليهم دون ضغط ولا إكراه. وظل شهرين كاملين يرفض أن يخالط قريباً أو غريباً بما في ذلك أصحابه وبطانته. وكلف آقاي كليم أن يقسم كل ما في بيته من أثاث ورياش وفراش وملبس وآنية، وأن يرسل بنصفها إلى ميرزا يحيى، وأن يسلم إليه بعض الآثار المباركة التي كان يلح في طلبها من مثل أختام حضرة الباب وخواتمه ومخطوطاته. كما كلفه أن يؤكد له أنه سوف يتلقى نصيبه الكامل من المال الذي رصدته الحكومة لإعاشة المنفيين وعائلاتهم. وفضلاً عن ذلك أوصى آقاي كليم بأن يأمر من يقع اختيار ميرزا يحيى عليه من الأصحاب بشراء حاجياته اليومية من السوق، وأن يؤكد له بأنه سوف يتسلم من بعد ذلك كل ما يرد باسمه من إيران.

ويروى أن آقاي كليم قال للنبيل: «شهد ذلك اليوم الفزع الأكبر. فقد ناح الأصحاب جميعاً على احتجاب الجمال المبارك عنهم». وجاء في شهادة خطية كتبها أحد هؤلاء الأصحاب أن «تلك الأيام امتازت بالهرج والمرج. فقد غلبتنا الحيرة واعترانا الخوف العظيم من أن نحرم على الدوام من نعمة محضره».

على أنه قدّر لهذا الحزن أن يكون قصيراً، وتلك الحيرة أن تكون موقوتة ذلك لأن السعايات والوشايات التي ظل ميرزا يحيى والسيد محمد يشحنان بها خطاباتهما إلى إيران والعراق، والمناشدات المتذلّلة المنمّقة التي أخذ ميرزا يحيى يرفعها إلى خورشيد باشا حاكم أدرنة وإلى معاونه عزيز باشا جعلت حضرة بهاء الله يخرج من عزلته. وسرعان ما بلغه أن ذلك الأخ نفسه

قد أرسل إحدى زوجاته إلى سراي الحكومة تشكو من أن زوجها قد اغتصبت حقوقه، وأن أولادها على وشك الهلاك جوعاً، وهو اتهام ذاع أمره وشاع طولاً وعرضاً حتى بلغ الآستانة، وأصبح مصدر حزن شديد لحضرة بهاء الله لأنه صار موضوعاً للقيل والقال ومثاراً للتعليقات اللاذعة في الأوساط والدوائر التي تأثرت من قبل بمسلكه النبيل الوقور الذي سلكه في تلك المدينة. وسافر السيد محمد إلى العاصمة، ورجا السفير الإيراني، مشير الدولة، أن يخصص له ولميرزا يحيى منحة مالية خاصة، واتهم حضرة بهاء الله بأنه أرسل رسولاً يغتال ناصر الدين شاه. ولم يدخر وسعاً في سبيل السعاية بمن صبر عليه طويلاً واحتمل في صمت كل العظائم والكبائر التي اقترفها.

وبعد أن أقام حضرة بهاء الله في منزل رضا بيك ما يقرب من السنة عاد إلى المنزل الذي سكنه قبل اعتكافه عن أصحابه ثم انتقل بعد ثلاثة أشهر إلى منزل عزت آقا، وظل مقيماً فيه إلى أن غادر أدرنة. وفي شهر جمادى الأولى سنة ١٢٨٤ هـ (أيلول سنة ١٨٦٧ م) حدثت في هذا المنزل حادثة على أعظم جانب من الأهمية لأنها أفحمت ميرزا يحيى وأعوانه إفحاماً تاماً، وبشرت الصديق والعدو على السواء بانتصار حضرة بهاء الله. وتفصيل ذلك أن أحد البابيين من شيراز، ويسمى مير محمداً، كان يكره مزاعم ميرزا يحيى ودعاويه ويمقت اعتزاله وتستره مقتاً عظيماً. نجح في أن يغري السيد محمداً بأن يقنع صاحبه بأن يلتقي بحضرة بهاء الله وجهاً لوجه حتى يتبين للناس الحق من الباطل بصورة علنية وحاسمة. وزعم ميرزا يحيى أن أخاه العظيم لن يقبل هذه الدعوة. فعين مسجد السلطان سليم مكاناً للاجتماع. وما كاد هذا الخبر يبلغ مسامع حضرة بهاء الله حتى بادر بالسير على قدميه، في قيظ الظهيرة، يصحبه مير محمد هذا إلى المسجد المذكور في حيّ بعيد من أحياء المدينة. وكان حضرة بهاء الله يرتل الآيات أثناء سيره في الأسواق والطرقات بصوت أدهش كل من سمعه، وعلى نحو تعجب منه كل من رآه.

ومن الكلمات التي نطق بها في تلك المناسبة الفريدة، والتي شهد بها هو نفسه في أحد ألواحه قوله: «يا محمد! خرج الروح عن مقرّه، وخرجت معه أرواح الأصفياء ثم حقائق المرسلين. إنك إذن فاشهد أهل منظر الأعلى فوق رأسي، ثم في قبضتي حجج النبيين... قل لو يجتمع كل من على الأرض من العلماء والعرفاء ثم الملوك والسلاطين إنني لأحضر تلقاء وجوههم وأنطق بآيات الله الملك العزيز الحكيم. أنا الذي لا أخاف من أحد، ولو يجتمع عليّ كل من في السمٰوات والأرضين... هذا كفّي قد جعله الله بيضاء للعالمين. وهي عصاي لو نلقيها لتبلع كل الخلائق أجمعين». أما مير محمد فقد أرسل ليعلن عن قدوم حضرة بهاء الله، ولكنه سرعان ما عاد ليقول إن الذي تحدى سلطانه يرغب في أن يؤجل الاجتماع يوماً أو يومين لظروف خاصة طارئة. فعاد حضرة بهاء الله ولدى عودته إلى بيته أنزل لوحاً يسجل فيه ما حدث، ويضرب موعداً للقاء المؤجل. وختم اللوح بختمه وسلمه للنبيل، وأمره بأن يودعه عند أحد المؤمنين الجدد، وهو المُلاّ محمد التبريزي، لكي يخبر به السيد محمداً الذي اعتاد أن يغشو حانوت ذلك المؤمن. وقبل تسليم اللوح للسيد محمد تقرر أن يشترط عليه أن يحصل مقدماً من ميرزا يحيى على إقرار كتابي مختوم ببطلان مزاعمه إذا هو لم يحضر إلى مكان اللقاء. فوعد السيد محمد بالحصول على هذا الإقرار المطلوب في اليوم التالي. ورابط النبيل في الحانوت ثلاثة أيام بطولها انتظاراً للإقرار. ولكن السيد محمد لم يظهر ولم يرسل الإقرار. وبعد انقضاء ثلاثة وعشرين عاماً على هذه الحادثة يروي النبيل أن ذلك اللوح الذي لم يسلمه ما زال في حوزته جديداً كيوم حبّره الغصن الأعظم، حضرة عبد البهاء، وزيّنه مهر جمال القدم، شاهداً مادياً ملموساً على انتصار حضرة بهاء الله على خصمه المهزوم.

أما استجابة حضرة بهاء الله لتلك الحادثة التي تعد من أفجع حوادث ولايته فقد تميزت بالكرب والحزن كما لاحظنا. ولقد أبدى أساه بقوله: «* إنّ الذي ربّيته بيد الرحمة شهوراً وسنين قام بقتلي». وأشار إلى هؤلاء

الأعداء الخونة بقوله: «* لقد انحنى ظهري واشتعل رأسي شيباً بما ارتكب هؤلاء الظالمون. إنك لو حضرت بين يدي العرش لما عرفت جمال القدم فقد تبدلت طراوته من ظلم المشركين ونضب معين نضارته». وصاح مرة أخرى يقول: «تالله ما بقي في جسدي من محل إلا وقد ورد عليه رماح تدبيرك». وقال في موضع آخر: «يا أخي! فعلت بأخيك ما لا فعل أحد بأحد». وأكد فضلاً عن ذلك أنه: «بما جرى من قلمك قد خرّت وجوه العظمة على رماد السوداء، وشقت ستر حجب الكبرياء في الجنة المأوى، وتشبكت أكباد المقربين على مقاعد القصوى». ومع ذلك فإن الله البرّ الرحيم يؤكد في الكتاب الأقدس لهذا الأخ «مطلع الإعراض» الذي «هبت عليه من شطر نفسه أرياح الهوى» أن «لا تخف من أعمالك»، «فارجع إليه خاضعاً خاشعاً متذلّلاً » مؤكداً «أنه يكفّر عنك سيئاتك» وإن «ربك لهو التواب العزيز الرحيم».

وطرد «الصنم الأعظم» بأمر ينبوع العدل الأعظم، وبهيمنته واقتداره من صفوف جامعة الاسم الأعظم، وأفحم وافتضح وتحطم. فلما تطهر دين الله الجديد من هذا الرجس الشنيع وتخلص من هذا المسّ الفظيع استطاع أن ينمو ويتقدم، وأن يبدي، رغم الفتنة التي هزته هزاً، قدرته على أن يدخل في معارك أخرى، ويصل إلى قمم أعلى، ويحرز انتصارات أعظم وأسمى.

نعم، حدث في صفوف أتباعه صدع مؤقت لا جدال فيه، وكسف مجده، وتلوث تاريخه إلى الأبد. إلا أن اسمه لم يمح من صفحة الوجود، وكانت روحه أقوى من أن تقهر أو تتحطم، كما لم يستطع هذا الذي يقال له صدع و انشقاق أن يشق نسيجه أو يمزق كيانه. أما ميثاق حضرة الباب، الذي سبقت الإشارة إليه، فقد دافع، بحقائقه الصريحة ونبوءاته الناصعة وإنذاراته المتكررة القاطعة، عن هذا الدين وأمّن سلامته، وأدام نفوذه وتأثيره، وأظهر عدم قابليته للفساد.

وبالرغم من أن حضرة بهاء الله أمضّه الحزن وأضناه، وحتى ظهره الألم والكمد، وظل يعاني من آثار محاولة اغتياله، وبالرغم من أنه كان على علم باحتمال حدوث نفي آخر في القريب العاجل إلا أنه نهض بقوة لا مثيل لها، وحتى قبل أن تنتهي الأزمة، ليعلن لكل من جمعوا في قبضتهم زمام السلطة في الشرق والغرب الرسالة التي وكلت إليه، دون أن تعوّقه الضربة التي تلقاها أمره ولا الأخطار التي أحدقت به من كل جانب. وبهذا الإعلان قدّر لشمس ظهوره أن تتألق في دارة المجد، وقُدّر لدينه أن يظهر جلال قوته الإلٰهية.

وتلت ذلك فترة من النشاط العجيب فاقت في صداها سنوات الربيع من ولاية حضرة بهاء الله. كتب شاهد عيان فقال: «كانت الآيات الإلٰهية تنهمر كالغيث الهاطل ليل نهار. وكان ميرزا آقا جان يكتبها حين تملى عليه، على حين كان الغصن الأعظم يستغرق في استنساخها. ولم يكن ثمة لحظة واحدة نضيعها». وشهد النبيل «بأن عدداً من الكتبة انهمكوا ليل نهار في هذه المهمة، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينهضوا به. وكان من بينهم ميرزا باقر الشيرازي... الذي كان يستنسخ وحده ما لا يقل عن ألفي آية كل يوم. واستمر على ذلك ستة أشهر أو سبعة. وكان في كل شهر يستنسخ ما يوازي عدة مجلدات ويرسلها إلى إيران. وترك وراءه ما يقرب من عشرين مجلداً تذكاراً منه لميرزا آقا جان كتبها كلها بخطه الجميل». وإلى تلك الآيات أشار حضرة بهاء الله بقوله: «* إن غمام فضل الأمر وسحاب فيض الأحدية هاطل لدرجة أنه ينزل ما يعادل ألف آية في الساعة الواحدة»، «* بلغ اليوم من الفضل أنه لو استطاع أحد الكتبة أن ينجز مهمته لنزل في اليوم والليلة من سماء القدس الربانية ما يعادل البيان الفارسي». وفي مقام آخر يؤكد: «* تالله لقد نزل في تلك الأيام ما يعادل كل ما أنزل على النبيين من قبل». وأشار مرة أخرى إلى غزارة آثاره فقال: «* عجز الكتّاب عن تحرير ما نزل في هذه الأرض [أدرنة] فظل أكثره بلا تحبير».

وفي عنفوان الأزمة العصيبة، بل وقبل أن تبلغ ذروتها، انهمرت من قلم

حضرة بهاء الله ألواح لا حصر لها فصّل فيها مكنونات دعاويه الجديدة ومضامينها تفصيلاً كاملاً. وكان من بين الألواح التي رقمها قلمه حين انتقل إلى منزل عزت آقا: سورة الأمر، ولوح النقطة، ولوح أحمد، وسورة الأصحاب، ولوح السياح، وسورة الدم، وسورة الحج، ولوح الروح، ولوح الرضوان، ولوح التُّقى. وبعد «الفصل الأكبر» نزلت أخطر الألواح المرتبطة بإقامته في أدرنة؛ ومنها سورة الملوك، وهي أهم لوح خاطب فيه حضرة بهاء الله جماعة الملوك في الشرق والغرب للمرة الأولى، كما خاطب فيه سلطان تركيا ووزراءه وملوك العالم المسيحي والسفير الفرنسي والسفير الإيراني لدى الباب العالي ورجال الدين المسلمين في الآستانة، وحكماءها وسكانها، وأهل إيران وفلاسفة العالم كلاً على حدة. ومنها «الكتاب البديع» وهو دفاع كتبه ليفند به اتهامات ميرزا مهدي الرشتي وهو شبيه بكتاب الإيقان الذي أنزله دفاعاً عن الدورة البابية. ومنها أدعية الصيام التي كتبها تمهيداً لكتاب الأحكام. ومنها اللوح الأول لنابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين يختبر فيه مدى إخلاصه في اعترافاته. ومنها لوح السلطان، وهو خطابه المفصّل لناصر الدين شاه الذي يبسط فيه أهداف دينه وأغراضه ومبادئه، ويدلل على صدق دعواه وصحة رسالته. ومنها سورة الرئيس التي بدئت في قرية كاشانه في طريقه إلى غاليبولي وتمت بعد ذلك بقليل في جياور كوي. وكل هذه آثار لا تعتبر أبرز الألواح العديدة النازلة في أدرنة فحسب بل إنها لتحتل مكانة عليا بين آثار صاحب الظهور البهائي.

وفي رسالة حضرة بهاء الله إلى الملوك، في سورة الملوك، أظهر لهم طبيعة رسالته، ودعاهم إلى اعتناق أمره، وأكد لهم صحة ظهور حضرة الباب، وآخذهم على قلة اكتراثهم لأمره، وناشدهم أن يقيموا العدل، وأن ينتبهوا ويصلحوا ذات بينهم، ويقللوا من التسلح، وبسط القول في مصائبه، واستأمنهم على الفقراء، وحذرهم من الإعراض عن نصائحه حتى لا «يأخذكم العذاب من كل الجهات» وتنبأ لهم بأن الله «سوف يرفع أمره بين السمٰوات والأرضين» ولو لم يتوجه إليه منهم أحد.

وفي هذا اللوح لام حضرة بهاء الله ملوك العالم المسيحي بصفة خاصة لأنهم لم «يتقربوا» أو «يتوجهوا» إلى «روح الحق»؛ ولأنهم «كانوا لاعبين بلعب أنفسهم». وأعلن أنهم سوف «يرجعون إلى الله ويسألون» عن أعمالهم «في مقرّ الذي تحشر فيه الخلائق أجمعين».

وأمر السلطان عبد العزيز أن «اسمع قول من ينطق بالحق... وكان على قسطاس حق مستقيم»، ودعاه إلى أن يصرّف بنفسه شؤون الناس ولا يضع ثقته في من ليسوا لها بأهل، وحذره ألا يتكل على خزائنه وألا «تفرط في الأمور» وأن يعامل خدّامه بالإنصاف ويعدل بينهم على «الخط الاستواء»، وأطلعه على مصائبه وبلاياه. وفي اللوح نفسه أكد براءته وولاءه للسلطان ووزرائه، ووصف ظروف نفيه من العاصمة، وطمأنه على دعائه من أجله.

وفضلاً عن ذلك وجّه إلى ذلك السلطان من غاليبولي، كما يذكر في سورة الرئيس، رسالة شفهية مع ضابط تركي يسمى عمر يسأل العاهل فيها أن يأذن له بلقاء لا يستغرق أكثر من عشر دقائق «* يسأله السلطان فيه عما يعتبره دليلاً على صدق قول الحق» حتى «* إذا جاء [الدليل] من عند الله أطلق سراح هؤلاء المظلومين وتركوا وشأنهم».

وإلى نابليون الثالث وجه حضرة بهاء الله، على يد أحد وزراء الإمبراطور، لوحاً خاصاً أطال فيه الوقوف عند الآلام التي تحملها هو وأتباعه. وأقسم له على براءتهم. وذكّره بالبيانين اللذين أصدرهما الإمبراطور بشأن المظلومين والبائسين وعلى هذا أهاب به أن «* * يتحرى عن حال من ظلموا كل هذا الظلم»، وأن «* * يشمل الضعفاء بعنايته» وأن ينظر إليه وإلى من نفي معه «* * بعين العطف». ولم يكن ذلك من جانب حضرة بهاء الله إلا تمحيصاً واختباراً لصدق دوافع الإمبراطور.

وإلى ناصر الدين شاه أنزل لوحاً، هو أطول خطاب وجه إلى حاكم واحد، يشهد فيه بشدة المتاعب التي عاناها، ويستعيد إلى الذاكرة اعتراف الشاه ببراءته عشية نفيه إلى العراق، ويناشده أن يحكم بالعدل، ويصف له

كيف أمره الله أن ينهض ويعلن رسالته، ويؤكد له براءة نصائحه عن كل غرض. ويقرر إيمانه بوحدانية الله وإيمانه برسله وأنبيائه، ويدعو له غير مرّة. ويدافع عن مسلكه الذي سلكه في العراق، وينبه على أثر تعاليمه الصالح ويؤكد استنكاره لكل ألوان العنف والفساد. أضف إلى ذلك أنه يدلل في اللوح نفسه على صحة رسالته وصدقها، ويعبّر عن رغبته في أن «* يجتمع بعلماء العصر بمحضر السلطان فيقيم الحجة ويأتي بالبرهان» على صدق دعواه وصحة أمره. ويفضح ضلال رجال الدين على أيامه وعلى أيام السيد المسيح وحضرة محمد. ويتنبأ بأن آلامه تتلوها «رحمة كبرى» وأن «* هذه الشدائد العظمى يعقبها رخاء عظيم». ويقارن بين البلايا التي أصابت أهل بيته وبين ما أصاب آل محمد. ويبسط القول في اضطراب شؤون العالم، ويصف المدينة التي يوشك أن ينفى إليها، ويتنبأ بانحدار منزلة العلماء في مستقبل الأيام. وختم اللوح بتعبير آخر عن أمله في أن يؤيد الله الشاه على أن يكون «ناصراً لأمره وناظراً إلى عدله».

وإلى عالي باشا، الصدر الأعظم، وجه حضرة بهاء الله «سورة الرئيس». وفيها أمره بأن «اسمع نداء الله»، وأعلن له أن «قباعه» أو «نباح» من حوله أو «جنود العالمين» لن تثني العليّ القدير عن أن يحقق هدفه وغايته، واتهمه فيها بارتكاب ما «ينوح به محمد رسول الله في الجنة العليا»، وبالاتحاد مع السفير الإيراني على إيذائه. وفيها تنبأ له «بالخسران المبين»، وفيها مجّد يوم ظهوره وتنبأ بأن هذا الظهور «سوف يحيط الأرض ومن عليها»، وأنه «سوف تبدل أرض السرّ [أي أدرنة] وما دونها، وتخرج من يد الملك، ويظهر الزلزال ويرتفع العويل ويظهر الفساد في الأقطار». وفيها طابق بين ظهوره وظهور موسى وعيسى. وذكّره «باستكبار» كسرى فارس أيام محمد، و«طغيان» فرعون أيام موسى و«شرك» النمرود أيام إبراهيم. وفيها أعلن أنه ما جاء إلا لكي «يحيي العالم ويتحد من على الأرض كلها».

وفي «سورة الملوك» يؤاخذ وزراء السلطان على مسلكهم، وذلك في

فقرات متعددة يتحدى فيها صلابة مبادئهم، ويتنبأ لهم فيها بأنهم سوف يجازون على أعمالهم، ويفضح فيها تكبّرهم وظلمهم؛ ويؤكد لهم تقواه وزهده وانقطاعه عن الدنيا وما فيها، ويعلن لهم فيها براءته.

وفي السورة نفسها يلوم السفير الفرنسي لدى الباب العالي على اتحاده مع سفير العجم عليه، ويذكّره بوصايا السيد المسيح كما وردت في إنجيل يوحنا، ويحذره بأنه سوف يسأل عما جنت يداه. وينصحه، هو وأمثاله، بألاّ يعامل أحداً بمثل ما عامله هو به.

وفي ذلك اللوح نفسه يوجّه إلى سفير العجم بالآستانة فقرات طوالاً يفضح فيها توهماته وافتراءاته، ويندد فيها بظلمه وظلم مواطنيه ويؤكد له أنه لا يحمل له أي ضغينة، ويعلن له أنه لو أدرك شناعة ما فعل لقضى أيام عمره نائحاً، ويجزم أنّه سوف يستمر في غفلته وقلة اكتراثه إلى أن يموت؛ ويدافع عن مسلكه الذي سلكه في طهران والعراق. وشهد بفساد الوزير الإيراني في بغداد وتواطئه مع هذا الوزير.

وفي السورة نفسها يوجه إلى أهل السنة في الآستانة رسالة خاصة يتّهمهم فيها بالغفلة والموت الروحي، ويؤاخذهم على تكبرهم وعجزهم عن التماس محضره، ويزيح لهم الستار عن مجد رسالته الكامل ودلالتها الجبارة. ويؤكد لهم أن رؤساءهم لو كانوا أحياء «لطافوا حوله»، ويصفهم بأنهم «عبدة الأسماء» ومحبو الزعامة، ويقسم أن الله لن يقبل منهم شيئاً إلا إذا «تجددوا» في محضره.

ويكرس الفقرات الختامية من سورة الملوك لحكماء الآستانة وفلاسفة الأرض. وفيها يحذرهم من التكبر أمام الله، ويكشف لهم عن جوهر الحكمة الحقيقي، وينبه على أهمية الإيمان الصحيح والمسلك القويم. ويؤاخذهم على عجزهم عن أخذ العرفان عنه. وينصح لهم «أن لا تتجاوزوا عن حدود الله» وألا يلتفتوا إلى «قواعد الناس وعاداتهم».

ولأهل الآستانة يعلن في اللوح نفسه أنه «ما نخاف من أحد إلا الله»،

وأنه لا يتكلم «إلا بما أمر» وأنه لا يتبع إلا الحق المبين، وأنه وجد حكام المدينة ورؤساءها «كالأطفال الذين يجتمعون على الطين ليلعبوا به»، وأنه لم يجد بينهم أحداً يستحق أن يتعلم الحقائق التي علمها الله له؛ ويأمرهم بأن يعتصموا بما شرّع الله، ويحذرهم ألا يتكبروا أمام الله وأحبائه، ويذكّرهم بالشدائد التي عاناها الإمام الحسين، ويشيد بفضائله. ويدعو الله أن يعاني من الشدائد مثل ما عانى الإمام الحسين. ويتنبأ لهم أن الله سوف يرفع عما قريب تلك الأمّة التي تروي أخبار مصائبه، وتطالب المضطهدين بردّ حقوقه، ويهيب بهم أن يستمعوا إلى كلماته ويرجعوا إلى الله تائبين.

وأخيراً يخاطب أهل إيران في اللوح نفسه مؤكداً أنهم لو قتلوه لأظهر الله من يقوم مقامه، ويبيّن لهم أن الله العليّ القدير سوف «يتم نوره» ولو كرهوا ذلك في سرائرهم.

هذا الإعلان البالغ كل هذه الجسامة، والصادر في فترة بالغة كل هذه الحساسية، عن حامل رسالة بالغة كل هذا السمو، إلى ملوك الأرض، مسلمين ومسيحيين، وإلى الوزراء والسفراء ورجال الدين من أهل السنة، وإلى حكماء الآستانة وأهلها، حاضرة السلطنة والخلافة في آن واحد، وإلى فلاسفة العالم وإلى أهل إيران، لا ينبغي أن يعدّ الواقعة البارزة الوحيدة من وقائع أيّام إقامة حضرة بهاء الله في أدرنة بل إن هناك طائفة من التطوّرات والأحداث العظيمة الدلالة لا بد أن نذكرها هنا، وإن قلّ شأنها، لكي تساعدنا على تقدير أهمية هذه المرحلة المضطربة العصيبة من ولاية حضرة بهاء الله تقديراً أطيب.

فمن ذلك ما حدث في غضون تلك الفترة كنتيجة مباشرة لعصيان ميرزا يحيى وسقوطه ذلك السقوط المخيف، وهو أن بعض أصحاب حضرة بهاء الله (ممن يمكن اعتبارهم من «كنوز الأرض» التي وعده بها الله حين كانت أغلال سياه چال تثقل عنقه)، نهضوا يدافعون عن الدين الجديد ويردّون على مزاعم خصومهم في رسالات مفصلة عديدة أسوة بمولاهم في «الكتاب

البديع» ويدحضون حججهم الواهية ويفضحون أعمالهم الشنيعة. وكان من بين هؤلاء المدافعين حرف من حروف الحيّ وبعض من عاش بعد معركة طبرسي والمُلاّ ميرزا أحمد الأزغندي. وفي هذه الفترة اتسع نطاق الدين ونصبت رايته ثابتة في القوقاز على يد المُلاّ أبي طالب وآخرين ممن بلّغهم النبيل، وتأسس أول مركز في مصر حين استقرّ بها السيد حسين الكاشاني والحاج باقر الكاشاني. وأضيفت سوريا إلى الأراضي التي سبق أن أنارتها وأدفأتها بواكير شعاعات الظهور الإلٰهي، ونعني بها العراق وتركيا وإيران. وفي هذه الفترة حلت تحية «الله أبهى» محل «الله أكبر»، التحية القديمة، واتخذت في إيران وأدرنة في وقت واحد. وكان المُلاّ محمد الفروغي أحد المدافعين عن قلعة الشيخ طبرسي أول من استعملها في إيران نزولاً عند توصية النبيل. وفي هذه الفترة اُستغني عن لقب «أهل البيان» الذي أصبح ينصرف إلى أتباع ميرزا يحيى دون غيرهم، وحل محله لقب «أهل البهاء». وفي غضون تلك الأيام شرف حضرة بهاء الله النبيل بلوح خاص أنعم فيه عليه بلقب النبيل الأعظم، وأمره فيه بأن يبلغ رسالة مولاه إلى أهل الشرق والغرب. ورغم اتصال الاضطهادات واستمرارها فإنه نهض ليهتك «الحجاب الأكبر» ويغرس محبة مولاه المحبوب في الأفئدة والقلوب من بني جنسه، ويدافع عن الأمر الذي أعلنه محبوبه في هذه الظروف العصيبة. وفي غضون تلك الأيام أيضاً كلف حضرة بهاء الله النبيل بأن يرتل لوحي الحج النازلين حديثاً، وأن ينوب عنه في أداء الشعائر المنصوص عليها فيهما أثناء زيارة بيت حضرة الباب في شيراز والبيت الأعظم في بغداد، وهو عمل يشير إلى بداية تكليف من أقدس التكاليف التي قررت فيما بعد في «الكتاب الأقدس». وفي هذه الفترة أنزل حضرة بهاء الله أدعية الصيام تمهيداً للحكم الذي كان سيعلن عنه بعد قليل. وفي غضون نفي حضرة بهاء الله إلى أدرنة أيضاً وجّه لوحاً إلى المُلاّ علي أكبر الشهميرزادي وجمال البروجردي، وهما من أشهر أتباعه في طهران، يأمرهما فيه أن ينقلا رفات حضرة الباب من مخبئها في مرقد إمام زاده معصوم إلى مخبأ أمين آخر بمنتهى الحرص والتكتم، وهو عمل أثبتت

الأيام فيما بعد أنه صادر من العناية الإلٰهية، ويمكن أن يعتبر إشارة إلى مرحلة أخرى من مراحل الطريق الطويل الشاق الذي سلكته هذه الرفات إلى قلب جبل الكرمل، إلى البقعة التي عينها فيما بعد في توصياته لحضرة عبد البهاء. وفي غضون تلك الفترة نزلت سورة الغصن تتنبأ بمقام حضرة عبد البهاء المقبل، وتصفه بـ«غصن القدس» و«غصن الأمر» و«وديعة الله» والذي «بعثناه على هيكل الإنسان»، وهي سورة يمكن أن تعد بحق بشيراً بالمقام الذي سوف يخلعه عليه الكتاب الأقدس ثم يتضح ويتأيد في كتاب العهد. وفي غضون تلك الفترة، أخيراً، تمت الزيارات الأولى إلى مقام من أصبح الآن المركز الواضح اللائح للدين الجديد. وكانت حكومة إيران المذعورة تقاوم هذه الزيارات وتضع أمامها الصعوبات والعراقيل نظراً لكثرتها وطبيعتها. ثم تمادت فيما بعد إلى منعها وحظرها. ولكنها كانت مبشرة بفيض دافق من الزوار الذين يمّموا وجوههم شطر سجن عكاء في ظروف خطرة قاسية أول الأمر. وقد قدّر لهذه الزيارات أن تبلغ قمتها بقدوم ملكة مؤمنة إلى سفوح الكرمل، وإن حيل بينها وبين إتمام تلك الزيارة التي طالما تمنتها وأعلنت عن عزمها القيام بها.

هذه التطوّرات الملحوظة التي عاصر بعضها إعلان دين حضرة بهاء الله، ونبع بعضها الآخر من الأزمة الداخلية الخطيرة التي مر بها، لم تغب عن ذاكرة الأعداء الخارجيين الذين اجتهدوا في استغلال كل أزمة يحدثها طيش الأصدقاء أو غدر الأعداء المرتدين أسوأ استغلال. وما كادت السحب الكثيفة تنقشع عند الإشراق المفاجئ لنور الشمس من أعلى أبراجها حتى انقضت كارثة أخرى كانت آخر ما قدر لمؤسس الدين أن يعاني. فأظلمت سماء هذه الشمس، وتعرّض الدين لامتحان من أقسى الامتحانات التي لم يتعرض لمثلها من قبل.

كان من نتيجة المصائب التي نزلت أخيراً بساحة حضرة بهاء الله أن تجرأ الأعداء، وبعد هدوئهم المؤقت، فبدأوا يظهرون العداوة الكامنة في صدورهم بشتى الطرق. وبهذا استؤنف الاضطهاد في البلاد المختلفة على

درجات متفاوتة، ففي آذربيجان وزنجان ونيسابور وطهران سجن أتباع الدين ولعنوا وعذبوا وقتلوا. ويمكن أن نخصّ بالذكر من بينهم نجف علي الزنجاني الشجاع، أحد من شهدوا معركة زنجان وخلّده «لوح ابن الذئب» لأنه وهب لجلاده كل ما كان يملك من الذهب، وسمعه الناس يصيح بصوت عال «يا ربي الأبهى» قبل أن يضرب عنقه. وفي مصر اغتصب القنصل العام الطماع الخسيس ما لا يقل عن مائة ألف تومان من أحد المؤمنين الإيرانيين الأثرياء، وهو الحاج أبو القاسم الشيرازي. كما ألقى القبض على الحاج ميرزا حيدر علي وستة من إخوانه المؤمنين واستصدر أمراً بنفيهم إلى الخرطوم تسع سنوات، وصادر كل ما كان لديهم من آثار بل وسجن النبيل الذي أرسله حضرة بهاء الله إلى الخديوي شفيعاً لهم. وفي بغداد والكاظمين عامل الأعداء المتربصون أنصار حضرة بهاء الله المخلصين أشنع معاملة وأقساها وأذلّها. من ذلك أنهم بقروا أحشاء عبد الرسول القمي وهو يحمل الماء من النهر في قربة إلى البيت الأعظم فجراً، ونفوا إلى الموصل ما يقرب من السبعين من أصحابه بمن فيهم النساء والأطفال بين مظاهر السخرية والاستهزاء.

ولم يكن ميرزا حسين خان مشير الدولة وأعوانه بأقل نشاطاً، فقد صمموا على استغلال المتاعب التي حلت أخيراً بساحة حضرة بهاء الله أتم استغلال. فنهضوا ليدمروه تدميراً. وفقدت سلطات العاصمة صوابها لمظاهر الإجلال التي أبداها لحضرة بهاء الله كل من الوالي محمد باشا القبرصي الصدر الأعظم السابق وخليفته سليمان باشا الذي كان ينتمي إلى فرقة القادرية، وخورشيد باشا الذي أخذ يتردد على بيت حضرة بهاء الله علانية، وأخذ يرحب به أيام رمضان، ويبدي الإعجاب الشديد بحضرة عبد البهاء. وكانت هذه السلطات تعلم باللهجة المتحدّية التي كان حضرة بهاء الله يكتب بها بعض ألواحه الحديثة، وتدرك مدى الاضطراب السائد في بلادها. كما أزعجها تدفق سيل الزوار على أدرنة وخروجهم منها. وأقلقتها التقارير المهوّلة التي كان يكتبها فؤاد باشا الذي مرّ بأدرنة آنذاك في إحدى جولاته

التفتيشية. وأثارتها استعطافات ميرزا يحيى التي كانت تصلها على يد صنيعه السيد محمد، وملأت صدرها رعباً تلك الخطابات المجهولة (التي كان يكتبها السيد محمد هو وشريكه آقا جان الذي كان يعمل في المدفعية التركية) والتي حرّف فيها آثار حضرة بهاء الله واتهمه بالاستعانة بزعماء البلغار وبعض وزراء الدول الأوروبية على فتح الآستانة بمعونة بضعة آلاف من أتباعه. والآن شجع هذه السلطات ما رأت من القلاقل الداخلية التي زعزعت أركان الدين. وساءها الإجلال الظاهر الذي كان قناصل الدول الأجنبية في أدرنة يبدونه لحضرة بهاء الله. فعزمت على أن تخطو خطوة حاسمة تستأصل بها شأفة الدين، وتبعد مؤسسه وتصل به إلى العجز التام. ولا شك في أن الأعمال الطائشة التي قام بها بعض المتحمسين من الأتباع الذين جاءوا إلى الآستانة زادت الحال توتراً على توتر.

وأخيراً استقر الرأي على ذلك القرار التاريخي الخطير الذي أدّى إلى نفي حضرة بهاء الله إلى عكاء، مستعمرة العقاب، ونفي ميرزا يحيى إلى فاماغوستا في قبرص. بذلك أصدر السلطان عبد العزيز فرماناً ضخم الألفاظ فخم العبارات. وألقى القبض على كل من جاء إلى العاصمة من أصحاب حضرة بهاء الله مع نفر قليل ممن لحقوا بهم ومعهم آقا جان المفسد الشهير. واستجوبتهم السلطات، وسحبت أوراقهم وسجنتهم. كما استدعت السلطات أفراد الجامعة في أدرنة إلى سراي الحكومة عدة مرات للتأكد من عددهم. وفي تلك الأثناء طارت الشائعات بأن السلطات سوف تشتت شمْلهم بدداً، وتنفيهم إلى أماكن مختلفة متفرقة، أو تغتالهم في الخفاء.

وذات صباح حاصر الجنود منزل حضرة بهاء الله فجأة، وقام الحراس على أبوابه. ومن جديد استدعت السلطات أتباعه، واستجوبتهم، وأمرتهم بالاستعداد للرحيل. وإليك شهادة حضرة بهاء الله التي سجلها في سورة الرئيس: «وترك أحباء الله وآله من غير قوت في الليلة الأولى... زحف الناس حول البيت، وبكى علينا الإسلام والنصارى... إنا وجدنا ملأ الابن

[المسيحيين] أشد بكاء من ملل أخرى، وفي ذلك لآيات للمتفكرين». وشهد آقا رضا، وهو أحد الأتباع المخلصين الّذين نفوا مع حضرة بهاء الله من بغداد إلى عكاء، شهادته الناصعة حين قال: «استولى الاضطراب العظيم على الناس وأخذتهم الحيرة وعمهم الأسف والحزن العميق... وكان بعضهم يبدي عطفه علينا، بينما أخذ بعضهم الآخر يواسينا ويبكي حزناً علينا... ولقد بيع معظم أمتعتنا بنصف قيمتها في المزاد.» وزار بعض قناصل الدول الأجنبية حضرة بهاء الله وأبدوا استعدادهم الكامل للسعي لدى حكوماتهم لصالحه. وقد أثنى حضرته على هذه النوايا، ولكنه اعتذر عنها ورفضها رفضاً قاطعاً. وفي ذلك كتب يقول «** لقد اجتمع قناصل هذه المدينة [أدرنة] بمحضر الغلام ساعة رحيله، وعبّروا عن رغبتهم في مساعدته. حقاً لقد أبدوا لنا حباً ظاهراً».

أما السفير الإيراني فقد أخبر قناصل إيران في العراق وفي مصر بأن الحكومة التركية قد تخلت عن حماية البابيين، وبأن لهم مطلق الحرية في أن يعاملوهم بالطريقة التي تحلو لهم. وفي تلك الأثناء تقاطر على أدرنة عدد من الزائرين منهم الحاج محمد إسماعيل الكاشاني الملقب بـ«الأنيس» في لوح الرئيس. ولكنهم أرغموا على الرحيل إلى غاليبولي من دون أن يروا طلعة مولاهم. بل لقد اضطر أثنان من الأصحاب إلى الانفصال عن زوجتيهما بالطلاق لأن أقرباءهما رفضوا السماح لهما بالذهاب إلى المنفى. أما خورشيد باشا الذي أنكر بصورة قاطعة كل الاتهامات الخطية التي كانت سلطات الآستانة ترسلها إليه، والذي تدخل لصالح حضرة بهاء الله بحرارة وحماسة فقد انزعج أيما انزعاج لما أقدمت عليه حكومته، إلى حد أنه صمم على التغيب حين بلغه خبر رحيل حضرة بهاء الله الفوري عن المدينة وكلف المسجّل بأن يبلغ حضرة بهاء الله فحوى الفرمان. وقد اتضح للحاج جعفر التبريزي، وهو أحد الأتباع المخلصين، أن اسمه حذف من قائمة المنفيين مع حضرة بهاء الله. فذبح نفسه بموسى ولكن حيل بينه وبين الانتحار في الوقت المناسب. وقد وصف حضرة بهاء الله هذا العمل في سورة الرئيس بأنه «ما لا

سمعناه من قرون الأولين» و«اختصه الله بهذا الظهور إظهاراً لقدرته».

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٨٥ هـ (الموافق لليوم الثاني عشر من شهر آب سنة ١٨٦٨ م) خرج حضرة بهاء الله وأهله في العربات يحرسهم ضابط تركي اسمه حسن أفندي وجنود آخرون اختارتهم الحكومة المحلية ليبدأوا رحلة أربعة أيام إلى غاليبولي. وفي الطريق توقفوا في أزون كوبري، وكاشانه حيث نزلت سورة الرئيس. وشهد شاهد عيان فقال: «أقبل أهالي الحي الذي نزل فيه حضرة بهاء الله وجيرانهم ليودعوا حضرة بهاء الله واحداً واحداً. وكان الحزن والأسف يملأ قلوبهم. وكانوا يقبّلون يده ويلثمون أذيال ثوبه معبرين عن حزنهم لمغادرته مدينتهم. بل لقد كان اليوم يوماً غريباً حتى لكأن المدينة بحيطانها وأبوابها حزينة تقول وتنوح على قرب فراقه لها». وشهد شاهد عيان آخر فقال: «في ذلك اليوم اجتمع على باب محبوبنا جمهور عجيب من المسلمين والمسيحيين. وكانت ساعة الرحيل خالدة. فقد بكى وناح معظم الحاضرين ولا سيما المسيحيون. وأما حضرة بهاء الله فقد أعلن في سورة الرئيس: «قل قد خرج الغلام من هذه الديار وأودع تحت كل شجر وحجر وديعة سوف يخرجها الله بالحق».

وكان عدد من الأصحاب الذين أخرجوا قبلاً من الآستانة ينتظرونهم في غاليبولي. وعندما وصل ركب حضرة بهاء الله إلى غاليبولي انتهت مهمة حسن أفندي، وجاء يطلب الإذن بالعودة فقال له حضرة بهاء الله: «** قل للسلطان سوف تخرج هذه الأرض من يده، وسوف تضطرب الأمور». قال آقا رضا الذي سجل هذا المشهد: «وإلى هذا أضاف حضرة بهاء الله قوله: (لست أنا قائل هذا بل إنه هو الله). وكان حضرته يرتل الآيات بصوت يبلغ مسامعنا ونحن في الطابق الأول، كان يرتلها بحرارة خيل لي معها أن أساس المنزل يهتز ويرتجف».

ولم يكن أحد يدري أين ينتهي المطاف بحضرة بهاء الله حتى وهم في غاليبولي حيث قضوا ثلاث ليال، ظن بعضهم أن حضرته سوف ينفى مع

إخوانه إلى مكان واحد،على أن يشتت الآخرون وينفون من الأرض. وظن آخرون أن أصحابه سوف يرغمون على العودة إلى إيران. بينما توقع آخرون أنهم سوف يقتلون جميعاً وكانت أوامر الحكومة الأصلية تنص على أن ينفى حضرة بهاء الله وآقاي كليم وميرزا محمد قلي مع أحد الخدم إلى عكاء، وأن ترحل البقية إلى الآستانة. إلا أن هذه الأوامر التي حزت في النفوس ألغيت بفضل إصرار حضرة بهاء الله وتوسط عمر أفندي القائد الذي انتدب لمصاحبة المنفيين. وأخيراً استقر الرأي على أن ينفى كل الأصحاب إلى عكاء وكانوا زهاء السبعين. كما صدرت الأوامر بأن يصحب هؤلاء المنفيين عدد من أتباع ميرزا يحيى منهم السيد محمد وآقا جان، وأن يرحل أربعة من أصحاب حضرة بهاء الله مع الأزليين إلى قبرص.

وكانت الامتحانات والأخطار المحدقة بحضرة بهاء الله ساعة رحيله من غاليبولي شديدة حتى أنه حذر أصحابه قائلاً إن هذه الرحلة تختلف عن أية رحلة أخرى، ونصح من لا يأنس في نفسه الكفاءة لمواجهة المستقبل بأن يرحل إلى حيث يريد ناجياً بنفسه من الامتحانات، لأنه متى رحل معهم فإنه سوف يجد نفسه عاجزاً عن العودة. وقد أجمع الأصحاب على تناسي هذا التحذير.

وفي صباح الثاني من جمادى الأولى سنة ١٢٨٥ هـ (الموافق للحادي والعشرين من آب سنة ١٨٦٨ م) استقلوا باخرة تابعة لشركة اللويد النمساوية كانت متجهة إلى الإسكندرية، وانعطفت نحو مادللي ثم توقفت يومين في إزمير وهناك مرض جناب منير الملقّب بـ«اسم الله المنيب» مرضاً شديداً، وتخلف عن الركب في أحد المستشفيات، وما لبث أن فاضت روحه. فلما بلغوا الإسكندرية انتقلوا إلى باخرة أخرى تابعة للشركة نفسها كانت متجهة إلى حيفا حيث نزلوا إلى البر بعد وقفتين قصيرتين في بور سعيد ويافا. ومن ميناء حيفا استقلوا زورقاً شراعياً إلى عكاء حيث نزلوا إلى البر عصر الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٨٥هـ (الموافق ٣١ آب سنة ١٨٦٨ م). وفي

اللحظة التي همّ فيها حضرة بهاء الله بركوب الزورق الذي يقله إلى رصيف الميناء بحيفا ألقى عبد الغفار بنفسه في البحر يائساً وهو يصيح «يا بهاء الأبهى!» وكان عبد الغفار هذا أحد الأربعة الذين قضي عليهم بأن يصحبوا ميرزا يحيى إلى منفاه. وكثيراً ما أثنى حضرة بهاء الله على «حبه وانقطاعه وتوكله واستقامته». ولكنه أنقذ وأعيد إلى صوابه بصعوبة، وأرغمه رجال الحكومة القساة على متابعة الرحلة مع فريق ميرزا يحيى إلى الجهة التي عينت لهم من قبل.

سجن حضرة بهاء الله في عكاء

يشير نزول حضرة بهاء الله عكاء إلى بداية الطور الأخير من ولايته التي دامت أربعين سنة، كما أنه يدخل بالنفي الذي استغرق كل ولايته إلى نهايته، لا بل إلى قمته. والواقع أن هذا النفي اقترب به في البداية من معاقل الشيعة، وجعله يتصل بأقطابهم البارزين اتصالاً مباشراً. ثم حمله هذا النفي، في مرحلة تالية، إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، وأتاح له الفرصة لكي يوجه بياناته المهيمنة التاريخية إلى السلطان ووزرائه وإلى أقطاب أهل السنة ورجالاتهم. والآن ينزل به هذا النفي إلى شواطئ الأرض المقدسة وهي الأرض التي وعد الله بها إبراهيم، وقدسها كتاب موسى، ومجدها أحبار العبرانيين وقضاتهم وملوكهم وأنبياؤهم بحياتهم وأعمالهم، واكتسبت قداستها من أنها مهد المسيحية، والمكان الذي اجتمع فيه زرادشت ببعض أنبياء بني إسرائيل حسبما يؤكد حضرة عبد البهاء. كما اكتسبت عظمتها لدى الإسلام من ارتباطها بإسراء الرسول الكريم وعروجه في السموات السبع إلى عرش الله العلي القدير. في هذه البلاد المقدسة المحسودة «* وكر الأنبياء» و«* وادي أمر الله المكنون، البقعة البيضاء، أرض البهاء المنير» كتب على منفي بغداد والآستانة وأدرنة أن يقضي ما لا يقل عن ثلث عمره، وما لا يقل عن نصف ولايته. ولهذا قال حضرة عبد البهاء: «* إنه لمن المحال أن يتصور العقل كيف حدث هذا النفي والتبعيد حيث يهاجر الجمال المبارك من إيران ويضرب خيمته في الأرض المقدسة».

والواقع أنه يؤكد لنا أن هذه الخاتمة هي التي تنبأ بها «* لسان النبيين منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة» «* ذلك لأن الله الصادق الوعد الأمين قد أطلع

بعض الأنبياء وبشرهم بأن رب الجنود سوف يظهر في الأرض المقدسة». من ذلك ما يصرّح به أشعياء في سفره من أنه «على جبل عالٍ إصعدي يا مبشرة صهيون! إرفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم! إرفعي لا تخافي! قولي لمدن يهودا: هوذا إلهك! هوذا السيد الرب بقوة يأتي، وذراعه تحكم له». وبذلك يتنبأ داود في مزاميره: «إرفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد. من هو هذا ملك المجد؟ رب الجنود هو ملك المجد». «من صهيون كمال الجمال الله أشرق، يأتي إلهنا ولا يصمت». ويتنبأ عاموس بقدومه فيقول: «إن الرب يزمجر من صهيون، ويأتي صوته من أورشليم فتنوح مراعي الرعاة وييبس رأس الكرمل».

أما عكاء التي يحف بها «مجد لبنان»، وتقوم بين يدي «بهاء كرمل» على سفوح التلال التي تحتضن موطن السيد المسيح فقد وصفها داود بـ«المدينة المحصنة»، وسماها هوشع بـ«باب الرجاء»، وأشار إليها حزقيال «بالباب المتجه نحو الشرق» حيث أنه «إذاً بمجدِ إله إسرائيل جاء طريق الشرق»، وصوته «كصوت مياه كثيرة». وإليها أشار النبي العربي الكريم بأنها «مدينة بالشام قد اختصها الله برحمته» تقوم «بين جبلين... وسط المرج» «على شاطئ البحر معلقة تحت ساق العرش» «بيضاء حسن بياضها عند الله». وفضلاً عن ذلك قال، حسبما يؤيده حضرة بهاء الله: «طوبى لمن زار عكاء وطوبى لمن زار زائر عكاء»، وقال أيضاً: «من أذّن فيها كان له مدّ صوته في الجنة»، وقال مرة أخرى: «فقراء عكاء ملوك الجنة وساداتها. وإن شهراً في عكاء أفضل من ألف سنة في غيرها». ومن أحاديثه الملحوظة ذلك الحديث المشهور الصحيح الذي ورد في «الفتوحات المكية» للشيخ ابن عربي نقله ميرزا أبو الفضل في «الفرائد»، والذي أورد فيه النبي العربي هذه النبوءة العظيمة الدلالة: «ويقتلون كلهم [يعني أصحاب القائم] إلا واحداً منهم ينزل في مرج عكاء، في المأدبة الإلهية».

ويؤكد النبيل أن حضرة بهاء الله أشار خلال السنوات الأولى من نفيه في

أدرنة إلى تلك المدينة بالذات في لوح السياح، ووصفها بأنها «وادي النبيل». وكلمة «نبيل» تساوي كلمة «عكاء» بحساب الجمّل. قال في ذلك اللوح: «وجدنا قوماً استقبلونا بوجوه عز درّياً... وكان بأيديهم أعلام النصر... أذن نادى المناد فسوف يبعث الله من يدخل الناس في ظلل هذه الأعلام».

نعم، إن نفي حضرة بهاء الله الذي دام ما لا يقل عن أربعة وعشرين عاماً، والذي تعاون عليه عاهلان شرقيان بدافع العداء الضاري وقصر النظر المخزي سوف يدخل التاريخ باعتباره فترة شهدت تغيراً عجيباً في الظروف المتصلة بحياة هذا المنفي ومناشطه. وسوف يتذكره الناس أولاً لتجدد الاضطهادات القاسية الواسعة النطاق التي كانت تثور في موطنه بين الحين والآخر؛ وثانياً لازدياد أتباعه، ولاتساع مدى آثاره وتضخم حجمها ثالثاً وأخيراً.

لم يكن نزول حضرة بهاء الله مستعمرة القصاص آخر ما ينزل به من البلايا. بل إنه كان بداية لأزمة عظمى تتصف بآلام مريرة وقيود صارمة وهياج شديد يفوق في حدته آلام سياه چال بطهران، ولا يضارعه، على امتداد القرن الأول بأسره، إلا ذلك الاضطراب الداخلي الذي زعزع كيان الدين في أدرنة. وقد أكد حضرة بهاء الله خطورة السنوات التسع الأولى من نفيه إلى مدينة السجن فقال: «ثم اعلم أن في ورودنا هذا المقام سميناه بالسجن الأعظم. ومن قبل كنا في أرض أخرى تحت السلاسل والأغلال [أي طهران]، وما سمي بذلك قل تفكروا فيه يا أولي الألباب».

فالشدة التي عاناها كنتيجة مباشرة لمحاولة اغتيال ناصر الدين شاه شدة فرضها عليه العدو الخارجي وحده، ثم محنة أدرنة التي شطرت أتباع حضرة الباب أو كادت، كانت داخليّة بحتة. أما هذه الأزمة الجديدة التي ظلت تقلق باله وبال أصحابه زهاء عشر سنين، فلم تتميز من أولها إلى آخرها، بهجمات الخصوم من الخارج وحدهم بل وبمكائد أعدائه من الداخل وبطيش الذين ارتكبوا ما ناح له قلبه رغم انتسابهم إليه.

وكانت عكاء مدينة البطالسة القدماء، ومدينة القديسة جان دارك الصليبية، والمدينة التي تمكنت من أن تقاوم حصار نابليون، قد تدهورت تحت الحكم التركي إلى مستعمرة للقصاص يسجن فيها القتلة السفاكون واللصوص وقطاع الطرق والمشاغبون والمتآمرون السياسيون من جميع أنحاء الإمبراطورية التركية وكان يحيط بها سور مزدوج، ويسكن فيها أقوام وصفهم حضرة بهاء الله بـ«أولاد الأفاعي». ولم يكن بداخل أسوارها أي نبع للماء. كما كانت مرتعاً خصباً للبراغيث، تتخللها دروب ملتوية كئيبة قذرة. ولقد سجل القلم الأعلى ذلك في لوح السلطان حين قال: «ومما يحكون أنها أخرب مدن الدنيا وأنتنها هواء وأردأها ماءً، كأنها دار حكومة الصدى، لا يسمع من أرجائها إلا صوت ترجيعه». وكان جوها خانقاً حتى أن الطائر إذا طار حولها سقط ميتاً كما جرى بذلك المثل.

أصدر السلطان ووزراؤه أوامرهم الصريحة الصارمة بأن يحبس المنفيون المتهمون بالضلال البعيد والانحلال الشديد، أشد أنواع الحبس والانفراد. وكانت آمال هؤلاء معقودة على أن حكم السجن المؤبد الصادر ضد المنفيين سوف ينتهي آخر الأمر بانقراضهم وزوال ريحهم. ذلك لأن الفرمان الذي أصدره السلطان عبد العزيز في الخامس من ربيع الثاني سنة ١٢٨٥ هـ (الموافق لليوم السادس والعشرين من تموز سنة ١٨٦٨ م) لم يقتصر على الحكم عليهم بالنفي الدائم، بل وقضى بضرورة حبسهم وعزلهم عزلاً شديداً. وحرّم عليهم أن يتصل أحدهم بالآخر أو أن يتصل أحدهم بالأهالي. وإنذاراً وتحذيراً للأهالي قرئ الفرمان في مسجد المدينة الجامع عقب وصول المنفيين. وبعد مضيّ سنة تقريباً على نفيهم كتب السفير الإيراني لدى الباب العالي إلى حكومته رسالة قال فيها: «لقد أصدرت التعليمات بالبرق والبريد تحرم عليه [يعني حضرة بهاء الله] الاتصال بأي إنسان اللهم إلا زوجتيه وأبنائه، وتحظر عليه مغادرة المنزل الذي حبس فيه بأية حال من الأحوال... ومنذ ثلاثة أيام زرت عباس قلي خان القنصل العام في دمشق وكلفته أن

يذهب إلى عكاء... وأن يجتمع مع حاكمها ليبحث معه كل الإجراءات الكفيلة بإدامة التشديد عليهم... وأن يختار قبل عودته إلى دمشق مندوباً في تلك الناحية ليتأكّد من تنفيذ الأوامر الصادرة من الباب العالي. كما أنني كلفته أن يسافر من دمشق إلى عكاء كل ثلاثة أشهر، ويراقبهم بنفسه ثم يرفع تقريره إلى السفارة». ولقد بلغت العزلة المفروضة عليهم من الشدة والصرامة حداً دفع بالبهائيين في إيران، الذين روّعهم ما أشاعه الأزليون في إصفهان من أن حضرة بهاء الله قد أغرق، إلى مناشدة إدارة البرق البريطانية في جُلفا أن تستوضح لهم جلية الأمر.

وعندما نزل المنفيون، رجالاً ونساءً وأطفالاً، إلى شاطئ عكاء بعد هذه الرحلة المرهقة سيقوا أمام الأهالي المتطفلين الغلاظ الجفاة الذين اجتمعوا في الميناء ليشاهدوا «رب العجم»، واقتيدوا جميعاً إلى ثكنات الجيش حيث سجنوا وأقيم عليهم الحراس. ولقد أكد حضرة بهاء الله في لوح الرئيس أن «الكل منع من المأكل والمشرب في الليلة الأولى... بل إنهم طلبوا الماء فما أجيبوا إليه». وكان الماء في حفرة بفناء الثكنات قذراً عفناً لا يطيق أحد أن يشربه. وخصص لكل فرد ثلاثة أرغفة من الخبز الأسود المملح. إلا أنه سمح لهم، تحت الحراسة المشددة، أن يستبدلوها في السوق برغيفين من نوع أفضل. ثم لم يؤذن لهم إلا بقليل من المال تعويضاً لهم عن مقدار الخبز المخصص لهم. فمرضوا جميعاً عقب وصولهم بقليل اللهم إلا اثنين منهم. وكان وَطْءُ الحرّ الخانق وتفشّي الملاريا والدوسنتاريا سبباً في ازدياد بؤسهم وشقائهم. ومات منهم ثلاثة من بينهم أخوان ماتا في ليلة واحدة «يعانق أحدهما الآخر» حسب شهادة حضرة بهاء الله. وتنازل حضرة بهاء الله عن السجادة التي كان يستعملها لتباع تغطية لنفقات تكفينهما ودفنهما. وبيعت السجادة في المزاد، ووزع ثمنها الزهيد على الحراس الذين رفضوا أن يدفنوهما قبل أن يتقاضوا التكاليف. وقد علم فيما بعد أنهما دفنا بملابسهما دون غسل ولا كفن رغم أن الحراس تقاضوا ضعف التكاليف حسب تأكيد حضرة بهاء الله. ولقد كتب يقول: «لا يعلم ما ورد علينا إلا الله العزيز...

* منذ إنشاء هذا العالم إلى يومنا هذا لم ير أحد مثل هذه القسوة أو يسمع بها». وفي موضع آخر أشار إلى نفسه بقوله: «* * لقد امتحن معظم حياته امتحانات قاسية بين براثن الأعداء. إلا أن بلاياه اليوم قد بلغت حدَّها الأقصى في هذا السجن الذي زجه الظالمون فيه».

أما الزوار القلائل الذين استطاعوا الوصول إلى أبواب السجن رغم الحظر الشديد، فقد قنعوا بالنظرة العجلى إلى وجه السجين وهم وقوف وراء الخندق الثاني متوجهين إلى نافذته، علماً بأن بعضهم قطع الطريق كله من إيران سيراً على الأقدام. أما القلائل الذين أفلحوا في دخول المدينة فقد أرغموا، والحزن يعصر قلوبهم، على أن يعودوا من حيث أتوا حتى دون أن يفوزوا بلمحة واحدة من وجهه. وكان أول من فاز منهم بالتشرف بمحضره الحاج أبو الحسن الأردكاني المتفاني الملقب بـ«الأمين الإلهي». فاز بذلك في الحمام العام حيث استقر الرأي على أن يرى حضرة بهاء الله دون أن يقترب منه أو يبدي أية إشارة تدل على أنه يعرفه. وأما الزائر الثاني فهو الأستاذ إسماعيل الكاشي الذي جاء من الموصل ووقف على الحافة الأخرى من الخندق. وظل يحدق ساعات طوالاً في سعادة ونشوة إلى نافذة محبوبه. ولكن لم يستطع في النهاية أن يميز وجهه لضعف بصره، واضطر إلى أن يعود إلى الكهف الذي احتمى فيه على جبل الكرمل. وقد رقت له العائلة المباركة وبكت إشفاقاً عليه وهم يرون خيبة آماله من بعيد. وقد اضطر النبيل إلى أن يفر على عجل من المدينة حيث انكشف أمره، وأن يقنع بلمحة سريعة من حضرة بهاء الله وهو على حافة الخندق. وطفق يتجول هائماً في ريف الناصرة وحيفا وبيت المقدس والخليل إلى أن مكنه تراخي الحراسة المشددة من أن يلحق نفسه بالمنفيين.

وإلى هذه الشدائد الجسام أضيفت مأساة مباغتة مريرة؛ ألا وهي الموت المبكر لميرزا مهدي التقي النبيل، وهو في الثانية والعشرين من عمره، وهو «الغصن الأطهر» أخو حضرة عبد البهاء الأصغر، وأحد كُتَّاب وحي حضرة

بهاء الله ورفيقه في منفاه منذ أن جيء به طفلاً من طهران إلى بغداد ليرافق والده بعد عودته من السليمانية. وبيان ذلك أنه كان يتمشى على سطح الثكنات ذات مساء مُستغرقاً في مناجاته المعتادة. فسقط في عتمة الضوء على قفص خشبي كان على الأرض، فاخترق أضلاعه، وأفضى به إلى الموت بعد اثنتين وعشرين ساعة أخرى. وكان ذلك في اليوم الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ (الموافق لليوم الثالث والعشرين من حزيران سنة ١٨٧٠ م). وكان توسله وابتهاله ساعة موته أن يقبل الأب الحزين روحه فداء للذين حرموا التشرف بمحضر محبوبهم.

وفي مناجاة ملحوظة المغزى رفيعة المعنى خلّد حضرة بهاء الله ذكرى ولده، ورفع موته إلى منزلة الفداء العظيم الذي فدى ولد إبراهيم، وإلى مقام صلب السيد المسيح، واستشهاد الإمام الحسين. وفي هذه المناجاة نقرأ قوله: «أي رب! فديت ما أعطيتني لحياة العباد واتحاد من في البلاد». ونقرأ كذلك هذه الكلمات الإلٰهية الموجهة إلى ولده الشهيد: «إنك أنت وديعة الله وكنزه في هذه الديار. سوف يظهر الله بك ما أراد».

وبعد أن غسّل في محضر حضرة بهاء الله جثمان «من خلق من نور البهاء» الذي شهد القلم الأعلى لوداعته، وذكر «أسرار» صعوده، حمله الحراس وأودعوه مقره الأخير خارج أسوار المدينة في بقعة تجاور مقام النبي صالح. ومن هناك نقلت رفاته ورفات والدته الزهراء، بعد سبعين سنة، إلى سفوح الكرمل بجوار رمس أخته، وتحت ظلال مقام حضرة الباب الأعلى.

لم يكن هذا آخر البلايا التي أصابت سجين عكاء ورفاقه في المنفى. فبعد أربعة أشهر من هذه الفجيعة أعلنت التعبئة العامة في فرق الجيش التركي. وكان لا بد من نقل حضرة بهاء الله ورفاقه من ثكنات الجيش. وعلى ذلك خصص له ولأسرته منزل «ملك» في الحي الغربي من المدينة. ثم ما لبثت السلطات أن نقلتهم بعد ثلاثة أشهر إلى منزل خوّام المواجه له. ومن ثم اضطروا مرة أخرى بعد شهور قلائل إلى الإقامة في منزل رابع، ثم نقلوا بعد

أربعة أشهر إلى منزل عودة خمّار الذي بلغ من قلة كفايته بضرورياتهم أن اضطر ما لا يقل عن ثلاثة عشر شخصاً من كلا الجنسين إلى العيش في غرفة واحدة، واضطر بعض الأصحاب الآخرين إلى السكنى في منازل أخرى، كما اضطر الباقون إلى السكنى في خان يسمى خان العواميد.

وما كادت وطأة العزلة الشديدة تخف، ويصرف الحراس الذين كلفوا بتشديد الحراسة حتى حدثت أزمة داخلية كانت مراجلها تغلي بين الجماعة من قبل، ووصلت فجأة إلى حد الكارثة. وبيان ذلك أن تصرفات اثنين ممن صحبوا حضرة بهاء الله إلى عكاء ساءت فاضطر حضرة بهاء الله إلى طردهما في النهاية، الأمر الذي لم يتردد السيد محمد في استغلاله أسوأ استغلال. فبدأ يشن حملة من القذف والوشاية والسعاية والتآمر كانت أخس وأدنأ من تلك التي شنها في الآستانة. وقد انضم هذان المطرودان إلى أعوانه القدامى واجتهدوا في التجسس. وكان هدفهم إثارة الأهلين المتحاملين المتشككين، وإيغار صدورهم ودفعهم إلى درجة أكبر من الكراهية والبغضاء والهياج. ومن ثم أحدق بحضرة بهاء الله خطر جديد. وبالرغم من أنه حرّم على أتباعه شفاهاً وكتابة وفي أكثر من مناسبة أن يقوموا بأي حركة انتقامية ضد هؤلاء الظالمين، حتى أنه أعاد إلى بيروت مؤمناً عربياً متهوراً كان يفكر في الثأر لكل المظالم التي عاناها زعيمه المحبوب، إلا أن سبعة من الأصحاب قتلوا ثلاثة من الخصوم في الخفاء من بينهم السيد محمد هذا وآقا جان.

وكان الفزع الذي استولى على الجامعة المظلومة يجلّ عن الوصف والبيان. ولم يكن لاستنكار حضرة بهاء الله واستفظاعه لهذه الفعلة النكراء أي حدود. ولقد عبّر عن مشاعره في أحد الألواح التي رقمها بعد هذه الفعلة بقليل بقوله: «لو أذكر حرفاً منه لتنفطر عنه السمٰوات والأرضون» و«يندكّ كل جبل شامخ رفيع». وكتب في مناسبة أخرى يقول: «ليس ضري سجني بل عمل الذين ينسبون أنفسهم إليّ ويرتكبون ما ناح به قلبي وقلمي». وكتب مرة أخرى يقول: «ليس ذلتي سجني لعمري إنه عزّ لي بل الذلة عمل أحبائي

الذين ينسبون أنفسهم إلينا ويتبعون الشيطان في أعمالهم».

وبينما كان يملي ألواحه على كاتب وحيه إذا بالحاكم على رأس جنود شاهرين أسلحتهم يطوقون بيته. وكانت الأهالي والسلطات العسكرية في هياج شديد، بينما تعالى صياح الناس وضجيجهم من كل حدب وصوب. وعلى الفور استدعي حضرة بهاء الله إلى سراي الحكومة. وبعد استجوابه احتجزوه أول ليلة مع أحد أبنائه في إحدى غرفات خان الشاوردي، ثم نقل إلى مكان أفضل في تلك الناحية. وهناك مكث ليلتين أخريين. ولم يؤذن له في العودة إلى بيته إلا بعد سبعين ساعة. أما حضرة عبد البهاء فقد احتجزوه وقيدوه بالسلاسل والأغلال في الليلة الأولى. ثم أذن له في أن يلحق بوالده. واحتجز خمسة وعشرون من الأصحاب في سجن آخر، وقيدوا بالسلاسل، ثم اقتيدوا بعد ستة أيام أخرى إلى خان الشاوردي حيث احتجزوا ستة أشهر. أما المجرمون الذين ارتكبوا هذه الفعلة النكراء فقد سجنوا عدة أعوام.

التفت حاكم المدينة العسكرية إلى حضرة بهاء الله بعد وصوله إلى سراي الحكومة وسأله في جرأة: «هل من المناسب أن يتصرف بعض أتباعك على هذا النحو؟» فكان الرد السريع هو: «* * وهل تعتبر أنت مسؤولاً إذا ارتكب أحد جنودك فعلة نكراء فتعاقب أنت بدلاً منه؟!» وفي أثناء الاستجواب سئل عن اسمه واسم البلاد التي أتى منها فأجاب: «* * إنه أظهر من الشمس». وعند تكرار السؤال عليه أجاب «لا داعي لذكر الاسم فهو مدون عندكم في فرمان الدولة». فأعادوا عليه السؤال مرة أخرى باحترام ملحوظ. فنطق حضرة بهاء الله هذه الكلمات في وقار وجلال واقتدار: «* * اسمي بهاء الله وبلدي نور، فهل عرفتم؟» ثم التفت إلى المفتي ولامه لوماً خفيفاً ثم تحدث إلى جميع الحاضرين في لهجة بلغت من الحرارة والجلال أن أحداً لم يجسر على التعقيب. ثم تلا عليهم بعض آيات سورة الملوك ونهض وغادر الاجتماع. وسرعان ما أرسل إليه الحاكم رسالة يعتذر له فيها عما حدث، ويعطيه مطلق الحرية في العودة إلى بيته.

بعد هذا الحادث تملكت الأهلين المتشككين عداوة شديدة ضد المنفيين، وضد كل من انتمى إلى هذا الدين بصلة. وانهالت عليهم التهم العلنية بالفسق والفجور والإلحاد والمروق وإشاعة الرعب والإرهاب، وقوّى عبود الذي كان يسكن المنزل المجاور الحائط الذي يفصل منزله عن هذا الجار المخيف المشكوك في أمره، بل إن الناس كانوا يطاردون أولاد المنفيين المسجونين ويسبونهم ويرجمونهم بالحجارة إذا هم تجاسروا وظهروا في الشوارع في تلك الأيام.

طفحت آنذاك كأس البلايا، واستمر الموقف المهين المليء بالقلق والخطر يحيط المنفيين إلى أجل ضربته الإرادة الغيبية. ثم بدأ حدّ البؤس والهوان ينحسر، مشيراً إلى بداية تحوّل في مقدرات الدين ومصائره أوضح من التحول الذي حدث في السنوات الأخيرة من إقامة حضرة بهاء الله في بغداد.

ولقد مهّد الطريق لرد الفعل الآخذ في الظهور، والمرتبط بنفي حضرة بهاء الله إلى عكاء ارتباطاً وثيقاً، اعتراف كل عناصر الأهالي اعترافاً تدريجياً ببراءة حضرة بهاء الله ونزاهته الكاملة، وتحطيم روح تعاليمه لقشرة تعصبهم وقلة اكترائهم شيئاً بعد شيء، وتعيين أحمد بيك توفيق الرزين الرحيم مكان ذلك الحاكم الذي تسمم عقله ضد الدين وأتباعه تسمماً لا يرجى له شفاء. أضف إلى ذلك الجهود الموصولة التي بذلها حضرة عبد البهاء وهو في عزّ رجولته، واختلاطه بعامة الشعب مظهراً قدرته على أن يكون درعاً تقي والده وتحميه. ولا ننسى أيضاً مصير المسؤولين الذين صرفوا عن مناصبهم وكان لهم تأثيرهم الملحوظ في إطالة مدة عزل الأصحاب الأبرياء.

ولقد كان من نتيجة اتصال الحاكم الجديد بحضرة عبد البهاء أولاً، وقراءته ثانياً للكتب البهائية التي رفعها إليه المفسدون على أمل إثارة غضبه أن اشتعل في قلبه الإخلاص إلى درجة أنه كان يرفض أن يدخل إلى حضرة بهاء الله إلا إذا خلع نعليه احتراماً وإجلالاً، ولم يشذ عن هذه القاعدة مهما

كانت الأحوال، بل لقد روي أنه اختار أفضل مستشاريه من بين المنفيين أتباع هذا السجين القابع في سجنه. كما أنه دأب على أن يرسل ابنه إلى حضرة عبد البهاء لكي يعلّمه ويثقفه. وفي أثناء زيارة تمت بعد طول انتظار ألح الحاكم في أن يقدّم لحضرته أي خدمة فاقترح عليه حضرته أن يصلح قناة الماء التي تلفت من الإهمال ثلاثين عاماً. فقام على تنفيذ هذا الاقتراح على الفور. وقلما كان يعارض في تدفق سيل الزوّار الذين كان من بينهم المُلاّ صادق الخراساني المخلص الجليل وأبو بديع، وكلا الرجلين ممن عاشوا من بعد موقعة طبرسي، كان الحاكم يفعل ذلك على الرغم من أن الفرمان السلطاني كان يحرّم دخول الزوار المدينة. أما مصطفى ضياء باشا، الذي أصبح والياً بعد عدة سنوات فقد مضى إلى أبعد من هذا الحد، إذ منح السجين الحرية المطلقة في مغادرة أبواب السجن وقتما يشاء. ولكن حضرة بهاء الله أبى ذلك. بل لقد آمن بالأمر المبارك الشيخ محمود مفتي عكاء، الذي عرف بشدة تعصبه من قبل، ودفعته حماسته إلى أن يصنّف كتاباً في الأحاديث النبوية الخاصة بعكاء. وكان بعض الحكام الغلاظ الشداد يأتون إلى المدينة من حين إلى آخر. ورغم ما كانوا عليه من قوة وبأس إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقفوا في وجه القوى التي كانت تسرع بتحرير مؤسس الدين لكي يحقق هدفه على الوجه الأكمل. وبمضي الأعوام أخذ العلماء والأدباء المقيمون بسورية يعترفون بعظمة حضرة بهاء الله الصاعدة وقوته المشرقة. أما عزيز باشا الذي أظهر في أدرنة تعلقاً شديداً بحضرة عبد البهاء فقد ارتقى في الوقت نفسه إلى منصب الوالي. وقام بزيارة عكاء مرتين لا لشيء إلا ليبدي احترامه وإجلاله لحضرة بهاء الله، وليجدد أواصر الود والصداقة مع حضرة عبد البهاء الذي طالما أحترمه وأعجب به.

وبالرغم من أن حضرة بهاء الله لم يكن يسمح بأية مقابلات شخصية إلا فيما ندر، خلافاً لعادته التي كان يتبعها في بغداد، إلا أن التأثير النفاذ الذي تمتع به جعل الأهلين يؤكدون في صراحة أن التحسن الملحوظ الذي لمسوه في هواء المدينة ومائها يرجع بصفة أساسية إلى إقامته الدائمة بينهم. بل لقد

لقبوه بـ«الزعيم الجليل» و«صاحب السمو» مما ينم على الإجلال الذي بثه فيهم. وذات مرة أذن لحاكم المدينة ولأحد القادة الأوروبيين بزيارته. فبلغ من تأثر القائد الأوروبي أنه «ظل راكعاً على ركبتيه لدى الباب». أما الشيخ علي الميري، مفتي عكاء، فقد أخذ على عاتقه أن يحقق ما اقترحه حضرة عبد البهاء، وأخذ يواصل رجاءه ويديم توسله إلى حضرة بهاء الله لكي يخرج من أسوار المدينة وينهي عزلته التي طالت تسعة أعوام. وبعد إلحاح شديد وافق حضرة بهاء الله على مغادرة أبواب المدينة وانتقل إلى حديقة النعمين، وهي جزيرة صغيرة تقع وسط النهر شرقي المدينة، وشرفها باسم «الرضوان» ووصفها بأنها «أورشليم الجديدة» و«جزيرتنا الخضراء». وقد استأجرها حضرة عبد البهاء مع قصر عبد الله باشا الذي يبعد بضعة أميال شمالي عكاء وهيأه لسكنى والده. ومن ثم أصبح مقاماً مفضلاً لحضرة بهاء الله الذي لم تتجاوز قدماه أسوار المدينة عشر سنوات تقريباً، ولم تكن رياضته سوى ذرع غرفة نومه ذهاباً وإياباً.

وبعد عامين تمَّ استئجار قصر عودة خمار، وقد أنفق عودة على بنائه الأموال الطائلة أثناء سجن حضرة بهاء الله في الثكنات. إلا أنه هجره هو وأسرته على عجل عند تفشي أحد الأوبئة الوبيلة، وأخيراً تم شراؤه. وقد وصفه حضرة بهاء الله بـ«القصر الرفيع الذي جعله الله المنظر الأكبر للبشر». لقد تعاونت عدة أمور على زيادة هيبة الجامعة الناهضة واتساع شهرة من كان أنبل أعضائها، منها أن حضرة عبد البهاء زار بيروت في تلك الآونة تلبية لدعوة مدحت باشا، وهو أحد كبار وزراء تركيا. وهناك اتصل برجالات الدولة والدين، والتقى مرات عديدة مع الشيخ محمد عبده الشهير في جلسات طويلة. ولقد ثار الحسد في صدور الذين كانوا، منذ عهد قريب، يعاملونه هو وإخوانه في المنفى معاملة تختلط فيها مشاعر الترفع والتفضيل بالاحتقار والازدراء. وكان سبب هذا الحسد الأكّال الحفاوة البالغة التي استقبله بها الفقيه الأجل الشيخ يوسف مفتي الناصرة وكان الشيخ يوسف يستضيف وقتها ولاة بيروت فأرسل علية القوم من بينهم أخوه ومفتي عكاء ليستقبلوا هذا

الضيف الكريم القادم على مسافة بضعة أميال خارج المدينة. ثم ثار الحسد مرة أخرى بسبب الحفاوة البالغة التي استقبل بها حضرة عبد البهاء الشيخ يوسف عندما زاره في عكاء.

وبالرغم من أن فرمان السلطان عبد العزيز الصارم لم يلغ بصفة رسمية إلا أنه أصبح آنذاك في خبر كان. ذلك لأن حضرة بهاء الله وإن كان سجيناً بالاسم فقط إلا أن «** أبواب العزة والجلال وسلطان الحق قد تفتحت على مصاريعها» كما يقول حضرة عبد البهاء الذي كتب مرة أخرى في ذلك يقول: «** كان حكام فلسطين يحسدونه على نفاذ تأثيره وقوة سلطانه وكان الحكام والمتصرفون والقواد والموظفون المحليون يلتمسون شرف المثول بين يديه. ولكنه قلما كان يأذن لهم».

في هذا القصر نفسه سمح للمستشرق الممتاز أ. ج. براون[1] الأستاذ بجامعة كمبردج أن يتشرف بمحضر حضرة بهاء الله أربع مرات متوالية خلال الأيام الخمسة التي قضاها براون في البهجة ضيفاً؛ [من ١٥ - ٢٠ نيسان سنة ١٨٩٠ م]. وهي لقاءات خلدها هذا الإعلان التاريخي الذي أعلنه الأسير: «** ستزول هذه المنازعات العقيمة، وهذه الحروب المدمرة، ويأتي الصلح الأكبر». وإليك الشهادة الناصعة التي خلفها هذا الباحث للأجيال القادمة قال: «أما الوجه الذي طالعني فلا يمكنني أن أنساه وإن كنت لا أستطيع أن أصفه. أما هاتان العينان النفاذتان فقد بدتا وكأنما تقرآن ما في دخيلة نفسك. أما العزة والجلال والسلطان فقد استقرت على الجبين العريض الوضّاح في رزانة ووقار. ولم أكن بحاجة إلى أن أسأل أحداً في محضر من وقفت. وانحنيت بين يدي من يحيطه من المحبة والوفاء ما يحسده عليهما الملوك والأباطرة عبثاً» وقد شهد هذا الزائر نفسه فقال: «هنالك قضيت خمسة أيام خالدة، تمتعت خلالها بفرص لا نظير لها ولا مثيل، بل ولا أمل في أن تعود، واجتمعت فيها بينابيع ذلك الروح العجيب الذي يعمل بقوة

---

(١) Prof. E.G. Browne

غامضة متزايدة على بعث قوم ناموا نوماً شبيهاً بالموت. والواقع أنها كانت تجربة غريبة مثيرة، ولا أمل لي في أن أنقل إليك من تأثيراتها شيئاً ذا بال».

وفي تلك السنة ارتفعت خيمة حضرة بهاء الله ـ «خباء المجد» ـ على جبل الكرمل «كوم الله وكرمه» موطن إيليا الذي مجده أشعياء بأنه «جبل الرب» الذي «تجري إليه كل الأمم». وتفصيل ذلك أن حضرة بهاء الله زار حيفا أربع مرات طالت الزيارة الأخيرة منها ثلاثة أشهر. وفي أثناء إحدى هذه الزيارات، وهي الزيارة التي ضربت فيها خيمته بجوار دير الكرمليين، أنزل «صاحب الكرم» لوح الكرمل المليء بالإشارات والنبوءات. وفي مناسبة أخرى كان يقف على سفح من سفوح ذلك الجبل؛ فعين لحضرة عبد البهاء البقعة المباركة التي قدّر لها أن تكون مثوى دائماً لرفات حضرة الباب بعد أن يقام عليها مقام مناسب فيما بعد.

وبناء على أمر حضرة بهاء الله تم شراء الأراضي المحيطة بتلك البحيرة التي اقترن اسمها في التاريخ بعهد السيد المسيح له المجد. وتقرر أن تشيد عليها «تلك المباني الجليلة الفخمة» التي تقام تمجيداً لدينه، ساعية بشيرة بين يدي تلك المباني التي تنبأ في ألواحه بأنها سوف تقام في الأرض المقدسة «طولاً وعرضاً» وفي «الأقاليم الخصبة المقدسة المجاورة للأردن» التي خصصها «لعبادة الله الفرد وخدمة عتبته السامية» بناء على ما نصّ به في تلك الألواح.

وبرزت الشواهد على حيوية الزعامة التي لا يستطيع أن يقهرها أو يقلل من شأنها الملوك مهما قويت شوكتهم ولا رجال الدين مهما عظمت عداوتهم، منها تضخم مراسلات حضرة بهاء الله تضخماً عظيماً، وإنشاء الوكالة البهائية في الإسكندرية لإرسال هذه المراسلات وتوزيعها. ومنها التسهيلات التي قدمها المؤمن الثابت محمد مصطفى في بيروت لتأمين مصالح الزوار الذين كانوا يمرّون بتلك المدينة. ومنها الراحة النسبية التي استطاع بها السجين، بالاسم فقط، أن يتصل بالمراكز المتزايدة في إيران والعراق والقوقاز وتركستان ومصر. ومنها تكليفه سليمان خان التنكابوني الشهير

بجمال أفندي بأن يقوم بحملة تبليغية منظمة في الهند وبورما. ومنها تعيين بعض أتباعه «أيادي أمر الله». ومنها ترميم البيت المبارك في شيراز، وتفويض أمر سدانته بأمر منه، إلى حرم حضرة الباب وأختها. ومنها إيمان عدد لا بأس به من اليهود والزرادشتيين والبوذيين إيماناً جعلهم يعترفون بالمسيحية والإسلام دينين سماويين اعترافاً تلقائياً راسخاً. وكان هذا باكورة الجهود الموصولة التي بذلها المبلغون السيارون في إيران والهند وبورما.

كما أننا لا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى تكوين جامعة مزدهرة من المؤمنين في مدينة عشق آباد الحديثة في تركستان الروسية، مطمئنة إلى تعاطف الحكومة ومسالمتها. فتمكنت من امتلاك مقابر بهائية، وشراء قطعة أرض شيدت عليها بناءً ثبت فيما بعد أنه أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي بأسره. ولا بد أن نشير أيضاً إلى تأسيس مراكز دينية متقدمة في كل من سمرقند وبخارا في قلب آسيا. وكان ذلك نتيجة لأبحاث وكتابات العلاّمة فاضل القائني والمدافع المثقف ميرزا أبي الفضل. ولا بد أن نشير كذلك إلى طبع خمسة مجلدات من آثار مؤسس الدين، بما فيها «الكتاب الأقدس» في الهند. وهي طبعات تعلن عن تضاعف آداب الدين واشتمالها على طبعات عديدة ولغات مختلفة وانتشارها أثناء السنوات التالية في ربوع الشرق والغرب.

ويروي أحد المنفيين أن حضرة بهاء الله قال: «* * أخرجنا السلطان عبد العزيز إلى هذا الإقليم في هوان عظيم. ولما كان غرضه أن يذلنا ويدمرنا فإننا لم نرفض وسائل الراحة والرفاه حين توفرت». وقال مرة أخرى ما رواه النبيل في تاريخه: «* * الحمد لله! لقد بلغت بنا الحال أن أهل هذه النواحي يظهرون لنا الاحترام والإجلال». وقال مرة أخرى ما سجله النبيل أيضاً: «* * قام سلطان آل عثمان على ظلمنا بلا ذنب ولا جريرة، وأرسلنا إلى حصن عكاء. وقضى فرمانه السلطاني ألا يختلط بنا أحد، وشدد في أن نصبح غرضاً لبغضاء المبغضين من الخاص والعام. لهذا عجلت يد القدرة الربانية

بالانتقام. وعصفت رياح الفناء، أول الأمر، بسميريه ووزيريه المقربين، عالي وفؤاد، ثم امتدت يد القدرة لطي بساط عزة العزيز، وأخذه أخذ عزيز مقتدر».

وإلى هذا يشير حضرة عبد البهاء فيقول: «* * أراد اعداؤه أن يحطم السجن الأمر المبارك تحطيماً كاملاً ويقضي عليه قضاءً مبرماً. ولكن هذا السجن كان في الحقيقة أكبر عون، وأصبح وسيلة لتقدمه». وأكد ذلك مرة أخرى فقال: «* . . . رفع هذا الشخص الجليل أمره في السجن الأعظم ومنه سطع نوره الباهر، وطبق صيته الخافقين، وبلغ صوت عظمته الشرق والغرب»، «* * كان نوره في بادئ الأمر نجماً فأصبح شمساً ساطعة». وقال مرة أخرى: «* إلى يومنا هذا لم يحدث مثل هذا الأمر في عالم الوجود».

فلا عجب إن رقم حضرة بهاء الله تلك الكلمات العظيمة، وهو يتأمل التغير الملحوظ في الظروف التي لابست أربعة وعشرين عاماً هي مدة نفيه في عكاء: «* * إن الله العليّ القدير. . . قد حوّل هذا السجن إلى الجنة العليا قطب الجنان».

سجن حضرة بهاء الله في عكاء (تتمة)

بينما كان حضرة بهاء الله يكابد، هو والجماعة الصغيرة التي صحبته، المتاعب الشديدة التي نشأت عن النفي الذي قصد منه الأعداء محوهم من الوجود، كان أتباعه المتزايدون في موطنه يقاسون من اضطهاد أعنف وأطول من المتاعب التي كان يكابدها آنذاك هو وأصحابه. ومع أن الجرائم البربرية البشعة التي ارتكبها العدو العنيد المتعطش كانت أضيق مجالاً من حمّامات الدماء التي عمّدت الدين عند مولده حين «قتل في خلال سنة واحدة ما لا يقل عن أربعة آلاف رجلٍ، وترك جمع غفير من النساء والأطفال بلا عائل ولا معين» كما يؤكد حضرة عبد البهاء، إلا أنها لم تكن أقل تنوّعاً من سابقاتها واتصفت بقدر أعظم من الغدر والقسوة.

في تلك الفترة التي نحن بصددها كان ناصر الدين شاه، الذي وصفه حضرة بهاء الله بـ «رئيس الظالمين» الذي «ارتكب ما ناح به أهل مدائن العدل والإنصاف» في كامل رجولته وأوج جبروته وسلطانه. ولما عجز عن الظفر بحضرة بهاء الله قنع هذا الطائش الأهوج بمحاولة القضاء المبرم على البقية الباقية من الجامعة التي كان يخافها أشد الخوف، خاصة وأنها نهضت وتماسكت من جديد. وكان ناصر الدين شاه هو الحاكم الآمر في دولة «غارقة إلى الأذقان في تقاليد الشرق القديمة» ومن حوله وزراء «دهاة لئام منافقون»، يرفعهم ويخفضهم ويدنيهم ويقصيهم كما يحلو له. وكان يرأس نظاماً إدارياً كان «كل عضو فيه إما راشياً أو مرتشياً حسبما تمليه الظروف والمصالح». وكان يعاونه في مقاومة الدين جهاز ديني أشبه ما يكون «بالدولة الكنسية»، ويسانده شعب لا مثيل له في قسوته وفظاعته ولا نظير له في خسته

وذلّه وجشعه وتعصبه وفساد أعماله. وكان يتلوه في السلطان والمركز أبناؤه الثلاثة البالغون، إذ قسم المملكة بينهم توطيداً لأركان الحكم والإدارة الداخلية، فعهد بولاية آذربيجان إلى وارث العرش مظفر الدين ميرزا الجبان الضعيف الذي وقع تحت تأثير الشيخية فأخذ يظهر الإجلال والاحترام للملاوات، وسلط على ما يربو على خمسي مملكته، بما فيه إقليمي يزد وإصفهان، أكبر أولاده الأحياء وهو مسعود ميرزا القاسي الداهية. وكان يعرف بظل السلطان، وأمه من عامة الشعب. أما كامران ميرزا ابنه المقرب المعروف بنائب السلطنة فقد ولاّه جيلان ومازندران وجعله حاكم طهران ووزير الحربية وقائد الجيش. ولقد بلغ من تنافس الأخوين الأخيرين [أي ظل السلطان ونائب السلطنة]، وتسابقهما على استمالة قلب أبيهما وإحراز رضائه إلى حد أن استعان كل واحد منهما بما لديه من أقطاب المجتهدين في محاولة التفوق في القيام بالواجب المبجل، ألا وهو القيام بأعمال السلب والنهب والاغتيال والقضاء المبرم على جامعة المؤمنين الأبرياء العزل الذين امتنعوا عن إبداء أية مقاومة حتى ولو دفاعاً عن النفس، وذلك نزولاً عند حكم حضرة بهاء الله وإطاعة لأمره المبرم الذي ينص على أنه «إن تُقتَلوا خير لكم من أن تقتلوا». وكان على رأس المحرضين الحاج المُلاّ علي الكني والسيد صادق الطباطبائي، زعيما مجتهدي طهران، والشيخ محمد باقر زميلهما في إصفهان، ومير محمد حسين إمام الجمعة فيها. وكانوا ينتهزون كل فرصة ويسلكون كل سبيل ليكيلوا الضربات بدون هوادة وبكل ما أوتوا به من سلطان ضد ما حمله من قوى التحرير، دين اعتبره هؤلاء خطراً عليهم وهابوه أكثر مما هابه الشاه نفسه.

فلا عجب إن استتر الدين وخاصة بعد أن واجه موقفاً مليئاً بالمخاطر. ولا غرابة أن يكون الاستجواب والحبس واللعن والاستباحة والتعذيب والإعدام من أبرز معالم تلك الفترة العصيبة من تاريخه. ولا غرابة كذلك أن تعمل زيادة الزيارات التي بدأت في أدرنة ثم اتخذت صورة رائعة في عكاء وزيادة انتشار ألواح حضرة بهاء الله، وترويج الروايات الحماسية على ألسنة

الذين فازوا بلقائه على إشعال نار العداوة والبغضاء في صدور رجال الدولة والدين معاً. ولقد صورت لهم حماقتهم وقصر نظرهم أن الانشقاق الذي حدث في صفوف الأتباع في أدرنة والحكم على زعيم الدين بالنفي المؤبد سوف يقضيان عليه القضاء الأخير.

ففي آباده ألقي القبض على الأستاذ[1] علي أكبر بتحريض أحد أكابر المدينة وضرب ضرباً مبرحاً إلى أن سالت الدماء من فرعه إلى أخمص قدمه. وفي قرية تاكور أبيحت أموال الأهالي بأمر الشاه، وألقي القبض على الحاج ميرزا رضا قلي، وهو من إخوة حضرة بهاء الله غير الأشقاء، وسيق إلى طهران العاصمة وزج به في سياه چال شهراً. كما ألقي القبض على صهر ميرزا حسن، وهو أخ آخر من إخوة حضرة بهاء الله غير الأشقاء، وعذب بقضبان الحديد المحمّاة بالنار. وأخيراً أحرقت قرية داركلا المجاورة.

أما آقا بزرك الخراساني، وهو «بديع» الشهير الذي آمن بالدين على يد النبيل والملقب بـ«فخر الشهداء» حامل اللوح الموجه إلى ناصر الدين شاه وهو في السابعة عشر من عمره والذي «نفخنا فيه روحاً من لدنا» كما يؤكد حضرة بهاء الله، فقد ألقي القبض عليه وعذّب بالكيّ ثلاثة أيام متوالية، وضرب رأسه بكعب البندقية حتى سقط مخه ثم ألقي بجسده في إحدى الحفر وأهيل عليه التراب والحجارة. وكان هذا الشاب قد تشرف بلقاء حضرة بهاء الله في السنة الثانية من حبسه في الثكنات. ونهض بكل همة ونشاط ليحمل ذلك اللوح وحيداً فريداً وسافر على قدميه إلى طهران ليسلمه إلى الشاه. وبعد أربعة أشهر وصل تلك المدينة. وبعد أن صام وقام ثلاثة أيام التقى بالشاه وهو خارج إلى الصيد في شميران. فتقدم من جلالته بكل هدوء ووقار قائلاً: «يا سلطان قد جئتك من سبأ بنبأ عظيم» فأمر الشاه أن يؤخذ منه اللوح وأن يسلم إلى مجتهدي طهران وأمرهم أن يجيبوا عليه ولكنهم تحاشوا الإجابة، وبدلاً من ذلك أوصوا بقتل الرسول. فأرسل الشاه هذا اللوح إلى

---

(١) الأستاذ يعني المعلم في حرفة من الحرف أو صنعة من الصنائع.

سفيره في الآستانة حتى إذا ما قرأه وزراء السلطان زاد اشتعال نيران العداوة والبغضاء في صدورهم. وقد ظل حضرة بهاء الله زهاء ثلاثة أعوام يمتدح شجاعة ذلك الشاب المقدام في آثاره، ويصف الإشارات التي أوردها في هذه الآثار إلى تلك التضحية الرفيعة بأنها «ملح الواحي».

وفي زنجان ضرب في يوم واحد عنقا أبي بصير والسيد[1] أشرف اللذين قتل أبواهما في فتنة زنجان من قبل. وقد ذهب أبو بصير في الثبات إلى حد أنه بينما كان ساجداً في الصلاة أشار على الجلاد بأفضل طريقة لضرب عنقه. أما السيد أشرف فقد ضرب ضرباً مبرحاً إلى أن سالت الدماء من تحت أظافره ثم قطع رأسه وهو يعانق زميله الشهيد. ولقد أرسلت السلطات أم أشرف هذا إلى السجن على أمل أن تنجح في حمل وحيدها على الارتداد عن دينه. ولكنها بدلاً من ذلك هددته بالتبرؤ منه إن هو فعل ذلك وأمرته أن يحذو حذو أبي بصير. لا، بل إنها شاهدته وهو يقتل دون أن يطرف لها جفن أو تدمع لها عين. وفي بروجرد جلد محمد حسن خان الكاشي الثري الوجيه جلداً أفضى به إلى الموت. وفي شيراز أمر المجتهد فيها بقتل ميرزا آقاي ركاب ساز وميرزا رفيعي الخياط ومشهدي نبي، فقتلوا في جوف الليل خنقاً، وبعد ذلك نبشت الغوغاء قبورهم وأهالوا على أجسادهم القاذورات. وفي كاشان ضرب عنق الشيخ أبي القاسم المازكاني وهو ساجد يصلي. وكان قد رفض أن يشرب شربة ماء قدمت له قبل قتله مؤكداً أنه أظمأ إلى كأس الشهادة منه إلى أي شيء آخر.

وفي كرمان قتل ميرزا باقر الشيرازي الذي أبدى إخلاصاً منقطع النظير في استنساخ ألواح حضرة بهاء الله في أدرنة. وفي أردكان هاجمت الغوغاء الهائجة كُل محمد الشيخ الهرم وبطحته أرضاً ثم داسه سيدان بأحذيتهما الغليظة، حتى تهشمت ضلوعه وكسرت أسنانه، ثم سحبوا جسده إلى خارج المدينة ودفنوه في إحدى الحفر، ثم عادوا في اليوم التالي ونبشوا قبره

---

(١) السيد يعني من ينتمي إلى ذرية الرسول سيدنا محمد ﷺ.

وسحبوا جثته في الشوارع وتركوها في العراء. وفي مدينة مشهد الشهيرة بتعصبها الشديد شقوا صدر الحاج عبد المجيد، والد بديع السالف الذكر، وكان في الخامسة والثمانين من عمره، وكان الحاج عبد المجيد هذا واقعة طبرسي، وتشرف بمحضر حضرة بهاء الله بعد مقتل ابنه ثم عاد إلى خراسان يشتعل حماسة وإخلاصاً، وبعد قتله وضع رأسه على لوح من المرمر ليتفرّج عليه عامة الناس. أما جسده فقد سحبوه بصورة بشعة في الأسواق ثم تركوه في معرض الموتى ليأخذه أهله.

وفي إصفهان قطع رأس المُلاّ كاظم، بأمر الشيخ محمد باقر، وأجري على جثمانه حصان، ثم أشعلت فيه النار، كما بترت أذنا السيد آقا جان وسحبه الناس في الطرقات والأسواق. وبعد شهر حدثت في تلك المدينة مأساة الأخوين الشهيرين ميرزا محمد حسن وميرزا محمد حسين «النورين النيّرين» الملقبين بـ«سلطان الشهداء» و«محبوب الشهداء» على التوالي. وقد اشتهرا بكرمهما وأمانتهما ورأفتهما وتقواهما. وكان المحرض على قتلهما مير محمد حسين إمام الجمعة الغادر الخسيس الذي وصفه حضرة بهاء الله بـ«الرقشاء». والسبب في أمره بقتلهما أنه كان مديناً لهما بدين كبير أثناء تجارته معهما. فأراد أن يتخلص من دينه هذا فسعى بهما على أنهما بابيان يستحقان القتل. فنهب منزلاهما الفاخران حتى أشجار الحديقة وأزهارها وصودرت البقية من أموالهما. أما الذي أفتى بقتلهما فهو الشيخ محمد باقر الذي نعته حضرة بهاء الله بـ«الذئب»، وسرعان ما صادق ظل السلطان على هذه الفتوى فقيّدا بالسلاسل والأغلال، وضرب عنقاهما ثم سحب جسداهما إلى ميدان الشاه حيث أهانهما السفلة إهانات وحشية. وفي ذلك كتب حضرة عبد البهاء يقول: «* سفك دم هذين الأخوين بصورة جعلت قسيس جلفا المسيحي يبكي ويعول وينوح في ذلك اليوم». ومضى حضرة بهاء الله يذكرهما سنوات طوالاً في ألواحه، ويفصح عن حزنه على موتهما، ويمتدح مزاياهما وفضائلهما.

وسيق المُلاّ علي جان من مازندران إلى طهران سيراً على الأقدام، وبلغت الشدائد التي عاناها في هذه الرحلة أن جرح عنقه وتورم جسده من أول خصره حتى قدميه. وفي يوم استشهاده طلب ماء فاغتسل وصلى ووهب لجلاده مقداراً عظيماً من المال. وفي أثناء صلاته طعن بخنجر في حلقومه، ثم بصقوا على جثمانه وغطوه بالطين وعرضوه ثلاثة أيام وأخيراً مزقوه إرباً إرباً. وفي نامق هجموا على المُلاّ علي الذي اعتنق الدين أيام حضرة الباب هجوماً عنيفاً وحطموا أضلاعه بفاس حادة فمات من فوره. وقتل ميرزا أشرف في إصفهان، وداس جثمانه الشيخ محمد تقي النجفي «ابن الذئب»، هو وتلاميذه، ثم مزقوه في وحشية وسلموه إلى العامة ليحرقوه. ثم دفنت عظامه المحترقة تحت جدار هدم عليها ليغطيها.

وفي يزد قتل في يوم واحد سبعة أشخاص في ظروف مروّعة، وذلك بتحريض مجتهد المدينة وبأمر أحد أبناء ظل السلطان محمود ميرزا جلال الدولة الحاكم المتبلد الإحساس. وكان أول السبعة علي أصغر الذي لم يتجاوز ربيعه السابع والعشرين، خنقوه وسلموا جسده إلى بعض اليهود الذين أرغموا رفاقه الستة الآخرين على مصاحبتهم وهم يسحبون جسده في الطرقات يحيط بهم الغوغاء ويتقدمهم الجنود وهم يقرعون الطبول وينفخون في الأبواق. فلما بلغوا مكتب التلغراف قطعوا رأس المُلاّ مهدي البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً؛ وسحبوه بالطريقة نفسها إلى حيّ آخر من أحياء المدينة حيث قتلوا آقا علي بالطريقة عينها أمام حشد عظيم من المتفرجين الذين أفقدتهم الموسيقى الصاخبة صوابهم. ومن ثم تقدموا إلى منزل المجتهد، ومعهم الرفاق الأربعة الباقون. فذبحوا المُلاّ علي السبزواري الذي كان يخطب في الجمع الحاشد ويمجد شهادته الوشيكة، ومزقوا جسده برفش وهو ما زال حياً وهشموا رأسه بالحجارة تهشيماً. وفي حيّ آخر، وعلى مقربة من بوابة مهريز، قتلوا محمد باقر. وفي ميدان الخان حين ازداد صخب الموسيقى فطغى على صياح الناس، ضربوا أعناق من بقي لديهم من الأحياء.

وكانا أخوين في فواتح عقدهما الثالث، وهما علي أصغر ومحمد حسن، فبقروا بطن محمد حسن وانتزعوا كبده وقلبه. ورفعوا رأسه على رمح يتراقص على أنغام الموسيقى وهم يمشون في طرقات المدينة ثم علقوه على شجرة توت ورجموه بالحجارة. وألقوا بجثمانه على عتبة دار أمه حيث دخلت النساء إليها فرقصن احتفالاً باستشهاده، بل لقد أخذوا بعض أجزاء جسميهما للتداوي بها. وأخيراً شدوا رأس محمد حسن إلى أسفل جسده وحملوا جسده وأجساد الشهداء الآخرين إلى خارج المدينة ورجموها بالحجارة بعنف ووحشية حتى تحطمت جماجمها. ثم أرغم هذا الحشد اليهود على أن يحملوا كل هذه الأشلاء ويلقوا بها في حفرة في سهل السلسبيل. وأعلن الحاكم العطلة الرسمية للناس، وأغلقت الحوانيت بأمره، وأضيئت المدينة ليلاً وأقيمت معالم الزينة والاحتفال وأقيمت الولائم إيذاناً بانتهاء فعلة من أنكر ما ارتكب في التاريخ الحديث وأشدها بربرية ووحشية.

لا، بل إن من آمن من اليهود في همدان ومن الفارسيين[١] في يزد لم يسلموا من هجمات الأعداء الذين أفقدتهم صوابهم تلك الشواهد الواضحة اللائحة على تغلغل نور الدين في أحياء ومناطق كانوا يتصورون أنها ممتنعة عليه ومحصنة ضده. وأكثر من ذلك إن الجالية الشيعية التي استقرت مؤخراً في مدينة عشق آباد غاظها تزايد نفوذ أتباع حضرة بهاء الله الذين كانوا يعيشون بينهم، فحرضوا وغدين من أوغادهم على اغتيال الحاج محمد رضا الإصفهاني فطعناه في السوق وفي رابعة النهار فيما لا يقل عن اثنين وثلاثين موضعاً من جسمه، وبقرا بطنه وشقا صدره وأصابا كبده وأثبتت المحكمة العسكرية التي أرسلها القيصر إلى عشق آباد التهمة على الشيعة بعد تحقيق طويل وحكمت على اثنين منهم بالإعدام وعلى ستة آخرين بالنفي، وهو حكم لم يستطع ناصر الدين شاه ولا علماء طهران ومشهد وتبريز، الذين لجأت إليهم الجالية الشيعية، أن يخففوه. ولكن مندوبي الجامعة المظلومة

---

(١) الفارسيون يعني الزرادشتيون.

المفجوعة تدخلوا تدخلاً رائعاً أدهش السلطات الروسية كثيراً، ونجحوا في أن يخففوا العقوبة!

هذه ليست سوى بعض النماذج من المعاملة التي عامل بها خصوم الدين أتباعه الناهضين من جديد أثناء نفي حضرة بهاء الله في عكاء، وهي معاملة يمكن أن توصف بحق بأنها تمثل «بهيمية الحيوان وجهنمية الشيطان».

تلك المظالم وهذا التنكيل المخيف الذي تلا محاولة اغتيال ناصر الدين شاه زودت الدين «بحيوية لا يمكن لأي شيء آخر أن يزوده بها»، على حد قول اللورد كرزون من كدلستون نفسه. وقد ساعد تجدد الاضطهاد وتجدد إراقة دماء الشهداء على إنعاش الجذور التي ضربتها تلك الشجيرة المقدسة في تربة وطنها، فتضاعف أتباع حضرة بهاء الله في صمت، واستجمعوا في سكون القوة التي مكنتهم فيما بعد من أن يتحرروا وأن يؤسسوا نظامهم الإداري غير عابئين بسياسة الحديد والنار التي كانت تهدف إلى القضاء عليهم، ولا مبالين بالضربات الوجيعة المحزنة التي كانت تنهال على قائدهم الذي أبعد عنهم قسراً، ولا متأثرين بالمفاسد التي ارتكبها الناقض الأعظم لميثاق حضرة الباب.

وفي معرض الإشارات التي أراد بها اللورد كيرزون أن يصحح «الاضطراب العظيم والخطأ الجسيم الذي وقع فيه كتّاب أوروبا ولاسيما الإنجليز» في الأمر المبارك كتب، بعيد زيارته لإيران في خريف سنة ١٨٨٩، يقول: «إن الاعتقاد السائد الآن هو أن البهائيين يضمون بينهم تسعة عشر جزءاً من عشرين جزء من البابيين». ومن قبل ذلك بكثير كتب الكونت دي جوبينو سنة ١٨٦٥م يقول: «إن الاعتقاد السائد هو أن البابيين يتغلغلون في جميع طبقات المجتمع وبين رجال الدين ما عدا النصيريين والمسيحيين. ويظن أنهم منتشرون، فوق كل شيء، بين الطبقات المستنيرة وأهل الفنون في البلاد. وهناك سبب وجيه للاعتقاد بأن البابيين يضمون كثيراً من المجتهدين النابهين والعلماء البارزين والقضاة الممتازين، كما يضمون رجالاً يشغلون

مناصب مهمة في البلاط ومقرّبين من شخص الشاه. وبمقتضى إحصاء أجري أخيراً فإن في طهران خمسة آلاف من هؤلاء القوم من سكانها البالغين ثمانين ألف نسمة على وجه التقريب»، وأضاف يقول: «. . . إن البابية أثرت تأثيراً ملحوظاً في عقلية الأمة الإيرانية، بل إنها لتمتد خارج حدود إيران فتطرز حواشي ولاية بغداد وتتوغل في الهند»، وقال مرة أخرى: «. . . إنها حركة دينية فريدة فذة تشتغل بها اليوم بحرارة آسيا الوسطى، أي إيران وبعض جهات الهند وجزء من تركية آسيا، وما حول بغداد، وهي حركة رائعة جديرة بالدراسة من كل الوجوه، فهي تساعدنا على رؤية تطورات وحوادث وظواهر وكوارث لا يسع الإنسان تصور وقوعها إلا في الأزمان التي شهدت مولد الديانات العظمى».

وفضلاً عن ذلك أشار اللورد كرزون إلى إعلان رسالة حضرة بهاء الله وعصيان ميرزا يحيى فقال: «على أن هذه التقلبات لم تقلل دعايتها بحال من الأحوال بل يبدو أنها عززتها بحيث تقدمت بسرعة لم يفهمها كل من اعتبرها صورة فجة من الاختمار السياسي أو حتى الميتافيزيقي. وإن أقل تقدير لتعداد البهائيين في الوقت الحاضر يشير إلى أنهم يبلغون نصف مليون نسمة في إيران. ونتيجة لمحادثاتي مع من أثق في صدق حكمهم على الأمور فإني أميل إلى الاعتقاد بأن تعدادهم يناهز المليون نسمة». وأضاف إلى ذلك: «وأنت تجدهم في كل منحى من مناحي الحياة، من نبيل البلاط والوزير إلى الكناس والخادم بل إنهم لم يقصروا عن إدخال رجال الدين في دائرة نشاطهم» وشهد شهادة أخرى فقال: «لما وجدت البابية نفسها في صراع مع السلطات المدنية منذ سنواتها الباكرة، ولما حاول بعض البابيين الاعتداء على حياة الشاه استنتج الناس خطأً أنها حركة سياسية في أصلها، فوضوية إرهابية في طبيعتها. . . والبابيون في الوقت الحاضر مخلصون للتاج إخلاص غيرهم من أبناء الشعب. كما أن اتهام هذه الحركة الشابة بالاشتراكية والشيوعية والإباحية لا أساس له من الصحة ولا نصيب له من العدل أو الإنصاف. . . إن الشيوعية الوحيدة التي عرفها وأوصى بها [يعني حضرة الباب] هي بعينها شيوعية الإنجيل والكنيسة الأولى ألا وهي اشتراك المؤمنين في الخيرات على

قدم المساواة والتصدق والإحسان السّخي. أما تهمة الإباحية فيبدو أنها نشأت عن افتراءات الخصوم المغرضة نظراً للحرية الكبيرة التي منحها الباب للنساء. وفي منطق العقلية الشرقية قلما تنفصل حرية المرأة عن الفسق والفجور». وأخيراً إليك التكهنات التي كتبها: «إذا اطّرد نمو البابية بالمعدل الذي تنمو به الآن أمكن تصور حلول وقت يحلّ محل الدين المحمدي في إيران. ولو أن البابية برزت إلى حيز الوجود تحت راية عدوانية لكان من المستبعد إطلاقاً أن تفعل ذلك. ولكن طالما أنها تكسب رجالها من خيرة الصفوف التي تهاجمها فإن هناك سبباً أوجه للقول بأنها قد تسود في النهاية».

لم يستطع حبس حضرة بهاء الله في سجن عكاء ولا الشدائد المضاعفة التي عاناها، ولا الامتحان الطويل الذي امتحن به أتباعه في إيران أن يوقف أو يعرقل في أقل القليل مجرى التنزيل الإلهي الذي كان يفيض من قلمه بلا انقطاع، وهو التنزيل الذي سوف يعتمد عليه توجيه دينه وتماسك كيانه ورسوخ بنيانه واتساع نطاقه اعتماداً مباشراً. والواقع أن آثاره التي كتبها أثناء السنوات التي قضاها في السجن الأعظم تفوق في حجمها ومجالها تلك الفيوضات التي انهمرت من قلمه في أدرنة أو بغداد. ولما كان هذا التوسع المنقطع النظير في مجال آثاره أثناء سنوات نفيه في السجن أشد أهمية وبروزاً من التحول الأساسي في ظروف حياته في عكاء، ولما كانت نتائجه الروحية أعمق أثراً وأبعد مدى من حملة الاضطهاد والقمع التي شنها الأعداء في وطنه بلا هوادة، فإن هذا التوسع يعتبر مرحلة من أعظم مراحل تطور دينه إنعاشاً وأكثرها ازدهاراً وإثماراً.

هذه الزوابع الهوجاء التي عصفت بالدين في بداية ولاية حضرة بهاء الله، وتلك العزلة الشتوية التي ميزت افتتاح رسالته الإلهية بعد نفيه من طهران مباشرة، تلاها في الجزء الأخير من إقامته ببغداد ما يمكن أن يوصف بالسنوات الربيعية من رسالته، فهي السنوات التي شهدت انطلاق القوى الكامنة في البذرة الإلهية التي ظلت هامدة خامدة منذ القضاء المفجع على

مبشره الفريد انطلاقاً سافراً ملموساً. وببلوغه أدرنة وإعلانه رسالته هناك علا كوكب ظهوره إلى السمت وسطع في أوج مجده الصيفي كما يشهد أسلوب آثاره ولهجتها. ثم جاءت فترة حبسه في سجن عكاء جالبة معها اكتمال عملية البلوغ البطيئة، فكانت فترة نضجت فيها أشهى ثمار تلك الرسالة واكتملت.

وإذا استعرضنا الميدان الفسيح الذي انسحبت عليه آثار حضرة بهاء الله أثناء تلك الفترة اتضح لنا أنها تنقسم إلى ثلاث مجموعات متميزة. تشمل أولاها الآثار التي تعتبر نتائج إعلان رسالته في أدرنة. وتتضمن ثانيتها شرائع دورته وأحكامها التي سجل معظمها في كتابه الأقدس. أما ثالثتها فتندرج تحتها الألواح التي تعلن وتؤكد العقائد الأساسية والمبادئ الجوهرية التي تقوم عليها تلك الدورة.

كان إعلان رسالته موجهاً، كما لاحظنا من قبل، إلى ملوك الأرض بصفة خاصة. ذلك لأنهم، بحكم ما لهم من قوة وسلطان تقع على كاهلهم مسؤولية التحكم في مصائر شعوبهم، وهي مسؤولية فريدة لا مفرّ لهم منها. إلى هؤلاء الملوك وإلى رجال الدين في الأرض، أولئك الذين لا يقل تأثيرهم على جموع أتباعهم قوة ونفاذاً، وجه سجين عكاء دعواته وإنذاراته ومناشداته في غضون السنوات الأولى من حبسه في تلك المدينة، وقد أكد ذلك فقال: «إنّا لما وردنا السجن أردنا أن نبلغ إلى الملوك رسالات ربهم العزيز الحميد. ولو أنّا بلّغنا ما أمرنا به في ألواح شتى، هذه مرة أخرى فضلاً من الله».

إلى ملوك الأرض في الشرق والغرب، المسلم منهم والمسيحي، أولئك الذين لام معشرهم وحذرهم في سورة الملوك النازلة من قبل في أدرنة، والذين دعاهم حضرة الباب دعاةً جباراً في فاتحة «قيوم الأسماء» النازلة ليلة بعثته، وجّه حضرة بهاء الله أثناء أحلك أيام سجنه في عكاء بعضاً من أهم آيات كتابه الأقدس الكريمة يدعوهم فيها إلى أن يستمسكوا بـ«الناموس الأكبر»، وينادي بنفسه «المالك» و«المقصود». ويعلن لهم فيها أنهم هم «المماليك» و«مظاهر القدرة»، ويتبرأ لهم من أية نية في الاستيلاء

على ممالكهم ويأمرهم بأن يهجروا قصورهم ويسرعوا إلى الفوز بالدخول في ملكوته ويمتدح الملك الذي ينهض لنصرة أمره ويصفه بأنه «بمنزلة البصر للبشر». ويلقي عليهم آخر الأمر تبعة تلك الشدائد التي أصابته على أيديهم.

وفي لوحه إلى الملكة فيكتوريا يدعو هؤلاء الملوك أيضاً إلى التمسك «بالصلح الأصغر» بعد أن رفضوا «الصلح الأكبر»، ويناشدهم أن يصلحوا ذات بينهم، ويتّحدوا وينزعوا سلاحهم، وينهاهم عن إرهاق شعوبهم وأتباعهم الذين يصفهم بقوله إنهم «خزائن» لهم و«أمانات» عندهم، ويعلن المبدأ القائل بأن يقوموا قومة رجل واحد في وجه من يقوم ضد غيره، ويحذرهم أن يعاملوه كما عامله «ملك الإسلام» ووزراؤه.

وإلى إمبراطور الفرنسيين نابليون الثالث، أعظم ملوك عصره وأقدرهم، ذلك الذي وصفه بأنه «سلطان الزمان» والذي «نبذ لوح الله وراءه» كما يصفه حضرة بهاء الله في اللوح الأول الذي نزل له في أدرنة، وجّه حضرة بهاء الله من ثكنات عكاء لوحاً ثانياً وأرسله إليه على يد المعتمد الفرنسي في عكاء. في هذا اللوح يعلن للإمبراطور مجيء «المختار» ليحيي الأكوان ويوحّد الشعوب، ويؤكد تأكيداً قاطعاً أن السيد المسيح كان مبشراً برسالته، ويصرّح بسقوط «أنجم سماء العلم» الذين أعرضوا عنه، ويفضح نفاق ذلك الملك ويتنبأ في وضوح بأن «الملك يخرج من كفه» وأن «الزلازل تأخذ كل القبائل هناك» إلا إذا قام على نصرة أمر الله واتباع من هو روحه.

وفي آيات خالدات أخرى [من الأقدس] يخاطب «ملوك أمريقا ورؤساء الجمهور فيها» ويدعوهم بقوله: «زينوا هيكل الملك بطراز العدل والتقى ورأسه بإكليل ذكر ربكم»، ويعلن أن «الموعود» قد ظهر، وينصح لهم أن يغتنموا «يوم الله»، ويأمرهم أن «اجبروا الكسير بأيادي العدل، وكسروا الصحيح الظالم بسياط أوامر ربكم الآمر الحكيم».

وإلى نيقولاويج إسكندر الثاني قيصر روسيا القدير، يوجه، وهو نزيل الثكنات، لوحاً يعلن فيه مجيء الآب الموعود «المذكور بلسان أشعياء» والذي

«زين باسمي التوراة والإنجيل»، ويأمره بأن «قم... ثم ادع الأمم إلى الله»، ويحذّره خشية أن يحجبه الملك عن «المالك»، ويعترف بالمساعدة التي قدّمها له سفيره في طهران، ويحذره أن يخسر المكانة التي قدرها له الله.

وفي غضون الفترة نفسها يوجه لوحاً إلى الملكة فيكتوريا يدعوها فيه إلى أن تعير أذناً صاغية لنداء مولاها مالك الأنام، ويأمرها فيه أن «ضعي ما على الأرض» وأن تقبل بقلبها إلى ربها جمال القدم، ويؤكد لها أن قد «كمل ما ذكر في الإنجيل»، وأن ربها سيكافئها على أنها «منعت بيع الغلمان والإماء» إن هي اتبعت ما أرسله إليها، ويثني عليها لأنها «أودعت زمام المشورة بأيادي الجمهور»، ويهيب بهؤلاء أن «يكونوا أمناء بين العباد، ويروا أنفسهم وكلاء لمن على الأرض كلها»، وأن يحكموا بين الناس «بالعدل الخالص».

وفي فقرة رائعة من الأقدس موجهة إلى ولهلم الأول ملك بروسيا، الذي نودي به آنذاك إمبراطوراً على ألمانيا المتحدة، يأمر الإمبراطور أن يستمع إلى صوته فهو صوت الله، ويحذره ألا يمنعه الغرور عن عرفان مشرق الظهور، ويعظه أن «اذكر من كان أعظم منك شأناً وأكبر منك مقاماً» [يعني نابليون الثالث] «رجع إلى التراب بخسران مبين». ويلتفت في ذلك الكتاب إلى «شواطئ نهر الرين» فيراها «مغطاة بالدماء بما سلّ عليك سيوف الجزاء» ويرتفع «حنين البرلين ولو أنها اليوم على عز مبين».

وفي فقرة بارزة أخرى من ذلك الكتاب موجهة إلى فرانسوا جوزيف إمبراطور النمسة ووارث الإمبراطورية الرومانية المقدسة يؤنب حضرة بهاء الله الإمبراطور على إغفاله الاستفسار عنه أثناء رحلته إلى بيت المقدس، ويشهد الله على أنه وجده «متمسكاً بالفرع غافلاً عن الأصل»؛ ويأسف لضلاله، ويأمره بأن يفتح البصر وينظر إلى «النور المشرق من هذا الأفق اللميع».

وإلى عالي باشا، صدر تركيا الأعظم، يوجه حضرة بهاء الله بعد قدومه السجن بقليل لوحاً ثانياً يعنفه فيه على قسوته التي بها «سعّر السعير وناح

الروح»، ويعدد له ألوان الاضطهاد التي ارتكبها ضده، ويحكم عليه بأنه من زمرة الذين أدانوا النبيين منذ الأزل بأنهم من المفسدين، ويتنبأ بسقوطه، ويسهب القول في ذكر آلامه وآلام المنفيين معه، ويثني على ثباتهم وخلوصهم وانقطاعهم، ويتنبأ بأن نقمة الله المنتقم سوف تنزل عليه وعلى حكومته، وأن الهرج والمرج سوف يسود بينهم، وأن الولايات سوف تخرج من أيديهم، ويؤكد له أنه لو أفاق من غفلته لخرج عن كل أمواله وفضل أن يسكن «في غرفة خربة من غرفات هذا السجن الأعظم». وفي لوح فؤاد يؤكد نبوءته السالفة الذكر، في معرض إشارته إلى الموت العاجل الذي اختطف فؤاد باشا وزير خارجية السلطان فيقول: «سوف نعزل الذي كان مثله [يعني عالي باشا] ونأخذ أميرهم الذي يحكم على البلاد [يعني السلطان عبد العزيز] وأنا العزيز الجبار».

وإلى رجال الدين من كل ملة من ملل العالم وجه حضرة بهاء الله رسائل يستقل بعضها بألواح كاملة خاصة، ويشيع بعضها الآخر في آثاره الأخرى. وهي لا تقل قوة ولا روعة عن تلك التي وجهها إلى الملوك. وفيها يعلن مطالب ظهوره بلا غموض ولا تحفظ، ويدعوهم إلى الاستماع إلى ندائه، ويكشف في بعض الحالات الخاصة عن ضلالهم البعيد وغرورهم الشديد وطغيانهم البغيض.

ففي فقرات خالدة من الأقدس وفي ألواح أخرى يأمر معشر رجال الدين طراً أن «اتقوا الله» وأن «خذوا أعنّة الأقلام... ضعوا الظنون والأوهام متوجهين إلى أفق أشرق منه نير الإيقان». ويحذرهم ألا «تزنوا كتاب الله [يعني الأقدس] بما عندكم من القواعد والعلوم» ويصف ذلك الكتاب بأنه «قسطاس الحق بين الخلق» ويتوجع لعماهم وضلالهم، ويؤكد تفوقه في الإلهام والبصيرة والحكمة والمنطق ويعلن عن علمه اللدني وعرفانه الغيبي، ويحذرهم ألا «تحجبوا الناس بحجاب آخر» بعد أن «خرق الأحجاب»، ويتهمهم بأنهم هم «علة الإعراض في أول الأمر»، ويدعوهم إلى أن «اقرأوا

ما نزل بالعدل والإنصاف» وألا «تدحضوا الحق» بما عندهم.

وإلى البابا بيوس التاسع، رأس أقوى كنيسة مسيحية بلا منازع، والجامع بين السلطة الروحية والزمنية، يوجه حضرة بهاء الله، وهو نزيل ثكنات الجيش في عكاء، لوحاً على أعظم جانب من الأهمية والخطورة، إذ أعلن له فيه أنه «قد أتى رب الأرباب في ظُلَلِ السحاب» وأنه «قد ظهرت الكلمة التي سترها الابن»، ويحذره، فضلاً عن ذلك، ألا يجادله كما جادل الفريسيون السيد المسيح، ويأمره أن يترك القصور لمن يحبون القصور وأن «بع ما عندك من الزينة المزخرفة ثم أنفقها في سبيل الله» وأن يتنازل عن مملكته للملوك و«اطلع... ثم انطق بذكر ربك بين الأرض والسماء» وأن يدعو الناس للدخول في دينه. ولمّا كان يعتبره شمساً من شموس سماء الأسماء فهو يحذره «ألا تغشاه الظلمة وتحجبه عن النور». ويناشده أن «انصح الملوك قل أن اعدلوا بين الناس»، وينصح له بأن يمشي في أثر مولاه، وأن يحذو حذوه.

وإلى بطارقة الكنيسة المسيحية وجّه نداءً خاصاً يعلن لهم فيه مجيء الموعود، ويدعوهم إلى أن «يتقوا الله» وأن «يخرقوا حجب الأوهام» ويوصيهم بأن يضعوا ما عندهم و«خذوا ما أرسلناه إليكم بقدرة». وإلى رؤساء الأساقفة أعلن أيضاً أن «الرب الذي هو الآب قد أتى» وأنهم يعدّون «من الأموات» وأنه «طوبى لراقد انتبه من نسماتي، طوبى لميّت حيّ من نفحاتي». وفي فقرات موجهة إلى الأساقفة يعلن أن «الرب هو الآب قد أتى بمجده الأعظم بين الأمم». ويصفهم بأنهم النجوم الهاوية من سماء العرفان، ويؤكد لهم أن «جسد الحبيب يشتاق الصليب» وأن رأسه «أراد السنان في سبيل الرحمٰن». ويأمر القساوسة أن «دعوا النواقيس» وأن يخرجوا من كنائسهم، ويهيب بهم أن «تصيحوا بين الأمم بهذا الاسم الأعظم». ويؤكد لهم أنه ما من أحد يدعو الناس باسمه إلا «ويظهر منه ما يعجز عنه من على الأرض كلها». وينذرهم أن قد «أتت الساعة»، وينصح لهم أن يرجعوا

بقلوبهم إلى الله الغفور الكريم. وفي الفقرات العديدة الموجهة إلى «ملأ الرهبان» يأمرهم ألا يعتزلوا الناس في الصوامع والأديرة، وأن يشتغلوا بما ينفعهم وينتفع به العباد، ويأمرهم بالزواج، ويؤكد لهم أنهم إن اتبعوه جعلوا ورثة ملكوته، وإن عصوه وتعصبوا عليه تحمّل ذلك بصبر وأناة.

وأخيراً، في فقرات عدّة موجهة إلى أتباع السيد المسيح كافة، يوحّد بين نفسه وبين «الآب» الذي أخبرهم به أشعياء و«المعزي» الذي أخذ عهده الروح [عيسى] و«روح الحق الذي يرشدهم إلى جميع الحق». ويعلن أن يومه هو يوم الله، وينبئهم باتصال نهر الأردن «بالبحر الأعظم»، ويؤكد لهم غفلتهم، وأنه قد فتح لهم الأبواب «ليدخل العالم في ملكوته الأقدس». وينبه على أن «الهيكل» الموعود قد تم تعميره «بأيادي القدرة والاقتدار» من لدن ربهم القويّ المنان؛ ويأمرهم بأن «اخرقوا الأحجاب» ليدخلوا ملكوته باسمه، ويذكرهم بقول السيد المسيح لبطرس ويعدهم بأن يجعلهم «علة حياة العالم» إن هم اتبعوه.

وإلى معشر رجال الدين الإسلامي خصص حضرة بهاء الله فقرات لا حصر لها ولا عدّ في كتبه وألواحه يندد فيها بقسوتهم في لهجة متدفقة، ويفضح غرورهم وكبرياءهم وصلفهم وغطرستهم ويدعوهم فيها إلى ترك ما عندهم، وأن يعزفوا عن الجدل وأن يعيروا أذناً صاغية واعية للكلمات التي نطق بها، ويؤكد لهم أن أفعالهم كانت سبباً في أن «انحط شأن الملة ونكس علم الإسلام وثل عرشه العظيم». وإلى «معشر علماء إيران» خاصة يوجه اللوم والتقريع والتنديد بأعمالهم وينبئهم بأن «يبدّل عزكم بالذلة الكبرى» وأنهم سوف يشهدون العقاب الذي ينصبّ عليهم «من الله الآمر الحكيم».

وإلى الشعب اليهودي يعلن أيضاً أنه قد جاء الناموس الأعظم و«يحكم جمال القدم على كرسيّ داود» الذي يصيح ويدعو باسمه وأنه «* * من صهيون أتى المكنون» و«* * من أورشليم ارتفع نداء الله الواحد الفرد العليم».

وإلى دساتير الزرادشتيين يعلن فضلاً عن ذلك أن «* المحبوب الفرد» قد ظهر وأنه «* يقول ما فيه النجاة» وأن «* يد القدرة ظاهرة من وراء السحاب»، وأن آيات جلاله وعظمته واضحة لائحة، وأعلن أنه «* لن يقبل اليوم عمل أحد من الناس إلا عمل النفس التي انقطعت عن الناس وما عندهم وأقبلت إلى الله».

وفي لوحه للملكة فيكتوريا ترد بعض الفقرات الهامة موجهة إلى أعضاء البرلمان الإنجليزي، أبي البرلمانات، وإلى مجالس الأمة لدى الشعوب الأخرى، يؤكد فيها أن هدفه هو تقدم العالم وتوحيد شعوبه ويذكر ما عاناه من شدائد على أيدي أعدائه ويهيب برجال التشريع أن «تدبروا وتكلموا فيما يصلح به العالم» ويؤكد أن «الدرياق الأعظم والسبب الأتم لصحته اتحاد من على الأرض على أمر واحد وشريعة واحدة» و«هذا لا يمكن أبداً إلا بطبيب حاذق كامل مؤيد». ويوصي في كتابه الأقدس، فضلاً عن ذلك، باختيار لغة واحدة وخط واحد يستخدمه عالم واحد، وهي وصية يعتبر تنفيذها دليلاً على «بلوغ العالم» حسب تأكيده في ذلك الكتاب.

أما الكلمات التي وجهها «لأهل البيان» على حدة، وإلى حكماء العالم وشعرائه وأدبائه ومتصوفيه بل وإلى تجاره فهي لا تقل معنى ولا مغزى، إذ يدعوهم فيها إلى الاهتمام به والانتباه إلى صوته والإيمان بيومه وإطاعة أوامره وأحكامه.

تلك هي، على وجه الاختصار، الملامح البارزة للبيانات الختامية من هذا الإعلان التاريخي، وهي البيانات التي بدأت نغماتها الافتتاحية تصدح أثناء الجزء الأخير من نفي حضرة بهاء الله إلى أدرنة؛ وانتهت أثناء السنوات الأولى من سجنه في عكاء. دعا بها الملوك والأباطرة جماعة وأفراداً، ورؤساء جمهوريات القارة الأمريكية والوزراء والسفراء والبابا وخليفة نبي الإسلام والمليك الأمين على دولة الإمام الغائب، وملوك العالم المسيحي وبطارقته وأساقفته وقساوسته ورهبانه، ورؤساء السنة والشيعة، ودساتير دين

زرادشت، والفلاسفة والمفكرين ورجال الدين والحكماء وأهل الآستانة، مقر السلطنة والخلافة المتغطرس، ومعاشر الزرادشتيين واليهود والمسيحيين والمسلمين، وأهل البيان وقادة الفكر في العالم والأدباء والشعراء والمتصوفة والتجار ونواب الشعوب، وبني جنسه وأهل وطنه. نعم، نودي كل هؤلاء بين الحين والآخر في الكتب والرسائل والألواح ليستمعوا مباشرة إلى النداءات والتحذيرات والمناشدات والإنذارات والنبوءات، أو بعبارة أخرى ليستمعوا إلى كل ما يتألف منه نداؤه الجبار إلى قادة الجنس البشري، ذلك النداء الذي يقف فذاً فريداً لا شبيه له ولا نظير في تواريخ الأديان السابقة اللهم إلا رسائل حضرة محمد رسول الله إلى بعض معاصريه من الحكام، وإن كانت هذه لا تقدّم إلا شبهاً متواضعاً شاحباً.

وكيف لا وحضرة بهاء الله نفسه يؤكد قائلاً: «* منذ بداية الخلق حتى يومنا هذا لم تبلّغ [رسالة] بمثل هذا البلاغ العلني الشامل». وهو يشير إلى الألواح التي وجهها إلى حكام الأرض، والتي امتدحها حضرة عبد البهاء فيما بعد ووصفها بأنها «معجزة»، فيقول: «* سمي كل لوح منها باسم خاص؛ فسمي الأول بـ «الصيحة»، والثاني بـ «القارعة»، والثالث بـ «الحاقة»، والرابع بـ «الساهرة»، والخامس بـ «الطامة» وكذلك سميت الألواح الأخرى بالصاخة والآزفة والفزع الأكبر والصور والناقور وأمثال ذلك حتى يوقن جميع أهل الأرض ويشاهدوا بأبصارهم وبصائرهم أن مالك الأسماء كان وما زال غالباً على البرية في كل الأحوال». ولقد أمر أن تكتب أهم هذه الألواح مع «سورة الهيكل» الزهراء على هيئة شكل هندسيّ يرمز إلى هيكل الإنسان. وفي أحد ألواحه إلى أهل الإنجيل وحّد بين هذا الهيكل والهيكل الذي ذكره زكريا النبي ووصفه بأنه «** مشرق الرحمٰن المنير»، وأنه بنته «** أيدي مشية ربكم العزيز الوهاب».

ومهما بلغ هذا الإعلان من الفذاذة والروعة فإنه لم يكن سوى فاتحة لكشف أعظم وأخطر عن قوى صاحبه الخلاّقة، ومقدمة لما يمكن أن يحتل

بحق، منزلة أبرز عمل تم في ولايته، ألا وهو صدور الكتاب الأقدس، هذا الكتاب الأقدس الذي أشير إليه في كتاب الإيقان، هو المخزن الرئيس للشريعة، الذي تنبأ به أشعياء النبي ووصفه صاحب سفر الرؤيا بـ «السماء الجديدة» و«الأرض الجديدة» وأنه «مسكن الله مع الناس» و «المدينة المقدسة» و«العروس» و«أورشليم الجديدة النازلة من السماء» ويمكن بحق أن يعد الكتاب الأقدس، الذي سوف تسري شرائعه وأحكامه غير منقوضة ما لا يقل عن ألف سنة، وسوف يحتضن نظامه الكرة الأرضية بأسرها، أنصع فيض فاضت به عقلية حضرة بهاء الله، وأم الكتاب في دورته، ودستور نظامه العالمي الجديد.

بعد أن انتقل حضرة بهاء الله إلى منزل عودة خمّار (حوالي سنة ١٨٧٣م) بقليل وفي غمرة الشدائد التي عاناها على يد أعداء الدين ومواليه على السواء نزل الكتاب الأقدس، ذلك الكنز الذي يضم بين دفتيه جواهر إلهامه النفيسة. ويفضل المبادئ التي يقررها، والمؤسسات الإدارية التي ينص عليها، والوظائف التي يزود بها خليفة صاحبه، فإن هذا الكتاب يقف فريداً فذاً لا شبيه له ولا نظير من بين سائر كتب العالم المقدسة. فعلى خلاف العهد القديم وما سبقه من الكتب المقدسة حيث انعدمت تماماً الأقوال التي نطق بها الرسل أنفسهم، وعلى خلاف الأناجيل حيث لا تقدم الأقوال القليلة المنسوبة إلى السيد المسيح إرشادات واضحة فيما يتصل بالتنظيم الإداري لأمور دينه فيما بعد، بل وعلى خلاف القرآن الذي نراه صامتاً حيال موضوع بالغ الأهمية كالخلافة، رغم وضوحه الشديد فيما يتعلق بالأحكام والشرائع التي نص عليها، فإن الكتاب الأقدس يمتاز بأنه نزل من أوله إلى آخره بقلم صاحب الدورة نفسه، وأنه لم يحتفظ للأجيال بالشرائع الأساسية والأحكام الجوهرية التي يقوم عليها صرح النظام العالمي المقبل فحسب بل واختص خليفته بمهمة التبيين كما نصّ على الهيئات التي لا يمكن للدين أن تصان سلامته ويؤمن تماسكه وصلابته إلا بها هي وحدها.

في دستور الحضارة العالمية القادمة هذا يعلن صاحبه، وهو ديان الجنس البشري ومشرعه وموحده ومخلصه في آن واحد، لملوك الأرض مجيء «الناموس الأكبر»، ويصفهم بالمماليك وينادي بنفسه «المالك»، ويتبرأ من أية نية له في التصرّف في ممالكهم محتفظاً لنفسه بحق التصرف في القلوب، ويحذر رجال الدين في العالم ألا يزنوا «كتاب الله» بما عندهم من الموازين المتداولة بينهم مؤكداً أن ذلك الكتاب هو «قسطاس الحق» بين الخلق. وفي هذا الكتاب ينص على مؤسسة «بيت العدل» ويعرّف مهماته ويحدد موارده ويصف أعضاءه بأنهم «رجال العدل» و «وكلاء الله» و «أمناء الرحمن» ويشير إلى مركز عهده وميثاقه في المستقبل ويزوده بحق تبيين تعاليمه المقدسة، ويسلف الإشارة الضمنية إلى مؤسسة ولاية الأمر، ويشهد لنظامه العالمي بالتأثير الانقلابي، ويعلن مبدأ «العصمة الكبرى» لمظهر الله مؤكداً أن هذه العصمة هي حق فطري مطلق لمظهر الله، وينفي احتمال ظهور مظهر إلٰهي آخر قبل انقضاء ما لا يقل عن ألف سنة.

وفي هذا الكتاب أيضاً يفرض الصلاة، ويحدد ميقات الصيام ومدته، ويرفع حكم صلاة الجماعة إلا على الميت، ويعيّن القبلة، ويقرر حقوق الله، ويضع أحكام المواريث، وينص على مؤسسة مشرق الأذكار، ويقيم الضيافات التسع عشرية ويحدد الأعياد البهائية وأيام الهاء، ويلغي مؤسسة رجال الدين، ويحرّم الرق والتصوّف والتسوّل والرهبنة وشعيرة الاعتراف واستخدام المنابر وتقبيل الأيدي، ويوصي بالزواج من واحدة، ويستنكر القسوة على الحيوان، وينهي عن الكسل والتواكل والغيبة والافتراء، وينفّر من الطلاق، ويحرّم الميسر وتعاطي الأفيون والخمر وكل ما يذهب به العقل، ويحدد عقوبة القتل وإحراق البيوت عن عمد والزنى والسرقة، وينبه على أهمية الزواج ويعين شروطه الرئيسة. ويفرض الاشتغال بالمهن والحرف جاعلاً هذا الاشتغال عين العبادة. ويؤكد ضرورة التكفل بتعليم الأبناء، ويكلف كل إنسان بكتابة وصيته ويقرر ضرورة إطاعة الحكومة إطاعة دقيقة كاملة.

فإذا تجاوزنا هذه الأحكام، فإن حضرة بهاء الله يدعو أتباعه إلى أن يعاشروا مع الأديان بالروح والريحان دون تمييز ولا تفريق، ويحذرهم من التعصب والفتنة والكبر والغرور والجدال والنزاع. ويفرض عليهم الطهارة ظاهراً وباطناً ويوصيهم بالصدق المطلق والعفة الناصعة والأمانة الكاملة والكرم والإخلاص ولطف المعشر والتسامح والعدل والإنصاف. وينصح لهم أن يكونوا «كالأصابع في اليد والأركان للبدن». ويهيب بهم أن يقوموا على خدمة أمره مؤكداً لهم تأييده المبين. وهو فضلاً عن ذلك يتدبر اضطراب أحوال بني البشر، فيعلن أن حرية الفرد الحقيقية إنما هي في امتثاله لأوامره، ويحذرهم من التهاون في العمل بحدوده وأحكامه. ويفرض عليهم ذلك الواجب التوأم المزدوج الذي لا انفصام له، ألا وهو «عرفان مشرق وحيه ومطلع أمره» والعمل بما أنزل في كتابه مؤكداً لهم أن أحدهما لا يغني عن الآخر ولا يقبل أحدهما دون الآخر.

ومما يزيد في خصوبة محتويات هذا الكتاب، الذي وصفه صاحبه بأنه «فرات الرحمة بين البرية» و«قسطاس الهدى بين الورى» و«الصراط الأقوم» و«* المحيي للجنس البشري»، اشتماله على ذلك النداء الخطير الموجه إلى رؤساء جمهوريات أمريكا ودعوتهم إلى أن ينتهزوا فرصة يوم الله، ويدافعوا عن قضية العدل، ودعوته إلى أعضاء برلمانات العالم، وتشجيعه على اتخاذ لغة عالمية واحدة وخط عالمي واحد، وتحذيراته لولهلم الأول قاهر نابليون الثالث، ومؤاخذته لفرانسوا جوزيف إمبراطور النمسة، وإشارته إلى «حنين البرلين» في التفاته إلى «شواطئ نهر الرين» ونقمته المعلنة على «كرسي الظلم» الذي استقر في الآستانة، وتنبؤه بزوال «زينتها الظاهرة»، وبالشدائد التي قدر لها أن تهاجم أهاليها، وكلمات الفرح والعزاء التي يوجهها إلى عاصمة وطنه [طهران] مؤكداً لها أن الله اختار لها أن تكون «مطلع فرح العالمين»، ونبوءته بأنه «نسمع صوت الرجال» يعلو من خراسان تمجيداً لربهم الغني المتعال، وتأكيده بأن «أولي بأس شديد» سيظهرون في

كرمان ويذكرونه، وأخيراً تأكيده الرائع لأخيه الغادر الذي عذبه كل هذا العذاب أن الله «الغفور الكريم» سيغفر له سيئاته إن هو تاب وأناب.

وقد وصف حضرة بهاء الله تلك الشرائع والأحكام التي تكوّن لحمة هذا الكتاب وسداه بأنها «روح الحيوان لمن في الإمكان» و«العروة الوثقى» و«* * أثمار الشجرة» و«السبب الأعظم لنظم العالم وحفظ الأمم» و«سرج عنايته بين عباده» و«عَرفُ قميصه» و«مفاتيح رحمته» للبرية. ويشهد لهذا الكتاب فيقول: «قل إن الكتاب هو سماء قد زيناها بأنجم الأوامر والنواهي» ويقول علاوة على ذلك: «* * طوبى لمن يقرؤه ويتفكر في ما نزل فيه من آيات الله المقتدر العزيز المختار، قل يا قوم خذوه بيد التسليم... لعمري قد نزل على شأن تتحيّر منه العقول والأفكار، إنه لحجة العظمى للورى وبرهان الرحمن لمن في الأرضين والسموات». ويقول مرة أخرى: «طوبى لذائقة يجد حلاوتها ولذي بصر يعرف ما فيها ولذي قلب يطلع برموزها وأسرارها، تالله يرتعد ظهر الكلام من عظمة ما نزّل والإشارات المقنّعة لشدة ظهورها». ويقول مرة أخرى: «* نزل الكتاب الأقدس بحيث جاء جاذباً وجامعاً لجميع الشرائع الإلهية. طوبى للقارئين! طوبى للعارفين! طوبى للمتفكرين، طوبى للمتفرسين! ولقد نزل بانبساط وشمول واتساع بحيث أحاط بالناس أجمعين من قبل إقبالهم عليه. سوف يظهر في الأرض سلطانه ونفوذه واقتداره».

وبعد أن صاغ حضرة بهاء الله شرائع دورته الأساسية في كتابه الأقدس أعلن بعض المبادئ والأفكار التي تقع في الصميم من دينه وكانت رسالته تقترب من نهايتها. من ذلك أنه نبّه من جديد على الحقائق التي أعلنها من قبل، وهذب ووضح بعض الأحكام التي صاغها من قبل، وكشف عن نبوءات وإنذارات أخرى، وسنّ بعض الشرائع الفرعية استكمالاً لمطالب الأقدس. وهذا ما حملته ألواح تجلّ عن الحصر والعدّ ظل ينزلها حتى أواخر أيامه على هذه الأرض، من أهمّها «الإشراقات» و«البشارات» و«الطرازات» و«التجليات» و«الكلمات الفردوسية» و«اللوح الأقدس» و«لوح الدنيا» و«لوح مقصود».

وكانت هذه الألواح هي آخر الفيوضات التي فاضت من قلمه الدائب الذي لا يكل. وهي تحتل مكانتها بين أطيب ما انتجته عقليته من ثمار، وتشير إلى كمال ولايته التي دامت أربعين عاماً.

وأهم المبادئ المودعة في تلك الألواح على الإطلاق مبدأ وحدة الجنس البشري وكُلّيته. وهو المبدأ الذي يعتبر بحق علامة ظهور حضرة بهاء الله الفارقة وقطب تعاليمه البارز. وقد بلغ من أهمية هذا المبدأ أن نصّ عليه في كتاب عهده. كما أعلن، بلا تحفظ، إنه هو الغرض المركزي من دينه. فهو يقول: «قد جئنا لاتحاد من على الأرض واتفاقهم» ويقول مرة أخرى: «* إن آفاق العالم تنير بأنوار الأمر ما دام الاتفاق»، وهو يكتب مشيراً إلى موضوع ظهوره الأساسيّ فيقول: «* نطقنا بلسان الشريعة حيناً، وبلسان الحقيقة والطريقة حيناً آخر إلا أن مقصدنا الأقصى وغايتنا القصوى هو إظهار هذا المقام السامي الرفيع». وهو يقرر أن الاتحاد هو «* سلطان المقاصد» وهذا الأمل هو «* مليك الآمال» مؤكداً أن «* العالم في الحقيقة وطن واحد ومن على الأرض أهله». وهو ينبه، فضلاً عن ذلك، على أن توحيد الجنس البشري أمر لا مفرّ منه فهو المرحلة الأخيرة من تطوّر الإنسانية نحو البلوغ وأنه «لعمري سوف نطوي الدنيا وما فيها ونبسط بساطاً آخر» و «* ترى الأرض حاملة اليوم وعما قريب تشاهد أثمارها المنيعة وأشجارها الباسقة وأورادها المحبوبة ونعماءها الجنية». وهو يرثي لقصور النظم السائدة، ويكشف عن عدم كفاية حب الوطن كقوة مرشدة ضابطة للمجتمع البشري، ويعتبر «حب العالم» وخدمة مصالحه وترقيتها أكرم هدف للجهود الإنسانية، وأحقها بالمدح والثناء. وهو يبدي ألمه لأن «* * قوة الإيمان بالله تموت وتضمحل في كل بلد» وأن «* وجه العالم يتجه إلى الغفلة واللادينية» معلناً أن «* الدين هو النور المبين والحصن المتين لحفظ أهل العالم وراحتهم» وأنه «* السبب الأتم لنظم العالم». وهو يؤكد أن الغاية الأساسية من الدين هي ترويج الاتحاد ونشر الوئام بين الناس، ويحذّر الناس من أن يجعلوه سبباً للفرقة والخلاف. ويوصي بأن تعلم مبادؤه للأطفال في المدارس على نحو لا

يولد التعصب والتحيز، وينسب ضلال المارقين إلى اضمحلال قوة الدين، ويتنبأ بوقوع شدائد وأهوال «ترتعد به فرائص العالم».

وهو لا يتحفظ حين يدعو إلى الأخذ بمبدأ الأمن الجماعي، ويشجع على أن تخفض كل أمة من سلاحها، وينبه على أن إقامة هيئة عالمية يلجأ إليها ملوك الأرض وحكامها لإقرار السلام بين الأمم أمر ضروري ولا مفر منه.

أما العدل فيثني عليه ويصفه بأنه «* سراج العباد»و«* الحارس» لهم، وأنه «* مبين أسرار عالم الوجود وحامل راية المحبة والجود» ويعلن أن شعاعه فريد لا نظير له ولا قرين، وأن عليه يجب أن يعتمد «* نظم العالم وراحة الأمم». ويصف ركنيه، وهما «المجازاة»و«المكافاة»، بأنهما «ينبوع الحياة» للجنس البشري، ويوصي أهل العالم بأن يتهيأوا ويجتهدوا انتظاراً لقدومه. ذلك لأن شمس العدل سوف تشرق في تمام مجدها وأوج جلالها بعد فترة من الاضطراب العظيم والظلم الفاحش.

ويلقن الناس مبدأ الاعتدال في كل الأمور. ويعلن أنه ما تجاوز شيء حد الاعتدال إلا كان له في الناس تأثير سيء سواء أكان ذلك الشيء هو الحرية أو التمدن. ويلاحظ أن التمدن الغربي قد أفزع شعوب الأرض بشكل خطير، ويتنبأ باقتراب يوم «تحترق المدن من ناره».

أما الشورى فهو يقيمها مبدأ أساسياً من مبادئ دينه واصفاً إياها بـ«* مصباح الهدى»، و«* واهبة الإدراك»، ويصفها كذلك بأنها أحد «* نيّري سماء الحكمة الإلٰهية». ويقرر أن العلم هو بمثابة «* الجناح للإنسان والمرقاة لصعوده» ويعتبر تحصيله أمراً مفروضاً على كل فرد. ويرى أن «* الفنون والحرف والعلوم» تؤدي إلى السمو بعالم الوجود. ويوصي بالارتزاق من امتهان المهن واحتراف الحرف. ويعترف بأن أمم الأرض مدينة إلى العلماء وأهل الفنون العملية. وينفّر من دراسة ما لا ينفع الناس من العلوم التي «* تبدأ بالألفاظ وتنتهي بالألفاظ».

وفضلاً عن ذلك يؤكد الدعوة إلى أن «عاشروا يا قوم مع الأديان كلها بالروح والريحان» فمثل هذه المعاشرة تفضي إلى «* الاتحاد والوئام» اللذين هما أساس النظام في العالم والرشاد للأمم. وهو يكرر التنبيه إلى ضرورة تبني لغة وخطّ عالميّين، ويرثي للوقت المضيّع في تعلّم اللغات المختلفة؛ ويؤكد أنه باتخاذ هذه اللغة وهذا الخط ستصبح الأرض كلها «* مدينة واحدة وصعيداً واحداً»؛ ويقرر أنه على علم بكلا اللغة والخط، ويبدي استعداده لأن يعلمهما لكل من التمسهما منه.

وإلى أمناء بيت العدل يعهد بواجب التشريع فيما لم ينزل به نص صريح في آثاره، ويعدهم بأن الله سوف يلهمهم بما يشاء. ويوصي بإقامة لون من الحكومة النيابية تتحد فيها مُثُل الجمهورية العليا مع جلال الملكية، التي يصفها بأنها «إحدى آيات الله». ويصف إقامة مثل هذه الحكومة بأنها إنجاز مجيد جدير بالثناء. ويحض على أن تولى شؤون الزراعة عناية خاصة. ويشير إشارة خاصة إلى «* الصحف السريعة الانتشار» ويصفها بأنها «* مرآة العالم» وأنها «ظاهرة مدهشة وعمل عظيم»، ويعهد إلى القائمين على إصدارها بواجب اجتناب الحقد والضغينة والتعصب والتحيز ويوصيهم بالتحلي بالعدل ورجاحة العقل والتدقيق في تحقيقاتهم والتأكد من صحة الوقائع في كل حالة.

وهو يزيد في إيضاح مبدأ العصمة الكبرى، ويعيد التنبيه على ما فرضه على أتباعه من «* السلوك نحو حكومة القطر الذي يعيشون فيه بالولاء والإخلاص والأمانة» ويعيد التأكيد على النهي القاطع عن إعلان الجهاد الديني وإتلاف الكتب. ويختص بالمدح والثناء رجال العلم والحكمة ويصفهم بأنهم مثل «البصر» للبشر، وأنهم «العطيّة الكبرى» للعالم.

ولا ينبغي، ونحن نستعرض الملامح البارزة لآثار حضرة بهاء الله في غضون الجزء الأخير من نفيه إلى عكاء، أن تفوتنا الإشارة إلى «لوح الحكمة» الذي يبسط فيه أصول الفلسفة الحقيقية، ولا إلى «لوح الزيارة» الذي يتغنى فيه بمحامد الإمام الحسين بلغة مشرقة، ولا إلى رسالة «سؤال وجواب» التي

يوضح فيها شرائع الأقدس وأحكامه، ولا إلى «لوح البرهان» الذي يندد فيه بما ارتكبه الشيخ محمد باقر الملقب بـ«الذئب» ومير محمد حسين إمام الجمعة في إصفهان الملقب بـ«الرقشاء»، ولا إلى «لوح الكرمل» الذي يقرر فيه تقريراً له مغزاه وهو أن «مدينة الله» «نزلت من السماء» ويتنبأ فيه بأنه سوف «تجري سفينة الله» على ذلك الجبلو«يظهر أهل البهاء». وأخيراً لا يفوتنا أن نذكر اللوح الموجه إلى الشيخ محمد تقي الملقب بـ«ابن الذئب»، وهو أبرز الألواح الأخيرة التي فاضت من قلم حضرة بهاء الله. في هذا اللوح يدعو ذلك الشيخ المفترس إلى التوبة، ويورد بعضاً من أهم الفقرات المميّزة من آثاره الكريمة، ويسرد الأدلة الواضحة والبراهين اللائحة على صحة أمره وصدق دعواه.

بهذا الكتاب النازل قبل صعوده بسنة واحدة تقريباً يمكن أن يقال إن إنجازاته العجيبة، كصاحب مائة مجلد تكتنز جواهر إلهامه، قد انتهت أو كادت. هذه المجلدات المائة زخرت بما لا حصر له ولا عدّ من النداءات والدعوات والمناشدات والمبادئ الثورية المطوّرة والشرائع والأحكام التي يراد بها إعادة تشكيل العالم، والنبوءات والإنذارات الخطيرة والبشارات علاوة على الصلوات والمناجاة التي تسمو بالأرواح، والشروح والتفاسير الواضحة الجلية، والمواعظ الحارة، مبثوثة منثورة في النداءات الموجهة إلى الملوك والأباطرة والوزراء في الشرق والغرب، وإلى رجال الدين في كل ملة ونحلة، وإلى القادة في عوالم الفكر والسياسة والأدب والتصوف والتجارة والبر والإحسان.

وقد استعرض حضرة بهاء الله مدى هذا الظهور الجليل الشامل، وهو في مغرب حياته في السجن الأعظم، فقال: «فيا إلٰهي وسيدي ومحبوبي أنت تعلم بأني ما قصّرت في تبليغ أمرك وأظهرت لعبادك أعظم ما عندهم أمراً من عندك». وكتب مرة أخرى يقول: «هل بقي لأحد في هذا الظهور من عذر؟ لا ورب العرش العظيم! قد أحاطت الآيات كل الجهات، والقدرة كل البرية».

صعود حضرة بهاء الله

انقضى ما يقرب من نصف قرن على بداية الدين. لقد احتضنه العداء في مهده، وحرم في طفولته من مبشره وزعيمه إذ صرعه العدو اللدود الطاغية. ثم جاء نيره الثاني الأعظم فاستطاع في أقل من نصف قرن أن يقيل عثرته، رغم النفي المتتابع، وأن يعلو بنجمه بإعلانه رسالته وتنزيل شريعته وصياغة مبادئه ونظمه البديع. وما كاد الدين يتمتع بالإشراق والازدهار الذي لم ير مثيله من قبل حتى اختطفت مؤسسه يد القدر بغتة وعلى غير انتظار. فغرق أتباعه في بحار اللوعة والفزع، على حين انتعشت آمال هادميه من جديد، وطمع فيه خصومه السياسيون والدينيون مرة أخرى.

ويقرر حضرة عبد البهاء أن حضرة بهاء الله أفصح عن حنينه إلى مغادرة هذا العالم قبل صعوده بتسعة أشهر. ومنذ ذلك الوقت ازداد هذا الحنين وضوحاً في ثنايا تعليقاته لهؤلاء الذين فازوا بلقائه، وأصبح من البيّن أنّ ختام حياته الأرضية وشيك قريب، وإن امتنع أن يصرّح بذلك لأحد. وفي الليلة السابقة لليوم الحادي عشر من شوال سنة ١٣٠٩ هـ - الموافق ٨ أيار سنة ١٨٩٢ م -، ارتفعت درجة حرارته ارتفاعاً طفيفاً ومع أنها زادت في اليوم التالي ولكنها سرعان ما خفّت بعد ذلك. ومضى يأذن لبعض الأحباء والزوار، ولكن سرعان ما تجلى أنه ليس بخير. إذ عاودته الحمى وارتفعت درجة حرارته أكثر من ذي قبل. وأخذت حالته العامة تزداد سوءاً. وتلا ذلك مضاعفات انتهت بصعوده في فجر اليوم الثاني من ذي القعدة سنة ١٣٠٩ للهجرة، الموافق للتاسع والعشرين من أيار سنة ١٨٩٢ م، بعد ثماني ساعات

من غروب الشمس، بالغاً من العمر خمسة وسبعين عاماً، فرفرفت روحه بعد أن تخلصت أخيراً من أوصاب حياة ازدحمت بالشدائد والمحن، وهاجرت إلى «ممالك أخرى» وهي «المقامات التي ما وقعت عليها عيون أهل الأسماء»، والعوالم التي أمرته «* ورقة نوراء لابسة ثياباً رفيعة بيضاء» أن يسرع إليها كما وصفت في لوح الرؤيا النازل يوم عيد ميلاد مبشره قبل تسعة عشر عاماً.

وقبل صعوده بستة أيام كان يستلقي في فراشه على صدر أحد أبنائه فدعا بكل المؤمنين وبكثير من الزائرين الذين اجتمعوا في القصر. فكان ذلك آخر تشرف لهم بمحضره. ولقد خاطب الجمع الباكي الملتف من حوله خطاباً رقيقاً فقال: «* إني راض عنكم جميعاً فلقد أديتم خدمات عديدة وتحملتم المشقة. كنتم تجيئون كل صباح وكنتم تجيئون كل مساء. أيدكم الله جميعاً ووفقكم إلى الاتحاد وارتفاع أمر مالك الإيجاد». ووجه إلى النساء المجتمعات إلى جوار فراشه ومن بينهن أسرته كلمات تشجيع مماثلة، مؤكداً لهن تأكيداً قاطعاً بأنه عهد بهنّ إلى رعاية الغصن الأعظم وعنايته في وثيقة عهد بها إليه.

وسرعان ما طيرت أنباء صعوده إلى السلطان عبد الحميد في برقية بدأت بأن «قد أفلت شمس البهاء»، وفيها أحيط السلطان علماً بنيّة دفن رفاته المقدسة في حرم قصر البهجة، فوافق السلطان على ذلك في الحال. فأخلد حضرة بهاء الله إلى الراحة في الغرفة الشمالية القصوى من المنزل الذي كان يسكنه زوج ابنته، وهو المنزل المتجه إلى الشمال من بين المنازل الثلاثة الواقعة إلى الغرب من القصر والملاصقة له. وكان دفنه يوم صعوده بعد الغروب بقليل.

وقد امتاز النبيل المفجوع بالتشرف بمحضر حضرة بهاء الله أيام مرضه. وقد انتدبه حضرة عبد البهاء ليتخيّر تلك الفقرات التي يتألف من مجموعها لوح الزيارة الذي يتلى في المقام الأقدس، وبعد صعود محبوبه الأبهى ألقى بنفسه في البحر من هول الفجيعة. ولقد كتب يصف آلام تلك الأيام

وأوجاعها قائلاً: «كأني بالاضطراب الروحي الذي ثارت ثائرته في دنيا الفناء قد جعل عوالم البقاء ترتجف... وإن لساني الباطن والظاهر ليعجزان عن تصوير الحال التي كنا فيها... وفي فورة الهرج السائد كان من الممكن أن ترى جمعاً غفيراً من أهالي عكاء والقرى المجاورة يزحمون الحقول المجاورة للقصر وهم يبكون ويلطمون على رؤوسهم نائحين».

واستمر عدد كبير من النائحين، الأغنياء والفقراء على السواء، يتفجعون أسبوعاً كاملاً مع الأسرة الثاكلة، آخذين بنصيب من الطعام الذي قدمته الأسرة بسخاء. واشترك النابهون في التفجع على هذا الخطب الجلل، ومنهم الشيعي والسني والمسيحي واليهودي والدرزي والشاعر والعالم ورجل الدولة. وظلوا يعددون مناقب حضرة بهاء الله ومآثره ونواحي عظمته. وكتب كثير منهم المدائح شعراً ونثراً بالعربية والتركية. ووردت المدائح المماثلة من بلاد قصية كدمشق وحلب وبيروت والقاهرة. ولقد عرضت هذه الشواهد المشرقة كلها على حضرة عبد البهاء الذي أصبح يمثل أمر الزعيم الراحل، والذي اختلط تمجيده في هذه المدائح بذكر محامد والده العظيم ونعوته.

ومع ذلك فلم تكن هذه الشواهد الوفيرة الدالة على الحزن، وتلك التعبيرات الناطقة بالإعجاب، تلك التي أثارها صعود حضرة بهاء الله في صدور غير المؤمنين في الأرض المقدسة وما حولها، إلا قطرة إذا هي قورنت ببحار الأسى وشواهد الإخلاص البالغ التي تموجت، ساعة غروب شمس الحقيقة، في قلوب الآلاف المؤلفة ممن اعتنقوا أمره وعزموا على أن يرفعوا رايته في إيران والهند وروسيا والعراق وتركيا وفلسطين ومصر وسوريا.

بصعود حضرة بهاء الله انتهت فترة لا مثيل لها ولا نظير في تاريخ العالم الديني من عدة وجوه، وقطع القرن الأول من الدور البهائي نصف شوطه. نعم، انتهت فترة لا تضارعها في سموها ولا في خصوبتها ولا في مداها أية فترة في أي دورة سالفة أخرى، فهي فترة يمكن أن توصف، باستثناء سنوات ثلاث، بأنها نصف قرن من التنزيل التقدمي المنهمر، وبأنها فترة آتت فيها

الرسالة التي أعلنها حضرة الباب ثمرتها الذهبية المشتهاة. وانتهى بها أعظم وأخطر طور، وإن لم يكن أروع وأبهج طور من أطوار عصر البطولة المجيد. في هذه الفترة أشرقت شمس الحقيقة، أعظم نيّرات العالم في سياه چال بطهران، واخترقت السحب التي غلفتها في بغداد، وعانت كسوفاً وقتياً وهي تبلغ سمتها في أدرنة، وغربت أخيراً في عكاء فلا تعود إلى الإشراق قط قبل ألف عام كامل، وأعلن دين الله الجديد، وقطب كل الدورات السالفة، على رؤوس الأشهاد بلا تحفظ، وتحققت النبوءات المبشرة بقدومه تحققاً ملحوظاً لا خفاء فيه. كما أعلنت الشرائع والأحكام الأساسية والمبادئ الجوهرية، وصيغ النظام العالمي المقبل، لحمة وسدى، بكل جلاء ووضوح. وتحددت علاقته العضوية ومسلكه نحو الأديان السابقة تحديداً لا يرقى إليه الشك. وتأسست الهيئات الأولية التي قدّر لجنين النظام العالمي أن يتكامل وينضج في أحشائها تأسيساً محكماً. وانتقل إلى الأجيال القادمة ذلك الميثاق الذي من شأنه أن يرعى سلامة الدين العالمي ويصون تماسكه. ووعد الناس بتحقيق وحدة الجنس البشري وإقرار السلام الأعظم وافتتاح الحضارة العالمية وعداً أكيداً لا جدال فيه. وتكررت الإنذارات بالمصائب التي تنتظر الملوك ورجال الدين والحكومات كمقدمة لتلك الخاتمة المجيدة. وصدر النداء العظيم لقادة العالم الجديد، وهو النداء المبشر بالرسالة التي عهد بها فيما بعد إلى أمريكا الشمالية. وتم الاتصال المبدئي بشعب آمنت سليلة أسرته المالكة بالدين قبل نهاية القرن البهائي الأول، وأطلقت الدفعة الأصلية التي ما زالت تغدق، وستظل تغدق على مدى عشرات متلاحقة من السنين، بركاتها العميمة ذات الصبغة الروحية الإدارية على جبل الرب المقدس المشرف على السجن الأعظم. وأخيراً ارتفعت أعلام الفتح الروحي المظفرة التي قدر لها أن ترفرف قبل انتهاء القرن الأول على ما لا يقل عن ستين قطراً في نصفي الكرة الشرقي والغربي.

نعم، لقد استطاع دين حضرة بهاء الله، الذي كان يقف آنذاك على أعتاب العقد السادس من عمره، أن يبدي قدرته على أن يمضي إلى الأمام في

الطريق التي رسمها له مؤسسه، لا يصدعه صادع ولا يفسده مفسد، وأن يبدي أمام الأجيال المتعاقبة آيات الطاقة السماوية التي أغدقها عليه مؤسسه أيما إغداق، كل ذلك بفضل سعة مجال آثار قلمه المقدسة وتنوعها، وضخامة عدد شهدائه وإقدام أبطاله، والمثل الذي ضربه أتباعه، والجزاء العادل الذي لقيه خصومه، ونفاذ تأثيره وبطولة مبشره التي ليس كمثلها شيء، وعظمة مؤسسه التي تغشى العيون وتخطف الأبصار، والفعّالية الغيبيّة التي يبديها روحه الغلّاب الذي لا يقهر.

وإني لأشعر، في هذا الموضع، بالحاجة إلى توجيه عناية خاصة إلى المصير الذي لقيه الملوك والوزراء ورجال الدين في الشرق والغرب، أولئك الذين اضطهدوا دين حضرة بهاء الله في المراحل المختلفة من ولايته عامدين متعمدين، أو الذين تجاهلوا الإنذارات التي أنذرهم بها، أو عجزوا عن إدراك واجبهم الواضح، ألا وهو الاستجابة لندائه وإجلاله وإجلال رسالته بما هي أهل له، وكيف لا، وحضرة بهاء الله يشير إلى من قاموا على تدمير أمره وإيذائه بقوله: «* * لم يغمض الله عينه عن طغيان المعتدين. بل إنه انتقم في هذا الظهور من كل الطغاة أجمعين». والواقع أنه ليهولنا اتساع المنظر الذي تراه عيوننا المحملقة ونحن نستعرض الميدان الفسيح الذي اجتاحته رياح النقمة الإلٰهية منذ بداية ولاية حضرة بهاء الله بصورة جبارة تثل عروش الملوك وتقضي على الأسر المالكة، وتقتلع النظم الطبقية الدينية من أساسها، وتسرع بالحروب وتعجل بالثورات، وتقصي الأمراء والوزراء عن مناصبهم، وتصادر المغتصب وتذل الطاغية وتنتقم من المارق والخسيس.

فهذا السلطان عبد العزيز، الذي كان هو وناصر الدين شاه أساس البلايا التي انهالت على حضرة بهاء الله، وكان مسؤولاً عن توقيع ثلاثة فرمانات بنفي المظهر الإلٰهي، والذي وصمه في الأقدس بأنه جالس على «كرسيّ الظلم»، وتنبأ في لوح فؤاد بسقوطه، نراه يعزل إثر ثورة في القصر، ويحكم عليه بمقتضى فتوى تصدر من المفتي في عاصمة ملكه، ويقتل بعد أربعة أيام

(١٨٧٦ م)، ويخلفه ابن أخيه فيحكم عليه بالغباء المطبق. أما حرب ٧٧ ـ ١٨٧٨ م، فتحرر أحد عشر مليوناً من النير التركي، وتحتل القوات الروسية أدرنة، وتتهالك الإمبراطورية بأسرها وتتداعى نتيجة لحرب ١٤ ـ ١٩١٨م، وتلغى السلطنة وتعلن الجمهورية، ويتلاشى الحكم الذي دام أكثر من ستة قرون.

وهذا ناصر الدين شاه المغرور المستبدّ، الذي وصمه حضرة بهاء الله بأنه «رئيس الظالمين» وأنه سرعان ما يكون «عبرة للعالمين»، والذي تلطخ حكمه باستشهاد حضرة الباب وسجن حضرة بهاء الله وألح فيما بعد في الإيعاز بنفيه إلى الآستانة فأدرنة فعكاء، والذي عاهد نفسه على أن يخنق دين الله في مهده بمعونة نظام ديني خبيث، نراه يتعرض للاغتيال العنيف في ضريح شاه عبد العظيم ليلة يوبيله الذي كان مقرراً أن يحتفل به احتفالاً فائق الروعة بحسبان أنه فاتحة عهد جديد، وأن يخلد في التاريخ كأعظم يوم يشهده تاريخ الأمة الإيرانية. وتتعثر من بعده مصائر أسرته المالكة إذ يعمل سلوك أحمد شاه الطائش المخزي على الإسراع بأفول نجم آل قاجار.

وهذا نابليون الثالث، أقدر ملوك الغرب في أيامه وأشدهم إسرافاً في الطموح وإمعاناً في الغطرسة، ذلك المحتال الساذج الذي روي عنه أنه ألقى بلوح حضرة بهاء الله في ازدراء، والذي اختبره حضرة بهاء الله فوجده غير كفؤ، والذي تنبأ في لوح آخر بسقوطه، نراه يمنى بهزيمة نكراء في معركة سيدان (١٨٧٠ م)، ويسجل على نفسه أعظم هزيمة عسكرية رواها التاريخ الحديث، ثم يفقد مملكته ليقضي البقية الباقية من أيامه في المنفى، وتنهار كل آماله، بل ويقتل ابنه الأمير في حرب الزولو، وتتداعى إمبراطوريته المتغطرسة، وتندلع نيران حرب أهلية أشد وأنكى من الحرب الفرنسية الألمانية نفسها، وينادى في قصر فرساي، بولهلم الأول ملك بروسيا إمبراطوراً على ألمانيا الموحدة.

وهذا ولهلم الأول المفتون وقاهر نابليون الثالث، ذلك الذي نصحه

الكتاب الاقدس، وأمره بأن يتدبر المصير الذي آل إليه «من كان أعظم منه شأناً»، وأنذره بأن «حنين البرلين» سوف يتصاعد، وأن ضفاف نهر الرين «مغطاة بالدماء»، نراه يتعرض لمحاولتين لاغتياله، ويخلفه ولده ليموت بمرض وبيل بعد اعتلائه العرش بثلاثة أشهر، تاركاً العرش لولهلم الثاني المتكبر العنيد القصير النظر. وتعجل كبرياء الملك الجديد بسقوطه إذ تثور عليه عاصمة ملكه ثورة سريعة مفاجئة، وتطل الشيوعية برأسها على عدد من المدن، ويتنازل أمراء الولايات الألمانية. أما هو فيفر إلى هولندة فراراً مخزياً، ويرغم على التنازل عن العرش، ويختم دستور ويمار[١] على مصير الإمبراطورية التي طنطن جده لميلادها وجعجع. وتثير شروط المعاهدة الجائرة القاسية ذلك «الحنين» الذي تنبأ به المتنبئ منذ نصف قرن مضى.

وهذا فرانسوا جوزيف إمبراطور النمسة وملك المجر الجبار المتعسف، الذي لامه الكتاب الأقدس على إغفاله واجبه الظاهر، ألا وهو الاستفسار عن أمر الله عند زيارته للأراضي المقدسة، نراه يسوء طالعه، وتحيط به المآسي والكوارث من كل جانب حتى ليعد عهده فريداً في المصائب التي أنزلها بالأمة. وهذا أخوه مكسيميليان[٢] يقتل في المكسيك. وهذا ولي عهده رودلف[٣] يهلك في ظروف مخزية. وهذه الإمبراطورة تغتال. وهذا الأرشيدوق فرنسيس فرديناند[٤] يقتل هو وزوجته في سراييفو[٥]، وهذه «الإمبراطورية المتعثرة» تتداعى وتنهار ليقام على أنقاض هذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة المتلاشية جمهورية مزعزعة تمحى من خريطة أوروبا السياسية بعد حياة قصيرة مضطربة.

وهذا نيقولاويج إسكندر الثاني قيصر روسيا القدير، الذي حذره حضرة بهاء الله ثلاث مرات في لوحه الخاص وأمره بأن «يدعو الأمم إلى الله»،

---

(١) Constitution of Weimar
(٢) Maximilian
(٣) Prince Rudolph
(٤) Archduke Francis Ferdinand
(٥) Serajevo

وأوصاه بألا يمنعه الملك عن «المالك»، نراه يتعرض لمحاولات عدّة لاغتياله، ويموت أخيراً على يد أحد القتلة. وهذه سياسة القمع العنيفة التي استنّها وتابعه فيها خليفته إسكندر الثالث تمهّد الطريق لثورة يجتاح فيضانها الدموي إمبراطورية القياصرة في عهد نيقولا الثاني، وتجلب معها الحرب والوباء والمجاعة. وتقيم حكومة عمالية عسكرية تقتل النبلاء وتضطهد رجال الدين وتشرد قادة الرأي وتعدم القيصر وزوجته وأسرته وتقضي على آل رومانوف.

وهذا البابا بيوس[١] التاسع، رأس أقوى كنيسة في العالم المسيحي بلا منازع، وهو الذي أمره حضرة بهاء الله في لوحه أن يهجر القصور بقوله: «دعها لمن أرادها» و«بع ما عندك من الزينة» و«أنفقها في سبيل الله» وأن يسرع إلى «الملكوت» نراه يرغم على أن يستسلم في ظروف مخزية لقوات الملك فكتور عمانوئيل[٢] المحاصرة، وأن يخضع لانتزاع الأملاك البابوية ومن روما نفسها. وكان ضياع «المدينة الخالدة» التي رفرف عليها العلم البابوي ألف سنة، وهَوان الأنظمة الدينية في أيامه مما أضاف آلاماً روحية على آلامه الجسدية وزاد في مرارة السنوات الأخيرة من حياته. وأكد الاعتراف الرسمي بمملكة إيطاليا، ذلك الاعتراف الذي انتزع فيما بعد من أحد خلفائه في الفاتيكان، زوال سلطة البابا الزمنية.

على أن الانحلال السريع الذي دب في الإمبراطوريات العثمانية والنابليونية والألمانية والنمسوية والروسية وانقراض آل قاجار وزوال سلطة البابا الزمنية لا تستنفد قصة المصائب التي حلت بالملكيات في العالم جزاء وفاقاً على إغفالها لإنذارات حضرة بهاء الله الواردة في الفقرات الأولى من سورة الملوك، ذلك لأن تحوّل الملكية في البرتغال وإسبانيا والإمبراطورية في الصين إلى جمهوريات، والمصير الغريب الذي أخذ مؤخراً يتعقب ملوك هولندة والنرويج واليونان ويوغسلافيا وألبانيا، أولئك الذين يعيشون اليوم

---

(١) Pope pius IX

(٢) King Victor Emmanuel

[١٩٤٤ م] في المنفى، وتنازل ملوك الدنمارك وبلجيكا وبلغاريا ورومانيا وإيطاليا عن ممارسة جلّ سلطانهم، والخوف الذي لا بد أن زملاءهم من الملوك يحسون به وهم يتأملون الانقلابات التي تسلطت على هذا العدد الضخم من العروش، والخزي وأعمال العنف التي لطخت في بعض الأحيان عهود بعض الملوك في الشرق والغرب، ثم ما حدث أخيراً جداً من السقوط المفاجئ الذي مني به مؤسس الأسرة المالكة الحديثة في إيران، كل ذلك ما زال ماثلاً للعيان ليدلل مرة أخرى على «العدل الإلهي» الذي تنبأ حضرة بهاء الله به في تلك السورة الخالدة، ويبيّن حقيقة القصاص الإلهي الذي قضى به على حكام الأرض في كتابه الأقدس.

ولا يقل استرعاءً للانتباه خمود التأثير النفاذ الذي تمتع به رجال الإسلام من السنة والشيعة على السواء في القطرين اللذين ازدهرت فيهما أقوى الأنظمة الإسلامية، واللذين ارتبطا ارتباطاً وثيقاً مباشراً بالبلايا والشدائد التي انصبت على حضرة الباب وحضرة بهاء الله.

فهذا الخليفة الذي نصب نفسه خليفة لنبي الإسلام وعرف أيضاً بأمير المؤمنين وحامي الحرمين: مكة المكرمة والمدينة المنورة، والذي امتد سلطانه الروحي على ما لا يقل عن مائتي مليون من المسلمين، نراه يفقد سلطته الزمنية بعد إلغاء السلطنة في تركيا، وهي السلطة التي طالما اعتبرت من المستلزمات الضرورية لمركزه الرفيع، ، فيفرّ الخليفة نفسه إلى أوروبا بعد أن شغل منصباً مزعزعاً مضطرباً لمدة قصيرة من الزمن. وألغيت الخلافة وهي أضخم نظام إسلامي وأقواه إلغاء فوريّاً دون أدنى استشارة للمحافل السنية في العالم. فتصدعت بذلك وحدة أقوى فرع من فروع الإسلام. وأعلن الفصل الكامل الدائم الرسمي للدولة التركية عن المذهب السني. وتعطّلت الشريعة وجردت الهيئات الدينية من أوقافها، وطبق القانون المدني، وحظرت الطرق والطوائف الدينية، وانحل النظام الديني السني وهجرت اللغة العربية، لغة نبي الإسلام، وحلت الأبجدية اللاتينية محل أبجديتها، بل وترجم القرآن نفسه

إلى التركية. وانحطت منزلة الآستانة «قبة الإسلام» إلى مجرد مدينة إقليمية عادية. وتحوّلت درتها الغالية، مسجد أيا صوفيا، إلى متحف. وهذا كله سلسلة متصلة الحلقات من مهانة تعيد إلى الذاكرة ما حدث في القرن المسيحي الأول للشعب اليهودي ومدينة أورشليم وهيكل سليمان وقدس الأقداس والنظام الديني الذي كان أعضاؤه هم الأعداء الألداء لدين السيد المسيح.

وهذا النظام الديني في إيران يزعزعه اضطراب مماثل فيهزه من أساسه وإن لم يعلن إلى الآن فصله عن الدولة الإيرانية، فتهوي «الحكومة الدينية» التي تأصلت جذورها في حياة الأمة، وامتدت فروعها إلى كل ميدان من ميادين الحياة في تلك البلاد. ويشل النظام الديني الذي كان درع الشيعة في تلك الأرض ويحط من منزلته. ويتناقص مجتهدو الإمام الغائب ووكلاؤه حتى يصبحوا حفنة لا أهمية لها ويرغم رجاله المعممون، اللهم إلا نفر قليل، على استبدال عمائمهم وملابسهم التقليدية بالزي الأوروبي الذي كانوا يلعنونه ويندّدون به. وتتلاشى الأبهة والعظمة والطقوس الوثنية التي امتازت بها احتفالاتهم وتبطل فتاواهم، وتسلّم أوقافهم إلى إدارة مدنية، وتهجر مساجدهم وصوامعهم، ويكف الاعتراف بقداسة أضرحتهم، وتحرم عليهم تمثيلياتهم الدينية، وتغلق تكاياهم. لا بل لقد ثبطت عزائمهم عن زيارة النجف وكربلاء، واختصرت تلك الزيارات. ويعلن السفور وينادى بمبدأ المساواة بين الجنسين، وتؤسس المحاكم المدنية، ويلغى نظام التسري وزواج المتعة، ويزداد الإعراض عن استعمال اللغة العربية، لغة الإسلام والقرآن، وتبذل الجهود لفصلها عن اللغة الفارسية. كل ذلك يعلن انحطاط تلك الثلّة الخبيثة التي تجاسر زعماؤها على أن ينصبوا من أنفسهم «خدام صاحب الولاية» [الإمام علي]، بل وينذر بانقراضها وانقراض الزعماء الذين كثيراً ما خشع لهم الأتقياء من ملوك الأسرة الصفوية، والذين كانت تصرفاتهم من لعن وتكفير وتحريض هي المسؤولة مباشرة عن سيول الدماء التي سفكت، والذين لطخت أعمالهم تاريخ دينهم وأمتهم على السواء.

وهذه أزمة أخف من تلك التي هزت النظم الإسلامية المعادية للدين البهائي أشد العداء تصيب الهيئات المسيحية الدينية التي تعطل تأثيرها بصورة ملحوظة، وأوذيت هيبتها إيذاء جسيماً وانتقصت حقوقها وامتيازاتها انتقاصاً مطّرداً منذ أن أصدر حضرة بهاء الله نداءه وألقى تحذيره وإنذاره. ومن أوضح الشواهد الدالة على أفول نجم أقطاب العالم المسيحي الذين تجاهلوا صوت حضرة بهاء الله فوضعوا بذلك أنفسهم بين أتباعهم وبين السيد المسيح عائداً في مجد الأب، ضياع السلطة الزمنية من يد البابا الروماني ذلك الضياع الذي أشرنا إليه من قبل، ومنها الموجة المعادية للهيئات الدينية، وهي الموجة التي جرّت في أعقابها انفصال الكنيسة الكاثوليكية عن الجمهورية الفرنسية، ومنها الهجوم المنظم الذي شنته الحكومة الشيوعية المنتصرة على الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في روسيا، وما تلا ذلك من فصل الدين عن الدولة وحل أوقافه، وتعقبه واضطهاده حيثما وجد. ومنها تقسيم الملكية النمسوية المجرية التي دانت بالولاء إلى كنيسة روما وساعدت هيئاتها. ومنها ما تتعرض له هذه الكنيسة نفسها في إسبانيا والمكسيك، ومنها موجة العلمانية التي تجرف اليوم البعثات التبشيرية الإنجليزية[١] والبرسبتارية[٢] في البلاد غير المسيحية. ومنها قوى الوثنية العدوانية التي ما زالت تعيث فساداً في قلاع الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية اليونانية واللوثرية في غرب أوروبا ووسطها ومشرقها والبلقان ودول البلطيق والإسكندينافية.

ولا يمكننا أن نغفل ملاحظة الاضمحلال المطرد الذي مني به نفوذ رجال الدين اليهودي والزرادشتي منذ أن ارتفع نداء حضرة بهاء الله معلناً في عبارات هي أبعد ما تكون عن الغموض أنه «قد جاء الناموس الأعظم»، وأن جمال القدم «يحكم على كرسيّ داود»، وأنه «كل ما بُشر به في الكتب قد ظهر ولاح» [أي الكتب الزرادشتية]. ومما يزوّدنا باليقين الذي لا يرقى إليه

---

(١) Anglican Mission
(٢) Presbyterian Mission

الشك في إحقاق تحذيرات حضرة بهاء الله وتبرير نبوءاته الواردة في خطاباته التاريخية الموجهة إلى زعماء العالم الروحانيين تلك الشواهد الدالة على التمرد المتزايد على السلطة الدينية، والازدراء وقلة الاكتراث السائدة التي تقابل بها التقاليد والرسوم والاحتفالات والأعياد، ومنها الغزوات المتكررة التي تشنها الوطنية الهجومية العدوانية على الأوساط الدينية، ومنها البرود الذي تقابل به مثل هذه الغزوات وخاصة عند أتباع الدين الزرادشتي.

هذه هي على وجه الإجمال الشواهد الدالة على قصاص الله المخيف العادل الذي أنزله بالملوك ورجال الدين في الشرق والغرب جزاء وفاقاً إما على مقاومتهم الفعالة لدين حضرة بهاء الله، وإما لعجزهم المحزن عن الاستجابة لندائه أو الاستفسار عن رسالته، أو الحيلولة دون انهمار المصائب والبلايا عليه، وإما لعدم الاكتراث بتلك الآيات الباهرة والعجائب المعجزة التي صحبت ميلاد ظهوره ونشأته طوال مائة عام.

كيف لا، وهذا تنبؤه المختصر إذ قال: «* قبضت العزة عن طائفتين: الأمراء والعلماء». ولقد حذر ملوك الأرض فقال: «وإن لن تستنصحوا بما أنصحناكم في هذا الكتاب... يأخذكم العذاب من كل الجهات ويأتيكم الله بعدله. إذاً لا تقدرون أن تقوموا معه وتكونن من العاجزين» وقال مرة أخرى: «وأنتم سمعتم أكثرها [أي البلايا] وما كنتم من المانعين». ثم إليك اتهامه الصريح إذ قال: «إنا... نصبر كما صبرنا بما ورد علينا منكم يا معشر السلاطين».

ويكتب ناقماً على رجال الدين خاصة في العالم فيقول: «* * كان منبع الطغيان وأصله العلماء... إن الله يعلمهم وكذلك كنا من العالمين». ويؤكد قائلا: «لما تفرّسنا وجدنا أكثر أعدائنا العلماء» ويخاطبهم: «يا معشر العلماء! لا ترون بعد اليوم لأنفسكم من عزّ لأنّا أخذناه منكم». ويبين السبب في ذلك بقوله: «لو آمنتم بالله حين ظهوره ما أعرض عنه الناس وما ورد علينا ما ترونه اليوم». ويشير إلى رجال الإسلام إشارة خاصة فيقول: «* * لقد قاموا علينا

بقسوة استنزفت قوة الإسلام» ويؤكد أن «* علماء إيران قد ارتكبوا ما لم يرتكبه أي حزب من الأحزاب» ويقول مرة: «* لقد ارتكب علماء إيران. . . ما لم يرتكبه اليهود أثناء قيام الروح [المسيح]». وأخيراً إليك هذه النبوءات المنذرة قال: «بكم انحطّ شأن الملة ونُكّس علم الإسلام وثل عرشه العظيم» «سوف يفنى ما عندكم ويبدّل عزكم بالذلّة الكبرى وترون جزاء أعمالكم من الله الآمر الحكيم». بل لقد تنبأ حضرة الباب نفسه بقوله: «فسوف نعذب الذين حاربوا الحسين. . . أشد العذاب» «فسوف ينتقم الله منهم في رجعتنا وفي دار الآخرة قد أعدّ لهم عذاباً على الحق بالحق أليماً».

كما أنه لا ينبغي لنا، ونحن بصدد استعراض كهذا، أن نغفل الإشارة إلى أولئك الأمراء والوزراء ورجال الدين الذين يعدّ كل فرد منهم مسؤولاً عن الامتحانات المؤلمة التي عاناها حضرة بهاء الله وأتباعه. فهذا فؤاد باشا، وزير الخارجية التركية، ذلك الذي وصمه حضرة بهاء الله بـ«المحرك» على نفيه إلى السجن الأعظم، والذي جاهد مع زميله عالي باشا جهاداً متصلاً ليثير شكوك ومخاوف سلطان كان يظنّ بالدين وبزعيمه الظنون من قبل، نراه بعد سنة تقريباً من تنفيذ خطته يسقط تحت مقامع الانتقام الإلٰهي أثناء سفره إلى باريس، ويموت في نيس (١٨٦٩ م). وهذا عالي باشا الصدر الأعظم، ذلك الذي وصمه حضرة بهاء الله بتلك اللغة المتدفقة في لوح الرئيس، وتنبأ بسقوطه في لوح فؤاد تنبؤاً لا يخطئه اليقين، نراه يعزل من منصبه بعد نفي حضرة بهاء الله إلى عكاء بسنوات قلائل، ويجرد من كل سلطاته، ويتردى في هاوية النسيان. وهذا الأمير الطاغية ظل السلطان مسعود ميرزا أكبر أولاد ناصر الدين شاه، والحاكم على أكثر من خمسي المملكة، ذلك الذي وصمه حضرة بهاء الله بأنه «شجرة الجحيم»، نراه يبوء بالخزي والخسران ويحرم من كل ولاياته اللهم إلا إصفهان، ويفقد كل أمل في الجاه أو الترقي في المستقبل. وهذا الأمير الضاري جلال الدولة الذي وصمه القلم الأعلى بأنه «ظالم أرض الياء [يزد]»، نراه يعزل بعد عام واحد من ارتكابه تلك المظالم، ويستدعى إلى طهران ويرغم على أن يعيد بعض الأموال التي نهبها من ضحاياه.

وهذا ميرزا بزرگ خان القنصل الإيراني العام في بغداد ذلك الماكر الطموح المتهتك، نراه يعزل في النهاية من منصبه «يفدحه الخطب، ويغمره الأسف، ويعمه الاضطراب». وهذا السيد صادق الطباطبائي المجتهد الذي وصمه حضرة بهاء الله بأنه «* كاذب أرض الطاء [طهران]»، والذي أصدر فتواه البربرية بنفي كل أنثى وقتل كل ذكر من أفراد البهائيين في إيران سواء أكان ذلك الذكر شاباً أم شيخاً، رفيعاً أم وضيعاً، نراه يمرض فجأة، ويسقط فريسة لمرض وبيل ينهش قلبه ومخه وأطرافه، مما عجّل بهلاكه. وهذا صبحي باشا العاتي الذي أمر حضرة بهاء الله بجفوة أن يحضر إلى سراي الحكومة في عكاء، نراه يعزل من منصبه ويستدعى في ظروف ماسّة بسمعته. ولم يُعفَ من مثل هذا المصير حكام المدينة الآخرون الذين ظلموا السجين المجيد هو وزملاءه في المنفى. ويؤكد النبيل في تاريخه أن كل باشا سلك سلوكاً طيباً في عكاء تمتع بمدة طويلة من الحكم، وحباه الله برضوانه، على حين كانت يد القدرة الإلهية تزيح كل متصرف لدود من أمثال عبد الرحمن باشا ومحمد يوسف باشا اللذين عزلا برقياً في نفس الليلة التي عزما فيها أن يتعديا على أحباء حضرة بهاء الله. وكان من نصيبهما ألا يتوليا منصباً من بعد ذلك أبداً.

وهذا الشيخ محمد باقر الملقب بـ«الذئب»، الذي شبهه حضرة بهاء الله في لوح البرهان الشديد اللهجة بـ «بقية أثر الشمس على رؤوس الجبال»، نراه يشهد بعينيه نفوذه وهو يتقلص باطراد، ثم يموت في بؤسٍ شديد وندم عظيم. وهذا شريكه مير محمد حسين الملقب بـ«الرقشاء»، ذلك الذي وصفه حضرة بهاء الله بأنه «* * أشقى بكثير من ظالم أرض الطف [كربلاء]»، نراه يطرد من إصفهان حول هذا الوقت نفسه، ويهيم من قرية إلى أخرى، ويعتريه مرض يبعث من الروائح الكريهة ما يجعل زوجته وابنته تبتعدان عنه ولا تطيقان الدنو منه، ويموت وهو على غير وفاق مع السلطات المحلية، فلا يجرؤ أحد على تشييع جنازته، ويدفنه بعض اللحادين بصورة مزرية.

ولا بد لنا من أن نذكر المجاعة المخرّبة التي اجتاحت إيران بعد سنة

تقريباً من تعذيب بديع المجيد ذلك التعذيب الذي انتهى بموته. وهي مجاعة بلغ من شدتها أن الغني كان يبيت على الطوى، وأن مئات من الأمهات كنّ ينهشن أطفالهن نهشاً.

ولا يمكننا أن نفرغ من هذا الفصل دون أن نشير إشارة خاصة إلى الناقض الأكبر لميثاق حضرة الباب، وأعني به ميرزا يحيى الذي امتد به العمر حتى شهد بعيني رأسه انهيار كل آماله التي كان يرجوها عن بغض وحقد وهو يحيا حياة بائسة في قبرص التي يسميها الأتراك «جزيرة الشيطان». وخصصّت له في أول أمره منحة مالية من قبل الحكومة التركية ثم من قبل الحكومة الإنجليزية. ولقد هان هواناً أعظم من هذا وذاك حين رفض طلبه للتجنس بالجنسية البريطانية، وهجره أحد عشر «شاهداً» من الشهود الثمانية عشر الذين أقامهم، ورجعوا إلى حضرة بهاء الله تائبين نائبين. بل إنه زج بنفسه في فضيحة لطخت سمعته وسمعة ابنه الأكبر. وذلك أنه حرم ذلك الابن وحرم أحفاده من الخلافة التي كان عقد لواءها من قبل، واختار بدلاً منه ميرزا هادي دولت آبادي الغادر الأزلي السيء السمعة الذي استولى عليه الفزع والهلع عند استشهاد ميرزا أشرف السالف الذكر بصورة جعلته يعلن بلغة شديدة من أعلى المنبر تبرؤه التام من الدين البابي ومن ميرزا يحيى وليه الذي وضع فيه ثقته المطلقة العمياء، ويستمر يعلن ذلك أربعة أيام متوالية. وتشاء الأقدار الغريبة بعد عدة سنوات أن يلتمس هذا الابن الاكبر هو وابن أخيه وابنة أخيه التشرف بمحضر حضرة عبد البهاء، خليفة حضرة بهاء الله ومركز عهده وميثاقه، وأن يتوب إليه ويسأله الصفح والمغفرة، فيتقبله حضرة عبد البهاء بقبول حسن، ويظل حتى آخر نسمة من حياته تابعاً مخلصاً للدين الذي جاهد أبوه، بلا حياء ولا خجل، لأن يهدمه جهاداً أحمق يدعو إلى الشفقة والرثاء.

الفترة الثالثة

ولاية حضرة عبد البهاء

١٨٩٢ - ١٩٢١م

ميثاق حضرة بهاء الله

في الفصول السابقة حاولت أن اتقصّى نشأة الدين المرتبط بحضرة الباب وحضرة بهاء الله، وأتتبع تطوره خلال الخمسين سنة الأولى من حياته. فإن كنت أطلت الوقوف أحياناً عند الأحداث المتصلة بحياة النيرين التوأم للظهور البهائي ورسالتهما، أو أسهبت في سرد تفاصيل الوقائع المتعلقة بولايتيهما، فما كان ذلك إلا لأن تلك الأحداث والوقائع تعلن ميلاد وتأسيس فترة تاريخية سوف يمجدها مؤرخو المستقبل باعتبارها أخطر فترة من العصر الرسولي في الدورة البهائية وأشرفها وأشدها أسى. أما القصة التي تبسطها أمام أنظارنا العشرات التالية من سنوات القرن الذي نحن بصدده، فليست سوى سجل للشواهد المتشعبة الدالة على النفوذ الخارجي لتلك القوى الخلاّقة التي أطلقتها دورة خمسين سنة من الوحي الذي لم يكد ينقطع.

نعم، لقد انطلق تدبير فعّال إلٰهي في قوته الدافعة، فائق في إمكانياته كما لم يحلم أحد من قبل، شامل في مداه، محوّل للعالم بأسره في نتائجه النهائية، وشرع يعمل في نفس تلك الليلة الخالدة التي أفضى فيها حضرة الباب بهدف رسالته إلى المُلاّ حسين في حيّ متواضع من أحياء مدينة شيراز. ثم استجمع هذا التدبير الإلٰهي قوة جبارة بالمكاشفات الأولى من إلهام حضرة بهاء الله الذي أسفر فجره في ظلام سياه چال بطهران. ثم أسرع به إعلان رسالته عشية نفيه من بغداد، وبلغ به قمته إعلان نفس الرسالة خلال السنوات العاصفات من نفيه في أدرنة. وتجلت دلالته الكاملة حين أصدر صاحب تلك الرسالة نداءاته التاريخية ومناشداته وإنذاراته لملوك الأرض ورجال الدين في العالم. وأخيراً اكتمل هذا التدبير بتلك الشرائع والأحكام التي شرّعها

والمبادئ التي أعلنها، والمؤسسات التي قضى بها خلال السنوات الختامية من ولايته وهو في مدينة السجن عكاء.

وبات من الواضح بعد صعود صاحب الظهور أنه لا غنى عن أداة إلهية التقدير مزودة بسلطة صريحة، مرتبطة به ارتباطاً عضوياً لكي توجه تلك القوى التي أطلقها ذلك التدبير المرسل من السماء، وتجريها في قنواتها السليمة، وتؤمن انسجامها وتناغمها، وتضمن حركتها المستمرة. ولقد قدّم حضرة بهاء الله هذه الأداة حين أقام نظام الميثاق بصورة راسخة وطيدة قبل صعوده. ذلك بأنه أشار إلى هذا الميثاق نفسه في الكتاب الأقدس كما أشار إليه وهو يودّع أفراد أسرته الذين كان يستدعيهم إلى جوار فراشه خلال الأيام التي سبقت صعوده مباشرة، وأبرمه في وثيقة خاصة أسماها «كتاب عهدي» وأودعها، أثناء مرضه الأخير، عند حضرة عبد البهاء، أرشد أبنائه.

تلك الوثيقة التاريخية الفريدة التي وصفها حضرة بهاء الله بأنها «اللوح الأعظم»، وأشار إليها في لوح ابن الذئب بـ«الصحيفة الحمراء» سطرها من أولها إلى آخرها بخط يده، ولم تفض إلا في اليوم التاسع من صعوده بمحضر من تسعة شهود منتخبين من آل بيته وأصحابه، وقرئت في عصر ذلك اليوم التاسع في مقامه الأقدس أمام جمع غفير من أبنائه وذوي قربى حضرة الباب، والأحباء الزائرين والمقيمين. وهي وثيقة فذة لا شبيه لها ولا مثيل في كتب الدورات السابقة جميعاً بما فيها دورة حضرة الباب. ذلك لأننا لا نجد في أي كتاب من كتب الديانات في العالم بأسره لا بل ولا آثار صاحب الظهور البابي نفسه، وثيقة واحدة تبرم ميثاقاً ذا سلطان مهيمن كذلك الميثاق الذي أبرمه حضرة بهاء الله.

ولقد أكد مركز الميثاق ذلك فقال: «* لم يبرم عهد محكم متين كهذا العهد في ظهور أي مظهر من المظاهر المقدسة من أول الإبداع حتى يومنا هذا». وقال في مقام آخر: «* من البديهي أن قوة الميثاق دون سواها هي محور وحدة العالم الإنساني». وكتب في مقام آخر: «* إعلم أن العروة الوثقى التي ورد ذكرها في الزبر والألواح والصحف الأولى منذ أول الخلق

لم تكن سوى هذا العهد والميثاق». وفي موضع آخر كتب يقول: «* إن سراج الميثاق هو نور الآفاق، وحقيقة العهد هي موهبة الإشراق، وكوكب الميثاق قمر بازغ مشرق، وأثر القلم الأعلى بحر لا ساحل له». وأعلن بالإضافة إلى ذلك «* أن الرب المجيد أبرم تحت شجرة أنيسا [شجرة الحياة] عهداً جديداً، وأخذ ميثاقاً عظيماً . . . فهل تحقق مثل هذا العهد في أي عصر أو دور أو زمان أو قرن مضى؟ وهل شهد أحد ميثاقاً يسطره القلم الأعلى؟ لا والله!». وأخيراً إليك قوله: «* مثل الميثاق كمثل حرارة الشمس التي تربي جميع الكائنات على الأرض وتنشئها وتنميها. كذلك يربي نور الميثاق عالم العقول والنفوس والقلوب والأرواح». وإلى هذا الميثاق نفسه أشار في آثاره بأنه «* البرهان القاطع» و«* ميزان كل شيء» و«* مغناطيس التأييد» و«* اللواء المعقود» و«* عهد الله الوثيق» و«العهد الذي أخذه الله في ذر البقاء لمركز الميثاق» و«الذي اختصه لهذا الظهور إظهاراً لقدرته وإثباتاً لعظمته».

وعلى هذا الميثاق نفسه أثنى كاتب سفر الرؤيا ووصفه بأنه «تابوت عهده [أي عهد الله]»، وربط حضرة بهاء الله بينه وبين ذلك الجمع المحتشد في ظل «شجرة أنيسا» [شجرة الحياة] المذكورة في الكلمات المكنونة، ومجده في فقرات أخرى من آثاره بأنه «سفينة النجاة»و«الحبل الممدود بين الأرض والسماء»، هذا الميثاق انتقل إلى الأجيال القادمة في وصية تعتبر، هي والكتاب الأقدس والألواح الأخرى التي تبين منزلة حضرة عبد البهاء ومقامه بياناً لا يرقى إليه الشك ولا الإبهام، بمثابة الدروع الحصينة التي أراد بها رب الميثاق نفسه أن تحمي بعد صعوده مركز دينه المختار ومبيّن معالم مؤسساته المقبلة.

في هذه الوثيقة الخطيرة التي لا قرين لها ولا شبيه يكشف صاحبها عن طبيعة ذلك «* الميراث المرغوب الذي لا عدل له» والذي خلّفه «للورّاث». ويعلن من جديد غاية ظهوره، ويوصي «* أهل العالم» أن يعتصموا بما هو

«* سبب ارتفاع مقاماتهم» ويبين لهم أنه قد «عفا الله عما سلف»؛ وينبه على سمو مقام الإنسان، ويكشف عن الهدف الأول لدين الله، ويوجه أولياء الله وأبناءه إلى الدعاء لملوك الأرض «* مظاهر قدرة الحق ومطالع عزته وثروته»، ويخلع عليهم حكم الأرض، ويختص نفسه بملكه الخاص ألا وهو قلوب الناس، وينهى عن النزاع والجدال نهياً عظيماً. ويأمر أتباعه بنصرة الحكام الذين هم «* مزينون بطراز العدل والإنصاف». ويوصي الأغصان [أي أبناءه] بأن يتدبروا «* القوة العظيمة المكنونة، والقدرة الكاملة المستورة في الوجود» كما يأمرهم، هم والأفنان [ذوي قربى حضرة الباب] والمنتسبين بأن «*انظروا طراً إلى الغصن الأعظم [حضرة عبد البهاء]» باعتبار أنه هو « من أراده الله الذي انشعب من هذا الأصل القديم» الذي أشير إليه في الكتاب الأقدس.

ويقضي بأن يكون «مقام الغصن الأكبر» [وهو ميرزا محمد علي] دون مقام «الغصن الأعظم» [وهو حضرة عبد البهاء]، ويدعو الأحباء إلى أن يعاملوا الأغصان بالإجلال والمحبة، وينصح لهم بأن يحترموا آل بيته وذوي قرباه وذوي قربى حضرة الباب، ولكن «ما قدّر الله لهم حقاً في أموال الناس»، ويوصي الأغصان والأفنان وذوي قرابته «* بتقوى الله وبالمعروف وبما ينبغي» وأن يتبعوا ما «* ترتفع بها مقاماتهم». ويحذر الناس جميعاً من أن يجعلوا «* أسباب النظام سبب الاضطراب، وعلة الاتحاد علة الاختلاف» ويختتم ميثاقه بنداء للمؤمنين يوصيهم فيه «* بخدمة الأمم» والسعي من أجل «* إصلاح العالم».

والواقع أن إنعام هذا المقام الفريد الباذخ الرفيع على حضرة عبد البهاء لم يدهش، بل ولم يستطع أن يدهش، الأحباء المنفيّين الذين امتاز أفرادهم بأن يلحظوا عن قرب حياته ومسلكه أمداً طويلاً ولا الزائرين الذين اتصلوا به اتصالاً عابراً، ولا أفواج المؤمنين الذين شبوا في البلاد القصية على تبجيل اسمه وتقدير جهوده، ولا دائرة أصدقائه ومعارفه الواسعة ممن كانوا في الأرض المقدسة وما جاورها واقفين على المقام الذي شغله أثناء حياة والده.

وكيف لا، وهو الذي صادف يوم مولده الميمون تلك الليلة الخالدة التي بيّن فيها حضرة الباب طبيعة رسالته الفائقة للمُلاّ حسين أوّل من آمن به وهو الذي سجل، أثناء جلوسه طفلاً صغيراً على حجر الطاهرة، مغزى ذلك التحدي المثير الذي وجهته البطلة القويّة إلى زميلها وحيد الفقيه الأشهر. وهو الذي اعتصر نفسه الرقيقة ذلك المنظر المحفور في ذاكرته منذ التاسعة من عمره حين زار والده في سياه چال بطهران فرآه أشعث هزيلاً ينوء تحت السلاسل والأغلال. وهو الذي انصبت عليه سخرية سفلة الأطفال في الشوارع فرشقوه بالحجارة وأشبعوه سباً واستهزاء وهو ما زال يدرج في صباه الباكر. وهو الذي قدّر له أن يشاطر أباه مشاقّ النفي القاسي من وطنه بعد إطلاق سراحه مباشرة، وأن يقاسمه الشدائد التي انتهت باعتكاف حضرة بهاء الله الاختياري في جبال كردستان. وهو الذي همس، وهو في لوعة الحزن على فراق والده، قائلاً للنبيل ما أورده هذا في تاريخه من إنه وجد نفسه قد شاب وهو ما زال في نعومة أظفاره. وهو الذي اختص وهو ما زال طفلاً بالامتياز الفريد ألا وهو الإدراك الكامل لمقام والده المجيد الذي لم يكن قد انكشف بعد، حتى أنه ارتمى على قدميه وابتهل إليه، من تلقاء نفسه، أن يمتاز بأن يجود بحياته فداءً له. وهو الذي من قلمه فاض التفسير الرائع لأحد الأحاديث القدسيّة الإسلامية الشهيرة، وهو ما زال يافعاً في بغداد، تلبية لإشارة حضرة بهاء الله واستجابة لطلب علي شوكت باشا، فجاء تفسيراً واضحاً جلياً بحيث أثار في الطالب إعجاباً لا حدّ له. وهو الذي أثارت أحاديثه ومناقشاته مع علماء بغداد في بادئ الأمر الإعجاب الكامل بشخصه وبعلمه بصورة أخذت تزداد كلما اتسعت دائرة أصدقائه ومحبيه فيما بعد في أدرنة ثم في عكاء. وهو الذي تأثر به خورشيد باشا المهذب، حاكم أدرنة، لدرجة أنه أفاض في مدحه والثناء عليه حين كان حضرة عبد البهاء ضيفاً عليه مع عدد من علماء تلك المدينة البارزين فنفذ بصورة مختصرة مدهشة إلى بواطن مشكلة حيّرت عقول العلماء الحاضرين، الأمر الذي أثّر في الباشا تأثيراً جعله بعد ذلك لا يطيق صبراً على غياب ذلك الفتى عن أمثال تلك المجالس.

فلما اتسع مجال تأثير رسالة حضرة بهاء الله عمد حضرته إلى زيادة الاعتماد عليه فاختاره مندوباً عنه في مناسبات عديدة، ومكنه من عرض دينه على الناس، وعيّنه لاستنساخ ألواحه، وأذن له في أن يتحمل مسؤولية حمايته من أعدائه، وعهد إليه بمهمة الإشراف على مصالح أصحابه ورفاقه في المنفى. وهو الذي كلفه والده أن يقوم، بمجرد أن تسمح الظروف، بذلك الواجب الخطير ألا وهو شراء الموقع الذي اختاره ليكون مرقداً أبدياً لحضرة الباب والإشراف على نقل رفاته إلى الأرض المقدسة، وإقامة المقام اللائق بمنزلته الرفيعة على جبل الكرمل. وهو الذي كان العامل الفعال في تهيئة الوسائل الضرورية لخلاص حضرة بهاء الله من حبسه الذي دام تسعة أعوام داخل أسوار عكاء، وتمكينه من أن يتمتع في مغرب حياته بقسط من ذلك السلام والأمن اللذين حرم منهما أمداً طويلاً. وهو الذي بجهوده المتصلة استطاع «بديع» المجيد أن يفوز بتلك اللقاءات الخالدة مع حضرة بهاء الله. كما حوّل العداوة التي أظهرها عدد من حكام عكاء نحو الجامعة المنفية إلى تقدير وإعجاب، وأتم شراء الأراضي الواقعة حول بحيرة طبريا ونهر الأردن، ونقل إلى الأجيال القادمة أقيم وأبرع عرض لتاريخ الدين الباكر وتعاليمه. وهو الذي نجح في أن يرفع من هيبة الأمر الذي دافع عنه إلى مستويات لم يبلغها من قبل، وذلك بالاستقبال الحافل الرائع الذي قوبل به أثناء زيارته لبيروت، واتصاله بمدحت باشا، الصدر الأعظم السابق، وصداقته لعزيز باشا الذي عرفه في أدرنة من قبل ثم رقي إلى منصب الوالي فيما بعد، واتصاله الدائم برجال الدولة والوجوه وعلية القوم ورجال الدين، أولئك الذين أخذ عدد من يلتمس منهم محضره يزداد خلال السنوات الختامية من حياة والده.

وهو وحده الذي امتاز بأن يدعى بـ«المولى»، وهو شرف ميزه به والده عن سائر أبنائه تمييزاً خاصاً. وهو وحده الذي شاء والده المحب المعصوم أن ينعم عليه بذلك اللقب العزيز، ألا وهو «سر الله»، وهو أنسب لقب لمن كان في مقدوره، رغم بشرية جوهره ورغم اختلاف مقامه عن مقام حضرة

بهاء الله أو مبشره اختلافاً أساسيّاً، أن يدعي أنه هو المثل الأعلى لدين والده، وأنه هو المزود بالعلم اللدني، وأنه هو الذي يجب أن يعتبر المرآة الصافية التي تعكس نور حضرة بهاء الله. وإليه هو أشار هذا الوالد أيام إقامته في أدرنة، في سورة الغصن بقوله: «هذا الهيكل المقدس الأبهى، غصن القدس» ويقوله: «غصن الأمر» و«الفضل الأعظم عليكم» و«نعمته الأتم لكم»، وبأنه هو الذي به «يحيى كل عظم رميم» وأن «من توجه إليه فقد توجه إلى الله»، وأن «الذين هم منعوا أنفسهم عن ظل الغصن أولئك تاهوا في العراء وأحرقتهم حرارة الهوى». وإليه هو أشار (في لوح نزل في تلك المدينة إلى الحاج محمد إبراهيم الخليل) بأنه هو الوحيد من بين أبنائه الذي على «لسانه سيجري الله آيات قوته»، وبأنه هو الذي «اختاره الله لأمره». وإليه عهد صاحب الأقدس في آية زاهرة شرحها فيما بعد في «كتاب عهدي» بمهمة تفسير وتبيين آثار قلمه المقدسة، وأعلن في الوقت نفسه أنه هو «من أراده الله، الذي انشعب من هذا الأصل القديم». وإليه أشار في لوح نزل في تلك الفترة نفسها بافتخار ميرزا محمد قلي السبزواري بأنه هو «الخليج المنشعب من هذا البحر الذي أحاط الأكوان». وأمر أتباعه أن يتوجهوا إليه، وأثنى عليه بمناسبة زيارته لبيروت ثناءً عاطراً في رسالة أملاها على كاتبه ومجده فيها بأنه هو «من طاف حوله الأسماء» وأنه هو «غصن الله الأعظم» و«سر الله الأقوم القويم». وخاطبه في ألواح عدة سطرها بيده المباركة بقوله: «قرة عين البهاء»، وأشار إليه بأنه «حفظ لمن في السمٰوات والأرضين» وأنه هو «حرز للعالمين» وأنه «حصن لمن آمن بالله». وابتهل إلى الله في مناجاة أنزلها تشريفاً له أن «ينصره» و«يقدر له ولمحبيه» ما قدره «لسفرائه وأمناء وحيه». وأخيراً إليك هذه الكلمات العامرات التي وردت في لوح آخر: «البهاء عليك وعلى من يخدمك ويطوف حولك. والويل والعذاب لمن يخالفك ويؤذيك. طوبى لمن والاك، والسقر لمن عاداك».

وتتويجاً لتلك الألقاب والامتيازات والعنايات الهاطلة عليه باطّراد طيلة ولاية والده التي دامت أربعين عاماً في بغداد وأدرنة وعكاء ارتقى إلى منصب

مركز عهد حضرة بهاء الله الرفيع وميثاقه، وعيّن خليفة لمظهر الله نفسه. وهو المنصب الذي يمكنه من أن يهب القوة الدافعة العجيبة لتوسيع دين والده على النطاق العالمي، وتبيين عقيدته، وتحطيم كل عائق قد يعترض سبيل تقدمه، وتأسيس وتوضيح معالم النظام الإداري، وليد العهد والميثاق، والمبشر بالنظام العالمي الذي تشير إقامته إلى حلول العصر الذهبي من الدورة البهائية.

عصيان ميرزا محمد علي

كان من النتائج المباشرة لصعود حضرة بهاء الله، كما لاحظنا من قبل، أن عمّ الأسى والبلبلة بين أتباعه وأصحابه، وأن انتعشت من جديد آمال خصوم الدين الساهرين وقويت عزائمهم. ذلك لأنه في الوقت الذي خرج فيه الدين المظلوم ظافراً من أعنف أزمتين عرفهما، وكانت إحداهما من تدبير أعدائه من الخارج، بينما كانت الأخرى من تدبير أعدائه من الداخل، وفي الوقت الذي ارتفعت فيه هيبته إلى مقام لم يعرف له مثيلٌ طيلة سنيه الخمسين توقفت فجأة تلك اليد المعصومة التي صيّرت مقاديره منذ البداية تاركة وراءها فراغاً ظن الصديق والعدو معاً أنه لن يملأه أحد من بعد.

إلا أن مركز ميثاق حضرة بهاء الله المختار، والمبين الفريد لتعاليمه وضح فيما بعد، أن انطواء الخيمة التي اختار المظهر الإلٰهي أن يقيم بها مؤقتاً يشير إلى تخلص حضرته من الحدود والقيود التي فرضتها عليه، بالضرورة، حياته على هذه الأرض. أما وقد تحرر الروح وانطلق تأثيره بحيث لم تعد تحده الحدود الجسمانية، وسطع نوره بحيث لم يعد يعكره سحاب الهيكل البشري فإنه يستطيع حينذاك أن يبث في العالم بأسره قوة لم يبلغها في أي مرحلة من مراحل وجوده على هذا الكوكب.

أضف إلى ذلك أن واجب حضرة بهاء الله الجبار على هذه الأرض كان قد بلغ غاية كماله في صعوده، وأنجزت مهمته بصورة كاملة من كل الوجوه بالرغم من عظمتها وجسامتها، وانكشف القناع لأعين البشر عن الرسالة التي عهد بها إليه، وارتفع النداء الذي أمر بتوجيهه إلى الرؤساء والحكام ارتفاعاً

يتّصف بالقوة والجلال، وأحكم وضع أسس العقيدة التي من شأنها أن تصوغ حياة الناس من جديد وتشفي عللهم وأسقامهم وتنقذهم من العبودية والهوان. وطغى طوفان البلايا التي طهرت الدين ووهبت له القوة طغياناً عنيفاً لا صادّ له ولا رادّ. وسالت بغزارة الدماء المخصبة للتربة التي تنمو فيها هيئات النظام العالمي. وفوق كل شيء وضع على أساس متين ذلك الميثاق الذي يديم تأثير الأمر المبارك ويحفظ عليه هيبته، ويصونه من الانقسام، وينشط توسعه العالمي.

كان دين حضرة بهاء الله الكريم بصورة تفوق أحلام البشر وآمالهم، والذي تضم صدفتاه تلك اللؤلؤة اليتيمة التي طالما تمناها العالم منذ تأسيسه، والذي واجهته مهمات جبارة معقدة كل التعقيد ملحة كل الإلحاح لا شك كان في رعاية ساهرة. إذ قام ولده المحبوب قرّة عينه وخليفته على الأرض ومنفذ أوامره ومركز ميثاقه وراعي أغنامه، ومثل دينه الأعلى وتجسيم كمالاته، وسر ظهوره، ومفسر أفكاره، ومهندس نظامه العالمي ورافع راية سلامه الأعظم ومصدر هدايته المعصوم، أو قل قام من احتل مقاماً لا شبيه له ولا نظير في كل التواريخ الدينية على الإطلاق، على حماية الدين يقظاً جريئاً مقداماً، وعزم على أن يوسع نطاقه ويذيع شهرته في الآفاق ويدافع عن مصالحه ويتمم تحقيق أهدافه.

إن الإعلان المثير الذي سطره حضرة عبد البهاء ووجهه إلى سائر أتباع والده غداة الصعود، والنبوءات التي نطق بها في ألواحه أوجد في نفوسهم عزماً وثقة برّرتهما إلى أبعد حدود التبرير الثمار الشهية التي نضجت، والانتصارات المجلجلة التي تمت في غضون ولايته التي دامت ثلاثين عاماً.

وانقشع غمام اليأس والقنوط الذي خيّم، بصورة مؤقتة على عشاق أمر حضرة بهاء الله المكلومين، وتأكد دوام الهداية المعصومة التي قدرت للأمر المبارك منذ ولادته، وتجلت آنذاك دلالة التأكيد الجسيم بأن «هذا يوم لن يعقبه الليل». فلا عجب إن رأت الجامعة اليتيمة ساعة حاجتها وبؤسها أن

حضرة عبد البهاء هو عزاؤها وسلوتها ومرشدها وملاذها وحاميها. كما قدر للنور الذي تألق وخطف الأبصار في قلب آسيا ثم امتد على أيام حضرة بهاء الله إلى الشرق الأدنى وأضاء حواشي أوروبا وأفريقيا أن يمضي غرباً بعد صعود صاحب الميثاق حتى يبلغ أمريكا الشمالية، وأن يسطع، من ثم، في ربوع أوروبا، ثم يسكب أشعته على الشرق الأقصى وأستراليشيا، كل ذلك بفضل قوة الميثاق الدافعة.

ومع ذلك فقبل أن يركز الدين رايته في قلب أمريكا الشمالية أو ينشر طلائعه على هذا الجزء الشاسع من العالم الغربي، قدر لميثاق حضرة بهاء الله الحديث، كما قدر من قبل للدين الذي أنجبه، أن تمتحنه نار تظهر صلابته وشدته، وتبين للعالم الجاحد استحالة تحطيمه؛ فأصابته أزمة تكاد تضارع في عنفها تلك الأزمة التي اجتاحته في طفولته الباكرة ببغداد. فهزت الميثاق من أساسه في لحظة بدايته الأولى، وعرّضت من جديد ذلك الدين الذي كان الميثاق أكرم ثماره، إلى شدة من أعظم الشدائد التي عاناها خلال قرن كامل.

ولقد أخطأ الناس فهم تلك الأزمة فاعتبروها انقساماً، واتخذها الخصوم السياسيون والدينيون، وفلول أتباع ميرزا يحيى المتهالكون علامة على الانهيار المباشر والانحلال النهائي للنظام الذي أقامه حضرة بهاء الله. ذلك لأن الذي أحدثها في قلب الأمر المبارك وأثارها هو شخص في مركز ليس غريباً عن آل بيت حضرة بهاء الله، فهو أخ غير شقيق من إخوة حضرة عبد البهاء نصّ عليه كتاب العهد نصاً خاصاً واحتل مقاماً لا يقل إلا عن مقام مركز الميثاق المختار نفسه. وظلت هذه الأزمة أربعة أعوام تبلبل أفكار عدد كبير من الأحباء في ربوع الشرق، وتحزّ في قلوبهم. ونجحت في أن تكسف نور كوكب الميثاق بصورة مؤقتة؛ وأحدثت صدعاً لا يمكن رأبه في صفوف أسرة حضرة بهاء الله، وختمت على مصائر الأغلبية العظمى من آل بيته، وآذت هيبة الدين إيذاءً بليغاً. ولكنها لم تنجح قط في أن تحدث صدعاً دائماً في بنيان الأمر المبارك نفسه. وكان السبب الحقيقي في هذه الأزمة الحسد الأكّال الجامح

المضني، الذي أشعلَ نارَه تفوّقُ حضرة عبد البهاء المسلّم به في المقام والقوة والقدرة والعرفان والفضل على كل أفراد آل بيته، في صدر ميرزا محمد علي، الناقض الأكبر للميثاق، وفي صدور بعض ذوي القربى الأقربين. وكانت هذه الغيرة عمياء كتلك التي تسلطت على روح ميرزا يحيى، وبهلة كتلك التي أشعلها تفوق يوسف في صدور إخوته، راسخة كتلك التي تأججت في صدر قابيل فدفعته إلى أن يقتل أخاه هابيل. وقد أخذت هذه الغيرة تشتعل في صدر ميرزا محمد علي من قبل صعود حضرة بهاء الله بسنوات عدة، وألهبتها في الخفاء تلك الأمارات العديدة الدالة على الامتياز والإعجاب والعناية التي انفرد بها حضرة عبد البهاء من قبل حضرة بهاء الله، ومن جانب صحابته وأتباعه، ومن جانب أعداد ضخمة من غير المؤمنين الذين فطنوا إلى تلك العظمة الفطرية التي أبداها حضرته منذ نعومة أظفاره وسلموا له بها.

وبدلاً من أن تهدأ نيران العداوة المتأججة التي يغلي بها صدر ميرزا محمد علي بفضل الوصية التي رفعته إلى المقام الثاني بين الأحباء المؤمنين، فقد ازدادت اشتعالاً على اشتعال بمجرد أن وقف على مضامين تلك الوثيقة. وضاع سدى كل ما فعله حضرة عبد البهاء خلال أربع سنوات محزنة، وذهبت هباء مناشداته الحارة ودعواته المستمرة وملاطفته ورأفته التي أغدقها عليه. ولم تجد فتيلاً كل التحذيرات والإنذارات التي نطق بها. بل لم يغن شيئاً انسحابه الاختياري أملاً في تجنب العاصفة المنذرة. وأفلح هذا المثير الأول للفساد والفتنة، بعناده وإصراره وعن طريق نشر الأكاذيب وتشويه الحقائق والسعاية والوشاية والمبالغة والتهويل، في أن يضم إلى جانبه الغالبية العظمى من أفراد أسرة حضرة بهاء الله مع عدد لا يستهان به من بطانته وخلطائه. فاتفقت زوجتا حضرة بهاء الله الباقيتان على قيد الحياة وولداه ميرزا ضياء الله المذبذب وميرزا بديع الله الخائن مع أختيهما الشقيقة وغير الشقيقة وزوجيهما السيد علي الخبيث [وهو من أقرباء حضرة الباب] وميرزا مجد الدين الماكر مع أخته وإخوته غير الأشقاء، أبناء المرحوم آقاي كليم المخلص النبيل، وتعاهدوا على بذل الجهد الجهيد لهدم أساس الميثاق الذي أبرمته الوصية

المعلنة حديثاً. بل إن ميرزا آقا جان كاتب الوحي الذي كتب لحضرة بهاء الله أربعين سنة، ومحمد جواد القزويني الذي اشتغل منذ أيام أدرنة في استنساخ الألواح العديدة التي رقمها القلم الأعلى، هو وأسرته جميعاً تحالفوا أيضاً مع ناقضي الميثاق، وسمحوا لأنفسهم أن ينخدعوا ويقعوا في شراكهم.

فقام حضرة عبد البهاء وحيداً فريداً وقد تخلى عنه معظم أهله وذوي قرباه، وخذلوه وهاجموه وهم مجتمعون في القصر والمنازل المجاورة الواقعة حول المقام الأقدس. وحرم من أمه وبنيه ولم يعد له من معين ولا نصير سوى أخته العذراء وبناته الأربع اللائي لم يكنّ قد تزوجن بعد، وزوجته وعمه [وهو أخ غير شقيق لحضرة بهاء الله]. نعم، قام وحيداً فريداً تجاه الأعداء المتألبين عليه من الداخل والخارج ليحمل الأعباء والمسؤوليات المخيفة التي ألقاها على كاهله مقامه الرفيع.

قام هؤلاء الناقضون للميثاق الإلهي قومة رجل واحد توحد صفوفهم الرغبة المشتركة والغرض العام، فلا تكل لهم جهود، ولا تملّ لهم قلوب، يثقون في معاونة جمال البروجردي الخائن الشديد البأس وأعوانه الحاج حسين الكاشي وخليل الخوئي وجليل التبريزي الذين انحازوا إلى جانبهم. وأخذوا في التراسل على نطاق واسع مع كل من يستطيعون الاتصال به من المراكز والأفراد، يعاونهم في ذلك رسل يبعثونهم إلى إيران والعراق ومصر والهند، وشنوا حملة شعواء من القذف والسب والطعن واللعن تعدل في شدتها الاتهامات الخبيثة التي اتهم بها قديماً ميرزا يحيى والسيد محمد حضرة بهاء الله. وكان يشجعهم على نسج دسائسهم ومكائدهم هذه مسلك رجال الحكومة بعد أن تمكنوا من رشوتهم وتضليلهم. وأخذوا يظهرون للصديق والغريب، والبعيد والقريب، وللحبيب وغير الحبيب وللرفيع من رجال الحكم والوضيع، تصريحاً وتلويحاً، شفاهاً وتحريراً، أن حضرة عبد البهاء مغتصب طماع أنانيّ لا خلق له ولا رحمة لديه، وأنه تعمد أن يتجاهل تعليمات والده المدونة وأنه زعم لنفسه، في عبارات تعمّد غموضها، منزلة

تعدل منزلة المظهر الإلهي ولا أقل، وأنه بدأ يدعي في اتصالاته بالغرب أنه رجعة السيد المسيح «جاء في مجد أبيه»؛ وأنه يزعم في خطاباته إلى أحباء الهند أنه شاه بهرام الموعود، وأنه يخصّ نفسه بحق تفسير آثار أبيه وحق افتتاح دورة جديدة، وحق مشاركة حضرة بهاء الله في العصمة الكبرى، ألا وهي الامتياز المطلق الذي تتمتع به المظاهر المقدسة الإلهية، وأكدوا كذلك أنه أثار الخصومة لغاية في نفسه، وغذى العداوة والشحناء. ولوّح في الوجوه بسلاح الطرد، وأنه غيّر الغرض من الوصية التي ذهبوا إلى أنها لا تتعلق إلا بمصالح آل حضرة بهاء الله، وذلك بادعائه بأنها ميثاق له أهميته العالمية يتيم فريد في تواريخ الأديان، أبرم من قبل أن تخلق الخليقة، وقالوا إنه حرم إخوته وأخواته من حقوقهم الشرعية، وأنفق الأموال على رجال الحكومة لمنفعته الشخصية، وأنه رفض الاستماع إلى كل الدعوات المتكررة التي وجهت إليه لتسوية الخلافات وحل المشكلات القائمة. وزعموا أنه قد حرّف النصّ المقدس فعلاً، وأنه زاد عليه فقرات من عنده كتبها بخط يده، وأنه قلب القصد من بعض أهم الألواح التي رقمها قلم والده وغيّر مضامينها ومعانيها، وأن أحباء الشرق رفعوا راية العصيان وشقوا عصا الطاعة نتيجة لهذا المسلك، وأنه قد تفرقت كلمتهم، وذهب ريحهم، وأنهم يسرعون إلى الاضمحلال والزوال.

ومع ذلك فميرزا محمد علي هذا الذي اعتبر نفسه حامي حمى الدين وحامل لواء «الموحدين» و«الأصبع المشيرة إلى مولاه» وراعي العائلة المباركة، والناطق بلسان الأغصان، والمعتصم بحبل الآثار المقدسة هو نفسه ميرزا محمد علي الذي كتب، في صراحة ووقاحة، كتاباً إبّان حياة حضرة بهاء الله وذيله بتوقيعه وختمه بخاتمه، وادعى فيه هذا الادعاء الذي ينسبه اليوم بالباطل إلى حضرة عبد البهاء، الأمر الذي دفع والده إلى أن يعاقبه بيده. وهو نفسه ميرزا محمد علي الذي ذهب في مهمة إلى الهند فتلاعب بالنصوص المقدسة التي عهد بها إليه. وهو نفسه الذي بلغت به وقاحته وسوء أدبه أن قال في وجه حضرة عبد البهاء إن نفسه سولت له أن يغتصب حقه كما اغتصب عمر من علي خلافة حضرة محمد رسول الله. وهو نفسه الذي تملكه

الخوف من ألا يعيش من بعد حضرة عبد البهاء، فلما أكد له حضرته أنه سيفوز على مر الأيام بكل ما يشتهيه من عزة وسؤدد، أجابه على الفور: ما من شيء يضمن له أن يعيش من بعده. وهو نفسه الذي فضحه ميرزا بديع الله في اعترافه الذي طبع ونشر أثناء توبته وصلحه القصير مع حضرة عبد البهاء، فقال بأنه احتال قبل أن يوارى جسد حضرة بهاء الله التراب، على اختطاف حقيبتين كان والده عهد بهما قبل صعوده إلى حضرة عبد البهاء، وكانت الحقيبتان تحتويان على أثمن وثائق والده. وهو نفسه الذي قام بتزييف ماهر بسيط لكلمة تكررت في بعض الفقرات الناقمة التي وجهها القلم الأعلى إلى ميرزا يحيى، واتبع وسائل أخرى كالحذف والحشو والتشويه وبذلك نجح في أن يجعلها تنطبق على أخيه الذي كرهه كل هذه الكراهية القتالة. وأخيراً هو نفسه ميرزا محمد علي الذي تآمر على اغتيال حضرة عبد البهاء بصورة خسيسة كما يشهد حضرة عبد البهاء في وصيته. وهي مؤامرة تومئ إليها الإشارات التي كتبها شعاع الله [وهو ابن ميرزا محمد علي] في رسالة وضع حضرة عبد البهاء نسختها الأصلية مع الوصية.

بهذه الأفاعيل وبأمثالها مما لا يدخل تحت عدّ ولا حصر نقض ميثاق حضرة بهاء الله بصورة واضحة، وتلقى الدين ضربة وجيعة أخرى مذهلة في آثارها الأولى. فاهتز لها كيانه بصورة مؤقتة. وعصفت العاصفة التي تنبأ بها صاحب سفر الرؤيا، ووقع ما كان لا بد من وقوعه أثناء ظهور «تابوت عهده» من «البروق» و«الرعود» و«الزلزال».

وقد بلغ الحزن من حضرة عبد البهاء لهذا التطور المؤسف، الذي حدث بعد صعود والده بهذه السرعة، مبلغاً ترك آثاره فيه حتى آخر أيامه، رغم كل ما شهده عهده من فتوح وانتصارات. وكان عمق الإحساسات التي ولدتها فيه هذه الوقائع الكئيبة ممّا يذكر بالشدائد التي نجمت عن عصيان ميرزا يحيى، تلك المآسي التي جابهها حضرة بهاء الله. فكتب يقول في أحد الألواح: «* قسماً بجمال القدم! إن حزني لعظيم، وأسفي لشديد حتى أن

القلم يشلّ بين أصابعي». وفي مناجاة وردت في وصيته يتوجع بقوله: «تراني غريقاً في بحار المصائب القاصمة للظهور، والرزايا المضيقة للصدور... والمحن والآلام المفرّقة للجمع، وأحاطتني الشدائد من جميع الجهات، وأحدقت بي المخاطر من كل الأطراف، خائضاً في غمار الطامة الكبرى، واقعاً في بئر لا قرار لها، مضطهداً من الأعداء ومحترقاً في نيران البغضاء من ذوي القربى الذين أخذت منهم العهد الوثيق والميثاق الغليظ». وفي الوصية نفسها يقول: «ترى يا إلهي يبكي عليّ كل الأشياء، ويفرح ببلائي ذوو القربى. فوعزتك يا إلهي! بعض الأعداء رثوا على ضري وبلائي، وبكوا بعض الحساد على كربتي وغربتي وابتلائي لأنهم لم يروا مني إلا كل مودة واعتناء». كما صاح في أحد ألواحه الأخيرة يصرّح قائلاً: «* يا بهاء الأبهى! لقد انقطعت عن العالم وأهله، وتحطم قلبي وغمرني الحزن ممن لا وفاء لهم. إني أضطرب في قفص هذا العالم اضطراب الطائر المفزوع يضرب بجناحيه وذيله وفي كل يوم أحنّ إلى الطيران إلى ملكوتك».

أما حضرة بهاء الله فقد رقم لوحاً يلقي على القصة كلها ضوءاً ساطعاً إذ يقول: «تالله يا قوم! يبكي عيني وعين عليّ [الباب] في الرفيق الأعلى، ويضج قلبي وقلب محمد في السرادق الأبهى، ويصيح فؤادي وأفئدة المرسلين عند أولي النهى... لم يكن حزني من نفسي بل على الذي يأتي من بعدي في ظلل الأمر بسلطان لائح مبين. لأن هؤلاء لا يرضون بظهوره وينكرون آياته ويجحدون بسلطانه ويحاربون بنفسه ويخادعون في أمره». ويقول في لوح آخر لا يقل عن سابقه دلالة ولا مغزى: «هل يمكن بعد إشراق شمس وصيّتك من أفق أكبر ألواحك أن تزلّ قدم أحد عن صراطك المستقيم، قلنا يا قلمي الأعلى! ينبغي لك أن تشتغل بما أمرت من لدى الله العلي العظيم. لا تسأل عمّا يذوب به قلبك وقلوب أهل الفردوس الذين طافوا حول أمري البديع. لا ينبغي لك بأن تطّلع على ما سترناه عنك، إن ربك لهو الستار العليم». وأخصّ من هذا وذاك ما أكده حضرة بهاء الله مشيراً به إلى ميرزا محمد علي بلا لبس ولا إبهام حين يقول: «إنه عبد من

عبادي. . . * إن انحرف عن ظل الأمر لحظة واحدة لأصبح عدماً صرفاً». وفضلاً عن ذلك في معرض إشارته إلى ميرزا محمد علي صرّح بما لا يقلّ تأكيداً: «تالله الحق لو نأخذ عنه في أقل من الحين فيوضات الأمر ليصفرّ ويسقط على التراب»، وعلاوة على ذلك شهد حضرة عبد البهاء بقوله: «* لا شك في أن ناقضي العهد والميثاق قد لعنوا في ألف موضع من ألواح حضرة بهاء الله». بل إنه جمع بعضاً من هذه الفقرات بنفسه، قبل رحيله عن هذا العالم، وضمنها لوحاً من ألواحه الأخيرة تحذيراً من هؤلاء الذين ناصبوه العداء طوال عهده، وأظهروا له البغض الشديد، وأوشكوا أن يهدموا أساس ميثاق لا ترتكز عليه سلطته وحدها، بل وترتكز عليه أيضاً سلامة الأمر المبارك ووحدته.

نهضة الدين وتأسيسه في الغرب

أحدث تمرد ميرزا محمد علي أحداثاً كئيبة محزنة كثيرة ظلت نتائجها الوخيمة تكسف نور الميثاق سنوات عدّة، وتهدد حياة مركزه المختار بالخطر، وتشتت انتباه أنصاره وأتباعه في المشرق والمغرب، وتعوق تقدم فعالياتهم ومناشطهم. ومع ذلك فلو نظرنا إلى القصة كلها في ملابساتها الصحيحة وأبعادها المضبوطة، لوجدنا أنها لا تزيد ولا تنقص عن أن تكون أزمة من تلك الأزمات العارضة التي كانت تعمل، منذ فجر دين حضرة بهاء الله، على اقتلاع العناصر المؤذية واستبعادها، وتقوية أسسه ودعائمه، وإظهار صلابته وتماسكه، وإطلاق مقدار أعظم من طاقاته الكامنة على مدى قرن كامل من الزمان.

وأما وقد أعلنت مواد الميثاق الإلهي المتين إعلاناً لا لبس فيه ولا إبهام؛ أما وقد ظهرت غاية الميثاق بصورة واضحة، ورسخت أساسياته في صدور الأغلبية الساحقة من المؤمنين، أما وقد صدّت الهجمات الأولى التي شنها الناقضون صدّاً ناجحاً فإن الأمر المبارك، الذي من أجله أبرم هذا الميثاق، أمكنه أن يتقدم على الطريق الذي رسمته له إصبع مؤسسه. ولقد رأينا من قبل كيف أن المآثر الساطعة والانتصارات الباهرة سجلت مولد هذا الأمر المبارك، وصاحبت نهضته في أقطار آسيوية عدة ولا سيما في موطن مؤسسه. وأما اليوم فإن مهمة قائده الجديد المختار الحامي لمجده والناشر لنوره كانت، كما أدركها هو نفسه، توسيع نطاق هذا الإرث المنيع الذي عهد به إليه، وذلك بإفاضة أنوار دين والده على الغرب، وإيضاح عقائده الأساسية ومبادئه الجوهرية، وتركيز الفعاليات التي كانت قد بدأت فعلاً رفعاً لشأنه

وترقيةً لمصالحه، ثم افتتاح عصر التكوين من عصور تطوره بفضل ما نصّت عليه وصيته.

لم يكد يمضي عام واحد على صعود حضرة بهاء الله حتى تنبأ حضرة عبد البهاء في لوح أثار سخرية الناقضين، بحادثة ميمونة مباركة، سوف تؤمن الأجيال القادمة بأنها انتصار من أعظم انتصارات عهده، وأنها سوف تفيض في النهاية على العالم الغربي ببركة عميمة لا حدّ لها، حادثة تزيل الحزن وتكشف المخاوف التي رانت على قلوب إخوانه في منفى عكاء. أشار حضرة عبد البهاء في ذلك اللوح إلى أن جمهورية الغرب الكبرى ستنفرد، دون سائر دول الغرب الكبرى، بأن تكون أول من يتلقى تلك البركة العميمة الفائقة، وأنها ستكون العامل الأول في الإنعام بها على كثير من أخواتها في طول القارات الخمس وعرضها.

ومهما قلنا في أهمية هذا التقدم الخطير في مصائر دين حضرة بهاء الله، ألا وهو تأسيسه في القارة الأمريكية الشمالية، فإننا لا يمكننا أن نفي بحقه بحال من الأحوال، ذلك لأنه تم في وقت افتتاح حضرة عبد البهاء لعهده وهو ما يزال بين براثن أخطر أزمة واجهها في حياته. فإذا رجعنا إلى السنة التي شهدت مولد الدين في شيراز وجدنا حضرة الباب، بعد أن يحذر أهل المشرق والمغرب في إحدى فقرات قيوم الأسماء الخالدة، يعمد إلى مخاطبة «أهل المغرب» ويأمرهم أن «اخرجوا من دياركم» لنصر الله «فأصبحوا في دين الله الواحد إخواناً على خط السواء». وإذا انتقلنا إلى حضرة بهاء الله رأينا أنه يكتب انتظاراً لهذا التطور فيقول: «إنه أشرق من جهة الشرق، وظهر في الغرب آثاره»، ويتنبأ مرة أخرى بقوله: «لو يسترون النور في البر إنه يظهر من قطب البحر ويقول إني محيي العالمين». ويروي النبيل في تاريخه أن حضرة بهاء الله قال قبل صعوده بقليل: «** لو أن هذا الأمر كان ظهر في الغرب، ولو أن آياتنا كانت أرسلت من الغرب إلى إيران وأقطار الشرق الأخرى، لاتضح كيف يعتنق أهل الغرب أمرنا. إلا أن أهل إيران عجزوا عن معرفة

قدره». أما حضرة عبد البهاء فقد شهد بذلك حين يقول: «* كان النور الإلهي، منذ البدء إلى وقتنا هذا، يسطع من الشرق على الغرب. إلا أن سطوعه في الغرب كان أقوى وأشد. تأملوا أمر السيد المسيح روحي فداه! فقد ظهر من الشرق. فلما سكب ضياءه النوراني على الغرب فاق انتشار نور الملكوت في الغرب انتشاره في الشرق». وهو يؤكد قائلاً: «* عما قريب تلاحظون أن الغرب أصبح شرقاً من أنوار حضرة بهاء الله. وتهطل رحمة الرب فتهتز لها القلوب وتربو». ويقول أيضاً: «* يقتبس الغرب الضياء من الشرق. إلا أنه في بعض الأحيان يكون انعكاس النور في الغرب أعظم». ويقول مرة أخرى: «ثم اعلم بأن الشرق استضاءت آفاقها بأنوار الملكوت، وعن قريب تتلألأ هذه الأنوار في مطالع الغرب أعظم من الشرق».

وأخصّ من هذا ما تفضل مؤسس الظهور البهائي نفسه فأنعم به على حكام القارة الأمريكية من شرف فريد حين خاطبهم جميعاً في الكتاب الأقدس يدعوهم دعوة لها مغزاها أن: «زينوا هيكل الملك بطراز العدل والتقى، ورأسه بإكليل ذكر ربكم» ويأمرهم أن «أجبروا الكسير بأيادي العدل، وكسروا الصحيح الظالم بسياط أوامر ربكم الآمر الحكيم». وأما حضرة عبد البهاء فقد كتب يقول: «* إن قارة أمريكا، عند الله، هي ميدان إشراق الأنوار، وقطر ظهور الأسرار، ومنشأ الأبرار، ومجمع الأحرار». وقال في موضع آخر: «* * تظهر قارة أمريكا من علامات التقدم الباهر ما يجعل مستقبلها أكثر إشراقاً وتبشيراً، لأن نورها وتأثيرها أبعد مدى. ولسوف تهدي كل الأمم في ميادين الروحانية».

بل إن حضرة عبد البهاء اختص جمهورية الغرب العظمى، زعيمة أمم القارة الأمريكية بعنايته الخاصة بصورة أوضح حين قال: «* * إن الشعب الأمريكي جدير حقاً بأن يكون أوّل من يضرب خيمة السلام الأعظم ويعلن وحدة الجنس البشري» وحين قال مرة أخرى: «* * هذه الأمة الأمريكية لها من الطاقة الكامنة ما يمكنها من أن تقوم بما سوف يزين صفحات التاريخ،

ويحسدها عليه العالم، ويهنئها أهل الشرق والغرب على ما نالت من ظفر». وحين قال زيادة على ذلك: «** أسأل الله أن يجعل هذه الجمهورية الأمريكية أول أمة تضع أساس الصلح العمومي، وأول أمة تعلن وحدة الجنس البشري، وأول أمة ترفع راية السلام الأعظم» وكتب أيضاً يقول: «** فينهض أهل تلك البلاد من مستواهم المادي الحاضر إلى مستويات يفيض فيها العرفان السماوي من هذا المركز إلى كل شعوب العالم».

وخاطب حضرة عبد البهاء أحباء أمريكا الشمالية بقوله: «* يا حواريي بهاء الله روحي لكم الفداء!... تدبروا... أي مقام عظيم سامٍ قدر لكم، ما زال توفيقكم محجوباً وغير معروف». قال مرة أخرى: «** إن مهمتكم مجيدة تفوق الوصف فإذا تكللت مساعيكم بالنجاح فلسوف تصبح أمريكا مركزاً تفيض منه موجات القوة الروحية، ويستقر عرش ملكوت الله في كمال جلاله وأوج مجده استقراراً مكيناً». وأخيراً إليكم هذا التأكيد المثير، قال: «* حين يبلغ هذا النداء الإلهي من أمريكا إلى أوروبا وآسيا وأفريقيا وأستراليشيا وجزائر الباسفيك... يجلس أحباء أمريكا على سرير السلطنة الأبدية، ويطبق صيت نورانيتهم وهدايتهم الآفاق، ويعمّ صوت عظمتهم الأطراف والأكناف».

فلا عجب أن نرى الجامعة التي تنتمي إلى أمة بوركت بمثل هذه البركة العميمة، واحتلت هذه المكانة المرموقة في قارة غنية بمواهبها كل هذا الغنى تستطيع خلال خمسين سنة أن تضيف أكثر من صحيفة مشرقة حافلة بالانتصارات الباهرة إلى تاريخ أمر حضرة بهاء الله. وينبغي ألا يغرب عن البال أن هذه هي الجامعة التي تعهدها حضرة عبد البهاء بعناية، ورعاها باهتمامه الدائم منذ أن برزت إلى حيز الوجود بفضل القوى الخلاقة التي أطلقها إعلان ميثاق حضرة بهاء الله، وأن هذه هي الجامعة التي درّبها حضرة عبد البهاء على أن تؤدي رسالتها الفريدة بفضل ما رقم لها من ألواح تفوق العد والحصر، وبفضل ما ألقى إلى الزائرين العائدين من إرشادات

وتوجيهات، وبفضل ما بعث إليها من رسله الخواص، وبفضل ما قام به من رحلات عبر قارة أمريكا الشمالية من أدناها إلى أقصاها، وبفضل ما بيّن من تأكيدات خلال هذه الرحلات على أهمية مؤسسة الميثاق، وأخيراً بفضل ما أوكل إليها من واجبات في ألواح الخطة الإلٰهية. هذه هي الجامعة التي جاهدت، منذ طفولتها حتى الآن، جهاداً موصولاً، ونجحت بفضل مساعيها المنفردة في أن تركز علم حضرة بهاء الله في الأغلبية الساحقة من الدول السّتين الشرقية والغربية[1]، لكل واحدة منها الحق في أن تفتخر الآن بنعمة الدخول في حظيرة أمره المبارك. وهذه هي الجامعة التي تمتاز بصياغة نماذج المؤسسات الإدارية التي تبشر بقدوم نظم حضرة بهاء الله العالمي، كما تمتاز بأنها أول من شيد هيكله. وبمجهود أعضائها ارتفعت في قلب أمريكا الشمالية قواعد «أم معابد الغرب» البشير بذلك النظم. وهي مؤسسة من أكرم المؤسسات التي أمر بها الكتاب الأقدس، بل وأجلّ مؤسسة نهضت في العالم البهائي بأسره. وبفضل الجهود المضنية التي بذلها مهاجروها ومبلغوها ومرشدوها اتسعت دائرة المطبوعات البهائية اتساعاً عظيماً، وأنصفت أهدافه وأغراضه إنصافاً جريئاً، ووضعت أسس هيئاته الوليدة بصورة راسخة. وكان من النتائج المباشرة للمحاولات المتصلة المنفردة التي بذلتها أبرز مبلغاتها المتجولات ولاء إحدى الشخصيات الملكية واعتناقها لدين حضرة بهاء الله بصورة تلقائية أعلنت إعلاناً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض دوّنته الشخصية الملكية بقلمها في شهادات عديدة خلفتها للأجيال. وأخيراً إلى أفراد هذه الجامعة، الذين هم الأحفاد الروحيون لرواد فجر العصر البطولي المجيد، ينبغي أن يعزى الشرف الأبدي الخالد، شرف النهوض، في أكثر من مناسبة للدفاع بهمة وعزم ومضاء ولباقة عجيبة لنصرة المظلومين ولإعالة المعوزين وللدفاع عن مصالح المؤسسات والهيئات التي أقامها إخوانهم الذين قدر لهم أن ينالوا حظوظاً متفاوتة من الاضطهاد العنصري والديني في بلاد من مثل

---

(١) إن الإحصاء الوارد هو إحصاء عام ١٩٤٤ الذي هو عام صدور الكتاب.

إيران وروسيا ومصر والعراق وألمانيا.

ومن الغريب حقاً أن نجد أول إشارة علنية يشار بها في تلك البلاد المنفردة من بين أخواتها في الغرب بمثل هذا الواجب الفريد، إلى مؤسس الدين المجيد تخرج من شفتي رجل من رجال دين قدر للأمر المبارك أن يقاسي منه الشيء الكثير. والأغرب من هذا أن نرى أول من أسسه في مدينة شيكاغو، بعد خمسين سنة من إعلان حضرة الباب لدعوته في شيراز، يتخلى بعد سنوات قلائل عن الراية التي رفعها في تلك المدينة وحده وبلا معين.

ففي الثالث والعشرين من أيلول سنة ١٨٩٣م، أي بعد صعود حضرة بهاء الله بما يزيد عن عام بقليل، أعلن نيافة هنري هـ. جيسب[١] الدكتور في اللاهوت ومدير الإرسالية البرسبتارية[٢] في شمال سوريا في كلمته التي ألقاها عنه نيافة جورج أ. فورد[٣] العامل في سوريا في مؤتمر الأديان العالمي الذي انعقد في شيكاغو مع معرض كولومبس [الذي أقيم بمناسبة مرور أربعمائة سنة على اكتشاف أمريكا] فقال إن «حكيماً إيرانياً شهيراً»، وهو القديس البابي، قد مات أخيراً في عكاء، وإن «أستاذاً من كمبردج» قد زاره قبل صعوده بسنتين، فعبّر له القديس البابي عن «مشاعر بلغ من نبلها ومشابهتها للمسيحية» أن رغب صاحب الكلمة، في ختام كلمته، أن يشرك معه سامعيه في الاستماع إليها. وبعد ذلك بأقل من عام، أي في شباط سنة ١٨٩٤م، كان طبيب سوري يدعى إبراهيم خير الله قد اتخذ شيكاغو مقراً له وشرع يبلّغ الدين الذي اعتنقه بهمة ونشاط وانتظام. وكان هذا الطبيب قد آمن بالأمر المبارك أثناء إقامته بالقاهرة على يد الحاج عبد الكريم الطهراني وتلقى لوحاً من حضرة بهاء الله واتصل بحضرة عبد البهاء ووصل نيويورك في كانون الأول سنة ١٨٩٢م واستقر في شيكاغو. وفي غضون عامين كتب إلى حضرة عبد البهاء يصف مشاعره، ويستعرض النجاح الباهر الذي كللت به جهوده.

---

(١) Rev. Henry H. Jessup

(٢) Presbyterian Missionary

(٣) Rev. George A. Ford

وفي سنة ١٨٩٥م وفق إلى فتح جديد في كنوشا[١] التي حرص على زيارتها مرة كل أسبوع أثناء نشاطه التبليغي. وما إن وافت السنة التالية حتى كان الأحباء في هاتين المدينتين يعدّون بالمئات كما ورد في التقارير. وفي سنة ١٨٩٧م نشر كتابه «باب الدين»، وزار كنساس[٢] ونيويورك وإيثاكا[٣] وفيلادلفيا حيث استطاع أن يكسب للأمر المبارك عدداً لا يستهان به من الأنصار. وكان من أبرز من نهضوا يبشرون باليوم الجديد، ويكرسون أنفسهم لخدمة الميثاق الحديث الإعلان: ثورنتون تشيس[٤] الرابط الجأش الذي لقبه حضرة عبد البهاء بـ«الثابت» ووصفه بأنه «أول من آمن» من أمريكا، لأنه آمن سنة ١٨٩٤م. ومنهم لويزا أ. مور[٥] الخالدة، أم مبلغات الغرب، التي لقبها حضرة عبد البهاء بـ«اللواء» والدكتور إدوارد جتسنجر[٦] الذي تزوجته الآنسة لواء فيما بعد، وهوارد ماك نت[٧]، وآرثر ب. دودج[٨]، وإيزابيلا بريتنجهام[٩]، وليليان ف. كابّس[١٠]، وبول ك. ديلي[١١]، وتشستر أ. تاتشر[١٢]، وهيلين س. جودال[١٣] وهؤلاء فريق سوف تظل أسماؤهم مرتبطة بالإشراقات الأولى لدين حضرة بهاء الله في القارة الأمريكية الشمالية.

وما إن وافت سنة ١٨٩٨م حتى أظهرت السيدة فيبي هيرست[١٤] (زوجة السناتور جورج ف. هيرست[١٥] التي آمنت على يد السيدة جتسنجر أثناء

---

(١) Kenosha
(٢) Kansas City
(٣) Ithaca
(٤) Thornton Chase
(٥) Louisa A. Moore
(٦) Dr. Edward Getsinger
(٧) Howard Mc Nutt
(٨) Arthur P. Dodge
(٩) Isabella D. Brittingham
(١٠) Lillian F. Kappes
(١١) Paul K. Dealy
(١٢) Chester I. Thatcher
(١٣) Helen S. Goodall
(١٤) Mrs. Phoebe Hearst
(١٥) Senator George F. Hearst

رحلة قامت بها الأخيرة إلى كاليفورنيا، عزمها على التشرف بمحضر حضرة عبد البهاء في الأرض الأقدس، ودعت نفراً من الأحباء إلى مصاحبتها من بينهم الدكتور جتسنجر وزوجته، والدكتور خير الله وزوجته. وأتمت الإجراءات الضرورية لهذه الزيارة التاريخية لعكاء. وفي باريس انضم إلى الفريق عدد من الأمريكيين المقيمين من بينهم ماي إليس بولز(١) التي آمنت على يد السيدة جتسنجر، والآنسة بيرسون(٢)، وآن أبيرسون(٣) وكلتاهما ابنتا أخت السيدة هيرست مع السيدة ثورنبرغ(٤) وابنتها، زاد عددهم بانضمام بنات الدكتور خير الله وجداتهن اللواتي آمنّ في مصر على يد الدكتور خير الله أخيراً.

وكان قدوم خمسة عشر زائراً في ثلاثة أفواج متعاقبة، وصل الفوج الأول منها والذي ضمّ الدكتور جتسنجر وزوجته إلى مدينة السجن عكاء في العاشر من كانون الأول سنة ١٨٩٨م، والاتصال المباشر المتين بين مركز ميثاق حضرة بهاء الله ومطالع أنواره في الغرب، والظروف المثيرة التي اكتنفت زيارتهم لمرقده المقدس، وما أنعم به هذا المضيف المحب المنعم من شرف اصطحابه لهم إلى الغرفة الداخلية للضريح والروح العالية التي نفخها فيهم بسيرته ومسلكه وأقواله، وشحنهم بها رغم قصر مدة إقامتهم والحماسة الجياشة والعزم الراسخ الّذي أشعله في نفوسهم، وإرشاداته الملهمة وتوجيهاته النيّرة، وإمارات محبته الإلٰهية المتعددة لهم، كان كل ذلك مشيراً إلى افتتاح عهد جديد من تقدّم الدين في الغرب، وهو العهد الذي أظهرت دلالته الأعمال المجيدة التي قام بها، فيما بعد، بعض هؤلاء الزائرين وإخوانهم إظهاراً رائعاً.

كتبت إحدى المتشرفات بمحضره تسجل مشاعرها، قالت: «أما عن

---

(١) May Ellis Bolles
(٢) Miss Pearson
(٣) Ann Apperson
(٤) Mrs. Thornburgh

اللقاء الأول فإني لا أذكر فرحاً ولا ترحاً ولا شيئاً مما يمكنني أن أسميه. ذلك لأنني سموت فجأة إلى ارتفاع شاهق، واتصلت روحي بالروح الإلهي. وحيرتني هذه القوة الطاهرة المقدسة العظيمة... لم نستطع أن نحوّل أنظارنا عن وجهه الجليل. وسمعنا كل ما قال وشربنا الشاي بأمره إلا أن الوجود كان معطلاً. فلما نهض وتركنا فجأة عدنا إلى الحياة منتفضين. ولكن حمداً لله! لم تكن حياتنا الأولى أبداً، ولم تكن الأرض هي الأرض أبداً!» وفي ذكرى آخر لقاء لهؤلاء الزائرين قالت الزائرة نفسها: «في جلال محضره وهيمنته تحوّل خوفنا أمناً، وضعفنا قوة، وأسفنا أملاً، وفنينا في محبتنا له. وبينما نحن جلوس بين يديه ننتظر أن نستمع إلى كلماته أجهش بعض الأحباء بالبكاء فأمرهم أن يكفكفوا عبراتهم، إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك حتى لحظة واحدة فعاد يرجوهم ألا يبكوا وإلا فإنه لن يتحدث إلينا ولن يعلّمنا حتى تجف العبرات جميعاً...».

وكتبت السيدة هيرست في إحدى رسائلها تقول: «... تلك الأيام الثلاثة كانت أخلد أيام حياتي وأبقاها ذكراً... أما المولى فلن أحاول أن أصفه. وإنما أكتفي بأن أقرر أنني أؤمن من كل قلبي بأنه هو المولى، وأن أعظم ما بوركت به في هذه الدنيا هو امتيازي بالمثول في حضرته واستجلاء طلعته المباركة... إن عباس أفندي هو بلا شك مسيح هذا اليوم وهذا الجيل، فلسنا في حاجة إلى أن نبحث عن سواه». وكتبت في خطاب آخر تقول: «يجب أن أعترف بأنه أنبل مخلوق لقيته أو أتوقع أن ألقاه في هذه الدنيا... وإن محاولة وصف الجو الروحي الذي يحيط به فيؤثر في كل من تبرك بمحضره تأثيراً قوياً لأمر يعجز عنه كل بيان. إنني أؤمن به من أعماق قلبي وروحي، وآمل أن يخصه كل الذين يسمون أنفسهم بالأحباء بالعظمة كلها والمجد كله والثناء كله لأنه هو، بلا ريب، ابن الله، وروح الآب تسكن فيه».

بل إن خادم السيدة هيرست الزنجي، ويدعى روبرت ترنر[١]، كان أول

---

(١) Robert Turner

من يؤمن بالأمر المبارك من بني جنسه في الغرب. فقد انجذب بتأثير حضرة عبد البهاء أثناء تلك الزيارة التاريخية. وقد بلغ من رسوخ إيمانه أن سيدته المحبوبة تنكرت، فيما بعد، للدين الذي اعتنقته، فلم يؤثر ذلك فيه بأية حال، ولم يقلل من عمق المشاعر التي أثارها في صدره ما حباه به حضرة عبد البهاء من الرأفة والمحبة.

عاد بعض هؤلاء الزائرين السكارى بخمر الله إلى فرنسا، وعاد بعضهم الآخر إلى الولايات المتحدة. وكان ذلك إيذاناً بانطلاق نشاط منظم متساند ومتواصل نما واستجمع قوة أعظم، وامتدت أغصانه إلى أوروبا الغربية وولايات أمريكا الشمالية وأقاليمها الشاسعة، واتسع مجال هذا النشاط اتساعاً جعل حضرة عبد البهاء يصمم على السفر إلى الغرب حالما يطلق سراحه من اعتقاله المديد في عكاء. نعم! فلقد انطلقت جامعة الأحباء الأمريكيين، لا تعرقل مسعاهم الأزمة المخربة التي أحدثها طموح الدكتور خير الله بعد عودته من الأرض الأقدس (في كانون الأول سنة ١٨٩٩م)، ولا تفزعها القلاقل التي أثارها بالتعاون مع ناقض الميثاق الأكبر وأعوانه ورسله، ولا تهتم بالهجمات التي أخذ يشنها هو والمنشقون معه ورجال المسيحية الذين زاد من حسدهم قوة الدين الناهض وانتشار تأثيره. قام هؤلاء الأحباء، يعززهم في مسعاهم صف طويل من الزائرين الذين كانوا يبلغون رسائل المولى الساهر الشفهية وإرشاداته وتعليماته الخاصة، وتقوي عزائمهم فيوضات قلمه المسجلة في الألواح التي لا تعد ولا تحصى، ويوجههم الرسل والمبلغون المتعاقبون الذين كان يرسلهم بأمره لإرشادهم وتثبيت أقدامهم وتعميق إيمانهم. وبدأوا سلسلة من الأعمال التي باركها حضرة عبد البهاء، ونشطها بعد عشر سنوات، والتي لم تكن سوى مقدمة لتلك الخدمات الفائقة الفذّة التي قدر لهم أن يؤدوها خلال عصر التكوين من دورة والده العظيم.

وما كادت إحدى الزائرات، وهي ماي بولز السالفة الذكر، تعود إلى باريس حتى استطاعت أن تؤسس في تلك المدينة أول مركز بهائي أنشئ في القارة الأوروبية، وذلك انصياعاً لتعليمات حضرة عبد البهاء المشددة. ولقد

تعزز هذا المركز بعد عودتها بقليل بإيمان أول مؤمن إنجليزي وهو توماس بريكويل[١] الذي خلد ذكره حضرة عبد البهاء بالثناء العاطر النازل في ذكراه، وإيمان أول مؤمن فرنسي وهو هيبوليت دريفوس[٢] الذي استطاع بكتاباته وترجماته ورحلاته وخدماته الرائدة الأخرى أن يوطد، على مر السنين والأعوام، دعائم العمل الذي بدئ في بلاده، وإيمان لورا بارني التي أدت خدمتها الخالدة بأن جمعت بيانات حضرة عبد البهاء النفيسة التي تناولت موضوعات متنوعة أشد التنوع، والتي ألقاها أثناء زيارتها المديدة للأرض الأقدس، وأخرجتها للأجيال القادمة على هيئة كتاب عنوانه «المفاوضات». وبعد ثلاث سنوات، أي في سنة ١٩٠٢م، انتقلت ماي بولز[٣] التي تزوجت آنذاك رجلاً كندياً، إلى منتريال، ونجحت في وضع أسس الأمر المبارك في تلك البلاد.

ونتيجة للتأثيرات الخلاقة التي أحدثتها هذه الزيارة الباقية الذكر، استطاعت السيدة ثورنبرغ كروبر[٤] أن تبدأ في لندن نشاطاً وسعته وغذته جهود المؤمنين الإنجليز الأول ولا سيما جهود إثيل ج. روزنبرج[٥] التي آمنت سنة ١٨٩٩م، فتمكنوا في السنوات التالية من إقامة هيكل مؤسساتهم الإدارية في الجزر البريطانية. أما في أمريكا الشمالية، فقد عرّض ارتداد الدكتور خير الله وكذلك النشرات المفسدة المجرّحة التي نشرها بتشجيع ميرزا محمد علي وابنه شعاع الله الذي أوفده إلى أمريكا، ولاءهم وإخلاصهم لأشد أنواع الامتحان، وهم ما زالوا في مدارج الطفولة. إلا أن الرسل المتعاقبين الذين أوفدهم حضرة عبد البهاء من أمثال الحاج عبد الكريم الطهراني، والحاج ميرزا حسن الخراساني، وميرزا أسد الله، وميرزا أبو الفضل، نجحوا في تبديد الشكوك وتشتيت الظنون بسرعة، كما نجحوا في توسيع مدارك

---

(١) Thomas Breakwell
(٢) Hippolyte Dreyfus
(٣) May Bolles
(٤) Mrs. Thornburgh Cropper
(٥) Ethel J. Rosenberg

الأحباء ولَمّ شعثهم وتوحيد كلمتهم، وتكوين نواة تلك المؤسسات الإدارية التي قدر لها أن تفتتح رسمياً بعد عشرين سنة بمقتضى نصوص وصية حضرة عبد البهاء الواضحة وموادها. وما إن وافت سنة ١٩٠٠م حتى تشكلت لجنة استشارية مسماة بـ«بيت العدل» ثم بـ«بيت الروحانية» وهي أول حلقة من سلسلة المحافل التي غطت قارة أمريكا الشمالية من الشاطئ إلى الشاطئ قبل انتهاء القرن البهائي الأول. وفي سنة ١٩٠٢ تشكلت في شيكاغو جمعية النشر البهائية لترويج المطبوعات الأمرية التي أخذت تنتشر تدريجياً. وصدرت في نيويورك نشرة بهائية لنشر تعاليم الأمر المبارك، تلتها «الأخبار البهائية»، وهي نشرة أخرى صدرت في شيكاغو سرعان ما تطورت إلى مجلة «نجم الغرب». وترجمت بهمة ونشاط بعض كتب حضرة بهاء الله المهمة من مثل «الكلمات المكنونة» و«الإيقان» و«ألواح الملوك» و«الوديان السبعة» مع ألواح حضرة عبد البهاء. كما ترجمت عدة مقالات ونُبَذ كتبها ميرزا أبو الفضل وآخرون. وبدأت مراسلات لا يستهان بها مع المراكز الأمريّة المختلفة في الشرق أخذت تزداد في مجالها وأهميّتها. ونشرت التواريخ المختصرة للأمر المبارك كما نشرت الكتب والعجالات دفاعاً عنه، وكتبت المقالات للصحف، ونشرت الإحصائيات والتقارير عن الرحلات والزيارات والمدائح والقصائد والمثنويات وروجت ترويجاً واسعاً.

وفي هذه الأثناء قام المسافرون والمبلغون، الذين خرجوا ظافرين من بحران الافتتان وعواصف الامتحان التي هددت دينهم المحبوب، بطوع رغبتهم ليعززوا حصون الأمر المبارك التي كانت قد أنشئت حديثاً ويضاعفوا عددها. فكوّنوا مراكز أمرية في واشنطن وبوسطن وسان فرانسيسكو ولوس أنجلس، وكليفلاند وبلتيمور ومينيابوليس وبفالو وروشستر وبتسبرغ وسياتل وسانت بول وفي أماكن كثيرة أخرى. وبدأ المهاجرون الشجعان المقيمون منهم والعابرون، يقومون بالرحلات متلهفين على نشر البشارة الجديدة خارج حدود بلادهم الأصلية، وشرعوا في القيام بأعمال حملت نورها إلى قلب أوروبا والشرق الأقصى وجزائر المحيط الهادي. فرحل مايسون

ريمي[١] إلى روسيا وإيران ثم طاف مع هوارد ستروفن[٢] حول العالم لأول مرة في التاريخ البهائي، وزارا في طريقهما جزر هاواي واليابان والصين والهند وبورما. وسافر هوبر هارس[٣] وهارلان أوبر[٤] ما لا يقل عن سبعة أشهر في الهند وبورما وزارا بومباي وبونا ولاهور وكلكتا ورانجون ومندلاي. واقتفت ألما نبلوك[٥] آثار الدكتور أ. فيشر[٦]، وركزت راية الأمر المبارك في ألمانيا، وحملت نوره إلى النمسة، وحوّلت الدكتورة سوزان آي. مودي[٧] وسيدني سبراج[٨]، وليليان ف. كابس[٩]، والدكتورة سارة كلوك[١٠] واليزابت ستيوارت[١١] مقامهن إلى طهران رجاء التقدّم بمصالح الأمر المبارك المتشابكة بالتعاون مع الأحباء في تلك المدينة. وكانت سارة فارمر[١٢] قد كوّنت سنة ١٨٩٤م في عكاء الخضراء بولاية ماين اجتماعات صيفية وأسست مركزاً لترويج الوحدة والإخاء بين الأجناس والأديان ولكنها زارت عكاء سنة ١٩٠٠م ثم عادت ووضعت هذه الاجتماعات وكل معداتها وتجهيزاتها تحت تصرف أتباع الأمر المبارك الذي اعتنقته أخيراً.

وأخيراً وليس آخراً، قام الأحباء في شيكاغو بعد أن ألهمهم ما قام به إخوانهم في عشق آباد من الشروع في تشييد أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي، وبعد أن ألهبتهم الرغبة في إظهار إيمانهم وولائهم بطريقة ملموسة مناسبة، وتوسلوا إلى حضرة عبد البهاء أن يأذن لهم في إقامة معبد ففازوا بموافقته العاجلة الحماسية المدونة في لوح رقمه في حزيران سنة ١٩٠٣م،

---

(١) Mason Remey
(٢) Howard Struven
(٣) Hoopper Harris
(٤) Harlan Ober
(٥) Alma Knobloch
(٦) Dr. K.E. Fisher
(٧) Dr. Susan I. Moody
(٨) Sydney Sprague
(٩) Lillian F. Kappes
(١٠) Dr. Sarah Clock
(١١) Elizabeth Stewart
(١٢) Sarah Farmer

فقاموا على قلة عددهم وضعف مواردهم ليأخذوا على عاتقهم عملاً يعد أعظم خدمة أداها الأحباء للأمر المبارك إلى الآن، لا في أمريكا وحدها بل وفي الغرب كله. وبفضل تشجيع حضرة عبد البهاء فيما بعد، وبفضل التبرعات التي قدمتها المحافل الروحانية المختلفة، دعا أعضاء هذا المحفل الروحاني ممثلي الأحباء في البلاد المختلفة لاجتماع يعقد في شيكاغو لتدشين هذا المشروع الجبار الذي أخذوه على عواتقهم. وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٠٧م كوّن المندوبون المجتمعون لجنة من تسعة أفراد لاختيار الموقع المناسب للمعبد المزمع إنشاؤه. وما إن وافى اليوم التاسع من نيسان سنة ١٩٠٨م حتى دفعوا ألفي دولار لشراء قطعتين من أرض البناء تقعان على مقربة من شاطئ بحيرة متشيغان(١). وفي آذار سنة ١٩٠٩م وجهت الدعوة لعقد مؤتمر يمثل المراكز الأمرية المختلفة، وذلك بناء على التعليمات التي وجهها حضرة عبد البهاء. فاجتمع في شيكاغو تسعة وثلاثون مندوباً عن ستٍ وثلاثين مدينة. وكان ذلك في نفس اليوم الذي أرقد فيه حضرة عبد البهاء رفات حضرة الباب في المقام الأعلى الذي شيد على جبل الكرمل. وكونوا هيئة مركزية دائمة تعرف بـ«وحدة المعبد البهائي». وتم تسجيلها قانونياً لدى حكومة ولاية إلينوي كهيئة دينية تعمل بموجب قوانين هذه الولاية لها الحق في امتلاك أرض المعبد وتهيئة الوسائل اللازمة لتشييده. وفي هذا المؤتمر وضع دستور لهذه الهيئة وتشكّلت هيئة أخرى هي اللجنة التنفيذية لوحدة المعبد البهائي وانتخب أعضاؤها وخوّلهم المندوبون سلطة تكملة شراء الأرض التي أوصى بها المؤتمر السابق. وانهالت التبرعات لهذا العمل التاريخي من الهند وإيران وتركيا وسوريا وفلسطين وروسيا ومصر وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وكندا والمكسيك وجزر الهاواي بل ومن موريتس(٢)، وما لا يقل عن ستين مدينة أمريكية. وفي سنة ١٩١٠م، أي قبل زيارة حضرة عبد البهاء لأمريكا بعامين، بلغت التبرعات ما لا يقلّ عن عشرين ألف دولار.

---

(١) Michigan

(٢) Mauritius

وهو دليل ملحوظ على تماسك الأحباء في المشرق والمغرب، وعلى الجهود المخلصة المتفانية التي بذلها أحباء أمريكا الذين أسهموا أثناء تقدم العمل بالقدر الأكبر من المبلغ الذي زاد على المليون ونصف المليون من الدولارات اللازمة لتشييد بنيان المعبد وزينته الخارجية.

استئناف حبس حضرة عبد البهاء

إن الأعمال البارزة التي أنجزتها الجامعة الجريئة الممتحنة أشد الامتحان واعتبرت بواكير الثمار التي أثمرها في العالم الغربي ميثاق حضرة بهاء الله المبرم حديثاً، وصفت بأنها كانت أساساً مهيباً يستدعي حضور مركز ذلك الميثاق المختار الذي أوجد تلك الجامعة بعناية فائقة وأشرف على مصائرها في مهدها ببصيرة صادقة. على أنه لم يستطع أن يقوم برحلته الخالدة إلى شواطئ القارة التي أشارت فيها هذه الأعمال الفخمة الباقية إلى نهضة دين والده وتأسيسه إلا بعد أن خرج من تلك الأزمة التي وقع فريسة لها منذ عدة سنوات.

أما هذه الأزمة الثانية الكبرى التي حدثت في عهده فكانت خارجية ولكنها لا تكاد تقل في قسوتها عن تلك التي أحدثها عصيان ميرزا محمد علي. إذ عرّضت حياته للخطر تعريضاً جسيماً وحرمته عدة سنوات من الحرية النسبية التي تمتع بها، وأقلقت أهله والأحباء في المشرق والمغرب، وفضحت كما لم تفضح أزمة من قبل، انحطاط خصومه الألداء وسفالتهم. نشأت هذه الأزمة بعد رحيل الزوار الأمريكيّين الأول من الأرض المقدسة بسنتين واستمرت حلقاتها بدرجات مختلفة الشدة سبع سنوات ونيف. وكان مرجعها المباشر الدسائس المستمرة التي كان يحوكها الناقض الأكبر لميثاق حضرة بهاء الله وأعوانه والافتراءات الفظيعة التي كانوا يروجونها.

فلقد عز على ميرزا محمد علي أن يفشل فشلاً ذريعاً في إحداث الصدع الذي علق عليه كل آماله، وآذاه ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه حملة لواء

الميثاق في أمريكا الشمالية برغم مكائده، وشجعه حكم تزدهر في جو الدسائس والظنون على رأسه سلطان قاس لئيم، فصمم على استغلال مجيء الزائرين الغربيين إلى مدينة السجن عكاء والشروع في تشييد مقام حضرة الباب على جبل الكرمل أسوأ استغلال، فنهض لذلك ومعه أخوه ميرزا بديع الله ويناصره صهره ميرزا مجد الدين، باذلاً الجهود المضنية والمحاولات الملحة التي نجح بأثرها في إثارة شكوك الحكومة التركية ورجالها، وحملهم على استئناف تضييق الخناق على حضرة عبد البهاء، الأمر الذي قاسى منه كثيراً في أيام حضرة بهاء الله.

ولقد أقر هذا الأخ نفسه، وشريك ميرزا محمد علي الأكبر، بالدسائس الخبيثة التي حيكت وذلك في اعترافه الكتابي الذي وقعه بتوقيعه وختمه بخاتمه ونشره أثناء فترة صلحه مع حضرة عبد البهاء. فقال ميرزا بديع الله: «سوف أتجاهل ما سمعته من الآخرين ولن أروي إلا ما رأيت بعيني وسمعت بأذني من شفتيه [أي من شفتي ميرزا محمد علي]». ثم مضى يقول: «اتخذ [أي ميرزا محمد علي] التدابير ليوفد ميرزا مجد الدين إلى ناظم باشا والي دمشق بهدية وخطاب مكتوب بالفارسية يلتمس معونته... وقد أخبرني [أي ميرزا مجد الدين] في حيفا، أنه بذل كل ما استطاع من جهد ليوقفه [أي الحاكم] على العمل الجاري على جبل الكرمل، ومجيء المؤمنين الأمريكيين ورواحهم وعلى الاجتماعات التي تعقد في عكاء. وقد لاطفه الباشا كل الملاطفة رغبة منه في الوقوف على كل الحقائق، وأكد له معونته. وبعد عودة ميرزا مجد الدين بأيام قلائل جاءت من الباب العالي برقية بالشيفرة تحمل أوامر السلطان بحبس حضرة عبد البهاء وحبسي وآخرين». وشهد زيادة على ذلك في الوثيقة نفسها بأن «رجلاً جاء من دمشق إلى عكاء وقرر للناس أن ناظم باشا هو السبب في حبس عباس أفندي. وأغرب الأشياء جميعاً أن ميرزا محمد علي هذا كتب رسالة إلى ناظم باشا يرجوه فيها أن يطلق سراحه هو. إلا أن الباشا لم يكتب حرفاً واحداً للإجابة عن خطابه الأول ولا الثاني».

وفي اليوم الخامس من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٩ للهجرة (٢٠ آب سنة ١٩٠١م) أعلم حضرة عبد البهاء بتعليمات السلطان عبد الحميد، وكان حينذاك عائداً من البهجة حيث اشترك في الاحتفال بليلة بعثة حضرة الباب، تقضي بأن يستأنف التضييق الذي كانت وطأته قد خفت تدريجاً، وبأنه هو وأخوته لا ينبغي لهم أن يغادروا أسوار المدينة، وقد أعلم حضرة عبد البهاء بذلك أثناء لقاء تم بين حضرته وبين حاكم عكاء. ونفذ قرار السلطان تنفيذاً صارماً بادئ الأمر، وضيّق على حرية الجامعة المنفية تضييقاً عظيماً، وكان على حضرة عبد البهاء أن يعاني وحده ودون معونة، مشقة التحقيقات المطوّلة التي أجراها القضاة ورجال الحكومة الذين أخذوا يستدعونه إلى سراي الحكومة مرة بعد أخرى عدة أيام متوالية لإتمام التحقيق. وكان من بين الأعمال الأولى التي قام حضرته بها أن تدخل لصالح إخوته الذين استدعاهم الحاكم على الفور وأبلغهم أوامر السلطان. وهو عمل عجز عن أن يلطف حدة عداوتهم، أو يقلل نشاطهم الشرير إلا أن حضرته أفلح بعد مدة بسعيه لدى السلطات المدنية والعسكرية في أن يحصل لأتباعه المقيمين بعكاء على الحرية فتمكنوا من متابعة التكسب دون مضايقة.

ولم يشف غليل ناقض الميثاق ما اتخذته السلطات من التدابير نحو الرجل الذي تدخل لصالحهم هذا التدخل النبيل. فنهضوا يريدون الإجهاز عليه يساعدهم في ذلك يحيى بيك مدير الشرطة الخبيث ومعه رجال آخرون من السلك المدني والعسكري الذين قاموا باستبدال آخرين ممن كانوا يتعاطفون مع حضرة عبد البهاء إزاء احتجاجات الناقضين وكذلك أعوان متسترون يسافرون بين عكاء والآستانة ويشرفون إشرافاً دقيقاً على كل ما يدور في بيته. وطفقوا يغدقون على رجال الحكومة الهدايا ويجزلون العطايا التي اشتملت في بعض الأحيان على أمتعة هي من آثار حضرة بهاء الله المباركة، وينفحون الرفيع والوضيع بلا حياء برشوات دفعوها في بعض الأحيان من ثمن أملاك امتلكها حضرة بهاء الله أو وهبها لهم حضرة عبد البهاء. ولم يدخروا

وسعاً، ومضوا في نشاطهم الممقوت بعزم أكيد مصممين على أن يحاولوا المستحيل حتى يتمكنوا من إعدامه أو نفيه إلى مكان يمكّنهم من تخليص الدين من قبضته. فطفقوا يقصدون في مناسبات كثيرة والي دمشق ومفتي بيروت ويلجأون إلى أعضاء الإرساليات البروتستانتية المقيمة في سوريا وعكاء بل إلى الشيخ أبي الهدى الواسع النفوذ في الآستانة، وكان السلطان يجله كإجلال محمد شاه لرئيس وزرائه الحاج ميرزا آقاسي، ويتوسلون إليهم ويحملونهم على أن يعاونوهم في تنفيذ خططهم البشعة.

وزين ناقضو الميثاق لهؤلاء البارزين ضرورة العمل المباشر وذلك عن طريق الرسائل الشفهية والاتصالات الرسمية والمقابلات الشخصية، وكيفوا مزاعمهم بمهارة وبراعة وفق أهواء هؤلاء ومصالحهم. فلبعضهم أظهروا أن حضرة عبد البهاء مغتصبٌ فظ يتعدى على حقوقهم ويسلبهم ميراثهم وممتلكاتهم، ويغيّر قلوب أصدقائهم في إيران عليهم، وأنه جمع لنفسه أموالاً طائلة، وأنه يمتلك ما لا يقل عن ثلثي أرض حيفا، ولآخرين أعلنوا أن حضرة عبد البهاء يطمع في أن يجعل من عكاء وحيفا مكة جديدة ومدينة جديدة، ولطائفة ثالثة أكدوا أن حضرة بهاء الله لم يكن سوى درويش متقاعد يؤمن بالإسلام ويدعو له، وأن ابنه عباس أفندي يرفعه إلى مقام الألوهية وذلك تمجيداً لنفسه لأنه يدعي أنه ابن الله ورجعة السيد المسيح، واتهموه أيضاً بأنه يضمر السوء للدولة ويعد العدة لعصيان السلطان، فرفع فعلاً علم «يا بهاء الأبهى» وهو علم العصيان، في قرى قصيّة من فلسطين وسوريا، وأنه قد حشد في الخفاء جيشاً مكوناً من ثلاثين ألف رجل، وأنه منهمك في بناء قلعة حصينة ومخزن فسيح للعتاد على جبل الكرمل، وأنه حصل على المعونة المادية والمعنوية من عدد كبير من الأصدقاء الإنجليز والأمريكيّين، ومن بينهم رجال دول أجنبية جاءوا متنكرين في أعداد كبيرة ليرفعوا له فروض الولاء، وأنه وضع بالتشاور معهم خططاً لإخضاع الأقاليم المجاورة وطرد السلطات الحاكمة منها والاستيلاء في النهاية على صولجان السلطان نفسه. بمثل هذا التشويه وبتلك الرشوات أفلحوا في حمل بعض الناس على التوقيع

على الوثائق التي كانوا قد أعدوها بأنها شهود وأرسلوها مع أعوانهم إلى الباب العالي.

لم تعجز هذه الاتهامات الخطيرة الواردة في التقارير العديدة عن إقلاق خواطر عاهل يملؤه الخوف فعلاً من اقتراب تفشي العصيان بين رعاياه. فانتدبت لجنة لتحري الأمر وكتابة تقرير بما يصل إليه التحري من نتائج. وقد عني حضرة عبد البهاء حين استدعي إلى ساحة القضاء بأن يفنّد في قوة وبلا خوف كل تهمة من هذه الاتهامات ويبيّن سخافتها، ويوقف أعضاء اللجنة على مواد وصية حضرة بهاء الله تأييداً لدفاعه. وأبدى استعداده للخضوع لأي حكم يقرره القضاء، وأكد ببلاغة أنهم إن أوثقوه بالأغلال أو سحبوه في الشوارع أو لعنوه وسخروا منه أو رجموه أو بصقوا في وجهه أو صلبوه في الميدان العام ومزقوا جسده بالرصاص فإنه يعد ذلك شرفاً رفيعاً إذ أنه بذلك يقتدي بحضرة الباب زعيمه المحبوب ويشاطره آلامه.

ولا تسل عن خطورة الموقف الذي جابهه حضرة عبد البهاء والشائعات التي روجها الأهلون الذين باتوا ينتظرون أخطر التطورات، ولا عن الإشارات والتلميحات الصادرة في جرائد مصر وسوريا إلى الأخطار التي تهدد حياته، ولا عن الصبغة الهجومية التي زاد اصطباغ أعدائه بها، ولا عن المسلك الاستفزازي الذي سلكه بعض أهالي عكاء وحيفا بعد أن جرأتهم تكهنات هؤلاء الأعداء ومزاعمهم عن المصير الذي ستؤول إليه الجامعة المتهمة وزعيمها، كل ذلك جعل حضرة عبد البهاء يقلل من عدد الزائرين بل ويعطل زياراتهم زمناً، ويصدر تعليمات خاصة بأن يسلّم بريده إلى يد مندوب في مصر فذلك كان أفضل من إرساله إلى حيفا، وظل مدة يأمر بأن يحتفظ بالبريد هناك انتظاراً لنصيحة أخرى. كما أوصى المؤمنين وأمناء سره بأن يجمعوا كل ما في حوزتهم من آثار بهائية ويضعوها في حرز أمين، وحملهم على أن يحولوا مقامهم إلى مصر بل ذهب إلى أبعد من هذا فنهاهم على كره منهم أن يجتمعوا في بيته. وامتنع أصدقاؤه العديدون والمعجبون به عن

زيارته في الأيام الحالكة من هذه الفترة العصيبة خشية أن ينغمسوا في الأمر ويثيروا شبهات السلطات. وعندما بدا الحال على أبشع صورة، كنت ترى المنزل الذي يعيش فيه، والذي كان مركزاً للنشاط سنين عديدة بات مهجوراً في بعض الأيام والليالي. فلقد ظلّ الجواسيس يَضربون حوله نطاقاً من التجسس الظاهر والخفي حاسبين عليه كل حركة من حركاته مضيقين الخناق على أسرته.

أما تشييد مقام حضرة الباب الذي وضع حضرة عبد البهاء حجره الأساسي في البقعة التي باركها حضرة بهاء الله واختارها، فقد أبى أن يوقفه أو يعطله ولو لفترة قصيرة من الزمن. كما أنه لم يكن يسمح بأن تقوم أية عقبة مهما كانت فتعطل الفيض اليومي من الألواح، ذلك الفيض الذي انهمر في سرعة عجيبة وكمية ضخمة متزايدة من قلمه الذي لا يكل، فكان يجيب على ذلك العدد الهائل من الرسائل والتقارير والاستفسارات والدعوات وإعلان الإيمان بالدين والاعتذارات والمدائح الواردة ممن لا يحصى عددهم من الأتباع والمعجبين في المشرق والمغرب معاً. ولقد شهد شهود العيان أنهم رأوا حضرة عبد البهاء في خلال هذه الفترة المضطربة الخطيرة في حياته يكتب بيده ما لا يقل عن تسعين لوحاً في اليوم الواحد، ويقضي ليالي كثيرة من مسائها إلى فجرها وحيداً في غرفة نومه مستأنفاً كتابة المراسلات التي منعه ضغط مسؤولياته المتنوعة من أن يعنى بها خلال النهار.

وفي ذلك الحين العصيب والفترة العنيفة من عهده نهض حضرة عبدالبهاء في أوج الحياة وعز الرجولة وإقبال القوة لينفذ الأعمال المختلفة المقترنة بذلك العهد ويتعهدها بعزيمة لا تفل وقوة لا تنضب وثقة لا تتزعزع وإقدام عجيب. وفي ذلك الحين فكر في مشروع أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي وشرع أتباعه في مدينة عشق آباد بتركستان في تشييده، وفي ذلك الحين أصدر توجيهاته بترميم منزل حضرة الباب المقدس التاريخي في شيراز رغم اضطراب الأحوال في وطنه، وفي هذا الحين اتخذت التدابير

الأولى التي مهدت الطريق لإرساء حجر الأساس لأم المعابد في الغرب، وتم ذلك في الدرجة الأولى بفضل تشجيعه المستمر، فوضعه بيده في السنوات التالية حين زار موقع ذلك المعبد على شاطئ بحيرة متشيغان. وفي تلك الفترة جمعت مجموعة أحاديثه الشهيرة على المائدة وطبعت بعنوان «المفاوضات». وهي أحاديث ألقاها خلال فترات الراحة الوجيزة التي استطاع أن يظفر بها، وبيّن فيها بعض الأفكار الأساسية في دين والده، وقدم فيها من الأدلة العقلية والنقلية ما يقوم دليلاً على صحته، وشرح فيها موضوعات مختلفة تتعلق بالدورة المسيحية وبأنبياء الله وبالنبوءات الواردة في الكتاب المقدس، وأصل الإنسان وأحواله وما شابه ذلك من الموضوعات شرحاً محكماً.

وفي أظلم ساعات هذه الفترة أعلن حضرة عبد البهاء في لوح موجه إلى ابن خال حضرة الباب الحاج ميرزا محمد تقي المحترم وهو البنّاء الأول لمعبد عشق آباد، في عبارات مثيرة، عظمة ظهور حضرة بهاء الله اللانهائية، ونطق بالإنذارات التي تنبأ بذلك الهياج الذي سوف يثيره أعداء الدين من بعيد ومن قريب في أرجاء العالم وتنبأ بلغة مؤثرة بالسيادة التي سوف يظفر بها عليهم حملة مشاعل الميثاق آخر الأمر. وفي ساعة من ساعات التوتر الشديد التي مرت خلال هذه الفترة كتب وصيته وعهده وهي الوثيقة الخالدة التي يوضح فيها معالم النظام الإداري الذي ينشأ من بعد صعوده، ويبشر بإقامة النظم العالمي الذي أعلن حضرة الباب مجيئه والذي صاغ حضرة بهاء الله مبادئه وأحكامه من قبل وفي غضون تلك السنوات الهائجة استطاع أن يتعهد بوساطة دعاة الميثاق الوطيد وحماية جنين الهيئات الإدارية والروحية والتربوية لدين يطّرد انتشاره في إيران وهي مهده، وفي جمهورية الغرب الكبرى وهي مهد نظامه الإداري، وفي كندا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا ومصر والعراق وروسيا والهند وبورما واليابان بل وفي جزائر المحيط الهادي النائية. وفي غضون تلك الآونة المثيرة وهب حضرة عبد البهاء قوة هائلة لترجمة الكتب والمؤلفات البهائية وطبعها ونشرها، فاتسع نطاقها وأصبحت تضم آنذاك كتباً ومقالات مختلفة كتبت بالفارسية والعربية والإنجليزية والتركية والفرنسية

والألمانية والروسية والبورمية. وكلما هدأت العاصفة الثائرة من حوله في تلك الأيام كان يجتمع على مائدته الزائرون والأصدقاء والمستفسرون من معظم الأقطار السابق ذكرها ممثلين المسيحية والإسلام واليهودية والزرادشتية والهندوسيّة والبوذية. وكان يخرج رغم الأخطار المحدقة به إلى الفقراء والمعوزين المحتشدين على بابه وفي فناء بيته صباح كل يوم جمعة ويفرق فيهم الصدقات بسخاء واستمرار، منحاه لقب «أبي الفقراء». ولم يكن ثمة شيء في تلك الأيام العاصفة يزعزع من ثقته، ولم يكن يأذن لشيء من الأشياء أن يتدخل في عناياته بالمعوز واليتيم والمريض والمسكين ولم يكن ثمة شيء من الأشياء يمنعه من أن يزور أولئك الذين عجزوا أو خجلوا من تلقي معونته. ولم يكن شيء من الأشياء ليحمله بعد أن وطّن نفسه وعقد العزم على متابعة المثل الأعلى الذي ضربه حضرة الباب وحضرة بهاء الله على أن يفر من أعدائه أو يهرب من سجنه، حتى ولا ذلك النصح الذي أسداه له أكابر الجامعة المنفية في عكاء، ولا مناشدات القنصل الإسباني الملحة، وكان قريباً من أقرباء وكيل شركة ملاحة إيطاليّة، حمله حبه لحضرة عبد البهاء ولهفته على إبعاده عن الخطر المهدد على أن يضع تحت تصرف حضرته باخرة إيطالية مستعدة لأن تنقله بأمان إلى أي ثغر أجنبي يختاره.

وكانت سكينة حضرة عبد البهاء مما لا يزعزعها مزعزع، ومما أثار دهشة أصدقائه وسخرية أعدائه أنهم كانوا يشاهدونه وهو يزرع الأشجار والكروم في حديقة بيته على حين ترجف الشائعات من حوله بأنه قد يقذف به إلى البحر أو ينفى إلى فيزان في طرابلس الغرب أو يشنق. وبعد انتهاء العاصفة كان يأمر بستانيه الأمين إسماعيل آقا أن يقطف من ثمار تلك الأشجار والكروم ويقدمها لهؤلاء الأصدقاء والأعداء لدى زيارتهم له.

وفي صدر شتاء سنة ١٩٠٧م باغتت عكاء بأمر من السلطان لجنة تحقيق أخرى مؤلفة من أربعة ضباط يرأسها عارف بيك مزودة بسلطة تامة واسعة. وقبل قدومها بأيام قلائل رأى حضرة عبد البهاء في منامه رؤيا رواها للأحباء، رأى فيها كأن سفينة قد رست بعيداً عن عكاء وكان بعض الطيور التي تشبه

أصابع الديناميت قد طارت منها وحلقت حول رأسه وهو واقف بين جمع خائف من سكان المدينة، ثم عادت إلى السفينة دون أن تنفجر.

وما كاد أعضاء هذه اللجنة ينزلون إلى البر حتى وضعوا مصلحة البرق والبريد في عكاء تحت رقابتهم المباشرة الخاصة، وصرفوا من يشك في ودادهم لحضرة عبد البهاء من رجال الحكومة صرفاً تعسفياً بمن فيهم حاكم المدينة، واتصلوا بحكومة الآستانة اتصالاً سرياً مباشراً، ونزلوا في منزل يملكه جيران ناقض الميثاق وخلصائهم المقربين، وبثوا العيون والأرصاد حول بيت حضرة عبد البهاء يمنعون أي فرد من رؤيته، وبدأوا تحقيقاً غريباً وأخذوا يستشهدون فيه بكل الذين وقّعوا من قبل على الوثائق التي أرسلت إلى الآستانة والتي أحضروها معهم من أجل التحريات، وكان من بين الموقعين المسلم والمسيحي والشرقي والغربي.

واشتد نشاط ناقضي الميثاق ولا سيما ميرزا محمد علي المبتهج الآمل، وبلغ هذا النشاط أعلى درجاته في تلك الساعة المتأزمة العصيبة. فتضاعفت الزيارات والمقابلات والدعوات والولائم في جو مشبع بالفرح والرجاء، لأن النصر بدا لهم قريباً. ودفعوا عدداً ليس بالقليل من أوشاب الناس وحثالتهم إلى الاعتقاد بأن استيلاءهم قريب على الأموال التي سوف يخلفها المطرودون وراءهم. وزادت الإهانات والوشايات زيادة ملحوظة. لا بل إن بعض الفقراء الذين طالما أعانهم حضرة عبد البهاء بإحسانه هجروه خوفاً من العواقب.

وبينما كان أعضاء اللجنة ماضين في ما عزموه من تحريات أثناء إقامتهم التي دامت قرابة الشهر بعكاء كان حضرة عبد البهاء يمتنع امتناعاً باتاً عن أن يلقى أحداً منهم أو يحتك به أدنى احتكاك رغم الوعيد المقنّع والإنذار المستور على لسان رسولهم، المسلك الذي حيّرهم كثيراً، وزاد في اشتعال عداوتهم وقوّى إصرارهم على تنفيذ خططهم الشريرة. وبالرغم من أن الشدائد والأخطار المحدقة به قد بلغت آنذاك أحلك مرحلة من مراحلها، وبالرغم من أن السفينة التي كان مفروضاً أن يركب فيها مع أعضاء اللجنة

كانت راسية على أتم الاستعداد في ميناء عكاء تارة وفي حيفا تارة أخرى. وبالرغم من أن أشنع الشائعات كانت تحوم حوله، إلا أنه احتفظ بسكينته المشرقة وبثقته الراسخة على الدوام منذ أن استؤنف حبسه، ولقد قال حينذاك لمن بقي من المؤمنين في عكاء: «** إن تأويل رؤياي التي رأيتها واضح مبين وهو أنه لن ينفجر هذا البارود بمشيئة الله».

وفي يوم جمعة ذهب أعضاء اللجنة إلى حيفا وفتشوا مقام حضرة الباب الذي كان تشييده قائماً على قدم وساق دون انقطاع ولا تعطيل على سفح الكرمل. فلما هالتهم متانته ومساحته سألوا أحد الأتباع عن عدد الأقبية التي بنيت تحت هذا البناء المشيد.

وبعد أن تم التفتيش بقليل شوهدت السفينة الراسية في حيفا ترفع أبخرها في مغرب يوم من الأيام بغتة وتقلع قاصدة عكاء. وسرعان ما شاع بين الأهلين المترقبين أن أعضاء اللجنة قد ركبوا فيها. وتوقع الناس أنها ستقف بعكاء لتأخذ حضرة عبد البهاء، ثم تمضي بعد ذلك إلى غايتها. فتسلط الهلع والقلق على آل بيته حين بلغتهم أنباء اقتراب السفينة. وبكى المؤمنون القلائل الذين بقوا حزانى على قرب فراقهم لمولاهم. وكان يرى حضرة عبد البهاء في تلك الساعة المحزنة وهو يذرع فناء بيته وحيداً صامتاً.

إلا أنه لوحظ في الغسق أن أنوار السفينة قد ترنحت بغتة وأنها قد غيرت مجراها. واتضح أنها مبحرة إلى الآستانة. وبلغت الأنباء حضرة عبد البهاء وهو ما زال يذرع الفناء في الظلام المتجمع. وأسرع بعض المؤمنين الذين وقفوا في أماكن مختلفة ليراقبوا مجرى السفينة، وأقبلوا يؤكدون البشرى. وبذلك انزاح بغتة ونهائياً خطر من أشد الأخطار التي هددت حياة حضرة عبد البهاء الغالية في ذلك اليوم التاريخي بفضل الله.

وبعد إبحار تلك السفينة السريع المفاجئ وردت الأخبار بأن قنبلة قد انفجرت في طريق السلطان أثناء عودته إلى قصره من المسجد حيث أدى فريضة الجمعة.

وبعد أيام قلائل من هذا الحادث رفعت اللجنة تقريرها ولكن السلطان وحكومته كانوا أشد انشغالاً من أن يتدبروا هذا الأمر، فطرح الموضوع جانباً. ولما عرض الموضوع مرة أخرى بعد بضعة أشهر طوي طياً سريعاً، ذلك لوقوع حادثة أبعدت سجين عكاء عن سطوة عدوه السلطان إبعاداً أبدياً. فقد اندلعت ثورة «تركيا الفتاة» اندلاعاً سريعاً حاسماً سنة ١٩٠٨م وأرغمت العاهل الكاره على تنفيذ الدستور الذي عطله، وإطلاق سراح المسجونين الدينيين والسياسيين المعتقلين بمقتضى النظام العتيق. وأرسلت برقية إلى الآستانة تستفسر عما إذا كان حضرة عبد البهاء في عداد هؤلاء المسجونين فعاد الجواب العاجل بالإيجاب.

وفي غضون بضعة أشهر في سنة ١٩٠٩م حصل حزب تركيا الفتاة من شيخ الإسلام على أمر بإدانة السلطان الذي عزل عزلاً مخزياً نتيجة لمحاولات أخرى قام بها لتعطيل الدستور، وطرد وصار سجين الدولة. وفي يوم واحد من أيام تلك السنة أعدم ما لا يقل عن واحد وثلاثين رجلاً من أكابر الوزراء والباشوات ورجال الدولة وكان من بينهم أعداءٌ أِلدّاء للأمر بل إن الإيطاليين انتزعوا من الأتراك طرابلس الغرب وهي القطر الذي كانت النية متجهة إلى نفي حضرة عبد البهاء إليه وبذلك انتهى حكم «السفاح الأكبر» [السلطان عبد الحميد] «أكثر حكام آل عثمان على مدى تاريخها الطويل إثارة للفتن وأشدهم مكراً وأعظمهم خساسة وأكثرهم خيانة» ذلك الحكم «الذي كان أشد شؤماً من خسارته المباشرة للولايات، وفي حتمية ضياع غيرها من أثرها، وأظهر في الدلالة على فساد حال شعوبه من حكم أي واحد من أسلافه الثلاثة والعشرين الفاسدين الذين سبقوه منذ مات سليمان القانوني».

دفن رفات حضرة الباب على جبل الكرمل

كان إطلاق سراح حضرة عبد البهاء المفاجئ الرائع من حبس دام أربعين سنة بمثابة الضربة القاضية على مطامع ناقض الميثاق. نعم كانت ضربة تشبه الضربة التي حطمت منذ عشر سنوات آمالهم في القضاء على سلطانه وخلعه من المقام الذي حباه به الله. والآن في غداة تحرره الظافر تنزل عليهم ضربة ثالثة موجعة كسابقتيها ولا تكاد تقل عنهما روعة وشدة. ففي غضون بضعة أشهر من ذلك القرار التاريخي القاضي بإطلاق سراحه، وفي عين السنة التي شهدت سقوط السلطان عبد الحميد تمكن حضرة عبد البهاء بفضل القوة العلوية التي مكنته من حماية حقوقه الإلٰهية، وإقامة دين والده في أمريكا الشمالية، والانتصار على عدوه السلطان، من إتمام عمل من أجلّ الأعمال التي تمت في عهده، ألا وهو تحويل رفات حضرة الباب من مخبئها في طهران إلى جبل الكرمل. ولقد صرح هو نفسه أكثر من مرة بأن تحويل تلك الرفات في أمان، وتشييد مقام مناسب يستقبلها ويضمها، وإيداعها التراب على يديه في مقرها الأخير هو غرض من الأغراض الثلاثة الأساسية التي أدرك منذ بداية رسالته أنها أعظم واجباته، والواقع أن هذا العمل جدير بأن يعدّ من أبرز حوادث القرن البهائي الأول.

وقد لاحظنا في فصل سابق كيف نقلت أشلاء حضرة الباب المختلطة بأشلاء ميرزا محمد علي رفيقه في الشهادة في منتصف الليلة التالية لمقتلهما من حافة الخندق الذي ألقيت بجانبه إلى مصنع للحرير يملكه أحد أحباء ميلان وذلك بفضل تدخل الحاج سليمان خان الورع، وكيف وضعت بتابوت خشبي في اليوم التالي ومن ثم حملت إلى حرز أمين. ثم لاحظنا كيف نقلت

إلى طهران إطاعة لتعليمات حضرة بهاء الله، ووضعت في ضريح إمام زاده حسن. ثم نقلت فيما بعد إلى مسكن الحاج سليمان خان نفسه في حي سرچشمه من أحياء المدينة، ومن منزله أخذت إلى ضريح إمام زاده معصوم حيث ظلت مخبأة حتى سنة ١٢٨٤ للهجرة (١٨٦٧ ـ ١٨٦٨م) حين أنزل حضرة بهاء الله في أدرنة لوحاً وجّه به المُلاّ علي أكبر الشهميرزادي وجمال البروجردي إلى نقلها دون تأخير إلى بقعة أخرى، وهو توجيه ثبت أنه من لدن العناية الربانية بالنظر إلى ما حدث بعد ذلك من تعمير ذلك الضريح.

ولما عجز المُلاّ علي أكبر وصاحبه عن العثور على مكان ملائم في ضاحية شاه عبد العظيم، مضيا في بحثهما حتى عثرا في الطريق المؤدية إلى چشمه علي على مسجد ماشاء الله المهجور المتهدّم، فأودعا حملهما النفيس أحد جدرانه بعد الغروب، بعد أن لفّاه من جديد في كفن حريري أحضراه لذلك الغرض. وانخلع قلبهما من الرعب في اليوم التالي حين وجدا أن المخبأ قد اكتشف، فحملا التابوت خلسة من باب العاصمة إلى منزل الحبيب ميرزا حسن وزير زوج ابنة الحاج ميرزا سيد علي التفريشي مجد الأشراف حيث بقيت ما لا يقل عن أربعة عشر شهراً. فلما عرف الأحباء مكانها بعد طول كتمانه بدأوا يقبلون على المنزل في جماعات كبيرة دعت المُلاّ علي أكبر إلى أن يرفع إلى حضرة بهاء الله رسالة يسأله فيها التوجيه الصائب في الأمر. لهذا كلف الحاج شاه محمد المنشادي الملقب بأمين البيان أن يتسلم الوديعة منه، وأمره بأن يراعي السرية التامة في الاحتفاظ بها.

فدفن الحاج شاه محمد التابوت بمساعدة حبيب آخر تحت أرض الحرم الداخلي لمقام إمام زاده زيد، فبقيت هناك لا يفطن إليها أحد حتى عرف ميرزا أسد الله الإصفهاني بموضعها المضبوط من مصدر أرسله حضرة بهاء الله إليه، وأمره بأن يخفيها في مكان آخر فحول الرفات بادئ الأمر إلى منزله بطهران ثم حولت بعد ذلك إلى عدة أماكن أخرى كمنزل حسين علي الإصفهاني ومنزل محمد كريم العطار حيث ظلت مخبّأة إلى سنة ١٣١٦ هـ

(١٨٩٩ م) وفي هذه السنة نقلها ميرزا أسد الله هذا هو وعدد من الأحباء الآخرين عن طريق إصفهان وكرمانشاه وبغداد ودمشق إلى بيروت إطاعة لتوجيهات حضرة عبد البهاء ومن ثم نقلت بالبحر إلى عكاء وبلغت غايتها في اليوم التاسع عشر من شهر رمضان سنة ١٣١٦ للهجرة (المصادف للواحد والثلاثين من كانون الثاني سنة ١٨٩٩م) أي بعد خمسين سنة قمرية من استشهاد حضرة الباب في تبريز.

وفي تلك السنة التي بلغت فيها الوديعة الثمينة شواطئ الأرض المقدسة، وسلّمت إلى يدي حضرة عبد البهاء ركب هو والدكتور إبراهيم خير الله الذي شرفه بتلقيبه إياه بـ«بطرس البهاء» و«كولمبس الثاني» و«فاتح أمريكا» انطلقا إلى الموقع الذي باركه حضرة بهاء الله واختاره على جبل الكرمل والذي اشتري أخيراً، وهناك وضع بيده الحجر الأساسي للبناء الذي بدأ تشييده بعد بضعة أشهر. وفي هذه الأثناء تم صنع التابوت المرمري لاستقبال جثمان حضرة الباب، وكان ذلك بناء على توصية حضرة عبد البهاء، وهو هدية صدرت عن محبة البهائيين في رانجون، وأرسلت بالباخرة إلى حيفا.

ولا حاجة بنا إلى إطالة الوقوف عند المشاكل والهواجس المتشابكة التي كانت تزعج حضرة عبد البهاء عشر سنوات تقريباً إلى أن حانت الساعة الظافرة التي استطاع فيها أن ينتهي من العمل التاريخي الذي عهد به إليه والده. فما كانت المخاطر والأهوال التي جابهت حضرة بهاء الله ثم ابنه حضرة عبد البهاء، وهما يبذلان الجهود المستمرة لحماية تلك الرفات خلال نصف قرن، إلاّ مقدمة لأخطار جسام أخذت تجابه مركز الميثاق نفسه في فترة متأخرة أثناء تشييده المقام المعد لاستقبالها وظلت تجابهه في الواقع حتى ساعة خلاصه النهائي من الحبس.

ومن بين العقبات الأساسية التي كان عليه في هذه الفترة العصيبة من عهده أن يواجهها ويتغلّب عليها قبل أن ينفذ كل الخطة التي أفضى له بمعالمها حضرة بهاء الله في إحدى زياراته لجبل الكرمل هي إنهاء المفاوضات

المديدة مع صاحب البقعة التي أشار إليها حضرة بهاء الله لبناء المقام الأعلى. فقد كان متخوفاً من دهائه فرفض مدة طويلة أن يبيعها وذلك بتأثير ناقض العهد، ومنها أن يصل إلى شيء معقول من الثمن الباهظ الذي طلب أول الأمر مقابل شقه طريقاً يؤدي إلى تلك البقعة وهو طريق كان لا بد منه لعملية البناء، ومنها أن يجيب على الاعتراضات اللانهائية التي طفق يعترض بها رجال الحكومة من رفيعهم إلى وضيعهم. وكان على حضرة عبد البهاء أن يبدد شكوكهم السريعة بالتأكيدات المتكررة والشروح المعادة، ومنها أن يدبّر الموقف الخطر الذي نتج عن اتهامات ميرزا محمد علي وخلطائه الرهيبة فيما يختص بطبيعة ذلك البناء والغاية منه، ومنها التعطيلات والتعقيدات التي سببها غياب حضرة عبد البهاء عن حيفا ذلك الغياب القسري الطويل، وما نشأ عن ذلك من عدم تمكنه من الإشراف بشخصه على العمل الضخم الذي بدأ به.

وكثيراً ما سمعه أصحابه وهو يقول: «** رفعت كل حجر في ذلك البناء وكل حجر في تلك الطريق بدموع لا نهاية لها وجهد لا حد له ووضعته في مكانه». وروى شاهد عيان أنه قال: «** ذات ليلة غرقت في مخاوفي حتى لم يعد لي من عون إلا أن أتلو مراراً وتكراراً دعاء لحضرة الباب كان بحوزتي فأنزلت تلاوته السكينة والاطمئنان على قلبي. وفي صباح اليوم التالي أقبل عليّ صاحب البقعة واعتذر ورجاني أن أشتريها».

وأخيراً في السنة التي ثل فيها عرش خصمه السلطان، وفي الوقت الذي انعقد فيه المؤتمر البهائي الأمريكي الأول في شيكاغو لتشكيل هيئة مركزية دائمة لتشييد مشرق الأذكار، انتهى حضرة عبد البهاء من مهمته انتهاء ناجحاً رغم مكائد الأعداء المستمرة من الداخل والخارج. وفي الثامن والعشرين من صفر سنة ١٣٢٧ للهجرة (سنة ١٩٠٩ م) المصادف لأول نيروز احتفل به بعد خلاصه من الحبس، أمر حضرة عبد البهاء بنقل التابوت المرمري بجهد فائق إلى القبو المعد له، وفي المساء وضع فيه بيديه التابوت الخشبي الحاوي لرفات حضرة الباب المقدسة ورفات رفيقه، ولقد تم ذلك في ضوء قنديل

واحد وعلى مشهد من أحباء الشرق والغرب في احتفال جليل محرّك للمشاعر والوجدان.

فلما انتهى كل شيء وأودعت بعد أمد طويل رفات المظهر الإلهي الشيرازي الشهيد مقرها الأخير في صدر جبل الله المقدس خلع حضرة عبد البهاء عمامته، وخلع نعليه، ونزع عباءته وركع بين يدي التابوت وكان ما زال مفتوحاً، وشعره الفضي يتماوج حول رأسه وأسارير وجهه تتألق بالبشر، ثم استراح بجبينه على حافة التابوت الخشبي، وشهق شهيقاً عالياً ثم بكى بكاء أبكى من كان حوله. ولم يستطع أن ينام ليلته تلك، فقد جرفته الأحاسيس وعصفت به المشاعر.

ولقد كتب في أحد ألواحه يزف إلى أتباعه بشرى ذلك النصر المجيد قائلاً: «* إنّما البشارة الكبرى هي أن هيكل حضرة الأعلى المظهر المنور المقدس روحي له الفداء قد استقر بفضل الجمال الأبهى في يوم النيروز بتمام الاحتفال وكمال الإجلال والجمال على جبل الكرمل في المقام الأعلى في الصندوق المقدس بعد أن ظل ينتقل من مكان إلى مكان ستين عاماً لتسلط الأعداء والخوف من أهل البغضاء... ومن عجيب الصدف أن تصل برقية من شيكاغو في يوم النيروز نفسه تفيد بأن أحباء أمريكا انتخبوا عن كل مدينة وكيلاً وبعثوه إلى شيكاغو... وعينوا موقع مشرق الأذكار وكيفية بنيانه».

بتحويل رفات حضرة الباب الذي مجيئه هو عودة النبي إيليا إلى جبل الكرمل، ودفنها في ذلك الجبل المقدس غير بعيد عن كهف ذلك النبي نفسه، نفذت أخيراً تلك الخطة التي صورها حضرة بهاء الله في مغرب حياته تصويراً مجيداً، وتتوجت الجهود المضنية التي بذلت في السنوات العاصفة الأولى من عهد مركز الميثاق بتاج النجاح الخالد. فأقيم بذلك على الجبل الذي تقدس منذ الزمان الأول، مركز للإشراق والقوة الإلهية. أكّد حضرة عبد البهاء بأن ترابه ألهمه وهو مركز لا يخضع في قداسته في طول العالم البهائي وعرضه لحرم آخر سوى حرم مؤسس الظهور البهائي نفسه.

أجل لقد قام الآن مقام حضرة الباب بجهد جهيد وبأس شديد «بقعة مطهرة مقدسة عليا ومحط رجال الملأ الأعلى» في بناء متين بسيط مهيب يربض على قلب الكرمل «كرم الله» يحف به كهف إيليا من الغرب وتلال الجليل من الشرق وسهل شارون من خلفه ومدينة عكاء الفضية في قبالته وعن ورائها الروضة المباركة قلب العالم البهائي وقبلته، ويشرف على مستعمرة فرسان الهيكل الألمان[1] الذين هجروا أوطانهم انتظاراً «لمجيء الرب» واجتمعوا عند سفح ذلك الجبل في نفس السنة التي أعلن فيها حضرة بهاء الله رسالته في بغداد (سنة ١٨٦٣ م). وقد أظهرت الحوادث أنه كان من المقدر لهذا الحرم أن يفوز على مر الزمن بقسط من الشهرة والمجد يناسب الغاية السامية التي أوجبت تشييده، وذلك بتوسيع البنيان نفسه وبتجميل ما حوله، وشراء أوقاف شاسعة فيما يجاوره، ومجاورته لرمس حرم حضرة بهاء الله وابنه وابنته. ولن يكف هذا الحرم عن إظهار الإمكانيات الكامنة التي حبته بها تلك الغاية الثابتة السامية نفسها عندما تتأسّس في الأعوام القادمة مؤسسات المركز الإداري العالمي للجامعة البهائية العالمية، ولسوف تزدهر هذه المؤسسة البهائية باطراد مهما أبدى أعداء المستقبل من حقد وبغضاء حتى ينكشف بهاؤها الكامل أمام أعين الجنس البشري.

ولقد خاطب حضرة بهاء الله ذلك الجبل المقدس بقوله: «يا كرمل! انزلي بما أقبل إليك وجه الله مالك ملكوت الأسماء... طوبى لك بما جعلك الله في هذا اليوم مقر عرشه ومطلع آياته ومشرق بيّناته. طوبى لعبد طاف حولك وذكر ظهورك وبروزك وما فزت به من فضل الله ربك». وكذلك أنزل في اللوح نفسه قوله: «يا كرمل بشّري صهيون! قولي أتى المكنون بسلطان غلب العالم وبنور ساطع به أشرقت الأرض ومن عليها. إياك أن تكوني متوقّفاً في مقامك. أسرعي ثم طوفي مدينة الله التي نزّلت من السماء وكعبة الله التي كانت مطاف المقربين والمخلصين والملائكة العالين».

---

(١) Colony of German Templars

رحلات حضرة عبد البهاء في أوروبا وأمريكا

لاحظنا في الصفحات السالفة أن تأسيس الدين البهائي في نصف الكرة الغربي، هذا الفتح البارز الذي سيظل إلى الأبد مقترناً بعهد حضرة عبد البهاء، قد أطلق من القوة الهائلة وأنتج من النتائج البعيدة الأثر، ما استدعى اشتراك مركز الميثاق بنفسه اشتراكاً ناشطاً في تلك الفعاليات التاريخية التي بدأها حواريّو حضرة بهاء الله في الغرب ومضوا في تنفيذها بحرارة وإقدام مستفيضين من قوة الميثاق الدافعة.

قضت العناية الإلٰهية على الأزمة التي أحدثها ضلال الناقضين وعماهم، والتي عطلت حضرة عبد البهاء سنوات عدة تعطيلاً محزناً عن تحقيق أهدافه. فانزاحت بذلك عقبة كأداء من طريقه، وحطمت أغلاله، كما نزل غضب الله المنتقم الجبار فأخذ الأغلال من عنقه ووضعها في عنق السلطان عبد الحميد عدوه الذي غرّه ألدّ أعداء حضرة عبد البهاء. هذا إلى أنه فرغ من نقل رفات حضرة الباب المقدسة وهي المهمة التي عهد بها إليه والده الراحل، فنقلت بصعوبة شديدة من مخبئها في طهران القصية إلى الأرض المقدسة. ووضعها بإجلال واحتفال في قلب جبل الكرمل.

كانت صحة حضرة عبد البهاء قد تدهورت في ذلك الحين لعظم ما قاسى من الشدائد والضغوط طيلة حياة محزنة معظمها في السجن والمنفى والتي تسبّبت له في عدة أمراض. وكان آنذاك على أبواب السبعين، إلا أنه ما كاد يتحرر من أسر أربعين سنة، ويضع رفات حضرة الباب في المرقد الأمين الدائم، ويتحرر من المخاوف الخطيرة المتصلة بإنجاز هذه المهمة الغالية

حتى نهض في شجاعة سامية وثقة وعزم ليكرس ما بقي لديه من قوة في مغرب حياته للقيام بخدمة مجيدة لا شبيه لمجدها في تاريخ القرن البهائي الأول.

ولقد دامت رحلاته ثلاث سنوات إلى مصر أولاً ثم إلى أوروبا وأمريكا بعد ذلك، والواقع أننا لو قدرنا أهميتها التاريخية حق قدرها لوجدنا أنها تشير إلى تحول على أعظم جانب من الأهمية في مجرى تاريخ القرن. فلأول مرة منذ تأسيس الأمر المبارك وبعد مرور ست وستين سنة، استطاع مركز الدين الأعلى أن يحطم الأغلال التي قيّدت حرية الأمر المبارك طوال عهدي حضرة الباب وحضرة بهاء الله تقييداً مرهقاً. وبالرغم من أن التدابير القاسية كانت تحد من نشاط الأغلبية الساحقة من أتباعه في موطنه، إلا أن قائده المختار قد حصل الآن على حرية في العمل مضى يتمتع بها إلى آخر حياته، هذا إذا استثنينا فترة وجيزة في غضون حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨م، وهي حرية لم تحرم منها هيئات الأمر المبارك في مركزه العالمي بعد ذلك قط.

نعم إن انطلاق مثل هذا النشاط أمر عجب له أتباعه في الشرق والغرب وأعجبوا به، وهو أمر يطبع التاريخ المقبل بطابعه الخالد، لذلك فهو أمر يعدّ تغييراً خطيراً في مصير الأمر المبارك. ولا ينبغي أن يغيب عن الأذهان أن حضرة عبد البهاء دخل السجن، كما صرّح بذلك، يافعاً وغادره شيخاً، وهو لم يقف في حياته أمام اجتماع عام يستمع إليه، ولم يدرس في مدرسة كما أنه لم يختلط بالأوساط الغربية حتى يعرف عادات الغرب ولغة الغرب، ومع كل ذلك قام لا ليعلن من المنبر والمنصة في عواصم أوروبا المهمة وفي أمهات مدن أمريكا الشمالية الحقائق المميزة المودعة في دين والده فحسب، بل ليوضح أيضاً الأصول الإلهية لمن سبق والده من مظاهر أمر الله، ويبين الصلة التي تربطهم بذلك الدين.

أما وقد عزم عزماً لا راد له على أن يقوم بهذه الرحلة المضنية مهما كلفته قواه، ومهما عرضت حياته للخطر، فقد أبحر إلى مصر بهدوء وبلا

سابق إنذار في عصر يوم من أيام أيلول سنة ١٩١٠م وهي السنة التي تلت سقوط السلطان عبد الحميد ودفن رفات حضرة الباب على جبل الكرمل، وأقام في بور سعيد قرابة الشهر، ومنها أبحر قاصداً أوروبا إلا أنه وجد أن حالته الصحية تقتضي عودته. فعاد إلى الإسكندرية وأجّل رحلته. فأقام بالرملة من ضواحي الإسكندرية وزار بعد ذلك الزيتون والقاهرة، وفي ١١ آب من السنة التالية أبحر مع أربعة أشخاص على ظهر الباخرة كورسيكا إلى مارسيليا، وتقدم من بعد استراحة قصيرة في ثونون ـ لي ـ بان إلى لندن فبلغها في ٤ أيلول سنة ١٩١١م. وبعد زيارة دامت قرابة الشهر ذهب إلى باريس حيث قضى تسعة أسابيع، ثم عاد إلى مصر في كانون الأول سنة ١٩١١م. فأقام بالرملة مرة أخرى حيث قضى الشتاء، وقام برحلته الثانية إلى الغرب على الباخرة سدريك[١] في ٢٥ آذار سنة ١٩١٢م مبحراً إلى نيويورك مباشرة عن طريق نابولي فبلغها في ١١ نيسان. وفي أمريكا قام برحلة طويلة دامت ثمانية أشهر انتقل فيها من الشاطئ إلى الشاطئ وزار خلالها واشنطن وشيكاغو وكليفلاند وبتسبرغ ومونت كلير وبوسطن وروشستر وبروكلين وفانوود وملفورد وفيلادلفيا وإنجلوود الغربية وجرسي سيتي وكمبردج ومدفورد وموريس تاون ودبلين وعكاء الخضراء ومنتريال ومالدن وبفالو وكينوشا ومينيابوليس وسانت بول وأوماها ولنكولن ودنفر وينابيع جلنوود وسولت ليك سيتي وسان فرانسيسكو وأوكلاند وبالو آلتو وبركلي وباسادينا ولوس أنجلس وسكرامنتو وسنسناتي وبلتيمور وأخيراً في ٥ كانون الأول أبحر على ظهر الباخرة سلتك[٢] من نيويورك إلى ليفربول، ولما نزل إلى البر هناك تقدم بالقطار إلى لندن. وبعد ذلك زار أكسفورد وإدنبرا وبريستول ومن ثم عاد إلى لندن. وسافر إلى باريس في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩١٣م وفي ٣٠ آذار سافر إلى شتوتغارت ومن هناك تقدم في ٩ نيسان إلى بودابست، وزار فيينا بعد تسعة أيام ورجع إلى شتوتغارت في ٢٥ نيسان ثم عاد إلى باريس في أول أيار حيث

(١) Cedric
(٢) S.S Celtic

مكث إلى ١٢ حزيران وأبحر في اليوم التالي على ظهر الباخرة هيمالايا[١] التي اتجهت من مرسيليا إلى مصر، فبلغت بور سعيد بعد أربعة أيام أخرى. فزار الإسماعيلية وأبا قير زيارات قصيرة وأقام في الرملة إقامة طويلة ثم عاد إلى حيفا منتهياً من سفراته التاريخية في ٥ كانون الأول سنة ١٩١٣م.

وفي تلك السفرات وأمام جماهير كبيرة فاقت الألف نفس في بعض الأحيان ومثلت الناس من مختلف الأجناس والأديان والطبقات، شرح حضرة عبد البهاء لأول مرة في عهده ببساطة مشرقة وإقناع وقوة المبادئ الأساسية المميزة لدين والده، وهي المبادئ التي تؤلف مع الشريعة والأحكام النازلة في الكتاب الأقدس صلب أحدث ظهور إلٰهي للجنس البشري. وكان من أبرز العناصر الجوهرية للنظام الإلٰهي الذي أعلنه لقادة الرأي العام وإلى الجماهير على السواء في أثناء سفراته التبليغية، التحري عن الحقيقة تحرياً مستقلاً دون تقيد بالخرافات ولا بالتقاليد، ووحدة الجنس البشري قطب مبادئ الدين وأساس معتقداته والوحدة الكامنة وراء جميع الأديان، والتبرؤ من كل ألوان التعصب الجنسي والديني والطبقي والقومي، والوئام الذي يجب أن يسود بين الدين والعلم، والمساواة بين الرجل والمرأة فهما الجناحان اللذان يعلو بهما طائر الجنس البشري، ووجوب التعليم الإجباري، والاتفاق على لغة عالمية إضافية، والقضاء على الغنى الفاحش والفقر المدقع، وتأسيس محكمة عالمية لفض النزاع بين الأمم، والسمو بالعمل الذي يقوم به صاحبه بروح الخدمة إلى منزلة العبادة، وتمجيد العدل على أنه المبدأ المسيطر على المجتمع الإنساني، والثناء على الدين كحصن لحماية كل الشعوب والأمم، وإقرار السلام الدائم العام كأسمى هدف للبشرية. وقد عزز عرض هذه الحقائق الحيوية التي وصفها بـ«روح العصر» بتحذيرات جسيمة مكررة باندلاع نار داهمة تلتهم أوروبا إن لم ينجح السياسيون في تلافيها، كما تنبّأ أثناء سفراته بالتطورات الجوهرية التي سوف تحدث في تلك القارة، ونبّه على الانحلال

(١) S.S Himalaya

الذي لا بد أن يسري في القوة السياسية، وأشار إلى القلاقل التي سوف تداهم تركيا، وتنبأ باضطهاد اليهود في أوروبا، وأكد تأكيداً قاطعاً بأن «* علم اتحاد الجنس البشري سوف يخفق وخيمة السّلام العالمي سوف ترتفع فيصبح العالم عالماً آخر».

وفي أثناء هذه الرحلات أظهر حضرة عبد البهاء من الحيوية والإقدام والإخلاص وتكريس الذات للواجب الذي فرضه على نفسه ما أثار الإعجاب والعجب لدى أولئك الذين امتازوا بمشاهدة أعماله اليومية عن قرب. أجل فلقد قضى حضرة عبد البهاء، وهو المظهر لكل فضيلة بهائية والنموذج لكل مثل أعلى بهائي، ثلاثة أعوام مزدحمة ينفخ في الصور لعالم غرق في المادية ودخل في ظل الحرب، ويصرح بالحقائق الإلٓهية الشافية والمخزونة في تنزيل والده غير مكترث للمناظر الخلابة والملاهي التي تجذب انتباه السائحين عادة والتي تاق مرافقوه إلى رؤيتها، غير مهتم براحته أو صحته، باذلاً كل ذرة من قوته من الفجر إلى ساعة متأخرة من الليل يوماً بعد يوم مصراً على رفض أية هدية أو تقدمة تتعلق بنفقات رحلاته، ثابتاً في رعايته للمريض والمحزون والبائس، راسخاً لا يقبل المساومة في دفاعه عن الأجناس المظلومة والطبقات المحرومة، مباركاً كالمطر في سخائه للفقير، محتقراً للهجمات التي يشنها عليه أقطاب المتعصبين الساهرين من رجال الدين وأصحاب الأهواء، عجيباً في صراحته حين يبيّن لليهود من المنبر والمنصة صحة نبوة السيد المسيح، وحين يوضّح في الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية أصل الإسلام الإلٓهي، وحين يقيم الدليل للماديين والملحدين واللا-أدريّين على صدق الظهور الإلٓهي وضرورة الدين، جلياً ناصعاً في بيانه حين يمجّد حضرة بهاء الله في كل الأحوال وفي معابد الملل المختلفة والنحل المتباينة، باتاً في رفضه مرات عدة أن يتملق لذوي الألقاب والثروة في إنجلترا أو في الولايات المتحدة. وأخيراً وليس آخراً، فائقاً لا قرين له في محبته ورأفته الفطرية الأصيلة الحارة للحبيب والغريب، للمؤمن وغير المؤمن، للغني والفقير، للرفيع والوضيع، لكل من لقيه لقاء خاصاً أو لقاء عابراً سواء أكان ذلك على

ظهر السفينة أم أثناء سيره في الطرقات أم في الميادين العامة والمتنزّهات أم في الاحتفالات أم في الولائم أم في الأكواخ أم في القصور أم في اجتماعات أتباعه أم في مجامع المثقفين.

وفي أثناء زيارته لمصر لقي الخديوي عباس حلمي باشا الثاني غير مرة، وعرّف للورد كتشنر[١] وألتقى بالشيخ محمد بخيت المفتي وبالشيخ محمد رشيد إمام الخديوي، واتصل بكثير من العلماء والباشوات، وأقطاب الإيرانيين، وعدد من أعضاء البرلمان التركي، ومحرري أمهات الصحف في القاهرة والإسكندرية وغيرهم من أقطاب الهيئات الدينية والدنيوية الشهيرة وممثليها.

وأثناء إقامته في إنجلترا كان المنزل الذي وضع تحت تصرفه في حدائق كادوجان[٢]كعبة حقيقية يؤمها كل ألوان الناس وأنواعهم ليزوروا سجين عكاء الذي اختار مدينتهم العظيمة كأول ساحة لجهوده في الغرب. ولقد شهدت مضيفته المخلصة أثناء إقامته في لندن فقالت: «آه لهؤلاء الزائرين والضيوف والحجاج! إن آذاننا لتمتلئ بوقع أقدامهم، إذا ما نحن تذكرنا تلك الأيام، وهم مقبلين من كل بلاد العالم، يتدفق في كل يوم، وطوال كل يوم، تيار مستمر، ومشهد متصل! وزراء وسفراء ومستشرقون ومهتمون بالسحر والتنجيم ورجال أعمال ومتصوفون وأنجليكان وكاثوليك وأتباع المذاهب البروتستانتية المنشقة عن الكنيسة الأنجليكانية[٣] وثيوصوفيون[٤] وهندوس وعلماء مسيحيون[٥] وأطباء ومسلمون وبوذيون وزرادشتيون، وأقبل كذلك السياسيون، وجنود جيش الخلاص[٦]، وآخرون من العاملين لصالح الجنس البشري، والمطالبات بحق الانتخاب والصحفيون والكتاب والشعراء والذين لهم خاصية الشفاء والخياطون وكرائم السيدات والفنانون والصناع والفقراء المتعطلون والتجار

---

(١) Lord Kitchener

(٢) Cadogan Gardens

(٣) Anglicans

(٤) Theosophists

(٥) Christian Scientists

(٦) Salvation Army Soldiers

والأثرياء، ورجال المرسح والموسيقى ـ أقبل هؤلاء جميعاً وكان كل واحد منهم بلا استثناء يتلقى البركة والعطف من ذلك المنادي الإلٰهي الذي كان يهب روحه لصالح الآخرين».

ولقد وقف حضرة عبدالبهاء أول ما وقف أمام حشد غربي من المستمعين في ظروف لها مغزاها، فقد وقف في بيت عبادة مسيحي في العاشر من أيلول سنة ١٩١١م وخطب في جمهور غفير على أعواد منبر سيتي تمبل(١). فبعد أن قدمه الراعي نيافة ر. ج كامبل(٢) أعلن للجمهور وحدانية الله بعبارات بسيطة محركة للمشاعر وفي صوت نابض بالحياة، وأكد وحدة الأديان الأساسية ونبه على أن ساعة اتحاد أبناء البشر وكل الأجناس والأديان والطبقات قد دقت، ثم خطب مرة أخرى في السابع عشر من أيلول، تلبية لطلب الأرشديكون المبجل ولبرفورس(٣)، أمام حشد كنيسة يوحنا اللاهوتي بـ وست منستر(٤) بعد صلاة المغرب واختار أن يتكلم عن عظمة الله الفائقة كما يؤكدها حضرة بهاء الله ويوضحها في كتاب الإيقان. وكتب من شهد هذه المناسبة فقال: «أمر الأرشديكون بكرسي الأسقف فوضعه لضيفه على درجات المحراب، ووقف بجانبه وقرأ ترجمة خطاب حضرة عبدالبهاء بنفسه. فتأثر الجمع تأثيراً عميقاً، واقتدوا بما فعل الأرشديكون فركعوا ليتلقوا بركة خادم الله الذي وقف مبسوط الذراعين، وصوته العجيب يعلو ويهبط في السكون وهو يتلو مناجاته بقوة».

وبدعوة من عمدة لندن تناول حضرة عبدالبهاء الإفطار في مانشن هاوس(٥) وخطب في الجمعية الثيوصوفية في مقرها تلبية لرجاء الرئيس الخاص. كما خطب في اجتماع عقدته هيئة الأفكار العليا(٦) في لندن، كما

---

(١) City Temple
(٢) Reverend R.J. Campbell
(٣) Venerable Archdeacon Wilberforce
(٤) St. John The Divine at Westminister
(٥) Mansion House
(٦) Higher Thought Center

دعاه وفد من جمعية برامو سوماج[١] إلى أن يلقي محاضرة تحت رعايتها، وزار مسجد وُكِنج[٢] تلبية لدعوة الجالية الإسلامية في بريطانيا العظمى وألقى فيه خطبته عن وحدة العالم ورحب به الأمراء الإيرانيون والنبلاء والوزراء السابقون وأعضاء المفوضية الإيرانية في لندن واستضافوه، وأقام ضيفاً عند الدكتور ت .ك. تشايين[٣] في أكسفورد، وخطب في «جمع غفير مهتم اهتماماً عظيماً»، مثقف ثقافة عالية اجتمع له في كلية مانشستر بتلك المدينة وأشرف على الاجتماع الدكتور إيستلين كاربنتر[٤]، كما تكلم أيضاً من منبر الكنيسة الجماعية[٥] في الضاحية الشرقية من لندن تلبية لطلب راعيها وخطب في جماعات اجتمعت له في قاعة كاكستون[٦] وقاعة وست منستر التي اجتمع فيها الناس تحت إشراف السير توماس بيركلي[٧]، وشاهد في بيت الكنيسة بوست منستر رواية «القلب المتلهف»[٨] وهي رواية من روايات عيد رأس السنة وكانت أول رواية مرسحيّة يشهدها، ولقد حرك مشاعره وصفها الرائع لحياة السيد المسيح وآلامه تحريكاً أشرف به على البكاء. وفي قاعة مؤسسة باسمور إدواردز الخيرية[٩] في ميدان تافيستوك[١٠] خطب في جمهور يبلغ عدده الأربعمائة والستين من مختلف الطبقات والمشارب، ويشرف عليهم الأستاذ مايكل سادلر[١١]، وزار عدداً من النساء العاملات في تلك المؤسسة كُنَّ في عطلة في فانرز[١٢] في بايفليت[١٣] وهي على بعد عشرين ميلاً من لندن تقريباً،

---

(١) Bramo-Somaj Society
(٢) Woking
(٣) Dr. T.K. Cheyne
(٤) Dr. Estlin Carpenter
(٥) Congregational Church
(٦) Caxton Hall
(٧) Thomas Berkeley
(٨) Eager Heart
(٩) Passmore Edwards Settlement
(١٠) Tavistock Place
(١١) Prof. Michael Sadler
(١٢) Vanners
(١٣) Byfleet

وزار هذا المكان مرة أخرى، والتقى في هذه المرة بخليط من كل لون اجتمع خصيصاً لرؤيته، وكان من بينه رجال الدين من عدة ملل وناظر مدرسة خاصة للبنين، وعضو من أعضاء البرلمان وطبيب وكاتب سياسي شهير وعميد الجامعة وعدّة صحافيّين وشاعر معروف وقاض من قضاة لندن، وكتب مسجل زيارته لإنجلترا يصف تلك المناسبة فقال: «سوف يذكر الناس حضرة عبد البهاء طويلاً وهو جالس في الغرفة أمام النافذة (في شعاع الشمس عند الزوال) ومحتضن صبياً كان قد أتاه لكي يطلب نصف شلن لمساعدة والدته المريضة، وإذا بالصبي في حالة من السعادة رغم رثاثة ثيابه وبؤس حاله، ومحاط بجمع من الرجال والنساء يبحثون عن أمور التربية والاشتراكية واللائحة الأولى للإصلاح[١] وعلاقة الغواصات والبرق اللاسلكي بالعصر الجديد الذي يدخله الجنس البشري».

ومن بين الذين زاروه أثناء تلك الأيام الخالدة التي قضاها في إنجلترا وسكوتلندا الأرشديكون المبجل ولبرفورس ونيافة ر. ج. كامبل، ونيافة روندا ويليامز[٢] ونيافة رولند كوربت[٣]، واللورد لامنجتون[٤] والسير رتشارد والليدي ستابلي[٥] والسير مايكل سادلر وجلال الدولة ابن ظل السلطان والسير أمير علي مهراجا جلاور[٦] المرحوم الذي زاره كثيراً ودعاه لوليمة عشاء فخمة وأقام حفلة استقبال تشريفاً له، ومهراجا راجبوتانا[٧]، وراني ساراواك[٨] وأميرة كارادجا[٩] والبارونة بارنيكوف[١٠] والليدي وايميس[١١]

---

(١) Reform Bill
(٢) Reverend Rhonddha Williams
(٣) Reverend Roland Corbet
(٤) Lord Lamington
(٥) Sir Richard and Lady Stapley
(٦) Mahraja of Jalawar
(٧) Mahraja of Rajputana
(٨) Ranee of Sarawak
(٩) Princess Karadja
(١٠) Baroness Barnekov
(١١) Lady Weimyss

وأختها، والليدي جلنكومر[١] والليدي أجنيو[٢] والآنسة كانستانس مود[٣] والأستاذ أ. ج. براون[٤] والأستاذ باتريك جيديس[٥] والسيد ألبرت داوسن[٦] محرّر رابطة الشعوب المسيحية، والسيد دايفيد جراهام بول[٧] والسيدة آني بسانت[٨] والسيدة بانكهرست[٩] والسيد ستيد[١٠] الذي كان له مع حضرة عبد البهاء أحاديث طويلة حارة. ولقد كتبت المضيفة تصف الانطباع الذي تلقاه أولئك الذين فازوا بلقائه لقاء خاصاً، فقالت: «كان الملتمسون لهذه التجربة الفذة كثيرين جداً. ولم يكن هؤلاء يدركون لأية درجة كانت هذه التجربة فذّة إلا عندما يمثلون بين يدي المولى. ونستطيع أن ندرك ذلك عندما ننظر إلى عيونهم وهم خارجون من عنده فنجد فيها نظرة ملؤها الذهول والإعجاب والسرور الهادئ. وفي بعض الأحيان كنا نحس أنهم يتردّدون في العودة إلى عالمهم الدنيوي، وكأنهم يريدون التشبث بتلك الحالة من النشوة الرّوحية التي باتوا يخشون أن يفقدوها نتيجة احتكاكهم بالشؤون الدنيوية».

وقد لخصت الراوية السالفة الذكر نتائج تلك الزيارة الخالدة فقالت: «بقي التأثير العميق ماثلاً في أذهان الرجال وخواطر النساء على اختلافهم... ولقد قدر الناس إقامة حضرة عبد البهاء في لندن أيما تقدير، وأسفوا على رحيله أيما أسف. فقد خلف وراءه كثيرين وكثيرين جداً من الأصدقاء، ذلك لأن محبته أشعلت المحبة، ولأن قلبه قد انفتح للغرب كما التفت قلوب الغرب حول هذا الهيكل الجليل العظيم القادم من الشرق. كان في كلماته شيء لا يهز قلوب مستمعيه وحدهم بل يهز قلوب جميع الرجال والنساء عامة».

---

(١) Lady Glencomer
(٢) Lady Agnew
(٣) Miss Constance Maud
(٤) Prof. E. G. Browne
(٥) Prof. Patrick Geddes
(٦) Mr. Albert Dawson
(٧) Mr. David Graham Pole
(٨) Mrs. Annie Besant
(٩) Mrs. Pankhurst
(١٠) Mr. Stead

وفي باريس شغل بعض الوقت مسكناً يقع في شارع كاميون[١]، ولقد امتازت زياراته لها بحرارة استقبال لا تقل روعة عن تلك التي استقبله بها أصدقاؤه وأتباعه في لندن، ولقد كتبت الليدي بلومفيلد[٢] المضيفة الإنجليزية المخلصة التي تبعته إلى تلك المدينة فقالت: «كانت الحال أثناء زيارة باريس كما كانت أثناء زيارة لندن، فالحوادث اليومية تصطبغ بالصبغة الروحية... وفي كل صباح كان المولى يشرح أصول تعاليم حضرة بهاء الله كعادته للذين التفوا حوله من المتعلمين وغير المتعلمين المتجمعين في لهفة وإجلال. كانوا من كل جنس وعقيدة من الشرق ومن الغرب بمن فيهم الثيوصوفيون واللاأدريون والماديون والروحانيون والعلماء المسيحيون والمصلحون الاجتماعيون والهندوس والمتصوفة والمسلمون والبوذيون والزرادشتيون وكثيرون غيرهم»، وقالت مرة أخرى: «كان اللقاء يعقب اللقاء، فأقبل أكابر رجال الكنيسة من كل غصن من أغصان الدوحة المسيحية، كان بعضهم يتلهف على أن يجد نواحي جديدة من الحقيقة... وبعضهم كان يسدّ آذانه خشية أن يسمع ويفهم».

وكان من بين الذين فازوا بلقائه الأمراء الإيرانيون والنبلاء والوزراء السابقون ومن بينهم ظل السلطان الوزير الإيراني، والسفير التركي في باريس، ورشيد باشا والي بيروت السابق، والباشوات الأتراك والوزراء السابقون والفيكونت أرواكا[٣] السفير الياباني لدى البلاط الإسباني. ولقد خطب حضرة عبد البهاء في اجتماعات أهل الإسبرانتو والثيوصوفيين وطلاب كلية اللاهوت، وفي جماهير غفيرة في الاتحاديّة الروحانية[٤] وفي قاعة الإرسالية الواقعة في حي فقير من أحياء المدينة خطب في جمهور من الناس تلبية لرجاء الراعي، كما فاز الذين كانوا على علم بتعاليمه بالحضور في اجتماعات الأحباء العديدة وبالاستماع إلى عرضه المفصل لبعض عقائد دين والده ومبادئه.

---

(١) Avenue de Camoens

(٢) Lady bloomfield

(٣) Viscount Arawaka

(٤) L'Alliance Spitrualiste

وعندما سافر إلى شتوتغارت رغم اعتلال صحته أقام إقامة قصيرة لا يمكن أن تنسى، وذلك للاتصال بأعضاء جامعة الألمان المتحمّسين الأعزاء اتصالاً شخصياً، وفضلاً عن حضوره في اجتماعات أحبائه المخلصين فقد أغدق بركاته السخية على أفراد الشباب البهائي المجتمعين في إسلنجن[١] وخطب في اجتماع كبير لجماعة الإسبرانتو عقد في ناديهم تلبية لدعوة الأستاذ كريستيل[٢] رئيس جماعة الإسبرانتو في أوروبا. وزار كذلك مدينة بادمرجنتهايم[٣] في فرتمبرج[٤] حيث أقام أحد محبّيه الشاكرين الممتنين نصباً تذكارياً تخليداً لزيارته وكان ذلك بعد عدة سنوات (١٩١٥م). وكتب شاهد عيان فقال: «لقد أثلج صدر حضرة عبد البهاء تواضع المؤمنين الألمان ومحبتهم وإخلاصهم، فقد تلقوا بركاته ونصائحه المشجعة في خضوع تام... وأقبل الأحباء من بعيد ومن قريب ليروا المولى. وتدفق سيل الزائرين الدائم على فندق ماركوارت، وهناك كان حضرة عبد البهاء يستقبلهم بمحبة ورقة ملأتهم بالسرور والسعادة».

وفي فيينا حيث أقام حضرة عبد البهاء أياماً قلائل خطب في مجمع الثيوصوفيين في هذه المدينة، كما أذن لمدير الجامعة في بودابست أن يلقاه، ولقي المستشرق الشهير الأستاذ أرمينيوس فامبري[٥] عدة مرات، وخطب في الجمعية الثيوصوفية، كما زاره رئيس الجمعية التورانية[٦] وممثلو الجمعيات التركية وضباط الجيش، وعدة من أعضاء البرلمان، ووفد من حزب تركيا الفتاة يقوده الأستاذ يوليوس جرمانوس[٧] الذي استقبله في المدينة استقبالاً حافلاً. وإليك ما كتبه الدكتور روستم فامبري[٨] قال: «أصبحت غرفته[أي

---

(١) Esslingen
(٢) Professor Christale
(٣) Bad Mergentheim
(٤) Wurttemberg
(٥) Prof. Arminius Vambery
(٦) Turanian
(٧) Prof. Julius Germanus
(٨) Dr. Rusztem Vambery

غرفة حضرة عبد البهاء] في فندق دونابالوتا[١] مكة حقيقية لكل من جذبته صوفية المشرق وحكمة معلمها إلى دائرتها السحرية. وكان من بين زائريه الكونت ألبرت أبونيي[٢] والأسقف إسكندر جايسواين[٣] والأستاذ إجناتيوس جولدتسيهر[٤] والأستاذ روبرت. أ. نادلر[٥] رسام بودابست الشهير ورئيس الجمعية الثيوصوفية الهنغارية».

على أنه كان مقدراً لقارة أمريكا الشمالية أن تشهد أعجب مظاهر الحيوية الفياضة الزاخرة التي أظهرها حضرة عبد البهاء في أثناء تلك الأسفار. ولقد عوضه التقدم الرائع الذي أنجزته جامعة أتباعه المنظمة في الولايات المتحدة وكندا، وتقبل الجمهور الأمريكي الملحوظ لرسالته، كما عوضه إدراكه للمصير السامي الذي ينتظر شعب هذه القارة كل التعويض عمّا قضى من وقت مديد وبذل من جهد جهيد في هذه المرحلة المهمة من مراحل أسفاره. فلقد تضمنت زيارته سفرة تزيد على الخمسة آلاف ميل، ودامت من نيسان إلى كانون الأول وانتقلت به من شاطئ الأطلسي إلى شاطئ المحيط الهادي وبالعكس، وقيل فيها من الخطب والأحاديث ما لو جمعت لملأت ما لا يقل عن ثلاثة مجلدات. فهي زيارة خليقة بأن تشير إلى أوج تلك الرحلات تبررها تمام التبرير تلك النتائج البعيدة المدى التي علم أن جهوده ستنتجها. ولقد قال لأتباعه المجتمعين في أول لقائه لهم في نيويورك: «* * ستثبت لكم هذه الرحلة الطويلة مبلغ محبتي لكم. لقد اعترضني كثير من المشقات والعقبات إلا أن كل هذه الأشياء تلاشت عند فكرة لقائكم ونسيت».

أما صفة الأعمال التي قام بها في هذه الزيارة فقد بيّنت مقدار ما علقه عليها من أهمية؛ فقد وضع بيده حجر الزاوية لمشرق الأذكار على شاطئ

---

(١) Hotel Dunapalota

(٢) Count Albert Apponyi

(٣) Prelate Alexander Giesswein

(٤) Prof. Ignatius Goldziher

(٥) Prof. Robert A. Nadler

بحيرة متشيغان قرب شيكاغو في الأرض التي ابتيعت مؤخراً بمحضر من ممثلي البهائيين المجتمعين من كلا المشرق والمغرب، وأكد تأكيداً فاعلاً لمواد الميثاق الذي أبرمه حضرة بهاء الله بعد قراءة لوح الغصن المترجم حديثاً، وذلك في اجتماع عام عقده أتباعه في نيويورك فسموها من بعد ذلك بـ«مدينة الميثاق»، كما احتفل احتفالاً مؤثراً يميز رحلته الخاصة من إنجلوود بكاليفورنيا إلى قبر ثورنتون تشيس[١] أوّل مؤمن أمريكي بل أول من اعتنق دين بهاء الله في العالم الغربي، كما أولم وليمة رمزية لعدد كبير من مريديه المجتمعين في الهواء الطلق في بقعة خضراء في يوم من أيام حزيران في وست إنجلوود في ولاية نيوجرسي وبارك قاعة الاستماع المكشوفة في عكاء الخضراء في ولاية ماين على ضفاف نهر بيسكاتاكوا، حيث اجتمع كثير من أتباعه، وهي القاعة التي تطورت فيما بعد فأصبحت أولى المدارس البهائية الصيفية التي أقيمت في نصف الكرة الغربي فصارت وقفاً من الأوقاف الأولى في قارة أمريكا، وخطب في حشد مكون من بضع مئات حضروا الجلسة الأخيرة لهيئة المعبد البهائية المنعقدة في شيكاغو. وأخيراً وليس آخراً، قام بعمل مثالي فعقد قران اثنين من أتباعه مختلفي العنصر أحدهما من البيض وثانيهما من الزنوج، وكل هذا يجب أن يعد من أبرز المهمات المقترنة بزيارته لجامعة الأحباء الأمريكيّين، وقد مهدت هذه المهمات الطريق لبناء بيت عبادتهم المركزي وقوتهم على اجتياز الامتحانات التي كان عليهم أن يعانوها قريباً، ووطدت وحدتهم وباركت بواكير ذلك النظام الإداري الذي كان عليهم أن يبتدئوه قريباً وأن يحموه ويدافعوا عنه.

ولا يقل عن ذلك روعة ما قام به حضرة عبد البهاء من فعاليات عامة أثناء اتصاله بجمهور الناس ومخالطتهم، خلال سفرته عبر القارة. ولئن كان الإحصاء الكامل لهذه الفعاليات المختلفة التي ازدحمت بها أيامه طوال ثمانية أشهر يخرج بنا عن نطاق هذا العرض، فإنه يكفينا أن نقول إنه ألقى في مدينة

---

(١) Thornton Chase

نيويورك وحدها من الخطابات العامة وزار من الأماكن ما لا يقل عن خمسة وخمسين مكاناً مختلفاً زيارة رسمية، ففاز بمحضره الحيوي وامتاز بالاستماع إلى رسالة والده من شفتيه جمعيات السلام والمجامع المسيحية واليهودية والكليات والجامعات وهيئات البر والإحسان وأعضاء الهيئات الخلقية ومراكز حركة الفكر الجديد والجماعات الميتافيزيقية (الروحية) ونوادي السيدات والجمعيات العلمية ومجامع الإسبرانتو والثيوصوفيون والمسيحيون المورمون واللاأدريون والمعاهد المنشأة لتقدم الشعوب الملونة وممثلو الجاليات السورية والأرمنية واليونانية والصينية واليابانية، ولم تكن الصحافة في تعليقاتها ونشرها لتقارير محاضراته بحال من الأحوال بطيئة في تقدير سعة أفقه أو طبيعة ندائه.

ومما يبرز لنا، كمعالم تلك الرحلة الخالدة التي أخذها على عاتقه خدمة لأمر والده، خطابه الذي ألقاه في مؤتمرات السلام على بحيرة موهونغ وخطاباته التي ألقاها في الاجتماعات الضخمة في جامعات كولومبيا وهوارد ونيويورك، ومشاركته في المؤتمر السنوي الرابع للجمعية الوطنية لتقدم الملونين وتأكيده الجريء لنبوة السيد المسيح وحضرة محمد رسول الله في معبد عمانوئيل[1] وهو كنيس يهودي في سان فرانسيسكو اجتمع له فيه ما لا يقل عن ألفي نفس، وخطابه المبين الذي ألقاه بين ألف وثمانمائة طالب ومائة وثمانين معلماً وأستاذاً في جامعة ليلاند ستانفورد والاستقبال الرائع الذي أقيم تشريفاً له في واشنطن والذي قدم إليه فيه العديد من البارزين من أقطاب الحياة الاجتماعية، وزيارته إلى إرسالية بوفري[2] في حي من أحياء نيويورك الفقيرة، وفاز بمحضره الوزراء والسفراء ورجال الكونغرس، والأحبار المبرزون ورجال الكنيسة وغيرهم من ذوي المكانة وكان من بينهم رئيس جامعة ليلاند ستانفورد الدكتور د. س. جوردان[3] والأستاذ

---

(١) Temple Emmanuel
(٢) Bowery Mission
(٣) Dr. D.S. Jordan

جاكسون[١] الأستاذ في جامعة كولومبيا والأستاذ جاك[٢] الأستاذ في جامعة أكسفورد، والحبر ستيفين وايز[٣] من نيويورك، والدكتور مارتن أ. ماير[٤] والحبر جوزيف ل. ليفي[٥] والحبر أبراهام سايمون[٦]، وآلكساندر جراهام بل[٧]، ورابندرا ناث طاغور[٨]، وسعادة فرانكلين ك. لين[٩] والسيدة وليم جننجز بريان[١٠] وأندرو كارنيجي[١١] وسعادة فرانكلين ماك فيغ[١٢] وزير مالية الولايات المتحدة لي ماكلنج[١٣]، والسيد روزفلت[١٤]، وأمير البحر واين رايت[١٥] وأمير البحر بيري[١٦]، والوزراء المفوضون لإنجلترا وهولندة وسويسرا في واشنطن، ويوسف ضياء باشا السفير التركي في تلك المدينة وتوماس سيتون[١٧] وسعادة وليم سولزر[١٨] والأمير محمد علي أخو خديوي مصر.

وكتب معلق على رحلات حضرة عبد البهاء لأمريكا فقال: «حينما زار حضرة عبد البهاء هذه البلاد لأول مرة سنة ١٩١٢ وجد جمهوراً كبيراً محباً ينتظرونه ليحيّوه بأشخاصهم وليتسلموا من شفتيه رسالته في المحبة والروحانية... ومن وراء الكلمات المنطوقة كان هناك شيء من شخصيته لا يمكن وصفه، وكان هذا الشيء يؤثر تأثيراً عميقاً في كل من فاز بمحضره،

---

(١) Prof. Jackson
(٢) Prof. Jack
(٣) Rabbi Stephen Wise
(٤) Dr. Martin A. Meyer
(٥) Rabbi Joseph L.Levy
(٦) Rabbi Abraham Simon
(٧) Alexander Graham Bell
(٨) Rabindra Nath Tagore
(٩) Hon. Franklin K. Lane
(١٠) Mrs. William Jennings Bryan
(١١) Andrew Carnegie
(١٢) Hon. Franklin Mac Veagh
(١٣) Lee Mc Clung
(١٤) Mr. Roosevelt
(١٥) Admiral Wain Wright
(١٦) Admiral Peary
(١٧) Thomas Seaton
(١٨) Hon. William Sulzer

فرأسه الذي يشبه القبة، ولحيته الأبوية، وعيناه اللتان كانتا تبدوان وكأنهما تنظران إلى ما وراء الزمن والحس، وصوته الواضح النفاذ رغم انخفاضه وتواضعه الخالص، ومحبته الغلابة، وفوق كل شيء ذلك الإحساس بالقوة يخالطها اللطف الذي زود كيانه كله بجلال نادر نابع من الغبطة الروحية الذي نأى به عن الناس من ناحية وقرّبه من ناحية أخرى إلى أوضع النفوس، كل ذلك وكثير مما لا يمكن تعريفه خلق عند العديدين من أصدقائه ذكريات لا يمكن أن تمحى، ذكريات نفيسة لا يمكن أن توصف بوصف».

على أن عرضاً للفعاليات المختلفة الجليلة التي قام بها حضرة عبد البهاء في أثناء رحلته في ربوع أوروبا وأمريكا لا يمكنه، مهما بلغ من قلة الإحاطة، أن يتخطى ذكر بعض الحوادث الغريبة التي كثيراً ما حدثت أثناء الاتصال الشخصي به. وإليك قليلاً من كثير من الحوادث التي تلقي نوراً كاشفاً على بعض النواحي الشخصية من سفراته الخالدة، فمن ذلك أن شاباً خشي ألا يزور حضرة عبد البهاء الولايات الجنوبية فدفعته عزيمته الماضية إلى أن يسافر إلى ماين، ولكنه كان عاجزاً عن أن يدفع أجرة القطار إلى نيو إنجلند، فما كان منه إلا أن ركب طول الطريق من مينيابوليس إلى ماين متشبثاً بمحور عجلتي القطار إلى نيوإنجلند. ومن ذلك أن ابن أحد قساوسة إنجلترا الذي كان يسير على ضفاف نهر التيمز وكان قد عزم على أن ينتحر لضيق ذات يده وبؤسه، فلما رأى صورة حضرة عبد البهاء معروضة في واجهة أحد المحلات سأل عنه وأسرع إلى مسكنه، فانتعشت روحه بكلماته المبهجة المواسية انتعاشاً جعله يتخلى عن أية نية في الانتحار وتحولت حياته تحولاً عجيباً. ومن ذلك أن صبية أصرّت على أن السيد المسيح موجود في هذا العالم، وأنها رأته في الحلم. فلما رأت صورة حضرة عبد البهاء معروضة في واجهة محل لبيع المجلات قطعت بأنها هي صورة السيد المسيح الذي رأته في رؤياها، فاضطرت أمها أن تبحر في السفينة التالية إلى أوروبا بعد أن قرأت أن حضرة عبد البهاء في باريس وتسرع للفوز بلقائه. ومن ذلك أن صاحب جريدة تطبع في اليابان عزم على أن يقطع سفرته إلى طوكيو وهو في الآستانة، كي يسافر إلى لندن «ليفوز بسعادة قضاء مساء واحد بمحضره». ومن ذلك منظر حضرة عبد البهاء المؤثر حين

تلقى من يدي أحد مؤمني إيران، كان قد قدم مؤخراً إلى لندن من عشق آباد، منديلاً قطنياً يحتوي على كسرة من الخبز الأسود وتفاحة ذابلة، وقد كانت هدية من عامل بهائي فقير في تلك المدينة، ففتح حضرة عبد البهاء المنديل أمام ضيوفه المجتمعين، وتنحى عن طعامه فلم يمسّه، وكسر لقيمات من هذا الخبز وأكل منه كما أكل معه الحاضرون.

ولا يمكن أن تمحى من الذاكرة بعض المناظر التي صحبت ذلك الهيكل المقدس الجليل وهو يتنقّل في ربوع أوروبا وأمريكا، بل إنها لتحتفظ بكثير من تأثيرها وبهجتها الأصلية حتى وهي تدون الآن في هذا السجل على القرطاس البارد. فمن ذلك منظر اللقاء الرائع الذي أخذ فيه حضرة عبد البهاء يجيب عن أسئلة الأرشديكون ولبرفورس وقد وضع يده برفق وحنان على رأس رجل الكنيسة المبجل الجالس بجانبه على مقعد منخفض، وأروع من ذلك الأرشديكون نفسه وهو راكع مع جميع رعيته ليتلقّوا بركات حضرة عبد البهاء في كنيسة يوحنا اللاهوتي، وبعد ذلك ينزل من الممشى إلى الموهف[1] ويده في يد ضيفه بينما الجمع كله يرتل نشيداً. ومنظر جلال الدولة وهو ساجد عند قدمي حضرة عبد البهاء غريقاً في اعتذاراته وتوسلاته واستغفاراته عن مظالمه السالفة، ومنظر الاستقبال الحماسي الذي استقبلته به جامعة ليلاند ستانفورد، وهو يلقي على ما يناهز الألفي نفس من الأساتذة والطلاب خطاباً عن بعضٍ من أبرز الحقائق الأساسية في رسالته إلى الغرب، والمشهد المؤثر في إرسالية بوفري[2] عندما اصطف له أربعمائة فقير من فقراء نيويورك ليتلقى كل واحد منهم قطعة فضية من يديه المباركتين، ومنها منظر إحدى السوريات في بوسطن وهي تدفع الحشد الحاشد الذي ازدحم من حوله وترتمي عند أقدامه قائلة: «أشهد أنني عرفت فيك روح الله والسيد المسيح نفسه»، ومنظر لا يقل حرارة عن ذلك، فقد جاء اثنان من العرب المعجبين وهو يغادر تلك

(١) Vestry
(٢) Bowery Mission

المدينة إلى دبلن بولاية نيوهامشاير فارتميا بين يديه وبكيا وأقسما بأنه رسول الله إلى الجنس البشري، ومنظر جمهور من اليهود يبلغ الألفين وقد اجتمعوا له في كنيس في سان فرانسيسكو، واستمعوا إليه باهتمام وهو يبين لهم صحة نبوة السيد المسيح وحضرة محمّد، ومنها منظر الجمع الذي خطب فيه ذات ليلة في منتريال فسقطت عمامته عن رأسه أثناء خطبته من شدة تحمّسه واندماجه في الموضوع الذي كان يتكلم فيه، ومنها منظر الحشد الصاخب في حي من أحياء باريس الفقيرة تهوّلهم هيئته فيفسحون له الطريق في صمت وإجلال وهو يمر من بينهم عائداً من قاعة إحدى الإرساليات بعد أن خطب في جمهورها، ومنها منظر الطبيب الزرادشتي الذي أقبل مسرعاً يلهث ليودع حضرة عبد البهاء صبيحة مغادرته للندن، ومسح بالزيت المعطر رأسه المبارك وصدره، ثم مسح أيدي كل الحاضرين ووضع حول عنق حضرة عبد البهاء وكتفيه باقة من براعم الورد والزنبق حسب تقاليده، ومنها منظر جمهور الزائرين الذين قدموا بعد الفجر فانتظروا صابرين على سلّم منزله في حدائق كادوجان حتى يفتح الباب ويؤذن لهم في الدخول، ومنها منظر هيكله الجليل وهو يذرع المنصة بخطوات نشطة، أو واقفاً رافعاً كفّيه مستنزلاً البركة في الكنيسة والكنيس على السواء، على جمهور كبير من المستمعين الخاشعين، ومنها منظر ذلك الاحترام العميق الذي أبدته له زهرات المجتمع الراقي في لندن اللائي كنّ يركعن من تلقاء أنفسهن إذا دخلن في حضرته، ومنها منظره المؤثر وهو ينحني على قبر مريده المحبوب ثورنتون تشيس في مقبرة إنجلوود ويقبّل شاهد القبر، الأمر الذي أسرع الحاضرون كلهم باقتدائه، ومنها منظر الجمع الممتاز الذي اجتمع في مسجد وكنج ليستمع إلى خطابه عن اتحاد العالم، وقد شمل الجمع المسيحيين واليهود والمسلمين من الرجال والنساء من الشرق والغرب.

وبعد فمن يدري ما هي الأفكار التي امتلأ بها خاطر حضرة عبد البهاء وقد وجد نفسه محوراً تدور حوله مثل هذه المناظر الخالدة؟ من يدري ما هي الأفكار التي تدافع لها عقله حين جلس يتناول طعام الإفطار مع عمدة لندن،

أو حين استقبله الخديوي في قصره باهتمام فائق خارق أو حين كان يسمع صيحات «الله أبهى» وترانيم الشكر والحمد تعلن قدومه إلى الاجتماعات العديدة البارعة التي نظمها أحباؤه وأتباعه المتحمسون في كثير من مدن أمريكا؟ ومن يدري ما هي الذكريات التي طافت بذاكرته وهو يقف أمام شلالات نياغارا الصاخبة ويشم الهواء الطلق من أرض قصيّة، أو وهو يتأمل غابات ينابيع جلنوود الخضراء وريفها أثناء راحة قصيرة كان في أشدّ الحاجة إليها أو وهو يمشي في موكب بين أتباعه الشرقيين في ممرات حدائق التروكاديرو في باريس؟ أو وهو يمشي وحيداً في المساء بجوار خليج هدسن المهيب على ريفر سايد درايف أو وهو يتمشى في شرفة فندق دوبارك في ثونون ـ لي ـ بان المشرفة على بحيرة جنيف، أو وهو يرقب من جسر سربنتين في لندن سلسلة الأنوار الدرية المتألقة تحت الأشجار الممتدة إلى أقصى الأفق؟ لا شك أن ذكريات أحزانه وفقره والمصير المصلت على رأسه في أعوامه الأولى، ذكريات أمّه التي باعت أزرارها الذهبية لتطعمه وتطعم أخاه وأخته، أمه التي اضطرت في أحلك الساعات إلى أن تضع في راحة يده حفنة من الدقيق الجاف ليتبلغ بها فيسد رمقه، ذكريات طفولته حين تعقبته الصعاليك في شوارع طهران وهزئت به، ذكريات الغرفة الرطبة الكئيبة التي سكنها في ثكنات عكاء وكانت من قبل مشرحة للموتى، وذكريات حبسه في زنزانة تلك المدينة، كل هذه الذكريات وأمثالها لا بد أن تكون قد زحمت خاطره بلا ريب، ولا بد أن صوراً أخرى قد دارت بخلده عن سجن حضرة الباب في حصون آذربيجان الجبلية حين حرم أثناء الليل نور السراج، وعن استشهاده المحزن القاسي حين مزقت صدره الشاب مئات الرصاصات. ولا بد أن أفكاره قد تركزت من قبل ومن بعد حول حضرة بهاء الله الذي أحبه حباً جماً وشاركه المشقة والمصاعب منذ صباه، وصورة سياه چال مأوى الجرذان بطهران، وصورة الجلد الذي تحمّله في آمل، وصورة الطعام القليل الذي احتواه كشكوله حين عاش عامين كاملين عيشة الدرويش في جبال كردستان، وذكرى أيام بغداد حين لم يكن يملك غير لباس داخلي واحد من الكتان،

وحين عاش أتباعه على حفنة من التمر، وذكرى حبسه وراء أسوار سجن عكاء وحين حرم كل شيء تسع سنوات، حتى منظر الخضرة، وصورة المذلة العلنية التي تحمّلها في دار الحكومة بتلك المدينة. لا شك أن صُوَرٍ كهذه من الماضي المحزن قد ملأت صدره أكثر من مرة بمشاعر مختلطة من الحزن والشكر لما يشاهده من الآيات الكثيرة الدالة على الاحترام والتقدير والتشريف الذي يستقبل به دين والده آنذاك، وقد قال مدوّن وقائع رحلته أن حضرة عبد البهاء قال مساء يوم وهو ينتقل في عربة مسرعة للوفاء بثالث موعد ضرب في يوم واحد في واشنطن: «* يا بهاء الله ماذا فعلت! يا بهاء الله جُعِلت قربانك! يا بهاء الله جُعِلت فداك! بأية مشقّة وأي بلاء قضيت أيامك وأية مصائب تحملت! وأي أساس محكم متين وضعت آخر الأمر! وأيّ علم خفاق مبين رفعت!» ويمضي ذلك المؤرخ لرحلاته في روايته فيقول: «ذات يوم تذكر حضرة عبد البهاء أيام حضرة جمال القدم وهو يتمشى وأشار بحزن إلى إقامته في السليمانية وإلى وحدته وإلى ما أصابه من مظالم. وبالرغم من أنه كان يسرد تلك القصة كثيراً إلاّ أن العاطفة غلبته هذه المرة فاسترسل في البكاء من شدة حزنه... حتى بكى كل من كان معه وغمرهم الأسى وهم يسمعون قصة البلايا المحزنة التي ابتلي بها حضرة جمال القدم، ويشاهدون رقة قلب ابنه».

وبذلك تم فصل من أعظم الفصول في سلسلة أحداث بلغت من عمرها قرناً، وكتب فصل من أمجد الفصول في تاريخ القرن البهائي الأول. وبذرت يد مركز الميثاق في بعض حقول العالم الغربي الخصيبة بذور إمكانيات تفوق الأحلام، ونهضت شخصية، على هذا المبلغ من العظمة، لتبذل جهداً على هذا النحو من الضخامة والقيمة الخالدة مما لم يحدث في التاريخ الديني كله. فانطلقت بهذه الرحلات التاريخية قوى ما زلنا نعجز عن إدراكها أو قياسها حتى بعد أن انقضى ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً. وكل ما نعلم من أمرها حتى الآن أن ملكة، ألهمتها الحجج القوية التي أقامها حضرة عبد البهاء أثناء خطاباته على نبوة حضرة محمد، أعلنت إيمانها

واعترفت اعترافاً علنياً بصدق نبي الإسلام. كما أننا لا نعلم من أمرها كذلك حتى الآن إلاّ أن رئيساً من رؤساء جمهورية الولايات المتحدة تشرّب بعض المبادئ التي بسطها حضرة عبد البهاء في خطاباته بسطاً واضحاً فصبّها في برنامج للسلام، ما زال يقف بارزاً كإجراء من أشرف ما اقترح حتى الآن لصالح البشرية وأمنها، ثم نحن لا نعلم إلى الآن إلاّ أن العالم تغاضى مع الأسف عن تحذيراته ولم يعبأ بندائه فألقى بنفسه في أتون حربين عالميتين لم يسبق لقسوتهما مثيل ولا يكاد أحد يرى ولو بغموض مدى صداهما البعيد.

نمو الدين وانتشاره في الشرق والغرب

يمكننا أن نقول عن رحلات حضرة عبد البهاء التاريخية إلى الغرب، ولا سيما سياحته التي استغرقت ثمانية أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية، أنها أشارت إلى اختتام عهده الذي لن يقدّر بركاته الفائقة وأعماله الجبارة حق قدرها إلا الأجيال القادمة. وكما تألقت شمس ظهور حضرة بهاء الله في أوجها الأسمى عندما أعلن رسالته إلى حكام الأرض من مدينة أدرنة، كذلك بلغ قمر الميثاق سمته الأسنى وسطع بأنصع أشعته حينما نهض المركز المختار لينشر مجد دين والده وعظمته بين شعوب الغرب.

أجل، لقد أظهر الميثاق الإلٰهي بعد بدايته بقليل قوته الشديدة أيما إظهار، وذلك بانتصاره الحاسم على قوى الظلام التي جنّدها الناقض الأكبر بمثل هذا العزم والحزم. وسرعان ما انطلقت قواه الدافعة فأحرز حملة مشاعله الانتصارات الباهرة بسرعة وجرأة في مدن أوروبا الغربية النائية والولايات المتحدة الأمريكية. كما أن قدرة الميثاق قد برزت تماماً عندما تمكن من المحافظة على وحدة الأمر المبارك وسلامته في الشرق والغرب على السواء ولقد أقام الميثاق من بعد ذلك دليلاً آخر على قوته القاهرة بذلك النصر الخالد الذي سجله بسقوط السلطان عبد الحميد، وما تلاه من إطلاق سراح مركزه المختار من سجن أربعين عاماً، وزود الذين ما زالوا يميلون إلى الشك في ألوهيته بدليل دامغ على متانته، وذلك عندما تمكّن حضرة عبد البهاء من تحويل رفات حضرة الباب وإيداعها مرقدها الأخير في مقامه على جبل الكرمل رغم الصعوبات الشديدة، وأظهر أيضاً أمام الجنس البشري جميعاً إمكانياته العريضة إظهاراً قوياً لا يدانيه حتى آنذاك مدان، وذلك حينما

مكّن مركزه المختار ومحط آماله من أن يقوم برحلة إلى العالم الغربي دامت ثلاثة أعوام وهي رحلة تعتبر أعظم مأثرة يمكن أن يفتخر بها عصره.

ومهما بلغت هذه الرحلة من الأهمية إلا أنها لا يمكن أن تعتبر الثمرة الوحيدة التي أثمرتها الجهود المثمرة التي بذلها ببطولة مركز ذلك الميثاق. ذلك لأن تقدم دين والده وتوسعه في الشرق، والابتداء في الفعاليات والأعمال التي يمكن أن تعدّ بداية للنظام الإداري المقبل، وتشييد أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي في مدينة عشق آباد بتركستان الروسية، وانتشار الكتب البهائية، وتنزيل ألواح الخطة الإلهية، ودخول الأمر المبارك إلى القارة الأسترالية، ما زال كل ذلك بين أيدينا مما نعتبره أبرز الأعمال التي طرزت سجل عصر حضرة عبد البهاء الفذ الرائع.

ولقد استطاعت العين أن تميّز بوضوح تغييراً ملحوظاً في إيران، مهد الأمر المبارك، إذ برز بالتدريج ذلك الحزب المظلوم من ظلام الخفاء إلى نور العلانية، وذلك رغم الاضطهادات التي توالت طول ذلك العصر بلا رحمة ولا هوادة، فلحظت العين ناصر الدين شاه وهو يلقى حتفه بعد أربعة أعوام من صعود حضرة بهاء الله عشية احتفاله بيوبيله الذي عزم على أن يكون نقطة تحول في تاريخ بلاده، وذلك على يد سفاك يدعى ميرزا رضا من أتباع السيد جمال الدين الأفغاني عدو الأمر المبارك الألد وأحد مؤسسي الحركة الدستورية، وهي الحركة التي اشتدت وطأتها على أيام ابن الشاه وخليفته مظفر الدين، فأوقعت بذلك الجامعة المضطهدة المظلومة في مشاكل جديدة، إذ ألقيت عليها تهمة مقتل الشاه أول الأمر، يشهد بذلك الميتة العنيفة التي ماتها بعد اغتيال الشاه مباشرة، ميرزا علي محمد المبلغ والشاعر المشهور الذي لقبه حضرة بهاء الله بـ«الورقاء»، فلقد قتل في سجن طهران مع ابنه روح الله البالغ من العمر اثني عشر عاماً قتلاً وحشياً على يد حاجب الدولة المتوحش الذي أغمد خنجره في أحشاء الأب ومزّقه شر ممزق بين سمع الابن وبصره ثم انثنى على الابن يحمله على الارتداد عن دينه فلما لم يجد غير الإباء والثبات عمد إلى حبل فخنقه.

ومن قبل ذلك بثلاث سنوات قتل في يزد شاب يدعى محمد رضا

اليزدي رمياً بالرصاص ليلة زفافه عند عودته من الحمام العام إلى بيته، وكان أول من شرب كأس الشهادة في عصر حضرة عبد البهاء، وفي التربة الحيدرية قتل خمسة يعرفون بالشهداء الخمسة وكان ذلك نتيجة اغتيال الشاه أيضاً. وفي مشهد اغتيل الحاج محمد التبريزي التاجر المشهور، وألقي جسده طعمة للنيران. وأذن الشاه الجديد ورئيس وزرائه علي أصغر خان الأتابك الأعظم الدنيء الرجعي لاثنين من ممثلي الدين البهائي بمقابلتهما في باريس (١٩٠٢م)، ولكن تلك المقابلة لم تنتج أية نتيجة صادقة، بل على النقيض هبّتْ عاصفة جديدة من الاضطهادات بعد سنوات قلائل وازدادت عتواً أثناء تقدم الحركة الدستورية في تلك البلاد، لأن الرجعيين كانوا يوجهون للبهائيين تهماً لا أساس لها من الصحة ويجاهرون بأنهم أنصار القضيّة القومية والمحرّضون عليها.

وفي إصفهان عزّي رجل يدعى محمد جواد وضرب ضرباً مبرحاً بسوط صنعت خيوطه من الأسلاك المجدولة، على حين صودرت أملاك البهائيين من أصل يهودي في كاشان وضربوا وقيدوا بالسلاسل وذلك بتحريض علماء المسلمين وأحبار اليهود. على أن أفظع ما حدث في عهد حضرة عبد البهاء من اعتداءات دموية حدث في يزد حيث جلد الحاج ميرزا حلبي ساز بلا شفقة ولا رحمة حتى أن زوجته ألقت بنفسها عليه فنالها بدورها ما ناله، ثم قطع رأسه بساطور قصاب وضرب ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ضرباً وحشياً وطعن بالمدى وعذب حتى مات. وفي مدة نصف يوم استشهد تسعة أشخاص وصب جمهور من الرعاع يبلغ ستة آلاف رجل وامرأة جام غضبهم وهياجهم على الضحايا العزل، وتمادى بعضهم إلى أبعد من ذلك فشربوا من دمائهم وفي بعض الأحوال كانوا يستبيحون الأموال ويقتتلون على حيازتها كما حدث مع رجل يدعى ميرزا أسد الله الصّبّاغ، ولقد أظهروا من القسوة ما أثر في بعض رجال الحكومة فجال الدمع في عيونهم وهم يرون المناظر الجهنمية التي لعبت فيها نساء تلك المدينة دوراً ظاهراً مخزياً.

وفي تفت قتل عدّة أشخاص، ورمي بعضهم بالرصاص وسحبت أجسادهم في الطرقات، ووشى أب بابنه الشاب الذي كان قد آمن مؤخراً والبالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، واسمه حسين، فمزق شر تمزيق بمرأى أمه كما مزق محمد كمال بالسكين والمسحاة والفأس. وفي منشاد دام الاضطهاد تسعة عشر يوماً وارتكبت فيها فظائع مشابهة، فمن ذلك أن ألقي حجران كبيران على رجل نائم يبلغ الثمانين يدعى السيد ميرزا فمات على الأثر، ومن ذلك أن أغمد الجلاد سكينه في صدر ميرزا صادق الذي طلب شربة ماء ثم لعق الدم العالق بالنصل، كما شوهد الشاطر حسن، وهو أحد الضحايا، يوزع على جلاديه ملابسه وشيئاً من الحلوى كانت معه، وقُذِف بامرأة في الخامسة والستين من عمرها تسمى خديجة سلطان من سطح أحد المنازل، وشُدَّ مؤمن يدعى ميرزا محمد إلى إحدى الأشجار، وصوبت إليه مئات الرصاصات وألقي بدنه طعمة للنيران، وشوهد مؤمن آخر يدعى الأستاذ رضا الصفار يقبل يد قاتله، ثم رمي بالرصاص وأهيلت على بدنه شتى الإهانات.

وفي بنادك وده يالا وفراشاه وعبّاس آباد وهنزا وأردكان ودولت آباد وهمدان ارتكبت جرائم من هذا النوع، وكان من أبرز القضايا قضية امرأة عظيمة الاحترام شديدة الإقدام تدعى فاطمة بيكم سحبت من منزلها سحباً مهيناً، ونزع قناعها عن رأسها، وذبحت وبقر بطنها، وبعد أن ضربها الجمهور المتوحش بكل ما نالته أيديهم من أسلحة علّقت آخر الأمر في شجرة وأحرق جسدها.

وفي ساري قتل خمسة من الأحباء عرفوا فيما بعد بـ«الشهداء الخمسة» وذلك حين اشتدت الاضطرابات من أجل الدستور. وشن العدو في نيريز غارة شعواء، تعيد إلى الأذهان غارة يزد، مات فيها تسعة عشر شخصاً من بينهم المُلاّ عبد الحميد وهو أعمى في الخامسة والستين رمي بالرصاص وأهين بدنه إهانات شنيعة، ونهب فيها مقدار لا يستهان به من الأموال، وفر منها كثير من النساء والأطفال إبقاء على حياتهم واجتمعوا بالمساجد وعاشوا في أنقاض منازلهم وباتوا في جنبات الطرق في العراء بلا مأوى.

وفي سيرجان ودوغ آباد وتبريز وآوه وقم ونجف آباد وسنكسر وشهميرزاد وإصفهان وجهرم استمر الأعداء الألداء الدينيون والسياسيون، حتى بعد توقيع الشاه للدستور سنة ١٩٠٦م وفي أيام خليفتيه محمد علي شاه وأحمد شاه، يقتلون تحت مختلف المزاعم ويعذبون وينهبون ويهينون أعضاء جامعة أصرّت على ألاّ ترتدّ أو أن تحيد قيد شعرة عن الطريق التي رسمها لها قادتها. ولقد استمر حضرة عبد البهاء، حتى في أثناء سفراته إلى الغرب وبعد عودته إلى الأرض المقدسة، لا بل حتى آخر حياته، يتلقى أنباء استشهاد أتباعه المحزنة، وأنباء الغارات التي يشنها عليهم العدو المتوحش. وفي دولت آباد ذبح بالفأس أمير تجري في عروقه الدماء الملكية، وهو حبيب الله ميرزا المؤمن الذي كرس حياته لخدمة الأمر المبارك، وألقي بدنه طعمة للنيران. وفي مشهد رمي الشيخ علي أكبر القوجاني الفقيه الورع بالرصاص، وفي سلطان آباد ذبح ميرزا علي أكبر وسبعة من أفراد عائلته بمن فيهم رضيع كان في اليوم الأربعين من عمره ذبحاً بربرياً، واندلعت اضطهادات متفاوتة في القسوة والشدة في نائين وشهميرزاد وبندرجز وقمصر، وفي كرمانشاه كان الشهيد ميرزا يعقوب متحدة المتحمس والبالغ الخامسة والعشرين ربيعاً وهو من أصل يهودي آخر من يضحي بحياته في عهد حضرة عبد البهاء، واحتفلت أمه في همدان باستشهاده بثبات مثالي وذلك بناء على رجائه. وكان مسلك المؤمنين في كل الأحوال دليلاً على ذلك الروح الغلاب والتشبث القاهر اللذين ظلا يميزان أتباع دين حضرة بهاء الله الإيرانيين ويميّزان خدماتهم.

وبالرغم من شدة هذه الاضطهادات المتوالية كان الأمر المبارك الذي أثار في أبطاله مثل هذه الروح الفدائية النادرة ينمو نمواً مطرداً صامتا. أجل، لقد خمد حيناً من الدهر وأشرف نوره على الانطفاء في الأيام السوداء التي تلت استشهاد حضرة الباب، وتوارى عن الأنظار أثناء ولاية حضرة بهاء الله إلا أنه بدأ بعد صعوده يستجمع قواه بفضل هداية مولاه الحكيم الساهر المحب المعصومة واهتمامه المستمر به، وبدأ يقيم بالتدريج دعائم الهيئات التي تمهد

الطريق لتأسيس نظامه الإداري فيما بعد. في هذه الفترة تضاعف عدد أتباعه بسرعة، واتسع نطاقه اتساعاً مطرداً حتى شمل آنذاك كل إقليم في تلك المملكة وتألّفت النماذج الابتدائية لمحافله المقبلة. وفي هذه الفترة تأسست مدارسه الأولى وكانت مدارس الدولة وكلياتها شبه معدومة وكانت التربية التي تقدمها المعاهد الدينية القائمة قاصرة قصوراً مفجعاً، فتأسست أول ما تأسست «مدارس التربية» في طهران للبنين والبنات، ثم تلتها مدارس «التأييد والموهبة» في همدان، ومدرسة «وحدة البشر» في كاشان وأمثالها في بارفروش وقزوين. وفي هذه الفترة امتدت المساعدة الفعّالة الروحية والمادية على صورة مبلغين زائرين من أوروبا وأمريكا وممرضات ومرشدين وأطباء إلى الجامعة البهائية في تلك البلاد، أولئك العاملين بمثابة مؤخرة جيش الأنصار الذي وعد حضرة عبد البهاء أن يجنده في الوقت المناسب ليوسع مصالح الدين ومصالح البلاد التي ولد بها. وفي غضون تلك السنوات ترك الناس لقب «البابي» كتسمية لأتباع حضرة بهاء الله في تلك البلاد مفضلين عليه لقب «بهائي» واختصّ اللقب الأول كليّة بأتباع ميرزا يحيى المنقرضين انقراضاً سريعاً. وفي هذه الفترة بدأت المحاولات النظامية الأولى لتنظيم التبليغ الذي أخذه المؤمنون الإيرانيون على عواتقهم، وفضلاً عن تقويتها وتعزيزها لأسس الجامعة كانت محاولات عملت على اجتذاب عدد من المبرزين في حياة تلك البلاد العامة دون استثناء لبعض رجالات الشيعة البارزين بل ولبعض أحفاد ألد أعداء الدين. وفي غضون سنوات هذه الولاية رُمّم في شيراز بيت حضرة الباب الذي أمر حضرة بهاء الله أتباعه أن يكون مركزاً للحج، كما هو الآن، وكان ذلك الترميم بأمر من حضرة عبد البهاء ومعونته، فأصبح البيت على مرّ الأيام مركزاً لحياة بهائية ونشاط بهائي لأولئك الذين حرمتهم الظروف من زيارة البيت الأعظم في بغداد أو الروضة المباركة في عكاء.

وأظهر من كل هذه الأعمال تشييد أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي بمدينة عشق آباد وهي مركز أمري أنشئ في أيام حضرة بهاء الله، كما أخذت التدابير الأولى الممهدة لتشييده في أيامه أيضاً. وبدئ العمل فيه حول

نهاية العقد الأول من ولاية حضرة عبد البهاء (١٩٠٢م) ورعاه في كل مرحلة من مراحل تقدمه، وأشرف عليه الحاج ميرزا محمد تقي وكيل الدولة الجليل، وهو ابن من أبناء خؤولة حضرة الباب وهب كل موارده لتشييد مشرق الأذكار، ورفاته ترقد الآن بسفح الكرمل في ظل قبر قريبه المحبوب، ونفذت خطة مشرق الأذكار هذا انقياداً لتوجيهات مركز الميثاق نفسه، فقام شاهداً على إخلاص أحباء الشرق وإنكارهم لذواتهم حين عزموا على تنفيذ أوامر حضرة بهاء الله كما نزلت في الكتاب الأقدس، ولذلك يجب ألا يتبوّأ هذا العمل مكانة أول عمل عظيم قامت به جهود أتباعه المتضافرة في عصر البطولة المجيد لهذا الدين فقط بل أن يحتل مكانة عمل من أروع وأخلد الأعمال التي نمت في تاريخ القرن البهائي الأول.

أما المنشأة نفسها تلك التي وضع حجرها الأساسي بمحضر من الجنرال كروبتكين[1] حاكم تركستان العام الذي انتدبه القيصر لينوب عنه في حضور الاحتفال، فقد وصفها زائر بهائي من الغرب بكل دقة، فقال: «يقوم مشرق الأذكار في قلب المدينة، تعلو قبته الأشجار وسقوف المنازل بحيث تبدو للمسافرين من بعد أميال وهم يقتربون من المدينة. وهو يقع في وسط حديقة تحدها شوارع أربعة. وفي أركان هذا المربع أبنية أربعة: أحدها المدرسة البهائية، وآخرها دار للضيافة ينزل فيها الزائرون والمسافرون، وثالثها استراحة للحراس على حين يستعمل رابعها مستشفى. وتؤدي إلى المعبد تسع طرق شعاعية من أجزاء المكان المختلفة يؤدي أهمها إلى مدخل المعبد الرئيس من بوابة المعبد الرئيسية»، وهو يضيف إلى ذلك فيقول: «أما هندسته فالبناء مكون من ثلاثة أقسام وهي الدائرة المركزية والممشى أو الممر الذي يحيط بالبناء كله وشرفة تدور به. وهو مشيّد على شكل هندسي منتظم ذي تسعة أضلاع، يشغل ضلعاً منها المدخل الرئيس الضخم للبناء تحف به

(١) General Krupatkin

منارتان، وهو مدخل عالٍ ذو طاق يرتفع بقدر طابقين ونظامه يذكرنا بهندسة تاج محل المشهور في أجرا بالهند، بهجة الدنيا للمسافرين الذي يحكم له الكثيرون منهم بأنه أجمل معبد في العالم. كما أن البوابة الرئيسة تتجه نحو الأرض المقدسة وتدور بالبناء كله سلسلتان من الشرفات، تعلو إحداهما الأخرى وتطلان على الحديقة محدثة أثراً هندسياً جميلاً في انسجامها مع الأعشاب شبه المدارية التي تملأ الحديقة... أما الحيطان الداخلية للدائرة المركزية فقد شيدت في خمس طبقات متميزة. تتكون الطبقة الأولى من سلسلة من تسعة عقود ودعائم تفصل الدائرة المركزية عن الممشى، والثانية من سلسلة مشابهة ذات درابزين يفصل الرواق (الذي يقع فوق الممشى ويصعد إليه الصاعد بدرجين قائمين في الشرفتين الواقعتين على كلا جانبي المدخل الرئيس) عن الدائرة المركزية. وتتكون الثالثة من سلسلة من تسعة عقود جوفاء، مطرزة بالزينة المنمنمة تتخللها تروس عليها طغرآء الاسم الأعظم. والرابعة سلسلة من تسع نوافذ معقودة كبيرة والخامسة سلسلة من ثماني عشرة نافذة صغيرة عالية. وتقوم القبة الداخلية النصف كروية على طنف يعلو تلك الطبقة الأخيرة. وداخل البناء مزخرف بزينة دقيقة من الجبس البارز... والبناء كله يأخذ الإنسان بحجمه وقوته».

كما أننا لا يمكن أن نغفل الإشارة إلى مدرستي البنين والبنات اللتين أنشئتا في تلك المدينة، ولا إلى دار الضيافة المشيدة على مقربة من المعبد ولا إلى المحفل الروحاني وهيئاته الفرعية التي تشكلت لتتولى أمور الجامعة النامية ولا إلى مراكز النشاط الحديثة في المدن المختلفة في بلاد تركستان، فكل ذلك يشهد بالحيوية التي أظهرها الدين منذ دخوله إلى تلك البلاد.

ويمكننا أن نلحظ في القوقاز تقدّماً مماثلاً وإن قلّت روعته. فبعد تأسيس أول مركز وتشكيل أول محفل روحاني في باكو، وهي مدينة يزورها الحجاج البهائيون المسافرون من إيران إلى الأرض المقدسة عن طريق تركيا في جموع متزايدة، بدأت مجموعات أخرى تنتظم، فلما تطورت فيما بعد إلى

جامعات قوية البنيان إطّرد تعاونهم مع إخوانهم في تركستان وإيران.

وفي مصر صحب الازدياد المطّرد في عدد أتباع الدين توسع عام في الفعاليات. فمن ذلك إنشاء المراكز الجديدة وتثبيت المركز الأساسي المنشأ في القاهرة، وإيمان عدد من طلاب الجامعة الأزهرية وأساتذتها الممتازين وتم ذلك في الدرجة الأولى بفضل جهود ميرزا أبي الفضل المتفانية، وهو من الظواهر المنبئة بقدوم ذلك اليوم الموعود الذي يركز فيه علم الدين ورمزه في قلب ذلك المعهد الإسلامي العلمي المبجل. ومن ذلك ترجمة طائفة من أهم آثار حضرة بهاء الله النازلة بالفارسية مع غيرها من الكتب البهائية إلى اللغة العربية ونشرها، ومنه طبع الكتب والعجالات والبحوث والنبذ التي كتبها المؤلفون والعلماء البهائيون، ونشر المقالات في الصحف دفاعاً عن الدين وإذاعة لرسالته وتشكيل الهيئات الإدارية الأساسية في العاصمة وفي المراكز القريبة، وإخصاب حياة الجامعة بإضافة مؤمنين من أصول كردية وقبطية وأرمنية. كل ذلك يمكن أن يعد بواكير الثمار التي استحصدت في بلاد باركتها خطوات حضرة عبد البهاء، وقدر لها في السنوات التالية، أن تلعب دوراً تاريخياً في تحرير الدين، كما لا بد لها أن تأخذ بنصيب ملحوظ حاسم من مسؤولية إقامة الدين في الشرق إقامة كاملة، وذلك بحكم ما لها من مكانة فذة باعتبارها المركز الثقافي لكلا العالمين العربي والإسلامي.

وأظهر من هذا وذاك توسع الفعالية البهائية في الهند وبورما حيث أفلحت جامعة مطردة النمو تضم بين أعضائها ممثلين للدين الزرادشتي والإسلامي والهندوسي والبوذي وبعض أعضاء من جماعة السيخ في أن تنشئ مراكزها الأمامية حتى في مندلاي، وفي قرية ديدانو كالازو في مقاطعة هانتاوادي في بورما حيث يسكن ما لا يقل عن ثمانمائة بهائي لهم مدرستهم ومحكمتهم ومستشفاهم وأرضهم التي يزرعونها زراعة جماعية ويكرسون محصولاتها لتوسيع مصالح دينهم.

وفي العراق حيث رمم البيت الذي سكنه حضرة بهاء الله وجدّد كليًا،

وحيث ناضلت جامعة، وإن كانت قليلة غير أنها جسورة، ضد المقاومات الموصولة ابتغاء تنظيم أحوالها وتولي أمورها، وفي الآستانة حيث تأسس مركز من المراكز البهائية، وفي تونس حيث وضع أساس متين لجامعة محلية، وفي اليابان والصين وهونولولو حيث سافر المبلغون البهائيون وأقاموا وبلغوا في كل من هذه الأماكن، يمكن للعين أن تلمح الشواهد متضاعفة على يد حضرة عبد البهاء المرشدة الهادية، وعلى الآثار الملموسة ليقظته وسهره وعنايته الفائقة.

كما أن الجامعات الوليدة الناشئة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة لم تكفّ عن أن تتلقى آيات اهتمامه الخاص وعنايته الفائقة بصالحهم وتقدمهم الروحي بعد زيارته الخالدة لتلك البلاد. وكان من نتيجة إرشاداته وفيض ألواحه المتواصلة الموجهة إلى أفراد هذه الجامعات وتشجيعه الدائم للمجهودات التي كانوا يبذلونها أن اطّرد ازدياد المراكز البهائية ونظمت الاجتماعات العامة وصدرت دوريّات جديدة، وطبعت مترجمات لطائفة من أشهر آثار حضرة بهاء الله وألواح حضرة عبد البهاء ونشرت بالإنجليزية والفرنسية والألمانية، وبدئت المحاولات الأولى لتنظيم أمور هذه الجامعات الناشئة وتعزيز أسسها.

وفي القارة الأمريكية الشمالية بوجه خاص قام أعضاء الجامعة المزدهرة التي ألهمتها بركات حضرة عبد البهاء ومثاله الذي ضربه بأعماله في غضون زيارته المديدة لبلادهم، وأبدوا همة ونزوعاً للقيام بذلك العمل الرائع الذي كان عليهم أن ينجزوه في السنوات التالية، فاشتروا القطع الاثنتي عشرة الباقية المكونة لجزء من أرض المعبد المقترح، واختاروا أثناء جلسات مؤتمرهم المنعقد سنة ١٩٢٠م تصميم المهندس المعماري الفرنسي الكندي البهائي لويس بورجوا[١]، وأبرموا عقد حفر الأساس والتأسيس، ونجحوا بعد ذلك مباشرة في إتمام الإجراءات اللازمة لتشييد قاعدته، وكانت كل هذه تدابير

(١) Louis Bourgeois

تبشر بتلك المجهودات الجبارة التي تمت بعد صعود حضرة عبد البهاء بتشييد بنيانه العلوي وإتمام زينته الخارجية.

وجاءت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨م التي تنبأ بها حضرة عبد البهاء غير مرة في تحذيراته المتشائمة التي كان ينطق بها أثناء رحلاته الغربية واندلعت نيرانها بعد عودته إلى الأرض المقدسة بثمانية أشهر، فألقت على حياته ظلال الخطر مرة أخرى، وكان ذلك آخر خطر تظلم به سنوات ولاية حضرة عبد البهاء المجيدة رغم الاضطرابات التي انتابتها.

وكان دخول الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الصراع العالمي هذا الدخول المتأخر، وحياد إيران، وبعد الهند والشرق الأقصى عن ميدان العمليات الحربية، من الأمور التي أمنت حياة الأغلبية الساحقة من أتباعه الذين ظلوا قادرين على أن يتولوا أمورهم ويرعوا ثمار أعمالهم الأخيرة بطمأنينة وحرية نسبية رغم انقطاعهم في الغالب عن مراكز الدين الروحية انقطاعاً تاماً دام عدة سنين.

على أن الأرض المقدسة عانت من الحرمان القاسي والأخطار الجسيمة ما ظلّ يحاصر أهلها طوال الجزء الأعظم من أمد ذلك الصراع، وما أثار من جديد الأخطار التي أحدقت بحضرة عبد البهاء أثناء سنوات حبسه في عكاء وإن كان من نتائج ذلك الصراع الهائل أن تحرر قلب الدين ومركزه من النير التركي الذي فرض على مؤسسه وخليفته تلك التشديدات الجائرة المهينة. ثم زاد الحصار البحري الشديد من قسوة تلك الأزمات التي فرضها على الناس عجز السلطات العسكرية والمدنية الجسيم وإهمالها المخزي وقلة اكتراثها وقسوتها وإن لطّفت وطأتها كثيراً عناية حضرة عبد البهاء الحنون، وبعد نظره وصفاء بصيرته وسخاء يده الفياض. وكان ضرب الحلفاء لحيفا بالمدافع تهديداً دائماً بلغ من صدقه ذات مرة أن تحتم انتقال حضرة عبد البهاء وأسرته وأعضاء الجامعة المحلية مؤقتاً إلى قرية أبي سنان في سفوح التلال شرقي عكاء. ونال القائد التركي جمال باشا السفاح الطاغية المتهور والعدو اللدود

للدين البهائي حضرة عبد البهاء بأذى جسيم بما قام، ولديه من ظنون لا أساس لها، بتحريض الأعداء وأفصح عن نيّته في صلبه وتسوية قبر حضرة بهاء الله بالأرض. وكان حضرة عبد البهاء لا يزال يعاني من اعتلال الصحة والإنهاك اللذين سببهما متاعب السفرات التي دامت ثلاث سنوات. كما أنه كان يحس إحساساً حاداً بانقطاع الاتصال مع معظم المراكز البهائية في أنحاء العالم، ويملأ نفسه الكرب وهو يشاهد بعينيه المذبحة البشرية التي يرتكبها عجز الإنسانية عن أن تلبّي النداء الذي ناداها به أو أن تعبأ بالإنذارات التي أنذرها بها. وما من شك في أن حزناً على حزن قد تراكم على أعباء الشدائد التي عاناها والتقلبات التي حملها ببطولة منذ صباه في سبيل أمر والده وخدمته.

ومع ذلك ففي هذه الأيام المظلمة التي تذكرنا ظلمتها بالشدائد التي تحملها حضرة عبد البهاء أثناء أخطر فترة من فترات حبسه في مدينة السجن عكاء، مال حضرة عبد البهاء مرة أخرى ولآخر مرة في حياته إلى أن يمنح جامعة أتباعه الأمريكيّين آية فذة دالة على فضله الخاص سواء أكان في أقداس مقام والده أم في منزله الذي شغله في عكاء أو في ظلال مقام حضرة الباب على الكرمل، وذلك بإنزاله ألواح الخطة الإلٰهية مساء ولايته الأرضية يعهد إليهم فيها برسالة عالمية لا تزال معانيها الكاملة مستورة حتى الآن بعد انقضاء ربع قرن ولا يزال الكشف عنها، وإن لم يتجاوز مراحله البدائية إلى الآن، يخصب تاريخ القرن البهائي الأول في ناحيتيه الروحية والإدارية.

ولم تشر خاتمة ذلك الصراع الهائل، الذي هو أول مرحلة من مراحل اضطراب جبار تنبأ به حضرة بهاء الله منذ زمن بعيد، إلى انقراض الحكم التركي في الأرض المقدسة، ولم يختم على مصير الحاكم العسكري الذي عاهد نفسه على أن يقضي على حضرة عبد البهاء فقط بل قضى قضاء تامّاً وأخيراً على الآمال التي ظلت ترجوها فلول ناقضي الميثاق الذين لم يتعظوا من القصاص الشديد الذي أخذهم فطفقوا يتطلعون إلى مشاهدة خمود نور

ميثاق حضرة بهاء الله. وفضلاً على ذلك فإن تلك الخاتمة ولدت تلك التغييرات الثورية التي حققت إنذارات حضرة بهاء الله المندرجة في الكتاب الأقدس من ناحية وحققت نبوءة وردت في الكتاب المقدس من ناحية أخرى، وذلك بأن مكنت قسطاً ضخماً من «منبوذي إسرائيل» و«فلول القطيع» أن «يتجمعوا» في الأرض المقدسة، وأن يعودوا ثانية إلى «حظائرهم» و«أرضهم»، في ظل «الغصن الفريد»، كما أشار حضرة عبد البهاء في «المفاوضات» والتي تمخضت من ناحية ثالثة عن إقامة عصبة الأمم المبشرة بالمحكمة الدولية التي تنبأ هذا «الغصن الفريد» نفسه بأنه لا غنى لكل أمم الأرض وشعوبها عن إنشائها بالاتحاد.

ولا حاجة بنا إلى إطالة الوقوف عند الخطوات الحازمة التي خطاها المؤمنون الإنجليز لتأمين حياة حضرة عبد البهاء حالما أعلموا بالخطر الجسيم الذي يتهدده، ولا عند التدابير المستقلة التي اتخذت لإطلاع اللورد كرزون[١] وآخرين من مجلس الوزراء البريطاني على خطورة الموقف في حيفا، ولا عند التدخل العاجل للورد لامنجتون[٢] الذي كتب فوراً إلى وزارة الخارجية خطاباً «ليشرح أهمية مقام حضرة عبد البهاء» ولا عند الرسالة التي أرسلها اللورد بلفور[٣] وزير الخارجية إلى الجنرال أللنبي[٤]، يوم تسلم ذلك الخطاب، مكلفاً إياه أن «يمد كل حماية وكل اعتبار لحضرة عبد البهاء ولأسرته وأصدقائه» ولا عند البرقية التي أرسلها الجنرال بعد سقوط حيفا إلى لندن طالباً من السلطات أن «تخطر العالم بأن حضرة عبد البهاء في أمان» ولا عند الأوامر التي أصدرها هذا الجنرال إلى القائد العام المشرف على عمليات حيفا بتأمين سلامة حضرة عبد البهاء، فقضت على نية القائد التركي (وفقاً للمعلومات التي بلغت قلم المخابرات السرية البريطانية) في أن «يصلب

---

(١) Lord Curzon
(٢) Lord Lamington
(٣) Lord Balfour
(٤) General Allenby

حضرة عبد البهاء وأسرته على جبل الكرمل» إذ اضطر الجيش التركي إلى إخلاء حيفا والانسحاب شمالاً.

ولقد امتازت السنوات الثلاث التي انقضت بين تحرير القوات البريطانية لفلسطين وبين صعود حضرة عبد البهاء بتقوية عظيمة للهيبة التي فاز بها الدين في مركزه العالمي على شدة ما عانى من اضطهادات، كما امتازت بتوسع أعظم في دائرة الفعاليات التبليغية في شتى أنحاء العالم، وبفضل تلك الحرب ابتعد أخيراً، وبعد طول انتظار، الخطر الذي ظل ما لا يقل عن خمس وستين سنة يهدد مؤسسي الدين ومركز ميثاقه ابتعاداً تاماً. ومنذ ذلك الحين تمتع رأس الدين كما تمتع الحَرَمان التوأمان المقدسان في مرج عكاء وسفح الكرمل لأول مرة بتحرر اتسع فيما بعد إلى اعتراف أصرح بمؤسسات الدين، وذلك بفضل إحلال نظام حكومي تحرري جديد عوضاً عن الإدارة الفاسدة الماضية، ولم تكن السلطات البريطانية بطيئة في الإفصاح عن تقديرها للدور الذي قام به حضرة عبد البهاء في تخفيف الويلات التي أرهقت سكان الأرض المقدسة أثناء ذلك الصراع المحزن. ومما عمل على رفع مستوى الهيبة التي كان دين حضرة بهاء الله يكتسبها تدريجاً تحت إمرة حضرة عبد البهاء الملهمة الإهداء له بلقب الفروسية في احتفال عقد من أجله خصيصاً في حيفا في مقر الحاكم البريطاني اجتمع له فيه كثير من وجوه الطوائف المختلفة. ومنها الزيارة التي قام بها الجنرال أللنبي وعقيلته فاستضافهما على الغداء في البهجة، وقادهما إلى مقام حضرة بهاء الله، ومنها لقاؤه في منزله بحيفا للملك فيصل الذي أصبح ملك العراق بعد ذلك بقليل، والزيارات التي قام بها السير هربرت صموئيل[١] (الفيكونت صموئيل الكرملي فيما بعد) قبل أن يختار مندوباً سامياً لفلسطين بعد ذلك، ولقاؤه للورد لامنجتون الذي زاره أيضاً في حيفا، ولقاؤه لحاكم القدس آنذاك السير رونالد ستورز[٢]، ومنها

---

(١) Sir Herbert Samuel
(٢) Sir Ronald Storrs

الشواهد المتضاعفة على اعتراف كل الطوائف الدينية بمقامه الفذ الرفيع، سواء في ذلك الطائفة الإسلامية والمسيحية واليهودية، ومنها سيل الزائرين الذين أقبلوا في أمان نسبي من الشرق والغرب إلى الأرض المقدسة زرافات لزيارة المقامات في عكاء وحيفا، وليظهروا له ولاءهم وخضوعهم وليحتفلوا بالحماية الرائعة التي تولت بها العناية الإلٰهية الدين وأتباعه، وليشكروا الله على تحرير رأس الدين ومركزه العالمي من النير التركي.

على حين كانت ولاية حضرة عبد البهاء تشارف نهايتها، كانت الشواهد تتضاعف على تفتح الدين تفتحاً متعدد النواحي لا يقاوم في الشرق والغرب، وذلك بتشكيل هيئاته وتثبيتها وتوسيع دائرة فعالياته ونفوذه. ففي مدينة عشق آباد كمل تشييد مشرق الأذكار الذي بدأه بنفسه كمالاً ناجحاً، وفي ويلمت تم حفر الأساس لمعبد الغرب الأم، وأبرم العقد الخاص بتشييد قاعدة البناء. وفي بغداد انصاع المؤمنون لتعليمات حضرة عبد البهاء الخاصة واتخذت الخطوات الأساسية لترميم وتقوية أسس البيت الأعظم المتصل بذكرى والده، وفي الأرض المقدسة ابتيعت أرض شاسعة تقع إلى شرق مقام حضرة الباب وذلك بجهود حرم حضرة عبد البهاء ومعونة البهائيين في الشرق والغرب، لتكون مكاناً تشيّد عليه أول مدرسة بهائية في مركز الإدارة العالمية للدين، وابتيعت قطعة من الأرض بجوار دار حضرة عبد البهاء لدار ضيافة غربية شيدها المؤمنون الأمريكيون بعد صعوده مباشرة. ورفعت السلطات المدنية الضريبة عن دار الضيافة الشرقية التي شيدها مؤمن من مؤمني عشق آباد على سفح الكرمل بعد دفن رفات حضرة الباب بقليل، وذلك لراحة زائري المقامات المقدسة (وهي أول مرة يتاح مثل هذا الامتياز منذ تأسيس الدين في الأرض المقدسة). واعتنق الدين عالم الحشرات المشهور الدكتور أوجست فوريل[1] بواسطة لوح أرسله إليه حضرة عبد البهاء، وكان من أخطر ما كتب المولى شأناً. وكان من أعظم ألواحه أهمية، إجابته عن الرسالة التي وجهتها

---

(١) Dr. Auguste Forel

إليه اللجنة التنفيذية لـ«المنظمة المركزية للسلام الدائم»، تلك الإجابة التي أرسلها إليهم في مدينة لاهاي على أيدي وفد خاص. وفتح الدين قارة جديدة استجابة لألواح الخطة الإلٰهية التي أزيح الستار عنها في أول مؤتمر عقد بعد الحرب، وذلك أن هايد دن[1] الكبير القلب المقدام هجر منزله في كاليفورنيا تواً وهو في الثانية والستين من العمر واستقر رائداً في أستراليا تؤازره زوجه، وهناك استطاع أن يحمل الرسالة إلى ما لا يقل عن سبعمائة بلدة في تلك البلاد. وبدأت قصة جديدة حين قامت النجمة البازغة أمة حضرة بهاء الله مارثا روت[2] المظفرة الخالدة التي وصفها مولاها بأنها «بشيرة الملكوت» و«منادية الميثاق» استجابة لتلك الألواح نفسها وما فيها من نداءات، فبدأت أول رحلة من رحلاتها التاريخية التي امتدّت على فترة قوامها عشرون سنة، والتي طافت فيها حول الكرة الأرضية عدة مرات ولم تنته إلا حين صعدت غريبة بعيدة عن وطنها متفانية في خدمة الأمر الذي أحبته كثيراً. هذه الأحداث تشير إلى المرحلة الختامية من ولاية كانت خاتمة انتصار عصر البطولة المجيد من الدورة البهائية، وسيخلدها التاريخ على أنها من أمجد فترات القرن البهائي الأول وأخصبها.

---

(١) Hyde Dunn

(٢) Martha Root

صعود حضرة عبد البهاء

انتهى الآن عمل حضرة عبد البهاء العظيم، وأنجزت الرسالة التاريخية التي حمّله إيّاها والده منذ تسع وعشرين سنة خلت إنجازاً مجيداً، فكتب بذلك فصل خالد في تاريخ القرن البهائي الأول وشارف النهاية عصر البطولة المجيد من الدورة البهائية، ذلك العصر الذي اشترك فيه حضرة عبد البهاء منذ البداية، ولعب فيه دوراً فريداً، ولقد قاسى كما لم يقاس أحد من الذين آمنوا بالأمر وتَجَرَّعُوا كأس الشهادة، وجاهد كما لم يجاهد أحد من أبطاله العظام، وشهد من الفتوحات ما لم يشهده المبشر بالدين ولا مؤسس الدين.

وفي نهاية رحلاته الغربية الشاقة التي استنزفت آخر دانق من قوته المضمحلة كتب يقول: «* أيّها الأحباء سيأتي وقت أفارقكم فيه، لقد فعلت كل ما يجب عليّ أن أفعله، وخدمت أمر حضرة بهاء الله بقدر ما أوتيت من قوة، ولم أهدأ في حياتي لا ليلاً ولا نهاراً، وإني لآمل كل الأمل أن أرى الأحباء الأعزاء يتحملون مسؤوليات الأمر المبارك، أيام حياتي معدودة ولم يعد لي فيها من سرور سوى هذا الأمل»، ومن قبل ذلك بعدة سنوات أشار إلى صعوده بقوله: «* أيها الأحباء الأوفياء! إذا اتفق في وقت من الأوقات أن حدثت في البقعة المباركة حوادث مؤلمة فلا تضطربوا ولا تفزعوا ولا تخافوا ولا تحزنوا قط! فإن ما يحدث يكون سبباً لعلو كلمة الله وانتشار نفحاته». ثم بقوله أيضاً: «* اعلموا أني بينكم دائماً أبداً سواء أكنت في هذا العالم أم لم أكن». كما أنه نصح لأحبائه في أحد ألواحه الأخيرة بقوله: «* لا ينبغي لكم أن تنظروا لشخص عبد البهاء لأنه سوف يودعكم آخر الأمر، وإنما انظروا إلى كلمة الله... على أحباء الله أن يقوموا بثبات راسخ بحيث

لو أصبح مائة من أمثال عبد البهاء هدفا لسهام البلاء في لحظة واحدة لما تغير العزم ولا النية ولما تبدل الاشتعال والانجذاب والاشتغال بخدمة أمر الله».

وفي لوح وجهه إلى أحباء أمريكا قبل صعوده بأيام قلائل أرخى العنان لحنينه المكبوت إلى مغادرة هذا العالم فقال: «* لقد هجرت العالم وأهله... أضطرب في قفص هذا العالم اضطراب الطائر المفزع يضرب بجناحيه وذنبه. وفي كل يوم أحن إلى الطيران إلى ملكوتك. يا بهاء الأبهى! اسقني كأس الفداء ونجني». وقبل صعوده بستة أشهر تقريباً أنزل مناجاة تشريفاً لأحد أقارب حضرة الباب فكتب فيها يقول: «رَبِّ قد وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً وقد بلغت من العمر عتياً، فما بقي لي لا حركة ولا سكون ولا قوة حتى أقوم بها على عبودية أحبتك... رب رب عجل في عروجي إلى عتبتك العليا... ووفودي على باب فضلك في جوار رحمتك الكبرى».

ومن الأحلام التي كان يراها، ومن الأحاديث التي كان يتفضل بها، ومن الألواح التي كان ينزلها، كان اقتراب خاتمته الحثيث يزداد اتضاحاً، فقبل صعوده بشهرين أخبر أهله بحلم رآه، قال: «* رأيتني أقف في محراب مسجد عظيم مكان الإمام، وفي تلك الأثناء أدركت أن عدداً عظيماً من الناس طفقوا يدخلون جماعة في أثر جماعة، فيزداد بهم عدد المصلين حتى أصبحوا جمعاً غفيراً واصطفوا من خلفي، وفي وقفتي هذه أذّنت فيهم بصوت مرتفع، ثم خطر لي بغتة أن أخرج من المسجد، فلما وجدت نفسي خارجه فكرت: (لماذا خرجت قبل إنهاء الصلاة) ولكني قلت لنفسي: لابأس! ما دمت قد أذّنت للصلاة بصوت مرتفع فإن هذا الجمع الغفير سوف يؤدي الصلاة وحده». وبعد أسابيع قليلة، حين كان يقيم في غرفة منعزلة في حديقة منزله، قصّ حلماً آخر على من كان حوله قال: «رأيت حلماً، وشاهدت الجمال المبارك يقبل عليّ ويقول لي: اهدم هذه الغرفة». ولم يدرك أحد من الحاضرين دلالة هذا الحلم حتى صعد حضرته بعد ذلك بسرعة. حينذاك

اتضح لهم جميعاً أن ما أريد بكلمة الغرفة إنما كان هيكل جسده.

وقبل شهر من صعوده (الذي حدث في الساعات الأولى من اليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني ١٩٢١م وهو في عامه الثامن والسبعين) أشار إلى ذلك صراحة في كلمات مستبشرة مطمئنة وجهها إلى مؤمن كان يندب موت أخيه، وقبل أسبوعين من صعوده تحدث إلى بستانيه المخلص في نغمة تشير إشارة واضحة إلى أنه يعلم اقتراب أجله، قال: «لقد تعبت تعباً لا يوصف بوصف وبلغ بي الأمر مبلغه بحيث يجب أن أترك كل شيء وأفر، إنني أعجز عن المشي من شدة الضعف» ومضى يقول: «ولقد اتفق لي في أواخر أيام الجمال المبارك أن وردت ساحته المقدسة يوماً وتشرفت بدخول غرفة التحرير ونزول الآيات في البهجة فلاحظت أن الألواح والأوراق والآثار العديدة قد تبعثرت في أطراف الغرفة رزماً رزماً فشرعت على الفور في جمع تلك الأوراق فشاهدني الجمال المبارك وتفضل فقال: (ماذا تفعل؟ لا فائدة من جمع هذه الأوراق! يجب أن أترك كل شيء وأرحل) وأنا الآن قد أتممت أعمالي ولست قادراً على تحمل ما هو أكثر من هذا، فيجب إذاً أن أترك كل شيء وأرحل».

وطفق حضرة عبد البهاء حتى اليوم الأخير من حياته الأرضية يغدق المحبة التي كان يغدقها من قبل على الرفيع والوضيع على حد سواء، ويبذل المعونة التي كان يبذلها من قبل للفقير والمسكين، ويقوم بما كان يقوم به نحو دين والده من واجبات كانت ديدنه من أيام طفولته، وفي يوم الجمعة السابق لصعوده شهد صلاة الظهر في المسجد، رغم إعيائه، وفرّق الصدقات من بعد ذلك على الفقراء كما كانت عادته، وأملى بضعة ألواح، كانت هي آخر ما أنزل، وبارك زواج خادم أمين كان حضرته أصر على أن يتم في ذلك اليوم، وحضر اجتماع الأحبّاء المعتاد في منزله، فلما كان اليوم التالي أحسّ بالحمى، ولما كان غير قادر على مغادرة المنزل في يوم الأحد التالي فقد أرسل جميع الأحباء إلى مقام حضرة الباب ليحضروا الاحتفال الذي أقامه زائر

فارسي بمناسبة ذكرى إعلان الميثاق، واستقبل بحفاوته المواتية ورقّة حاشيته مفتي حيفا ورئيس بلديّتها ورئيس شرطتها في عصر ذلك اليوم نفسه رغم الإعياء المتزايد، وفي تلك الليلة، وهي آخر ليلة من حياته، استفسر عن صحة كل فرد من أفراد عائلته وكذلك عن صحة الزوار والأحباء في حيفا قبل أن يأوي إلى فراشه.

وفي الساعة الواحدة والربع صباحاً نهض ومضى إلى منضدة في غرفته وشرب قليلاً من الماء ثم عاد إلى فراشه، وبعد قليل طلب إلى إحدى ابنتيه اللتين سهرتا عليه أن ترفع الستائر الشبكيّة شاكياً من أنه يجد صعوبة في التنفس، وأحضر له شيء من ماء الورد فشرب منه ثم استلقى مرة أخرى، فلما عرض عليه الطعام قال بوضوح: «أتريدون أن أتناول شيئاً من الطعام وأنا ذاهب؟» وبعد دقيقة أخرى رفّت روحه بجناحيها صاعدة إلى مقرها الأبدي لتنضم، بعد حين طويل، إلى مجد أبيه المحبوب، وتتذوق سعادة الاتحاد معه اتحاداً دائماً.

وانتشرت أنباء صعوده المفاجئ غير المتوقع انتشار النار المستشرية في أرجاء المدينة، وطيّرت في الحال على أسلاك البرق إلى أنحاء المعمورة القصية، فما لبث أن صعق الحزن جامعة أتباع حضرة بهاء الله في الشرق والغرب وانهالت الرسائل من القاصي والداني، من الرفيع والوضيع عن طريق البرق والبريد حاملة إلى العائلة الثكلى الملتاعة عبارات التمجيد والإخلاص والحزن والرثاء.

أبرق ونستن تشرشل[١] وزير المستعمرات البريطانية إلى السير هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين على الفور مكلفاً إياه أن «يبلغ الجامعة البهائية باسم حكومة جلالة الملك عزاءها ومشاطرتها الأحزان». وأبرق الفيكونت أللنبي المندوب السامي في مصر إلى المندوب السامي في فلسطين راجياً إياه أن «يبلغ أقارب المرحوم السير عبد البهاء عباس أفندي والجامعة

---

(١) Mr. Winston Churchill

البهائية عزاءه الحار في فقدان الزعيم المبجل». وكلف مجلس الوزراء في بغداد رئيس الوزراء السيد عبد الرحمن أن يبلغ «عزاءهم إلى أسرة صاحب الفضيلة عبد البهاء في مصيبتهم». وأرسل الجنرال كونجريف[1] القائد العام للبعثة المصرية العسكرية إلى المندوب السامي في فلسطين رسالة يرجوه فيها أن «يبلغ أحر العزاء لأسرة المرحوم السير عباس البهائي». وكتب الجنرال السير آرثر موني[2] حاكم فلسطين السابق فعبّر عن حزنه واحترامه العميقين له وإعجابه به وعن مؤاساته في الخسارة التي تكبدتها أسرته. وكتبت شخصية من الشخصيات الممتازة في جوّ جامعة أكسفورد العلمي، وهو أستاذ مشهور وعالم جليل باسمه واسم زوجه فقال: «إن الصعود وراء الحجاب إلى حياة أكمل وأتم لا بد أن يكون عجيباً ومباركاً على نحو خاص بالقياس إلى من سما بأفكاره وجاهد في أن يحيى حياة سامية هنا على الأرض».

أسهمت كثير من الجرائد المختلفة أمثال التايمز[3] اللندنية والدايلي ميل[4] والمورنينغ بوست[5] والنيويورك ورلد[6] ولوتان[7] والتايمز الهندية[8] وغيرها من الجرائد الصادرة باللغات المختلفة وفي الأقطار المختلفة في تأبين ذلك الذي أدى لقضية الإخاء الإنساني والسلام العالمي هذه الخدمات الشهيرة الخالدة.

وأرسل المندوب السامي السير هربرت صموئيل من فوره رسالة يفصح فيها عن رغبته في تشييع الجنازة لكي «أعبر عن احترامي لعقيدته وتبجيلي لشخصه» كما كتب فيما بعد. أما موكب الجنازة الذي سار صباح الثلاثاء، والذي لم تشهد له فلسطين مثيلاً من قبل، فقد اشترك فيه ما لا يقل عن عشرة

(١) General Congreve
(٢) General Sir Arthur Money
(٣) London Times
(٤) Daily Mail
(٥) Morning Post
(٦) New York World
(٧) Le Temps
(٨) Indian Times

آلاف نسمة تمثل كل طبقة ودين وجنس في هذه البلاد، ولقد شهد المندوب السامي فيما بعد فقال: «اجتمعت جموع غفيرة آسفة على موته ومستبشرة بذكرى حياته». وكذلك كتب السير رونالد ستورز، حاكم القدس حينذاك فقال في وصف موكب الجنازة: «لم أعرف قط تعبيراً أشد اتحاداً عن الأسف والاحترام كذلك الذي أوحت به بساطة ذلك الموكب المطلقة».

وحمل التابوت الذي يحتوي رفات حضرة عبد البهاء إلى مقرّه الأخير على أكتاف أحبائه، وتقدمت موكب الجنازة كوكبة من شرطة المدينة كحرس شرف، تلاها بالترتيب فريق الكشافة الإسلامية والمسيحية رافعين أعلامهم، ثم طائفة من المرتلين المسلمين يرتلون آيات القرآن، ثم أقطاب المسلمين وعلى رأسهم المفتي، ثم بعض القساوسة اللاتين واليونان والأنجليكان وسار خلف التابوت أفراد عائلته والسير هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني والسير رونالد ستورز حاكم القدس والسير ستيوارت سايمز[١] حاكم فينيقيا ورجال الدولة وقناصل الدول المختلفة المقيمين بحيفا، ووجوه فلسطين من المسلمين واليهود والمسيحيين والدروز، كما سار المصريون واليونان والأتراك والعرب والأكراد والأوروبيون والأمريكيون رجالاً ونساء وأطفالاً، ورقى الموكب الثاكل الطويل في سيره البطيء، بين نحيب القلوب المفجوعة وأنينها، سفوح الكرمل حتى وصل إلى مقام حضرة الباب.

وبجوار المدخل الشرقي للمقام وضع التابوت المقدس على منضدة عادية وبمحضر من هذا الجمع الحاشد ألقى تسعة خطباء من المسلمين والمسيحيّين واليهود خطبهم التأبينية وكان من بينهم مفتي حيفا، فلما فرغ هؤلاء تقدم المندوب السامي من التابوت وانحنى برأسه نحو المقام ورفع لحضرة عبد البهاء فروض الوداع الأخير، وحذا حذوه رجال الدولة الآخرون. ثم نقل التابوت إلى إحدى غرفات المقام، وهناك خفض بحزن وإجلال ووضع في مقره الأخير في مدفن مجاور لذلك الذي ترقد فيه رفات حضرة الباب.

---

(١) Sir Stewart Symes

وفي غضون الأسبوع الذي تلا صعوده كان الطعام يقدم يومياً في منزله لفقراء من حيفا يتراوحون بين الخمسين فقيراً والمائة فقير، على حين فرقت الحنطة لذكراه في اليوم السابع فيما يقرب من ألف فقير، بغض الطرف عن عقائدهم أو أجناسهم، وفي اليوم الأربعين أقيم احتفال مهيب تخليداً لذكراه دعي إليه ما يقرب من ستمائة نسمة من أهالي حيفا وعكاء والأماكن المجاورة في فلسطين وسوريا بمن فيهم رجال الدولة ووجوه من مختلف الملل والأجناس، وقدم الطعام لأكثر من مائة فقير في ذلك اليوم أيضاً.

ونهض أحد الضيوف المجتمعين، وهو حاكم فينيقيا فألقى خطابه التأبيني الأخير لذكرى حضرة عبد البهاء بقوله: «أعتقد أن لدى الكثيرين منا صورة واضحة للسير عبد البهاء عباس، لهامته الجليلة وهو يمشي مفكراً في شوارعنا، لمسلكه اللطيف الرقيق، لشفقته، لحبّه للأطفال والأزهار، لكرمه وعنايته بالفقراء المساكين، وقد بلغ من لطفه وبساطته أن كان المرء ينسى أنه بمحضر معلم عظيم، وإن كتاباته وأحاديثه ما زالت عزاء وإلهاماً لمئات وألوف من الناس في الشرق والغرب».

وهكذا انتهت ولاية من كان يجسّد، بفضل المنزلة التي وهبه إيّاها والده، مؤسسة لا شبيه لها في التاريخ الديني كله، وهي ولاية تشير إلى المرحلة النهائية من العصر الرسولي البطولي الذي هو أمجد عصور دورة حضرة بهاء الله.

على يديه تم إعلان الميثاق، وذلك «الميراث المرغوب الذي لا عدل له» الذي أورثه إياه مؤسس الدورة البهائية، كما تم الدفاع عنه وثبتت حقيقته، وبتلك القوة التي منحته إياها هذه الأداة الإلٰهية المقدسة اخترق الغرب نور دين الله الجديد وانتشر حتى جزائر المحيط الهادئ، وأضاء حواشي قارة أستراليشيا، وبتدخله الشخصي ذاع صيت الرسالة التي ذاق حاملها مرارة الحبس مدى حياته، وتجلت طبيعتها وغايتها لأول مرة في تاريخها أمام جموع من المستمعين المتحمسين من كافة الأجناس والطبقات في أهم مدن

القارة الأوروبية والأمريكية الشمالية، وبسهره الدائب نقلت رفات حضرة الباب، بعد إخفائها خمسين سنة، إلى الأرض المقدسة آمنة، واستقرت استقراراً خالداً لائقاً في البقعة التي عينها حضرة بهاء الله بنفسه وباركها بمحضره، وبفعاليته الجريئة شيد في آسيا الوسطى، في تركستان الروسية أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي، وبتشجيعه الدائم بدأت مهمة مماثلة ولكنها على نطاق أكبر، وبارك لها أرضاً في قلب قارة أمريكا الشمالية، وبفضل العناية التي ظللته منذ افتتاح عهده ذلّ عدوه السلطاني حتى تساوى بالتراب، واستؤصلت شأفة الناقض الأكبر لميثاق والده، وزال زوالاً نهائياً ذلك الخطر الذي كان يتهدد قلب الدين منذ أن أخرج حضرة بهاء الله إلى الأراضي التركية، وبمتابعته لتعليماته وعمله بمقتضى المبادئ والشرائع التي سنها والده تشكلت الهيئات الأساسية المبشرة بالافتتاح الرسمي للنظام الإداري الذي أخذ يتأسس بعد صعوده. بجهوده الموصولة اتضحت المبادئ والتعاليم التي تكوّن لحمة إلهام والده وسداه وتدعمت أصولها الأساسية وشرحت ونفذت موادها تنفيذاً مفصلاً وتجلت صحة حقائقها وضرورتها تجلياً كاملاً، كما يتضح ذلك من موضوعاته التي كتبها، وآلاف الألواح التي أنزلها، وخطبه ومناجاته وأشعاره وتفسيراته التي خلفها للأجيال القادمة ومعظمها بالفارسية وبعضها بالعربية وقليل منها بالتركية، وبالإنذارات التي نطق بها قدّرت للإنسانية الغافلة الغارقة في المادية الناسية لربها الأخطار التي تهدد حياتها المنظمة، واضطرت، نتيجة لضلالها الملحّ، إلى أن تتحمل وقع الصدمات المبدئية لهذا الانقلاب العالمي الذي ما زال إلى يومنا هذا يزعزع أسس المجتمع الإنساني، وأخيراً بتلك المسؤولية المهمة التي عهد بها إلى الجامعة الباسلة التي سكبت فتوحات أفرادها الراسخة نوراً وهاجاً على صفحات ولايته، بذلك نفذ خطة استطاعت، بعد افتتاحها الرسمي مباشرة، أن تفوز بفتح قارة أستراليا، وعملت فيما بعد على اجتذاب قلب ملكة مؤمنة إلى دين والده، وما زالت إلى اليوم بفضل تفتح إمكانياتها تفتحاً لا يقاوم ترقى بالحياة الروحية رقياً مدهشاً في كافة جمهوريات أمريكا اللاتينية فلا تلبث حتى تكتب خاتمة لائقة لتاريخ قرن كامل.

وإن عرضاً للمعالم البارزة في هذه الولاية المباركة المثمرة لن يحرمنا من ذكر النبوءات التي سطرها مركز ميثاق حضرة بهاء الله المعصوم. تخبرنا هذه النبوءات بعنف الهجوم الذي يثيره تقدم الدين الحثيث في الغرب وفي الهند والشرق الأقصى حين تلتقي نُظُم رجال الدين الطبقية في الأديان المسيحية والبوذية والهندوسيّة. وهي تتنبأ بالفتنة التي سوف يثيرها تحرره من قيود الرجعية الدينية في أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا. وهي تتنبأ باجتماع بني إسرائيل في وطنهم القديم. ورفع علم بهاء الله في مصر معقل الإسلام السني، وضياع نفوذ رجال الشيعة القوي في إيران، والبؤس الذي يجب أن يخيّم على بقيّة ناقضي عهد حضرة بهاء الله في مركز دينه العالمي، وبهاء المؤسسات التي سوف يشيدها ذلك الدين الظافر على سفوح جبل قدر له أن يتصل بمدينة عكاء اتصالاً يجعل منها عاصمة واحدة فخمة. فلا تلبث حتى تضم الهيئات الروحية والإدارية للجامعة البهائية العالمية المقبلة، والشرف الواضح الذي سوف يتمتع به في المستقبل البعيد سكان وطن حضرة بهاء الله عامة، وحكومته خاصة، والمنزلة الفريدة المحسودة التي ستتبوؤها جامعة الاسم الأعظم في أمريكا الشمالية، كنتيجة مباشرة لتنفيذ الرسالة العالمية التي عهد بها إليهم، وتتنبأ أخيراً بخلاصة هذا كله وذروة هذا كله بأنه «* سيرتفع العلم الإلهي على جميع الأمم» والجنس البشري سيتّحد قاطبة حين يدخل «* الكل في دين واحد... وجنس واحد وقوم واحد ويسكنون في وطن واحد هو الكرة الأرضية».

كما أنه لا يمكننا أن نغفل الانقلابات الثورية في الدنيا العريضة التي شهدتها هذه الولاية وهي انقلابات فاضت مباشرة عن الإنذارات التي نطق بها حضرة الباب في أول فصل من فصول «قيوم الأسماء» الذي نزل في الليلة التي أعلن فيها رسالته في شيراز، والتي عززتها فيما بعد الفقرات الحافلة التي وجهها حضرة بهاء الله إلى ملوك الأرض وزعماء الأديان في سورة الملوك والكتاب الأقدس. ويمكن أن يقال إن انقلاب النظام الملكي في البرتغال والإمبراطوري في الصين إلى النظام الجمهوري، وزوال القيصرية في روسيا

والإمبراطورية في ألمانيا والنمسة والمصير الشنيع الذي آل إليه ملوكها، واغتيال ناصر الدين شاه وسقوط السلطان عبد الحميد، كل هذا يمكن أن يقال عنه إنه قد أشار إلى مراحل أخرى من تنفيذ تلك العملية المحطمة التي دل على افتتاحها في أيام حضرة بهاء الله اغتيال السلطان عبد العزيز، وسقوط نابليون الثالث العنيف وزوال الإمبراطورية الثالثة. والحبس الاختياري الذي فرضه البابا على نفسه وتقلص سلطته الزّمنية بحيث أوشكت على الزوال. كما عجل بالعملية نفسها بعد صعود حضرة عبد البهاء انتقال الحكم من آل قاجار في إيران، وخلع الملكية في إسبانيا، وزوال السلطنة والخلافة في تركيا، والانحطاط السريع للشيعة الإسلامية والإرساليات المسيحية في الشرق والمصير القاسي الذي يأخذ الآن كثيراً من الرؤوس المتوجة في أوروبا.

كما أنه لا يمكننا أن نفرغ من هذا الموضوع دون أن نشير إشارة خاصة إلى أسماء العظماء والفقهاء الذين تحركوا في مراحل مختلفة من ولاية حضرة عبد البهاء لا ليخدموا حضرة عبد البهاء وحده بل ليخدموا دين حضرة بهاء الله أيضاً. فأسماء أمثال الكونت ليو تولستوي[١] والأستاذ أرمينيوس فامبري والأستاذ أوجست فوريل والدكتور دايفيد ستار جوردان والأرشديكون ولبرفورس المبجل والأستاذ جويت في باليول والدكتور ت. ك. شايين والدكتور إيستلين كاربنتر في جامعة أكسفورد والفيكونت صموئيل الكرملي واللورد لامنجتون والسير فالنتين تشيرول[٢] والحبر ستيفان وايز[٣] والأمير محمد علي المصري، والشيخ محمد عبده، ومدحت باشا وخورشيد باشا تشهد، بطبيعة الألقاب التي تحملها، بالتقدم الذي حقّقه دين حضرة بهاءالله تحت زعامة ابنه المبجّل النابهة، وهذه الألقاب قُدّر لوقعها أن يعلو علواً كبيراً في السنوات التالية بتلك الشهادات التاريخية المدونة المتكررة التي سطرتها اعترافها برسالة حضرة بهاء الله.

---

(١) Count Leo Tolstoy

(٢) Sir Valentine Chirol

(٣) Rabbi Stephen Wise

أما هؤلاء الأعداء الذين ثابروا على إطفاء نور ميثاق حضرة بهاء الله، فإن القصاص العادل الذي حل بهم لا يقل وضوحاً عن ذلك المصير الذي أخذ أولئك الأدنياء الذين جاهدوا، في فترة متقدمة، لأن يقضوا على آمال الدين الناهض ويقوضوا أسسه.

وقد سبقت الإشارة إلى اغتيال ناصر الدين شاه الطاغية وما تلا ذلك من انقراض أسرة قاجار. أما السلطان عبد الحميد فإنه بعد عزله سجن وحكم عليه بحياة ملؤها الخمول والإذلال يلعنه ولاته ويسبه شعبه. أما جمال باشا المتعطش للدماء الذي صمم على أن يصلب حضرة عبد البهاء ويسوي مقام حضرة بهاء الله المقدس بالأرض، فقد اضطر إلى الفرار نجاة بحياته، وذبح وهو معتصم بجبال القوقاز على يد أرمني ثار لإخوانه الذين اضطهدهم بلا رحمة ولا شفقة. أما جمال الدين الأفغاني المتآمر الذي أضرت عداوته القاسية وتأثيره القوي بتقدم الأمر في بلاد الشرق الأدنى، فقد أصابه السرطان بعد حياة متقلبة متلونة ثم هلك بائساً بعد أن اقتطع جزء كبير من لسانه في عملية جراحية فاشلة. أما أعضاء بعثة التحقيق والتحري الأربعة الذين أرسلوا من الآستانة ليختموا على مصير حضرة عبد البهاء فقد عانوا، كل بدوره، إذلالاً لا يقل شناعة عن ذلك الذي دبروه له. فهذا عارف بيك رئيس البعثة يحاول خلسة أن يفر من وجه تركيا الفتاة فترديه رصاصة الحارس قتيلاً. وهذا أدهم بيك يفلح في الفرار إلى مصر، ولكن خادمه يسلبه كل متاعه أثناء الطريق، ويضطر آخر الأمر إلى أن يلتمس المعونة المالية من البهائيين في القاهرة، وهو التماس لم يرفض، وبعد هذا يلتمس المعونة من حضرة عبد البهاء الذي يطلب إلى الأحباء على الفور أن يقدموا له باسمه مبلغاً من المال وهو طلب لم يستطيعوا تنفيذه نظراً لاختفائه المفاجئ. وينفى أحد العضوين الآخرين إلى مكان بعيد وبعد ذلك يموت الآخر في فقر مدقع، أما يحيى بيك الخسيس رئيس شرطة عكاء الذي كان أداة طيعة قوية في يد ميرزا محمد علي الناقض الأكبر لميثاق حضرة بهاء الله فقد رأى بعينه انهيار كل

الآمال التي حلم بها، وخسر مركزه والتجأ آخر الأمر إلى التماس المعونة المالية من حضرة عبد البهاء. وفي الآستانة قبض في يوم واحد من السنة التي شهدت خلع عبد الحميد على ما لا يقل عن واحد وثلاثين رجلاً من أكابر الدولة بمن فيهم الوزراء ورجالات الدولة وطائفة من أعداء الأمر الألداء وحكم عليهم بالشنق، وهو قصاص رائع للدور الذي لعبوه في دعمهم لحكم ظالم وتمسكهم باضطهاد الأمر ومحاولتهم هدم هيئاته ونظمه.

أما في إيران فإنه، فضلاً عن الشاه الذي أبعد عن الساحة وهو في أوج عزه وعنفوان قوته، إبعاداً مفزعاً، قد خمل ذكر عدد من الأمراء والوزراء والمجتهدين الذين اشتركوا بنشاط في اضطهاد الطائفة المتهمة، بمن فيهم كامران ميرزا وهو نائب السلطنة، ثم جلال الدولة، وميرزا علي أصغر خان وهو الأتابك الأعظم، والشيخ محمد تقي النجفي «ابن الذئب» وخسروا نفوذهم وسلطانهم واحداً بعد الآخر، وفقدوا كل أمل كان لهم في بلوغ غايتهم الخبيثة، وامتد ببعضهم الأجل ليشاهد بعينيه الشواهد المبدئية الدالة على سيادة الأمر الذي خافوه أعظم الخوف وكرهوه أعظم الكره.

فإذا لاحظنا أن في الأرض المقدسة وفي أيران وفي الولايات المتحدة الأمريكية بعض دعاة المسيحية التقليدية أمثال فاترالسكي(١) أو ويلسن(٢) أو رتشاردسن(٣) أو إيستن(٤) يلاحظون بل ويخافون في بعض الأحيان التقدم النشط الذي يبديه أمر حضرة بهاء الله في البلدان المسيحية، وينهضون ليعرقلوا تقدمه، وإذا لاحظنا الضياع المتواصل في الآونة الأخيرة لتأثيرهم واضمحلال قوتهم، واضطراب صفوفهم، وانحلال بعض إرسالياتهم وهيئاتهم القائمة منذ سنين في أوروبا والشرق الأوسط وآسيا الشرقية، إذا لاحظنا كل هذا أفلا يجوز لنا أن نعزوه إلى المقاومة التي بدأ أعضاء الهيئات المسيحية

---

(١) Vatralsky
(٢) Wilson
(٣) Richardson
(٤) Easton

المختلفة يظهرونها، في غضون ولاية حضرة عبد البهاء، حيال أتباع ومؤسسات دين يعلن أنه ليس إلا تحقيقاً للوعد الذي وعده السيد المسيح، وأنه مؤسس الملكوت الذي تمناه هو نفسه وتنبأ به؟

وأخيراً فإن هذا الذي أظهر منذ تأسيس الميثاق الإلهي إلى آخر عمره كراهية أعتى من تلك التي غمرت صدور كل أعداء حضرة عبد البهاء السابقي الذكر، والذي كاد له كيداً أقوى من كيدهم له، ولطخ دين والده بعار أكبر من أي عار لطخه به أعداؤه الخارجيون، فقد قضي على مثل هذا الرجل وطغمة أعوانه الناقضين الذين ضللهم وحرضهم أن يشهدوا انهيار نياتهم الخبيثة، وتبخر كل آمالهم، وافتضاح دوافعهم الحقيقية، والقضاء التام على كل شرفهم السابق ومجدهم يوماً فيوماً وبصورة متزايدة تماماً كما قضي على ميرزا يحيى وأتباعه. فهذا أخوه ميرزا ضياء الله يموت قبل الأوان، وهذا ميرزا آقا جان المضلل يقتفي أثر ذلك الأخ إلى القبر بعد ثلاثة أعوام، وهذا ميرزا بديع الله شريكه الأول يغدر به وينشر وثيقة ممهورة بإمضائه يفضح فيها أعماله الخبيثة ولكنه يعود فيلتحق به لينفصل عنه مرة أخرى نتيجة لسلوك ابنته الشائن. وهذه فروغية أخت ميرزا محمد علي غير الشقيقة نراها تموت بالسرطان على حين يموت زوجها السيد علي بنوبة قلبية قبل أن يصل إليه أبناؤه، وهذا ابنه الأكبر نراه يموت بالمرض ذاته وهو في ريعان شبابه. وهذا محمد جواد القزويني الناقض اللعين يموت بائساً. وهذا شعاع الله الذي ركن إلى قتل مركز الميثاق، كما يشهد حضرة عبد البهاء في وصيته، والذي أرسله أبوه إلى الولايات المتحدة لينضم إلى إبراهيم خير الله نراه يعود من سفرته اللئيمة خائباً خاوي الوفاض. وهذا جمال البروجردي أقدر دعاة محمد علي في إيران يقع فريسة لداء وبيل قتال، وهذا السيد مهدي الدهجي الذي خان حضرة عبد البهاء وانضم إلى الناقضين يموت مغموراً معدماً تتبعه زوجته وولداه، وهذا ميرزا حسين علي الجهرُمي وميرزا حسين الشيرازي الخرطومي والحاج محمد حسين الكاشاني الذين كانوا يمثلون الناقض الأكبر في إيران والهند ومصر يفشلون في مهمتهم فشلاً ذريعاً، وهذا إبراهيم خير الله الطماع

المتغطرس الذي اختار أن يرفع علم العصيان في أمريكا ما لا يقل عن عشرين سنة، والذي كان لديه من الوقاحة ما يخون به، كتابة لا شفاهاً، حضرة عبد البهاء و«تعاليمه الكاذبة، وتفسيره الخاطئ للبهائية، ونفاقه» ويصف به رحلة حضرة عبد البهاء إلى أمريكا بأنها «ضربة قاضية لأمر الله» نراه يلقى حتفه بعد أن نطق بهذه المفتريات مباشرة، وحيداً قد تخلى عنه واحتقره أعضاء جامعة كان هو نفسه مبلّغ مؤسسيها، ونراه يلقى حتفه في الأرض التي رأت الشواهد المتضاعفة على سيادة حضرة عبد البهاء الراسخة التي عاهد نفسه في سنواته المتأخرة على استئصالها.

أما هؤلاء الذين اعتنقوا في الظاهر أمر هذا الناقض لميثاق حضرة بهاء الله، أو هؤلاء الذين شايعوه في الباطن وناصروا حضرة عبد البهاء في الظاهر، فقد تاب بعضهم آخر الأمر وغفر لهم، وضل بعضهم وخسروا إيمانهم كلية، وارتد قليل منهم، على حين تضاءل الآخرون تاركين إياه آخر الأمر وحيداً لا يناصره أحد إلا حفنة من ذوي قرباه. وعاش ذلك الذي بلغت به الجسارة، أن يقول في وجه حضرة عبد البهاء إنه لا ثقة له في أن يعيش من بعده عاش بعده عشرين سنة تقريباً، عاش ليشهد إفلاس أمره البالغ، عيشة بائسة بين جدران قصر ضمّ في يوم من الأيام جمهوراً غفيراً من أتباعه، وحرمته السلطات المدنية سدانة حرم والده نتيجة للأزمة التي أحدثها طيشه بعد صعود حضرة عبد البهاء، واضطر بعد بضع سنوات إلى إخلاء القصر الذي تردى بإهماله الفاجر إلى هوة الخراب، وأصابه شلل أقعد نصف جسده، فلزم فراشه يعاني الآلام أشهراً قبل أن يموت، ودفن على الشعائر الإسلامية بجوار مقام إسلامي في قبر لا يزال إلى يومنا هذا بدون شاهد، وهذا مذكر محزن لفراغ دعاويه التي ادعاها، وشدة الخزي الذي تردى فيه، وصرامة القصاص الذي جوزي به على أفعاله مجازاة سخيّة.

الفتـرة الرابعـة

ابتداء عصر التكوين للدّين البهائي

١٩٢١ ـ ١٩٤٤م

نشأة النظام الإداري وإقامته

بصعود حضرة عبد البهاء، الذي عاصر مولده بداية القرن الأول من التاريخ البهائي، قطع هذا القرن أكثر من ثلاثة أرباع شوطه، ذلك لأنه من قبل صعوده بسبع وسبعين سنة بزغت في أفق شيراز أنوار الدين الذي جاء به حضرة الباب، وتألقت في سماء إيران مبددة القتام العتيق الذي غلّف أهلها وغيّبهم في غياهبه، وكادت الدماء الممتازة في غزارتها، تلك التي اصطلحت الحكومة والعلماء والأمة على سفكها غير مكترثين لدلالة تلك الأنوار، مغمضين عيونهم عن بهائها، كادت تلك الدماء تقضي على مجد الدين الساطع في مسقط رأسه، ثم دعي حضرة بهاء الله في أحلك ساعة من مصائر ذلك الدين، حين كان هو نفسه سجيناً في طهران، لينفث فيه القوة من جديد، وكلّف أن يحقق هدفه الأسمى. فكشف القناع عن السر المكنون في دين حضرة الباب الجنين، وأظهر ما آتى من ثمار. وكان ذلك في بغداد حين انتهت مهلة السنوات العشر الفاصلة بين أولى بشارات هذه الرسالة وبين إعلانها. وفي أدرنة أعلنت للجنس البشري رسالة حضرة بهاء الله التي وعدت بها الدورة البابية وكل الدورات السالفة، وارتفع تحدّيها لحكام الأرض في كلا الشرق والغرب. ومن وراء أسوار عكاء مدينة السجن شرّع حامل الرسالة الإلهية الجديدة الأحكام، وصاغ المبادئ التي تكوّن لحمة نظمه العالمي وسداه، كما أبرم قبل صعوده ذلك الميثاق الذي يهدي إلى وضع أسس ذلك النظم ويساعد على المحافظة على وحدة بُناته. فما كاد ابنه الأكبر ومركز ميثاقه حضرة عبد البهاء، يتسلّح بهذه الأداة الفاعلة حتى ركز راية دين والده في القارة الأمريكية الشمالية، وأقام لهيئاته أساساً متيناً في أوروبا الغربية وفي

الشرق الأقصى وأستراليا، ووضّح مبادئه في آثاره وألواحه وخطاباته، وفسّر أحكامه، ووسّع عقيدته، وشكّل الهيئات الأساسية الأولى من نظامه الإداري المقبل، وأنشأ في روسيا أول معبد من معابده، على حين شيد على سفوح الكرمل مقاماً لائقاً لمبشره، وأرقد فيه رفاته المطهرة بيديه. واستطاع أن يذيع رسالة حضرة بهاء الله بين شعوب الغرب، وأن يرتقي بحرمة أمر الله إلى درجة لم يبلغها من قبل قط، وذلك بزياراته لعدد من مدن أوروبا والقارة الأمريكية الشمالية. وأخيراً أصدر في مغرب حياته توكيله إلى الجامعة التي أنشأها ودرّبها وغذاها بنفسه في ألواح الخطة الإلٰهية، وهي خطة تمكن أفراد هذه الجامعة من إفاضة نور الدين وإقامة شبكة نظامه الإداري في ربوع قارات العالم الخمس.

نعم، آن الأوان، للروح الباقية المحفّزة للعالم تلك التي شبت في شيراز، وتضرمت في طهران من جديد واندلعت ألسنتها في بغداد وأدرنة، ثم حملت إلى الغرب، فهي تضيء الآن حواشي القارات الخمس أن تتجسّد في هيئات تصرّف قواها الفياضة الدافعة في قنوات وتنشط نموها. ذلك لأن العصر الذي شهد مولد الدين ونشأته قد انتهى الآن، كما انتهى العصر البطولي الرسولي من دورة حضرة بهاء الله، وهو الفترة البدائية التي عاش فيها مؤسسو الدورة وتكونت فيها حياتها، وجاهد فيها أبطالها ورشفوا كأس الشهادة، وأقيمت فيها أسسها الأوّلية، الفترة التي لن يضارع بهاءها أي ظفر جاء في هذا العصر، أو أي نصر يجيء في أي عصر قادم بالغاً ما بلغ النصر من تفوق. وختمه صعود من يمكن أن تعدّ مهمته حلقة اتصال تربط العصر الذي نبتت فيه بذرة الرسالة الجديدة بتلك العصور التي تشهد أزهارها وأثمارها النهائية.

وبدأت الآن الفترة التكوينية، وهي عصر تلك الدورة الحديدي الذي قدّر لمؤسسات دين حضرة بهاء الله المحلية والمركزية والعالمية أن تتشكل فيه وتتقدم وتتوطد دعائمها وتتركز تركيزاً تاماً، وذلك تمهيداً للعصر الثالث

والأخير والذهبي الذي يشهد نهضة النظم العالمي المنطوي على الثمرة النهائية التي يؤتيها أحدث ظهور إلهي للجنس البشري، والتي يشير نضجها إلى تأسيس المدنية العالمية وافتتاح ملكوت الآب على الأرض افتتاحاً رسمياً كما وعد السيد المسيح نفسه.

إلى هذا النظم العالمي أشار حضرة الباب وهو ما زال سجين حصون آذربيجان في البيان الفارسي، أم الكتاب في الدورة البابية، إشارة واضحة وأعلن مقدمه وعقد الآصرة بينه وبين اسم حضرة بهاء الله الذي بشر هو برسالته. وإليك عبارته الفذة الواردة في الفصل السادس عشر من الواحد الثالث، قال: «طوبى لمن ينظر إلى نظم بهاء الله ويشكر ربه فإنه يظهر ولا مردّ له...» وإلى هذا النظم نفسه أشار حضرة بهاء الله الذي أنزل فيما بعد الأحكام والمبادئ التي تهيمن عليه، فقال في الكتاب الأقدس، أم الكتاب في دورته: «قد اضطرب النظم من هذا النظم الأعظم، واختلف الترتيب بهذا البديع الذي ما شهدت عين الإبداع شبهه». أما معالمه فقد وضحها مهندسه العظيم حضرة عبد البهاء في وصيته وعهده، على حين شرع من بعده أتباعه في كلا الشرق والغرب يضعون أسس هيئاته الأولى في عصر التكوين هذا من الدورة البهائية.

وعلى هذا فيمكن للسنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من القرن البهائي الأول أن تعد المرحلة الافتتاحية من مراحل الفترة التكوينية للدين، وهي عصر الانتقال الذي يعاصر نشأة النظام الإداري وإقامته، وهو النظام الذي تشاد عليه هيئات الجامعة البهائية العالمية القادمة تشييداً نهائياً في العصر الذهبي الذي يشهد كمال الدورة البهائية. ولم يكن الدستور الذي أخرج هذا النظام الإداري إلى حيز الوجود ووضح معالمه وأطلق عملياته سوى وصية حضرة عبد البهاء وعهده، وهي أعظم ما خلّف للأجيال القادمة من تراث، وأنصع ما فاضت به قريحته من فيض، وأقوى ما أعد من أداة يستوثق بها من استمرار العصور الثلاثة التي تتألف منها دورة والده.

لم تتم إقامة ميثاق حضرة بهاء الله وتأسيسه إلا بالتنفيذ المباشر لإرادته ومرماه. بينما وصية حضرة عبد البهاء يمكن أن تعد نتاجاً ناشئاً عن ذلك الوصال

الروحاني بين من ولّد قوى الدين الإلٰهي وبين من جعل مفسره الوحيد ومثله الأعلى. وإذاً فالقوى الخلاقة التي يسّرها مؤسس شريعة الله في هذا العصر قد أنجبت بتفاعلها مع قريحة مفسرها المختار المعصوم تلك الأداة التي ما يزال الجيل الحاضر عاجزاً عن إدراك مكنوناتها تمام الإدراك رغم انقضاء ثلاثة وعشرين عاماً. وعلى هذا فهذه الأداة لا يمكن، إذا نحن قدّرناها حق قدرها، أن تنفصل عمّن كفل لها الدفعة الحافزة الأولى التي خلقتها إلا بقدر ما يمكن أن تنفصل عمّن تصورها تصوراً مباشراً. ذلك لأن غاية مؤسس الظهور البهائي انصهرت في حضرة عبد البهاء انصهاراً تاماً كما لاحظنا من قبل، وكيانه متشرب لروحه تشرباً كلياً، كما أن أهدافهما وبواعثهما ممتزجتان امتزاجاً كاملاً، حتى أن الفصل بين المبادئ التي قدّرها الأول والعمل السامي المرتبط برسالة الثاني ليعادل نقض حقيقة من أهم حقائق الدين الأساسية الصحيحة.

وينبغي لنا أن نلاحظ أن النظام الإداري الذي أقامته هذه الوثيقة التاريخية هو بأصله وطبيعته فريد في تواريخ الأديان العالمية. ومما يمكننا الجزم به عن ثقة وبأطمئنان أنه لا مظهر من المظاهر الإلٰهية السابقة لحضرة بهاء الله على الإطلاق، حتى ولا حضرة محمد في كتابه الذي يقرر كل شرائع الدورة الإسلامية وأحكامها بجلاء ووضوح، قد وضع أيّ نصّ جازم يماثل النظام الإداري الذي أسسه مفسر تعاليم حضرة بهاء الله المختار، وهو نظام من شأنه أن يحمي الدين من التصدع والانشقاق حماية لا شبيه لها في أي دين سابق، وذلك بفضل المبادئ الإدارية التي أحكم مؤسسه صياغتها، والهيئات التي أنشأها، وحق التفسير الذي زوّد به ولي أمره. وأما المبدأ المهيمن على تنفيذه فلا يشبهه مبدأ من مبادئ أي نظام من الأنظمة سواء في ذلك الثيوقراطي منها أو ما ابتدعته عقول الناس لإدارة الهيئات البشرية. ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن يقال بأن نظام دين حضرة بهاء الله الإداري يطابق في شكله أو يتفق في نظريته مع أي نوع من أنواع النظم الديمقراطية أو الاستبدادية المطلقة [الأوتقراطية][1] أو الأرستقراطية الخالصة.

---

(١) Autocracy

كما أنه لا يشبه أية حكومة دينية من تلك الحكومات الثيوقراطية[1] المختلفة التي شهدها الجنس البشري في الماضي، يهودية كانت أم مسيحية أم إسلامية. إنما هو نظام يضم بنيانه بعض العناصر التي توجد في ألوان الإدارة الدنيوية الثلاثة المعترف بها، ويبرأ كل البراءة من عيوبها التي تلازمها، ويؤلف بين الحقائق السليمة التي يحتويها بلا ريب كل لون من الألوان الإدارية هذه، وذلك دون مساس ما بسلامة الحقائق الإلٰهية التي يقوم عليها في جوهره، ومن بين المعالم التي تصطلح على تمييز النظام الماثل في ظهور حضرة بهاء الله عن أي نظام حكومي بشري قائم تلك السلطة الوراثية التي يستدعى ولي أمر النظام الإداري لمباشرتها، وحق تفسير الآثار المقدسة المقتصر به وحده، ومنها حقوق بيت العدل الأعظم وسلطاته، وهو الهيئة المتفردة بالحق المطلق في تشريع الشؤون التي لم يرد بها نص صريح في الكتاب الأقدس، ومنها الحكم القاضي بإعفاء أعضاء بيت العدل هذا من المسؤولية تجاه من يمثلونهم ومن الاضطرار إلى العمل بموجب آراء هؤلاء أو معتقداتهم أو عواطفهم أو ميولهم ومنها المواد الخاصة التي تقضي بانتخاب جمهور المؤمنين لهذه الهيئة التي تكوّن الأداة التشريعية الوحيدة في الجامعة البهائية العالمية انتخاباً ديمقراطياً حراً.

أما الأعداء الذين طفقوا، منذ بداية هذا النظام الإداري وطوال السنوات الثلاث والعشرين التي عاشها إلى الآن، يحاولون في الشرق والغرب، من الداخل والخارج تشويهه والهزء به والنيل منه، ويجاهدون في عرقلة تقدمه، ويكدحون ليصدعوا صفوف أنصاره، فقد فشلوا في نيل مبتغاهم الممقوت. فها هي ذي الجهود المضنية التي بذلها أرمني طموح حاول بقصر نظره أثناء السنوات الأولى من تأسيس الدين في مصر أن يحل محله «جمعية علمية» كوّنها وتكفّلها، نراها تخفق إخفاقاً تاماً. وها هو ذا الاضطراب الذي أحدثته امرأة ضالة جاهدت مثابرة في الولايات المتحدة وبريطانيا حتى تثير الشكوك والظنون في صحة الدستور المسؤول عن إنشائه، بل وحتى تحمل السلطات المدنية في فلسطين على اتخاذ الإجراءات القانونية حيال هذه القضية، الأمر الذي ساءها رفضه باقتضاب كل

(١) Theocracy

السوء، نراه عقيماً. وها هو ذا ارتداد رائد من رواد الدين ومؤسسيه الأول في ألمانيا، أغوته هذه المرأة وضللته تضليلاً محزناً، نراه لا يحدث تأثيراً ما قل أو كثر. وها هي ذي المجلدات التي ألفها ناقض وقح ونشرها أثناء تلك الفترة في إيران حيث كان يكافح كفاحه المتبجّح لا ليهدم النظام وحده بل ليخسف الأرض بالدين الذي أنشأ ذلك النظام، نراها عقيماً كذلك. وها هي ذي الدسائس التي دسها فلول ناقضي الميثاق الذين ما كادوا يقفون على أهداف وصية حضرة عبد البهاء وأغراضها حتى هبّوا، وعلى رأسهم ميرزا بديع الله، لينتزعوا سدانة أقدس حرم في العالم البهائي من ولي الأمر المختار، نراها كذلك تحبط وتفشل وتجر عليهم وبالاً كبيراً. وها هي ذي الهجمات التالية التي شنها بعض أقطاب المسيحية في البلاد المسيحية وغير المسيحية ابتغاء تقويض أسس ذلك النظام وتشويه معالمه، نراها تعجز عن أن تدمّر ولاء أنصاره أو تصدهم عن هدفهم السامي. وها هي ذي المكائد اللئيمة الخبيثة التي دبرها كاتب سابق لحضرة عبد البهاء لم يتعظ بما جوزي به كاتب وحي حضرة بهاء الله ولا بالمصير الذي صار إليه غيره من كتبة مولاه ومترجميه في كلا الشرق والغرب، فنهض وجاهد، وما زال إلى الآن يجاهد، في نقض هذه الوثيقة الخالدة التي يستمد منها النظام سلطانه، ودحض موادها الجوهرية، نراها هي الأخرى، أي المكائد، لا تستطيع أن تعترض تقدم هيئاته في السبيل الذي رسمه له مؤسسه ولو اعتراضاً وقتياً، ولا أن تحدث شيئاً مما قد يشبه الصدع ولو شبهاً بعيداً في صفوف أنصاره الواثقين اليقظين الأقوياء.

هذه الوثيقة المؤسسة لهذا النظام، ودستور الحضارة العالمية القادمة الذي يمكن أن يعدّ من بعض وجوهه متمماً لكتاب هو أعظم الكتب شأناً ألا وهو الكتاب الأقدس، هذه الوثيقة التي دبجها حضرة عبد البهاء بخط يده وذيلها بتوقيعه وختمها بخاتمه، وكتب صدرها أثناء فترة من أظلم فترات حبسه في عكاء مدينة السجن، تعلن لنا العقائد الأساسية التي يؤمن بها أتباع دين حضرة بهاء الله إعلاناً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض، وتبين لنا طبيعة

رسالة حضرة الباب المزدوجة بلغة بيّنة واضحة لا يرقى إليها الظن ولا الشك، وتجلّي لنا المقام الكامل الذي تفرد به مؤسس الظهور البهائي، وتؤكد لنا أنه «كل عباد له وكل بأمره قائمون»، وتنبه على أهمية الكتاب الأقدس، وتقيم نظام ولاية الأمر منصباً وراثياً، وتوضح اختصاصاته الجوهرية، وتزودنا بالتدابير اللازمة لإجراء انتخاب بيت العدل الأعظم وتحدد دائرة نفوذه وتبين صلته بنظام الولاية، وتوصي بالتزامات أيادي أمر الله وتنبه على المسؤوليات الملقاة على عواتقهم، وتمتدح فضائل الميثاق المنيع الذي أبرمه حضرة بهاء الله، كما أنها تمجّد شجاعة أنصار ميثاق حضرة بهاء الله وثباتهم، وتسهب في ذكر الآلام التي عاناها المركز المختار، وتستعيد إلى الذاكرة سلوك ميرزا يحيى المخزي وعدم اكتراثه بإنذارات حضرة الباب، وتفضح في حلقات متتابعة من التدليلات خيانة ميرزا محمد علي وعصيانه واشتراك ابنه شعاع الله وأخيه ميرزا بديع الله، وتؤكد من جديد أمر طردهم، وتتنبأ بانهيار كل آمالهم، وتدعو كل الأفنان [وهم أقرباء حضرة الباب] وأيادي الأمر وجمهور أتباع حضرة بهاء الله، إلى أن ينهضوا متحدين متآزرين على نشر دينه، وأن ينتشروا في الأرض طولاً وعرضاً ويجاهدوا بلا كلل ولا ملل ويتمثلوا ببطولة حواريّي السيد المسيح، وتحذرهم من مخاطر الاختلاط بناقضي العهد، وتأمرهم بأن يقوا الدين هجمات المنافقين وعدوان المغرضين، وتنصح لهم بأن يظهروا بمسلكهم عالمية الدين الذي يعتنقونه، ويدافعوا عن مبادئه العليا. وفي هذه الوثيقة نفسها يبين صاحبها دلالة حقوق الله والغاية منها، وهي الحقوق التي فرضت من قبل في الكتاب الأقدس، ويوصي بالخضوع والإخلاص للملوك العادلين، ويفصح عن حنينه إلى الشهادة ويدعو الله أن يقبل توبة أعدائه ويغفر لهم.

فما لبث أفراد الجامعات البهائية المنتشرة في أرجاء الشرق والغرب أن قاموا ببصيرة صافية وعزيمة ماضية، ملبين النداء الذي ناداهم به صاحب وثيقة خطيرة الشأن كهذه، مدركين مهمتهم السامية، متلهفين على العمل من بعد أن تلقوا صدمة صعود حضرة عبد البهاء المباغت غير المتوقع،

مسترشدين بالخطة التي عهد بها إليهم مهندس النظام الإداري، ماضين في سبيلهم قدماً لا تعيقهم هجمات الخاذلين ولا الأعداء الحاسدين لقوة الدين المتجمعة والمتعامين عن دلالته الفذّة، فهؤلاء ما لبثوا أن قاموا ليفتتحوا عصر التكوين من دينهم، وذلك بوضعهم أسس النظام الإداري الذي من شأنه أن يتطور إلى نظام عالمي تعترف الأجيال القادمة بأنه وعد كل دورات الماضي الدينية ومجدها المتوّج. ولم يقنع أتباع دين حضرة بهاء الله بإقامة وتثبيت أركان الأداة الإدارية المهيأة لحفظ وحدة الجامعة المطردة في اتساعها وقيادة أمورهم ومصالحهم قيادة فاعلة قادرة فقط، بل عزموا أثناء العقدين التاليين لصعود حضرة عبد البهاء على أن يظهروا ويؤكدوا بأعمالهم استقلال ذلك الدين ويوسعوا دائرته وحدوده إلى نطاق أوسع، ويزيدوا عدد أنصاره الراسخين.

وينبغي أن يلاحظ أن الدور الذي تلعبه جامعة البهائيين الأمريكيين في هذا الجهاد الثلاثي العالمي، منذ صعود حضرة عبد البهاء إلى نهاية القرن البهائي الأول، دور جبار منح تقدم الدين في العالم قوة دافعة هائلة، وبرّر الثقة التي وضعها حضرة عبد البهاء نفسه في أفرادها، والثناء العاطر الذي أغدقه عليهم والآمال الكبار التي علقها على مستقبلهم. والواقع أن تأثير أفرادها كان راجحاً في الشروع بتأسيس الهيئات الإدارية البهائية وتوطيد دعائمها رجحاناً يحق به لبلادهم أن تعدّ مهد النظام الإداري الذي صوره حضرة بهاء الله وأخرجته وصية مركز ميثاقه إلى حيّز الوجود.

وينبغي ألاّ يغرب عن البال في هذا الصدد أن الخطوات التمهيدية الرامية إلى الكشف عن مجال هذا النظام الإداري ونفاذه، وهو النظام الذي أقيم الآن بعد صعود حضرة عبد البهاء إقامة رسمية، قد خطاها حضرة عبد البهاء نفسه من قبل، لا بل قد خطاها من قبله حضرة بهاء الله أثناء السنوات السابقة على صعوده. ومما يمكن أن يعد بشيراً بالمؤسسات التي كان من شأنها أن تقوم بعد انتهاء عهد البطولة المجيد مباشرة قياماً دائماً

منظماً في أرجاء العالم البهائي انتخاب حضرة بهاء الله لبعض البارزين من المؤمنين في إيران كـ«أيادي الأمر»، وشروع حضرة عبد البهاء في إقامة المحافل المحلية ومجالس الشورى في المراكز البهائية البارزة في كلا الشرق والغرب، وتشكيل وحدة المعبد البهائية في الولايات المتحدة الأمريكية، وإنشاء الأرصدة المحلية لترقية الفعاليات البهائية، وشراء الأراضي المكرسة للدين ومؤسساته المقبلة، وإنشاء جمعيات لنشر الكتب البهائية، وتشييد أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي، وبناء مقام حضرة الباب على جبل الكرمل وبناء دور ضيافة يستريح فيها المبلغون المتجولون والزائرون.

وما كادت مواد الدستور الإلٰهي الموضح لمعالم نظام دين حضرة بهاء الله الإداري تنكشف لأتباعه حتى انطلقوا يقيمون على الأسس التي وضعها أبطال الدين وأولياؤه وشهداؤه أول طبقة من صرح هيئاته الإدارية. فنهض الرواد البناة لهذا النظام الإلٰهي وقد أدركوا تمام الإدراك ضرورة إنشاء أساس عريض متين كخطوة أولى يرفعون عليها فيما بعد قواعد ذلك الصرح المشيد، وعلموا تمام العلم بأنهم إن أحكموا رفع تلك القواعد استقرت عليها آخر الأمر قبّة الصرح وهي الوحدة النهائية المتوجة له، ومضوا في سبيلهم قدماً لا يعيقهم عن المضي فيه ما أحدثه ناقضو الميثاق في أرض المقصود من أزمة، ولا ما أثاره المغرضون في مصر من اضطراب، ولا ما نتج عن استيلاء الشيعة على بيت حضرة بهاء الله ببغداد من تبلبل، ولا ما طفق يواجه الدين في روسيا من مخاطر متزايدة، ولا ما استقبلت به الفعاليات الأولى التي بدأتها جامعة البهائيين الأمريكيين من زراية واستخفاف في بعض الأوساط التي أساءت تماماً فهم الغاية منها، نهض هؤلاء الرواد متحدين اتحاداً تاماً على اختلاف وجهات نظرهم وعاداتهم ولغاتهم وأخذوا على عواتقهم ذلك الواجب المزدوج المنطوي على تأسيس محافلهم المحلية وتوطيد دعائمها، تلك المحافل التي كان ينتخبها جمهور المؤمنين والتي كانت مهمتها توجيه فعاليات أتباع الدين المترامي الأبعاد وتنظيمها والتوفيق بينها وتوسيع ميدانها. وتأسست بالتدريج هذه المجالس المكونة لأساس نظام الدين الناهض الذي

طال اضطهاده، وذلك في إيران والولايات المتحدة الأمريكية وكندا والجزر البريطانية وفرنسا وألمانيا والنمسة والهند وبورما ومصر والعراق وتركستان الروسية والقوقاز وأستراليا ونيوزيلندة الجديدة وجنوب أفريقيا وتركيا وسوريا وفلسطين وبلغاريا والمكسيك وجزر الفيليبين وجمايكا وكوستاريكا وجواتيمالا وهندوراس وسان سلفادور والأرجنتين وأرجواي وتشيلي والبرازيل والإكوادور وكولومبيا وبراجواي وبيرو وآلاسكا وكوبا وهايتي واليابان وجزر الهاوائي وتونس وبورتوريكو وبلوچستان وروسيا وشرق الأردن ولبنان والحبشة. ولقد سميت هذه الهيئات بالمحافل الروحانية، وهي تسمية يعتاض عنها على مرور الزمن بالاسم الدائم المبيّن لوظيفتها وهو الذي وضعه لها مؤسس الظهور البهائي، ألا وهو «بيوت العدل»، ولقد أثبتت هذه المحافل الممثلة لدين حضرة بهاء الله، القيّمة عليه والبالغ عددها الآن عدة مئات، والمنتخب أعضاؤها من مختلف الأجناس والعقائد والطبقات المكونة للجامعة البهائية العالمية، أثبتت بإنجازاتها في مدى عشرين عاماً جدارتها بأن تعدّ العضلات الرئيسة للمجتمع البهائي، والأساس النهائي لصرحه الإداري، وذلك لأنها تؤسس بلا استثناء في كل مدينة أو بلدة وقرية يقيم بها تسعة أو أكثر من المؤمنين البالغين، وأنها تنتخب انتخاباً سنوياً مباشراً يباشره البالغون والبالغات من المؤمنين والمؤمنات على السواء في اليوم الأول من أعظم الأعياد البهائية، وأنها مزودة بسلطة تجعلها غير مسؤولة عن أعمالها ولا أحكامها أمام منتخبيها، وأنها متعهدة في كل الظروف والأحوال بما يمليه عليها «العدل الأعظم» وهو الذي يستطيع وحده أن يفتح عهد «الصلح الأعظم» الذي أعلن حضرة بهاء الله حتمية تأسيسه وأنها تتحمل مسؤولية ترقية مصالح الجامعات الداخلة في نطاقها في كل الأحوال، وإيقافها على خططها وفعالياتها، ودعوتها للتطوع بأية توصية قد ترغب فيها، وأنها مدركة تمام الإدراك لواجب آخر لا يقل حيوية عن واجباتها الأخرى، وأعني به إظهار عالميّة دينها واتساع طاقته، وذلك باتصالها بكل الحركات التحررية والإنسانية، وأنها لا علاقة لها ألبتة بالمنظّمات الطائفية الدينية منها والمدنية

على السواء، وأنها تساعدها لجان تعينها سنوياً تكون مسؤولة مباشرة أمامها وتنفرد كل واحدة منها بفرع خاص من فروع الفعالية البهائية للدراسة والعمل، وأنها تناصرها أرصدة محلية يتبرع بها كافة المؤمنين.

وإليك ما قال حضرة بهاء الله في كتابه الأقدس بهذا الصدد: «قد كتب الله على كل مدينة أن يجعلوا فيها بيت العدل ويجتمع فيه النفوس على عدد البهاء [٩] وإن ازداد لا بأس... وينبغي لهم أن يكونوا أمناء الرحمٰن بين الإمكان ووكلاء الله على الأرض كلها، ويشاوروا في مصالح العباد لوجه الله كما يشاورون في أمورهم ويختاروا ما هو المختار». وإليك ما شهد به حضرة عبد البهاء في لوح من ألواحه وجهه إلى أحد المؤمنين الأمريكيّين، قال: «فهذه المحافل الروحانية مؤيدة بروح الله وحاميها عبد البهاء وينشر جناحه عليها فهل من موهبة أعظم من هذا؟» وأعلن في اللوح نفسه قائلاً: «وهذه المحافل الروحانية سرج نورانية وحدائق ملكوتية تنتشر منها نفحات القدس على الآفاق وتشرق منها أنوار العرفان على الإمكان، ويسري منها روح الحياة على كل الجهات. وهي أعظم سبب لترقي الإنسان في جميع الشؤون والأحوال». وكتب يقيم سلطانها الإلٰهي إقامة بيّنة لا يرقى إليها الظن ولا الشك فقال: «* * يجب على كل فرد ألا يخطو خطوة دون استشارة المحفل الروحاني. ويجب على الكل أن يطيعوا أوامره بالروح والريحان، وأن يخضعوا له حتى تجري الأمور في نصابها وتنتظم» وكتب زيادة على ذلك فقال: «* إذا اتفقت الآراء فنعم المراد أما إذا دب الاختلاف والعياذ بالله، فيجب أن يؤخذ بأكثرية الآراء».

أما وقد أسس أتباع حضرة بهاء الله في كلا الشرق والغرب محافلهم المحلية، وهي أساس الصرح الذي أرشدهم إلى تشييده مهندس نظام دين حضرة بهاء الله الإداري، فقد اندفعوا بلا تردد ولا تهيب إلى المرحلة التالية من مراحل مهمتهم الرفيعة وهي مرحلة أعسر أمراً. واتخذوا التدابير في الأقطار التي تقدمت فيها الجامعات المحلية البهائية في العدد والنفوذ تقدماً

كافياً لإنشاء المحافل المركزية لتكون بمثابة القطب تدور حوله كل المشروعات المركزية، وقد سمّاها حضرة عبد البهاء في وصيته «بيوت العدل الخصوصية» وذلك لأنها تكوّن الدوائر الانتخابية في تشكيل بيت العدل العمومي، ولأن لها حق توجيه نشاط الأفراد وتوحيد فعاليات المحافل المحلية الواقعة في نطاقها وتحضيرها والتوفيق بينها. ولما كانت هذه المحافل تقوم على أساس الجامعات المحليّة المنظمة، وكانت هي نفسها الدعائم التي تستقر عليها الوحدة النهائية التي تعدّ قمة النظام الإداري البهائي فإنها تنتخب، وفقاً لمبدأ التمثيل النسبي، من جانب مندوبين يمثلون الجامعات المحلية البهائية، ويجتمعون على هيئة مؤتمر يعقد أثناء عيد الرضوان. وهذه المحافل المركزية لها من السلطة الضرورية ما يمكنها من توطيد أركان التقدم المنتج المنسجم الذي تتقدّم به الفعاليات البهائية داخل نطاق نفوذها، كما أنها متحررة من كل مسؤولية مباشرة أمام دوائرها الانتخابية بالقياس إلى خططها وأحكامها، وهي مكلفة بواجب مقدس وهو تفحّص المقترحات والترحيب بتوصيات المندوبين والتعاون معهم وتوطيد ثقتهم وإيقافهم على خططها ومشاكلها وأعمالها، وتسندها موارد من أرصدة مركزية يُحَضُّ كل مؤمن من المؤمنين على الإسهام فيها. ولقد قامت هذه الهيئات المركزية في الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٢٥م) (وذلك بعد أن حل المحفل المركزي في تلك البلاد محل وحدة المعبد البهائية التي تكونت في ولاية حضرة عبد البهاء)، كما تأسست في الجزائر البريطانية (١٩٢٣م)، وفي ألمانيا (١٩٢٣م)، وفي مصر (١٩٢٤م)، وفي العراق (١٩٣١م) وفي الهند (١٩٢٣م) وفي إيران (١٩٣٤م) وفي أستراليا (١٩٣٤م) يتجدد انتخابها سنوياً على أيدي مندوبين تحدد عددهم الاحتياجات القومية بتسعة أشخاص أو ١٩ شخصاً أو ٩٥ أو ١٧١ [وهي ١٩× ٩]. ولقد سجلت هذه الهيئات المركزية ببروزها إلى حيز الوجود ميلاد حقبة جديدة في عصر التكوين، وأشارت إلى مرحلة أخرى من مراحل تطور الجامعة المطردة الاتساع وتوحيد صفوفها وتوطيد دعائمها، كما برهنت هذه المحافل المركزية البهائية، بروح

النظام الذي تلقنته، وتشبثها بالمبادئ التي مكنتها من الترفع عن تعصبات الجنس والقومية والطبقية واللون، على أنها قادرة رغم اطراد التوسع في نطاق أعمالها على إدارة الفعاليات المتزايدة للدين الحديث الرسوخ إدارة رائعة تساعدها عليها لجان مركزية مسؤولة أمامها تنتخبها من جمهور المؤمنين الموجودين في نطاق نفوذها بلا تمييز ولا تفريق، وتعهد إلى كل واحدة منها بميدان خاص من ميادين الخدمة البهائية.

ولم تكن اللجان المركزية نفسها بأقل نشاطاً ولا إخلاصاً في إنجاز اختصاصاتها. فلقد أظهر أعضاء هذه اللجان المختلفة والمتنوعة العاملون تحت إشراف أعضاء المحفل المركزي المنتخبين الممثلين للجامعة البهائية كفايتهم واقتدارهم على ترقية مصالح الدين الحيوية سواء في الدفاع عن مصالحه الحيوية المباشرة، أو عرض عقيدته ونشر آدابه، أو في توطيد دعائم ماليته، أو تنظيم قواه التبليغية والعمل على زيادة تماسك أجزائه الرئيسة، أو في شراء مواقعه التاريخية والمحافظة على سجلاته وخزائنه وآثاره المقدسة، أو في اتصالهم بالمؤسسات المختلفة في المجتمع الذي هم بعض منه أو في تثقيف شبابه وتدريب ناشئته وتحسين حال المؤمنات في المشرق. وإن مجرد ذكر أسماء اللجان المركزية التي نشأ معظمها في الغرب، والتي ما زالت تباشر مهمتها باقتدار مثالي في الولايات المتحدة وكندا، وتنفذ فعالياتها بحماسة واتحاد ونشاط وإقبال يناقض ما نرى عليه هيئات الحضارة المحتضرة، ليكفي لأن يكشف لك عن مجال هذه الهيئات الفرعية التي دفعها إلى الحركة نظام إداري متطور لا يزال في المرحلة الثانوية من تطوره. فإليك لجنة التبليغ، ولجان التبليغ الإقليمية ولجنة ما بين الأمريكتين، ولجنة النشر، ولجنة وحدة الجنس، ولجنة الشبان، ولجنة مراجعة المنشورات، ولجنة صيانة المعبد، ولجنة منهج المعبد، ولجنة أدلاّء المعبد، ولجنة المكتبة والمبيعات للمعبد، ولجان خدمة البنين والبنات، ولجنة تربية الطفل، ولجان النساء للترقية والتبليغ والمناهج، واللجنة القانونية، ولجنة محفظة الآثار والتاريخ، ولجنة التعداد والإحصاء، ولجنة المعارض البهائية، ولجنة الأخبار البهائية، ولجنة إدارة النشرة الإخبارية البهائية، ولجنة منشورات برايل، ولجنة

الاتصال مع المستفسرين ولجنة الخدمة، ولجنة التحرير، ولجنة الفهارس، ولجنة المكتبة، ولجنة الإذاعة، ولجنة المحاسبين، ولجنة التذكار السنوي، ولجنة تحرير كتاب «العالم البهائي»، ولجنة الدراسة والتعمّق، ولجنة اللغة الثانوية العالمية، ولجنة معهد التربية البهائية، ولجنة مجلة «النظام العالمي»، ولجنة العلاقات العامة البهائية، ولجنة المدارس البهائية، ولجان المدارس الصيفية، ولجنة المدرسة العالمية، ولجنة النُبذ والعجالات، ولجنة الروضة الأبدية، ولجنة حظيرة القدس، ولجنة مشرق الأذكار، ولجنة ترقية المحفل، ولجنة التاريخ القومي، ولجنة المتفرقات، ولجنة النشرات المجانية، ولجنة الترجمة، ولجنة تصنيف الألواح، ولجنة طبع الألواح ونشرها، ولجنة الأملاك، ولجنة التسويات، ولجنة الدعاية، ولجنة الشرق والغرب، ولجنة الخيرية، ولجنة استنساخ الألواح، ولجنة المبلغين المتجولين، ولجنة التربية البهائية، ولجنة المقامات المقدسة، ولجنة مصرف التوفير للصغار.

ومهما كان تأسيس المحافل المحلية والمركزية وما شفع ذلك من تشكيل اللجان المحلية والمركزية، التي هي الأدوات الضرورية المساعدة لممثلي الجامعات البهائية المنتخبين في الشرق والغرب، عملاً رائعاً في حد ذاته إلا أنه لم يكن سوى مقدمة لحلقات متصلة من أعمال عظيمة تقوم بها المحافل المركزية الحديثة التشكيل لتؤدي خدمات ليست بالهيّنة ولا باليسيرة في سبيل توحيد الجامعة البهائية العالمية، وتوطيد أركان نظامها الإداري. وكانت الخطوة الأولى التي اتخذتها في هذا السبيل الاصطلاح على الدستور البهائي المركزي الذي صاغه ممثلو الجامعة البهائية الأمريكية المنتخبون ونشروه سنة ١٩٢٧، ثم ترجم نصّه منذ ذلك الحين إلى العربية والألمانية والفارسية مع إحداث تعديلات طفيفة تلائم الاحتياجات القومية المختلفة. فأصبح بذلك دستور المحافل الروحانية المركزية للبهائيين في الولايات المتحدة وكندا، والجزائر البريطانية، وألمانيا، وإيران، والعراق، والهند وبورما، ومصر والسودان، وأستراليا ونيوزيلندة. ولما كان هذا الدستور المركزي يبشر بصياغة دستور الجامعة البهائية العالمية القادمة، ويحال إلى كل المحافل المحلية لإبداء الرأي فيه ويصادق عليه جمهور المؤمنين في

البلاد المتمتعة بالمحافل المركزية، فلقد ألحقت به وثيقة مماثلة تتضمن القوانين الفرعية للمحافل المحلية اصطلح عليها بهائيو نيويورك في تشرين الثاني سنة ١٩٣١م، وصارت نموذجاً لكل الدساتير البهائية المحلية. ويشكل نص ذلك الدستور المركزي إقرار ائتمان تبين مواده طبيعة الجامعة البهائية المركزية وأهدافها، وتوضح واجبات هيئة ممثليها المنتخبين، وتعين مركزها الرئيس، وتصف ختمها الرسمي، كما تتضمن طائفة من القوانين الفرعية التي تبين طريقة انتخاب المحافل المحلية والمركزية، وأوضاعها القانونية وسلطاتها وواجباتها، وتصف العلاقة بين المحفل المركزي وبين بيت العدل الأعظم من ناحية، وبينه هو والمحافل المحلية وبينه وبين المؤمنين من ناحية أخرى، وترسم معالم حقوق المؤتمر المركزي والتزاماته وعلاقته بالمحفل المركزي، وتوضح طبيعة الانتخابات البهائية، وتنص على شروط الأهلية للانتخاب في كل الجامعات البهائية.

ولقد وضعت صياغة هذه الدساتير المحلية والمركزية المتشابهة إلى حد بعيد في موادها الأساس الضروري لتسجيل هذه الهيئات الإدارية تسجيلاً قانونياً مطابقاً للقوانين المدنية السارية على الهيئات الدينية أو التجارية. ولقد أكسب هذا التسجيل تلك المحافل حيثية قانونية، ووطد كثيراً من سلطانها، ووسع كثيراً من طاقتها. وعاد المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في الولايات المتحدة وكندا والمحفل الروحاني للبهائيين في نيويورك فضربا مثالاً جديراً بأن تتنافس محافل الشرق والغرب في الاقتداء به. إذ تم تسجيل المحفل الروحاني المركزي الأمريكي باعتباره هيئة أمناء اختيارية وهو نوع من التسجيل معمول به في حدود القانون العام يمكن المحفل من أن يعقد العقود ويتملك الأملاك، ويتسلم المواريث، وذلك بمقتضى شهادة صدرت في أيار سنة ١٩٢٩م مختومة بختم وزارة الداخلية في واشنطن ومذيلة بتوقيع وزير الدولة هنري ل. ستمسون[١]. وتلا ذلك التسجيل اتخاذ تدابير قانونية مماثلة تمخضت عن تسجيل المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في الهند وبورما

(١) Henry L. Stimson

في كانون الثاني سنة ١٩٣٣م في لاهور بولاية البنجاب طبقاً لمواد لائحة تسجيل الجمعيات الصادرة سنة ١٨٦٠م، وتسجيل المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في القطر المصري والسودان في كانون الأول سنة ١٩٣٤م بشهادة المحكمة المختلطة بالقاهرة، وتسجيل المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في أستراليا ونيوزيلندة في كانون الثاني سنة ١٩٣٨م بشهادة المسجل المنتدب في إدارة التسجيل العامة لولاية جنوب أستراليا، وأخيراً تسجيل المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في الجزائر البريطانية في آب سنة ١٩٣٩م باعتباره شركة غير محدودة غير نفعية مندرجة تحت لائحة الشركات الصادرة سنة ١٩٢٩م، وذلك بشهادة مسجل الشركات المساعد في مدينة لندن.

وبمثل هذا التسجيل القانوني لهذه المحافل المركزية اعترف بعدد أكبر من المحافل المحلية البهائية التي اقتدت بالمثل الذي ضربه محفل شيكاغو البهائي في شباط سنة ١٩٣٢م، وذلك في أقطار متباعدة مترامية كالولايات المتحدة الأمريكية والهند والمكسيك وألمانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندة وبورما وكوستاريكا وبلوچستان وجزر الهاوائي. ولقد أفلحت المحافل الروحانية للبهائيين بالتدريج في أن تجعل من أنفسها جمعيات وهيئات يقرها القانون وتحميها اللوائح المدنية النافذة في بلادها المختلفة، وذلك بعد أن تقدمت بنص الدساتير البهائية المحلية المتطابقة تقرّ بها السلطات المدنية في ولاياتها أو مقاطعاتها المختلفة في مدينة إسلنجن بألمانيا، ومدينة المكسيك بالمكسيك، وسان خوزيه بكوستاريكا، وسيدني وأديلايد بأستراليا، وأوكلاند بنيوزيلندة، ودلهي وبومباي وكراتشي وبونا وكلكتا واسكندر آباد وبنجالور ونلّور وأحمد آباد وسرامبور وأندري وبارودا بالهند، ومدينة تويتا ببلوچستان، ورانجون ومندلاي وديدانو كالازو ببورما، ومنتريال وفنكوفر بكندا، وهونولولو بجزر الهاوائي، وشيكاغو ونيويورك وواشنطن وبوسطن وسان فرانسيسكو وفيلادلفيا وكنوشا وتنيك وراسين وديترويت وكليفلاند ولوس أنجلس وميلووكي ومينيا بوليس وسنسناتي وونتكا وفينكس وكولومبس وليما وبورتلاند وجرسي سيتي وويلمت وبيوريا وسياتل وبنجامتون وهيلينا

ورتشموند هايلاندز وميامي وباسادينا وأوكلاند وإنديانا بوليس وسانت بول وبركلي وأربانا وسبرنجفيلد وفلنت من مدن الولايات المتحدة الأمريكية.

وكما وضعت صياغة الدساتير البهائية الأساس اللازم لتسجيل المحافل الروحانية البهائية، فقد مهد اعتراف السلطات المحلية والمركزية بممثلي الجامعات البهائية الطريق لإيقاف الأوقاف البهائية المحلية والمركزية، وهو عمل تاريخي سبقت إليه الجامعة البهائية الأمريكية، كما سبقت إلى ما سلف ذكره من الأعمال البالغة الأهمية. ولقد أعفيت هذه الأوقاف من الضرائب الحكومية والعوائد البلدية في معظم الأحوال نظراً إلى طبيعتها الدينية، ونتيجة للطلبات التي تقدمت بها الهيئات البهائية المعترف بها إلى السلطات المدنية، وذلك على الرغم من أن قيمة الأملاك تبلغ مبلغاً لا يستهان به في أكثر من قطر.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية تبلغ قيمة عينيّات أوقاف الدين المركزية مليوناً وثلاثة أرباع المليون من الدولارات كما أوقفت بموجب مجموعة من الوثائق الرسمية المالية التي تعهّد بها أعضاء محفل تلك البلاد المركزي، القائمون بمثابة أمناء الجامعة البهائية الأمريكية، في سنة ١٩٢٨م وسنة ١٩٢٩م وسنة ١٩٣٥م وسنة ١٩٣٨م وسنة ١٩٣٩م وسنة ١٩٤١م وسنة ١٩٤٢م، وهي تضم الآن أرض مشرق الأذكار وبنيانه، وبيت المشرف عليه في ويلمت بولاية إلينوي، وحظيرة القدس المتصلة به وديوانها الإداري الثانوي، ثم دار الضيافة، ودار التآلف، والقاعة البهائية، وستوديو الحرف والفنون، ومزرعة، وعدداً من البيوت الصغيرة وقطعاً عدة من الأرض تشمل المزرعة التي باركتها أقدام حضرة عبد البهاء على شاطئ المونسالفات في عكاء الخضراء بولاية ماين، ثم بوش هاوس والقاعة البهائية وبستان الفواكه ودغل رِدوود وردهة للنوم ومباني المزرعة في جيسرفيل بكاليفورنيا ثم بيت ولهلم، وكوخ إيفركرين ودغلا من الصنوبر وسبع قطع من الأرض بما عليها من مبان في إنجلوود الغربية بنيوجرسي ومرسح ضيافة الوحدة الخالدة التي أقامها حضرة عبد البهاء في حزيران سنة ١٩١٢م للبهائيين في نيويورك ثم منزل

ويلسن الذي باركه بمحضره، وأرضاً في مالدن بولاية ماساتشوستس ثم منزل ماتيوز ومباني المزرعة بباين فالي بولاية كولورادو ثم أرضا في مسكجن بولاية متشيغان وأرضا للروضة الأبدية في پورتسموث بولاية نيوهامشاير.

وأما العينيّات التي يمتلكها الدين الآن في موطنه فما يفوق أوقاف الجامعة البهائية الأمريكية أهمية، ويبذها قيمة في مجملها وإن كانت عقود ملكيتها ما زالت في حوزة الأفراد وذمتهم نظراً لعجز الجامعة البهائية الإيرانية عن الظفر بالتسجيل الرسمي لمحافلها المركزية والمحلية. ومنذ صعود حضرة عبد البهاء أضيفت إلى منزل حضرة الباب بشيراز وبيت أسلاف حضرة بهاء الله في تاكور بمازندران، اللذين كانا في حوزة الجامعة فعلاً في زمن ولاية حضرة عبد البهاء، أملاك شاسعة تقع في ظاهر العاصمة على سفوح جبل إلبُرز وتشرف على المدينة التي ولد فيها حضرة بهاء الله، وتشتمل على مزرعة وحديقة وكرم وتبلغ مساحتها أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون من الأمتار المربّعة، أعدت لتكون موقعاً لأول «مشرق الأذكار» في إيران. ومن بين الممتلكات التي وسّعت الأوقاف البهائية في تلك البلاد كثيراً المنزل الذي ولد فيه حضرة بهاء الله بطهران وعدة أبنية مجاورة لمنزل حضرة الباب بشيراز بما فيها منزل خاله، ومنها حظيرة القدس بطهران والمتجر الذي شغله حضرة الباب حين كان تاجراً في بوشهر، ومنها حي من أحياء قرية چهريق التي سجن فيها، ومنزل الحاج ميرزا جاني الذي توقف فيه وهو في طريقه إلى تبريز، والحمام العام الذي كان يغتسل فيه بشيراز وبعض المنازل الملاصقة له، ومنها نصف منزل وحيد في نيريز وجزء من منزل الحجة في زنجان، والبساتين الثلاثة التي استأجرها حضرة بهاء الله في مزرعة بدشت، ومنها مدفن القدوس في بارفروش، ومنزل الكلانتر الذي سجنت فيه الطاهرة بطهران، والحمام العام الذي غشيه حضرة الباب حين كان في أرومية بآذربيجان، ومنزل ميرزا حسين علي نور الذي أخفيت فيه رفات حضرة الباب، ومنها البابية ومنزل المُلاّ حسين في مشهد، ومسكن سلطان الشهداء ومحبوب الشهداء في إصفهان، ومنها عدد لا يستهان به من المواقع والمنازل

والمدافن المتعلقة بأبطال الدين وشهدائه. ويحافظ أفراد الجامعة على تلك المواقع التي امتلكوها كلها أخيراً، ما عدا أقلية قليلة منها كانت في حوزتهم من قبل، وهي تضيف إليها كل سنة، وتصلح من شأنها وترممها بعناية كلما اقتضت الضرورة ذلك، وذلك بالجهود الموصولة التي تبذلها لجنة مركزية معينة لهذا الغرض تعمل تحت إشراف ممثلي الأحباء الإيرانيين الدائم العام.

وينبغي لنا ألا نغفل ذكر العينيّات المركزية المختلفة المتضخمة التي طفق المؤمنون يمتلكونها منذ بداية النظام الإداري في البلاد الأخرى كالهند وبورما والجزائر البريطانية وألمانيا والعراق ومصر وأستراليا وشرق الأردن وسوريا. ونخص بالذكر منها حظيرة القدس للبهائيين في العراق، وحظيرة القدس للبهائيين في مصر، وحظيرة القدس للبهائيين في الهند، وحظيرة القدس للبهائيين في أستراليا، والبيت البهائي في إسلنجن ومؤسسة الطبع والنشر للبهائيين في الجزائر البريطانية، ودار الضيافة ببغداد والرياض الأبدية في عواصم إيران ومصر وتركستان. ولقد أسهمت هذه العينيّات بنصيب وافر في توسيع الأوقاف البهائية في السنوات الأخيرة وتوطيد دعائمها سواء ما كان منها أرضاً أو مدارس أو مراكز إدارية أو أمانة السر أو مكتبات أو رياض أبدية أو دور ضيافة أو دور النشر سجلت باسم المحافل المركزية المعترف بها أو عهد بها إلى ذمة المؤمنين الثقات. ومن الأهمية بمكان أيضاً، رغم كونها ليست في المرتبة ذاتها، تلك الأوقاف المحلية التي ساندت أوقاف الدين المركزية والمعترف بها قانونياً من قبل السلطات نتيجة تسجيل المحافل الروحانية البهائية المحلية في أقطار مختلفة من الشرق والغرب، فلقد أغنت هذه المواقع الأوقاف المحلية للجامعة البهائية العالمية غنى كبيراً ولا سيما في إيران ووسعت مجالها سواء أكانت أرضاً أم منشآت إدارية أم مدارس أم مؤسسات أخرى.

وفي تلك الأثناء التي تأسست فيها المحافل المحلية والمركزية البهائية

وتم تسجيلها الرسمي، وتكونت فيها لجانها المختصة، ووضعت فيها دساتيرها المحلية والمركزية وأوقفت فيها الأوقاف، شرعت تلك المحافل الحديثة في أعمال على جانب كبير من الأهمية الإنشائية، من أهمها تشييد حظيرة القدس، وهي مقر المحفل البهائي المركزي، ومدار الفعاليات البهائية الإدارية في المستقبل. ولقد نشأت حظائر القدس أول ما نشأت في إيران، وهي تعرف الآن في جميع أرجاء العالم بهذا الاسم الرسمي المميّز. وهي بقيامها تسجل تقدماً ملحوظاً في تطور عملية يمكننا أن نتقصّى بوادرها إلى تلك الاجتماعات المتكتمة المتسترة التي كان أتباع الدين المضطهد في تلك البلاد يعقدونها في هدآت الليل سراً في بعض الأحيان. ولقد استطاعت هذه المؤسسات رغم أنها ما زالت في مراحل تقدمها الأولى أن تؤدي نصيبها في توطيد دعائم الوظائف الداخلية للجامعة البهائية الناشئة، وأن تقدم للناس حجة أخرى تدليلاً على اطراد نمو هذه الجامعة واشتداد بأسها. ولما كانت هذه المؤسسة سواء كانت محلية أم مركزية ملحقة في مهمتها بمشرق الأذكار، وهو المنشأة المكرسة للعبادة البهائية البحتة، فإنها حين تجتمع أجزاؤها المؤلفة لكيانها كأمانة السر وأمانة الصندوق ومحفظة الآثار والمكتبة وإدارة النشر وقاعة المحفل وغرفة الندوة (الشورى) ودار الضيافة وتعمل كلها في صعيد واحد سوف تعدّ مركزاً للنشاط الإداري البهائي كله، ورمزاً للمثل الأعلى في الخدمة التي تنزع إليها الجامعة البهائية في صلتها بدينها خاصة وبالجنس البشري عامة.

ولسوف يستمدّ ممثلو الجامعات البهائية المحلية والمركزية هم وأعضاء اللجان التابعة من مشرق الأذكار الذي جعله حضرة بهاء الله في الكتاب الأقدس بيت العبادة، أثناء اجتماعهم فجر كل يوم بين جدرانه، الإلهام الضروري الذي يمكّنهم، وهم يبذلون جهودهم من يوم إلى يوم في مركز فعالياتهم الإدارية، وأعني به حظيرة القدس، من القيام بواجباتهم ومسؤولياتهم كما يليق بأمناء دينه المختارين.

ولقد اتخذت فعلاً التدابير الأولى التي سوف تفضي آخر الأمر إلى إنشاء هذه المؤسسات الإدارية المركزية بكل بهائها وسلطانها على شواطئ بحيرة متشيغان بظاهر أول مركز بهائي تأسس في القارة الأمريكية، وتحت ظل أول «مشرق الأذكار» قام في الغرب، كما اتخذت في عاصمة إيران مهد الدين، وعلى مقربة من البيت الأعظم في بغداد، وفي مدينة عشق آباد بجوار أول «مشرق الأذكار» شيد في العالم البهائي على الإطلاق، وفي عاصمة مصر أسبق مركز في العالمين العربي والإسلامي، وفي دلهي عاصمة الهند، بل وفي سيدني بأستراليا القصيّة.

كما اتخذت في أقاليم البلاد السابقة الذكر، وفي بلاد عدّة غيرها، التدابير الأولى لإنشاء تلك المؤسسة على صورة منزل تمتلكه الجامعة البهائية المحلية أو تستأجره. وكان من أهمها تلك المباني الإدارية العديدة التي تمكّن المؤمنون في ولايات إيران المختلفة من شرائها أو تشييدها رغماً عن الصعوبات التي يقاسونها.

وما زال التقدم الملحوظ الذي بلغته الأوساط البهائية، ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، يعتبر عاملاً لا يقل أهمية عن غيره في تطوير النظام الإداري، وذلك بإنشائها المدارس الصيفية لتغذية روح الزمالة وتنميتها في جو بهائي خالص، وتدريب المبلغين تدريباً لائقاً، وبذل التسهيلات الضروريّة لدراسة تاريخ الدين وتعاليمه وفهم علاقته بالأديان الأخرى خاصة وبالمجتمع البشري عامة.

ولقد أنشئت هذه المدارس أول ما أنشئت في ثلاثة مراكز إقليمية في أقسام القارة الأمريكية الشمالية الثلاثة العظمى، وأعني بها جيسرفيل بهضاب كاليفورنيا (سنة ١٩٢٧م)، وعكاء الخضراء الواقعة على ضفاف بيسكاتاكوا بولاية ماين (سنة ١٩٢٩م)، وفي لوهالن رانش قرب دايفيسون بولاية متشيغان (سنة ١٩٣١م). ثم عزّزتها أخيراً المدرسة العالمية التي أنشئت في باين فالي بينابيع كولورادو، لتدريب المبلغين البهائيين الراغبين إلى الخدمة في البلاد الأخرى ولا سيما في

أمريكا اللاتينية. ولقد ضربت هذه المعاهد التربوية البهائية الجنينية بتوسعها المطرد في مناهجها مثلاً جديراً بأن تتنافس الجامعات البهائية على الاقتداء به في كلا الشرق والغرب. نعم، لقد ضربت هذه المدارس المفتوحة للبهائيين وغير البهائيين على السواء مثلاً كريماً ألهم الجامعات البهائية الأخرى في إيران والجزائر البريطانية وألمانيا وأستراليا ونيوزيلندة والهند والعراق ومصر أن تتخذ التدابير الأولى التي تمكنها من أن تبني على الأسس نفسها معاهد مماثلة تبشر بأن تتطور إلى جامعات المستقبل البهائية، وذلك بتوفرها على دراسة الكتب البهائية وتاريخ الدين المبكر دراسة مستفيضة وتنظيمها للدراسات في تعاليم الإسلام وتاريخه وعقدها مؤتمرات لترويج الصداقة بين الأجناس، ودراستها العملية المعدّة لتعريف المشتركين فيها بسير أعمال النظام الإداري البهائي، وتنظيمها لاجتماعات خاصة بتدريب الشبان والأطفال، وإنشائها لفصول دراسية للتدريب في آداب الخطابة العامة وحسن المحاضرة، ومحاضراتها عن الدين المقارن، ومناقشتها الجماعية في نواحي الدين المتعددة، وتأسيسها للمكتبات، وتنظيمها للصفوف التبليغية ودراسات عن القيم الخلقية البهائية، ودراسات عن أمريكا اللاتينية، واستحداثها لدورات المدرسة الشتوية، واجتماعاتها للشورى، وتمثيلها المرسحيّات وإقامتها للمهرجانات وقيامها بالنزهات الخلوية وغيرها من فعاليات الترويح والترفيه.

ويمكننا أن نذكر من بين العوامل المساعدة على توسيع النظام الإداري وإنشائه فعاليات الشبان البهائيين المنظمة التي تقدمت في إيران والولايات المتحدة الأمريكية تقدماً عظيماً، وبدأت حديثاً في الهند والجزائر البريطانية وألمانيا والعراق ومصر وأستراليا وبلغاريا وجزر الهاوائي وهنغاريا وهافانا. وتتضمن هذه الفعاليات الندوات الدراسية السنوية[١] التي ينظمها الشبان البهائيون في جميع أرجاء العالم. وجلسات للشباب في المدارس الصيفية البهائية، والنشرات والمجلات التي يصدرونها ومكتب المراسلات العالمي الذي يديرونه، والتسهيلات التي يقدمونها لتسجيل الشبان الراغبين في اعتناق الدين

---

(١) Symposiums

البهائي، وطبع التمهيدات والمراجع لدراسة التعاليم، وتنظيم جماعة للدراسة البهائية كفعالية جامعية رسمية في إحدى أمهات الجامعات الأمريكية، وتتضمن هذه الفعاليات زيادة على ذلك «أيام الدراسة» التي تقام في البيوت والمراكز البهائية، والفصول التي تعقد لدراسة الإسبرانتو واللغات الأخرى، وتنظيم المكتبات البهائية، وافتتاح قاعات المطالعة، وإنتاج المرسحيّات وإعداد المهرجانات البهائية، وعقد المباريات الخطابية، وتعليم الأيتام، وتنظيم فصول الخطابة والمحاضرة، وإقامة الاجتماعات لتخليد ذكرى الشخصيات البهائية التاريخية، وعقد المؤتمرات الجماعية الإقليمية، والجلسات التي تقام للشباب في المؤتمرات البهائية السنوية.

كما أننا نجد هناك عوامل أخرى محفّزة لتقدم ذلك النظام وعاملة على توطيد دعائمه، وهي إقامة الضيافات التسع عشرية إقامة منتظمة لتؤدي في معظم الجامعات البهائية في الشرق والغرب وظيفتها المثلثة، فهي تنبه على الناحية التعبدية الروحية والناحية الإدارية والناحية الاجتماعية من حياة الجامعة البهائية، ومنها الشروع في فعاليات يراد بها إعداد إحصاء للأطفال البهائيين، وتهيئة دورات دراسية عملية لهم، وكتب مناجاة وكتب تمهيدية في الدين البهائي لهم وإعداد طائفة من البيانات التي تنص على طبيعة الدين غير السياسية ونشرها، وتثني عن الانتساب إلى المنظمات الدينية غير البهائية، وتتناول طرق التبليغ، والمسلك البهائي حيال الحرب، ومؤسسات المؤتمر السنوي، والمحفل الروحاني البهائي، والضيافة التسع عشرية والصندوق المركزي. وينبغي لنا أيضاً أن نشير إلى تأسيس محفظات الآثار المركزية للتثبت من أصالة ألواح حضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء وجمعها وترجمتها وتصنيفها والمحافظة عليها والعناية بالآثار المقدسة والوثائق التاريخية، وأن نشير إلى التثبت من صحة ألواح حضرة الباب وحضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء الأصلية الموجودة في حوزة أحباء الشرق واستنساخها، وإلى تأليف تاريخ مفصل للدين منذ بدايته إلى يومنا الحاضر، وإلى افتتاح المكتب البهائي العالمي في جنيف، وإلى عقد المؤتمرات الإقليمية البهائية، وإلى شراء

المواقع التاريخية، وتأسيس المكتبات البهائية التذكارية وإلى إنشاء مصرف ناجح للادخار للأطفال بإيران.

ولا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى مشاركة ممثلي هذه الجامعات البهائية المركزية الحديثة مشاركة رسمية وغير رسمية في فعاليات ومداولات عدد ضخم من المؤتمرات المختلفة والاجتماعات والاتحادات والمجامع والمنظمات المنعقدة في بلاد أوروبا وآسيا وأمريكا لترقية قضايا الاتحاد الديني وتوطيد السلام والنظر في أمور التربية وشؤون التعاون الدولي وإخاء الأجناس وما إلى ذلك من المقاصد الإنسانية. ولقد اتصلت الأسباب وانعقدت الأواصر، بطريق أو بغيره، نتيجة اشتراك هؤلاء الممثلين في طائفة المنظمات، منها مؤتمر بعض الأديان الحية[١] المنعقد في لندن سنة ١٩٢٤م، ومؤتمر رابطة الأديان العالمي[٢] المنعقد في المدينة نفسها سنة ١٩٣٦م، ومؤتمرات الإسبرانتو العالمية[٣] المنعقدة سنوياً في عواصم أوروبا المختلفة، ومعهد التعاون الفكري[٤]، ومعرض قرن التقدم[٥] المنعقد في شيكاغو سنة ١٩٣٣م، والسوق العالمية[٦] المنعقدة في نيويورك سنة ١٩٣٨م وسنة ١٩٣٩م، ومعرض البوابة الذهبية الدولي[٧] المنعقد في سان فرانسيسكو سنة ١٩٣٩م، والمؤتمر الأول لمجمع الأديان[٨] المنعقد في كلكتا ، والمؤتمر الهندي الثقافي الثاني[٩] المنعقد في المدينة نفسها، واجتماع عصبة جميع الأديان[١٠] المنعقد في أندور، ومؤتمرات أريا ساماج وبراهمو ساماج[١١]،

(١) Conference of Some Living Religions
(٢) World Fellowship of Faiths
(٣) Universal Esperanto Congresses
(٤) Institute of Intellectual Cooperation
(٥) Century of Progress Exhibition
(٦) World's Fair
(٧) Golden Gate International Exposition
(٨) First Convention of the Religious Congress
(٩) Second All-India Cultural Conference
(١٠) All-Faiths' League Convention
(١١) Arya Samaj and the Brahmo Samaj - Conferences

ومؤتمرات الجمعية الثيوصوفية[1]، ومؤتمر النساء الآسيويات[2] المنعقد في بلاد مختلفة من بلاد الهند، ومجلس الشباب العالمي[3]، ومؤتمر المرأة الشرقية[4] المنعقد في طهران، ومؤتمر النساء لكل المحيط الهادئ[5] المنعقد في هونولولو، وعصبة النساء الدولية للسلام[6]، ومجمع الشعوب[7] المنعقد في بوينس أيرس في الأرجنتين. وباشتراك ممثلي الأمر في هذه المنظمات والمؤتمرات انعقدت الأواصر التي أظهرت من ناحية طبيعة دين حضرة بهاء الله العالمي النطاق والشامل، والتي وصلت من ناحية أخرى بين هذه المنظمات وبين هيئاته الإدارية المترامية الأطراف وصلاً حيوياً متيناً.

كما أنه لا ينبغي لنا أن نتجاهل أو نقلل من قدر تلك الاتصالات التي تمت لهذه الهيئات الإدارية مع طائفة من أسمى السلطات الحكومية في الشرق والغرب، وأقطاب الإسلام في إيران وعصبة الأمم، لا بل مع الأسر المالكة نفسها بغية الدفاع عن حقوق أتباع الدين وعرض كتبهم وتبيان غاياتهم وأهدافهم المتوخاة من جهودهم الموصولة لحماية النظام الإداري الوليد. ولئن كانت هذه الاتصالات تشكل في حد ذاتها فصلاً قيماً مبيناً قائماً برأسه في تاريخ تفتح النظام الإداري البهائي إلا أننا نذكر من بين المراسلات التي قام بها أعضاء المحفل المركزي للبهائيين في الولايات المتحدة وكندا، وهم البناة الأبطال لذلك النظام وحماته، مع المندوب السامي بفلسطين بشأن إعادة مفاتيح رمس حضرة بهاء الله إلى سادنه، ومع شاه إيران في مناسبات أربع طالبين إليه إنصاف إخوانهم المضطهدين في بلاده، ومع رئيس الوزراء الإيراني بشأن الموضوع نفسه، ومع ماري ملكة رومانيا معبرين لها عن شكرهم الجزيل على شهاداتها التاريخية للدين البهائي، ومع أقطاب الإسلام

(١) Theosophical Society

(٢) All-Asian Women's Conference

(٣) World Council of Youth

(٤) Eastren Women's Congress

(٥) Pan-Pacific Women's Conference

(٦) Women's International League for Peace

(٧) Peoples conference of Buenos Aires

في إيران طالبين إليهم إقرار الوئام والسلام بين الأديان، ومع فيصل الأول ملك العراق بشأن تأمين سلامة البيت الأعظم في بغداد، ومع السلطات السوفياتية بشأن الجامعات البهائية في روسيا، ومع السلطات الألمانية حول ما يعانيه إخوانهم الألمان من صعاب، ومع الحكومة المصرية حول تحرير إخوانهم في الدين من نير التزمّت الإسلامي، ومع مجلس الوزراء الإيراني فيما يختص بإغلاقه للمعاهد التربوية البهائية الإيرانية، ومع وزارة الداخلية لحكومة الولايات المتحدة والسفير التركي المقيم في واشنطن ومجلس الوزراء التركي في أنقرة دفاعاً عن مصالح الدين في تركيا، ومع وزارة الداخلية نفسها بغية تيسير نقل رفات لوا جتسنجر[١] من مقابر البروتستانت بالقاهرة إلى أول مدفن بهائي أنشئ في مصر، ومع السفير الإيراني في واشنطن بشأن بعثة كيث رانسوم كيلر[٢]، ومع ملك مصر برفقة بعض الكتب البهائية، ومع حكومة الولايات المتحدة والحكومة الكندية تبياناً للتعاليم البهائية بشأن السلام العام، ومع الوزير الروماني في واشنطن باسم البهائيين في أمريكا بمناسبة وفاة ماري ملكة رومانيا، ومع رئيس الجمهورية فرانكلين د. روزفلت[٣] إيقافاً له على نداءات حضرة بهاء الله الصادرة في كتابه الأقدس إلى رؤساء الجمهور في أمريكا، وعلى بعض مناجاة أنزلها حضرة عبد البهاء.

وإلى هذه الاتصالات ينبغي لنا أن نضيف تلك الاتصالات الصادرة عن مركز الدين العالمي وعن المحافل المركزية والمحلية بالبرق أو بالبريد إلى المندوب السامي في فلسطين ابتغاء تسليم المفاتيح لضريح حضرة بهاء الله إلى سادنه الأصلي، والطلبات التي تقدمت بها المراكز البهائية في الشرق والغرب إلى السلطات العراقية رجاء استرجاع بيت حضرة بهاء الله في بغداد، وما شفع ذلك من رفع التماس إلى وزير المستعمرات البريطانية عقب صدور الحكم الذي قضت به محكمة الاستئناف العراقية في هذا الصدد، والرسائل التي

(١) Lua Getsinger
(٢) Keith Ransom-Kehler
(٣) Franklin D. Roosevelt

بعثتها الجامعات البهائية في كلا الشرق والغرب إلى عصبة الأمم تقديراً للتصريح الرسمي الذي صرّح به مجلس العصبة تأييداً للمطالب التي عرضها البهائيون. كما ينبغي لنا أن نضيف إلى ذلك، الرسائل العدة المتبادلة بين مركز الدين العالمي من ناحية ومارثا روت أم المبلغات ورائدتهن من ناحية أخرى وبين ملكة رومانيا عقب انتشار شهاداتها التاريخية للدين، ورسائل العزاء الموجهة إلى ماري ملكة يوغسلافيا باسم الجامعة البهائية العالمية بمناسبة وفاة أمها، وإلى دوقة كنت عقب وفاة زوجها المحزن.

كما أنه لا يحق لنا بحال من الأحوال أن نغفل الإشارة الخاصة إلى الشكوى التي تقدم بها المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في العراق إلى لجنة الانتداب في عصبة الأمم نتيجة لاغتصاب بيت حضرة بهاء الله في بغداد، والرسائل الكتابية التي أرسلها ذلك المحفل إلى غازي الأول ملك العراق عقب وفاة أبيه، وتلك التي أرسلها المحفل بمناسبة زواجه، والعزاء الكتابي الذي تقدم به إلى وصيّ العراق الحالي بمناسبة وفاة ذلك الملك المفاجئة، كما لا يحق لنا أن نغفل الإشارة إلى الطلبات التي رفعها المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في القطر المصري إلى رئيس الوزراء ووزير الداخلية ووزير العدل عقب الحكم الذي أصدرته المحكمة الشرعية في مصر، ولا إلى الرسائل التي وجهها المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في إيران إلى الشاه وإلى مجلس الوزراء الإيراني فيما يختص بإغلاقه للمدارس البهائية وتحريم تداول الكتب البهائية في تلك البلاد. ويجب أن نذكر علاوة على ذلك، تلك الرسائل التي أرسلها المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في إيران إلى ملك رومانيا وأفراد الأسرة المالكة بمناسبة وفاة والدته الملكة ماري، وتلك التي أرسلها إلى السفير التركي في طهران والحاوية لما اكتتب به الأحباء الإيرانيون لضحايا الزلزال في تركيا، ورسائل مارثا روت إلى المرحوم الرئيس فون هندنبرغ[١] وإلى الدكتور سترسمان[٢] وزير الخارجية الألمانية مع إهداء بعض الكتب البهائية، ورسائل كيث رانسوم كيلر السبع

(١) Von Hindenburg
(٢) Dr. Streseman

الموجهة إلى شاه إيران واتصالاتها العديدة بالوزراء وأقطاب الدولة أثناء زيارتها الخالدة لهذه البلاد.

وبجانب هذه البوادر الأولى للنظام الإداري البهائي، وفي أثناء خروج الجامعات البهائية المركزية إلى حيز الوجود، وإنشاء هيئاتها الإدارية والتربوية والتبليغية كانت العملية الجبارة المنطلقة في الأرض المقدسة، قلب النظام الإداري ومركزه العصبي، تعمل حثيثاً بلا صادّ ولا رادّ مذ أنزل حضرة بهاء الله لوح الكرمل وزار الموقع المقبل لمقام حضرة الباب، ثم استجمعت نشاطاً هائلاً لشراء ذلك الموقع بعد صعود حضرة بهاء الله بقليل، وبما شفع ذلك من تحويل رفات حضرة الباب من طهران إلى عكاء، وتشييد ذلك المقام أثناء أحلك فترة من حبس حضرة عبد البهاء، وأخيراً باستقرار تلك الرفات في قلب الكرمل إلى الأبد، وبتشييد دار لضيافة المسافرين على مقربة من ذلك المقام، واختيار الموقع المقبل لأول معهد بهائي تربوي على ذلك الجبل.

وما لبثت القوى التي انطلقت منذ أن بدأت الخطة الرائعة التي صورها حضرة بهاء الله، حتى أفادت من الحرية التي كفلت لمركز دينه العالمي منذ الهزيمة النكراء التي منيت بها الدولة العثمانية المتهالكة في حرب ١٤ ـ ١٩١٨م. فهي تستطيع الآن أن تنساب بلا عائق في ظل نظام حكومي عطوف إلى قنوات أعدت لكي تبين للعالم أجمع ما زودت به هذه الخطة الرائعة من إمكانيات. ويمكننا أن نحصي من الشواهد الأولية الدالة على التوسع العجيب الذي حدث في مؤسسات الدين العالمية وأوقافه في مركزه العالمي دفن حضرة عبد البهاء في غرفة من غرفات مقام حضرة الباب، الحادث الذي زاد من قداسة ذلك الجبل، ومنها تركيب شبكة كهربائية هي الأولى من نوعها بحيفا لتفيض بالنور على ضريح من حرم في سجنه الحصين بآذربيجان «مصباحاً مضيئاً» حسب بيانه المبارك، ومنها بناء ثلاث غرف إضافية متصلة بمقامه تتمم الوحدة الأولى من هذه المنشأة، وفقاً لخطة حضرة عبد البهاء، ومنها اتساع الأملاك المحيطة بذلك المرقد اتساعاً جعلها على الرغم من

دسائس ناقضي الميثاق تمتد من قمة الكرمل إلى مستعمرة الهيكليين[١] الرابضة على سفحه، وتقدّر بما لا يقل عن أربعمائة ألف جنيه، ومنها إضافة أربع قطع أخرى موهوبة للمقامات البهائية تقع في مرج عكاء إلى الشمال، وفي وادي الأردن إلى الشرق، وفي ناحية بئر السّبع إلى الجنوب، وتبلغ مساحتها ستمائة فدان على وجه التقريب، ومنها تشييد سلسلة من الشرفات تصل مباشرة، كما اختط حضرة عبد البهاء، بين ضريح حضرة الباب وبين المدينة الواقعة تحت ظله، ومنها تجميل حرمه بإنشاء المتنزّهات والحدائق التي تفتح أبوابها للجمهور يومياً، وتجذب إليها السياح والمقيمين معاً. ومما نرى له دلالة خاصة، إعفاء المندوب السامي في فلسطين لكل المساحة المحيطة والموهوبة لحرم مقام حضرة الباب، وأرض المدرسة ومحفظة الآثار المجاورتين له ودار الضيافة الغربية الواقعة على كثب منه، والمواقع التاريخية كقصر البهجة وبيت حضرة بهاء الله في عكاء، وحديقة الرضوان إلى الشرق من تلك المدينة إعفاءً تاماً من الضرائب، وإنشاء فرعي فلسطين للمحفل الروحاني المركزي الأمريكي والهندي نتيجة لطلبين رسميين رفعا إلى السلطات المدنية، واعتراف تلك السلطات بهما كجمعيتين دينيتين معترف بهما في فلسطين (وهو اعتراف ستتلوه اعترافات مماثلة بفروع المحافل الروحانية المركزية الأخرى في ربوع العالم البهائي التي سوف تنشأ في فلسطين ابتغاء توطيد الدعائم الداخلية)، ونقل ملكية أرض موهوبة لحرم مقام حضرة الباب تبلغ في مجموعها خمسين ألفاً من الأمتار المربعة إلى حوزة فرع المحفل الروحاني المركزي الأمريكي نقلاً تطلّب عقد ما لا يقل عن ثلاثين صفقة تحمل معظم عقودها توقيع ابن الناقض الأكبر لميثاق حضرة بهاء الله بوصفه مسجلاً لعقود الأراضي في حيفا.

ولا يقل أهمية عن هذا وذاك إنشاء محفظتين عالميتين للآثار على جبل الكرمل تتصل إحداهما بحرم مقام حضرة الباب، وتقع الأخرى على مقربة من

(١) Templar Colony

مرقد الورقة العليا. وفيهما جمعت لأول مرة في التاريخ البهائي كنوز لا تقوّم بمال كانت حتى آنذاك مبعثرة هنا وهناك مخبأة على الأغلب حفظاً لها وصوناً، فهي الآن معروضة للزائرين، وتضم هذه الكنوز صوراً لحضرة الباب ولحضرة بهاء الله وآثاراً شخصية لهما كشعر حضرة الباب وغباره وملابسه وخصلات من شعر حضرة بهاء الله ودمائه ومقلمته وملابسه وتيجانه الموشاة وكشكوله أيام السليمانية وساعته وقرآنه، كما تحوي مخطوطات وألواحاً لا تقوّم قيمتها بمال؛ بعضها مذهب كالجزء الذي كتبه حضرة بهاء الله بخط يده من الكلمات المكنونة، والبيان الفارسي بخط السيد حسين كاتب وحي حضرة الباب، والألواح الأصلية الموجهة إلى حروف الحي بخط حضرة الباب والمخطوطة الأصلية لرسالة «السؤال والجواب». وتتضمن هذه المجموعة الثمينة فضلاً عن ذلك آثاراً وأشياء تتصل بحضرة عبد البهاء، وثوب الغصن الأطهر الملطخ بالدماء، وخاتم القدوس وسيف المُلاّ حسين وأختام والد حضرة بهاء الله الوزير، والدبوس «البروش» الذي قدمته ملكة رومانيا إلى مارثا روت، وأصول رسائل الملكة إليها وإلى غيرها وشهاداتها للدين، وما لا يقل عن عشرين مجلداً من المناجاة والألواح التي نزلت من قلم مؤسسي الدين والتي تأكدت من أصالتها واستنسختها المحافل البهائية في ربوع الشرق فعززت آثارهم الضخمة المطبوعة.

ويمكننا أن نذكر شاهداً آخر على تقدم المشروع الرائع الذي بدأه حضرة بهاء الله على هذا الجبل المقدس وتوطيد دعائمه توطيداً مستمراً ألا وهو اختيار جزء من أرض المدرسة الواقعة في نطاق مقام حضرة الباب وجعله مرقداً دائماً للورقة العليا شقيقة حضرة عبد البهاء «العزيزة» الورقة التي «تورقت من هذا الأصل القديم»، و«عرف قميص» حضرة بهاء الله «المنير» التي رفعها إلى «مقام ما سبقته النساء»، والتي تقارن في المنزلة بالبطلات الخالدات من أمثال سارة وآسية ومريم البتول وفاطمة الزهراء والطاهرة، أولئك اللائي فقن كل بنات جنسهن في الدورات السابقة. وأخيراً يجب علينا أن نذكر شاهداً آخر على البركات الجارية من الخطة الإلٰهية، ألا وهو ما

حدث في البقعة المباركة بعد عدة سنوات رغم اعتراض أخي الناقض الأكبر لميثاق حضرة بهاء الله ونائبه، ونعني به نقل رفات الغصن الأطهر بعد فراق بينه وبين أخته دام أكثر من خمسين عاماً. والغصن الأطهر هو ابن حضرة بهاء الله الشهيد «من خلق من نور البهاء» وهو «وديعة الله» و«كنزه» في هذه الديار [الأرض الأقدس]، وهو الذي قدمه والده فداء «حياة العباد واتحاد من في البلاد». وإلى هذا المدفن نفسه وفي نفس اليوم الذي دفنت فيه رفات الغصن الأطهر نقل جثمان والدته نواب الطاهرة تلك التي شهد بمتاعبها الشديدة القاسية الفصل الرابع والخمسون من كتاب أشعياء بكامله، وفقاً لما قاله حضرة عبد البهاء في أحد ألواحه، والتي كان «بعلها» في كلمات ذلك النبي هو «رب الجنود»، والتي «يرث نسلها أمماً»، والتي قدر لها حضرة بهاء الله في لوحه أن تكون «* صاحبة له في كل عالم من عوالمه».

ولو أننا قدرنا دلالة إضافة تلك المراقد الثلاثة تحت ظل حرم حضرة الباب الرابض في صدر الكرمل قبالة المدينة البيضاء الناصعة البياض عبر خليج عكاء قبلة العالم البهائي تحيط بها كلها الحدائق الرائعة الحسن الفذة الجمال حق قدرها لوجدنا أنها مما يعزز النفوذ الروحي للبقعة التي عيّنها حضرة بهاء الله مستقراً لعرش الله، ولوجدنا أيضاً أن تلك الإضافة تشير إلى مرحلة أخرى من مراحل الطريق المفضي آخر الأمر إلى إقامة المركز الإداري العالمي الدائم للجامعة البهائية العالمية[١] المقبلة، ذلك المركز الذي من شأنه ألا ينفصل قط عن مركز الدين الروحي، وأن يعمل معه جنباً إلى جنب في أرض يقدسها أتباع ثلاثة أديان من أبرز أديان العالم.

ولا يكاد يقل عن كل ذلك دلالة تشييد بنيان أول «مشرق الأذكار» في الغرب وإتمام الزخرف الخارجي لأكرم مأثرة خلّدت خدمات الجامعة البهائية الأمريكية لدين حضرة بهاء الله. ولقد تم هذا العمل الضخم على يد نظام إداري حديث التكوين مقتدر، فسما بنفوذ الجامعة التي يسّرت تشييده ووطد هيبتها وقوتها، ووسّع هيئاتها الملحقة.

---

(١) Baha'i Commonwealth

لقد اختطت خطّته منذ إحدى وأربعين سنة مضت، ناشئة أول ما نشأت عن التماس تلقائي رفعه إلى حضرة عبد البهاء في آذار سنة ١٩٠٣ «بيت الروحانية»[١] للبهائيين في شيكاغو، وهو أول مركز بهائي تأسس في العالم الغربي، حين ألهم أعضاءه المثل الذي ضربه بناة مشرق الأذكار في عشق آباد. فتقدموا إلى حضرة عبد البهاء يلتمسون منه أن يأذن لهم في بناء معبد مماثل في أمريكا، ففازوا برضاه وتحبيذه السامي في لوح أنزله في حزيران من تلك السنة. وعلى هذا اجتمع وكلاء المحافل الأمريكية المختلفة بشيكاغو في تشرين الثاني سنة ١٩٠٧م بغية اختيار موقع للمعبد، وقام على أساس قومي بوساطة هيئة دينية تعرف باسم «وحدة المعبد البهائية»[٢] التأمت بعد انفضاض المؤتمر البهائي الأول المنعقد في المدينة نفسها في آذار سنة ١٩٠٩م، وشرفته رئاسة حضرة عبد البهاء لاحتفال التبريك حين زار ذلك الموقع في أيار سنة ١٩١٢م. ومنذ تلك الزيارة الخالدة أخذ ذلك العمل الجبار، لا بل قل ذلك الفتح المتوج لهامة نظام دين حضرة بهاء الله الإداري في القرن البهائي الأول، يتقدم تقدماً متقطعاً إلى أن استحكمت أسس هذا النظام في القارة الأمريكية الشمالية استحكاماً، وأصبحت الجامعة البهائية في وضع يساعدها على استخدام ما استحدثت من أدوات لإتمام هذا العمل إتماماً فعالاً.

وفي المؤتمر البهائي الأمريكي المنعقد في سنة ١٩١٤م اكتمل شراء أرض المعبد وبعد أن أوصى حضرة عبد البهاء مؤتمر سنة ١٩٢٠م المنعقد في نيويورك باختيار تصميم لذلك المعبد، اختار المؤتمر تصميم المهندس الفرنسي الكندي لويس ج. بورجوا[٣] من بين التصاميم التي قدمت إليه على أساس المسابقة، وهو اختيار أقره حضرة عبد البهاء فيما بعد. وأبرمت العقود الخاصة بإنزال الركائز الضخمة التسع المدعمة للجزء المركزي من البناء إلى

---

(١) House of Spirituality

(٢) Baha'i Temple Unity

(٣) Louis J. Bourgeois

الصخر على عمق مائة وعشرين قدماً تحت الأرض، وتم بناء الطابق السفلي في كانون الأول سنة ١٩٢٠م وآب سنة ١٩٢١م على التوالي. وفي آب سنة ١٩٣٠م أبرم عقد آخر وأربعة وعشرون عقداً إضافياً آخر لتشييد البنيان، وذلك برغم الأزمة الاقتصادية المستحكمة، أثناء فترة من البطالة لا مثيل لها في التاريخ الأمريكي. وتم البنيان في أول أيار سنة ١٩٣١م حيث احتفل بأول اجتماع تعبدي عقد في البنيان الجديد، فصادف ذلك الذكرى التاسعة عشرة لتبريك حضرة عبد البهاء لأراضي المعبد. وبدئ في زخرفة القبة في حزيران سنة ١٩٣٢م، وتمت الزخرفة في كانون الثاني سنة ١٩٣٤م، كما تمت زخرفة طابق النوافذ العلوية في تموز سنة ١٩٣٥م وزخرفة وحدة الشرفة الواقعة بأسفلها في تشرين الثاني سنة ١٩٣٨م، وشرع في زخرفة الطابق الأساسي في نيسان سنة ١٩٤٠م رغم شبوب الحرب الحالية، وتمت في تموز سنة ١٩٤٢م، كما وضعت الدرجات الاثنتا عشرة في مواضعها في كانون الأول سنة ١٩٤٢م أي قبل الاحتفال بعيد الدين المئوي بسبعة عشر شهراً، وهو التاريخ الذي كان مقرراً أن تتم فيه زخرفة الجزء الخارجي من المعبد، وكذلك بعد انقضاء أربعين سنة على ذلك الالتماس الذي تقدم به أحباء شيكاغو إلى حضرة عبد البهاء فأقره. هذا الصرح الفريد الذي هو أول ثمرة من ثمار النظام الإداري المتمهل في النضج والاكتمال، وأكرم بنيان أقيم في القرن البهائي الأول على الإطلاق، ورمز الحضارة العالمية القادمة وبشيرها الساعي بين يديها يقع في قلب القارة الأمريكية الشمالية على الشاطئ الغربي من بحيرة متشيغان تحيط به أراضيه البالغة مساحتها سبعة أفدنة إلا قليلاً. ولقد استنفذ من الأموال ما يفوق المليون من الدولارات جمعتها الجامعة البهائية الأمريكية وعاونتها بتبرعات في بعض الأحيان جماعات الأحباء من الأصول المسيحية والإسلامية واليهودية والزرادشتية والهندوسية والبوذية في كلا الشرق والغرب. وارتبط في أول عهده بحضرة عبد البهاء، وفي آخر عهده بذكرى الورقة العليا والغصن الأطهر وأمهما. أما البنيان نفسه فبناء ناصع البياض متسّع الأضلاع لا يضارعه ولا يشبهه شبيه، ذو تصميم أصيل فريد، يقوم من درج أبيض يدور

بقاعدته، وتتوّجه قبّة جليلة رائعة الجلال جميلة الأبعاد، ويحيط بها تسعة أضلاع مستدقة الأطراف ركزت في مواضع متقابلة تركيزاً منسجماً، وهي أضلاع لها قيمتها البنائية والزخرفية تتطاول إلى قمة القبة، ثم تنتظم آخر الأمر في وحدة عامة فارعة ضاربة إلى عنان السماء. وأما الهيكل العام فمشيد من الصلب المصبوب في المسلّح، وأما مواد زخرفته فمن الكوارتز البلّوري والكوارتز الغائم وأسمنت بورتلاند الأبيض؛ وهي سبيكة شفافة صافية في قوامها قوية صلبة كالحجر، صماء تقاوم عوامل الطبيعة مصبوبة في تصميم أرق من «الدانتيل المخرم». والبناء كله يرتفع ١٩١ قدماً من أرضية القاعدة إلى نهاية الأضلاع، التي تمسك القبة النصف كروية البالغ ارتفاعها تسعة وأربعين قدماً، والبالغ محورها الخارجي تسعين قدماً، والتي قد خرّم ثلث سطحها بثقوب لتأذن للنور في أن يدخل نهاراً وللضوء أن يشع ليلاً. ويعزز البناء تسعة أعمدة يبلغ ارتفاع واحدها خمسة وأربعين قدماً تقع بينها أبوابه الضخمة التسعة التي يواجه أحدها مدينة عكاء. وقد اعتلت هذه الأبواب الضخمة آيات مقتطفة من آثار حضرة بهاء الله، كما تتوسط طغراء الاسم الأعظم كل عقد من العقود المعقودة على الأبواب وهو مكرس للعبادة الخالية من الطقوس والشعائر، فيه قاعة تسع ١٦٠٠ نفس، وستلحق به في جواره مؤسسات إضافية للخدمة الاجتماعية كدار اليتامى، ومستشفى وصيدلية الفقراء، وملجأ العجزة ودار ضيافة المسافرين وكلية الفنون والعلوم. ولقد أثار هذا المعبد من قبل إنشائه بزمن طويل، وما زال حتى اليوم ورغم أن الزينة الداخلية لم تبدأ بعد، يثير من الاهتمام الكبير والتعليق الكثير في أوساط الصحافة والنشرات الهندسية المختصة والمجلات الصادرة في الولايات المتحدة وفي غيرها من البلاد ما يبرّر الأماني والآمال التي عقدها عليه حضرة عبد البهاء. وقد عرض نموذجه في محترفات للفنون الجميلة وقاعات العرض ومهرجانات إقليمية ومعارض أهلية يمكننا أن نذكر من بينها معرض قرن التقدم المنعقد في شيكاغو سنة ١٩٣٣م حيث كان يراه ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة كل يوم حين كانوا يمرون بقاعة الأديان، وتقوم صورته

كجزء ثابت من المعرض الدائم في متحف العلم والصناعة بشيكاغو، وتزدحم الآن أبوابه بالزائرين يأتون إليه من بعيد ومن قريب، ولقد بلغ عددهم خلال الفترة الممتدة من حزيران سنة ١٩٣٢م إلى تشرين الأول سنة ١٩٤١م ما يزيد عن مائة وثلاثين ألف نسمة من كل بلاد العالم تقريباً ويمكننا أن نقول واثقين أن ذلك «المبلّغ الصامت» قد أدّى إلى التعريف بدين الله وتعاليمه ما لم تستطع أية هيئة عاملة في حظيرة نظامه الإداري أن تأتي بمثله.

ولقد تنبأ حضرة عبد البهاء نفسه فقال: «* * إذا وضعت أسس مشرق الأذكار في أمريكا وتمت تلك المؤسسة الإلٰهية ظهرت حركة مثيرة في عالم الوجود... فمن نقطة النور هذه سوف يفيض روح التعاليم ناشراً أمر الله معلّياً شأن تعاليم الله في كل أرجاء العالم» وأكد في ألواح الخطة الإلٰهية فقال: «* لا شك أن من مشرق الأذكار هذا ستولد آلاف من مشارق الأذكار». وكتب زيادة على ذلك فقال: «* * إنه يشير إلى بداية ملكوت الله على الأرض» وكتب أيضاً فقال: «* * إنه العلم الظاهر الخفاق في قلب القارة العظيمة» وقال حين بارك أرض المعبد: «* سوف تبنى آلاف من مشارق الأذكار في مشارق الأرض ومغاربها ولكن لما كان هذا أول «مشرق الأذكار» أنشئ في الغرب فإن له أهمية كبيرة». وقال مشيراً إلى تلك المنشأة: «* * سيكون تصميم مشرق الأذكار هذا نموذجاً للقرون القادمة، وسيقوم منها جميعاً بمثابة أم المعابد».

وإليك ما شهد به مهندس المعبد نفسه، قال: «لم يكن ابتداؤه من أمر البشر في شيء، فإنه كما يتلقى أهل الموسيقى والشعر والفن وحيهم من عالم آخر، كذلك كان مهندس المعبد طوال هذه السنوات التي كدّ فيها وكدح يشعر بأن حضرة بهاء الله هو خالق ذلك البناء الذي يشاد تمجيداً له». وكتب زيادة على ذلك فقال: «في هذا التصميم الجديد... أخرج مبدأ الوحدة البهائي العظيم، وحدة الأديان والجنس البشري، إخراجاً رمزياً. وهناك مزاوجات بين خطوط رياضية ترمز إلى خطوط الكون، نستطيع أن نتصوّر في

تداخلها وتشابكها وقطع دائرة لدائرة واشتمال دائرة على دائرة اندماج كل الأديان في دين واحد». وقال أيضاً: «سيحيط بالبنيان من الخارج درج دائري قوامه ثماني عشرة درجة تؤدي إلى طابق القاعة الكبرى. وترمز هذه الدرجات الثماني عشرة إلى أصحاب حضرة الباب الثمانية عشر الأول، ويرمز الباب الذي تفضي إليه إلى حضرة الباب نفسه»، «ولما كان جوهر التعاليم الأولى النقية في الديانات التاريخية جوهراً واحداً. . . فقد طبقت في المعبد البهائي هندسة ائتلافية تعبر عن جوهر كل أسلوب من الأساليب الهندسية المعمارية العظيمة ملائمة بينها ومؤلفة إياها في وحدة متكاملة».

ولقد أعلن أحد المهندسين الممتازين وهو هـ. فان بيورن ماجونيجل[١] رئيس العصبة الهندسية المعمارية[٢] بعد أن تأمل نموذجاً للمعبد صبّ من الجص وعرض في مقر الجمعيات الهندسية في نيويورك في حزيران سنة ١٩٢٠م، فقال: «إنها أول فكرة جديدة تجدّ في فنّ العمارة منذ القرن الثالث عشر». وقال زيادة على ذلك: «لقد تصور المهندس معبداً من النور، تستتر فيه مقومات البناء الخارجية المعهودة في الأبنية الأخرى ويمحى فيه الهيكل الظاهر إلى أبعد حد مستطاع، ونتيجة ذلك أنه تتراءى لطافته ورقته وشفافيته كالحلم الجميل، إنه غلاف مخرّم يكتنز فكرة، فكرة النور. إنه موئل من خيط العنكبوت استقر بين الأرض والسماء يخترقه النور، النور الذي سوف يلتهم الأشكال التهاماً جزئياً، ويجعل منه شيئاً سحرياً».

وكتب أحد الكتّاب في نشرة «السجل المعماري»[٣] الشهيرة فقال: «في الأشكال الهندسية الزخرفية التي تكسو الأعمدة وتحف بنوافذ المعبد وأبوابه يستطيع المرء منا أن يقرأ كل رموز العالم الدينية. فمن السواستيكا[٤] إلى الدائرة إلى الصليب إلى المثلث المزدوج، أو النجمة السداسية (وهي خاتم

(١) H. Van Buren Magonigle
(٢) Architectural League
(٣) Architectural Record
(٤) Swastika

سليمان)، ونجد ما هو أكثر من هذا كله، نجد رمز الكوكب الروحاني الكريم... النجمة الخماسية، ونجد الصليب اليوناني والصليب الروماني، ونجد أسمى من كل هذا تلك النجمة التساعية العجيبة التي تتمثل في بنيان المعبد نفسه، ويبدو مرة بعد أخرى في زينته وزخرفه دالاً على المجد الروحاني في عالمنا الحاضر».

وإليك شهادة جورج غراي برنارد[١] أحد مشاهير رجال النحت في الولايات المتحدة الأمريكية، قال: «إنه أعظم إبداع منذ العصر القوطي[٢] وأجمل ما رأيت حتى الآن».

وإليك ما قاله الأستاذ لويجي كاجلينو[٣] أستاذ الهندسة المعمارية السابق من تورين[٤] بعد أن شاهد النموذج: «هذا إبداع جديد سيحدث تطوراً عظيماً في فنّ العمارة في العالم، وهو أجمل ما رأيت حتى الآن. ولا مراء في أنه سوف ينفرد لصفحة باقية على التاريخ، إنه الإلهام من العالم الآخر».

وكتب شروين كودي[٥] في قسم المجلة بجريدة نيويورك تايمز عن نموذج المعبد حين عرض في قاعة كيفوركيان[٦] بنيويورك فقال: «ينبغي للأمريكيين أن يطيلوا وقفتهم ليجدوا أن فناناً قد أودع في هذا البناء فكرة عصبة أمم دينية». وأخيراً إليك تصريح الدكتور ركسفورد نيوكوم[٧] عميد كلية الفنون الجميلة والفنون التطبيقية بجامعة إلينوي الذي صرّح به عن المعالم والمثل العليا المودعة في هذا المعبد، أقدس بيت للعبادة في العالم البهائي في الزمن الحاضر والمستقبل على السواء قال: «إن معبد النور هذا يفتح على ميدان المعرفة البشرية تسعة أبواب عظام تهيب بالرجال والنساء من كل جنس

---

(١) George Grey Bernard
(٢) Gothic Period
(٣) Prof. Louigi Quaglino
(٤) Turin
(٥) Sherwin Cody
(٦) Kevorkian Gallery
(٧) Dr. Rexford Newcomb

وإقليم من كل دين ونحلة، من كل حال بين الحرية والعبودية أن يدخلوا هنا في بيت يعترف بصلة القربى والإخاء التي بدونها لن يستطيع العالم الحديث أن يتقدم إلا طفيفاً. . . . أما القبة المستدقة شكلاً والتي تهدف إلى ما هدفت إليه من قبل كاتدرائيات العصور الوسطى الطامحة إلى أمور أسمى وأنبل فإنها تبلغ، لا برمزيتها وحدها بل بتناسبها المعماري ورشاقة هيئتها الخالصة أيضاً، مبلغاً من الجمال لا يدانيها فيه بنيان مقبّب مذ شيد ميكال أنجلو[1] قبته على كنيسة القديس بطرس في روما».

---

(١) Michelangelo

الاعتداء على المؤسسات البهائية

لم تنج المؤسسات المشيرة إلى نهضة نظام دين حضرة بهاء الله الإداري وإقامته (كما يبين لنا تاريخ تطورها بوضوح) من الهجمات والاضطهادات التي ظل الدين نفسه، وهو منشئ ذلك النظام، يعانيها ما يزيد على سبعين سنة، والتي ما زال يعانيها حتى اليوم. والواقع أن خروج جامعة مرصوصة البنيان تجاهر بالدعوة إلى الدين العالمي، جامعة ذات أغصان وفروع تمتد إلى القارات الخمس، جامعة لألوان مختلفة أشد الاختلاف من الأجناس واللغات والطبقات والأديان والتقاليد، جامعة مزودة بكتب منتشرة على سطح الأرض تفصّل مبادئها في لغات عديدة، جامعة صافية البصيرة جريئة الفؤاد ذكية القلب لا تهاب ولا توجل ماضية العزم عاقدة النية على أن تظفر بهدفها مهما كانت التضحية التي تقدمها في سبيله، جامعة موحدة توحيداً عنصرياً بفضل النظام الإداري الرباني، غير ذات نزعة طائفية ولا سياسية، مخلصة لالتزاماتها المدنية وإن سمت طبيعتها على القوميات، جامعة لا راد لها في تشبثها وتعلقها بالشرائع والأحكام المنظمة لحياتها الاجتماعية؛ فالواقع أن خروج مثل هذه الجامعة إلى دنيا غريقة في التعصب تعبد أرباباً مزيفة، وتمزقها الانقسامات الأهلية، وتتشبث بالمبادئ العتيقة البالية والمعايير الخلقية الناقصة تشبثاً أعمى لن يكون من نتائجه إلا أن يحدث، في القريب العاجل أو البعيد الآجل، أزمات إن قلّت روعتها فلن تقل جسامتها عن الاضطهادات التي عصفت في العصر الباكر بمؤسسي تلك الجامعة وأتباعهم الأول. على هذا فقد أحس النظام الجديد الممثّل في هذه الجماعة، منذ بدايته ثم أثناء كل مرحلة من مراحل تطوره، إحساساً أليماً بوقع القوات التي جاهدت عبثاً في

أن تخمد أنفاسه وتعدم حياته الناشئة، أو تضيع عليه هدفه حين هاجمه أعداؤه الناجمون من داخله، أولئك الذين تمردوا على السلطة الإلٰهية أو ارتدوا عن دينهم كلية، وحين هاجمه خصومه المحدقون به من خارجه، السياسيون منهم والدينيون على السواء.

إلى هذه الهجمات التي قدر لمجالها أن يزداد ولقسوتها أن تشتد ولضجيجها أن يعلو فيتردد صداه في أرجاء العالم أشار حضرة عبد البهاء من قبل حين كان يبين معالم ذلك النظم الإلٰهي في وصيته إشارة ذات مغزى، فقال: «عما قريب سيرتفع ضجيج قبائل أفريقيا وأمريكا وصريخ الفرنجة والترك وعويل الهند وأمة الصين و[يسمع] من بعيد وقريب. وسينهض الكل بجميع القوى يقاومون. عند ذلك يثبت فرسان الميدان الإلٰهي مصداق قوله تعالى (**جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب**) جليّاً وذلك بفضل تأييد الملكوت الأبهى وقوة الإيقان وجند العرفان وجيش الميثاق».

وكم من مرة استدعت السلطات المدنية والمحاكم الدينية في أكثر من قطر من أقطار الأرض أمناء هذا النظام العالمي المنيع وممثليه المنتخبين إما جهلاً منها لمطالبه أو عداء منها لمبادئه أو تخوفاً من قوته الناهضة واضطرتهم إلى أن ينافحوه، أو ينفضّوا من حوله أو يحدّوا من مجال فعالياته! وكم من مرة امتدت اليد الغاشمة المهاجمة إلى مقدساته وحرماته ومؤسساته غير حاسبة لغضب الله المنتقم حساباً! وكم من مرة وصم حماته وأقطابه في بعض البلاد بأنهم ملحدون، ونودي بأنهم هدامون للقانون والنظام، وقيل بأنهم قوم خياليون لا وطنية لهم وإنهم مهملون في واجباتهم ومسؤولياتهم المدنية، وأمروا على الفور بأن يكفوا عن فعالياتهم ونشاطهم ويحلوا هيئاتهم.

ففي الأرض الأقدس، مركز هذا النظام العالمي حيث ينبض قلبه، وترقد رفات مؤسسيه، وحيث تنشأ كل العمليات التي تكشف عن أهدافه، وتنشط حياته وتشكل مصيره نزلت، ساعة بدايته بالذات، تلك الضربة الأولى التي أعلنت للرفيع والوضيع على السواء صلابة الأسس التي قام عليها.

وتفصيل ذلك أن ناقضي الميثاق الذين تهالكوا فأمسوا آنذاك حفنة ولا أكثر حرضهم ميرزا محمد علي المتمرد الرئيس الذي أيقظ صعود حضرة عبد البهاء المباغت آماله النائمة، وتزعمهم ميرزا بديع الله المستكبر، فاستولوا عنوة على مفاتيح ضريح حضرة بهاء الله، وطردوا حارسه أبا القاسم الخراساني الرابط الجأش وطلبوا إلى السلطات أن تعترف بزعيمهم سادنا شرعياً لذلك المقام، غير أنهم لم يتعظوا من فشلهم الذريع الذي شهد به التصرف الحازم الذي تصرفته السلطات في فلسطين، حين حققت في الأمر تحقيقاً مسهباً مطولاً ثم كلفت الضابط البريطاني المقيم في عكاء أن يسلم المفاتيح إلى أيدي ذلك الحارس بالذات، فلجأوا إلى وسائل أخرى أملاً في تصديع صفوف محبّي حضرة عبد البهاء الراسخين رغم فجيعتهم، وتقويض قواعد المؤسسات التي كان أتباعه يسعون إلى تشييدها. واستمروا لبعض السنوات وفي فترات متقطعة في تشويه المثل العليا التي تحفز بناة النظام الإداري البهائي، ومتابعتهم المكاتبات المحرضة على الفتنة وإن لم تعاود نطاقها الواسع السابق مع بعض أفراد أمّلوا في أن يدمروا ولاءهم، وتشويههم المتعمد للحقيقة حين اتصالهم بمن يستطيعون الاتصال به من رجال الحكومة وعلية القوم، ومحاولاتهم بالرشوة والإرهاب شراء جزء من قصر حضرة بهاء الله، وبذلهم الجهود لمنع تملك الجامعة البهائية لبعض الأراضي الواقعة على كثب من ضريح حضرة الباب وإحباطهم لخطة تكتيل بعض هذه الأراضي بنقل عقودها إلى حوزة المحافل البهائية المسجلة. وظلوا في ذلك حتى ختم على مصيرهم هلاك ناقض الميثاق الأكبر.

ومن الأمور التي زادت في سحق آمال أولئك الذين كانوا وما زالوا يحاولون مستيئسين إطفاء نور ميثاق حضرة بهاء الله إخلاء هؤلاء الناقضين أنفسهم لقصر حضرة بهاء الله بعد احتلالهم له منذ صعوده احتلالاً لا يجادلهم فيه مجادل، ذلك القصر الذي تردى إلى حال تستعصي على الإصلاح نتيجة لإهمالهم الفظيع، ومنها إصلاحه فيما بعد إصلاحاً كاملاً حقق أمنية طالما جاش بها صدر حضرة عبد البهاء ومنها إنارته بشبكة كهربائية أدخلها مؤمن

أمريكي لهذا الغرض، ومنها إعادة تأثيث كل غرفاته من بعد أن جردها قاطنوها الأول من كل ما احتوته من آثار قيمة ما عدا شمعدان واحد بقي في الغرفة التي صعد فيها حضرة بهاء الله، ومنها جمع الوثائق والآثار البهائية التاريخية بين جدرانه علاوة على ما يزيد عن خمسة آلاف مجلد من الكتب البهائية المكتوبة بما لا يقل عن أربعين لغة، ومنها شموله بالإعفاء من الضرائب الحكومية ذلك الإعفاء الذي شمل من قبله المؤسسات والأملاك البهائية الأخرى في عكاء وعلى جبل الكرمل، ومنها أخيراً تحويله من مسكن خاص إلى مزار يزوره البهائيون وغير البهائيين على السواء. ومما أظهر زيادة على ذلك لهؤلاء الأعداء عقم جهودهم وخيبة أمرهم النجاح في تملك المساحة التي تدور بمرقد حضرة الباب على جبل الكرمل وحمايتها وتحويل بعض عقود هذه الأملاك إلى فرع فلسطين للمحفل الروحاني المركزي للبهائيين في أمريكا المؤسس تأسيساً رسمياً. ولا يقل عن هذا إظهاراً ما أحاط بموت المحرّض الأول على الفساد أثناء عهد حضرة عبد البهاء.

ومما زاد على هذا الأمر جسامة وأحدث ضجة أكبر اغتصاب شيعة العراق لحرم بهائي آخر، حول الوقت الذي اغتصب فيه الناقضون مفتاح ضريح حضرة بهاء الله من قبضة حارسه. وكان ذلك الحرم هو البيت الذي سكنه حضرة بهاء الله طوال مدة نفيه في العراق تقريباً، ثم اشتراه وجعله مزاراً للحج، وظل في حوزة أتباعه بصورة متواصلة منذ رحيله عن بغداد ملكاً لا ينازعهم فيه منازع ولا يجادلهم فيه مجادل. ولقد نشأت هذه الأزمة قبل صعود حضرة عبد البهاء بسنة واحدة تقريباً، وأحكمت حلقاتها التدابير التي اتخذت، بعد تغيير نظام الحكم في العراق، لترميم ذلك البيت وفقاً لتعليماته. واكتسبت الأزمة، وهي تشتد وتستحكم، شهرة مطردة الاتساع بين الناس حتى أصبحت قضية تنظر فيها عدة محاكم متعاقبة: محكمة الشيعة الجعفرية المحلية ببغداد، ثم محكمة الصلح ثم المحكمة البدائية ثم محكمة الاستئناف في العراق، وأخيراً عصبة الأمم التي كانت أكبر هيئة دولية وجدت حتى آنذاك، وكان لها حق الإشراف والرقابة على كل الدول الواقعة تحت

الانتداب. ولقد حققت هذه الأزمة نبوءة حضرة بهاء الله في حق بيته على نحو عجاب، وإن لم تكن قد انحلت إلى الآن حلاً نهائياً لأسباب دينية وسياسية معقدة، كما أنها سوف تحقق في الوقت المعين حين تخلق العناية الإلٰهية الوسائل لحلها، ذلك المصير السامي الذي قدره له في ألواحه. فقبل اغتصاب الأعداء المتعصبين له بزمن طويل ذلك الاغتصاب الذي ليس لهم فيه أي وجه مشروع من وجوه الحق تنبأ بأنه «سينزل عليه من الذل ما تجري به الدموع عن كل بصر بصير».

ولقد حرم المحفل الروحاني للبهائيين في بغداد من الانتفاع بذلك الملك المقدس، وذلك بفضل حكم معاد حكمت به أغلبية أعضاء محكمة الاستئناف فقلب حكماً آخر كانت المحكمة الأدنى منها قد نطقت به رأساً على عقب، وسلم البناء إلى الشيعة. ثم أثار ثائرة المحفل الروحاني ما عمد إليه الشيعة بعد تنفيذ حكم تلك المحكمة من تحويل البناء إلى «حسينية» رجاء توطيد ظفرهم وتثبيت أركان مغنمهم. وحين وثق المحفل من عقم السنوات الثلاث التي قضاها في المفاوضات مع السلطات المدنية في بغداد رجاء رفع الظلم وإعادة الأمور إلى نصابها، لجأ أعضاؤه، بوصفهم ممثلي البهائيين في العراق، في اليوم الحادي عشر من أيلول سنة ١٩٢٨م عن طريق المندوب السامي البريطاني بالعراق إلى اللجنة الدائمة لعصبة الأمم المكلفة بالإشراف على إدارة كل الدول تحت الانتداب، مستندين إلى المادة الثانية والعشرين من ميثاق العصبة، وعرضوا التماساً قبلته تلك الهيئة وأقرته في تشرين الثاني سنة ١٩٢٨م. وقدمت دولة الانتداب إلى هذه اللجنة مذكرة بشأن هذا الالتماس، وقررت تقريراً لا لبس فيه ولا غموض أن الشيعة ليس لهم حق بحال من الأحوال في هذا البيت وأن حكم قاضي المحكمة الجعفرية «خطأ واضح» و«جائر» وأنه «ما أملاه إلا التعصب الديني بلا ريب» وأن ما تلا ذلك من إخراج البهائيين كان أمراً «غير مشروع» وأن عمل السلطات كان عملاً «شاذاً جداً» وأن حكم محكمة الاستئناف مشكوك في أنه لم يكن «غير متأثر بالاعتبارات السياسية».

ولقد ورد في التقرير المرفوع إلى مجلس العصبة الاستشاري والمنشور في مضبطة الجلسة الرابعة عشرة للجنة عصبة الأمم الدائمة المشرفة على الدول المنتدبة المنعقدة في جنيف في خريف سنة ١٩٢٨م، والمترجم فيما بعد إلى العربية والمنشور في العراق أن «اللجنة توجه نظر المجلس إلى الاعتبارات والاستنتاجات الجازمة التي تمخّض عنها فحص الالتماس... وهي توصي بأن يسأل المجلس الحكومة البريطانية أن تتصل بحكومة العراق حتى تجري العدل مجراه وترفع الظلم الذي لحق بالملتمسين».

ولقد قرر المندوب البريطاني المعتمد لدى اللجنة في جلساتها زيادة على ذلك أن «دولة الانتداب قد اعترفت بأن البهائيين قد ظلموا». على حين أشير في أثناء تلك الجلسة إلى أن عمل الشيعة عمل يخل بالدستور ويخرق القانون الأساسي العراقي. وصرح المندوب الفنلندي زيادة على ذلك في تقريره المرفوع إلى المجلس بأنّ هذا «الظلم يجب ألاّ يعزى إلى شيء غير الحزازات الدينية» وطلب أن «ترفع مظالم الملتمسين وترد أمورهم إلى نصابها».

أما مجلس العصبة فقد أخذ بعين الاعتبار ذلك التقرير، وملاحظات اللجنة واستنتاجاتها الجازمة، واتخذ بإجماع في الرابع من آذار سنة ١٩٢٩م قراراً ترجم فيما بعد ونشرته صحف بغداد يوصي دولة الانتداب «أن تتصل بحكومة العراق بشأن رفع الظلم الذي لحق الملتمسين». وعلى ذلك كُلف المجلس السكرتير العام أن يخطر دولة الانتداب والملتمسين الذين يهمهم الأمر بما توصلت إليه اللجنة، وهو تكليف أبلغته الحكومة البريطانية في الوقت المناسب إلى حكومة العراق عن طريق مندوبها السامي.

وورد في خطاب كتب في الثاني عشر من كانون الثاني سنة ١٩٣١م باسم وزير الخارجية البريطانية آرثر هندرسون[1] إلى سكرتارية العصبة أن ما

(١) Mr. Arthur Henderson

توصل إليه المجلس «لقي أعظم اعتبار من قبل حكومة العراق» التي «عزمت أخيراً على أن تشكل لجنة خاصة . . . لتبحث وجهة نظر الجامعة البهائية بشأن بعض المنازل في بغداد، ولتصوغ التوصيات اللازمة لتسوية تلك القضية تسوية عادلة». وبيّن هذا الخطاب فضلاً على ذلك أن اللجنة رفعت تقريرها في آب سنة ١٩٣٠م، وأن الحكومة قبلته وأن الجامعة البهائية «سلمت مبدئياً» بتوصياتها، وأن السلطات في بغداد قد صرحت بأن «الخطط والتقديرات المفصلة ستكون معدة لتنفيذ هذه التوصيات أثناء السنة المالية القادمة».

ولا حاجة بنا إلى إطالة الوقوف لدى التاريخ الذي تلا هذه القضية الخطيرة، ولا لدى المفاوضات المطولة المديدة والتسويفات والمضاعفات التالية، ولا لدى الاستشارات التي «أربت على المائة» والتي اشترك فيها الملك ووزراؤه ومستشاروه، ولا لدى تعبيرات «الأسف» و«الدهشة» و«القلق» التي سجلت في جلسات متعاقبة عقدتها لجنة عصبة الأمم الدائمة في جنيف سنة ١٩٢٩م وسنة ١٩٣٠م وسنة ١٩٣١م وسنة ١٩٣٢م وسنة ١٩٣٣م، ولا لدى تنديد أعضائها «بروح عدم التسامح» التي تحرك جامعة الشيعة، و«تحزب» المحاكم العراقية، و«ضعف» السلطات المدنية و«العداء الديني الكامن وراء هذا الظلم»، ولا لدى شهادتهم «باستعداد الملتمسين الفائق للتراضي»، ولا لدى «شكهم» فيما يختص بكفاية المقترحات، ولا لدى اعترافهم «بخطورة» الموقف الحادث، و«انعدام العدل الفاضح» الذي قاسى منه البهائيون، و«الدين الأدبي» الذي تدين به حكومة العراق، وهو دين كان من واجبها المحتوم أن تفي به مهما تقلبت بها أوضاعها كافّة.

كما يبدو أنه لا ضرورة تلجئنا إلى إطالة القول في تلك النتائج المؤسفة التي نتجت عن موت المفوض البريطاني السامي ورئيس الوزراء العراقي، أو في دخول العراق عضواً في العصبة وما تلا ذلك من انتهاء انتداب بريطانيا العظمى، ولا في موت الملك تلك الميتة المحزنة المفاجئة، ولا في الصعوبات التي نشأت عن وجود مشروع تعمير للمدينة، ولا في التأكيد

الكتابي الذي رفعه إلى المندوب السامي رئيس الوزراء بالنيابة في خطابه الصادر في كانون الثاني سنة ١٩٣٢م، ولا في العهد الذي قطعه الملك على نفسه قبل موته لمحضر وزير الخارجية في شباط سنة ١٩٣٣م بأن تنزع ملكية البيت وأن يرصد المال اللازم في ربيع السنة المقبلة، ولا في التصريح القاطع الذي صرح به وزير الخارجية نفسه بأن رئيس الوزراء قد أكد التأكيدات اللازمة بأن الوعد الذي وعد به رئيس الوزراء بالنيابة سيبرّ به، ولا في التصريحات الإيجابية التي صرّح بها وزير الخارجية هذا هو وزميله وزير المالية حين مثّلا بلادهما أثناء جلسات الجمعية العامة لعصبة الأمم المنعقدة في جنيف، وهي أن الوعد الذي وعد به مليكهما الراحل سوف يلقى كل احترام.

ولكن يكفينا أن نقول إنه برغم هذه المماطلات والتسويفات والاحتجاجات والمراوغات وعجز السلطات المختصة الظاهر فيما يختص بتنفيذ التوصيات التي أوصى بها مجلس العصبة ولجنة عصبة الأمم الدائمة فإن الشهرة الواسعة النطاق التي أكسبتها للدين هذه الخصومة الباقية الذكر والدفاع الذي دافعت به أعلى محكمة عالمية عن قضيته، قضية الحق والعدل، كان مما أثار دهشة أصدقائه وجزع أعدائه. والواقع أن قليلاً من القصص قد أفلح كهذه في أن يحدث، منذ ميلاد عصر التكوين لدين حضرة بهاء الله، وقعاً يتردد صداه في الدوائر العليا بما يشبه ذلك الذي أحدثه في الحكومات والدوائر الاستشارية هذا الهجوم العنيف الذي لم يستفزه أحد والذي سدده الأعداء الألداء إلى مقام من أقدس مقامات الدين.

ولقد كتب حضرة بهاء الله نفسه كتابة ذات مغزى، فقال: «يا بيت الله! إن هتك المشركون ستر حرمتك لا تحزن. قد زينك الله بطراز ذكره بين الأرض والسماء وإنه لا يُهتَك أبداً. إنك تكون منظر ربك في كل الأحيان» وتنبأ في فقرة أخرى مشيراً إلى هذا البيت فقال: «ثم تمضي أيام يرفعه الله بالحق ويجعله علماً في الملك بحيث يطوف حوله ملأ العارفين».

إلى ذلك الهجوم الجسور الذي شنه ناقضو ميثاق حضرة بهاء الله حين

قاموا يبذلون جهودهم المستميتة لتوطيد سدانة ضريحه الأقدس، وإلى اغتصاب شيعة العراق المتعسف لبيته الأعظم في بغداد أضيف بعد سنوات قلائل هجوم آخر محزن شنه خصم آخر أشد بأساً سدده إلى بنيان النظام الإداري الذي شيدته جامعتان مزدهرتان منذ زمن في الشرق، وانتهى بتدمير الجامعتين والاستيلاء على أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي وما حفّ به من مؤسسات.

ولقد اصطلح ما أبدته هاتان الجامعتان من شجاعة وحماسة وحيوية روحية، وما بلغته مؤسساتهما الإدارية من تنظيم، والتسهيلات الميسّرة لتعليم الدين لشبابهما وتدريبهم عليه، وإيمان عدد من المواطنين الروس المستنيري الفكر الواسعي الإدراك المتشربين بأفكار شديدة الشبه بعقائد الدين، والإدراك المتزايد لمبادئه وما تنطوي عليه من تأكيد على الدين وحرمة الحياة العائلية ونظام الملكية الخاصة وإنكار كل تفرقة أو تمييز بين الطبقات والمساواة التامة بين الناس، اصطلح كل هذا على إثارة ظنون السلطات الحاكمة ثم على إثارة حفيظتها الشديدة فيما بعد، وإحداث أزمة من أخطر الأزمات في تاريخ القرن البهائي الأول.

وعلى حين كانت الأزمة تشتد وتستحكم وتنتشر حتى المراكز القصية في تركستان والقوقاز، كان التشديد والضغط على حرية هذه الجامعات يزداد، والتحقيقات تكثر مع ممثليهم المنتخبين والقبض عليهم يتوالى، وانتهى الأمر بحل محافلهم المحلية ولجانها الفرعية في موسكو وعشق آباد وباكو وبعض البلاد الأخرى الواقعة في هذه الولايات المذكورة، وتعطيل كل فعاليات الشباب. بل لقد أفضت الحال إلى إغلاق المدارس ورياض الأطفال والمكتبات وغرفات المطالعة العامة البهائية، وقطع كل وسائل الاتصال مع المراكز البهائية الأجنبية، ومصادرة كل المطابع والكتب والوثائق، ومنع الفعاليات التبليغية، وإلى إلغاء الدستور البهائي وإبطال كل الأرصدة المركزية والمحلية وتحريم حضور الاجتماعات البهائية على غير البهائيين.

وفي أواسط سنة ١٩٢٨م طبق قانون انتزاع ملكية المنشآت الدينية على مشرق الأذكار في عشق آباد. إلا أن استخدام هذا البناء كمعبد استمر بعقد استئجار لمدة خمس سنوات جددته السلطات المحلية في سنة ١٩٣٣م لمدة مماثلة. وفي سنة ١٩٣٨م تضعضعت الحال في تركستان والقوقاز وتدهورت بسرعة، فأفضت إلى سجن ما يزيد عن خمسمائة من المؤمنين والمؤمنات، ولقد مات كثير منهم، ومصادرة أموالهم، وما شفع ذلك من نفي عدة شخصيات بارزة من هذه الجامعات إلى سيبيريا والغابات القطبية وغيرهما من الأماكن المجاورة للمحيط المتجمّد، وما تلا ذلك من إخراج معظم البقية الباقية من هذه الجامعات إلى إيران نظراً لجنسيتهم الإيرانية، وانتزاع ملكية المعبد نفسه آخر الأمر وتحويله إلى معرض للفنون.

وكذلك كانت الحال في ألمانيا؛ فقد تلا نهضة نظام الدين الإداري وتأسيسه وقيام المؤمنين الألمان على توسيع نطاقه وتوطيد دعائمه قياماً مطرداً ممتازاً اتخاذ تدابير مشددة إن لم تبلغ في جسامتها ما بلغته الشدائد التي عاناها البهائيون في تركستان والقوقاز، فقد أفضت إلى تعطيل كل فعالية بهائية رسمية في طول البلاد وعرضها في السنوات التي سبقت مباشرة الحرب القائمة [الحرب العالمية الثانية] وحرم تبليغ الدين تبليغاً علنياً لما فيه من تنبيه مكشوف على السلام وكونه ديناً عالمياً وإنكار صريح للنعرة الجنسية تحريماً رسمياً، وحلت المحافل واللجان البهائية، ومنع عقد المؤتمرات البهائية، واستولي على محفظة آثار المحفل الروحاني المركزي، وألغيت المدرسة الصيفية، وعطل نشر الكتب البهائية جميعاً.

أما في إيران فقد أخضعت السلطات المدنية في العاصمة والأقاليم هيئات النظام الإداري الحديث الإنشاء الذي لم تتوطد دعائمه بعد للتقييدات التي أريد بها الحد من مجالها وتقييد حريتها وتقويض أسسها، هذا عدا حوادث اضطهاد بين الفينة والأخرى في بعض المدن مثل شيراز وآباده وأردبيل وإصفهان وفي بعض المقاطعات كآذربيجان وخراسان، قلّ عددها

وضعفت شوكتها نظراً إلى التدهور الملحوظ الذي آلت إليه حال رجال الشيعة.

ولم يكن هناك مناص من أن يثير خروج جامعة مركزية متماسكة من الظلمات خروجاً متدرجاً غير متوقع، جامعة تغذت بلبان البأساء والضراء، قوية الشكيمة والروح، لها مراكزها التي شيدت في كل إقليم من أقاليم هذه البلاد على الرغم من أمواج الاضطهاد الوحشي المتعاقبة التي ظلت تكتسحها طوال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، وكادت تطغى عليها طغياناً لا قائمة لها بعده، وعزم أفرادها على إفاضة روح دينهم ومبادئه وإذاعة كتبه وآدابه وتعزيز أحكامه وسننه، ومعاقبة المتجاوزين عن هذه الحدود، واتصالهم بإخوانهم المؤمنين في البلاد الأجنبية اتصالاً ثابتاً، وعلى إقامة منشآت النظام الإداري وهيئاته؛ لم يكن هناك مناص من أن يثير كل هذا شكوك وعداوة رجال السلطة الذين أخطأوا فهم أهداف تلك الجامعة أو أصروا وعكفوا على القضاء عليها. كما أن إصرار أفرادها، مع إطاعتهم الكاملة للأمور الإدارية البحتة التي تفرضها عليها قوانين بلادهم المدنية، على التشبث باتباع الأصول والشرائع والمبادئ الروحية التي أنزلها حضرة بهاء الله والتي تقتضيهم من بين أمور كثيرة التمسك بالصدق، وعدم إخفاء عقيدتهم، ومراعاة أحكام الزواج والطلاق، وتعطيل كل لون من ألوان العمل في الأيام المقدسة التي أمر بها، كان مما يجعلهم يصدمون، إن عاجلاً وإن آجلاً، بنظام سياسي لمّا كان يعترف بالإسلام ديناً رسمياً لإيران فقد أبى أن يعترف بهؤلاء الّذين أفتى بإلحادهم أقطاب ذلك الدين ورجالاته.

ومما يدخل في عداد المحاولات الأولى التي بدئت في البلد الذي تشربت تربته دماء شهداء بهائيين فاقوا العد وتخطوا الحصر، لمقاومة قيام نظام إداري وليد استمد جذور قوته من مثل هذه التضحية البطولية، ولإحباط كل كفاح يقوم به ليتحرر كان: إغلاق كل المدارس المنتمية إلى الجامعة البهائية في البلاد كنتيجة مباشرة لرفض ممثلي هذه الجامعة الذين يملكون

المعاهد البهائية الرسمية ويشرفون عليها إشرافاً كاملاً، أن تتخطى معاهدهم الشرع الواضح الذي يقتضي تعطيل العمل في الأيام البهائية المقدسة، ومنها عدم قبول قسائم الزواج البهائي ورفض تسجيلها في دوائر الترخيصات الحكومية، ومنها تحريم طبع الكتب البهائية أو تداولها أو السماح بدخولها إلى البلاد، ومنها الاستيلاء في المراكز المختلفة على الوثائق والكتب والآثار البهائية، ومنها إغلاق حظيرة القدس في بعض الولايات ومصادرة أثاثها في بعض البقاع، ومنها منع الاحتفالات والاجتماعات والمؤتمرات البهائية، ومنها الرقابة الصارمة المفروضة على المراسلات المتبادلة بين المراكز البهائية في إيران مع بعضها البعض وبين هذه المراكز والجامعات البهائية في البلاد الأجنبية، وعدم تسليمها في معظم الأحيان، ومنها الامتناع عن تزويد المواطنين الموالين الطائعين للقانون بشهادات حسن السير والسلوك بحجة اعتناقهم المعلن للدين البهائي، ومنها فصل موظفي الحكومة، وتسريح ضباط الجيش أو إنزال رتبهم، وإلقاء القبض على عدد من المؤمنين الذين أبوا أن يتخلوا عن واجبهم الخلقي في التشبث بمبادئ الدين الروحية أو أن يتصرفوا تصرفاً من شأنه أن يتعارض مع طبيعة الدين العالمية وغير السياسية، واستجوابهم والتحقيق معهم وحبسهم، وفرض الغرامات عليهم وتوقيع العقوبات الأخرى.

تحرير الدين والاعتراف به وبمؤسساته

على حين كان أتباع حضرة بهاء الله في المشرق والمغرب يخطون الخطوات الرامية إلى تشييد هيكل نظام دين حضرة بهاء الله الإداري في وقت واحد، شن الأعداء هجمة وحشية في قرية مغمورة من قرى مصر على حفنة من المؤمنين كانوا يحاولون أن ينشئوا واحدة من المؤسسات الأولية في ذلك النظام. وهي هجمة لو نظرنا إليها بملابساتها الصحيحة في التاريخ لعدتها الأجيال القادمة حداً فاصلاً لا في عصر التكوين للدين فحسب بل في تاريخ القرن البهائي الأول على الإطلاق. لا بل قد نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن نتائج هذه الهجمة قد بدأت فصلاً جديداً في تطور الدين نفسه، هذا التطور الذي يتدرج به خلال مراحل متوالية من القمع والضغط ثم التحرير والاعتراف به كدين مستقل ثم كدين دولة، ويفضي به آخر الأمر إلى إقامة الدولة البهائية ويكمل أمره بظهور الجامعة البهائية العالمية.

نشأ هذا التطور في بلاد يحق لها أن تفخر بأنها المركز المعترف به للعالمين العربي والإسلامي، وتسبب في حدوثه ممثلو أكبر طائفة إسلامية من تلقاء أنفسهم، وكان النتاج المباشر لسلسلة من الاضطرابات التي أحدثها بعض أفراد تلك الطائفة، والتي أريد بها أن تحد من نشاط بعض البهائيين الذين كانوا قد احتلوا بينهم المناصب الدينية سابقاً. ولقد استطاع هذا التطور الخطير في مصائر الجامعة المكافحة أن يؤدي خدمة ملحوظة في سبيل توطيد دعائم النظام الإداري الذي بدأت تشيده الجامعة البهائية. ولسوف يعجل هذا التطور، فضلاً عن ذلك، بنهاية فترة الانتقال التي يمر بها الآن الدين في مرحلة التكوين من نموه، وهذا حين يتردد صداه في طول البلاد الإسلامية

ولقد ورد في التقرير المرفوع إلى مجلس العصبة الاستشاري والمنشور في مضبطة الجلسة الرابعة عشرة للجنة عصبة الأمم الدائمة المشرفة على الدول المنتدبة المنعقدة في جنيف في خريف سنة ١٩٢٨م، والمترجم فيما بعد إلى العربية والمنشور في العراق أن «اللجنة توجه نظر المجلس إلى الاعتبارات والاستنتاجات الجازمة التي تمخّض عنها فحص الالتماس... وهي توصي بأن يسأل المجلس الحكومة البريطانية أن تتصل بحكومة العراق حتى تجري العدل مجراه وترفع الظلم الذي لحق بالملتمسين».

ولقد قرر المندوب البريطاني المعتمد لدى اللجنة في جلساتها زيادة على ذلك أن «دولة الانتداب قد اعترفت بأن البهائيين قد ظلموا». على حين أشير في أثناء تلك الجلسة إلى أن عمل الشيعة عمل يخل بالدستور ويخرق القانون الأساسي العراقي. وصرح المندوب الفنلندي زيادة على ذلك في تقريره المرفوع إلى المجلس بأنّ هذا «الظلم يجب ألاّ يعزى إلى شيء غير الحزازات الدينية» وطلب أن «ترفع مظالم الملتمسين وترد أمورهم إلى نصابها».

أما مجلس العصبة فقد أخذ بعين الاعتبار ذلك التقرير، وملاحظات اللجنة واستنتاجاتها الجازمة، واتخذ بإجماع في الرابع من آذار سنة ١٩٢٩م قراراً ترجم فيما بعد ونشرته صحف بغداد يوصي دولة الانتداب «أن تتصل بحكومة العراق بشأن رفع الظلم الذي لحق الملتمسين». وعلى ذلك كُلف المجلس السكرتير العام أن يخطر دولة الانتداب والملتمسين الذين يهمهم الأمر بما توصلت إليه اللجنة، وهو تكليف أبلغته الحكومة البريطانية في الوقت المناسب إلى حكومة العراق عن طريق مندوبها السامي.

وورد في خطاب كتب في الثاني عشر من كانون الثاني سنة ١٩٣١م باسم وزير الخارجية البريطانية آرثر هندرسون[١] إلى سكرتارية العصبة أن ما

---

(١) Mr. Arthur Henderson

توصل إليه المجلس «لقي أعظم اعتبار من قبل حكومة العراق» التي «عزمت أخيراً على أن تشكل لجنة خاصة . . . لتبحث وجهة نظر الجامعة البهائية بشأن بعض المنازل في بغداد، ولتصوغ التوصيات اللازمة لتسوية تلك القضية تسوية عادلة». وبيّن هذا الخطاب فضلاً على ذلك أن اللجنة رفعت تقريرها في آب سنة ١٩٣٠م، وأن الحكومة قبلته وأن الجامعة البهائية «سلمت مبدئياً» بتوصياتها، وأن السلطات في بغداد قد صرحت بأن «الخطط والتقديرات المفصلة ستكون معدة لتنفيذ هذه التوصيات أثناء السنة المالية القادمة».

ولا حاجة بنا إلى إطالة الوقوف لدى التاريخ الذي تلا هذه القضية الخطيرة، ولا لدى المفاوضات المطولة المديدة والتسويفات والمضاعفات التالية، ولا لدى الاستشارات التي «أربت على المائة» والتي اشترك فيها الملك ووزراؤه ومستشاروه، ولا لدى تعبيرات «الأسف» و«الدهشة» و«القلق» التي سجلت في جلسات متعاقبة عقدتها لجنة عصبة الأمم الدائمة في جنيف سنة ١٩٢٩م وسنة ١٩٣٠م وسنة ١٩٣١م وسنة ١٩٣٢م وسنة ١٩٣٣م، ولا لدى تنديد أعضائها «بروح عدم التسامح» التي تحرك جامعة الشيعة، و«تحزب» المحاكم العراقية، و«ضعف» السلطات المدنية و«العداء الديني الكامن وراء هذا الظلم»، ولا لدى شهادتهم «باستعداد الملتمسين الفائق للتراضي»، ولا لدى «شكهم» فيما يختص بكفاية المقترحات، ولا لدى اعترافهم «بخطورة» الموقف الحادث، و«انعدام العدل الفاضح» الذي قاسى منه البهائيون، و«الدين الأدبي» الذي تدين به حكومة العراق، وهو دين كان من واجبها المحتوم أن تفي به مهما تقلبت بها أوضاعها كافّة.

كما يبدو أنه لا ضرورة تلجئنا إلى إطالة القول في تلك النتائج المؤسفة التي نتجت عن موت المفوض البريطاني السامي ورئيس الوزراء العراقي، أو في دخول العراق عضواً في العصبة وما تلا ذلك من انتهاء انتداب بريطانيا العظمى، ولا في موت الملك تلك الميتة المحزنة المفاجئة، ولا في الصعوبات التي نشأت عن وجود مشروع تعمير للمدينة، ولا في التأكيد

الكتابي الذي رفعه إلى المندوب السامي رئيس الوزراء بالنيابة في خطابه الصادر في كانون الثاني سنة ١٩٣٢م، ولا في العهد الذي قطعه الملك على نفسه قبل موته لمحضر وزير الخارجية في شباط سنة ١٩٣٣م بأن تنزع ملكية البيت وأن يرصد المال اللازم في ربيع السنة المقبلة، ولا في التصريح القاطع الذي صرح به وزير الخارجية نفسه بأن رئيس الوزراء قد أكد التأكيدات اللازمة بأن الوعد الذي وعد به رئيس الوزراء بالنيابة سيبرّ به، ولا في التصريحات الإيجابية التي صرّح بها وزير الخارجية هذا هو وزميله وزير المالية حين مثّلا بلادهما أثناء جلسات الجمعية العامة لعصبة الأمم المنعقدة في جنيف، وهي أن الوعد الذي وعد به مليكهما الراحل سوف يلقى كل احترام.

ولكن يكفينا أن نقول إنه برغم هذه المماطلات والتسويفات والاحتجاجات والمراوغات وعجز السلطات المختصة الظاهر فيما يختص بتنفيذ التوصيات التي أوصى بها مجلس العصبة ولجنة عصبة الأمم الدائمة فإن الشهرة الواسعة النطاق التي أكسبتها للدين هذه الخصومة الباقية الذكر والدفاع الذي دافعت به أعلى محكمة عالمية عن قضيته، قضية الحق والعدل، كان مما أثار دهشة أصدقائه وجزع أعدائه. والواقع أن قليلاً من القصص قد أفلح كهذه في أن يحدث، منذ ميلاد عصر التكوين لدين حضرة بهاء الله، وقعاً يتردد صداه في الدوائر العليا بما يشبه ذلك الذي أحدثه في الحكومات والدوائر الاستشارية هذا الهجوم العنيف الذي لم يستفزه أحد والذي سدده الأعداء الألداء إلى مقام من أقدس مقامات الدين.

ولقد كتب حضرة بهاء الله نفسه كتابة ذات مغزى، فقال: «يا بيت الله! إن هتك المشركون ستر حرمتك لا تحزن. قد زينك الله بطراز ذكره بين الأرض والسماء وإنه لا يُهتَك أبداً. إنك تكون منظر ربك في كل الأحيان» وتنبأ في فقرة أخرى مشيراً إلى هذا البيت فقال: «ثم تمضي أيام يرفعه الله بالحق ويجعله علماً في الملك بحيث يطوف حوله ملأ العارفين».

إلى ذلك الهجوم الجسور الذي شنه ناقضو ميثاق حضرة بهاء الله حين

قاموا يبذلون جهودهم المستميتة لتوطيد سدانة ضريحه الأقدس، وإلى اغتصاب شيعة العراق المتعسف لبيته الأعظم في بغداد أضيف بعد سنوات قلائل هجوم آخر محزن شنه خصم آخر أشد بأساً سدده إلى بنيان النظام الإداري الذي شيدته جامعتان مزدهرتان منذ زمن في الشرق، وانتهى بتدمير الجامعتين والاستيلاء على أول «مشرق الأذكار» في العالم البهائي وما حفّ به من مؤسسات.

ولقد اصطلح ما أبدته هاتان الجامعتان من شجاعة وحماسة وحيوية روحية، وما بلغته مؤسساتهما الإدارية من تنظيم، والتسهيلات الميسّرة لتعليم الدين لشبابهما وتدريبهم عليه، وإيمان عدد من المواطنين الروس المستنيري الفكر الواسعي الإدراك المتشربين بأفكار شديدة الشبه بعقائد الدين، والإدراك المتزايد لمبادئه وما تنطوي عليه من تأكيد على الدين وحرمة الحياة العائلية ونظام الملكية الخاصة وإنكار كل تفرقة أو تمييز بين الطبقات والمساواة التامة بين الناس، اصطلح كل هذا على إثارة ظنون السلطات الحاكمة ثم على إثارة حفيظتها الشديدة فيما بعد، وإحداث أزمة من أخطر الأزمات في تاريخ القرن البهائي الأول.

وعلى حين كانت الأزمة تشتد وتستحكم وتنتشر حتى المراكز القصية في تركستان والقوقاز، كان التشديد والضغط على حرية هذه الجامعات يزداد، والتحقيقات تكثر مع ممثليهم المنتخبين والقبض عليهم يتوالى، وانتهى الأمر بحل محافلهم المحلية ولجانها الفرعية في موسكو وعشق آباد وباكو وبعض البلاد الأخرى الواقعة في هذه الولايات المذكورة، وتعطيل كل فعاليات الشباب. بل لقد أفضت الحال إلى إغلاق المدارس ورياض الأطفال والمكتبات وغرفات المطالعة العامة البهائية، وقطع كل وسائل الاتصال مع المراكز البهائية الأجنبية، ومصادرة كل المطابع والكتب والوثائق، ومنع الفعاليات التبليغية، وإلى إلغاء الدستور البهائي وإبطال كل الأرصدة المركزية والمحلية وتحريم حضور الاجتماعات البهائية على غير البهائيين.

وفي أواسط سنة ١٩٢٨م طبق قانون انتزاع ملكية المنشآت الدينية على مشرق الأذكار في عشق آباد. إلا أن استخدام هذا البناء كمعبد استمر بعقد استئجار لمدة خمس سنوات جددته السلطات المحلية في سنة ١٩٣٣م لمدة مماثلة. وفي سنة ١٩٣٨م تضعضعت الحال في تركستان والقوقاز وتدهورت بسرعة، فأفضت إلى سجن ما يزيد عن خمسمائة من المؤمنين والمؤمنات، ولقد مات كثير منهم، ومصادرة أموالهم، وما شفع ذلك من نفي عدة شخصيات بارزة من هذه الجامعات إلى سيبيريا والغابات القطبية وغيرهما من الأماكن المجاورة للمحيط المتجمّد، وما تلا ذلك من إخراج معظم البقية الباقية من هذه الجامعات إلى إيران نظراً لجنسيتهم الإيرانية، وانتزاع ملكية المعبد نفسه آخر الأمر وتحويله إلى معرض للفنون.

وكذلك كانت الحال في ألمانيا؛ فقد تلا نهضة نظام الدين الإداري وتأسيسه وقيام المؤمنين الألمان على توسيع نطاقه وتوطيد دعائمه قياماً مطرداً ممتازاً اتخاذ تدابير مشددة إن لم تبلغ في جسامتها ما بلغته الشدائد التي عاناها البهائيون في تركستان والقوقاز، فقد أفضت إلى تعطيل كل فعالية بهائية رسمية في طول البلاد وعرضها في السنوات التي سبقت مباشرة الحرب القائمة [الحرب العالمية الثانية] وحرم تبليغ الدين تبليغاً علنياً لما فيه من تنبيه مكشوف على السلام وكونه ديناً عالمياً وإنكار صريح للنعرة الجنسية تحريماً رسمياً، وحلت المحافل واللجان البهائية، ومنع عقد المؤتمرات البهائية، واستولي على محفظة آثار المحفل الروحاني المركزي، وألغيت المدرسة الصيفية، وعطل نشر الكتب البهائية جميعاً.

أما في إيران فقد أخضعت السلطات المدنية في العاصمة والأقاليم هيئات النظام الإداري الحديث الإنشاء الذي لم تتوطد دعائمه بعد للتقييدات التي أريد بها الحد من مجالها وتقييد حريتها وتقويض أسسها، هذا عدا حوادث اضطهاد بين الفينة والأخرى في بعض المدن مثل شيراز وآباده وأردبيل وإصفهان وفي بعض المقاطعات كآذربيجان وخراسان، قلّ عددها

وضعفت شوكتها نظراً إلى التدهور الملحوظ الذي آلت إليه حال رجال الشيعة.

ولم يكن هناك مناص من أن يثير خروج جامعة مركزية متماسكة من الظلمات خروجاً متدرجاً غير متوقع، جامعة تغذت بلبان البأساء والضراء، قوية الشكيمة والروح، لها مراكزها التي شيدت في كل إقليم من أقاليم هذه البلاد على الرغم من أمواج الاضطهاد الوحشي المتعاقبة التي ظلت تكتسحها طوال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، وكادت تطغى عليها طغياناً لا قائمة لها بعده، وعزم أفرادها على إفاضة روح دينهم ومبادئه وإذاعة كتبه وآدابه وتعزيز أحكامه وسننه، ومعاقبة المتجاوزين عن هذه الحدود، واتصالهم بإخوانهم المؤمنين في البلاد الأجنبية اتصالاً ثابتاً، وعلى إقامة منشآت النظام الإداري وهيئاته؛ لم يكن هناك مناص من أن يثير كل هذا شكوك وعداوة رجال السلطة الذين أخطأوا فهم أهداف تلك الجامعة أو أصروا وعكفوا على القضاء عليها. كما أن إصرار أفرادها، مع إطاعتهم الكاملة للأمور الإدارية البحتة التي تفرضها عليها قوانين بلادهم المدنية، على التشبث باتباع الأصول والشرائع والمبادئ الروحية التي أنزلها حضرة بهاء الله والتي تقتضيهم من بين أمور كثيرة التمسك بالصدق، وعدم إخفاء عقيدتهم، ومراعاة أحكام الزواج والطلاق، وتعطيل كل لون من ألوان العمل في الأيام المقدسة التي أمر بها، كان مما يجعلهم يصدمون، إن عاجلاً وإن آجلاً، بنظام سياسي لمّا كان يعترف بالإسلام ديناً رسمياً لإيران فقد أبى أن يعترف بهؤلاء الّذين أفتى بإلحادهم أقطاب ذلك الدين ورجالاته.

ومما يدخل في عداد المحاولات الأولى التي بدئت في البلد الذي تشربت تربته دماء شهداء بهائيين فاقوا العد وتخطوا الحصر، لمقاومة قيام نظام إداري وليد استمد جذور قوته من مثل هذه التضحية البطولية، ولإحباط كل كفاح يقوم به ليتحرر كان: إغلاق كل المدارس المنتمية إلى الجامعة البهائية في البلاد كنتيجة مباشرة لرفض ممثلي هذه الجامعة الذين يملكون

المعاهد البهائية الرسمية ويشرفون عليها إشرافاً كاملاً، أن تتخطى معاهدهم الشرع الواضح الذي يقتضي تعطيل العمل في الأيام البهائية المقدسة، ومنها عدم قبول قسائم الزواج البهائي ورفض تسجيلها في دوائر الترخيصات الحكومية، ومنها تحريم طبع الكتب البهائية أو تداولها أو السماح بدخولها إلى البلاد، ومنها الاستيلاء في المراكز المختلفة على الوثائق والكتب والآثار البهائية، ومنها إغلاق حظيرة القدس في بعض الولايات ومصادرة أثاثها في بعض البقاع، ومنها منع الاحتفالات والاجتماعات والمؤتمرات البهائية، ومنها الرقابة الصارمة المفروضة على المراسلات المتبادلة بين المراكز البهائية في إيران مع بعضها البعض وبين هذه المراكز والجامعات البهائية في البلاد الأجنبية، وعدم تسليمها في معظم الأحيان، ومنها الامتناع عن تزويد المواطنين الموالين الطائعين للقانون بشهادات حسن السير والسلوك بحجة اعتناقهم المعلن للدين البهائي، ومنها فصل موظفي الحكومة، وتسريح ضباط الجيش أو إنزال رتبهم، وإلقاء القبض على عدد من المؤمنين الذين أبوا أن يتخلوا عن واجبهم الخلقي في التشبث بمبادئ الدين الروحية أو أن يتصرفوا تصرفاً من شأنه أن يتعارض مع طبيعة الدين العالمية وغير السياسية، واستجوابهم والتحقيق معهم وحبسهم، وفرض الغرامات عليهم وتوقيع العقوبات الأخرى.

تحرير الدين والاعتراف به وبمؤسساته

على حين كان أتباع حضرة بهاء الله في المشرق والمغرب يخطون الخطوات الرامية إلى تشييد هيكل نظام دين حضرة بهاء الله الإداري في وقت واحد، شن الأعداء هجمة وحشية في قرية مغمورة من قرى مصر على حفنة من المؤمنين كانوا يحاولون أن ينشئوا واحدة من المؤسسات الأولية في ذلك النظام. وهي هجمة لو نظرنا إليها بملابساتها الصحيحة في التاريخ لعدتها الأجيال القادمة حداً فاصلاً لا في عصر التكوين للدين فحسب بل في تاريخ القرن البهائي الأول على الإطلاق. لا بل قد نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن نتائج هذه الهجمة قد بدأت فصلاً جديداً في تطور الدين نفسه، هذا التطور الذي يتدرج به خلال مراحل متوالية من القمع والضغط ثم التحرير والاعتراف به كدين مستقل ثم كدين دولة، ويفضي به آخر الأمر إلى إقامة الدولة البهائية ويكمل أمره بظهور الجامعة البهائية العالمية.

نشأ هذا التطور في بلاد يحق لها أن تفخر بأنها المركز المعترف به للعالمين العربي والإسلامي، وتسبب في حدوثه ممثلو أكبر طائفة إسلامية من تلقاء أنفسهم، وكان النتاج المباشر لسلسلة من الاضطرابات التي أحدثها بعض أفراد تلك الطائفة، والتي أريد بها أن تحد من نشاط بعض البهائيين الذين كانوا قد احتلوا بينهم المناصب الدينية سابقاً. ولقد استطاع هذا التطور الخطير في مصائر الجامعة المكافحة أن يؤدي خدمة ملحوظة في سبيل توطيد دعائم النظام الإداري الذي بدأت تشيده الجامعة البهائية. ولسوف يعجل هذا التطور، فضلاً عن ذلك، بنهاية فترة الانتقال التي يمر بها الآن الدين في مرحلة التكوين من نموه، وهذا حين يتردد صداه في طول البلاد الإسلامية

الأخرى وعرضها، وتتضح دلالته الواسعة النطاق لأتباع المسيحية والإسلام.

ففي قرية كوم الصعايدة بمركز بِبَا بمديرية بني سويف في مصر العليا أقام مأذون القرية، بصفته مفوضاً من قبل وزارة العدل، الدعوى ضد ثلاثة رجال من البهائيين المقيمين بتلك القرية، وطالبهم بتسريح زوجاتهم المسلمات محتجاً بأنهم خرجوا عن الإسلام بعد أن تزوجوهن زواجاً شرعياً إسلامياً، وكان ذلك الهجوم نتيجة للتعصب الديني الذي أضرمه تشكيل محفل بهائي في صدر عمدة تلك القرية، كما كان نتيجة للتهم الجسيمة التي اتهمهم بها عند مأمور المركز ومدير المديرية، وهي تهم أثارت ثائرة المسلمين وجعلتهم يرتكبون المخزيات ضد ضحاياهم.

وصدر حكم محكمة بِبَا الشرعية للاستئناف وفتواها في العاشر من أيار سنة ١٩٢٥م، وصادقت عليه الدوائر الدينية العليا في القاهرة وعدته حكماً نهائياً، وطبعته الدوائر الإسلامية نفسها ونشرته. وقد قضى بفسخ عقود الزواج التي عقدها هؤلاء البهائيون الثلاثة، وأفتى على الجماعة بأنها ملحدة لأنها مرقت عن شرائع الإسلام وأحكامه. بل لقد تمادى الحكم إلى أبعد من ذلك فصرّح ذلك التصريح الإيجابي المثير والتاريخي حقاً، ألا وهو أن الدين الذي يعتنقه هؤلاء الملاحدة يجب أن يعد ديناً قائماً برأسه مستقلاً كلية عن الأديان التي سبقته، وهو تصريح كان أعداء الدين في الشرق وفي الغرب على السواء يجادلون فيه حتى حينذاك أو يتجاهلونه عن عمد وإصرار.

وبعد أن فصّل الحكم القول في عقائد الإسلام الأساسية وأحكامه، وعرض التعاليم البهائية عرضاً وافياً معززاً بأقوال مختلفة من الكتاب الأقدس ومن كتابات حضرة عبد البهاء وميرزا أبي الفضل وأشار إشارة خاصة إلى بعض الشرائع البهائية، وبيّن أن المدّعى عليهم قد ارتدوا فعلاً، على ضوء هذه المعلومات، عن دين الإسلام أعلن منطوقه الرسمي في لغة لا تقبل أي لبس ولا أي غموض فقال: «إن البهائية دين جديد قائم بذاته له عقائد وأصول وأحكام خاصة تغاير وتناقض عقائد وأصول وأحكام الدين الإسلامي

تناقضاً تاماً، فلا يقال للبهائي مسلم ولا العكس، كما لا يقال للبوذي أو البرهمي أو المسيحي مسلم ولا العكس». وبعد أن يقضي هذا الحكم الرسمي الباقي الذكر بفسخ عقود زواج المتقاضين و«تفرقة» الأزواج عن زوجاتهم يختتم بهذه الكلمات: «ومن تاب وآمن منهم [أي من الأزواج] وصدّق بكل ما جاء به سيدنا محمد رسول الله... وعاد إلى الدين الإسلامي الكريم... وسلم بأن سيدنا محمد... هو خاتم النبيين والمرسلين لا دين بعد دينه ولا شرع ينسخ شرعه، وأن القرآن هو آخر كتب الله ووحيه لأنبيائه ورسله... قبل منه ذلك وجاز تجديد عقد زواجه...».

ولقد عززت هذا الإعلان الميمون الدلالة براهين قاطعة قدمها أعداء دين حضرة بهاء الله أنفسهم، وتم إعلانه في بلاد تطمح إلى زعامة الإسلام بإعادة الخلافة، وصدقت عليه الدوائر الدينية العليا في تلك البلاد. هذه الشهادة الرسمية التي جاهد أقطاب الشيعة في إيران والعراق جهاداً موصولاً حثيثاً طوال قرن كامل من الزمان كي يتجنبوا النطق بمثلها، وأخرست إلى الأبد ألسنة المفترين بمن فيهم رجال الدين المسيحي في الغرب الذين وصموا الدين من قبل بأنه انحراف وأنه فرقة بابية، وأنه مذهب من مذاهب الإسلام، أو صوروه على أنه خليط من الأديان، فلا عجب إن مجّدها كل الجامعات البهائية في الشرق والغرب، وعدّها أول دستور لتحرير أمر حضرة بهاء الله من ربقة الإسلام وأول خطوة تاريخية خطاها خصومه أنفسهم، لا أتباعه كما كان متوقعاً، في الطريق المفضية إلى الاعتراف النهائي العالمي.

وفي الحال اعتبر هذا الحكم المشحون بالاحتمالات التي لا حصر لها تحدياً قوياً لم يتوان بناة نظام دين حضرة بهاء الله الإداري عن مواجهته وقبوله، إذ فرض عليهم التزاماً مقدساً شعروا باستعدادهم لإنجازه. فإنه لما كان الناطقون بهذا الحكم قد أعدوه ليحرموا خصومهم التقاضي أمام المحاكم الإسلامية، وبذلك يزجون بهم في موقف محير مربك، فقد أصبح عتلة رافعة لم تلبث الجامعة البهائية المصرية، وأخواتها من بعدها، أن انتفعت بها في

تأكيد استقلال دينها وطلب اعتراف الحكومة بهذا الدين. فلما ترجم إلى لغات عدة وتداولته الجامعات البهائية في الشرق والغرب مهد بالتدرج طريق المفاتحة في مفاوضات بين ممثلي هذه الجامعات المنتخبين والسلطات المدنية في مصر والأرض الأقدس وإيران وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية ابتغاء الحصول على اعتراف هذه السلطات الرسمي بالدين البهائي كدين مستقل.

وكان هذا في مصر إشارة لاتخاذ حلقات من الإجراءات يسّرت بآثارها المتراكمة اعتراف حكومة ما زالت مرتبطة بدين الإسلام ارتباطاً رسمياً، وما زالت تعنى بأن تسن قوانينها وتشرع أحكامها في تطابق كبير مع آراء أقطاب رجال الدين وفتاويهم. وكان من أولى نتائج هذا الحكم التاريخي، الذي يجب أن يفضي آخر الأمر إلى إقامة الدين البهائي على أساس المساواة المطلقة مع الأديان الأخرى في تلك البلاد، أن عزم المؤمنون المصريون عزيمة ماضية على ألا يحيدوا قيد شعرة عن شعائر دينهم، وذلك بتحاشيهم التعامل مع أية محكمة شرعية إسلامية في تلك البلاد، ورفضهم أي منصب ديني يعرض عليهم، ومنها تصنيفهم ونشرهم أحكام الكتاب الأقدس الأساسية الخاصة بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والدفن وتقديم هذه الأحكام إلى مجلس الوزراء المصري، وإصدار المحفل الروحاني المركزي المصري لقسائم الزواج والطلاق، واضطلاع هذا المحفل بكل الواجبات والمسؤوليات المتصلة بعقود الزواج البهائية والطلاق ودفن الموتى، ومنها مواظبة كل أعضاء تلك الجامعة على أيام العطلة التسعة التي يجب أن يتوقف فيها العمل بمقتضى ما ورد في التعاليم البهائية توقفاً تاماً، ومنها تقدم ممثلي هذه الجامعة المنتخبين بالتماس إلى رئيس الوزراء المصري ووزير الداخلية ووزير العدل (عززه التماس مشابه وجهه المحفل الروحاني المركزي الأمريكي إلى الحكومة المصرية) متضمناً صورة من حكم المحكمة وصورة من دستورهم المركزي البهائي وقوانينهم الفرعية مطالبين بالاعتراف بمحفلهم كهيئة يحق لها مباشرة مهمة المحكمة المستقلة وتطبيق الشرائع والأحكام التي أنزلها مؤسس دينهم في كل الأمور المتصلة بأحوالهم الشخصية.

وشبيه بهذا الإعلان المفتتح لعهد جديد تلك الفتوى الرسمية الرائعة التي لا تقل عنه دلالة والتي أصدرها مفتي الديار المصرية استجابة لطلب وزير العدل. وذلك كان نتيجة مباشرة لأحداث الشغب المتقطعة التي قام بها الأهلون المتعصبون في بور سعيد والإسماعيلية بشأن دفن بعض أفراد الجامعة البهائية. وما لبثت أن نشرت الصحافة المصرية هذه الفتوى بعد صدورها، فزادت في تعزيز موقف الدين من ناحية استقلاله. ولقد أعقب هذه الفتوى الشغب الذي انفجر انفجاراً شاذ العنف في الإسماعيلية حين أطبقت الجماهير الهائجة الغضبى على جنازة محمد سليمان، وهو أحد البهائيين البارزين المقيمين في تلك المدينة، محدثة من الضجة ما حمل قوة الشرطة على التدخل. وبعد أن استنقذوا الجثمان وأعادوه إلى دار الفقيد اضطروا إلى الإسراء به دون مشيّع إلى حافة الصحراء حيث دفنوه في العراء.

صدرت هذه الفتوى نتيجة للاستفسار الذي وجهته وزارة الداخلية المصرية في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٣٩م كتابة إلى وزارة العدل مرفقة معه نسخة من مصنف الأحكام البهائية الخاصة بالأحوال الشخصية الذي طبعه المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في مصر طالبة من المفتي أن يصدر فتواه في الالتماس الذي قدمه ذلك المحفل إلى الحكومة المصرية بشأن تخصيص أربع قطع من الأرض بقصد استعمالها مقابر للجامعة البهائية في القاهرة والإسكندرية وبور سعيد والإسماعيلية. فكتب المفتي في جوابه الصادر في الحادي عشر من آذار سنة ١٩٣٩م على المخابرة التي وجهتها إليه وزارة العدل فقال: «نحن... لدى تسلمنا لخطابكم... المؤرخ ٢١ شباط سنة ١٩٣٩م مع ما أرفق معه... المستفسر عما إذا كان من المشروع دفن موتى البهائيين في مقابر المسلمين نعلن أن هذه الطائفة ليست من المسلمين كما هو واضح من المعتقدات التي تؤمن بها. وإن تصفّح ما يسمونه بالأحكام البهائية في الأحوال الشخصية المرفق مع الأوراق ليعد شاهداً كافياً. ومن كان منهم في الأصل مسلماً وأصبح باعتقاده لمزاعم هذه

الطائفة مرتداً عن دين الإسلام وخارجاً عنه تجري عليه أحكام المرتد المقررة في الدين الإسلامي القويم. ولما كانت هذه الطائفة ليست من المسلمين لا يجوز شرعاً دفن موتاهم في مقابر المسلمين سواء منهم من كان في الأصل مسلماً ومن لم يكن كذلك. . . ».

وكان من نتيجة هذا النطق النهائي الواضح اللفظ، الرسمي الصبغة، الذي نطق به أعلى رجل من رجال الشريعة الإسلامية في مصر أن قبلت الحكومة من بعد مفاوضات مديدة أفضت أول الأمر إلى إحالة البهائيين في القاهرة على قطعة من الأرض كانت أفردت للمقيمين بها من أحرار الفكر، ثم وهبت جامعة البهائيين في القاهرة وجامعة البهائيين في الإسماعيلية أيضاً قطعتين من الأرض لاستعمالها مدافن لموتاهما، وهو عمل تاريخي الدلالة رحب به أفراد الجامعات التي طال بها الضنك والعذاب، فقد وضح استقلال الدين توضيحاً أبعد مدى، ووسع نطاق المؤسسات التي تمثله.

وإلى أول المدفنين اللذين أفردا رسمياً للبهائيين نقلت رفات ميرزا أبي الفضل الشهير تنفيذاً للقرار الذي اتخذه المحفل المركزي المصري للبهائيين، والذي عززه قرار أخيه محفل إيران المركزي، وأفردت رفات الفقيد بضريح لائق بمكانته السامية، وبذلك افتتح أول نظام بهائي رسمي من نوعه في الشرق افتتاحاً مناسباً. وما لبث أن عزز هذا العمل إخراج جثمان أم مبلغات الغرب الذائعة الصيت السيدة جتسنجر من مقابر المسيحيين في القاهرة ودفنها بمساعدة المحفل البهائي المركزي الأمريكي ووزارة الداخلية في واشنطن في قلب ذلك المدفن بجوار مرقد ذلك المؤلف والمدافع الممتاز عن الدين.

أما في الأرض الأقدس حيث أنشئت المدافن البهائية أثناء عهد حضرة عبد البهاء قبل صدور تلك الأحكام في مصر، فقد اتخذ القرار التاريخي بدفن الموتى البهائيين متجهين إلى القبلة في عكاء، وهو إجراء سما بدلالته العزم على الكف عن الالتجاء إلى أية محكمة إسلامية في جميع القضايا المتصلة بالزواج أو الطلاق كما كانت الحال من قبل، والتصميم على تنفيذ الشعائر التي أوصى بها حضرة بهاء الله بشأن تهيئة الموتى ودفنهم بحذافيرها وبدون

تستر أياً كان لونه. وما لبث ذلك أن أعقبه تقدم ممثلي الجامعة البهائية المحلية في حيفا في الرابع من أيار سنة ١٩٢٩م بالتماس رسمي إلى السلطات في فلسطين ملتمسين منها أن تعترف بوجود الجامعة اعترافاً رسمياً، وأن تخول «السلطة الكاملة لإدارة شؤونها الخاصة شأنها في ذلك شأن كل الطوائف الدينية المختلفة في فلسطين» ريثما تصوغ السلطات قانوناً مدنياً موحداً للأحوال الشخصية يمكن تطبيقه على كل سكان البلاد بغض الطرف عن معتقداتهم الدينية.

كان قبول السلطات لهذا الالتماس عملاً هائل الدلالة، فلا سابق له في تاريخ الدين في أي قطر من الأقطار، إذ ضمن اعتراف السلطات المدنية اعترافاً رسمياً بقسائم الزواج التي يصدرها ممثلو الجامعة المحلية، كما أقر بصحتها ممثل الحكومة الإيرانية بفلسطين في صمت. وتلا ذلك سلسلة من القرارات برفع الضرائب الحكومية عن كل الأملاك والمنشآت التي تعدها الجامعة البهائية مقامات مقدسة، أو تكرسها لمقابر مؤسسي دينها في مركزه العالمي، كما قد أعفيت كل الأشياء المجلوبة لزخرفة المقامات البهائية أو تأثيثها من المكوس الجمركية بفضل هذه القرارات، وتمكنت شعبتا المحفل الروحاني المركزي الأمريكي والهندي من أن تعملا «كجمعيات دينية» في ظل قوانين البلاد، وأن تملكا وتديرا الأملاك بوصفهما وكيلتين لهذين المحفلين.

أما في إيران، حيث استطاعت جامعة تفوق في تعدادها الأقليات المسيحية واليهودية والزرادشتية في تلك البلاد أن تشيد بنيان هيئاتها الإدارية برغم المسلك العدائي التقليدي الذي تسلكه السلطات المدنية والدينية حيالها، فإن رد فعل هذا الإعلان الخطير ألهم أفرادها وأغراهم بأن يستغلوا إلى أقصى حد مستطاع تلك الميزات الهائلة التي منحتها لهم تلك الشهادة المباغتة التي لم تكن متوقعة في أقل القليل. نعم، لقد عاشت هذه الجامعة الظافرة من بعد الشدائد النارية التي أمتحنها بها أقطاب رجال الدين المتكبرون القساة الألداء الذين هان أمرهم الآن هواناً مخزياً، وما لبثت أن خرجت من

الظلمات حتى صممت تصميماً أمضى من أي وقت سابق على أن تطالب الدولة، الحدود التي رسمها لها مؤسسوها، باعتبارها كياناً دينياً قائماً بذاته، يقوم أفرادها بكل وسيلة مستطاعة على حماية سلامة الأمر وتضامن أعضائه ومتانة هيئاته المنتخبة. ولم تعد هذه الجامعة تطيق الصمت أو تتحمل دون احتجاج تلك التشديدات المفروضة عليها للحد من سلطتها وإخماد حياتها الاجتماعية، وحرمانها من حق الوقوف على قدم المساواة المطلقة مع سائر الطوائف الدينية الأخرى في تلك البلاد، ولا سيما بعد أن نطق خصومها الألداء بمثل ذلك الحكم المكتسح في قطر كذلك القطر وفي لغة كتلك اللغة، وفي قضية مهمّة كتلك القضية، وبعد أن مزقوا بأنفسهم الستار الذي طال انسداله على بعض الحقائق المميزة الكامنة في لب دينهم.

عزم أفراد هذه الجماعة عزماً لا رادّ له على ألا يسلكوا من بعد ذلك في عداد المسلمين أو اليهود أو المسيحيين أو الزرادشتيين فقرروا ـ كخطوة مبدئية ـ أن يتخذوا من التدابير ما يحقق الموقف المتميز الذي ادّعاه أعداؤهم لدينهم تحقيقاً يسمو على كل تحدّ. ولما كانوا على بينة من واجبهم الواضح المقدس المحتوم القاضي بإطاعة قوانين بلادهم فيما يختص بكل الشؤون الإدارية الحكومية إطاعة مطلقة لا تحفّظ فيها، ولما كانوا مصرين إصراراً وطيداً على أن يؤكدوا استقلال دينهم ويظهروه بكل ما أوتوا من الوسائل المشروعة فقد ابتدعوا سياسة معينة وشرعوا في إنجاز مشروعات من شأنها أن تمضي بهم مسافة أبعد نحو الهدف الذي أخذوا أنفسهم ببلوغه.

إن عزمهم الوطيد على ألا يتستروا بدينهم من بعد مهما كلفهم ذلك الأمر من بذل وتضحية، وامتناعهم امتناعاً لا مساومة فيه عن الالتجاء إلى أية محكمة إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو زرادشتية في أي أمر يمس أحوالهم الشخصية، ومنها رفضهم الاندراج تحت أية هيئة أو قبول أي منصب ديني متصل بأي دين من الأديان المعترف بها في بلادهم، ومنها محافظتهم فرداً فرداً على العمل بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب الأقدس الخاصة

بالصلاة والصوم والزواج والطلاق والمواريث ودفن الموتى وعدم تعاطي الأفيون والمسكرات، ومنها إصدار قسائم الزواج والطلاق وشهادات المواليد والوفيات وتداولها بتوجيه المحافل البهائية وتصديقها بأختامها، ومنها ترجمة كتاب «الأحكام البهائية المرتبطة بالأحوال الشخصية» الذي نشره المحفل الروحاني المركزي المصري إلى اللغة الفارسية، ومنها تعطيلهم الأعمال في كل الأيام البهائية المقدسة، ومنها إنشاء المقابر البهائية في العاصمة وفي الأقاليم ابتغاء استخدامها مدافن عامة لكل طبقات المؤمنين أياً كانت أصولهم الدينية الأولى، ومنها إصرارهم على ألا يسجلوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً أو زرادشتيين في بطاقات تحقيق الشخصية أو قسائم الزواج أو جوازات السفر أو الوثائق الرسمية الأخرى، وحرصهم الشديد على توطيد مؤسسة الضيافات التسع عشرية كما شرعها حضرة بهاء الله في كتابه الأقدس، ومنها إنزال العقوبات من قبل المحافل الروحانية المنتخبة ـ والتي بدأت الآن بالاضطلاع بمسؤولياتها كمحاكم دينيّة ـ على أعضاء الجامعة الذين يخالفون الأحكام والحدود، وذلك بحرمانهم من حق التصويت وحق عضوية تلك المحافل ولجانها. كل ذلك يتصل بالبوادر الأولى لحركات تلك الجامعة التي شيدت بنيان نظامها الإداري وهي الآن واقعة تحت تأثير كلمة القضاء التاريخية الملزمة التي قيلت في مصر، عازمة على أن تحصل بالإقناع لا بالقوة على اعتراف السلطات المدنية بالوضع الشرعي الذي شهد له الخصوم الدينيون شهادة قوية كل هذه القوة.

وليس مما يدعو إلى الدهشة في شيء أن تلقى محاولتهم الأولى بعض النجاح، وأن تثير في بعض الأحيان ظنون السلطات الحاكمة، أو أن يفسرها أعداؤهم اليقظون أسوأ تفسير. ولقد أفلحوا في بعض نواحي مفاوضاتهم مع السلطات المدنية، وذلك كحصولهم على قرار من الحكومة يزيل كل إشارة إلى الصبغة الدينية في جوازات السفر الصادرة إلى الرعايا الإيرانيين، والسماح الصامت في بعض البلاد لأفرادهم ألا يملأوا الفراغات الخاصة بالدين في بعض وثائق الدولة وأن يسجلوا في محافلهم الخاصة قسائم

زواجهم وطلاقهم وشهادات مواليدهم ووفياتهم، وأن يتبعوا في جنازاتهم شعائرهم الخاصة. على أنهم عانوا في نواح أخرى مصاعب قعدت بهم قعوداً، فمن ذلك أن أغلقت بالقوة مدارسهم التي شيدوها وامتلكوها وأشرفوا عليها بأنفسهم لأنفسهم لا لشيء إلا لأنهم رفضوا أن يفتحوها في أيام العطلات البهائية، ومنها أن حوكم أفرادها رجالاً ونساء، ومنها أن فصل منهم في بعض الأحيان أولئك الذين تولوا مناصب عسكرية أو مدنية، وأن حرّم استيراد الكتب البهائية أو طبعها أو تداولها، ومنها أن منعت كل الاجتماعات البهائية العامة.

إن الجامعة البهائية في إخلاصها لالتزاماتها المقدسة تجاه الحكومة وإدراكها لواجباتها المدنية قد أبدت، وتبدي نحو ما أصدرته وتصدره السلطات المدنية من أوامر إدارية في تلك البلاد كما في غيرها من البلاد الأخرى بين حين وآخر، طاعة بيّنة تامة. وليس أدل على ذلك من إغلاقها لمدارسها في إيران على الفور. غير أنها تأبى إباء شديداً أن تذعن لتلك الأوامر التي توازي ارتداد أفرادها عن دينهم والتي تتطلب انصرافهم بالولاء عن مبادئهم ومعتقداتهم الروحية الأساسية الإلٰهية، مفضلة السجن والطرد وكل ألوان الاضطهاد بما في ذلك الموت، كما قد لقيه من قبل عشرون ألف شهيد ضحوا بحياتهم في سبيل مؤسسي الدين على أن تتبع ما تمليه السلطة الزمنية من مطالبتها إياها بالانفضاض من حول دينها.

وإليك الرسالة الخالدة التي أرسلها الأحفاد البواسل لبعض هؤلاء الشهداء في تلك البقعة المضطربة إلى حاكم ولاية فارس الذي عقد العزم على أن يحملهم على الاعتراف بأنهم مسلمون، قالوا: «لو مزقتمونا إرباً إرباً رجالاً ونساء وأطفالاً في كل ولاية آباده لما أذعنّا لرغباتكم»، وهي رسالة ما كادت تبلغ الحاكم المتحدي حتى كف عن متابعة عزمه إلى أبعد من ذلك.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ضربت الجامعة البهائية من قبل مثالاً ملهماً بتشييدها وإتمامها دعائم نظامها الإداري، فكانت على تمام

الوعي لمحتويات الحكم الذي قضت به المحكمة الشرعية الإسلامية في مصر، وعلى كامل الإدراك لمغزى الاستجابة التي أحدثها في الأرض الأقدس، وحفزها الإصرار الجريء الذي أبداه إخوانهم في إيران إلى العمل من جديد. فصممت على أن تلحق أعمالها الجليلة بأخرى يراد منها زيادة إبراز المكانة التي بلغها دين حضرة بهاء الله في القارة الأمريكية الشمالية، وكان عدد تلك الجامعة أقل من عدد جامعة المؤمنين في إيران، كما أنها جابهت موقفاً في ما يتعلق بالأحوال الشخصية يختلف في جوهره عن الموقف الذي يجابه المؤمنين في الشرق ويزيد عليه تعقيداً بالنظر إلى تعدد القوانين المعمول بها في الولايات المختلفة. غير أنها كانت تحس مسؤوليتها التي تقتضي أن تندفع اندفاعاً جديداً بتطوير النظام الإلهي. فعزمت على أن تتخذ من التدابير ما يوطد أركان استقلال الظهور الذي دافعت عنه من قبل دفاعاً نبيلاً.

إن اعتراف السلطات في الولايات المتحدة بالمحفل الروحاني المركزي كهيئة دينية لها حق الائتمان على الأموال الموهوبة لصالح الدين، ثم إقامة الأوقاف البهائية وإعفائها من دفع الضرائب المقررة من قبل السلطات المدنية باعتبارها أملاكاً تملكها وتديرها لمصلحة جامعة دينية بحتة، كانت إنجازات ستلحق في ما بعد بقرارات وتدابير يراد بها أن تزداد قوة الروابط التي تربط أفرادها. ومن هذه القرارات تشديد هذه الجامعة الدينية الخاص على بعض الأحكام الرئيسة التي جاءت في الكتاب الأقدس بخصوص الصلوات اليومية المفروضة والقيام بالصوم، والحصول على رضاء الوالدين كشرط أساسي للزواج، والتقيد بسنة الاصطبار بين الزوج والزوجة كشرط لا مناص منه للطلاق، والامتناع عن تناول جميع المواد الكحولية، وكذلك الأهمية المعطاة لمؤسسة الضيافة التسع عشرية التي نص عليها حضرة بهاء الله في ذلك الكتاب، ثم إلغاء العضوية في كل الهيئات الدينية الأخرى أو الانتساب إليها وعدم القبول بأي منصب ديني فيها، إن هذه الإنجازات كانت مما ساعد على إبراز الصفة المتميزة للمنتمين إلى الدين البهائي إبرازاً واضحاً وفصله في نظر

المعاهد البهائية الرسمية ويشرفون عليها إشرافاً كاملاً، أن تتخطى معاهدهم الشرع الواضح الذي يقتضي تعطيل العمل في الأيام البهائية المقدسة، ومنها عدم قبول قسائم الزواج البهائي ورفض تسجيلها في دوائر الترخيصات الحكومية، ومنها تحريم طبع الكتب البهائية أو تداولها أو السماح بدخولها إلى البلاد، ومنها الاستيلاء في المراكز المختلفة على الوثائق والكتب والآثار البهائية، ومنها إغلاق حظيرة القدس في بعض الولايات ومصادرة أثاثها في بعض البقاع، ومنها منع الاحتفالات والاجتماعات والمؤتمرات البهائية، ومنها الرقابة الصارمة المفروضة على المراسلات المتبادلة بين المراكز البهائية في إيران مع بعضها البعض وبين هذه المراكز والجامعات البهائية في البلاد الأجنبية، وعدم تسليمها في معظم الأحيان، ومنها الامتناع عن تزويد المواطنين الموالين الطائعين للقانون بشهادات حسن السير والسلوك بحجة اعتناقهم المعلن للدين البهائي، ومنها فصل موظفي الحكومة، وتسريح ضباط الجيش أو إنزال رتبهم، وإلقاء القبض على عدد من المؤمنين الذين أبوا أن يتخلوا عن واجبهم الخلقي في التشبث بمبادئ الدين الروحية أو أن يتصرفوا تصرفاً من شأنه أن يتعارض مع طبيعة الدين العالمية وغير السياسية، واستجوابهم والتحقيق معهم وحبسهم، وفرض الغرامات عليهم وتوقيع العقوبات الأخرى.

تحرير الدين والاعتراف به وبمؤسساته

على حين كان أتباع حضرة بهاء الله في المشرق والمغرب يخطون الخطوات الرامية إلى تشييد هيكل نظام دين حضرة بهاء الله الإداري في وقت واحد، شن الأعداء هجمة وحشية في قرية مغمورة من قرى مصر على حفنة من المؤمنين كانوا يحاولون أن ينشئوا واحدة من المؤسسات الأولية في ذلك النظام. وهي هجمة لو نظرنا إليها بملابساتها الصحيحة في التاريخ لعدتها الأجيال القادمة حداً فاصلاً لا في عصر التكوين للدين فحسب بل في تاريخ القرن البهائي الأول على الإطلاق. لا بل قد نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن نتائج هذه الهجمة قد بدأت فصلاً جديداً في تطور الدين نفسه، هذا التطور الذي يتدرج به خلال مراحل متوالية من القمع والضغط ثم التحرير والاعتراف به كدين مستقل ثم كدين دولة، ويفضي به آخر الأمر إلى إقامة الدولة البهائية ويكمل أمره بظهور الجامعة البهائية العالمية.

نشأ هذا التطور في بلاد يحق لها أن تفخر بأنها المركز المعترف به للعالمين العربي والإسلامي، وتسبب في حدوثه ممثلو أكبر طائفة إسلامية من تلقاء أنفسهم، وكان النتاج المباشر لسلسلة من الاضطرابات التي أحدثها بعض أفراد تلك الطائفة، والتي أريد بها أن تحد من نشاط بعض البهائيين الذين كانوا قد احتلوا بينهم المناصب الدينية سابقاً. ولقد استطاع هذا التطور الخطير في مصائر الجامعة المكافحة أن يؤدي خدمة ملحوظة في سبيل توطيد دعائم النظام الإداري الذي بدأت تشيده الجامعة البهائية. ولسوف يعجل هذا التطور، فضلاً عن ذلك، بنهاية فترة الانتقال التي يمر بها الآن الدين في مرحلة التكوين من نموه، وهذا حين يتردد صداه في طول البلاد الإسلامية

الأخرى وعرضها، وتتضح دلالته الواسعة النطاق لأتباع المسيحية والإسلام.

ففي قرية كوم الصعايدة بمركز بِبَا بمديرية بني سويف في مصر العليا أقام مأذون القرية، بصفته مفوضاً من قبل وزارة العدل، الدعوى ضد ثلاثة رجال من البهائيين المقيمين بتلك القرية، وطالبهم بتسريح زوجاتهم المسلمات محتجاً بأنهم خرجوا عن الإسلام بعد أن تزوجوهن زواجاً شرعياً إسلامياً، وكان ذلك الهجوم نتيجة للتعصب الديني الذي أضرمه تشكيل محفل بهائي في صدر عمدة تلك القرية، كما كان نتيجة للتهم الجسيمة التي اتهمهم بها عند مأمور المركز ومدير المديرية، وهي تهم أثارت ثائرة المسلمين وجعلتهم يرتكبون المخزيات ضد ضحاياهم.

وصدر حكم محكمة بِبَا الشرعية للاستئناف وفتواها في العاشر من أيار سنة ١٩٢٥م، وصادقت عليه الدوائر الدينية العليا في القاهرة وعدته حكماً نهائياً، وطبعته الدوائر الإسلامية نفسها ونشرته. وقد قضى بفسخ عقود الزواج التي عقدها هؤلاء البهائيون الثلاثة، وأفتى على الجماعة بأنها ملحدة لأنها مرقت عن شرائع الإسلام وأحكامه. بل لقد تمادى الحكم إلى أبعد من ذلك فصرّح ذلك التصريح الإيجابي المثير والتاريخي حقاً، ألا وهو أن الدين الذي يعتنقه هؤلاء الملاحدة يجب أن يعد ديناً قائماً برأسه مستقلاً كلية عن الأديان التي سبقته، وهو تصريح كان أعداء الدين في الشرق وفي الغرب على السواء يجادلون فيه حتى حينذاك أو يتجاهلونه عن عمد وإصرار.

وبعد أن فصّل الحكم القول في عقائد الإسلام الأساسية وأحكامه، وعرض التعاليم البهائية عرضاً وافياً معززاً بأقوال مختلفة من الكتاب الأقدس ومن كتابات حضرة عبد البهاء وميرزا أبي الفضل وأشار إشارة خاصة إلى بعض الشرائع البهائية، وبيّن أن المدّعى عليهم قد ارتدوا فعلاً، على ضوء هذه المعلومات، عن دين الإسلام أعلن منطوقه الرسمي في لغة لا تقبل أي لبس ولا أي غموض فقال: «إن البهائية دين جديد قائم بذاته له عقائد وأصول وأحكام خاصة تغاير وتناقض عقائد وأصول وأحكام الدين الإسلامي

تناقضاً تاماً، فلا يقال للبهائي مسلم ولا العكس، كما لا يقال للبوذي أو البرهمي أو المسيحي مسلم ولا العكس». وبعد أن يقضي هذا الحكم الرسمي الباقي الذكر بفسخ عقود زواج المتقاضين و«تفرقة» الأزواج عن زوجاتهم يختتم بهذه الكلمات: «ومن تاب وآمن منهم [أي من الأزواج] وصدّق بكل ما جاء به سيدنا محمد رسول الله... وعاد إلى الدين الإسلامي الكريم... وسلم بأن سيدنا محمد... هو خاتم النبيين والمرسلين لا دين بعد دينه ولا شرع ينسخ شرعه، وأن القرآن هو آخر كتب الله ووحيه لأنبيائه ورسله... قبل منه ذلك وجاز تجديد عقد زواجه...».

ولقد عززت هذا الإعلان الميمون الدلالة براهين قاطعة قدمها أعداء دين حضرة بهاء الله أنفسهم، وتم إعلانه في بلاد تطمح إلى زعامة الإسلام بإعادة الخلافة، وصدقت عليه الدوائر الدينية العليا في تلك البلاد. هذه الشهادة الرسمية التي جاهد أقطاب الشيعة في إيران والعراق جهاداً موصولاً حثيثاً طوال قرن كامل من الزمان كي يتجنبوا النطق بمثلها، وأخرست إلى الأبد ألسنة المفترين بمن فيهم رجال الدين المسيحي في الغرب الذين وصموا الدين من قبل بأنه انحراف وأنه فرقة بابية، وأنه مذهب من مذاهب الإسلام، أو صوروه على أنه خليط من الأديان، فلا عجب إن مجّدها كل الجامعات البهائية في الشرق والغرب، وعدّها أول دستور لتحرير أمر حضرة بهاء الله من ربقة الإسلام وأول خطوة تاريخية خطاها خصومه أنفسهم، لا أتباعه كما كان متوقعاً، في الطريق المفضية إلى الاعتراف النهائي العالمي.

وفي الحال اعتبر هذا الحكم المشحون بالاحتمالات التي لا حصر لها تحدياً قوياً لم يتوان بناة نظام دين حضرة بهاء الله الإداري عن مواجهته وقبوله، إذ فرض عليهم التزاماً مقدساً شعروا باستعدادهم لإنجازه. فإنه لما كان الناطقون بهذا الحكم قد أعدوه ليحرموا خصومهم التقاضي أمام المحاكم الإسلامية، وبذلك يزجون بهم في موقف محير مربك، فقد أصبح عتلة رافعة لم تلبث الجامعة البهائية المصرية، وأخواتها من بعدها، أن انتفعت بها في

تأكيد استقلال دينها وطلب اعتراف الحكومة بهذا الدين. فلما ترجم إلى لغات عدة وتداولته الجامعات البهائية في الشرق والغرب مهد بالتدرج طريق المفاتحة في مفاوضات بين ممثلي هذه الجامعات المنتخبين والسلطات المدنية في مصر والأرض الأقدس وإيران وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية ابتغاء الحصول على اعتراف هذه السلطات الرسمي بالدين البهائي كدين مستقل.

وكان هذا في مصر إشارة لاتخاذ حلقات من الإجراءات يسّرت بآثارها المتراكمة اعتراف حكومة ما زالت مرتبطة بدين الإسلام ارتباطاً رسمياً، وما زالت تعنى بأن تسن قوانينها وتشرع أحكامها في تطابق كبير مع آراء أقطاب رجال الدين وفتاويهم. وكان من أولى نتائج هذا الحكم التاريخي، الذي يجب أن يفضي آخر الأمر إلى إقامة الدين البهائي على أساس المساواة المطلقة مع الأديان الأخرى في تلك البلاد، أن عزم المؤمنون المصريون عزيمة ماضية على ألا يحيدوا قيد شعرة عن شعائر دينهم، وذلك بتحاشيهم التعامل مع أية محكمة شرعية إسلامية في تلك البلاد، ورفضهم أي منصب ديني يعرض عليهم، ومنها تصنيفهم ونشرهم أحكام الكتاب الأقدس الأساسية الخاصة بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والدفن وتقديم هذه الأحكام إلى مجلس الوزراء المصري، وإصدار المحفل الروحاني المركزي المصري لقسائم الزواج والطلاق، واضطلاع هذا المحفل بكل الواجبات والمسؤوليات المتصلة بعقود الزواج البهائية والطلاق ودفن الموتى، ومنها مواظبة كل أعضاء تلك الجامعة على أيام العطلة التسعة التي يجب أن يتوقف فيها العمل بمقتضى ما ورد في التعاليم البهائية توقفاً تاماً، ومنها تقدم ممثلي هذه الجامعة المنتخبين بالتماس إلى رئيس الوزراء المصري ووزير الداخلية ووزير العدل (عززه التماس مشابه وجهه المحفل الروحاني المركزي الأمريكي إلى الحكومة المصرية) متضمناً صورة من حكم المحكمة وصورة من دستورهم المركزي البهائي وقوانينهم الفرعية مطالبين بالاعتراف بمحفلهم كهيئة يحق لها مباشرة مهمة المحكمة المستقلة وتطبيق الشرائع والأحكام التي أنزلها مؤسس دينهم في كل الأمور المتصلة بأحوالهم الشخصية.

وشبيه بهذا الإعلان المفتتح لعهد جديد تلك الفتوى الرسمية الرائعة التي لا تقل عنه دلالة والتي أصدرها مفتي الديار المصرية استجابة لطلب وزير العدل. وذلك كان نتيجة مباشرة لأحداث الشغب المتقطعة التي قام بها الأهلون المتعصبون في بور سعيد والإسماعيلية بشأن دفن بعض أفراد الجامعة البهائية. وما لبثت أن نشرت الصحافة المصرية هذه الفتوى بعد صدورها، فزادت في تعزيز موقف الدين من ناحية استقلاله. ولقد أعقب هذه الفتوى الشغب الذي انفجر انفجاراً شاذ العنف في الإسماعيلية حين أطبقت الجماهير الهائجة الغضبى على جنازة محمد سليمان، وهو أحد البهائيين البارزين المقيمين في تلك المدينة، محدثة من الضجة ما حمل قوة الشرطة على التدخل. وبعد أن استنقذوا الجثمان وأعادوه إلى دار الفقيد اضطروا إلى الإسراء به دون مشيّع إلى حافة الصحراء حيث دفنوه في العراء.

صدرت هذه الفتوى نتيجة للاستفسار الذي وجهته وزارة الداخلية المصرية في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٣٩م كتابة إلى وزارة العدل مرفقة معه نسخة من مصنف الأحكام البهائية الخاصة بالأحوال الشخصية الذي طبعه المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في مصر طالبة من المفتي أن يصدر فتواه في الالتماس الذي قدمه ذلك المحفل إلى الحكومة المصرية بشأن تخصيص أربع قطع من الأرض بقصد استعمالها مقابر للجامعة البهائية في القاهرة والإسكندرية وبور سعيد والإسماعيلية. فكتب المفتي في جوابه الصادر في الحادي عشر من آذار سنة ١٩٣٩م على المخابرة التي وجهتها إليه وزارة العدل فقال: «نحن... لدى تسلمنا لخطابكم... المؤرخ ٢١ شباط سنة ١٩٣٩م مع ما أرفق معه... المستفسر عما إذا كان من المشروع دفن موتى البهائيين في مقابر المسلمين نعلن أن هذه الطائفة ليست من المسلمين كما هو واضح من المعتقدات التي تؤمن بها. وإن تصفّح ما يسمونه بالأحكام البهائية في الأحوال الشخصية المرفق مع الأوراق ليعد شاهداً كافياً. ومن كان منهم في الأصل مسلماً وأصبح باعتقاده لمزاعم هذه

الطائفة مرتداً عن دين الإسلام وخارجاً عنه تجري عليه أحكام المرتد المقررة في الدين الإسلامي القويم. ولما كانت هذه الطائفة ليست من المسلمين لا يجوز شرعاً دفن موتاهم في مقابر المسلمين سواء منهم من كان في الأصل مسلماً ومن لم يكن كذلك...».

وكان من نتيجة هذا النطق النهائي الواضح اللفظ، الرسمي الصبغة، الذي نطق به أعلى رجل من رجال الشريعة الإسلامية في مصر أن قبلت الحكومة من بعد مفاوضات مديدة أفضت أول الأمر إلى إحالة البهائيين في القاهرة على قطعة من الأرض كانت أفردت للمقيمين بها من أحرار الفكر، ثم وهبت جامعة البهائيين في القاهرة وجامعة البهائيين في الإسماعيلية أيضاً قطعتين من الأرض لاستعمالها مدافن لموتاهما، وهو عمل تاريخي الدلالة رحب به أفراد الجامعات التي طال بها الضنك والعذاب، فقد وضح استقلال الدين توضيحاً أبعد مدى، ووسع نطاق المؤسسات التي تمثله.

وإلى أول المدفنين اللذين أفردا رسمياً للبهائيين نقلت رفات ميرزا أبي الفضل الشهير تنفيذاً للقرار الذي اتخذه المحفل المركزي المصري للبهائيين، والذي عززه قرار أخيه محفل إيران المركزي، وأفردت رفات الفقيد بضريح لائق بمكانته السامية، وبذلك افتتح أول نظام بهائي رسمي من نوعه في الشرق افتتاحاً مناسباً. وما لبث أن عزز هذا العمل إخراج جثمان أم مبلغات الغرب الذائعة الصيت السيدة جتسنجر من مقابر المسيحيين في القاهرة ودفنها بمساعدة المحفل البهائي المركزي الأمريكي ووزارة الداخلية في واشنطن في قلب ذلك المدفن بجوار مرقد ذلك المؤلف والمدافع الممتاز عن الدين.

أما في الأرض الأقدس حيث أنشئت المدافن البهائية أثناء عهد حضرة عبد البهاء قبل صدور تلك الأحكام في مصر، فقد اتخذ القرار التاريخي بدفن الموتى البهائيين متجهين إلى القبلة في عكاء، وهو إجراء سما بدلالته العزم على الكف عن الالتجاء إلى أية محكمة إسلامية في جميع القضايا المتصلة بالزواج أو الطلاق كما كانت الحال من قبل، والتصميم على تنفيذ الشعائر التي أوصى بها حضرة بهاء الله بشأن تهيئة الموتى ودفنهم بحذافيرها وبدون

تستر أياً كان لونه. وما لبث ذلك أن أعقبه تقدم ممثلي الجامعة البهائية المحلية في حيفا في الرابع من أيار سنة ١٩٢٩م بالتماس رسمي إلى السلطات في فلسطين ملتمسين منها أن تعترف بوجود الجامعة اعترافاً رسمياً، وأن تخول «السلطة الكاملة لإدارة شؤونها الخاصة شأنها في ذلك شأن كل الطوائف الدينية المختلفة في فلسطين» ريثما تصوغ السلطات قانوناً مدنياً موحداً للأحوال الشخصية يمكن تطبيقه على كل سكان البلاد بغض الطرف عن معتقداتهم الدينية.

كان قبول السلطات لهذا الالتماس عملاً هائل الدلالة، فلا سابق له في تاريخ الدين في أي قطر من الأقطار، إذ ضمن اعتراف السلطات المدنية اعترافاً رسمياً بقسائم الزواج التي يصدرها ممثلو الجامعة المحلية، كما أقر بصحتها ممثل الحكومة الإيرانية بفلسطين في صمت. وتلا ذلك سلسلة من القرارات برفع الضرائب الحكومية عن كل الأملاك والمنشآت التي تعدها الجامعة البهائية مقامات مقدسة، أو تكرسها لمقابر مؤسسي دينها في مركزه العالمي، كما قد أعفيت كل الأشياء المجلوبة لزخرفة المقامات البهائية أو تأثيثها من المكوس الجمركية بفضل هذه القرارات، وتمكنت شعبتا المحفل الروحاني المركزي الأمريكي والهندي من أن تعملا «كجمعيات دينية» في ظل قوانين البلاد، وأن تملكا وتديرا الأملاك بوصفهما وكيلتين لهذين المحفلين.

أما في إيران، حيث استطاعت جامعة تفوق في تعدادها الأقليات المسيحية واليهودية والزرادشتية في تلك البلاد أن تشيد بنيان هيئاتها الإدارية برغم المسلك العدائي التقليدي الذي تسلكه السلطات المدنية والدينية حيالها، فإن رد فعل هذا الإعلان الخطير ألهم أفرادها وأغراهم بأن يستغلوا إلى أقصى حد مستطاع تلك الميزات الهائلة التي منحتها لهم تلك الشهادة المباغتة التي لم تكن متوقعة في أقل القليل. نعم، لقد عاشت هذه الجامعة الظافرة من بعد الشدائد النارية التي امتحنها بها أقطاب رجال الدين المتكبرون القساة الألداء الذين هان أمرهم الآن هواناً مخزياً، وما لبثت أن خرجت من

الظلمات حتى صممت تصميماً أمضى من أي وقت سابق على أن تطالب الدولة، الحدود التي رسمها لها مؤسسوها، باعتبارها كياناً دينياً قائماً بذاته، يقوم أفرادها بكل وسيلة مستطاعة على حماية سلامة الأمر وتضامن أعضائه ومتانة هيئاته المنتخبة. ولم تعد هذه الجامعة تطيق الصمت أو تتحمل دون احتجاج تلك التشديدات المفروضة عليها للحد من سلطتها وإخماد حياتها الاجتماعية، وحرمانها من حق الوقوف على قدم المساواة المطلقة مع سائر الطوائف الدينية الأخرى في تلك البلاد، ولا سيما بعد أن نطق خصومها الألداء بمثل ذلك الحكم المكتسح في قطر كذلك القطر وفي لغة كتلك اللغة، وفي قضية مهمّة كتلك القضية، وبعد أن مزقوا بأنفسهم الستار الذي طال انسداله على بعض الحقائق المميزة الكامنة في لب دينهم.

عزم أفراد هذه الجماعة عزماً لا رادّ له على ألا يسلكوا من بعد ذلك في عداد المسلمين أو اليهود أو المسيحيين أو الزرادشتيين فقرروا ـ كخطوة مبدئية ـ أن يتخذوا من التدابير ما يحقق الموقف المتميز الذي ادّعاه أعداؤهم لدينهم تحقيقاً يسمو على كل تحدّ. ولما كانوا على بينة من واجبهم الواضح المقدس المحتوم القاضي بإطاعة قوانين بلادهم فيما يختص بكل الشؤون الإدارية الحكومية إطاعة مطلقة لا تحفّظ فيها، ولما كانوا مصرين إصراراً وطيداً على أن يؤكدوا استقلال دينهم ويظهروه بكل ما أوتوا من الوسائل المشروعة فقد ابتدعوا سياسة معينة وشرعوا في إنجاز مشروعات من شأنها أن تمضي بهم مسافة أبعد نحو الهدف الذي أخذوا أنفسهم ببلوغه.

إن عزمهم الوطيد على ألا يتستروا بدينهم من بعد مهما كلفهم ذلك الأمر من بذل وتضحية، وامتناعهم امتناعاً لا مساومة فيه عن الالتجاء إلى أية محكمة إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو زرادشتية في أي أمر يمس أحوالهم الشخصية، ومنها رفضهم الاندراج تحت أية هيئة أو قبول أي منصب ديني متصل بأي دين من الأديان المعترف بها في بلادهم، ومنها محافظتهم فرداً فرداً على العمل بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب الأقدس الخاصة

بالصلاة والصوم والزواج والطلاق والمواريث ودفن الموتى وعدم تعاطي الأفيون والمسكرات، ومنها إصدار قسائم الزواج والطلاق وشهادات المواليد والوفيات وتداولها بتوجيه المحافل البهائية وتصديقها بأختامها، ومنها ترجمة كتاب «الأحكام البهائية المرتبطة بالأحوال الشخصية» الذي نشره المحفل الروحاني المركزي المصري إلى اللغة الفارسية، ومنها تعطيلهم الأعمال في كل الأيام البهائية المقدسة، ومنها إنشاء المقابر البهائية في العاصمة وفي الأقاليم ابتغاء استخدامها مدافن عامة لكل طبقات المؤمنين أياً كانت أصولهم الدينية الأولى، ومنها إصرارهم على ألا يسجلوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً أو زرادشتيين في بطاقات تحقيق الشخصية أو قسائم الزواج أو جوازات السفر أو الوثائق الرسمية الأخرى، وحرصهم الشديد على توطيد مؤسسة الضيافات التسع عشرية كما شرعها حضرة بهاء الله في كتابه الأقدس، ومنها إنزال العقوبات من قبل المحافل الروحانية المنتخبة ـ والتي بدأت الآن بالاضطلاع بمسؤولياتها كمحاكم دينيّة ـ على أعضاء الجامعة الذين يخالفون الأحكام والحدود، وذلك بحرمانهم من حق التصويت وحق عضوية تلك المحافل ولجانها. كل ذلك يتصل بالبوادر الأولى لحركات تلك الجامعة التي شيدت بنيان نظامها الإداري وهي الآن واقعة تحت تأثير كلمة القضاء التاريخية الملزمة التي قيلت في مصر، عازمة على أن تحصل بالإقناع لا بالقوة على اعتراف السلطات المدنية بالوضع الشرعي الذي شهد له الخصوم الدينيون شهادة قوية كل هذه القوة.

وليس مما يدعو إلى الدهشة في شيء أن تلقى محاولتهم الأولى بعض النجاح، وأن تثير في بعض الأحيان ظنون السلطات الحاكمة، أو أن يفسرها أعداؤهم اليقظون أسوأ تفسير. ولقد أفلحوا في بعض نواحي مفاوضاتهم مع السلطات المدنية، وذلك كحصولهم على قرار من الحكومة يزيل كل إشارة إلى الصبغة الدينية في جوازات السفر الصادرة إلى الرعايا الإيرانيين، والسماح الصامت في بعض البلاد لأفرادهم ألا يملأوا الفراغات الخاصة بالدين في بعض وثائق الدولة وأن يسجلوا في محافلهم الخاصة قسائم

زواجهم وطلاقهم وشهادات مواليدهم ووفياتهم، وأن يتبعوا في جنازاتهم شعائرهم الخاصة. على أنهم عانوا في نواح أخرى مصاعب قعدت بهم قعوداً، فمن ذلك أن أغلقت بالقوة مدارسهم التي شيدوها وامتلكوها وأشرفوا عليها بأنفسهم لأنفسهم لا لشيء إلا لأنهم رفضوا أن يفتحوها في أيام العطلات البهائية، ومنها أن حوكم أفرادها رجالاً ونساء، ومنها أن فصل منهم في بعض الأحيان أولئك الذين تولوا مناصب عسكرية أو مدنية، وأن حرّم استيراد الكتب البهائية أو طبعها أو تداولها، ومنها أن منعت كل الاجتماعات البهائية العامة.

إن الجامعة البهائية في إخلاصها لالتزاماتها المقدسة تجاه الحكومة وإدراكها لواجباتها المدنية قد أبدت، وتبدي نحو ما أصدرته وتصدره السلطات المدنية من أوامر إدارية في تلك البلاد كما في غيرها من البلاد الأخرى بين حين وآخر، طاعة بيّنة تامة. وليس أدل على ذلك من إغلاقها لمدارسها في إيران على الفور. غير أنها تأبى إباء شديداً أن تذعن لتلك الأوامر التي توازي ارتداد أفرادها عن دينهم والتي تتطلب انصرافهم بالولاء عن مبادئهم ومعتقداتهم الروحية الأساسية الإلٰهية، مفضلة السجن والطرد وكل ألوان الاضطهاد بما في ذلك الموت، كما قد لقيه من قبل عشرون ألف شهيد ضحوا بحياتهم في سبيل مؤسسي الدين على أن تتبع ما تمليه السلطة الزمنية من مطالبتها إياها بالانفضاض من حول دينها.

وإليك الرسالة الخالدة التي أرسلها الأحفاد البواسل لبعض هؤلاء الشهداء في تلك البقعة المضطربة إلى حاكم ولاية فارس الذي عقد العزم على أن يحملهم على الاعتراف بأنهم مسلمون، قالوا: «لو مزقتمونا إرباً إرباً رجالاً ونساء وأطفالاً في كل ولاية آباده لما أذعنّا لرغباتكم»، وهي رسالة ما كادت تبلغ الحاكم المتحدي حتى كف عن متابعة عزمه إلى أبعد من ذلك.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ضربت الجامعة البهائية من قبل مثالاً ملهماً بتشييدها وإتمامها دعائم نظامها الإداري، فكانت على تمام

الوعي لمحتويات الحكم الذي قضت به المحكمة الشرعية الإسلامية في مصر، وعلى كامل الإدراك لمغزى الاستجابة التي أحدثها في الأرض الأقدس، وحفزها الإصرار الجريء الذي أبداه إخوانهم في إيران إلى العمل من جديد. فصممت على أن تلحق أعمالها الجليلة بأخرى يراد منها زيادة إبراز المكانة التي بلغها دين حضرة بهاء الله في القارة الأمريكية الشمالية، وكان عدد تلك الجامعة أقل من عدد جامعة المؤمنين في إيران، كما أنها جابهت موقفاً في ما يتعلق بالأحوال الشخصية يختلف في جوهره عن الموقف الذي يجابه المؤمنين في الشرق ويزيد عليه تعقيداً بالنظر إلى تعدد القوانين المعمول بها في الولايات المختلفة. غير أنها كانت تحس مسؤوليتها التي تقتضي أن تندفع اندفاعاً جديداً بتطوير النظام الإلهي. فعزمت على أن تتخذ من التدابير ما يوطد أركان استقلال الظهور الذي دافعت عنه من قبل دفاعاً نبيلاً.

إن اعتراف السلطات في الولايات المتحدة بالمحفل الروحاني المركزي كهيئة دينية لها حق الائتمان على الأموال الموهوبة لصالح الدين، ثم إقامة الأوقاف البهائية وإعفائها من دفع الضرائب المقررة من قبل السلطات المدنية باعتبارها أملاكاً تملكها وتديرها لمصلحة جامعة دينية بحتة، كانت إنجازات ستلحق في ما بعد بقرارات وتدابير يراد بها أن تزداد قوة الروابط التي تربط أفرادها. ومن هذه القرارات تشديد هذه الجامعة الدينية الخاص على بعض الأحكام الرئيسة التي جاءت في الكتاب الأقدس بخصوص الصلوات اليومية المفروضة والقيام بالصوم، والحصول على رضاء الوالدين كشرط أساسي للزواج، والتقيد بسنة الاصطبار بين الزوج والزوجة كشرط لا مناص منه للطلاق، والامتناع عن تناول جميع المواد الكحولية، وكذلك الأهمية المعطاة لمؤسسة الضيافة التسع عشرية التي نص عليها حضرة بهاء الله في ذلك الكتاب، ثم إلغاء العضوية في كل الهيئات الدينية الأخرى أو الانتساب إليها وعدم القبول بأي منصب ديني فيها، إن هذه الإنجازات كانت مما ساعد على إبراز الصفة المتميزة للمنتمين إلى الدين البهائي إبرازاً واضحاً وفصله في نظر

الناس عن الطقوس والاحتفالات والنظم البشرية المرتبطة بالأديان السابقة.

ومما له أهمية تاريخية خاصة ذلك الطلب الذي تقدم به المحفل الروحاني للبهائيين في شيكاغو، أول مركز أسس في القارة الأمريكية الشمالية، وأول محفل سجل وأعترف به، وأول محفل شرع في تمهيد السبيل لتشييد المعبد البهائي في الغرب، إلى السلطات المدنية بولاية إلينوي ابتغاء الاعتراف المدني بحقه في مباشرة عقد الزواج القانوني وفقاً لأحكام الكتاب الأقدس، وشمول ذلك الاعتراف عقود الزواج التي كانت قد حازت مصادقة ذلك المحفل الرسمية سابقاً. فقد ترتب على قبول السلطات لهذا الطلب تعديل القوانين الفرعية في كل المحافل المحلية الأخرى لكي تتمكن من مباشرة الزواج البهائي القانوني، وخوّل رئيس محفل شيكاغو وسكرتيره الحق في تمثيل تلك الهيئة في مباشرة عقد كل زواج بهائي، كما أن إصدار ولاية إلينوي لأول ترخيص بعقد الزواج البهائي في الثاني والعشرين من أيلول سنة ١٩٣٩م خوّل المحفل المذكور مباشرة عقد الزواج البهائي وإصدار قسائم للزواج، الأمر الذي حدا فيما بعد بالمحافل الأخرى في الولايات الأخرى كولاية نيويورك ونيوجرسي وويسكونسن وأوهايو إلى أن تحصل على امتيازات مماثلة، كان كل ذلك مما أدى نصيبه في إعلاء شأن الاستقلال الديني الذي ظفر به الدين. وإلى هذه الأمور يجب أن نضيف اعترافاً لا يختلف عنها ولا يقل دلالة، وهو ما اعترفت به وزارة الحرب للولايات المتحدة عند اندلاع نيران الصراع الحالي، كما يتضح من الرسالة التي وجهها مدير التموين العام في هذه الوزارة في الرابع عشر من آب سنة ١٩٤٢م إلى المحفل الروحاني المركزي للبهائيين، والتي يوافق فيها على نقش الاسم الأعظم على شواهد قبور البهائيين الذين قتلوا في الحرب ودفنوا في الجبانات العسكرية أو الجبانات الخاصة حتى تمتاز قبورهم عن القبور التي تحمل الصليب اللاتيني الدال على المسيحية أو نجمة داود الدالة على اليهودية.

ولا ينبغي أن نغفل الإشارة أيضاً إلى الطلب الناجح الذي تقدم به المحفل الروحاني المركزي الأمريكي إلى إدارة الأسعار في واشنطن العاصمة طالباً لرؤساء المحافل البهائية المحلية بوصفهم مسؤولين ينظمون الاجتماعات الدينية ويقومون في بعض الولايات بإجراء عقد الزواج أن يكونوا من المميزين في الحصول على قسائم التقنين طبقاً لأنظمة المحروقات المتعلقة بأفضلية التوزيع ابتغاء مواجهة المطالب الدينية في المراكز التي يقومون بخدمتها.

كما أن الجامعات البهائية في الأقطار الأخرى كالهند والعراق وبريطانيا العظمى وأستراليا لم يتوانوا في تقدير الميزات المستقاة من نشر ذلك الحكم التاريخي، أو في استغلال الفرص التي أتاحتها لهم تلك الشهادة العلنية لإظهار استقلال دينهم الذي شيدوا بنيانه الإداري من قبل، كل على قدر طاقته وفي حدود الظروف المحيطة به. ولقد قامت هذه الجامعات، لا بل كل الهيئات البهائية المنظمة في الشرق أو الغرب مهما كان موقعهم نائياً أو عهدهم بالدين حديثاً، شاعرين بتكتلهم، مدركين تماماً لآفاق التوقعات المجيدة المنفسحة بين أيديهم، ليعلنوا بصوت واحد استقلال دين حضرة بهاء الله، ويمهدوا السبيل لتحريره من كل القيود الدينية أو غير الدينية التي من شأنها أن تعرقل أو ترجئ الاعتراف به اعترافاً رسمياً عالمياً. وذلك عن طريق تطبيق أحكام كتابهم الأقدس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وفصم مدى الانتساب أو الالتحاق بأيّة هيئة دينية كائنة ما كانت صبغتها، واتخاذ سياسة غايتها الوحيدة إذاعة الإعلان عن القضية المتمثلة في ذلك الحكم الخطير الذي يشير إلى نقطة من نقاط التحول في تطور الدين والتمهيد لتسويتها نهائياً.

ولقد امتدح الملاحظون المختلفون من كل نواحي الحياة وطرائقها المكانة التي بلغها الدين بفضل جهود أتباعه وحدهم وفتوحاتهم بمدائح رحب بها البهائيون وعدّوها حافزاً جديداً لهم يحثهم على الجهاد في تصعيدهم

المثابر الشاهق نحو القمم التي سوف يبلغونها آخر الأمر.

وإليك شهادة الأستاذ نورمان بنتويتش[1] المدعي العام السابق للحكومة الفلسطينية قال: «يمكن حقاً أن تعد فلسطين بلداً ليست بذات أديان ثلاثة، بل ذات أديان أربعة، لأنّ الدين البهائي الذي يقوم مركز عقيدته ومزاره في عكاء وحيفا يتقمص هيئة دين عالمي، فهو عامل يعمل على التفاهم العالمي والديني ما دام تأثيره نافذاً في أقطار الأرض». وإليك التصريح الذي صرّح به العالم والطبيب النفساني السويسري الممتاز الدكتور أوجست فوريل[2] في وصيته قال: «في سنة ١٩٢٠م علمت في كارلسروه[3] بطبيعة دين البهائيين العالمي الداعي لوحدة الأديان، وهو الدين الذي أسسه في الشرق إيراني هو حضرة بهاء الله منذ سبعين عاماً مضت. إن هذا الدين هو دين «الخير الاجتماعي» الحق، فلا عقائد متعسفة ولا رهبان. وهو الدين الذي يوحد بين أهل كوكبنا الأرضي الصغير هذا، لقد اعتنقت البهائية فليحيى هذا الدين ويزدهر لخير الإنسانية! وتلك هي آخر أمنيّاتي». وهو يقول زيادة على ذلك: «إن قيام دولة عالمية ولغة دولية ودين عالمي أمر محتوم، والحركة البهائية الرامية إلى توحيد الجنس البشري هي، في رأيي، أعظم حركة تعمل الآن من أجل السلام والإخاء العالميين». وإليك هذه الشهادة التي صدرت عن قلم المتصاعدة ماري ملكة رومانيا، قالت: «دين يربط كل العقائد... دين أساسه روح الله... يعلمنا أن الأحقاد والمكائد والظنون ومباذل اللسان بل والوطنيات العدوانية خارجة عن نطاق شريعة الله الواحدة الأساسية، وأن المعتقدات الخاصة، ليست إلا أشياء سطحية، على حين أن القلب النابض بالمحبة الإلهية لا يعرف له جنساً ولا قبيلاً».

---

(١) Prof. Norman Bentwitch

(٢) Dr. Auguste Forel

(٣) Karlsruhe

التوسّع العالمي لفعاليات التبليغ

على حين كان بنيان نظام دين حضرة بهاء الله الإداري يقوم تدريجياً، وعلى حين كان يزداد الاعتراف باستقلال الدين شيئاً فشيئاً بفضل قوى أتته من حيث لا يحتسب استقلالاً أقر به العدو وأظهره الصديق، انطلق تطور آخر لا يقل امتلاء بالنتائج. وكانت الغاية المتوخاة من هذا التطور توسيع نطاق الدين، ومضاعفة صفوف أنصاره وعدد مراكزه الإدارية، وبذل قوة دافعة جديدة متزايدة لإخصاب كتبه ومنشوراته وتوسيعها وتنويعها ونشرها في ميادين أفسح مجالاً وأوسع نطاقاً. والواقع أن التجربة قد أثبتت أن نموذج النظام الإداري، بغض الطرف عن العلامات المميزة الأخرى، قد ساعد مساعدة بينة على كفاية القيام بهذا الواجب التبليغي وسرعة إنجازه، وبرهنت على أن همة بناة هذا النظام كانت تشحذ، وحماستهم التبليغية تعظم وتشتد كلما تقدم الدين إلى مرحلة أتم وأكمل من مراحل التحرر.

كما أن بناة هذا النظام لم يغفلوا عن المناشدات والدعوات والوعود التي بذلها مؤسسو دينهم الذين جاهدوا ثلاثة أرباع القرن، كل بطريقته الخاصة، وكل في حدود الظروف والملابسات المحيطة بفعالياته، جهاداً مجيداً في إذاعة شهرة دين كلفتهم العناية الربانية القادرة تصوير مصيره.

وكيف يغفلون وهذا مبشر دينهم قد أمر ملوك الأرض أنفسهم بأن ينهضوا ويبلغوا أمره، فكتب في قيوم الأسماء يقول: «يا معشر الملوك! بلغوا آياتنا إلى الترك وأرض الهند بالحق على الحق سريعاً، وما وراء أرضها من مشرق الأرض وغربها...» وكتب أيضاً في ذلك الكتاب نفسه يقول: «يا أهل

المغرب! آخرجوا من دياركم لنصر الله». وهذا حضرة بهاء الله يخاطب أتباعه فيقول في كتابه الأقدس: «ونراكم من أفقي الأبهى وننصر من قام على نصرة أمري بجنود من الملأ الأعلى وقبيل من الملائكة المقربين» وهذا هو يكتب مرة أخرى فيقول: «يا ملأ البهاء بلغوا أمر الله لأن الله كتب لكل نفس تبليغ أمره وجعله أفضل الأعمال». وهو يؤكد ذلك بوضوح فيقول: «لو يقوم واحد على حب البهاء في أرض الإنشاء ويحارب معه كل من في الأرض والسماء ليغلبه الله عليهم إظهاراً لقدرته وإبرازاً لسلطنته» وهو يعلن زيادة على ذلك فيقول: «لو يقوم واحد منكم على نصرة أمرنا ليغلبه الله على مائة ألف». ويقول أيضاً: «* أبذلوا الهمة كل الهمة في سبيل تبليغ الأمر الإلهي فمن كان أهلاً لهذا المقام الأعلى فلينهض له وإلا له أن يأخذ وكيلاً لنفسه في إظهار هذا الأمر». وإليك وعده الذي قطعه على نفسه حين قال: «إن الذين هاجروا من أوطانهم لتبليغ الأمر يؤيدهم الروح الأمين». . . «* * هذه الخدمة هي أمير الأعمال الصالحة وزينة الحسنات». وهذا حضرة عبد البهاء يكتب في وصيته فيقول: «* أهم الأمور في هذه الأيام هداية الملل والأمم. ويجب اعتبار التبليغ أمراً مهماً لأنه أسّ الأساس» وهو يصرح في الوثيقة نفسها فيقول: «إن حواريّي حضرة الروح قد نسوا أنفسهم وجميع شؤونهم نسياناً كليّاً، وتركوا راحة بالهم واستقرارهم مقدّسين منزّهين عن النفس والهوى، ومنقطعين عن كل علقة، فانتشروا في الممالك والديار وقاموا على هداية من على الأرض حتّى حوّلوا العالم إلى عالم آخر ونوّروا الأرض، ثم ضحّوا آخر الأمر بحياتهم في سبيل ذلك المحبوب الرحماني واستشهد كل واحد منهم في دار من الديار فبمثل هذا فليعمل العاملون». وهو يقرر بحزم في تلك الوصية عينها فيقول: «إذا قصد هذا الطير المهيض الجناح المظلوم إلى الملأ الأعلى . . . وجب على جميع الأحباء والأصدقاء أن يقوموا بالروح والفؤاد متفقين لنشر نفحات الله وتبليغ أمر الله وترويج دين الله وألا يستريحوا دقيقة واحدة. . . وأن ينتشروا في الممالك والديار. . . ويجوسوا خلال الأقاليم ولا يستقروا دقيقة ولا يهدأوا آناً، ولا تطلب نفس الراحة، وأن يصيحوا في كل بلد بصيحة (يا بهاء

الأبهى) . . . حتى يجتمع في الشرق والغرب جمع غفير تحت ظل كلمة الله وتهب نفحات القدس وتستنير الوجوه وتصبح القلوب ربانية والنفوس رحمانية».

ولقد أطاع أتباعه في الشرق والغرب هذه الدعوات المتكررة ووعوا هذه الوعود المشرقة وأدركوا سمو مهمتهم وحفزهم المثل الذي ضربه لهم حضرة عبد البهاء بنفسه، ولم يفزعهم ارتحاله المفاجئ من بينهم، ولم يندحروا أمام الهجمات التي شنها عليهم أعداؤهم إن من الداخل أو من الخارج، فنهضوا بكل ما في تكتلهم من قوة ليتوسعوا بدينهم توسعاً عالمياً لم يحدث نظيره من قبل، توسعاً كان مقدراً له أن يبلغ فيما بعد من الشأو ما يستحق بحق أن يعد واحداً من أهم التطورات في تاريخ القرن البهائي الأول.

وتؤلف أعمال التبليغ التي اضطلع بها أتباع حضرة بهاء الله في بلاد كثيرة أبرزها أمريكا بفضل تنوعها وسعة مجالها والبركات الناجمة عنها قصة مشرقة لا تتخلف في المنزلة عن شيء إلا عن تلك القصص المتصلة بالمآثر التي خلّدت السنوات الباكرة من العصر البدائي من الدورة البهائية، فقد بدأوها في كل قارة من قارات الكرة الأرضية بدءاً كان كيفما اتفق وغير منتظم وعلى فترات متقطعة، ثم أصبحت فيما بعد، بسبب التقدم البطيء للنظام الإداري، أعمالاً محكمة القيادة مركزة التوجيه يباشرها الأفراد من كل عمر وكل جنس من المبتدئين والمؤمنين القدامى، من المبلغين الرحل والمقيمين.

نعم، قدّر الآن لنور الدين الذي أضاء إيران أثناء الدورة البابية المنسحبة على تسع سنوات فقط، والذي انعكس على العراق المتاخمة، ذلك النور الذي سكب أثناء ولاية حضرة بهاء الله المنسحب على تسع وثلاثين سنة كل سنائه على الهند ومصر وتركيا والقوقاز وتركستان والسودان وفلسطين وسوريا ولبنان وبورما، ثم انتشر بفضل الميثاق الإلهي في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وفرنسا وبريطانيا العظمى وألمانيا والنمسة وروسيا وإيطاليا وهولندة وهنغاريا وسويسرا والجزيرة العربية وتونس والصين واليابان وجزر الهاواي وجنوب أفريقيا والبرازيل وأستراليا، قدر لهذا النور أن يطوف قبل

نهاية القرن البهائي الأول ليضيء ما لا يقل عن أربع وثلاثين أمة مستقلة وعدداً من المستعمرات الواقعة في قارات أمريكا وآسيا وإفريقيا والخليج الفارسي وفي المحيط الأطلسي والهادئ. وارتفعت منذ صعود حضرة عبد البهاء رايات ظهور حضرة بهاء الله في النرويج والسويد والدنمرك وبلجيكا وفنلندة وبلغاريا وإسبانيا وأفغانستان والحبشة ونيوزيلندة، وفي تسع عشرة جمهورية من جمهوريات أمريكا اللاتينية، ووضع في معظمها أساس نظام دينه الإداري. كما أن حملة البشارة الجديدة أقاموا في عدة مستعمرات في الشرق والغرب بما في ذلك ألاسكا وإيسلندا وجمايكا وبورتوريكو وجزيرة سولانو في جزر الفيليبين وجاوه وتسمانيا وجزر البحرين وتاهيتي وبلوچستان وروديسيا الجنوبية والكونغو البلجيكية، وهم اليوم عاكفون يبذلون كل جهد لإقامة أساس متين لمؤسساته.

ولقد تمت الانتصارات المبينة أثناء العقود الختامية من القرن البهائي الأول عن طريق المحاضرات والمؤتمرات والصحافة والإذاعة وتنظيم الفصول الدراسية والمجالس التبليغية[١] والاشتراك في نشاط الجمعيات والهيئات والنوادي التي تعتنق من المثل العليا ما يقارب مبادئ الدين، ونشر الكتب البهائية وإقامة المعارض المختلفة وإعداد فصول لتدريب المبلغين، كما تمت عن طريق الاتصال برجال الدولة والعلماء ورجال الصحافة ومحبّي الجنس البشري وغيرهم من قادة الرأي العام، وهي انتصارات أحرزت معظمها الجامعة البهائية الأمريكية التي اضطلعت بمسؤولية فتح الأغلبية الساحقة من هذه الأقطار والمستعمرات فتحاً روحياً، كما تمت بمضاء العزيمة ورباطة الجأش وخلوص النية التي تحلى بها الرواد الذين اشتركوا في هذه الحملات التبليغية سواء المبلغ الزائر منهم أو المقيم.

ولا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى فعاليات التبليغ العالمية التي قام بها أتباع دين حضرة بهاء الله الغربيون ولا سيما أعضاء الجامعة الأمريكية الجبارة

---

(١) Fire-side Gatherings

الذين طفقوا ينتهزون كل فرصة تسنح لهم ليحملوا الدين إلى ميادين جديدة، إما عن طريق المثل المضروب والسنة المقتداة أو عن طريق تداول الكتب وبذر البذور التي لا بد لها من أن تنبت آخر الأمر وتغل غلة رائعة كتلك التي استحصدت في الأقطار السالفة الذكر. بهذه المجهودات وبأمثالها هبت نسمات الظهور الإلهي المحيية على أركان الأرض القصية، حاملة لقاح حياة روحانية جديدة إلى المناطق النائية والأقطار القاسية المعبّسة مثل لابلاند وجزيرة سبتسبرجن، وهي أقصى مسكن في شمال العالم المعمور، وهمرفست في النرويج ومدينة ماجلانز في أقصى تشيلي وهما على التوالي أقصى مدينتين إلى الشمال وإلى الجنوب وباجو باجو وفيجي في المحيط الهادئ وتشيتشن إيتزا في مقاطعة يوكاتان وجزر البهاما وترينيداد وباربادوس في جزر الهند الغربية، وجزيرة بالي في بورنيو الشمالية البريطانية من جزر الهند الشرقية وبتاجونيا وغيانا البريطانية، وجزر سيشل وغينيا الجديدة وسيلان.

كما أننا لن نعجز عن أن نلاحظ الجهود الخاصة التي بذلها الأفراد والمحافل ابتغاء الاتصال بالأقليات من الجماعات والأجناس في مختلف أجزاء العالم كاليهود والزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية، والإسكيمو في ألاسكا وهنود بتاجونيا[١] في الأرجنتين، وهنود المكسيك في المكسيك، وهنود الإنكا[٢] في بيرو، وهنود شروكي[٣] في كارولينا الشمالية وهنود أونيدا[٤] في ويسكونسن وقبائل المايان[٥] في يوكاتان وقبائل اللاب[٦] في اسكنديناوفية الشمالية وقبائل الماوريز[٧] في روترا بنيوزيلندة.

---

(١) Patagonian Indians
(٢) Inca Indians
(٣) Cherokee Indians
(٤) Oneida Indians
(٥) Mayans
(٦) Lapps
(٧) Maoris

ومما كان له أثره الخاص القيم إنشاء مكتب بهائي عالمي في جنيف، وهو مركز أعِدّ أولاً وقبل كل شيء لتيسير التوسع في نشاطات تبليغ الدين في الأقطار الأوروبية، ثم ظل، بعد المركز الإداري في الأرض الأقدس، على اتصال بالجامعات البهائية في كلا المشرق والمغرب. ولقد استطاع هذا المكتب، بوصفه مكتباً للاستعلامات عن الدين ومركزاً لتوزيع كتبه ونشرها، أن يؤدي إلى حد ليس بألهيّن ولا باليسير خدمات جليلة في سبيل تركيز الأعمال التبليغية التي اضطلع بها الأفراد أو المحافل البهائية المركزية وذلك عن طريق تجهيزه غرفة مطالعة مجانية وإعداده مكتبة عامة وما يبذله من تكريم للمبلغين المتنقلين والأحباء الزائرين، وما يقوم به من اتصالات بالجمعيات المختلفة.

بهذه الفعاليات التبليغية التي قام ببعضها الأفراد وقادت بعضها الآخر خطط هيأتها المحافل المنظمة استطاع دين حضرة بهاء الله، الذي شمل في أيامه الإيرانيين والعرب والأتراك والروس والأكراد والهنود وأهل بورما والزنوج، ثم عزّزه في أيام حضرة عبد البهاء الأحباء من الأمريكيّين والبريطانيين والألمان والفرنسيين والطليان واليابانيين والصينيين والأرمن، استطاع الآن أن يفتخر بأنه أدرج في عداد أنصاره ممثلين من جماعات عرقية مترامية مبعثرة وقوميات مختلفة، منها الهنغاريون والهولنديون والإيرلنديون وأهل إسكندنافية والسودانيون والتشيكيون والبلغار والفنلنديون والأحباش والألبانيون والبولنديون والإسكيمو والهنود الأمريكيّون واليوغسلافيون والأمريكيون اللاتينيون ومن قبائل الماووريز.

ولقد صحب هذا التوسع الملحوظ في نطاق انتشار الدين، وهذه الزيادة الهائلة في العناصر المختلفة الداخلة في حظيرته، تضخم عظيم في تداول كتبه وفي حجم مؤلفاته، تضخم يناقض مناقضة حادة تلك التدابير التي اتخذت من قبل لنشر النسخ القليلة من آثار حضرة بهاء الله الصادرة في أواخر ولايته. فقد طفق مجال المؤلفات والكتب البهائية، الذي اقتصر طوال نصف

قرن، أثناء أيام حضرة الباب وحضرة بهاء الله على اللغتين اللتين نزلت بهما تعاليمهما فقط، والذي اتسع فيما بعد على أيام حضرة عبد البهاء، ليشمل طبعات نشرت بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية والروسية والبورمية، يتسع باطراد بعد صعوده ويتضاعف في عدد الكتب والأبحاث والعجالات والرسائل التي طبعت ونشرت فيما لا يقل عن تسع وعشرين لغة إضافية. وأخذت الكتب تظهر بالإسبانية والبرتغالية، واللغات الإسكندنافية الثلاث والفنلندية والآيسلندية، والهولندية والطليانية والتشيكية والبولندية والهنغارية والرومانية والصربية والبلغارية واليونانية والألبانية، والعبرية والإسبرانتو والأرمنية والكردية والأمهرية والصينية واليابانية، وبخمس لغات هندية وهي الأردية والكُجراتية والبنغالية والهندية والسندية وذلك بمجهود الأفراد من البهائيين على الأغلب، وبتوسط المحافل البهائية أحياناً، وانتشرت انتشاراً واسع النطاق ووضعت في المكتبات الخاصة والعامة في كلا المشرق والمغرب. وتترجم كتب الدين في أيامنا هذه إلى اللتفية(١) واللتوانيّة(٢) والأوكرانية(٣) والتاميلية(٤) والمهراتية(٥) والبشتو(٦) والتلغو(٧)، والكنارية(٨) والسنغالية(٩) والمليالانية(١٠) والأوريا(١١) والبنجابية(١٢) والراجاستانية(١٣).

ولا يقل عن هذا روعة ما بلغه مجال الكتب التي كتبت ووضعت تحت تصرف الجمهور العام في كل قارات الكرة الأرضية، وحملها الرواد الذين لا يكلون ولا يملون إلى أقصى المعمورة، وهو عمل تفوقت فيه الجامعة البهائية

---

(١) Latvian
(٢) Lithuanian
(٣) Ukranian
(٤) Tamil
(٥) Mahratti
(٦) Pushtóo
(٧) Telegu
(٨) Kinarese
(٩) Singhalese
(١٠) Malyalan
(١١) Oriya
(١٢) Punjabi
(١٣) Rajasthani

الأمريكية مرة أخرى. ومما يشهد بتنوع المنشورات البهائية إصدار طبعة إنجليزية تحتوي فقرات مقتطفة من أهم آثار حضرة بهاء الله التي لم تترجم بعد، وترجمة إنجليزية للوح «ابن الذئب» ومجموعة باللغة نفسها تضم أدعية وأذكاراً جرت من قلمه، وترجمة «الكلمات المكنونة» إلى ثماني لغات ونشرها بها، و«كتاب الإيقان» إلى سبع لغات، ومفاوضات حضرة عبد البهاء إلى ست لغات وجمع المجلد الثالث من مكاتيب حضرة عبد البهاء مترجمة إلى الإنجليزية، ونشر الكتب والأبحاث المتصلة بمبادئ الدين البهائي وتطور نظامه الإداري، ونشر ترجمة إنجليزية لتاريخ فجر الظهور البهائي الذي كتبه النبيل الزرندي المؤرخ والشاعر، ثم نشره بالعربية وترجمته إلى الألمانية والإسبرانتو، ونشر تفاسير وشروح للتعاليم البهائية والهيئات الإدارية وأمثال ذلك مثل التضامن العالمي ووحدة الجنس والدين المقارن، وكلها صادرة عن أقلام مؤلفي الغرب ورجال من رجالات الكنيسة السابقين. وأشبه بطبع هذه الكتب نشرها الواسع النطاق البعيد المدى الشامل لسطح الكرة الأرضية.
ومما ساهم في تضخم النتاج الأدبي وزيادة تنوع المنشورات البهائية زيادة كبيرة طبع الوثائق المتصلة بأحكام الكتاب الأقدس، والكتب والرسائل التي تعالج النبوات الواردة في الكتاب المقدس، ونشر طبعات مصححة لآثار حضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء وعدد من المؤلفين البهائيين وإذاعة إرشادات وتوجيهات لدراسة الكتب والموضوعات البهائية المتنوعة تنوعاً كبيراً، ونشر دروس في الإدارة البهائية وفهارس للكتب البهائية والمجلات وطبع بطاقات الأعياد والتقاويم والأشعار والأغاني والمرسحيّات والمشاهد التمثيلية وموطآت الدراسة، وكتاب مناجاة لتدريب الأطفال البهائيين، وطبع نشرات إخبارية ودوريات تصدر بالإنجليزية والفارسية والألمانية والإسبرانتو والعربية والفرنسية والأردية ولغتي بورما والبرتغال.

ومما له قيمته الخاصة ودلالته العظيمة ما يتم ومنذ عدة سنوات من صدور مجلدات متعاقبة لسجل عالمي يسجل كل سنتين الفعاليات البهائية مزين بالصور الكثيرة، وكامل الوثائق وحافل بأشياء كثيرة؛ منها نبذة عن

أهداف الدين وأغراض نظامه الإداري ومنتخبات من نصوصه المقدسة، وعرض شامل لفعالياته وقائمة بمراكزه في القارات الخمس وسجل لكتبه ونصوصه، وما كتبه عظماء الرجال وفضليات النساء في المشرق والمغرب عن مثله العليا وإنجازاته، ومقالات تعالج موقفه من المشاكل الحاضرة.

ولن يتم عرض شامل يتصدى للكتب البهائية الصادرة في غضون العقود الأخيرة من القرن البهائي الأول دون الإشارة الخاصة إلى نشر تلك المقدمة البديعة الوثيقة الجامعة للتاريخ البهائي ولتعاليم البهائية، تلك التي سطرها قلم الدكتور ج.أ. إسلمنت الطاهر القلب ومروج الدين الخالد، أو الإشارة إلى ما أحدثته تلك المقدمة من التأثير العميق والصدى البعيد. فلقد طبعت ونشرت فيما لا يقل عن سبع وثلاثين لغة، وهي تترجم الآن إلى ثلاث عشرة لغة إضافية وأربت طبعتها الإنجليزية على عشرات الآلاف، وأعيد طبعها ما لا يقل عن تسع مرات في الولايات المتحدة الأمريكية، وطبعت نسخها الإنجليزية واليابانية والإسبرانتية بطريقة برايل، وأثنت عليها إحدى الشخصيات الملكية بأنها «كتاب مجيد للمحبة والصلاح والقوة والجمال»، وأوصت بها كل الناس مؤكدة أنه «لن يعجز فرد عن التقدم إلى الأمام بفضل هذا الكتاب».

ومما يستحق الذكر الخاص أيضاً إنشاء المحفل المركزي البهائي البريطاني لهيئة نشر مسجلة باسم «شركة النشر البهائية» تقوم بنشر الكتب البهائية وتوزيعها في ربوع الجزر البريطانية، وجمع المحافل البهائية في الشرق لما لا يقل عن أربعين مجلداً مخطوطاً محققاً مدققاً لكتابات لم تنشر بعد لحضرة الباب ولحضرة بهاء الله ولحضرة عبد البهاء، وترجمة ملحق الكتاب الأقدس المسمى «سؤال وجواب» إلى اللغة الإنجليزية، ونشر المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في مصر والهند على التعاقب لموجز في أحكام الأحوال الشخصية باللغتين العربية والفارسية، وموجز نشره المحفل الأخير للأحكام المتصلة بدفن الأموات، وترجمة أحد المؤمنين الماوريين في

نيوزيلندة لكتيب بهائي إلى اللغة الماورية. وينبغي الإشارة كذلك إلى جمع المحفل الروحاني للبهائيين في طهران لعدد لا يستهان به من الخطابات التي ألقاها حضرة عبد البهاء في غضون سفراته الغربية ونشرها، وإلى إعداد تاريخ مفصل للدين باللغة الفارسية ونشره، وإلى طبع عدد من المحافل الروحانية المركزية في الشرق لقسائم الزواج والطلاق بكلا اللغتين الفارسية والعربية، وإلى إصدار المحفل الروحاني المركزي الإيراني لشهادات المواليد والوفيات وإعداد استمارات للأحباء الذين يرغبون أن يهبوا قسطاً من ميراثهم للأمر المبارك، وإلى جمع المحفل الروحاني المركزي الأمريكي لعدد لا يستهان به من ألواح حضرة عبد البهاء التي لم تنشر بعد، وإلى ترجمة ابنة زامنهوف الشهير التي آمنت بالأمر لعدد من الكتب البهائية إلى الإسبرانتو، ومن بينها بعض من أهم آثار حضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء، وإلى ترجمة الأستاذ بوجدان بوبوفتش[١] وهو أحد العلماء الممتازين المنتمين إلى جامعة بلغراد لكتيب بهائي إلى اللغة الصربية وإلى تطوع الأميرة إليانا[٢] الرومانية (أرشيدوقة أنطون[٣] النمسوية الحالية) بترجمة كتيب بهائي كتب بالإنجليزية، ثم نشر في أرجاء بلادهما فيما بعد.

وينبغي ألا نغفل التقدم الملحوظ في طبع الكتابات البهائية بطريقة برايل، وقد شملت الآن المترجمات الإنجليزية مثل «كتاب الإيقان» و«الكلمات المكنونة» و«الوديان السبعة» و«الإشراقات» و«سورة الهيكل» و«كلمات الحكمة» و«أدعية حضرة بهاء الله وأذكاره» و«مفاوضات عبد البهاء» و«ترويج السلام العالمي» و«حكمة عبد البهاء» و«هدف النظام العالمي الجديد» وترجمة «بهاء الله والعصر الجديد» باللغة الإنجليزية (وهو في طبعتين) وترجمته بالإسبرانتو واليابانية، والكتيّبات المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية والإسبرانتو.

---

(١) Prof. Bogdan Popovitch

(٢) Princess Ileana

(٣) Arch-Duchess Anton

ولم يتوان المسؤولون، أولاً وقبل كل شيء، عن إخصاب كتب الدين وترجمتها إلى اللغات العديدة، وعن نشرها بكل ما أوتوا به من قوة أثناء اتصالاتهم اليومية بالأفراد واتصالاتهم الرسمية بالمنظمات التي جاهدوا في تعريفها بأهداف الدين ومبادئه. أما النشاط والتيقظ والثبات الذي أبداه هؤلاء البشراء بدين حضرة بهاء الله وممثلوهم المنتخبون الذين اتسع بهمتهم نطاق تداول الكتب البهائية في السنوات الأخيرة اتساعاً هائلاً فهو ممّا يستحق أعظم الثناء وأجلّ التقدير. ومن التقارير التي أعدتها ووزعتها الهيئات التي عهد إليها طبع هذه الكتب ونشرها في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا نستخلص حقائق مدهشة، منها أنه بيع أو وزع في غضون الأحد عشر شهراً المنتهية بالثامن والعشرين من شباط سنة ١٩٤٣م ما يزيد على ١٩,٠٠٠ كتاب و١٠٠,٠٠٠ كتيب و٣,٠٠٠ موطأ للدراسة و٤,٠٠٠ مجموعة من النصوص المختارة و١,٨٠٠ بطاقة وإضبارة لصورة المعبد والمعايدة، ومنها أنه في غضون سنتين طبع ٣٧٦,٠٠٠ كتيّب يوضح طبيعة المعبد المشيّد في الولايات المتحدة الأمريكية، ويشرح الغاية المتوخاة منه، وأن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ نشرة أمرية وزعت في المعرضين العالميين اللذين عقدا في سان فرانسيسكو ونيويورك، وأنه في خلال اثني عشر شهراً أهدي ١,٠٨٩ كتاباً إلى المكتبات المختلفة، وأنه في عرض سنة واحدة أرسلت لجنة التعارف[1] المركزية إلى المؤلفين والمتحدّثين في الإذاعة وممثلي الأقليّات اليهودية والزنجية والمنظّمات المختلفة المهتمة بالشؤون الدولية ما يزيد على ٢,٣٠٠ خطاب مرفق بأكثر من ٤,٥٠٠ كتيّب.

وكذلك أبدى ممثلو الجامعة البهائية الأمريكية المنتخبون والمبلغون الجوالون من النشاط والهمة والعزم ما يستحق ثناءً لا يقل عما استحقته الجهود المبذولة في إنتاج تلك الكتب، وذلك في إهدائهم نسخاً من تلك الكتب المنوعة المتعددة إلى الأقطاب وذوي المناصب، تساعدهم في هذا

(١) National Contacts Committee

الإهداء محافل البلاد الأخرى، فلقد أهديت الكتب البهائية التي تعالج مختلف نواحي الدين إلى ملك إنجلترا وماري ملكة رومانيا والرئيس فرانكلين د. روزفلت وإمبراطور اليابان، وإلى الرئيس الراحل فون هندنبرغ(١) وإلى ملك الدنمرك وملكة السويد وإلى فرديناند(٢) ملك بلغاريا وإمبراطور الحبشة وملك مصر وإلى فيصل ملك العراق الراحل وإلى زوغ(٣) ملك ألبانيا وإلى مازاريك(٤) رئيس تشيكوسلوفاكيا الراحل ورئيس جمهورية المكسيك وهندوراس وبناما والسلفادور وجواتيمالا وبورتوريكو، والجنرال شيانغ كايتشك(٥)، وإلى خديوي مصر السابق وإلى ولي عهد السويد ودوق وندسور(٦) ودوقة كنت(٧) وإلى الأرشيدوقة أنطون النمسوية وإلى الأميرة أولجا(٨) اليوغسلافية وإلى الأميرة المصرية قدرية، وإلى الأميرة إستيلا برناديت(٩) الوسبرغية وإلى المهاتما غاندي، وإلى عدد من أمراء الهند، وإلى رؤساء وزراء الاتحاد الأسترالي وإلى بعض هؤلاء أهديت الكتب إهداء شخصياً، وإلى البعض الآخر أهديت بوساطات مناسبة إما عن طريق الأفراد من المؤمنين أو ممثلي الجامعات البهائية.

ولم يغفل هؤلاء المبلغون ولا تلك المحافل عن وضع هذه الكتب تحت تصرف الجمهور في مكتبات الدول والجامعات والمكتبات العامة، ميسرين بذلك لجمهور كبير من القراء فرصة الوقوف على تاريخ ظهور حضرة بهاء الله ومبادئه. وإن مجرد تعداد أهم هذه المكتبات ليكفي لإظهار مجال تلك الفعاليات المنبسطة على القارات الخمس. نعم، فقد وضعت كتب

---

(١) President Von Hindenburg
(٢) King Ferdinand
(٣) King Zog
(٤) President Masaryk
(٥) General Chiang Kaishek
(٦) Duke of Windsor
(٧) Duchess of Kent
(٨) Princess Olga
(٩) Princess Estelle Bernadette of Wisborg

معتمدة وثيقة كتبت عن دين حضرة بهاء الله في مكتبات أهمها المتحف البريطاني في لندن ومكتبة بودليان[١] في أكسفورد ومكتبة الكونجرس في واشنطن ومكتبة قصر السلام في لاهاي ومكتبة مؤسسة نوبل للسلام، ومكتبات مؤسسة نانسن[٢] في أوسلو والمكتبة الملكية في كوبنهاجن، ومكتبة عصبة الأمم في جنيف، ومكتبة هوفر[٣] للسلام ومكتبة جامعة أمستردام، ومكتبة المجلس النيابي في أوتاوا ومكتبة جامعة الله آباد، ومكتبة جامعة عليكره ومكتبة جامعة مدراس، ومكتبة جامعة شانتيكتان[٤] الدولية في بوليبور، ومكتبة الجامعة العثمانية في حيدر آباد والمكتبة الإمبراطورية في كلكتا ومكتبة الجامعة الملية في دلهي ومكتبة جامعة ميسور، ومكتبة برنارد[٥] في رانجون ومكتبة جرابيا واديا[٦] في پونا ومكتبة لاهور العامة ومكتبة جامعتي لكنهو ودلهي، ومكتبة جوهانسبورغ العامة، ومكتبات التوزيع في ريودي جانيرو ومكتبة مانيلا الأهلية ومكتبة جامعة هونغ كونغ ومكتبات ريكجافيك[٧] العامة ومكتبة كارنيجي[٨] في جزر سيشل ومكتبة كوبان الأهلية ومكتبة سان خوان العامة ومكتبة جامعة سويداد تروييللو[٩] ومكتبة الجامعة ومكتبات كارنيجي العامة في بورتوريكو، ومكتبة المجلس النيابي في كانبرا ومكتبة ولنجتن[١٠] البرلمانية. نعم لقد وضعت الكتب المعتمدة الوثيقة عن دين حضرة بهاء الله في كل هذه الجامعات وفي كل مكتبات أستراليا ونيوزيلندة المهمة وفي تسع مكتبات في المكسيك وعدة مكتبات في مكدن وفي منشوكو، وفيما يزيد على ألف مكتبة عامة ومائة مكتبة للخدمة العامة

---

(١) Bodleian Library
(٢) Nansen Foundation Libraries
(٣) Hoover Peace Library
(٤) Shantineketan International University Library
(٥) Bernard Library
(٦) Jerabia Wadia Library
(٧) Reykjavik Public Libraries
(٨) Carnegie Library
(٩) Ciudad Trujillo University Library
(١٠) Wellington Parliamentary Library

ومائتي مكتبة ملحقة بالجامعات أو الكليات بما فيها كليات الهنود الحمر في الولايات المتحدة وكندا.

كما أدرجت سجون الولايات المتحدة في الخطة الشاملة التي أعدتها الجامعة البهائية الأمريكية، وكذلك شملت الخطة مكتبات ثكنات الجيش منذ نشوب الحرب وذلك بواسطة لجنة خاصة. كما لم تهمل الجامعة اليقظة الفعالة مصالح العميان كما يتجلى من وضع الكتب البهائية التي طبعها أفراد من تلك الجامعة بطريقة برايل في ثلاثين مكتبة ومعهد في ثماني عشرة ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية، وفي هونولولو (بجزر الهاواي) وفي رجينا (بسكنثوان)، وفي مكتبات طوكيو وجنيف للعميان وكثير من مكتبات التوزيع المتصلة بالمكتبات العامة في أمهات المدن المختلفة بالقارة الأمريكية الشمالية.

ولن أستطيع أن أفرغ من هذا الموضوع دون أن أفرد إشارة خاصة إلى تلك التي أسبغت على نفسها من المجد ما لم يكسف سناه فتوحات مبلغي الدين المعاصرين لها في أنحاء العالم فحسب، بل ما فاق في إشراقه أية مأثرة فاز بها أي مروّج من مروّجيه خلال قرن كامل، لا بما اشتركت به من نصيب ضخم في اتخاذ التدابير لترجمة الكتب البهائية ونشرها فقط، بل بمآثرها العجيبة الفذة حقاً في ميدان التبليغ العالمي أيضاً. فعلى مارثا روت زعيمة المبلغين البهائيين المتجولين وأعلى يد رفعها حضرة بهاء الله منذ صعود حضرة عبد البهاء يجب أن يمنح، لو نحن أصبنا في تقدير خدماتها العديدة وأسمى عمل في حياتها، لقب زعيمة سفيرات دينها وفخر المبلغين والمبلغات البهائيين في المشرق والمغرب.

وفي نفس السنة التي كُشف فيها النقاب عن ألواح الخطة الإلهية في الولايات المتحدة الأمريكية كانت أول من قام تلبية لذلك النداء التاريخي الذي ناداهم به حضرة عبد البهاء وانطلقت بعزيمة ماضية راسخة وروح من الانقطاع السامي النبيل تقوم برحلاتها العالمية التي دارت بها حول العالم أربع

دورات، وانسحبت على فترة قوامها عشرون سنة، سافرت أثناءها إلى الصين واليابان أربع مرات، وإلى الهند ثلاث مرات، وزارت كل مدينة مهمة من مدن أمريكا الجنوبية، وبلّغت رسالة اليوم الجديد إلى الملوك والملكات والأمراء والأميرات ورؤساء الجمعيات والوزراء ورجال الدول ورجال السياسة والأساتذة ورجال الدين والشعراء وعدد ضخم من الناس في مختلف نواحي الحياة، واتصلت اتصالاً رسمياً وغير رسمي بالمؤتمرات الدينية وجمعيات السلام واتحادات الإسبرانتو والمؤتمرات الاشتراكية والجمعيات الثيوصوفية[١] والأندية النسائية وأشباه تلك المنظمات، واستطاعت هذه الروح التي لا تقهر أن تكتب، بفضل جهودها والانتصارات التي ظفرت بها، سجلاً هو أقرب نموذج للمثل الذي ضربه حضرة عبد البهاء بنفسه لمحبّيه أثناء سفراته في ربوع الغرب.

ومن أبرز معالم تلك الرحلات الباقية الذكر اجتماعها بماري ملكة رومانيا ثماني مرات متعاقبة كانت أولاها في كانون الثاني سنة ١٩٢٦م في قصر كنتروسني[٢] في بوخارست وكانت ثانيتها في قصر بليسور[٣] في سينيا، أعقبتها في كانون الثاني من السنة التالية زيارتها لجلالتها ولابنتها الأميرة إيلينا[٤] في القصر الملكي ببلغراد حيث نزلتا ضيفتين على ملك يوغسلافيا وملكتها، ثم في تشرين الأوّل سنة ١٩٢٩م في قصر الملكة الصيفي تهنايوفا[٥] في بالكك على البحر الأسود، ومرة أخرى في آب سنة ١٩٣٢م وشباط سنة ١٩٣٣م في قصر الأميرة إيلينا (الأرشيدوقة أنطون النمسوية الحالية) في مودلنج قرب فيينا، أعقبها بعد سنة لقاء آخر في شباط بقصر كنتروسني، وأخيراً في شباط سنة ١٩٣٦م بالقصر نفسه. تلك الزيارات هي من أبرز معالم تلك الرحلات نظراً للتأثير البالغ الذي أثرت به الزائرة في مضيفتها الملكية كما تشهد بذلك المدائح المتوالية المتعاقبة التي خطها قلم

---

(١) Theosophical Societies
(٢) Controceni Palace
(٣) Plisor Palace
(٤) Princess Ileana
(٥) Tehna Yuva

الملكة. ومما يمكن أن يعد من أعلام خدمتها التي لا يدانيها في كثير من نواحيها مدان في تاريخ القرن البهائي الأول بأسره تلك الدعوات الثلاث التي تلقتها هذه المدافعة الصبور تدعوها لزيارة الأمير پول اليوغسلافي والأميرة أولجا في القصر الملكي ببلغراد، وتلك المحاضرات التي ألقتها فيما يزيد عن أربعمائة جامعة وكلية في المشرق والمغرب، ومنها زيارتها مرتين لكل الجامعات الألمانية عدا جامعتين، وزيارتها لما يقرب من مائة جامعة وكلية ومدرسة في الصين، ومنها المقالات العديدة التي نشرتها في الصحف والمجلات في معظم الأقطار التي زارتها، والأحاديث الكثيرة التي أذاعتها، والكتب التي أودعتها المكتبات الخاصة ومكتبات الدول بلا حساب، ومنها مقابلاتها الشخصية لرجال الحكم فيما لا يقل عن خمسين دولة أثناء ثلاثة أشهر أقامتها في جنيف سنة ١٩٣٢م وقت انعقاد مؤتمر نزع السلاح، ومنها الجهود المضنية التي بذلتها أثناء سفراتها الشاقة في الإشراف على ترجمة كتاب الدكتور إسلمنت «بهاء الله والعصر الجديد» وطبعه بعدة لغات، وتبادلها الرسائل مع الأقطاب والعلماء وإهداؤها الكتب البهائية إليهم، ومنها حجها إلى إيران والخضوع المؤثر الذي أبدته لذكرى أبطال الدين وهي تزور المواقع التاريخية في هذه البلاد، ومنها زيارتها لأدرنة حيث بحثت من فرط تعلقها بحضرة بهاء الله عن المنازل التي سكنها والناس الذين لقيهم أثناء منفاه في تلك المدينة، وحيث رحب بها الحاكم والعمدة، ومنها معونتها الصادقة السريعة التي بذلتها للعاملين في إدارة الدين في كل البلاد التي شيدت فيها هيئاته الإدارية أو كانت تشيد.

ولا يقل عن ذلك وقعاً قائمة أسماء أولئك الذين لقيتهم أثناء إنجاز مهمتها، فقد شملت هذه القائمة من الشخصيات الملكية والوجهاء، عدا أولئك الذين ذكرناهم من قبل، هاكون[١] ملك النرويج وفيصل ملك العراق وزوغ ملك ألبانيا وأفراد أسرته والأميرة مارينا[٢] اليونانية (دوقة كنت الحالية)

(١) King Haakon
(٢) Princess Marina

والأميرة إليزابت[١] اليونانية وتوماس مازاريك، وإدوارد بينز[٢] رئيس تشيكوسلوفاكيا، ورئيس النمسة والدكتور صن يات صن[٣] والدكتور نيقولا موزّي بتلر[٤] رئيس جامعة كولومبيا، والأستاذ بوجدان بوبوفتش بجامعة بلغراد وتوفيق رشدي بيك وزير خارجية تركيا، ووزير الخارجية الصينية ووزير معارفها، ووزير خارجية لتوانيا، والأمير محمد علي المصري، وستيفان راديتش[٥]، ومهراجات باتيالا وبنارس وترافانكور، وحاكم القدس ومفتيها الأكبر والدكتور إرلنج إيدم[٦] رئيس أساقفة السويد، وساروجيني نايدو[٧] والسير رابندراناث طاغور[٨] والسيدة هدى هانم شعراوي زعيمة الحركة النسائية المصرية، والدكتور ك. إيشيكي[٩] وزير القصر الياباني الإمبراطوري والأستاذ تتروجيرو إينوي[١٠] الأستاذ الفخري من أساتذة جامعة طوكيو الإمبراطورية والبارون يوشيرو سكاتاني[١١] عضو مجلس النبلاء الياباني ومحمد فؤاد عميد كلية الآداب ورئيس معهد التاريخ التركي.

ولم ينل من همة هذه المرأة الروحانية النشيطة الطاهرة تقدم السن ولا تدهور الصحة ولا قلة الكتب التي عاقت جهودها الأولى، ولا المصادر الهزيلة التي ألقت على كاهلها عبئاً فوق عبء، ولم يفت في عضدها اختلاف المناخ ولا تباين الأجواء التي تعرضت لها ولا المشكلات السياسية التي جابهتها، فمضت وحيدة فريدة تكتنفها بين حين وآخر ظروف بالغة الخطورة تنادي الناس من مختلف العقائد ومتباين الألوان ومتعدد الطبقات إلى رسالة

---

(١) Princess Elizabeth
(٢) President Edward Benes
(٣) Dr. Sun Yat Sen
(٤) Dr. Nicholas Murray Butler
(٥) Stephen Raditch
(٦) Dr. Erling Eidem
(٧) Sarojini Naidu
(٨) Sir Rabindranath Tagore
(٩) Dr. K. Ichiki
(١٠) Prof. Tetrujiro Inouye
(١١) Baron Yoshiro Sakatani

حضرة بهاء الله بصوت جهوري مجلجل، وظلت كذلك رغم مرضها المؤلم القتّال الذي تحملت آلامه بثبات بطولي إلى أن أسرعت إلى وطنها لتشارك في تنفيذ خطة السنوات السبع الحديثة الابتداء، فخرت صريعة أثناء الطريق، في هونولولو النائية. وهناك في هذه البقعة الرمزية بين المشرق والمغرب اللذين جاهدت في ربوعهما جهاداً جباراً ماتت في الثامن والعشرين من أيلول سنة ١٩٣٩م، فانتهت بذلك حياة يمكن أن تعد أطيب ثمرة أثمرها عصر التكوين من دورة حضرة بهاء الله حتى الآن.

ولقد أظهرت هذه البطلة الخالدة لما ورد في وصية حضرة عبد البهاء حول الاقتداء بحواريّي السيد المسيح «* وألا يستريحوا دقيقة واحدة» «* وأن ينتشروا في الممالك والديار» [أي المؤمنون] «* وأن لا يستقروا دقيقة ولا يهدأوا» «* وأن يصيحوا في كل قطر بصيحة يا بهاء الأبهى»، أظهرت طاعة يمكن أن يفخر بها جيلنا الحاضر والأجيال القادمة وأن يتنافس في مثلها المتنافسون.

انطلقت «طليقة كالريح» واضعة «كل ثقتها» في الله فهي «خير زاد» لها في رحلتها، وحققت بالحرف الواحد تقريباً تلك الرغبة التي عبر عنها حضرة عبد البهاء بتعبير مؤثر في ألواحه التي نهضت مارثا روت لتحقق مضامينها فوراً: «* ليته يتيسر لي أن أسافر ولو على قدميّ وفي فقر شديد إلى تلك البقاع رافعاً عقيرتي في المدن والقرى والجبال والصحارى والمحيطات بصيحة (يا بهاء الأبهى) وأروج التعاليم الإلٰهية ولكن ذلك لا يتيسر لي الآن. لهذا أجدني في حسرة عظيمة. فعساكم إن شاء الله أن توفقوا إلى ذلك».

وإليك الثناء الملكي الذي كتبته أولجا الأميرة اليوغسلافية حين نعيت إليها مارثا روت قالت: «لشد ما أحزنني سماعي بموت الآنسة مارثا روت الطيبة لأنني لم أكن أدري به، لقد تمتعنا جميعاً بزياراتها السالفة. كانت رحيمة رقيقة وكانت عاملة مخلصة من العاملات للسلام، وإنه لا يخامرني شك في أن مكانها في عملها سيخلو خلواً محزناً».

وإليك ما شهد به قلم مركز ميثاق حضرة بهاء الله الملهم، قال: «** إنك حقاً بشيرة الملكوت ومنادية للميثاق، أنت مضحّية ومحبّة لملل العالم أجمعين، إنك بذرت بذرة ستحصد منها في العاقبة ألوف من الأكوام، أنت غرست دوحة ستنبت إلى الأبد أوراقاً وبراعم وتثمر أثماراً ويزداد ظلها الوارف استطالة يوماً في إثر يوم».

وكان من أجلّ وأخطر ما أدت هذه الخادمة اللامعة لدين حضرة بهاء الله من خدمات تلك الاستجابة شبه المباغتة التي استجابت بها ماري ملكة رومانيا لرسالة حملتها إليها تلك الطليعة المقدامة المتحمسة خلال فترة من أحلك فترات حياتها، فترة اشتدت فيها الحاجة المريرة، وسادها التبلبل والحزن. ولقد شهدت الملكة نفسها في إحدى رسالاتها فقالت: «جاءت كما تجيء كل الرسالات العظيمة في ساعة من الحزن البالغ والصراع الداخلي واليأس الشديد، ولذلك هوت البذرة إلى الأعماق».

كانت ماري ملكة رومانيا كبرى كريمات دوق إدنبرا[١] الابن الثاني لتلك الملكة التي وجّه إليها حضرة بهاء الله لوحاً عظيم الشأن خاطبها فيه بعبارات المدح والثناء، وكانت حفيدة إسكندر الثاني القيصر الذي أنزل له القلم نفسه لوحاً من قبل، وكانت بحكم مولدها وزواجها متصلة بوشائج القربى والمصاهرة مع أعرق عائلات أوروبا؛ وكان مولدها على المذهب الإنجليكاني ثم أصبحت بحكم زواجها شديدة الاتصال بالكنيسة الأرثوذكسية اليونانية دين دولتها الجديدة الرسمي، وكانت فوق ذلك مؤلفة كاملة الثقافة ساحرة الشخصية سامية المواهب صافية النظرة مقدامة بطبيعتها متحمسة مخلصة لكل المشاريع الإنسانية في صبغتها، ولذلك نهضت من تلقاء نفسها وحيدة بين أخواتها الملكات، وحيدة بين الملكيين إن بالمولد أو بالمنصب، ووجدت نفسها مدفوعة إلى أن تعترف بعظمة رسالة حضرة بهاء الله وتعلن عن

---

(١) Duke of Edinburgh

اعترافها بمجيء الموعود طبقاً لما صرّح به الإنجيل الجليل، كما تعلن عن إيمانها برسالة حضرة محمد في وقت واحد، وإلى أن توصي الناس رجالهم ونساءهم بالتعاليم البهائية وتمجد قوة نفوذها وسموها وجمالها.

ويمكن أن تتبوأ هذه الملكة الزهراء منصب أول عون ملكي من أعوان دين الله الذين سوف يقومون في المستقبل لنصرته، فيعترف العالم أن كل واحد منهم «بمنزلة البصر للبشر والغرة الغراء لجبين الإنشاء ورأس الكرم لجسد العالم» كما يقول حضرة بهاء الله، وذلك من خلال اعترافها الجريء بعقيدتها لذوي قرباها وبخاصة لابنتها الصغرى، ومن خلال كتاباتها الثلاث المتتابعة في مدح دين حضرة بهاء الله التي تشكل تركتها العظمى والخالدة للأجيال القادمة، ومن خلال مقالاتها الثلاث الأخرى التي كتبتها للنشر في المطبوعات البهائية، ومن خلال رسائلها العدّة التي كتبتها لأصدقائها ومعارفها، وكذلك تلك الرسالة التي كتبتها لأمها الروحية ومرشدتها، ومن خلال مختلف الأمارات الدالة على إيمانها وعلى امتنانها لتبلّغها هذه البشرى ومن خلال طلبها الكتب البهائية لها ولابنتها.

ولقد شهدت في خطاب من خطاباتها الخاصة شهادة ذات دلالة خاصة حين قالت: «إن بعض أفراد طبقتي ليعجبون لي ولا يرضون عن إقدامي على أن أنبري لأنطق بكلمات ليس من مألوف الرؤوس المتوجة أن تنطق بها. إلا أنني أنبري إذ أنبري بدافع داخلي لا أستطيع له دفعاً، نعم، برأس مطأطأ أؤمن أنا الأخرى بأنني لست إلا أداة تسخرها يد أعظم. وإن معرفتي لهذا لتملؤني غبطة وسروراً».

ولقد أفضت كلمة بعثت بها مارثا روت عقب بلوغها بوخارست إلى جلالتها مع نسخة من كتاب «بهاء الله والعصر الجديد» استغرقت انتباه الملكة استغراقاً حملها على المضي في قراءتها حتى سويعات الصباح الباكر، إلى أن تأذن لها الملكة بعد يومين في زيارة حدثت في الثلاثين من كانون الثاني سنة ١٩٢٦م في قصر كنتروسني ببخارست، وأعلنت فيها الملكة إيمانها بأن

هذه التعاليم هي الحل لمشاكل العالم، ثم تلا ذلك في السنة نفسها تطوع الملكة بكتابة تلك الشهادات الثلاث المفتتحة لعهد جديد، فظهرت فيما يقارب المائتي صحيفة من صحف الولايات المتحدة وكندا، ثم ترجمت من بعد ونشرت في أوروبا والصين واليابان وأستراليا والشرق الأدنى وجزر البحار.

في أولى هذه الشهادات تؤكد أن ما صدر من قلم حضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء «نداء عظيم إلى السلام يتردد وراء كل الحدود ويسمو فوق كل نزاع حول الطقوس والعقائد المتعسّفة... إنها رسالة عجيبة تلك التي منحنا إياها حضرة بهاء الله وابنه حضرة عبد البهاء، إنهما لم يقيماها مهاجمين علماً منهما بأن أصل الحقيقة الخالدة الكامنة في لبابها ليس لها إلا أن تضرب بجذورها وتنتشر... إنها رسالة السيد المسيح أخذت من جديد بالكلمات نفسها تقريباً، إلا أنها تعدلت بما يلائم فوارق الألف سنة أو يزيد، تلك التي تفصل بين السنة الأولى لظهوره ويومنا الراهن». ولقد أضافت على هذا توصية قيمة تذكرنا بكلمات الدكتور بنيامين جويت[١] الذي رحب بالدين في حديثه مع تلميذه الأستاذ لويس كامبل[٢] وعدّه أنه «أعظم نور جاء إلى العالم منذ أيام السيد المسيح» ودعاه إلى أن «يرقبه» وألا يدعه يخرج عن مجال بصره قط. كتبت الملكة فقالت: «إن استرعى انتباهكم اسم حضرة بهاء الله أو اسم حضرة عبد البهاء في يوم من الأيام فلا تبعدوا آثارهما عنكم، بل فتشوا عن كتبهما ودعوا كلماتهما ودروسهما المجيدة الحاملة للسلام الخالقة للمحبة تهوي في سويداء قلوبكم كما هوت إلى أعماق قلبي... فتشوا عنها وكونوا أسعد حالاً».

وفي شهادة أخرى تعلّق تعليقاً ذا دلالة عظيمة على مقام النبي العربي فتقول: «الله هو الكل، هو كل شيء، هو القوة المحيطة من وراء الخلق

(١) Dr. Benjamin Jowett
(٢) Prof. Lewis Campbell

جميعاً... صوته هو الصوت المنبعث من دخائلنا يظهرنا على الخير وعلى الشر، إلا أننا غالباً ما نتجاهل هذا الصوت أو نخطئ فهمه، وعلى هذا اصطفى مختاره ليهبط بيننا على الأرض يوضح كلمته ومراده الحقيقي، ومن ثم كان الأنبياء، كان السيد المسيح وكان حضرة محمد وكان حضرة بهاء الله، لأن الإنسان يحتاج من حين لآخر إلى صوت على الأرض يذكّره بالله ويشحذ من إدراكه لوعود الله الحق. تلكم الأصوات المرسلة إلينا اكتسبت لحماً حتى نستطيع أن نستمع إليها بآذاننا الترابية ونفهم عنها».

وتقديراً لهذه الشهادات أرسل إليها خطاب باسم أتباع حضرة بهاء الله في كلا المشرق والمغرب، وفي طوايا الرسالة المؤثرة التي أرسلتها إجابة عن ذلك الخطاب كتبت تقول: «حقاً لقد أتاني نور عظيم مع رسالة حضرة بهاء الله وحضرة عبد البهاء... كما أن ابنتي الصغرى تجد القوة والعزاء في تعاليم المعلمين المحبوبين، إننا نتناقل الرسالة فماً إلى فم فيرى أولئك الذين نعطيها لهم نوراً يلمح بغتة أمامهم ويتضح لهم كثير مما كان غامضاً ويتجلى لهم ما كان محيراً، فيمتلئون بالأمل كما لم يتفق لهم من قبل. ومن دواعي سعادتي حقاً أن أرى خطابي المفتوح بلسماً لأولئك الذين يقاسون من أجل الأمر المبارك، فإني أعد ذلك دليلاً على أن الله قد تقبل خدمتي المتواضعة. كما أن الفرصة التي أتيحت لي للتعبير عن نفسي علانية كانت هي الأخرى من صنع يده. فما هي إلا سلسلة من الظروف والملابسات كانت كل حلقة من حلقاتها تفضي بي إلى أن أخطو بلا وعي خطوة أبعد، وظللت كذلك إلى أن اتضح كل شيء أمام عينيّ بغتة، وفهمت لماذا كان كل شيء. وكذلك يهدينا الله آخر الأمر إلى مصيرنا النهائي... شيئاً فشيئاً طفق النقاب ينحسر بعد أن شطره الحزن إلى شطرين. وكان الحزن هو الآخر خطوة قربتني من الحق. وعلى هذا لم أصرخ ألماً من الحزن!»

وكتبت في رسالة مؤثرة عظيمة الدلالة بعثت بها إلى صديقة أمريكية حميمة مقيمة بباريس فقالت: «وأخيراً أتاني أمل عظيم ممن يدعى حضرة

عبد البهاء. إذ أنني وجدت في رسالته ورسالة والده إشباعاً لكل تلهفي إلى الدين الحق... وأعني أن هذه الكتب قد قوتني قوة تفوق الإيمان، وإني الآن على استعداد لأن أموت في أي يوم من الأيام والأمل يملأ جوانحي. ولكني أبتهل إلى الله ألا يقبضني إليه الآن فإن قسطاً كبيراً من العمل ما زال أمامي».

وورد في إحدى مدائحها الأخيرة للدين قولها: «إن التعاليم البهائية تجلب السلام والإدراك، إنها كمصدر واسع النطاق يضم إليه كل أولئك الذين طال بهم البحث عن كلمات الرجاء... أما وقد أحزنني النزاع المستمر بين المؤمنين بمختلف المعتقدات، وأرهقني عدم تسامح بعضهم حيال بعض فقد اكتشفت في التعاليم البهائية روح المسيح الحق التي طالما أنكرها الناس وأساءوا فهمها». ثم إليك هذا الاعتراف العجيب أيضاً، قالت: «إن التعاليم البهائية تجلب السلام إلى الروح والرجاء إلى القلب. وإن كلمات الأب هي، بالقياس إلى الباحثين عن الطمأنينة، كالنبع في الصحراء القاحلة من بعد هيمان طويل».

وكتبت إلى مارثا روت تقول: «إن جمال تلك الحقيقة لحضرة بهاء الله دائماً معي مصدر للإلهام والتأييد، إن ما كتبته نبع من صميم فؤادي المفعم بالشكر والامتنان لما انعكس في نفسي من ضياء يسّرته لي، وإني لسعيدة إن اعتقدت أنني قد أسهمت بشيء ما، فقد خيّل إليّ أنني سعيت لأقرّب الناس إلى تلك الحقيقة لأن العديد من البشر يقرأون ما كتبت».

وفي أثناء زيارة قامت بها للشرق الأدنى أفصحت عن نيتها في زيارة المقامات البهائية، ومرت هي وابنتها الصغرى بحيفا فعلاً، وكانت على مرمى البصر من هدفها حين حرمت من حق القيام بالزيارة التي فكرت فيها، الأمر الذي أثّر في الورقة العليا المباركة التي كانت تتوقع قدومها بلهفة تأثيراً شديداً، وبعد عدة أشهر أي في حزيران سنة ١٩٣١م كتبت في ثنايا خطاب لها إلى مارثا روت تقول: «لقد خاب أملي أنا وإيلينا خيبة قاسية حين حرمنا من الذهاب إلى المقامات المقدسة... غير أننا كنا في تلك الأثناء نعاني أزمة

قاسية، وكانت كل حركة من حركاتي تحسب عليّ وتستغل ضدي استغلالاً سياسياً غير كريم. فسبّب لي ذلك قسطاً لا يستهان به من الشدة وضغط على حريتي ضغطاً غير رحيم... إلا أن جمال الحق يبقى، وإني لأتشبث به خلال متاعب حياة هي أقرب شيء إلى الحزن... إني سعيدة إذ أسمع أن سفرتك كانت مثمرة جداً وأتمنى لك نجاحاً دائماً علماً مني بجمال الرسالة التي تنتقلين بها من أرض إلى أرض».

وبعد تلك الحادثة المحزنة كتبت إلى صديقة من صديقات طفولتها كانت تعيش قرب عكاء في منزل سكنه حضرة بهاء الله من قبل، فقالت: «كان جميلاً حقاً أن أسمع منك وكان من دواعي السرور والعجب أن أتصور أنك فوق كل شيء تعيشين على كثب من حيفا، وأنك مثلي من أتباع التعاليم البهائية. إنه ليمتعني أنك تعيشين في ذلك المنزل بالذات... لقد استغرقتني المتعة استغراقاً دفعني إلى دراسة كل صورة من صوره بإمعان. لا بد أنه مكان حبيب... وأن المنزل الذي تعيشين فيه منزل جذاب إلى حد لا يصدّق، يرفع من قدره ارتباطه بالشخص الذي نبجله جميعاً...»

وصدر عنها قبل موتها بسنتين، آخر شهادة علنية تثني بها على الدين الذي أحبته كثيراً، كتبت تقول: «يجب علينا اليوم، والعالم يواجه أزمات التبلبل والحيرة والقلق، أن نثبت على ديننا أكثر من أي وقت سابق، وأن نلتمس ما من شأنه أن يؤلف بيننا لا ما يشطرنا ويمزق شملنا. إن التعاليم البهائية تهب للباحثين عن النور نجماً يهديهم إلى إدراك أعمق ويرشدهم إلى الطمأنينة والسلام وحسن المعاشرة مع الناس جميعاً».

وهذا هو تقرير مارثا روت المشرق كما ورد في إحدى مقالاتها، قالت: «طفقت جلالتها وابنتها صاحبة السمو الملكي الأميرة إيلينا (الأرشيدوقة أنطون الحالية) عشر سنوات تقرآن بشغف كل كتاب جديد عن الأمر البهائي بمجرد صدوره عن المطبعة... استقبلتني جلالتها في قصر بليسور بسينيا سنة ١٩٢٧م بعد موت زوجها صاحب الجلالة الملك فرديناند، ثم تفضلت

بلقائي متحدثة عن التعاليم البهائية حول الخلود. وكان لديها على مائدتها وعلى الديوان عدة كتب بهائية لأنها كانت تقرأ ما ورد في كل واحد منها من التعاليم عن الحياة بعد الموت. وسألت كاتبة هذه السطور أن تهب تحياتها إلى... الأحباء في إيران وإلى البهائيين الأمريكيّين العديدين الذين كانوا، كما قالت، كرماء نحوها كرماً ملحوظاً أثناء رحلتها إلى الولايات المتحدة في السنة السالفة... فلما لقيت الملكة مرة أخرى في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٨م في القصر الملكي ببلغراد حيث كانت هي وصاحبة السمو الملكي الأميرة إيلينا ضيفتين على ملكة يوغسلافيا، كانتا قد أحضرتا معهما بعض كتبهما البهائية وكانت الكلمات التي سوف تدوم ذكراها في ذاكرتي أطول من سائر الكلمات التي فاهت بها جلالتها العزيزة، هي قولها: «إن الحلم النهائي الذي سوف نحققه هو أن مجرى التفكير البهائي له من القوة ما يمكنه شيئاً فشيئاً من أن يصبح نوراً لكل أولئك الباحثين عن التعبير الحق عن الحق...» وفي لقائي لها بقصر كنتروسني في السادس عشر من شباط سنة ١٩٣٤م قالت جلالتها إنها سعيدة لأن شعبها قدّر له أن يحظى ببركة قراءة تلك التعاليم الثمينة، وذلك عندما علمت بأن الترجمة الرومانية لكتاب «بهاء الله والعصر الجديد» قد طبعت حديثاً في بوخارست... واليوم وهو الرابع من شباط سنة ١٩٣٦م حظيت بمقابلة أخرى لجلالتها في قصر كنتروسني ببوخارست. فاستقبلتني ماري ملكة رومانيا مرة أخرى بحفاوة في مكتبتها ذات الأضواء الخافتة، فإن الساعة كانت السادسة... وما أخلدها من زيارة!... وأخبرتني كذلك بأنها حينما كانت في لندن لقيت سيدة بهائية هي الليدي بلومفيلد، فأطلعتها على الرسالة الأصلية التي أرسلها حضرة بهاء الله إلى جدتها الملكة فيكتوريا في لندن. وسألت كاتبة هذه السطور عن تقدم الأمر البهائي ولا سيما في دول البلقان... وتحدثت أيضاً عن عمق «الإيقان» وعن عدّة كتب بهائية ولا سيما عن «منتخبات من آثار حضرة بهاء الله» الذي قالت عنه إنه كتاب عجيب! قالت بالحرف الواحد: «حتى الشكّاكون يجدون فيه قوة عظيمة إن هم قرأوه على انفراد، وأتاحوا لأنفسهم وقتاً للتوسع»...

وسألتها إذا ما كنت أستطيع أن أتكلم للبهائيين عن المشبك الذي له قيمة من الناحية التاريخية بالنسبة لهم، فأجابت: «نعم، تستطيعين». فلقد اتفق في سنة ١٩٢٨م أن أهدت جلالتها العزيزة لكاتبة هذه السطور مشبكاً (بروشاً) جميلاً نادراً كان أهداه إليها أقرباؤها الملكيون في روسيا منذ سنوات. كان المشبك ذا جناحين صغيرين من الذهب والفضة المنمقين المنضدين بشذرات من الماس تربطهما جميعاً لؤلؤة كبيرة. قالت الملكة مبتسمة: «أنت تهدين الهدايا إلى الآخرين دائماً ولسوف أهديك هدية من عندي» وشبكته بيدها في ثوبي، وقد جعله الجناحان واللؤلؤة يبدو كأنه «بهائي حامل للنور!» وفي الأسبوع نفسه أرسل إلى شيكاغو كهدية إلى المعبد البهائي... وساد التردد المؤتمر البهائي المركزي الذي كان منعقداً في ذلك الربيع، أيجوز بيع هدية من ملكة؟ أم يجب الاحتفاظ بها تذكاراً لأول ملكة قامت تروّج دين حضرة بهاء الله؟ ومهما يكن من شيء فقد بيع المشبك مباشرة ووهب المال للمعبد، لأن البهائيين كانوا يبذلون قصارى جهودهم في التقدم بذلك البنيان المشيد، وهو أول بنيان من نوعه في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد اشترى المشبك النفيس الرائع مستر ويلارد هاتش[١] وهو بهائي من لوس أنجلس بولاية كاليفورنيا ثم حمله إلى حيفا بفلسطين سنة ١٩٣١م ووضعه في محفظة الآثار على جبل الكرمل حيث يستقر على مرّ الأجيال مع الكنوز البهائية...».

وفي تموز سنة ١٩٣٨م ماتت ماري ملكة رومانيا. فأرسلت رسالة عزاء باسم الجامعات البهائية في كلا الشرق والغرب إلى ابنتها ملكة يوغسلافيا. فأجابت معبرة عن «شكرها المخلص لكل أتباع حضرة بهاء الله» ووجه المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في إيران خطاباً باسم أتباع حضرة بهاء الله في موطنه الأصلي معبراً فيه لابنها ملك رومانيا والعائلة المالكة الرومانية عن حزنه وعزائه، وكان نص الخطاب مكتوباً بالفارسية والإنجليزية في آن واحد. كما أرسلت مارثا روت إلى الأميرة إيلينا خطاباً يعبر عن أعمق

(١) Mr. Willard Hatch

ألوان العزاء والمشاطرة، فاعترفت لها الأميرة بجميلها شاكرة وعقدت مجالس التذكر للملكة حيث أدى لها المؤمنون من التشريف والتمجيد ما هو جدير بإيمانها الجريء التاريخي بظهور حضرة بهاء الله واعترافها بمقام نبي الإسلام، وتلك المدائح والشهادات العديدة التي صدرت عن قلمها. وفي ذكراها الأولى أظهر المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في الولايات المتحدة وكندا شكره الجزيل وإعجابه العميق ومحبته الفياضة للملكة الراحلة بأن اشترك بإكليل جليل من الزهور في القداس التذكاري العظيم الذي أقامه لذكراها الوزير الروماني في مصلى بيت لحم في كاتدرائية واشنطن العاصمة حيث اشترك الوفد الأمريكي برئاسة وزير الداخلية وعضوية رجال الحكومة وممثلي الجيش والبحرية، وسفراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وممثلو السفارات والمفوضيّات الأوروبية الأخرى في تمجيد عام لتلك التي اكتسبت في هذه الحياة الأرضية تقدير قوم كثيرين يعيشون وراء حدود دولتها ومحبتهم فضلاً عن الشهرة الواسعة النطاق التي اكتسبتها في ملكوت حضرة بهاء الله.

نعم، إن إيمان الملكة ماري يحتل منزلة أول ثمرة من ثمار تلك الرؤيا التي رآها حضرة بهاء الله في أسره منذ زمان بعيد وأعلنها في كتابه الأقدس حين قال: «طوبى لملك قام على نصرة أمري في مملكتي وانقطع عن سوائي... ينبغي لكل أن يعززوه ويوقروه وينصروه ليفتح المدن بمفاتيح اسمي المهيمن على من في ممالك الغيب والشهود. إنه بمنزلة البصر للبشر والغرة الغراء لجبين الإنشاء ورأس الكرم لجسد العالم انصروه يا أهل البهاء بالأموال والنفوس».

أما الجامعة البهائية الأمريكية التي توجتها أعمال مارثا روت العالمية الجبارة بالمجد الخالد فقد قدر لها، والقرن البهائي الأول يشارف نهايته، أن تمتاز بمجهودات أفرادها المتضافرة المصممة التي بذلتها في الوطن وخارج الوطن لتنجز أعمالاً بلغ من سعة نطاقها وعظمة شأنها أن عرضاً يتصدى لفعاليات تبليغ الدين أثناء ذلك القرن لا يحتمل أن يجد إلى تجاهلها سبيلاً.

ولن يكون من الإسراف ولا المغالاة في شيء إذا نحن قلنا إن هذه الفتوحات الشامخة لم تكن لتتم، لا هي ولا ما فاض عنها من نتائج مدهشة، إلا بتسخير كل هيئات النظام الإداري الحديث الإنشاء تسخيراً يعمل طبقاً لخطة محكمة التدبير، وإن هذه الفتوحات أيضاً تؤلف خاتمة لائقة بسجل سنوات مائة من الجهد الرفيع المبذول لخدمة أمر حضرة بهاء الله.

وليس مما يدهش في شيء أن تحمل جامعة أتباعه في الولايات المتحدة وكندا شعار النصر في السنوات الختامية من مثل هذا القرن المجيد. ذلك لأن أعمالها التي أنجزتها خلال العقدين الأخيرين من عصر البطولة المجيد من الدورة البهائية والخمس عشرة سنة الأولى من عصر التكوين قد بشرت بمستقبلها الباهر أيما تبشير، وعبّدت الطريق لنصرها النهائي قبل انقضاء القرن الأول من التاريخ البهائي.

ولقد أصدر حضرة الباب في كتابه «قيوم الأسماء» منذ مائة سنة تقريباً نداءه الخاص إلى «أهل المغرب» أن «أخرجوا من دياركم» لنصر الله كما خاطب حضرة بهاء الله في كتابه الأقدس معشر رؤساء الجمهوريات في أمريكتين بأسرهما وأمرهم أن ينهضوا ويجبروا «الكسير بأيادي العدل» ويكسروا «الصحيح الظالم بسياط أوامر» ربهم. وتنبّأ في ألواحه زيادة على ذلك بظهور «آثاره في الغرب». وأعلن حضرة عبد البهاء بدوره أن «الأنوار» التي سكبها ظهور والده على الغرب سوف تكتسب «سطوعاً شديداً» وأن «أنوار الملكوت» سوف تتلألأ في مطالع الغرب أعظم منها في الشرق. وأثنى على القارة الأمريكية خاصة قائلاً بأنها «* ميدان إشراق الأنوار ووطن ظهور الأسرار» وأكد أنها سوف «تحيي القلوب بتعاليم الله» واختص من القارة الأمريكية جمهورية الغرب الكبرى زعيمة أمم تلك القارة معلناً أن شعبها «* * أهل حقاً لأن يكون أول من يضرب خيمة السلام الأعظم ويعلن وحدة الجنس البشري» وأنه «* مستعد قادر على أن يتم ما من شأنه أن يطرز صفحات التاريخ ويصبح موضع غبطة العالمين وبركة من كلا المشرق والمغرب».

وكان أول عمل من أعمال عهده نشر لواء حضرة بهاء الله في قلب تلك الجمهورية بالذات، وتلا ذلك زيارته المديدة لشواطئها، وتبريكه لأول بيت للعبادة تبنيه جامعة أتباعه في تلك البلاد، وأخيراً إنزاله في مغرب حياته لألواح الخطة الإلهية مزوداً أحباءه بتفويض يركزون به راية دين أبيه في كل قارة من قارات الكرة الأرضية وأقطارها وجزرها كما ركزها هو من قبل في بلادهم وأثنى علاوة على ذلك على رئيس من أعظم رؤسائهم شأناً قائلاً بأنه قد فلق «فجر» السلام الذي تنبأ به حضرة بهاء الله بما فصّل من مثل عليا، وما شرّع من نظم وشكّل من هيئات، وأفصح عن أمله في أن «* * يفيض الإشراق السماوي على كل شعوب العالم» من بلادهم، ووصفهم في تلك الألواح بأنهم «حواريو حضرة بهاء الله» وأكد لهم أنه «* * إن كلّل النجاح مسعاهم» «* * استقر عرش ملكوت الله في كامل جلاله ومجده استقراراً مكيناً» ونطق بهذا البيان المثير فقال: «* حين يبلغ هذا النداء الإلهي من قارة أمريكا أوروبا وآسيا وأفريقيا وأستراليشيا وجزائر الباسفيك، يجلس أحباء أمريكا على سرير السلطنة الأبدية ويطبق صيت نورانيتهم وهدايتهم الآفاق ويعم صوت عظمتهم أطراف العالم».

قامت هذه الجامعة في عهد من أنشأها وتعهدها بعطفه وباركها أكثر من مرة، وأنعم عليها أخيراً بهذه الرسالة المميزة، وشرعت في تنفيذ مشروع مشرق الأذكار بابتياعها لأرضه ووضعها لأساسه، وأرسلت مبلغيها إلى كلا الشرق والغرب ينشرون الدين الذي اعتنقته، ووضعت أساس حياتها الاجتماعية وطفقت منذ صعود حضرة عبد البهاء تقيم بنيان معبدها، وبدأت في زخرفته الخارجية، واشتركت فضلاً عن ذلك بقسط ضخم في إقامة هيكل نظام الدين الإداري والذود عن حياضه، وإظهار استقلاله وإخصاب مؤلفاته ونشرها، وإعانة أتباعه المضطهدين إعانة معنوية ومادية، وصد هجمات أعدائه والظفر بولاء شخصية ملكية لمؤسسه. وكان من شأن هذا السجل الرائع أن يختتم، والقرن يشارف نهايته، بالشروع في تنفيذ خطة هي المرحلة الأولى

من مراحل تحقيق الرسالة التي عهد بها إليها حضرة عبد البهاء، خطة كان من شأنها أن تتم الزخرفة الخارجية لمشرق الأذكار إتماماً ناجحاً في غضون سبع سنوات قصار، وأن تضاعف تقريباً عدد المحافل الروحانية العاملة في القارة الأمريكية الشمالية، وأن تبلغ بمجموع المراكز التي يقيم فيها البهائيون إلى ما لا يقل عن ألف وثلاثمائة واثنين وعشرين مركزاً في تلك القارة نفسها، وأن تقيم أساس النظام الإداري في كل ولاية من الولايات المتحدة، وكل إقليم من أقاليم كندا، وأن تزيد عدد الدول المستقلة الداخلة في حظيرته إلى ستين دولة بعد أن اتخذت لها جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية عشرين مرفأ أميناً.

نعم، لقد اصطلحت الآن قوى عديدة مختلفة على أن تحفز الجامعة البهائية الأمريكية إلى العمل الشاق المتصل. من هذه القوى مناشدات حضرة بهاء الله ووعوده وأمره بأن تشاد بأسمه بيوت للعبادة، ومنها الإرشادات التي أصدرها حضرة عبد البهاء في أربعة عشر لوحاً موجهاً إلى الأحباء المقيمين في الولايات الغربية والوسطى والشمالية الشرقية والجنوبية من ولايات الجمهورية الأمريكية الشمالية وكندا، ومنها تنبؤاته فيما يختص بمستقبل مشرق الأذكار في أمريكا، ومنها تأثير النظام الإداري الحديث في تغذية روح تعاون حماسيّة وجعلها فعّالة، ومنها المثل الذي ضربته مارثا روت التي سافرت إلى أمريكا الجنوبية وزارت كل مدينة مهمة من مدن تلك القارة رغم أنها لم تكن مزودة إلا بحفنة من نشرات لم تترجم بإتقان، ومنها ثبات كيث رانسوم كهلر المقدامة اللامعة وتضحيتها، تلك الشهيدة الأمريكية الأولى، التي سافرت إلى إيران ودافعت في مقابلاتها العديدة للوزراء ورجال الدين ورجال الحكومة عن قضية إخوانها المضطهدين في تلك البلاد، ووجهت ما لا يقل عن سبع عرائض للشاه، وظلت كذلك لا تكترث لاعتلال صحتها ولا لتقدم سنها حتى خرّت صريعة أخيراً في إصفهان. على أن هناك عوامل أخرى تضافرت على شحذ همة أفراد تلك الجامعة وحثهم على القيام بتضحيات أخرى ومغامرات جديدة، منها لهفتهم على تعزيز العمل الذي تم متقطعاً بوساطة استقرار عدد من المهاجرين الذين أسسوا أول مركز للدين في

البرازيل، وطوافهم حول القارة الأمريكية الجنوبية وزيارتهم جزر الهند الغربية ونشرهم للكتب البهائية في أقطار مختلفة من أمريكا الوسطى والجنوبية، ومنها إدراكهم لمسؤولياتهم الملحة وهم يواجهون الموقف الدولي السريع التدهور والانهيار، ومنها فطنتهم إلى أن القرن البهائي الأول يعدو مسرعاً إلى نهايته، واشتياقهم إلى أن يختموا عملاً بدئ منذ ثلاثين سنة خلت ختاماً لائقاً. وعلى هذا قام أفراد الجامعة البهائية الأمريكية قومة رجل واحد لا يعيقهم اتساع الميدان الهائل، ولا قوة السلطان الذي تمتعت به الهيئات الدينية المترسخة ولا اضطراب الأحوال السياسية في بعض البلاد التي أرادوا الهجرة إليها، ولا تقلب الظروف الجوية عليهم في بعضها الآخر، ولا اختلاف لغة الأقوام الذين كان عليهم أن يقيموا بين ظهرانيهم وتباين عاداتهم. نعم، قاموا وهم على علم تام بحاجات الدين الملحة في القارة الأمريكية الشمالية ليشنوا حملة مثلثة وضعت خطتها بعناية وأديرت دفتها إدارة منظمة، حملة كان يراد بها إنشاء محفل روحاني في كل إقليم بكر وولاية عذراء في أمريكا الشمالية، وتكوين نواة من المؤمنين المقيمين في كل جمهورية من جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية، وإتمام زينة مشرق الأذكار الخارجية.

ولتنفيذ هذه الخطة الكريمة اعتمدت مائة فعالية إدارية وتربوية واستمر العمل فيها. ولقد أفلح منفذو خطّة السنوات السبع، بتبرعاتهم المالية السخية، وتشكيل لجنة للقارة الأمريكية، وتشكيل لجان فرعية للتبليغ الإقليمي، وتأسيس مدرسة عالية تتكفل بتدريب المبلغين البهائيين، وباستقرار المهاجرين في المساحات البكر وزيارات المبلغين المتنقلين، ونشر الكتب الأمرية بالإسبانية والبرتغالية، وبشروع الجماعات والمحافل المحلية في إعطاء دروس لتدريب المبلغين، والدعاية في الصحف والإذاعة، وعرض صور فوتوغرافية للمعبد البهائي الأول ونماذج مجسمة له، وبعقد المؤتمرات الإقليمية ما بين البهائيين وإلقاء المحاضرات في الجامعات والكليات، وبتركيز الدراسات عن أمريكا اللاتينية في المدارس الصيفية؛ بهذه وبغيرها من الفعاليات أفلح منفذو خطة السنوات السبع في إحراز النصر لعمل جماعي

يجب أن يعد أعظم ما قام به أتباع حضرة بهاء الله من أعمال جماعية في تاريخ القرن البهائي الأول بأكمله على الإطلاق.

والواقع أنه قبل انقضاء ذلك القرن لم يكمل العمل في المعبد قبل الموعد المضروب بستة عشر شهراً فحسب، بل لقد تأسست، عوضاً عن النواة الصغيرة في كل جمهورية لاتينية، محافل روحانية في مدينة المكسيك وپويبلا (المكسيك) وبوينس أيرس (الأرجنتين) ومدينة جواتيمالا (جواتيمالا) وسانتياجو (تشيلي) وفي مونتيفيديو (أرجواي) وفي كيتو (إكوادور) وفي بوجوتا (كولومبيا) وفي ليما (بيرو) وفي أسانسيون (براجواي) وفي تيجوسيجالبا (هندوراس) وفي سان سلفادور (السلفادور) وفي سان خوزيه وبنترنياس (كوستاريكا) وفي هافانا (كوبا) وفي بور أوبرنس (هايتي). هذا وكان العمل التوسعي الذي اشترك فيه الأحباء الجدد من أمريكا اللاتينية قد بدأ بحرارة وحماسة في جمهوريات المكسيك والبرازيل والأرجنتين وتشيلي وبناما وكوستاريكا، واستقر الأحباء لا في عواصم جمهوريات أمريكا اللاتينية جميعها فحسب بل أقاموا كذلك في مراكز مثل فيراكروز وكانانيا وتاكوبايا (المكسيك) وفي بالبوا وكريستوبال (بناما)، وفي رسيف (البرازيل) وفي جواياكيل وأمباتو (إكوادور)، وفي تموكو وماجلانز (تشيلي)، وسجل المحفلان الروحانيان للبهائيين في مدينة المكسيك وسان خوزيه، وتأسست في المدينة الأولى «حظيرة القدس» تشتمل على مكتبة وقاعة للمحاضرات، وانعقدت ندوات للشبان[١] في هافانا وبوينس أيرس وسانتياجو على حين تأسس في بوينس أيرس مركز لتوزيع الكتب البهائية لأمريكا اللاتينية.

ولم يكن هذا المشروع الجبار ليحرم في مراحله البدائية من بركة من شأنها أن تعزز اتحاد الأمريكتين الروحاني، وهي بركة فائضة عن تضحية سيدة تكفلت منذ فجر يوم الميثاق بتأسيس المراكز البهائية الأولى في أوروبا وكندا، وسافرت ستة آلاف ميل رغم بلوغها السبعين واعتلال صحتها إلى

(١) Baha'i Youth Symposiums

عاصمة الأرجنتين حيث توفيت بغتة وهي ما تزال في بدء هجرتها، فخلقت بتلك المنية، للعمل في هذه الجمهورية، قوة مكّنتها من أن تتبوّأ أبرز مكانة بين أخواتها الجمهوريات وذلك بفضل إنشاء مركز لتوزيع الكتب البهائية في أمريكا اللاتينية وبفضل فعاليّات أخرى.

فإلى ماي مكسويل[١] الراقدة في تربة الأرجنتين، وإلى هايد دن[٢] الذي تستريح رفاته في سيدني في أستراليا، وإلى كيث رانسوم كهلر[٣] المدفونة في إصفهان القصية، وإلى سوزان مودي[٤] وليليان كابس[٥] وزميلاتها الجريئات اللائي يرقدن في طهران، وإلى لوا جتسنجر[٦] الراقدة إلى الأبد في عاصمة مصر، وأخيراً، وليس آخراً، إلى مارثا روت التي وريت الثرى في جزيرة في صدر المحيط الهادئ، إلى كل هؤلاء ينتمي الشرف الذي لا يجارى ولا يبارى؛ شرف إغداقهم بخدماتهم وتضحياتهم على الجامعة البهائية الأمريكية مجداً يحق لهم أن يحس نحوه ممثلو هذه الجامعة بالامتنان الأبدي وهم يحتفلون بانتصاراتهم الشاقة في مؤتمرهم التاريخي الذي يشمل كل أمريكا لأول مرة.

والواقع أن هذه الجامعة يحق لها أيضاً أن تحس وهي بين جدران معبدها المركزي، أقدس معبد شيد حتى الآن تمجيداً لحضرة بهاء الله، حيث اجتمعت بمقربة من مدينة تستطيع أن تعتز بأنها أول مركز بهائي أنشئ في العالم الغربي مع ممثلي الجمهوريات الأمريكية لتخلد ذكرى العيد المئوي لمولد الدور البابي وابتداء الدور البهائي، وافتتاح الكور البهائي، ومولد حضرة عبد البهاء، والعيد الخمسين لتأسيس الدين في نصف الكرة الغربي في وقت واحد. الواقع أن هذه الجامعة من حقها أن تحس في هذه المناسبة الجليلة بأنها قد سكبت بدورها على أخواتها الجامعات البهائية في كلا الشرق

---

(١) May Maxwell
(٢) Hyde Dunn
(٣) Keith Ransom Kehler
(٤) Susan Moody
(٥) Lillian Kappes
(٦) Lua Getsinger

والغرب مجداً باقياً بإنهائها الظافر لأول مرحلة من مراحل الخطة التي اختطّها لها حضرة عبد البهاء، وكتبت الصفحات المختتمة لتاريخ القرن البهائي الأول بحروف من ذهب.

نظرة عامة

وهكذا ينتهي القرن الأول من الدور البهائي، وهو فترة لا ندّ لها في رفعتها ولا شبيه لها في خصوبتها في ميدان التاريخ الديني بأكمله، لا بل في تقويم الجنس البشري قاطبة. وكيف لا وهذه عملية إلّهية الدافع مزودة بطاقات لا حصر لها ولا حد، غريبة في أعمالها، مروعة في جزائها الذي أعدته لكل فرد حاول أن يقاوم سريانها، متناهية الغنى في وعدها بإحياء الجنس البشري وإنقاذه، تنطلق في شيراز ثم تستجمع نشاطها في طهران وبغداد وأدرنة وعكاء على التوالي، ثم تندفع عبر البحار وتفرغ تأثيراتها الخلاقة في الغرب، وتظهر الشواهد الأولية لقوتها العجيبة المنشطة للعالم في وسط القارة الأمريكية الشمالية.

ها هي تنبثق من قلب آسيا وتندفع غرباً وتزداد سرعتها في مسارها الذي لا يقاوم إلى أن تحيط العالم بنطاق من المجد. يولّدها ابن بزّاز في إقليم فارس، ويعيد تشكيلها نبيل من نبلاء نور، وتعززها جهود ذلك الذي قضى أطيب سنوات شبابه ورجولته في المنفى والحبس، وتظفر بأظهر انتصاراتها في بلاد وبين شعب يعيش على الجانب الآخر من الكرة الأرضية بعيداً عن بلادها الأصلية. ثم إذا بها تصد كل هجوم يشن عليها، وتحطم كل عائق يعوق تقدمها وتذل كل مبغض متغطرس يحاول أن يوهن من قوتها، وتدفع إلى أعلى ذرى الشجاعة والإقدام بأضعف وأبسط فرد من أولئك الذين نهضوا وأصبحوا أدوات طيعة في قبضة قوتها المنزهة المطورة. ثم إذا بالمعارك المجيدة والانتصارات الفائقة تداخلها المآسي المروعة والعقوبات الصارمة تكوّنان هيكل تاريخها البالغ من العمر مائة سنة.

وما هم إلا حفنة من تلاميذ ينتمون إلى مدرسة الشيخية المتشعبة عن طائفة الشيعة الاثني عشرية الإسلامية تفعل فيهم تلك العملية فعلها فيتضخّمون ويتحولون إلى جامعة عالمية شديدة التكتل صافية النظرة حيّة تتقرب إلى الله بقربان لا يقل عدده عن عشرين ألف شهيد، وتسمو فوق القومية والحزبية والطائفية والسياسة، وتنادي بدين عالمي وتباشر وظائفه، وتنتشر في قارات اليابسة الخمس وجزائر البحار، وتمتد أغصانها فيما يربو على ستين دولة مستقلة وسبع عشرة مستعمرة، وتزوّد بمؤلفات تترجم وتذاع في أربعين لغة، وتدير أوقافاً تبلغ قيمتها ملايين عديدة من الدولارات، ويعترف بها عدد من الحكومات في كلا الشرق والغرب، جامعة مكتملة الهدف والرأي، ليس لها رجال محترفون من رجال الدين، تؤمن بعقيدة واحدة، وتتبع أحكاماً واحدة، وتحفزها غاية واحدة ويوحدها توحيداً منظماً نظام إداري إلٰهي الطبيعة فريد المعالم وتضم حظيرتها أقواماً من أمهات الديانات العالمية ومختلف الطبقات والأجناس؛ جامعة مخلصة في التزاماتها المدنية، مدركة لتبعاتها الاجتماعية ومتفطنة. للأخطار التي تجابه المجتمع الذي هي جزء منه مشاطرة إياه آلامه وأوجاعه، واثقة بمصيرها السامي كل الوثوق.

نعم، ها هو ذا حضرة الباب يكوّن نواة هذه الجامعة بعيد ليلة إعلانه رسالته إلى المُلاّ حسين بشيراز، فيحتفل بمولدها هياج يصطلح على الاشتراك فيه الشاه وحكومته وشعبه وكل رجال الدين في بلاده، ثم إذا بالأسر السريع القاسي في جبال آذربيجان ينتظر مؤسسها الشاب بعد عودته من حجّه إلى مكة بقليل، وفي عزلة ماه كو وچهريق يبرم ميثاقه ويأخذ عهد ولايته ويصوغ شرائعه، ويخلّف للأجيال القادمة الأغلبية الساحقة من آثاره. وهؤلاء هم أصحابه ينتظمون تحت إمرة حضرة بهاء الله في قرية بدشت فيعلنون ختام الدورة الإسلامية، ويفتتحون الدورة الجديدة في ظروف فياضة بالنشاط، ثم هو في تبريز أمام وارث العرش وأقطاب رجال الدين والفقهاء في آذربيجان

يعلن إعلاناً علنياً لا تحرز فيه أنه ليس بأحد سوى القائم الموعود الذي طال انتظاره. وها هي ذي العواصف المدمرة تهب في مازندران ونيريز وزنجان وطهران تختزل صفوف أتباعه اختزالاً وتسلبه أنبل أنصاره وأقيمهم. وها هو ذا يرى بنفسه تداعي دينه وفناء معظم حروف الحي، وبعد أن يلقى بشخصه حلقات متلاحقة من الهوان والتشهير المرير يقتل على أيدي فرقة من الرماة في ساحة الثكنة بتبريز. وها هو ذا فيضان متدافع الأمواج من الدماء الصاخبة يجرف بطلة دينه العظمى، ويخترم صفوف معتنقيه ويطفئ حياة كاتب وحيه المؤتمن الذي عهد إليه تنفيذ رغباته الأخيرة ويجرف حضرة بهاء الله إلى غياهب سراديب أقذر سجن في طهران.

وفي جو سياه چال الوبيل، وبعد ذلك الإعلان التاريخي بتسع سنوات تؤتي الرسالة التي أعلنها حضرة الباب أكلها، ويوفي بعهده، ويتنفس فجر أمجد فترة وأخطر فترة من العصر البطولي للدور البهائي. ويتلو ذلك كسوف وقتي تعانيه شمس الحق البازغة وهي أعظم نيرات العالم نتيجة لإخراج حضرة بهاء الله المستعجل إلى العراق بأمر ناصر الدين شاه، ثم نتيجة لاعتكافه المفاجئ في جبال كردستان، ثم نتيجة للانحطاط والاضطراب اللذين شملا البقية الباقية من جامعة أصحابه المضطهدين في بغداد، ثم تتبدل مصائر هذه الجامعة التي كانت تعاني التدهور والانحلال السريعين بعد عودته عن اعتكافه الذي دام سنتين يعقبهما إحياؤها وإصلاح خلقيتها والسمو بهيبتها وإغناء تعاليمها من جديد ثم ينتهي الأمر بإعلانه رسالته في الحديقة النجيبية إلى بطانته عشية إخراجه إلى الآستانة. وها هي ذي أزمة أخرى وهي أعنف ما قدّر لدين مناضل أن يقاسي خلال تاريخه، يحدثها خروج من رشّحه حضرة الباب لولاية البابيين وما ارتكب من مظالم هو وشيطانه الذي كان يسوّل له. وتكاد الأزمة في أدرنة تقوّض دعائم قوى الدين الحديثة التوطيد، وتوشك أن تدمر بنار الامتحان القاسي جامعة الاسم الأعظم التي أخرجها حضرة بهاء الله إلى حيز الوجود. إلا أن هذا الدين المنيع يتطهر من رجس «الصنم الأعظم»، ولا يعيقه ما ينتابه من اضطراب ويتخطى بقوة الميثاق الذي أبرمه حضرة

الباب، أشق العقبات التي قدّر له أن يصادفها في الماضي والمستقبل، وفي هذه الساعة نفسها يبلغ الدين أوج مجده بفضل إعلان رسالة حضرة بهاء الله إلى الملوك والحكام ورجال الدين في كلا الشرق والغرب على السواء. وعلى أثر هذا النصر الذي لم يسبق له مثيل تأتي خاتمة أوجاعه، ألا وهي إخراجه إلى عكاء مستعمرة القصاص بأمر من السلطان عبد العزيز. وهؤلاء هم أعداء الدين الساهرون يهللون لهذا الإخراج ويعدونه نذيراً بالقضاء النهائي على هذا الخصم المخوف البغيض. ثم إذا بالمصائب من الداخل ومن الخارج تنهال على الدين في تلك المدينة ذات الأسوار المنيعة التي وصفها حضرة بهاء الله بأنها «سجنه الأعظم» كما لم تنهل من قبل. ومهما يكن من شيء فإننا نرى صياغة شرائع الدورة الجديدة وأحكامها وإعلان مبادئها الأساسية وتأكيدها وهي لحمة النظام الإداري المقبل وسداه، تمكنان الدين الناضج على مهل من أن يتقدم خطوة أبعد، على رغم أمواج الشدائد هذه، ويثمر أطيب ثمراته.

ها هو ذا صعود حضرة بهاء الله يزج بأنصاره المخلصين في غياهب الحزن والحيرة، وينعش آمال خاذلي أمره الذين عصوا سلطانه الإلهي، ويبهج قلوب خصومه من رجال الدين والسياسة ويشجّعهم. وها هي ذي الأداة التي صاغها، ألا وهي الميثاق الذي أبرمه بنفسه، تعمل بعد صعوده وتدير القوى التي أطلقها في غضون ولاية دامت أربعين سنة، فتحافظ الأداة على وحدة دينه وتمده بالدافع اللازم لدفعه لبلوغ مصيره. ثم يتلو إعلان ذلك الميثاق الجديد أزمة أخرى يحدثها ابن من أبنائه أنعم عليه، وفقاً لمواد تلك الأداة، بمقام لا يستأخر إلاّ عن مقام مركز الميثاق نفسه. وها هو ذا الدين المنيع، وقد سجل النصر الأول على ناقضي الميثاق، تدفعه القوى المتولدة من ظهور هذه الوثيقة الخالدة الفريدة، فيسطع نوره على الغرب تحت إمرة حضرة عبد البهاء، ويضيء أطراف أوروبا الغربية ويرفع لواءه في قلب القارة الأمريكية الشمالية، وينجز أعمالاً اختتمت بتحويل رفات مبشره إلى أرض المقصود ودفنها في مقام على جبل الكرمل، كما اختتمت بتشييد أول معابده

في تركستان الروسية. ثم ها هي ذي أزمة عظمى تأتي مسرعة عقب تلك الانتصارات الجبارة التي أحرزها الدين في كلا الشرق والغرب، وتُنسب إلى الدسائس الشنيعة التي دسّها الناقض الأكبر لميثاق حضرة بهاء الله وإلى الأوامر التي أصدرها عبد الحميد الطاغية، فإذا بها تعرّض قلب الدين ومركزه إلى الخطر المحدق ما يزيد عن سبعة أعوام وتملأ قلوب أتباعه بالقلق والكرب، وتؤجل تنفيذ المشروعات التي أعدت لنشر لوائه وتوطيد دعائمه. ها هي ذي رحلات حضرة عبد البهاء التاريخية إلى أوروبا وأمريكا بعد سقوط ذلك الطاغية مباشرة وتداعي نظامه، نراها تكيل لناقضي الميثاق ضربة وجيعة يترنحون من وقعها، وتوطد دعائم المشروع الجبار الذي أخذه على عاتقه في فواتح عهده، وتسمو بهيبة دين والده وحرمته إلى ذرى لم يبلغها من قبل قط، وتساعد على إعلان حقائقه ونشرها، وتمهّد الطريق لانسكاب نوره من الشرق الأقصى إلى قارة أستراليا. وها هي ذي أزمة خطيرة أخرى، وهي آخر ما قدّر للدين أن يعانيه في مركزه العالمي، يثيرها جمال باشا القاسي وتزيد من وطأتها متاعب الحرب العالمية المدمرة وما جرّت في أعقابها من حرمان وما أعقبت من قطع المواصلات؛ نراها تهدد رأس الدين نفسه بخطر أدهم، وكذلك حرماته المقدسة التي تضم بين جدرانها رفات مؤسسيه التوأمين. وها هو ذا إنزال ألواح الخطة الإلهية، إبان ذلك الصراع المحزن الحالك وأثناء السنين الختامية من ولاية حضرة عبد البهاء، نراه يزوّد أفراد زعيمة الجامعات البهائية في الغرب، وهم أقطاب النظام الإداري المقبل، برسالة عالمية كان من شأنها أن تسكب مجداً باقياً على الدين ومؤسساته الإدارية في خواتم القرن البهائي الأول. وها هي ذي نهاية ذلك الصراع الطويل المحزن تخيّب آمال ذلك الحاكم العسكري المستبد وتصيبه بهزيمة نكراء وتزيل إلى الأبد ذلك الخطر الذي ظلّل شبحه مؤسسي الدين ومركز ميثاقه خمساً وستين سنة، وتحقق النبوءات التي أوردها في آثاره حضرة بهاء الله، وتسمو بهيبة الدين وحرمة قائده حضرة عبد البهاء سمواً أكبر، وتتميز أخيراً بانتشار رسالته إلى قارة أستراليا.

ها هو ذا صعود حضرة عبد البهاء المباغت الذي يشير إلى نهاية العصر الأول من تاريخ الدين نراه يغيّب محبّيه المخلصين في غياهب الأسى والفزع كما كانت الحال لدى صعود والده، وينعش آمال أتباع ميرزا يحيى وميرزا محمد علي المنقرضين، ويثير النشاط المحموم لدى الخصوم السياسيين والدينيين الذين كانوا يتوقعون قرب انحلال الجامعات التي ألهمها مركز الميثاق إلهاماً عظيماً وقادها قيادة رشيدة. وها هو ذا إعلان وصيته وعهده المفتتح لعصر التكوين من الدور البهائي، ذلك الدستور الذي يوضح معالم نظام أعلنه حضرة الباب وكشف عنه حضرة بهاء الله، وبيّن شرائعه ومبادئه حضرة عبد البهاء، وألهم هذه الجامعات في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا إلى العمل بعزم، نراه يمكّنهم من أن يشيّدوا ويوطدوا أركان هيكل هذا النظام، وذلك بإنشائهم لمحافله المحلية والمركزية، ووضعهم دستوراً لتلك المحافل، وبحصولهم على اعتراف السلطات المدنية في الأقطار المختلفة بهذه الهيئات، وإنشائهم للمراكز الإدارية الرئيسة، وإقامتهم لبنيان أول معبد في الغرب، وإيقافهم أوقاف الدين وتوسيعهم لمجالها، وبحصولهم على اعتراف السلطات المدنية الكامل بطبيعة هذه الأوقاف الدينية في مركزه العالمي وفي القارة الأمريكية الشمالية أيضاً.

ثم ها هو ذا التجريح التاريخي الصارم الذي تفوّهت به المحكمة الشرعية في مصر عند بدء هذه العملية الجبارة، ألا وهي وضع أساس النظام الإداري العالمي البهائي، نراه يطرد من حظيرة الإسلام كل من كان في الأصل مسلماً من أتباع الدين طرداً رسمياً، ويعدّه مرتداً ملحداً، ويواجه أفراد الجامعة المضطهدة بامتحانات وأخطار لم يعرفوها من قبل. وها هو ذا الحكم الذي حكمت به المحكمة المدنية ببغداد، والذي حرّض عليه الأعداء من الشيعة في العراق، نراه يسلب الدين مزاراً من أقدس مزارات الحجاج، كما نرى الحكم الذي حكم به خصم أشد مراساً وأقسى عتوا في روسيا يحرم الدين من الاستفادة من أول معبد بادر بتأسيسه حضرة عبد البهاء وشيّده أتباعه

في غضون ولايته. وأخيراً ها هم أولاء أتباع حضرة بهاء الله يلهمهم ذلك الحكم الذي قضى به عدوّ مزمن، وكان بمثابة الخطوة الأولى من خطوات دينهم نحو التحرر الكامل، ولا تفت من عضدهم تلك الضربة المزدوجة الموجهة إلى مؤسساتهم، فيقومون، وقد اجتمعت كلمتهم واتحدت صفوفهم وزودتهم هيئات النظام الإداري الراسخ البنيان بالعتاد الكامل، ليتوجوا سجلات القرن البهائي الأول الخالدة بتوطيد أركان استقلال دينهم، وذلك بتنفيذهم الأحكام الأساسية المنصوص عليها في كتابهم «الكتاب الأقدس» والتماسهم اعتراف السلطات الحاكمة بحقهم في أن يعتبروا أتباع دين مستقل، وظفرهم بهذا الاعتراف في بعض الأحيان، وبحصولهم من أعلى محكمة عالمية على التنديد بالجور الذي عانوه على أيدي مغتصبي حقهم، وإقامتهم فيما لا يقل عن أربعة وثلاثين قطراً إضافياً، وثلاث عشرة مستعمرة، وبنشر كتبهم في تسع وعشرين لغة إضافية أخرى، وبإدراجهم ملكة من الملكات في عداد أنصار دينهم، وأخيراً بقيامهم بمشروع مكّنهم، والقرن يقترب من نهايته، من إتمام زينة معبدهم الثاني الخارجية، والانتهاء انتهاء ناجحاً من أولى مراحل الخطة التي رسمها حضرة عبد البهاء لنشر دينهم نشراً عالمياً منظماً.

إننا حين نستعرض سجل القرن العاصف بأكمله نرى الملوك والأباطرة والأمراء في كلا الشرق والغرب إمّا تجاهلوا نداء مؤسسيه أو هزأوا برسالتهما أو أمروا بنفيهما وإخراجهما أو اضطهدوا أتباعهما اضطهاداً بربرياً أو اجتهدوا في نقض تعاليمهما. فحلت بهم نقمة الله القدير وسخطه، فمنهم من ثلّ عرشه، ومنهم من شهد انقراض أسرته وقليل منهم من اغتيلوا أو انحطت منزلتهم ووصموا بالعار، بينما نجد بعضهم الآخر يعجزون عن تجنب الانحلال الجارف لممالكهم، وآخرين ينحطون وينزلون إلى دركات مهينة وهم في عقر دارهم. إليك الخلافة عدوة الدين الكبرى التي جردت السيف على مؤسسها وقضت بنفيه ثلاث مرات، تراها تنحط إلى الحضيض وتلاقي في تلاشيها المهين ما لاقى رجال الدين اليهود المضطهدون الرئيسون في

سبيل السيد المسيح على أيدي سادتهم الرومان في القرن الأول من الدور المسيحي، أي منذ ألفي سنة تقريباً. وإليك المذاهب الدينية المختلفة من شيعة وسنّة وزرادشتية ومسيحية تلك التي هاجمت الدين مهاجمة وحشية ووصمت أنصاره بالإلحاد، ولم تأل جهداً في تقويض بنيانه وهدم أساسه، ترى أعتاها وألدّها تخلع أو تتفكك وتنحل، ثم ترى هيبة بعضها الآخر وتأثيرها يضمحلان اضمحلالاً سريعاً. على أن هذه المذاهب كلها ما زالت تعاني من تسلّط سلطة دنيوية هجومية شكسة شديدة المراس قد صممت على أن تحد من امتيازاتها وتوطد أركان نفوذها هي وحدها. ثم إليك الرافضين والعصاة والخونة والملاحدة الذين طفقوا يبذلون قصارى الجهد سراً وعلانية في إفساد ولاء أتباع ذلك الدين وتصديع صفوفهم وانتهاك حرمة هيئاتهم ومؤسساتهم، تراهم يفحمون واحداً في أثر واحد، ويدحضون وتتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم ويكتسحون وينسون؛ البعض تدريجاً والبعض الآخر في سرعة مؤثرة. هذا، ولم يكن الذين سوّلت لهم أنفسهم أن يخرجوا عن ظله ويجروا عليه العار والشنار بفعالهم المخزية خزياً لا يمكن أن يمحى ويحدثوا أزمات لم يشهد مثلها دين من الأديان السابقة، هؤلاء لم يكونوا بالنفر القليل من زعمائه النابهين وأصحابه الأول المخلصين وأقطابه المبرزين وزملاء مؤسسيه في المنفى وكتّاب وحي حضرة بهاء الله ومركز ميثاقه الموثوق بهم وأمناء سرهما، لا بل من بين من كانوا يعدّون من ذوي قربى المظهر الإلهي نفسه بمن فيهم من رشّح أن يكون وصيّ حضرة الباب، وابن حضرة بهاء الله الذي ذكره في كتاب عهده. ولقد عجّل حدوث كل هذا الفساد بلا استثناء مراكزهم المحسودة التي احتلوها، ولقد عاش الكثير منهم ليرى بعينيه انهيار مساعيه، وانغمر البعض الآخر في حمأة الهوان والبؤس عاجزاً كل العجز عن إيذاء وحدة الدين الذي تخلى عنه بلا حياء أو عن إعاقة تقدمه. ثم إليك الوزراء والسفراء وغيرهم من كبار رجال الدولة الذين طفقوا يجاهدون في الكيد له وقلب غايته ويحرّضون على نفي مؤسسيه نفياً متوالياً ويحاولون في حقد أن يقوّضوا أساسه، تراهم كانوا يبحثون بأمثال هذه المكائد عن حتفهم بظلفهم

وهم لا يشعرون، ويفقدون ثقة ملوكهم ويشربون كأس الخزي حتى الثمالة، ويختمون على مصيرهم المحتوم ختماً لا رجعة فيه. ثم إليك الإنسانية نفسها، وهي التي أبت، لشدة ضلالها وقلة اكتراثها، أن تعير أذناً صاغية لما أصدره مؤسسا الدين التوأمان من نداءات ونطقا به من إنذارات أو لما أصدره مركز الميثاق فيما بعد ونطق به في خطاباته العامة في الغرب، تراها تخوض غمار حربين مدمرتين بائستين هائلتين لا سابق لهولهما، زعزعتا توازنها وحصدتا شبابها وهزتاها من جذورها هزاً. وإذا بالمستضعفين والمغمورين والمساكين يوالون هذا الأمر المكين ويستجيبون لندائه فيستطيعون أن يحرزوا من مفاخر الشجاعة ومآثر البطولة ما يعادل بل ما يسمو على مآثر الخالدين رجالاً ونساءً ممن تطرز أسماؤهم صفحات تاريخ الإنسانية الروحي بأسره.

وهكذا، فعلى الرغم من الضربات التي سددها المتمتعون بالسلطان الزمني والروحي من الخارج أو الأعداء الغلاظ القلب من الداخل إلى دين حضرة بهاء الله، فإن الدين كان أبعد من أن يتهشم أو ينثني، بل لقد تقدم من قوة إلى قوة ومن نصر إلى نصر، والواقع أن تاريخه يمكن أن يقال عنه، إذا قرئ قراءة صحيحة، إنّه يتألف من حلقات متعاقبة يتلو بعضها بعضاً؛ حلقات من أزمات تعقبها على الدوام حلقات أخرى من الانتصارات المتساجلة التي ما فتئت تقرّبه من مصيره الإلهي التقدير. فانفجار التعصب الوحشي الذي رحّب بمولد ظهور حضرة الباب، واعتقاله وأسره يعقبها صياغة أحكام دورته وإبرام ميثاقه وافتتاح تلك الدورة في بدشت وإعلان مقامه إعلاناً علنياً في تبريز. والانفجارات الواسعة المدى التي نجمت في الأقاليم وقتل حضرة الباب وما تلاه من سفك الدماء وحبس حضرة بهاء الله في سياه چال يعقبه تنفس فجر الظهور البهائي في تلك الزنزانة، ونفي حضرة بهاء الله إلى العراق واعتكافه في كردستان وما أصاب أصحابه من اضطراب وقنوط في بغداد يعقبه بدوره إحياء الجامعة البابية إحياء ينتهي بإعلان رسالته في الحديقة النجيبية. وفرمان السلطان عبد العزيز الذي استدعاه به إلى الآستانة، والأزمات التي أحدثها ميرزا يحيى يعقبهما إعلان تلك الرسالة إلى رؤوس العالم المتوّجة

وزعمائه الروحانيين، ونفي حضرة بهاء الله إلى عكاء مستعمرة القصاص بكل ما أحاط بهذا النفي من متاعب ومشقات يفضي بدوره إلى إعلان أحكام دورته وشريعته وإبرام ميثاقه وهو آخر أعماله في حياته. والامتحانات الجهنمية التي نشأت عن خروج ميرزا محمد علي وخلطائه يعقبها دخول دين حضرة بهاء الله إلى الغرب وتحويل رفات حضرة الباب إلى أرض المقصود. واستئناف حبس حضرة عبد البهاء وما ترتب عليه من أخطار ومتاعب وهواجس ينتهي بسقوط عبد الحميد وإطلاق سراح حضرة عبد البهاء وإيداع رفات حضرة الباب في جبل الكرمل، ثم بالرحلات الظافرة التي قام بها مركز الميثاق بنفسه في أوروبا وأمريكا، واندلاع نيران الحرب العالمية وتطور الأخطار التي عرّضه لها جمال باشا وناقضو الميثاق يفضي إلى إنزاله ألواح الخطة الإلٰهية، وفرار ذلك القائد المتغطرس، وتحرير أرض المقصود والسموّ بهيبة الدين في مركزه العالمي، وإلى توسع ملحوظ في فعالياته في كلا الشرق والغرب. وصعود حضرة عبد البهاء وما أحدث فقدانه من اضطراب يتلوه إعلان وصيّته وعهده، وافتتاح عصر التكوين من الدور البهائي، ووضع أسس النظام الإداري العالمي، ثم استيلاء ناقضي العهد على مفاتيح ضريح حضرة بهاء الله واحتلال الشيعة لبيته في بغداد عنوة، وانفجار الاضطهاد في روسيا وطرد الجامعة البهائية من حظيرة الإسلام في مصر، يعقبه تأكيد أتباع الدين في كلا الشرق والغرب لاستقلاله، والاعتراف بهذا الاستقلال في مركزه العالمي، وحكم مجلس عصبة الأمم بعدالة مطالبه، كما يتلوه توسع ملحوظ في فعاليات التبليغ العالمي ومؤلفاته والشهادات الملكية بأصله الإلٰهي وإتمام الزينة الخارجية لأول معابده في العالم الغربي.

والواقع أن الشدائد التي اكتنفت تقدم دين حضرة بهاء الله وتفتّحه تفوق في جسامتها وخطورتها تلك التي عانتها الأديان السالفة. إلاّ أن هذه الشدائد عجزت عجزاً كلياً، على نقيض الحال في تلك الديانات السالفة، عن أن تؤذي وحدته أو تصدع، ولو لزمن قصير، صفوف أتباعه. ولم يستطع هذا الدين أن يحيى بعد هذه الشدائد فحسب بل استطاع أيضاً أن يخرج منها

متطهراً سليماً مزوّداً بقدرة أعظم تعينه على مواجهة ومغالبة أيّة أزمة قد يحدثها تقدمه الحثيث في المستقبل.

عظيمة حقاً كانت تلك الأعمال التي أتمّها هذا الدين القاهر الغلاّب، والانتصارات التي أحرزها في غضون قرن واحد رغم ابتلائه بالامتحانات الشديدة، وأعظم منها أعماله التي لم تتم بعد وانتصاراته المقبلة إذ يقف على أعتاب القرن الثاني. أجل لقد أفلح في خلال السنوات المائة الأولى القصار من حياته في إفاضة نوره على القارات الخمس، وتشييد مراكزه الأمامية في أقصى أركان الأرض، وإبرام ميثاقه مع الجنس البشري كله إبراماً متيناً وإقامة هيكل النظام الإداري العالمي وتحطيم كثير من القيود المعوقة لتحريره الكامل، واعتراف العالم جميعاً به، وتسجيل أول انتصاراته على خصومه من الملكيين والسياسيين ورجال الدين، وبدأ بأوّل حملة من جهاده الروحانيّ المنظم لفتح الكوكب بأسره فتحاً روحياً.

إلا أننا لا نزال نرى أنه لم تتأسس بعد تلك الهيئة التي من شأنها أن تؤلف المرحلة النهائية في بناء صرح نظامه الإداري العالمي وتعمل جنباً إلى جنب مع مركزه الروحي العالمي. ونرى أنه لم يكمل بعد ذلك التحرير الكامل للدين نفسه من أغلال التزمّت الديني وهو المطلب الجوهري للاعتراف العالمي به ولظهور نظامه العالمي. ونرى أنه لم تشن بعد تلك الحملات المتلاحقة المراد بها إبلاغ تأثيره الخيّر إلى كل قطر وجزيرة لم يوضع فيها إلى الآن أساس نظامه الإداري وفقاً لخطة حضرة عبد البهاء. ونرى أنه لم ترفع بعد راية «يا بهاء الأبهى» التي يجب أن ترفرف، كما تنبأ، على مآذن أول معهد من معاهد العلم في العالم الإسلامي. ونرى أنه لم يستردّ بعد ذلك البيت الأعظم الذي أمر حضرة بهاء الله في كتابه الأقدس أن يكون مطافاً للحج. ونرى أنه لم يشيّد بعد مشرق الأذكار الثالث الذي يقام تمجيداً له، والذي اشتريت أرضه أخيراً، كما لم تشيّد بعد ملحقات مشرقي الأذكار اللذين شيّدا فعلاً في المشرق والمغرب. وهذه هي القبة، وهي الوحدة الأخيرة التي تتوّج مقام حضرة الباب كما تنبأ حضرة عبد البهاء، نراها لم تتم بعد. وهذا استخلاص القوانين من الكتاب الأقدس أمّ الكتاب في الدين البهائي ونشر

أحكامه وشرائعه نشراً منظماً نراه لم يبدأ بعد. ونرى أن التدابير الأولى لإقامة محاكم بهائية مزوّدة بالحق القانوني في تطبيق تلك الشرائع والأحكام وتنفيذها لم تتخذ بعد، ونرى استعادة أول «مشرق الأذكار» قام في العالم البهائي، وإحياء الجامعة التي أخلصت في إقامته من الأمور التي لم تتم بعد. ونرى أنه لم يكتشف بعد ذلك الملك الذي يجب أن ينهض، كما تنبأ حضرة بهاء الله في كتابه الأقدس، ويزين عرش موطنه [إيران] ويلقي ظل الحماية الملكية على أتباعه الذين طال بهم الاضطهاد. ونرى أنه لم يبدأ بعد هذا الصراع الذي يجب أن يحدث نتيجة الهجمات الشعواء التي سوف يشنها، كما تنبأ حضرة عبد البهاء، أقطاب الأديان الذين ما زالوا غير مكترثين لتقدم الدين. وهذا عصر الدين الذهبي الذي يجب أن يشهد توحيد جميع شعوب العالم وأممه وتأسيس السلام الأعظم وافتتاح ملكوت الأب على الأرض، ويرى بلوغ الجنس البشري سن الرشد ومولد الحضارة العالمية التي تلهمها وتوجهها القوى الخلاّقة التي أطلقها نظام حضرة بهاء الله العالمي المشرق في أوج عزه لم يولد بعد، ولم تلمح مفاخره.

ومهما يصيب دين الله الجديد هذا في عشرات السنين المقبلة أو في القرون القادمة، ومهما ينبعث في المرحلة الثانية من مراحل تطوره العالمي من أحزان وأخطار وشدائد، ومهما يكن الفج الذي يشن منه خصومه الحاليون أو المقبلون هجماتهم، ومهما تعظم الكوارث والأرزاء التي قد يعانيها، فإننا نحن الذين امتزنا بأن ندرك دلالة هذه الظواهر العجيبة المتصلة بنهضته وتأسيسه، بكل ما تستطيع عقولنا المحدودة أن تتعمق، لا تخامرنا شبة من شك في أن ما قد أتمه الدين فعلاً في السنوات المائة الأولى من حياته يزودنا بالضمان الكافي الدال على استمرار تقدمه، مصعداً إلى ذروات أعلى، محطماً لكل عقبة تعيق تقدمه فاتحاً آفاقاً جديدة، ظافراً بانتصارات أعظم إلى أن تتحقق رسالته المجيدة الممتدة في تضاعيف المستقبل المترامي تحققاً كاملاً.

مسرد الأعلام والأمكنة والكتب

الأعلام

ـ أ ـ

- ب -

- ث -

- ج -

- ح -

- ز -

- س -

ـ ك ـ

ـ هـ ـ

- ي -

الأمكنة

ـ أ ـ

-ح-

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ق -

- م -

- ي -

الآثار الكتابية البهائية
والكتب الأخرى

المحتوى

القرن البديع

God Passes By